

رسم پیکاستو

الشاعر أوفيد



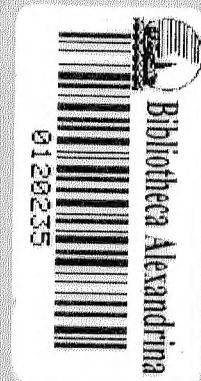
# مسح الكائنات

ميثامورفوزس  
التحولات

ترجمة وتقديم له

د. ثروت عكاشة

راية على الأصل اللاتيني  
د. محمدى وهيبه





مسح الكائنات

الطبعة الثالثة

الشاعر أوقييد  
رسوم بيكاستو

# مسح الكائنات

”ميثامورفوزس“

ترجمه و قدم له  
د. ثروت عكاشه

راجعته على الأمل اللاتيني  
د. مجدى وهبه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

صمم الغلاف : حسن عثمان

# تقديم

## ١

إنّ إذ أقدم هذا العمل « مسخ الكائنات METAMORPHOSES » من تأليف « بوبليوس أوفيدئوس ناسو PUBLIUS OVIDIUS NASO » إلى قراء اللغة العربية أحسنّ بالحاجة إلى أن أمهد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى ، كما أعرف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً ، وما تركه من أثر في شتى المجالات . وحسبى فيها سأقدم من أعمال أوفيد أننى سأتيح للقارئ أن تقع عيناه على قصص يسحر الوجدان وتفكره أن يشرّد في عالم أسطوري رحب . ولست أحسب في ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوار ويترنّح محلّقاً في عالم الخيال الخصب .

ويروى هذا الكتاب جملة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق السابقة ومن التراث الشعبي الروماني نفسه ، تجعلنا نتبين حقيقته ونقف على مدى صلته بثقافتنا الحاضرة . وكم كان الدارس لثقافة اليونان والرومان في فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثّر في دراسته لتعدّد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزمعتها ، ولكثرة أسماء الآلهة المتكرّرة هنا وهناك . وقد أدّى الجهل بحقيقة الأسماء وصلتها بحضارة اليونان أو بعقائدهم الدينية إلى قلة الإقبال على دراستها . ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذي حال بين العرب الأقدمين وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم ، والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها خلّو من الأساطير المعقّدة التي تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية .

ودور الأسطورة في الأدب القديم والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان ، أفاض فيه الكتاب والمؤرخون بما لا يحتاج إلى مزيد . والواقع أن الأسطورة قامت بأكثر من دور ، فكانت في صورها المحلية حكايات يقصد بها التربية والتثقيف ، واعتاد التلاميذ في المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب . ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرتهم للمفسدين للفكر .

غير أن الأسطورة عادت وظهرت في شكل جديد وقد تحوّلت إلى تراجيديا ، وصار هذا التحول نفسه نقطة تغيير واضحة ووجهة نظر جديدة في الأسلوب الأسطوري نفسه . ولم تعد التراجيديا حكاية من الحكايات ، بل تأملا في موضوع بذاته أو في حدث من أحداث روائية مسلسلة ، وامتاز هذا التأمل أول الأمر بالغنائية معبراً مع ذلك عن مآسى الحروب وويلات الحياة الإنسانية في صراعها الضارى .

ولم يلبث كل من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريبيديس أن أسهموا في كتابة التراجيديا غير أن عنايتهما بأن تكون هذه التراجيديا عملاً أدبياً عدلت كثيراً من تكوين الأسطورة نفسها وغيّرت من طريقة سردها . فكانت بعض الشخصيات تحظى باهتمام لم تحظ به في الحكاية الأصلية ، كما كان الضوء يُسلط فجأة على بعض المظاهر أو الطباع التي ليس لها نظير في القصة القديمة . ولا شك أن الأهداف الأدبية التي كان يتطلع إليها المؤلف المسرحي هي التي كانت تؤدي إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر . ولكن لا شك أيضاً في أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسعى إلى تثبيت عدد من المعانى الفكرية والفنية قد أسهما في إحداث تغيير جوهري في طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبي والفنى .

ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد أثر في تحوير الأسطورة من أجل استخدامها الفكرى استخداماً لم تعرفه من قبل ، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة في حمل أعباء الفكر الفلسفى إلى جانب الاهتمام بالمعانى الأدبية الخالصة . وعندما اتسع المجال في استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التي تُفَلِّتُ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية .

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معان معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبرة وطاقه روحية تهدف إلى تغيير القيم في المجتمع . ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وسأرت التاريخ ، حتى إن كُتِّبَ عصر النهضة وكتب القرن الثانى عشر بأوروبا ورواد الآداب الحديثة والمعاصرة لجأوا إلى إحياء الأساطير القديمة وتناولوا وقائعها وشخصياتها في رواياتهم الحديثة في ظلّ فلسفات العصر .

ومن الصعب أن نتعقّب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتب المسرح ، ولكننا لا نكاد نلقى نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين : أولهما أثر الأسطورة في إحياء بعض المعانى ، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأسماء الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعانى الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً ، فنجد راسين مثلاً يعيد في مسرحيته « صحراء طيبة » أو « الأخوة الأعداء » عام ١٦٦٤ إحياء الموضوع القديم نفسه الذى أثاره أيسخولوس في مسرحيته « السبعة ضد طيبة » ، وهو الموضوع نفسه الذى تناوله أوريبيديس في مسرحية « الفينيقيات » ، كما تناول راسين أيضاً موضوع « إيفيجينيا » الذى تناوله أوريبيديس من قبل . وصار من المألوف حتى أيامنا هذه مشاهدة

تفسير حديث للتراجيديا القديمة ممثلة في الأسماء الأسطورية أو في الأبطال القدماء أو الآلهة . ولهذا تناول  
چيروودو « إلكترا » تناولاً جديداً ، كما تناولها سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً في مسرحيته « الذباب » .

ولست أحاول هنا أن أتبع كل الأماد والمجالات التي استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً  
مستحدثاً ، ولكني أحاول أولاً أن أؤكد أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور في  
مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر ، وأحاول ثانياً أن أقنع القارئ المعاصر بأنه بحاجة ماسة  
إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة ، حتى يتسنى له قراءة الآداب الحديثة وفهمها ومعرفة ما  
يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد في المناسبات المعاصرة . ويكفى أن  
نعرف مدى المرونة التي تحملها الأسطورة القديمة في التعبير عن الأفكار والمعاني من استخدام سارتر  
لأسطورة « أورستيس » في شرح بعض مبادئ فلسفته الوجودية ، وذلك في أحلك الأوقات التي مرت بها  
فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن احتلتها ألمانيا النازية .

## ٢

ولد أوفيد في مدينة سولونه على بعد تسعين كيلو متراً شرقى روما ، وكان مولده سنة ٤٣ قبل  
الميلاد ، ويعتد آخر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطين » ، وهم جملة من الشعراء  
الرومانيين الذين سجلوا أشعارهم وأتموا أعمالهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ، وهي  
المدة التي كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطوراً لروما . وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة  
باستثناء ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق ، وهو  
العصر الذي عرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطى هو ما حققه  
فيرجيل في « الإنيادة » ، [ ٧٠ ق.م. — ١٩ ق.م. ] ، تلك الملحمة المشهورة التي أعدت على نمط إلياذة  
هوميرس ، ثم أشربت بعض المعاني والملاحم الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة ، وقد  
كان فرجيل صديقاً لأوفيد .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [ هوراتيوس ] الذي عاش بين سنة ٦٥ ق.م. وسنة ٨ ميلادية ،  
وتميز شعره بروح غنائية ، واستخدم عروضاً شعرية يونانية خاصة بالأغاني القديمة ، وأعاد تناول بعض  
الموضوعات والأفكار التي سادت في أشعار الإغريق القدماء ، وكان هو الآخر صديقاً لأوفيد . ومن  
الشعراء المبرزين أيضاً في هذه الفترة پروپروتوريوس المعاصر للشاعر هوراس ، وكان شعره تقليدياً ومجازة  
للشعر المتأغرق .

أما شاعرنا أوفيد المتوفى سنة ١٨ م بمنفاه « توميس » على البحر الأسود [ كونستانزا برومانيا حالياً ] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپروتوس ، وما لبث أن واصل رسالته الفنية متّسماً ببساطة ميّزته عن كل من عداه من شعراء تلك الفترة .

ونستطيع استقراء كل شيء عن حياة أوفيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره . فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه ، وهو القائل في كتابه « فن الهوى » : « فليسعد غيرى بأن يجترّ ذكريات الماضي ، أما أنا فأهنيء نفسي لأنى ولدت في هذا العصر الذى يلائم طبعى ومزاجى » .

وكان أبوه قد أعدّه وربّاه ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية فى الدولة ، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث كان يختلف إلى المدارس ، يتلقى العلم على أيدي الأساتذة المشهورين غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسّه فيما كان يتعلمه على أيدي هؤلاء المعلمين ، وأحس بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحقّة وعن ميوله الذاتية فى صناعة الشعر ونظمه ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه خلّق للشعر وأن الشعر يتدفّق من بين شفتيه كما يتدفّق الماء الرائق من ينبوع الصافى . وأخذ بعد ذلك يلقي رجال الأدب فى روما وشُغل بالتعرّف عليهم دون أن يُغفل متع الحياة ولذاتها فى مدينة كبيرة مثل روما ، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلّان على حظ من الدعابة والمرح .

وكان عهد الامبراطور أوغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح ، وعهد تنفيذ للمشروعات المعمارية الكبرى وتشجيع للآداب والفنون بعد أن أشاع روح السلام فى ربوع البلاد . ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس ، فأخذوا ينهلون من ألوان السعادة والمتعة دون تحوّف أو قلق . وامتلات ردهات الأدب بالعديد من الكتاب ، كما اكتظت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التى تناسب مواهبهم وتصادف هوى فى نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة .

وهكذا هيأت الظروف لأوفيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه أن يتحرّر من ثقل الوظائف الإدارية ، فترك لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى .

### ٣

وكانت أولى أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمى « بالغزليات » Amores وهو مجموعة من القصائد التى تدور موضوعاتها حول المعانى الغزلية — كما يشى عنوان الديوان — أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة فى غصون القصائد ، الأمر الذى ينبىء عن مدى إلمام أوفيد المبكّر بالأساطير اليونانية التى



ديلا كروا : اولئيد في منفاه بسكوذيا

مجموعة خاصة - سويسره



اعتاد أن يقتبس منها في أشعاره الغزلية بما يجمّلها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية ، إلّا أن أوفيد كان يتعمّد أن يسبغ على هذه العناصر الأسطورية التي يقتبسها في أشعاره نضارة فياضة ، كما اعتاد أن يضيف على الأساطير القديمة حيوية وشباباً متجدّداً . وقد نظّم قصائده على الوزن الإيليجي ، وهو الوزن الذي يتكون من بيتين أحدهما سداسي والآخر خماسي .

وقد شبّب في « غزلياته » بعشيقته أسماها « كورينا » يعتقد النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية ، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتي عرفهن . وقد كان أوفيد سريع الوثوب إلى المغامرات العاطفية ، ولو أننا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلاً من الحقيقة لاستقر في نفوسنا أنه هام بمُحصّات إلى جانب العذارى ، وأنه عرف الخليعات كما استمال إليه الخرائر .

وقد قسّم غزلياته إلى كتب ثلاثة<sup>(١)</sup> : تحدث في أولها عن وقوعه في أسر كيويدي إله الحب ، الذي صرفه عن الحديث الحرب إلى الخوض في قصص الهوى ، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعا بوجوده وبخليعة حاول أن يطهرها من دنسها . وتحدث في الكتاب الثاني عن عبوديته لمعشوقته التي اجتاحتها رغبة في هجر المدينة التي كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها ، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيانه لعشيقته مع وصيفتها . ثم نجده في الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته ، كما يصف لحظات أخرى نعم فيها بمتعة اللقاء .

وجاء ديوانه الثاني « البطلات » Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على لسان نساء شاعت مآسى غرامياتهن في عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، فضمّن رسالة « نيلوبى » إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تباريح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذي احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته . وعرض في رسالة الحورية « إينونية » مأساة انصراف حبيبها « باريس » عنها وانشغال قلبه « هيلينا » التي اتخذ منها زوجة له . ونقرأ في رسالة الأسيرة « بريزيس » عتاباً لأخيّل الذي سعدت بأن تكون محظيته فلم يتحمس لاستردادها حين طمع فيها الملك « أجامنون » . وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لتلك البراعة التي لا تجارى في السرد القصصى وعمق الإلام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة .

ثم ظهر كتابه الثالث « فن الهوى » Ars Amatoria<sup>(٢)</sup> في العام الميلادي الأول في أسلوب تعليمي جذاب ، وقد قسّمه إلى ثلاثة كتب تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصص الثالث للنصائح الموجهة للإناث .

(١) جرت العادة لدى الكتاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم « كتاب Liber » .

(٢) « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ، وراجعته على الأصل اللاتيني د. مجدى وهبه . الطبعة الأولى : دار الشروق ببيروت ١٩٧٣ . الطبعة الثانية والثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و ١٩٩١ على التوالي .

والأول توجيه للرجل إلى البحث الذكى الدعوب عن المرأة الجديدة بهواه ، ثم عن طريقة التعرف بها واستمالتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة البارة والاهتمام بأناقة المظهر .

والكتاب الثانى تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه ، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرزين .

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد أن تغزو بهواها القلوب وإرشادها للطريق المثالى الذى يجعل منها امرأة جذابة فى كلمتها ومشيئها ولففتها وزينتها .

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى الغرام بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتحلّى بالمعارف والفنون التى يعتبرها أوفيد أشد تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الحلى والجواهر . هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تنمو فيه أسس العلاقات بين الرجال والنساء ، وترقى فيه العادات والتقاليد ، ويصقل فيه الحس ويكتمل فيه الذوق الرفيع .

ثم فاجأ أوفيد قراءه الذين كانوا يتلقفون كتبه السابقة بكتاب يمثل الوجه الآخر لكل ما سبق وقدمه ، فطالعهم بـ « سلوان الحب » Remedia Amoris يستحث فيه الناس على أطراح الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالزراعة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة ، وينصح فيه العشاق بنسيان تجارب غرامهم والتخلص من ذكرياتهم ، رسائل كانت أو صوراً . ولم يكن إقدام أوفيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلا محاولة لتهدئة الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمتزمتين من الحكام ممن ثاروا عليه واعتبروا كتبه دعوة إلى الفجور والانحلال .

ثم تحدث أوفيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليمية طويلة مقسمة إلى إثني عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصاً بشهر من شهور السنة وسماها « التقويم » Fasti ، ورجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك . غير أنه للأسف لم يُعثر إلا على ستة أجزاء منه ، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم وفقد نصفه أو احترق ضمن ما حرقه يوم نفى من روما ، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة .

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراجمية أهله لكتابه مأساته الرائعة عن « ميديا » التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً ضخماً آنذاك ، وإن لم يبق منها شيء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الرومانى . ويبدو من حديث المعقّين فى ذلك الوقت أنها كانت نفحة شعرية ممتازة ، وإن لم يشجعه ذلك على الاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبى . ثم ما لبث أن ظهر كتاب « مسخ الكائنات » الذى نقدم ترجمته العربية هنا .

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس أوفيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب « فن الهوى » ، وكذب شاعرنا هذا ، وقال إنما نفى لإذاعته سرّاً من الأسرار لا لهذا الادعاء .

ومما يَذكر عن أوفيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً في لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة قد ألقى بكتابه كله عن « مسخ الكائنات » في النار معبراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعري . ولعله كان يحاول تقليد الشاعر فيرجيل الذي مات قبل أن يختتم ملحمة « الإنيادة » ، وإذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا حاول التخلص منها ولكن جيل بينه وبين ذلك . غير أن أوفيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية في التخلص من الكتاب .

وواصل أوفيد بعد ذلك الكتابة من منفاه ، فدوّن أشعاراً كثيرة جميلة مصقولة ملتصقة بالعرف والعفوان ، وسجّل في أشعاره كل ما شهدته في منفاه من صور الهول والفرع . ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذي كان يرجوه ، وظل يواصل كتابة أشعاره ، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والاكتئاب في كتابه « المنظومات الحزينة » و « رسائل من پونتس » ، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكتابة التي انتابته أول الأمر ، وإن لم تكن مع ذلك نخطيء نغمة الحنين التي ظلت واضحة في كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة ، فقد طبعنا كل ما نظمه من القصائد في منفاه ، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم في حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية .

وقد استهل « أوفيد » أعمال منفاه بمدينة « توميس » بكتاب « المنظومات الحزينة » Tristia الذي يصوّر عنوانه مضمونه المثلث بأسى الوحدة وشقاء الغربة ، وقسمه إلى خمسة أجزاء وجّه ثانيها إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التي ألصقتها به بعضهم بعد نشره كتاب « فن الهوى » الذي اعتبر تحريضاً على الفسق والفجور ، ويستعطف الامبراطور أن يخفف من قسوة عقابه وأن يبدله من « توميس » مدينة أرحب وأفسح لمواهبه الأدبية .

أما أجزاء الكتاب الأخرى فهي مجموعة من الرسائل الشعرية وجّهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه ، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه في محنته التي كانت تطحنه بلا رفق .

وكأنما لم يخفّف كتاب « المنظومات الحزينة » شيئاً من وحدة أوفيد ، فوضع كتاباً ثانياً أسماه « رسائل من پونتس » Epistulae ex Ponto يضمّ أربعة كتب تحوى رسائل شعرية وجّهها هي الأخرى إلى أصحابه ، لكنه في هذه المرة صدّرها بأسمائهم الحقيقية . وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما يحمله من عذاب تذوّب له القلوب ، لولا ما فيها من إسهاب يُؤنّ من وطأة أساه في نفس القارئ .

ولم تكن كتابات أوفيد في منفاه كلها حزناً وشكوى ، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها « إيبس » Ibis أي طائر أبو منجل المائي المعروف باسم أبي قردان ، وفي هذا الكتاب يصبّ جام غضبه على رجلٍ لم يُسمّه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله في غيبته . ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة في السبّ لأنه

يضم مجموعة نادرة من اللعنات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .

ومات أوفيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته .

\* \* \* \*

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدة :

أولها : إحساسى بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثل فيها الأساطير وتشيع فيها الحكايات الخرافية التى تجلو لنا ما كانت عليه آلهة الإغريق والرومان وغيرهما من أبناء الحضارة القديمة .

ثانيا : أن هذا الكتاب يروى قصة هذه الأساطير بأسلوب شعرى متدفق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارئ وترسخ أسماء الآلهة والأبطال فى ذهنه ، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة أخرى فى قراءته للآداب القديمة أو الآداب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز والإيماء إلى أدوار محدّدة أو وقائع معينة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العلمى عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبى رائع أو لما اختص به من موضوع جذاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية على مرّ التاريخ وتذوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوفيد يعنى هنا بموضوع واحد يخلص عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السمة المميزة ، وهو موضوع تغير صور الكائنات الحيّة وأشكالها وتحوّلها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر قصص هذه التحوّلات ويرويها عن أصلها مع ما يضيفه على أسلوبها من الأداء الأدبى الممتاز ومن الشاعرية الملهمّة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى أنتجها الأدباء والشعراء الرومان .

وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسى هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيتهم خلال المراحل الأولى . ولكننا لا نملك بعد قراءتها إلا أن نعترف بقيمة المجهود الفذّ الذى بذله الشاعر أوفيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة وبعث فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة وُسْر حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجامع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرأها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبياً ثراً يعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لا يزال يقرؤه ويتطلع إليه الجميع في كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام في فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البياني فهو ينبض بنضارة العالم الأسطوري الذي يصفه شعره القصصي الجذاب .

وقد وصف كوينتيليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحماً لخلوه من التكوين الموحد الضروري في حالة الملحمة . وفي الحق إن أوفيد قد نجح في أن يخلق من هذا العمل الشعري الذي يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغاً في وزن سداسي التفعيلات بناءً محكماً أتاح للقارئ الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط في ترتيب الكتاب .

وفي هذا الكتاب يبدأ الشاعر بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود ، ثم يمضي فيتحدث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العما إلى انبثاق الحياة ، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصر بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام . وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة : العصر الذهبي والعصر الفضي وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذي تجلّى فيه للبشرية وجودها الكامل . وكان جوبيتر [ زيوس ] هو الذي أنهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمى إلى حيوان ، وهو ليكاوون ، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وآثام . وعندما شرع العمالقة في هزّ عرش الآلهة إلّا أن جوبيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع أن يقضى على محاولتهم . وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشري بأكمله قاصداً إنهاء عصر وبدء آخر ، فراح يرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض ، فلا يبقى سوى ديوكاليون وبيرا لتعمير الأرض من جديد بعد الطوفان .

وقد بدأت أول ما بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث ، ثم استرسلت بعد هذا ، فنرى أبوللو وهو يفتك بالأفعوان بيثون الهائل ، ثم إذا هو يقع في غرامه بدافني . ومن هنا أخذت تبدو غراميات الآلهة وغدت تتوالى في صور مختلفة وصفها أوفيد خلال الكتب الخمسة الأولى [ أى الفصول الخمسة ] في كتابه عن مسخ الكائنات حتى منتصف الفصل السادس ، لينتقل بعد ذلك إلى موضوعات تتصل بأبطال اليونان القديمة مثل جاسون وثيسيوس وأضرابها حتى حرب طراودة .

ويستمر أوفيد على هذا النحو في سرد البطولات الخالدة ابتداء من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتصل بحياة الملوك . وفي نهاية الكتاب ترد على لسان أوفيد قصة تحول يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة ، التي كتبها على سبيل الإطراء للإمبراطور الحاكم واستنداراً لعطفه .

ولقد تميّز هذا الكتاب « مسخ الكائنات » في مجموعته بحشد هائل من القصص الخرافية المصوغ في أسلوب شعري توفّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافئة . ولا يكاد المرء

يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال بيجاليون أو كاليستو أو فينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة في تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء كبير في النفاذ إلى الطبيعة البشرية في خضم المعارك اليومية .

وليست أحداث الأساطير كلها التي جاءت على لسان أوفيد ذات صلة بالتحوّلات الخَلْقِيَّة وحدها ، بل كان الكثير مما يرد في غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة في بعث السرور في القلوب ، من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هدّه العشق والهوى . ويمضي أوفيد فيربط بين هذه القصة وبين قصة الإله سيريس وپروسيرپينا [ پيرسيفوني ] رغبة منه في إحداث تأثير ما في نفسية القارئ بما امتلأت به هذه القصة من ألم دافق وحزن عميق على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات .

وهذه الفكرة في انتقاء مجموعات من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوفيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصر المتأغرق ، فقد شاعت بينهم مجموعات خرافية تتناول موضوع تحوّل الأدميين إلى طيور ، كما وُجدت مجموعات أخرى لأساطير مشابهة في اليونان القديمة . ولا شك في أن أوفيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره ، لأن فكرة المجموعات الأسطورية من هذا القبيل عُرفت من قبله ، ولكن من العسير أن نعرف إلى أي حدّ كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على عمله . غير أنه مما يبعث على الإعجاب بشخصية أوفيد طريقته الفنية الحاذقة في ربط هذه الحكايات بعضها ببعض الآخر ، فليس ثمة رباط بين الحكايات التي يرويها أوفيد ، ولكنه استطاع بما أوتيّه من المهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة ، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف . فيستغل أوفيد هذه المشابهات في إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها ، وليس فيما بين هذا الربط الفني تلفيق أو تكلف إلا في القليل النادر . ومن هنا تجلّت في الكتاب وحدة جامعة ، خاصة أنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً درامياً سليماً . لقد استطاع أن يربط بين الأساطير بطريقة شاعرية كي يبعث في نفوس المستمعين إحساساً واضحاً بالصلة العميقة القوية بين حياة البشر والوجود الطبيعي من حولهم الذي يضم سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد في وقت واحد ، تلك الرابطة التي تصل بين الإنسان والكون المحيط به ، وهي الأساس الذي بنى عليه هذا الموضوع ، وأصبح عاملاً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفتي الكتاب ، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان في عالم الطبيعة الحيّة هي الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها في هذا الأسلوب العذب الجزل .

ويتكرر ورود أسماء الآلهة لأنها تكاد تشترك في معظم الأحداث ، فچوبيتر هو مصدر التهديد الدائم للحواريات من ناحية وللعداري من ناحية أخرى ، كما يرد دائماً ذكر أبوللو وميروكوريوس دون أن يُحاطا خلال الأقاليص التي يرويها أوفيد بهالة القدسية والتقدير . وليس هذا الموقف مستحدثاً فقد جرت العادة على ذلك منذ أقدم العصور كما هي الحال مع هوميروس الذي لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة

الأوليمپوس الذين يرتكبون كل الخطايا التي يرتكبها البشر ، ويلهون مثل الناس ويقعون أحياناً فريسة للغیظ والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراسة . وهو ما أتاح لأوفید أن يستغل خياله في تصوير هذه الأحداث المتصلة بالآلهة ، وأن يستفيد من هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة – فضلاً عن السخرية – لدى قرائه ومستمعيه . فَيَرِدُ كلام الآلهة كما يَرِدُ كلام البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطال في مسرحية كبيرة يعدّها القدر ، ويرسم خطوطها المصير المحرّك لكل ما يجري في الكون من أحداث ، ويسيرها القضاء المحتوم بإرادته ، ويخضع لها الصغار والكبار بما في ذلك الآلهة والأبطال على السواء .

واعتماد أوفید أن يكرّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارئ غضاضة في ذلك ، بل قد يجد في هذا التكرار نوعاً من الأنس والطرب المستحبّ ، فلم يكن ينقص أوفید براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب في بعض الأحيان .

ولم يتخلّف أوفید عن أن يسمو بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع الجميل المرفف . فيبدأ الفصل الأول – كما أسلفت – بعبارات عليها مسحة من جلال إذ هي تتّصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو في مرحلة النشوء والتطور ، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة ، وهو ما يصدق أيضاً على الفصل الخامس عشر ، لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية . ومن هنا تتهدّر الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ریح الشمال ، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ ديونيسوس ] إله الخمر ، وفيما بين هذا وذاك تمضي الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة ودیعة حتى تكاد تبلغ في عدوبتها همس الموسيقى .

ويسرد أوفید في الفصل الخامس عشر حديثاً مُسهباً للفيلسوف اليوناني پيثا جوراس ، متبنيًا فلسفته الشاعرية الحاملة مُعارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التي كانت شائعة في وقته . وقد أورد قبل ذلك بعض الآراء التي تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التي قال بها پيثا جوراس خلال حديثه عن مسخ الكائنات ، كأنما يلتمس فيها تعصيذاً وتبريراً لما يتعرّض له موضوعه الشعري في هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال ، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً . ولكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حق جلالة لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية ، ثم ما كان منه من عدم ميل إلى أن يضحى بأناقة العمل الشعري من أجل بسط بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية ، وكان أوفید يتجنب دوماً أن تغطي الأفكار أو الموضوعات على التعبير الشعري أو على جماله وإبداعه . وهذه الميزة في الواقع هي التي عملت على وقاية شعره من الإسفاف ومن التحول إلى نظم تعليمي فحسب خال من روح الشعر .

وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوفید الشعرية فامتلاّت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعها . ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوفید أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلاق . وستظل أوصافه للطبيعة نمطاً فذاً لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين ،

فلقد أدت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميز به من دقة التعبير ومن القدرة الخارقة على الأداء الشعري . وهكذا نال شاعرنا تقدير كل من دانتي وشكسبير ، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى في كتابة الشعر . فهذه الأبيات تحدثت دانتي عن أوفيد :

سمعت وقتئذ صوتاً يقول : « مجدوا الشاعر الأعظم : فطيفه يعود بعدما ارتحل » . وبعد أن توقّف الصوت وسكت ، رأيت أشباح عظماء أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة . بدأ أستاذي الطيّب يقول « انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ، ويتقدّم ثلاثة كأنه السيّد . ذلك هو هوميروس أمير الشعر ، والثاني الذي يأتي بعده هو هوراتيوس الساخر ، والثالث أوفيدديوس والأخير لوكانوس . ولأن كلا منهم يشترك معي في الاسم الذي نطق به الصوت الوحيد ، فهم يشرفونني ، وبذا يحسنون صنعاً » (٣) .

لقد ظل شعر أوفيد مثلاً فريداً في الأداء الفني ، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمّقوه وفهموه أن يجدوا في قراءته متعة حقة وأن يتبيّنوا في ثنايا أعماله فناً أصيلاً ملك قلوب الناس في كل البقاع وفي كل اللغات . ولعلّ أسهم هنا إسهاماً ما في إتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا حتى يشاركوا أبناء العالم أجمع في الاطلاع على هذا الكنز النادر .

وقد تناول الكثيرون كتاب « مسخ الكائنات » بالدراسة والنقد العميقين ، وتعدّ الدراسة التي عرضها الأستاذ هرمان فرانكل في كتابه « أوفيد شاعر بين عالمين » من أهمّها جميعاً ، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته في أمور ثلاثة :

أولها : أن هذه الملحمة أول محاولة لأوفيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية ، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التي تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذي التفعيلات الست والاسترسال في القصّ خلال ملحمة طويلة ضمت أكثر من إثني عشر ألف بيت في خمسة عشر فصلاً [ أو كتاباً ] . فقد فرض عليه تسلسل القصص في ملحمة أن يربط بين أجزائها بروابط لا يحسّ معها القارئ هذا الربط فلجأ إلى حيل شتى ، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص ، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة .

ثانيها : أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذي تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له في الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطوري بما فيه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يسبغ بها على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع في شيء ، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له في ذلك العالم السحري الذي لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل ، وفي هذا سلوان للنفس ، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا ، إذ فيه فناء كل شيء لاسيما في عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسسة على القهر والطغيان . ومن

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتي : الجحيم . النشيد الرابع ٩٠ . ترجمة حسن عثمان . دار المعارف ١٩٥٩ .

ناحية أخرى يكشف أوفيد عن إيمان بـ « وحدة الروح » فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج ، وينصب كل جزء منها في كائن آخر غير الذى فى ، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة . وهذا يفسر لنا اهتمامه فى الجزء الخامس عشر بخطبة پيثا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود ، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لاتجاه أوفيد فى قصص هذا الكتاب .

ثالثها : أن عقيدة أوفيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدريه منها إلى الإيمان الإيجابى ، وهو ما يكشف عنه بيت فى الكتاب الأول من منظومة « فن الهوى » حيث يقول : « حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة . فلنؤمن إذن بوجودهم » . غير أن القراءة الدقيقة للنص تبين أنه يقرّ عبادة الآلهة بل يحبذها بشرط ألا يظن الناس — كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون — أن الآلهة فى علاهم لا يكثرثون بما يحدث على الأرض . فأوفيد يعتقد أن الآلهة يشغلون بأمور البشر من وقت لآخر ، ومن ثم يجمل بنا عبادتهم فى خشوع ، فهم من يمنحون جزاء البر والثواب لمن لا يعتدى على غيره . والراجح أن أوفيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه . ولم تكن الديانة التى يعتنقها أوفيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية ، بل هى الديانة الإغريقية العامرة بالأساطير الذكية اللامحة الرامزة لحياة النفس وحالات الطبيعة ، بامستثناء ربة الحظ « فورتونا » فى الديانة المحلية القبلية التى لم ترق إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفذ إرادتهم فى أمور الدنيا . ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى الديانة القديمة من توكير لفكرة النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم من تقلبات الدهر والطبيعة . ولذلك عدت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لرب الأرباب جوبيتر على الأرض ولقبته « بالآله المائل بيننا » . هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء دينى موحد ومشارك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحدة فغداً الآلهة حلفاء للدولة ، والدولة حليفة الآلهة . وقد حاول أوفيد مجازاة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يهتم كثيراً بأمور السياسة والمُلك ، فهو لا يؤمن إلاّ بأمرين اثنين : الفن والإنسان . وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها .

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل شيتين هامين :

أولهما : التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر ، ففي الأول وصف لبدء الخليفة من حيث هو تحول من حالة فوضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام . وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحول من مغامرات فردية إلى نظام سياسى يصبح فيه الإمبراطور إلهاً ، فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقى النظام الكونى ، إذا « النظام السياسى » فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشرية إلى الربوبية .

ثانيهما : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوي في الأحد عشر جزءاً الأولى ، تفقد قدراً من حيويتها في الأربعة الأخيرة .

## ٥

وبالرغم من أن أوفيد قد أنهى حياته في المنفى بعيداً عن جمهور قرائه في روما ، وبالرغم من أن كتاب « فن الهوى » الذي كان قد ألفه قد حُرِّمَ تحريماً قاطعاً ، وأن كتاب « مسخ الكائنات » كان قد أُلقي به صاحبه في النار ، إلا أن نسخاً من هذين المؤلفين كانت في متناول القراء في روما نفسها أثناء السنين الأولى من الامبراطورية . وهناك شعراء من القرن الأول الميلادي من أمثال مارتياليس وستاتيوس جوفيناليس كانوا يطالعون دواوين أوفيد بحماس ، وكذا تحدث عنه الناقد كوينتيليانوس في كتبه كما أسلفت على أنه شاعر ملحمي وغنائي ومسرحي وامتدحه وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه ، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقريظ بل بعضه . ثم ما لبث ذوق العصر أن تغير وأخذ قراء أوفيد ينقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عصر انكماش لأوفيد ، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأول الحط من كافة الكتاب الوثنيين وخاصة الشعراء منهم بوصفهم أشد الكتاب خطراً على عقول القراء ، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوي على عريضة واستهتار . وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على تخوف رجال الدين من أثر هذه الكتب في نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبية وتشويق . وبالرغم من ذلك كله مضى النساخ ينقلون شعره سرّاً فيطالعه الناس من جميع الطبقات في الخفاء . بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه ، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور « لكتانتايوس » إلى كتاب « مسخ الكائنات » مستشهداً ، ليبرهن على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم ، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثني !

فلقد وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوي اسمه « لكتانتايوس پلاكيدوس » تحوى ملخصات نثرية لبعض الأساطير التي ذكرها أوفيد ، وأغلب الظن أن هذه الملخصات كانت تدريبات لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية . وفي عصر الامبراطور شارلمان قرّظه « ثيودولفوس » أسقف أورليان – وكان من أهم رعاية التعليم في بلاط الامبراطور – تقریظاً مُعْجِجاً ، هذا إلى أنه ذكره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألف قراءة ما يكتبون طوال حياته . ثم أضاف قولاً له شأنه ، هو أن مطالعة كُتب أوفيد لا شك تفيد القارئ لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال .

ومع ذلك كان فرجيل هو الشاعر الأشهر ، ولم يرق أوفيد إلى درجته ليحل محله في كافة أنحاء أوروبا إلا مع بدء العصور الوسطى . وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات . ويبدو أن شعره الغزلي قد اجتذب جمهوراً كبيراً ، فعده شعراء « الجوليارد » وهم الطلاب الرُّحل ناظمو

الشعر الماخن راعيههم . وما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجر قد وجدوا في أعماله ينبوعاً ثراً لإلهامهم أشعارهم .

وقد ورد اسم أوفيد في القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية في مدن ألمانيا . كذلك ظهر اسمه في فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، فوضع « ألكسندر نيكام » أستاذ الآداب بجامعة باريس وأكسفورد كتاب « مسخ الكائنات » لأفيد ضمن الكتب المقررة في منهجه الدراسى . وقد سمي البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر « بالعصر الأوفيدى » Aetas Ovidiana ، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت في فجر القرن الثالث عشر إلا أنها لم تصل إلينا . كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير في إسبانيا خاصة في « ملحمة الإسكندر » Libro de Alexandre الشهيرة في أواخر القرن الثالث عشر . وفي فرنسا ترجم « كرتيان دى تروا » أول شاعر فرنسى جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات ، كما نسبت إليه معالجة موسعة لأسطورة فيلوميلأ عنوانها « فيلومينا » . وثمة معالجات بالشعر الفرنسى القديم ترجع إلى نفس العصر لأسطورة نارسيسوس وأسطورة بيراموس وثيزى ، والثابت أن أوفيد هو أول من دوّن الأسطورة الأخيرة للآداب اللاحقة على عصره .

وكذا نتيين لكتاب مسخ الكائنات في المنظومة المشهورة المسماة « قصة الورد » Roman de la Rose وهى من روائع الأدب الفرنسى القديم التى يتجلى فيها تأثير أوفيد الغزلى . وهناك أيضاً قصيدة بلغة بروفانس في القرن الثالث عشر عدداً من القصص التى ينبغى على كل شاعر أن يتعرف عليها ، منها قصص كثيرة لم ترد في غير كتاب مسخ الكائنات ، وفي الوقت نفسه تقريباً حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه ، فلكى تتاح للقارئ فرصة الاطلاع على الكتاب دون المساس بقيمه الأخلاقية جُمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوفيد وقصص الكتاب المقدس ! حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً . بل لقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير عبراً لو وصلت إلى علم أوفيد لأصيب بالدهشة والعجب . وثمة نص فرنسى قديم من أوائل القرن الرابع عشر فيه تأويل رمزى لما جاء على لسان أوفيد Ovid Moralise فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت في التوراة بنظيرتها في « مسخ الكائنات » ويجعل من حديث أوفيد ما يدل على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الأثمون ، كما ذهب إلى أن مُراد أوفيد بالأفعوان ييثون هو الشيطان ، وأن مراده بأبوللو الذى قضى عليه هو المسيح ، واحتملت أسطورة أبوللو وادفنى ما لا يقل عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة . وثمة أيضاً كتاب إيطالى لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر يحاول أن يفسّر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها ، فوصف أكتايون بأنه صياد يذهب إلى أن الصيد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيد ، غير أنه رحمة بكلاب الصيد احتفظ بهم ، فإذا هذه الكلاب تكثر عليه بمطالبها الشرهة ، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه . وقد شاع هذا النوع المؤؤل من التفاسير شيعاً كبيراً وقتذاك .

وفي القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية ، وهي اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير ، وبقيت هذه الترجمة الهامة التي قام بها الراهب البيزنطي « بلانوديس » حتى يومنا مرجعاً أساسياً في تحقيق الأعلام الجغرافية .

وفي إيطاليا نفسها جاءت ملحمة دانتي العظيمة عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفاته أوفيد وإعجابه بها . ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتي لما جاء في ملحمة عن الأساطير الكلاسيكية ، بل إنه يتحدى أوفيد في أحد مواضع ملحمة بأنه سيبيزه في حقل اختصاصه ، بأن ابتكر نمطا مزدوجاً من التحوّل هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحوّل الثعبان إلى إنسان من جديد . وكان « بوكاتشيو » أيضاً من المولعين بأوفيد ، ففي قصيدته الطويلة « الرؤيا العاشقة » *Amorosa Visiona* يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوفيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة لپيراموس وثيزبي .

وإن لم يكن كتاب ديكاميون « الأيام العشرة » لبوكاتشيو قد أخذ عن أوفيد مباشرة فهو في إطاره العام يوحى بأسطورة من أساطير أوفيد ، فقصص ديكاميون هي مسامرات لبعض الأشراف للتخفّف من ملل حياة الريف بعد أن هربوا من طاعون كان يعمّ المدينة ، مما يذكّرنا بأسطورة بنات مينياس في كتاب مسخ الكائنات اللاتي أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس .

وكان أوفيد حاضراً في أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثاني عشر ، فذكره المؤرخ « وولتر ماب » ، غير أن « تشوسر » في القرن الرابع عشر هو الذي تأثر تأثراً كبيراً بشاعرن الرومان ، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوفيد أثناء وجوده في فرنسا . ففي قصيدته الطويلة « دار الشهرة » *The Hous of Fame* كرّس أحد أعمدة الدار لأوفيد « أديب فينوس » . ولا شك أن لشعر أوفيد الغزلي تأثيراً كبيراً على كتابات تشوسر إلى جانب شعره القصصي ، ففي « أسطورة الفاضلات » *The Legend of good Women* نجد قصة لپيراموس وثيزبي شديدة الصلة بالأصل الأوفيدى ، كما نتبيّن أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات . ولا شك أيضاً أن أروغ ما كتبه تشوسر وهو « قصص كانتربرى » *Canterbury Tales*<sup>(٤)</sup> كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوفيد . وفي الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوفيد في منظومته الكبرى « اعتراف عاشق » *Confessio Amantis* .

ومما لا شك فيه أن شهرة أوفيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر . ومع ذلك فقد استمر عالفاً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكي ، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تكثر شيئاً فشيئاً في لغات أوربية مختلفة على الرغم مما شاع في بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ وتأويلات رمزية خلقية ، فظهرت ترجمات عدة في القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية . والمعروف أن الشاعر الإيطالي « أريوستو » كان مولعاً

(٤) انظر « حكايات كانتربرى » لتشوسر : ترجمة د. مجدى وهبه ود. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٨٣ .

بأوفيد وينسج في شعره على منواله ، وأن الفيلسوف الفرنسي « مونتيني » قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة . وظهر تأثير قصص أوفيد واضحاً في كتابات « ثيرفانتيز » ، وبصفة خاصة في مسرحيات الكتاب المسرحيين الإسبان في القرن السابع عشر . وقد ترجم الشاعر الفرنسي لافونتين بعض أساطير أوفيد في كتابه « القصص » ، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات في مراثيه عن أدونيس . وكانت أول أوبرا ظهرت في العالم والتي قدمت في فلورنسا عام ١٥٩٤ هي « دافني » المشتقة من أسطورة بنفس الاسم في كتاب مسخ الكائنات .

وترجم كتاب مسخ الكائنات في إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاكستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صنعت في إنجلترا . أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهي ترجمة آرثر جولدنج التي نُشرت عام ١٥٦٧ . وكان شعر أوفيد يُقرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية في كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج .

واقبس « إدموند سپنسر » الكثير من كتاب مسخ الكائنات في ملحمة « ملكة الجان » The Faerie Queene . أما شكسبير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوفيد في الأصل اللاتيني غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة . وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى « أن نفس أوفيد العذبة الذكية مازالت حية عند شكسبير ذى اللسان المعسول » ، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوفيد أكثر عما يشير إلى موضوعات مؤلفاته . ومع ذلك فثمة مواضع في أعمال شكسبير تدل على التأثير المباشر بموضوعات أوفيد . وقد تكون أشهر الأمثلة ذلك التقليد الساخر لقصة بيراموس وثيزي التي أدخلها شكسبير في مسرحيته « حلم ليلة منتصف الصيف » . وثمة مثل آخر في مسرحيته « العاصفة » حيث نبتين أن دعوات بروسبيرو لأرواح الجان شديدة القرب من تعاويذ ميديا في الكتاب السابع من مسخ الكائنات ، وتحكى أول قصيدة كتبها شكسبير وهي « فينوس وأدونيس » حكاية واردة عند أوفيد .

ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر فيرجيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً ، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُدَّلى بها مجموعة من الصور المطبوعة على لوحات محفورة تمثل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات .

وظهرت في عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية مشهورة لكتاب مسخ الكائنات « لجورج ساندز » بعنوان طويل هو « مسخ الكائنات لأوفيد مترجمة إلى الإنجليزية ومعالجة علاجاً أسطورياً ومزودة بصور تفسيرية » . وفي أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزي « جون درايدن » أجزاء كثيرة من مسخ الكائنات وكان الجزء الخامس عشر يُعد أرفعها شأنًا ، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشووسر وبوكاتشيو تحت عنوان « حكايات قديمة وجديدة » .

وفي القرن الثامن عشر كان الإلمام بكتاب مسخ الكائنات لأوفيد جزءاً من تربية كل مثقف . وكان كتاب ذلك العصر كثيراً ما يترجمونه إلى الشعر الإنجليزي ، وذكر « ألكسندر بوب » أنه ترجم أكثر من رُبُع

كتاب مسخ الكائنات كممارسة أدبية ولكنه لم يُعدّ للنشر إلا مقطوعتين هما قصة « دريوى » وقصة « بومونا وفيرتوموس ». وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوفيد في الازدهار ، فلم يتحمس له شعراء العصر الرومانسى ولو أن استلهامه واضح بعض الشيء في شعر كيتس وشيلي وبايرون وبراوننج .

## ٦

وإذا كان لعبقرية أوفيد التصويرية في شعره أثر كبير في آداب أوروبا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه في الفنون التشكيلية . وكانت موضوعات الفن التشكيلى في أوروبا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى تختلف بين اثنين : قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام خاصة بحياة المسيح وموته ، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى . كذلك اختلطت التصوير الذاتية التى بدأت تظهر في ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدسة أو بتصوير الحياة اليومية .

وقد شهد بدء عصر النهضة في إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصى في شعر أوفيد الذى غدا موضوعاً جديداً يُصوّر بجانب الموضوعات الدينية والاجتماعية ، وذلك بعد أن تحول رجال الكنيسة عن تحريمهم الأول لموضوعات أوفيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسنة . وقد سائر هذا الاتجاه الجديد في الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ « المذهب الإنسانى » والتى تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكرى والدوقى لما يسمى بعصر النهضة في أوروبا .

وكان « لمسح الكائنات » بطبيعة الحال أثر كبير في تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل ، وخاصة أن تعدّد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذبوعه بين العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوعاً من اليونانية ، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه . كما أن وجود الأساطير مجتمعة في كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها في سهولة ويسر .

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة « بيرسيوس » وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كُتبت لها الحياة في خيال العصور التالية لعصر النهضة في تمثال برونزى « لينفونوتو تشللىنى » ، وأن أسطورة مسخ « دافنى » شجرة غار قد كُتبت لها الحياة فى الأخرى في تمثال « برنيسى » المرمى ، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف « أوروبا » لا نتصورها إلا من خلال لوحات « بولوفرونيزى » و « كورچيو » و « بيرو دى كوزيمو » . أما قصة مغازلة « فيروتوموس لهومونا » فقد أصبحت ترتبط في أذهان الناس بتصويرها في النسيجيات المرسمة التى أنتجتها مناسج بروكسل في القرن السادس عشر .

ومن أدلة ذبوع كتاب « مسخ الكائنات » ما قاله أحد نقاد الفن واسمه كارلوريدلفي في كتاب له عن فنون عصره سماه « روائع الفن » ( ١٦٤٨ ) من أن فنانى عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخيالهم من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب ، بل لأن أوفيد في شعره الواصف يَهْدِي الفنان إلى الطريقة المثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظي لمواقف الأساطير المختلفة .

ولا مجال هنا لأن أستطرد في اختيار نماذج التصوير أو النحت التى استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب « مسخ الكائنات » وإلا لاقتضى ذلك مجلداً بأكمله ، ولذلك فقد اجتزأت بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتها في دليل ألحقته بهذه الترجمة<sup>(٥)</sup> . وأغرائى هذا البحث عن تأثر الفنانين التشكيليين بأعمال أوفيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التى استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه<sup>(٦)</sup> .

يقول كنيث كلارك في كتابه « المناظر البرية تتحول إلى فن » : هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوفيد وفرجيل اللذان ملأ مخيلة الفنانين في عصر النهضة . وعلى حين كان أوفيد أحب الشعراء إلى مصوِّرى الشخصوس لما في شعره من وصف واضح وتفصيل للقصص الخرافية كان فرجيل هو مصدر الوحي لمصوِّرى المناظر البرية .

ويقول إروين پانوفسكى في كتابه : [ مشاكل إيقونوغرافية متعلقة بتسيانوا ] : « كلما أراد تسيانوا أن يقصَّ حكاية حقيقية كان يستوحياها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذى كثيراً ما اجتذبه ، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التى لا تمت إلى الأساطير بصلة » . وحسبنا في هذا الصدد أن نقدرَ جَهْدَ أوفيد حقَّ قدره الذى بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تعنى به منذ حوالى عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا . فليس ثمة كاتب كلاسيكى آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية ، وليس ممن كتبوا في هذا الموضوع من يضارعه في إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير . وليس في هذا ما يدعو إلى العجب ، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد والتعليقات عليه كما ذكرنا قبل ، وقد تضمَّن عنوان أغلب هذه الطبعات عبارة « إنجيل الشعراء » بين الفرنسيين و « إنجيل المصوِّرين » بين الألمان .

وكانت صلة تسيانوا بهذا الشاعر الذى « عاش بين عالمين » كما كان يدعى صلة خاصة ، فمما لا شك فيه أنه أحسَّ بالوشائج القوية التى تربطه بكاتب يتميز بالعمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسية في الوصف ، كما يتميز أيضاً بإيمانه بمأساة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر . وكانت هذه الصلة الروحية هى التى أتاحت لتسيانوا أن يؤوِّل نصوص أوفيد تأويلات تجمع إلى الحرفية التصرف ، كما كان

(٥) انظر الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

(٦) انظر الملحق الثانى : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

يُعنى عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع في جوانبه دون كبت . وليس ثمة فنانٌ كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوفيد ، فهو يستطيع من جملة واحدة في النص أن يصورها وقد أودع فيها انطباعات شتى لها شأنها . ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوفيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمد منها إلهامه ، باستثناء حالة فريدة استطاع فيها أن يغيّر من دلالة النص تغييراً جوهرياً . فلا عجب إذن إذا كان تيسانو بوصفه مترجماً لأوفيد قد كانت له الحرية المطلقة في استخدام جميع أنواع النماذج الميثية القديمة كانت أم حديثة ، غير متأثر بالتيار التصويرى في هذا المجال الذى ازدهر من حوله في كثير من الطباعات المصورة والترجمات والتفسيرات المرفقة لكتاب مسخ الكائنات .

وكنّت قد ضممت إلى مقدّمة الطبعة الأولى من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تيسانو تمثل بعض الأساطير التى جاءت بالكتاب ، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويرة إيضاحية أبدعها الفنان ب . بيكار يعاونه فنانون آخرون في طبعة قديمة لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت عام ١٧٣٢ بأمستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وتعليق باللغة الفرنسية للأب بانيه ، وقد طُبعت على أصل حجري محفور<sup>(٧)</sup> . وهو كتاب من القطع الكبير فيه النص اللاتينى في نهر ، وفي نهر أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير جون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) ، والبعض الآخر للشاعر الشهير ألكسندر پوپ (١٦٦١ — ١٧٩١) . وقد كانت هذه الصور التى ضممها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد في ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره فعزّ اقتناؤه على الجماهير ، وهو ما دفعنى إلى أن أستبدل بها في الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً ، فجاءت في ثلاثين تصويرة خطية نادرة للفنان بابلو بيكاسو رسمها خصيصاً لكتاب « مسخ الكائنات » ، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لى بنقلها عن نسختهم الفريدة ، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالفصل الحادى عشر .

وكان بيكاسو قد أخذ حوالى عام ١٩٢٣ في رسم بعض اللوحات المستقلة التى تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبين أو متجاورين على جسد واحد ، ضارباً صفحاً عن المظهر الحقيقى المرنى للشخص طالما أنبأ لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها . غير أن بيكاسو الشاعر المتمرد لم يلبث أن

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هى استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم شمعى أسود على سطح الحجر الجيرى الأملس الدقيق الذرات والمسام ، ثم يُغمّر الحجر في الماء حتى يتشبع به ، مع ملاحظة أن السطح المغطى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء ، فإذا دارت الأسطوانة المشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطاة بالطبقة الشمعية التى مرّ عليها القلم ، على حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبلّلة ، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تجفيفه والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسى بنفس الدقة التى رُسمت بها بالشمع على الحجر . وقد ابتكر هذه الطريقة سويسرى يُدعى سينفلدر سنة ١٧٩٦ فغلت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إتقاناً [ المعجم الموسوعى للمصطلحات الثقافية . لونجان ١٩٩٠ م . ص ١٠٠ ] .

عدل عن هذا الاتجاه ، مُهْملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرئى إليه ، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة ، محققاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية – المكانية للوضعات المختلفة في الفراغ . ثم عاد في عام ١٩٢٧ فهِجر هذا الأسلوب متمسكاً بأهداب التقاليد الفنية ، وخاصة في لوحاته التي استخدم فيها طريقة الحفر الحمضي Eau - Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق<sup>(٨)</sup> ، مضمناً رسومه نماذج لفساء عاريات أو مكتسيات ولشخص تُعدّ إرهاباً للأسلوب الموقّ الذي استخدمه في رسومه الثلاثين الخطيّة<sup>(٩)</sup> لكتاب « مسخ الكائنات » وغيره من الروائع .

وفي عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا في لوزان ثلاثين لوحة من تصاوير بيكاسو مع النص الكامل لكتاب « ميتامورفوزس » في نسخ محدودة هي الآن مبعثرة في جهات مختلفة من أنحاء العالم ، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدي الهواة ، وأصبح جمع هذا السّتات اليوم من الصعوبة بمكان . وقد استطعت بعد تذليل مصاعب جمة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها في الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وأعيد نشرها هنا في الطبعة الثالثة<sup>(١٠)</sup> .

وأغلب الظن أن بيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة ، وهي تستمد قوتها وأناقتها – كما يلمس القارئ – من الخطوط المحوّطة<sup>(١١)</sup> النابضة بقوة التعبير ، ومن تلقائية الفنان الجياشة ، ومن تركيزه الذي كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها .

وقد أصاب بيكاسو التوفيق في الإفصاح عما أحسّه وتخيّله ، فالرسم – فيما أظن – إذا خلا أحياناً من التحوير كان رسماً جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير . ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين بيكاسو وأنجر مصور القرن التاسع عشر الذي عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية<sup>(١٢)</sup> المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكمان حين تعلو على أنغام جوقة الأوركستر ، فأضاف فقرات إلى العمود

(٨) Etching الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة ( الخربشة ) على سطح معدن . هي نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو برنيقية تشقّها أداة الحفر ، وهي سن مدبّبة رفيعة . ثم تغمر الصفحة بطناً لوجه في الحامض الذي يتخلّل الخدوش فينفذ إلى السطح المعدني ليغور في مواضع تلك الأخاديد . وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الأحماض ، ثم تُمرّر الأسطوانة المشبّعة بالحبر على الصفحة المعدنية حتى تمتلئ الفجوات الغائرة بالحبر الذي يبقى فيها . وبعدها يُحَفّ السطح الخارجي ، وهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع في المكبس لتطبع الأخاديد المشبّعة بالأحبار على سطح الورقة [ م.م.م.ث ] .

(٩) Linear التشكيل الذي يعتمد في تأثيره على المُشاهد على الأشكال المكونة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتلة اللونية والتظليل [ م.م.م.ث ] .

(١٠) ظهرت هذه اللوحات في طبعة سكيرا في غير أماكنها من فصول الكتاب ، ولقد حاولت جهدي أن أضعها في أماكنها الحقّة من فصول الكتاب في هذه الطبعة مستعيناً بالنص .

(١١) Outlines أو الحواف المحوّطة أو الحدود الخارجية ، وهي ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أي منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطيّة أو فوارق لونية [ م.م.م.ث ] .

(١٢) Arabesque الخط الرشيق المتناوّد المتسق المتّقم [ م.م.م.ث ] .

الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق ، كما هي الحال في لوحة « المحظية » المشهورة بمتحف اللوفر ولوحة « إيفيجينيا وثيتيس » بمتحف إكس ، وهكذا انتصر الخط المنغم ( الأرابيسك ) وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة . فأنجر لم يبال بأى تحريف تشريحي حتى يتيح لخطوطه البروز بكمالها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقته للواقع ، فكان قصاره أن يحفظ لهذا الخط المحوَّط تأثيره النوراني ، وجاء من بعده بيكاسو فاستعار هذا الخط النوراني في رسومه كافة . ولا ندرى أكان أشد تمسكاً بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرَّك للعواطف ، أم أنه استوحى الفن الإغريقي في تمسكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التي قد تهوّن من شأنه ؟

على هذا النحو استطاع بيكاسو بمهارة أن يقدم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية . ويتجلى لنا هذا الجهد في هذا الإنسجام الذي بلغ أقصاه وكذا جمال الخط في لوحة « يورديكي » بعد أن لدغت الأفعى كاحلها [ الكتاب العاشر ] ، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير في الصورة الجزع والهلع ، غير أننا لا نرى في التصوير غير جسد بديع يتهاوى في رفق يُحدّده خطٌ منحني لطيف يفيض حسية زائراً بعطف تابعاتها وهن يُهرعن إلى حملها وامتصاص السم من موضع اللدغة . ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميحة جاءت غاية في البساطة لامرأة تستدير بجسدها طلباً للنجدة .

وثمة عناصر في هذه التصاویر تشترك كلها في الإيحاء بقلة اكتراث الفنان بما يمس دخيلة نفوس الشخص المصوّر ، كالوجه التي يغشاها السكون والدعة ، ومجموعات النساء والرجال التي تضمّ - فيما تضمّ - الرواة والمستمعين . وهو ما يدفعني إلى مناقشة القارئ ألا يعبأ كثيراً بخروج بيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليتة في رؤيته الفنية الذاتية . ويصل بيكاسو قمة البلاغة الخطية في لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور رذّي أنثى فيما لا يجاوز أقواساً أربع تحوى كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة .

ويستعين الفنان لما ياثراء الملابس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة ، أو بالإيحاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة ، كما هي الحال في لوحة مطلع الكتاب التاسع ، حيث يعبر عن الضوء والغبش والعمّة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكة تارة أخرى .

غير أن كافة الرسوم تجلو لنا ثقة الفنان بنفسه وتَشَبُّعه بالإحساس بالموضوع المصوّر ، وعدم التردد في إسقاط الخطوط على اللوحة ، وتعّمده تجنّب استخدام الظلال ، مانحاً التفرد بالبطولة للخط في التعبير ، مما يُكسب اللوحات شفافية أثرية تربطنا بأساطير الماضي . وبالرغم من السكينة التي يوحى بها الخط إلا أنه في تحوّه يُعرب عما يعتلج في نفوسنا من أحاسيس دفينّة .

## ٧

وكلمة « ميتامورفوزس » التي هي عنوان الكتاب تعني حرفيا الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حال دنيا ولا حال عليا . وإذ كان الكتاب كله تحوّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة : هي تحوّل رومولوس وأينياس مؤسسي روما إلى الألوهية ، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين ، ثم حالتا تأليه يوليوس قيصر وابنه بالتبني قيصر أوغسطس ، وكان ذلك فيما يبدو نوعاً من التملق للامبراطور ولم يجر مع الأسلوب الذي ألف المؤلف الكتاب من أجله أو مع مساق سائر حديثه . من أجل هذا حين آثرت أن أسمّي الكتاب « مسخ الكائنات » لا تحوّلها أو انتقالها غير ملتزم في ذلك بما جرى عليه من ترجم هذه الكلمة ، جنحتُ إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا ، ثم مسترشداً بما جاء في القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التي توحى بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى . يقول الحق : « ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً » (يس ٦٧) . ومن هذا كله أجدني لم أحد في ترجمتي لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوّل ولا الانتقال ، وغاية ما فعلت أني استوحيث الترجمة من معنى الأساطير الواردة في الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ .

كذلك يرى أصحاب التناسخ أن « النسخ » هو نقل الروح إلى جسم أرفع ، و « المسخ » هو نقل الروح إلى ذوات الأربع ، و « الفسخ » هو نقل الروح إلى الحشرات ، و « الرسخ » هو نقل الروح إلى النبات والجماد (١٣) .

وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء المعري (١٤) في التناسخ :

تَعَوِّذُ بِالْإِلَهِ مِنَ الْمَسْخِ وَسَلُّهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ النَّسْخِ  
لَقَدْ خَابَ امْرُؤٌ يُنْسَى وَيُضْحَى يُنْقَلُ فِي فُسُخٍ أَوْ رُسُخٍ

\* \* \* \*

وترجمتي هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التي قام بها الأستاذ « ميلر » في مجموعة « لوب » الكلاسيكية التي ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت في مجلدين ، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت

(١٣) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٤ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

(١٤) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٥ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

في مجموعة پنجون للسيدة « ماري إينيس » فيها شيء من التصرف ، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطاً وهي في الأصل فقرات خطابية . كذلك اعتمدت على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ « شامونار » ظهرت في مجموعة الإخوان جانييه لترجمات روائع الأديين اللاتيني واليوناني ، في مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية في صفحات متقابلة . واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ جورج لافاز في سلسلة « مجموعة جامعات فرنسا » نشرت بباريس عام ١٩٢٨ في ثلاثة مجلدات . وقد آثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت في النص الأوفيدى ، وهي الأسماء اللاتينية ، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليوناني .

وكانت الرغبة التي استأثرت بوجداني طوال صياغتي لهذه الترجمة هي أن أقدم نصاً يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارئ ويشيعان في نفسه الإحساس بالمتعة التي يجدها قارئ النص الأصلي في لغته اللاتينية . وقد واجهتني خلال هذه المهمة عقبتان : كانت أولاهما هي ازدحام النص بأسلوب الالتفات ، وهو الانتقال المفاجيء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة الخطاب أو عكس ذلك ، وهو أسلوب لا يشيع في العربية بقدر ما يشيع في الشعر الملحمي اللاتيني . وقد حاولت قدر جهدي أن أقلل هذه الانتقالات حيث يصعب فهمها أو تكون مصدراً لبلبلة القارئ . وكانت ثانيتهما إفراط المؤلف في الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التي كانت معروفة أيامها للقارئ العادي في حين أنها لا تعطى نفس إيجاءاتها ودلالاتها للقارئ العربي المعاصر الذي لم تتح له قراءة معمّقة في الكلاسيكيات والأساطير القديمة . ومع أني قد أضفت في نهاية كل فصل تعقيبات وشروحات تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشيائلهم إلا أنني سمحت لنفسى أن أقحم هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارئ متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه . ولعل أكون بذلك قد أعنت القارئ غير المتخصّص على مواصلة المطالعة الميسّرة ، دون أن أكون قد أثقلت القارئ المتخصّص بوقفات هو في غير حاجة إلى التريث عندها .

وقد قام الأستاذ الدكتور مجدى وهبه بجهد العالم المدقق الأمين مشكوراً بمقابلة النص اللاتيني لضبط الترجمة وهو النص المطبوع في مجموعة « جيوم بوديه » بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة « مارسيانوس ٢٢٥ » المحفوظة بمكتبة « لاورنتيانا » بفلورنسا ، كما رجع في حالات اللبس إلى الطبعة التي حققها الأستاذ « ميركل » في لايبزج ، وهي الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ .

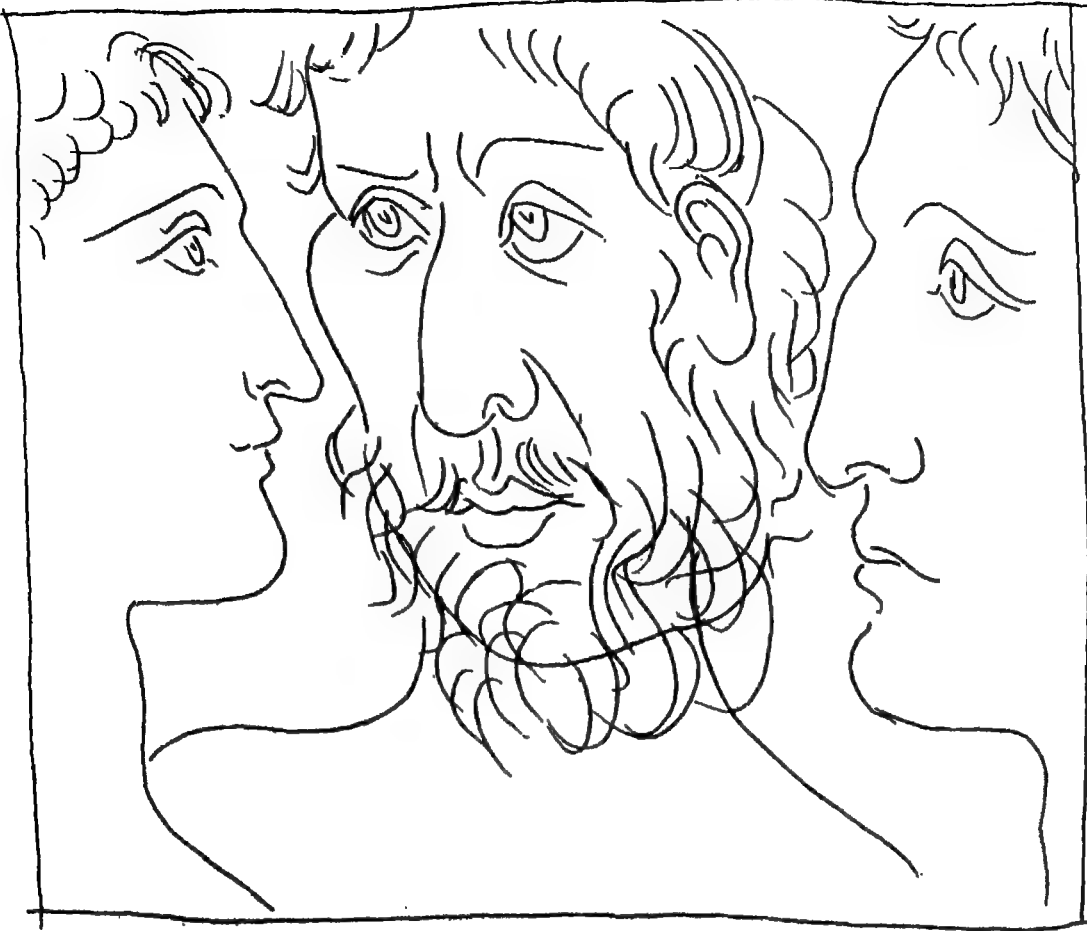
وحين فكرت في طبع الكتاب طبعة ثانية رأيت ألا ألزم بالصياغة الأولى ، فأحوّرها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلت أولاً بل أنفذ إلى روحه ، فهذا أجدى للقارئ العربي الذي سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير ، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً في الطبعة

الثالثة . وبعد أن راجعها الأستاذ الدكتور مجدى وهبه استأنست بالأستاذ الدكتور أحمد عثمان الذى له هو الآخر ضلّاعته فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلُ مسائراً للنص بشاعريته . وكم أسعدنى أنه رآنى على الجادة لم أنحرف قيد أنملة ، فله منى جزيل الشكر .

ثروت عكاشة

فولياغمينى فى ١٧ يوليه ١٩٩١





بيكاسو

## الكتاب الأول

ها أنذا آخذُ في الحديث عن تحوّل لكائناتٍ كانت على صورة ثم إذا هي صورٌ أخرى . وإن أبتهلُ إليكم آيتها الألهة - وإليكم زمام ما يجري في الكون من تحولات - العون على بلوغ مقصدي بوحى من إلهامكم أقوى به على أن أنسجَ في قصيدي هذا خيطاً من الشعر لا ينقطع ، تنتظم بين طرفيه أحداث الكون منذ بدء الخليقة حتى عصرنا القائم .

## أصل العالم

قبل أن تكون أرضٌ ، وقبل أن تكون بحارٌ ، وقبل أن تكون سماءٌ تظَلُّ هذا الكون أجمع ، كان ثمة عماء يلفّ العالم كله بردائه ولا يستبين منه غير شكل واحد لا سواء . فكان كتلة مضطربة لا شكل لها ، جامداً لا حياة فيها ، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء ، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة . ولم تكن ثمة

شمس « تيتان » يفيض نورها على العالم ، كما لم يكن ثمة قمر « فُيبي » له مع كل يوم وجهٌ جديد ، يكملُ ثم يعودُ ناقصاً كما بدأ . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمَّها الفضاء تنهادى فيه بثقلها ، كما لم تكن المياه « أمفريتى » قد بسطت ذراعيها على شطآن البرّ ، فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها ممتزجة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعوّزها الصُّلابة والبحر تُعوّزه السيولة ، كما كان الفضاء فى عَوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شيء له شكل ممّيز ، وكانت هذه العناصر رغم اختلافها لا تنافر بينها . ثم إنها مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة ، وبين الوَمد والجفاف ، وبين الليونة واليُبس ، وبين الخفة والثقل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم ، فتجلى الإله — أو الطبيعة الأكثر طواعية — كى يفصل بين الشيء ونقيضه ، ففصل ما بين السماء والأرض ، وما بين الأرض والماء ، وخلّص الهواء الكثيف من الأثير الشَّفيف . ٢٠

وما إن تم له فصل هذا كله وخلّصه من فوضى الكُتلة حتى غرس الوثام والسلام بين هذه العناصر فخصَّ كُلاً بمكانه المميّز ، فإذا اللهب المتأجج الممدوم الوزن يحتل قبة السماء ويتلألأ فى ذروة بناء العالم ، وإذا الهواء الذى يضارع اللهب المتأجج خفةً يحتل مكاناً إلى جواره ، وإذا الأرض وهى أكثف منها معاً تشدّ إليها العناصر المتماسكة فتتراكم بعضها فوق بعض ، وإذا الماء الذى كان يحيط بكل شيء يحتل ما خلا فى الوجود ويلفّ تلك الكتلة الصلبة الأسطوانية .

وما إن فرغ الإله — أى إله كان — من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التى لم تكن على شكل ما ، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة فى تماسك كى يجنب الأرض أن يخلت أى قطر منها ، من أجل ذلك سوّاها كرويةً ضخمة . وكان أن امتدت مياه البحر بفعل أنفاس الريح الهوجاء ، فإذا هى تُمنطق الأرض . ولكى يبلغ الأمر مداه فجّر الينابيع وأفاض المستنقعات التى لا حصر لها ، وشقّ البحيرات ، وحبس الأنهار بين ضفافها كما وزّعها على سطح الأرض . فمنها ما يُقضى إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتنفى فى ذاك الخضمّ ، ثم تعود نائرة فترتطم بالبرّ ، ومنها ما لا ينتهى إلى بحر وتبتلعه الأرض فى جوفها . كما بسط السهول وخدّد الوديان ، وجعل الغابات تُورع بأوراق الأشجار الوارفة ، ورفع قنن الجبال الصخرية . وإذا كان قد قسّم السماء مناطق : اثنتين إلى اليمين واثنين إلى اليسار ، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدّ حرارة ، كذلك قسّم الأرض التى تُظللها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدّاً ، فالوسطى لا حياة فيها لشدة قيظها ، وغطّت الثلوج منطقتين من هذه المناطق ، وبقيت الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخ بين البرودة والحرارة<sup>(١)</sup> . ٤٠

وفوق هذا كله خلّق الهواء بما رُزق من خفة لم تُرزقها الأرض والمياه بثقلها ، وكانت خفة الهواء دون خفة النار . وأقرّ هذا الإله الضباب والسحاب مقرّهما فى الهواء ، كما جعل للرعْد مقرّاً ، هذا الرعد الذى يثير الخوف فى أفئدة البشر . وكذلك جعل للرياح مقرّها ، تلك الرياح التى تتحد مع الصواعق فينفذ من خللها البرق . غير أن هذا الإله مهندس الكون — حرصاً على بقاء العالم — لم يترك تلك الرياح تجرى على

أَعْتَبَتْهَا تَهَبٌ مِنْ حَيْثُ تَشَاءُ وَكَيْفَ تَشَاءُ بَلْ جَعَلَ لِكُلِّ رِيحٍ مَهَابَهَا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا إِلَى الْيَوْمِ عَصِيَّةٌ عَلَى أَنْ تَخْضَعَ لِنِظَامٍ فِي مَهَابَهَا ، إِذْ أَنْ ثَمَّةَ تَنَافَرٍ شَدِيدٍ بَيْنَ الرِّيحِ الْإِخْوَةِ : فَرِيحٌ « إِيُورُوس » تَهَبُ مِنْ مَنَاطِقِ رِبَّةِ الْفَجْرِ وَمَمْلَكَةِ الْبُطْ فِي بِلَادِ الْفَرَسِ وَمِنْ سَلَاسِلِ الْجِبَالِ الَّتِي تَكُلُّ أَشْعَةَ الْفَجْرِ قَمَمِهَا . وَرِيحُ النَّسِيمِ « زَفِيرُوس » تَهَبُ مِنْ مَكَانِ نَجْمَةِ اللَّيْلِ وَالشَّطَّانِ الَّتِي تَشَعُّ عَلَيْهَا الشَّمْسُ فِي غُرُوبِهَا فَتَخْلِفُهَا دَافِئَةً . أَمَّا ٦٠٠  
الرِّيحُ الْلَافِحَةُ « بُورِيَّاس » فَتَهَبُ مِنْ بِلَادِ السُّكُوثِيِّينَ [ السُّكِيثِيِّينَ ] وَشَتَّى نَوَاحِي الشِّمَالِ . وَرِيحُ « أَوْسْتِير » عَلَى غَيْرِ مَهَابٍ الرِّيحِ كُلِّهَا وَتَجْلِبُ إِلَى الْأَرْضِ سُحْبًا لَا تَفْتَأُ مُمْطِرَةً فِي غَزَارَةٍ . ثُمَّ خَلَقَ الْإِلَهِ الْأَثِيرَ الَّذِي لَا وَزْنَ لَهُ وَلَا تَعْلُقَ بِهِ شَائِبَةٌ مِنْ شَوَائِبِ الْأَرْضِ . وَمَا كَادَ يَفْصِلُ بَيْنَ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ أَجْمَعٍ وَيَجْعَلُ لِكُلِّ مِنْهَا حَدًّا حَتَّى أَخَذَتْ الْكَوَاكِبُ تَتَأَلَّقُ فِي رَقْعَةِ السَّمَاءِ بَعْدَ احْتِجَابِهَا طَوِيلًا فِي طَيَّاتِ الْكَتْلَةِ الَّتِي كَانَتْ تُكْنِيهَا .

وَلَكِنْ تَسْتَمْتِعُ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ بِوُجُودِهَا أَجْرَى الْكَوَاكِبِ فِي فَسِيحِ السَّمَوَاتِ فِي رِعَايَةِ إِلَهَةٍ مَجْسُودَةٍ .  
وَاتَّخَذَتْ الْأَسْمَاكُ بِحَرَاشِفِهَا الْبَرَّاقَةَ الْمِيَاهِ مَسَارِبَ لَهَا ، وَاحْتَضَنْتِ الْأَرْضُ الْحَيَوَانَ مِنْذُ نَشَأَتِ الْوَحْشِيَّةُ الضَّارِيَّةُ ، كَمَا احْتَضَنَ الْهَوَاءُ فِي تَمَوُّجِهِ الطَّيْرَ . وَكَانَ ثَمَّةُ كَائِنٍ غَابَ عَنْ هَذَا كُلِّهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ الْمَخْلُوقَاتِ انْطِبَاعًا بِطَابِعِ الْأَلْهَةِ ، هَذَا إِلَى مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ ذَكَاءٍ مَفْرُطٍ فَرَضَ بِهِ سُلْطَانَهُ عَلَى سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَكَانَ الْإِنْسَانُ . وَمَنْ يَدْرِي لَعَلَّ إِلَهَ هَذَا الْكَوْنِ الَّذِي صَوَّرَ الْعَالَمَ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ الْبَدِيعَةِ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ بَذْرَتِهِ ! أَوْ مِنْ يَدْرِ لَعَلَّ الْأَرْضَ فِي عَنَفَوَانِهَا حِينَ نَبَذَتْ عَنْهَا طَبَقَاتِ الْأَثِيرِ ٨٠  
كَانَتْ قَدْ انْطَوَتْ عَلَى بَذْرَةٍ مِنْ صُلْبِ أَخِيهَا رَبِّ السَّمَاءِ ! ثُمَّ أَقَى پَرُومِيثْيُوسُ بْنُ يَاسِيْتُوسُ (٢) فَقَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تَرَابِ الْأَرْضِ وَعَجَنَهَا بِمَاءِ الْمَطَرِ وَسَوَّاهَا إِنْسَانًا عَلَى صُورَةِ الْأَلْهَةِ الْمَهِيْمَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ . وَعَلَى حِينِ خُلِقَ الْحَيَوَانُ مَكْبًا بِوَجْهِهِ عَلَى الْأَرْضِ لَا يَطَالِعُ سِوَاهَا ، خُلِقَ الْإِنْسَانُ مَشْرُتَبًا بِوَجْهِهِ إِلَى السَّمَاءِ مُتَأَمِّلًا فِيهَا دَاعِيًا رَبَّهُ أَنْ يَشُدَّ بَصْرَهُ بِالْكَوَاكِبِ . وَهَكَذَا تَحَوَّلَتِ الْأَرْضُ مِنْ كِتْلَةٍ غَلِيظَةٍ غَيْرِ مُمَيَّزَةٍ إِلَى أَشْكَالٍ جَدِيدَةٍ ، هِيَ أَشْكَالُ الْبَشَرِ .

وَكَانَ ثَمَّةَ عَصْرِ ذَهَبِيٍّ فِي بَدْءِ الْخَلْقِ أَظْلَمَ قَوْمًا عَلَى إِيمَانٍ عَمِيقٍ وَمُبَادِيءٍ سَامِيَةٍ ، لَمْ يَشْرَعْ لَهُمْ قَانُونٌ يُلْزِمُونَ حُدُودَهُ أَوْ يَخَافُونَ عِقَابَهُ ، وَعَاشُوا لَيْسَ لَهُمْ وَازِعٌ غَيْرُ الضَّمِيرِ : فَلَا قَضَاةَ يَفْصِلُونَ بَيْنَهُمْ ، وَلَا حُكْمًا يَجَازُونَهُمْ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةُ نِزَاعٍ أَوْ عِدْوَانٍ ، وَكَانَ النَّاسُ حَيْثُ هُمْ : لَا هَجْرَةَ وَلَا نِزَاجَ عَنْ أَرْضِهِمْ . وَلَمْ يَكُنْ جَذَعُ شَجَرَةِ الصَّنُوبَرِ قَدْ اقْتُلِعَ بَعْدُ مِنْ مَكَانِهِ فَوْقَ الْجِبَالِ لِيَطْفُوَ فَوْقَ الْخِصْمِ الْمَائِجِ وَيَطُوفَ حَوْلَ الْعَالَمِ ، وَلَمْ يَكُنْ الْبَشَرُ عَلَى عِلْمٍ بِغَيْرِ تِلْكَ الشَّوَاطِئِ الَّتِي نَشَأُوا عَلَيْهَا . وَلَمْ تَكُنْ الْقِلَاعُ تَحُوطُهَا الْخَنَادِقُ الْمَغْمُورَةُ بِالْمِيَاهِ ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ ظَهَرَتْ تِلْكَ الْأَنَابِيْبُ النَّحَاسِيَّةُ الَّتِي اتَّخَذَتْ بَعْدُ أَبْوَاقًا مُسْتَقِيمَةً وَلَا الْقُرُونُ الْمَعُوجَّةُ . وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةُ خُودَاتٍ وَلَا سِيُوفٍ ، إِذْ كَانَ النَّاسُ آمِنِينَ لَا تَفْزَعُهُمْ حُرُوبٌ ، وَلَا هُمْ فِي حَاجَةٍ إِلَى جِيُوشٍ تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرَّ الْمُعْتَدِينَ . وَكَانَتْ الْأَرْضُ تَوْقُ أَكْلَهَا دُونَ عِزْقٍ أَوْ حَرْثٍ وَالنَّاسُ بِمَا ١٠٠  
لَدَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ قَانِعُونَ . فَهَمْ وَادِعُونَ لَا يَكْدُونُ وَلَا يَعْمَلُونَ ، يَأْتِيهِمْ رِزْقُهُمْ رَغْدًا مِنْ بَلُوطٍ جُوبِيْتَرِ (٣) الْمُمْتَدَّةِ فُرُوعَهُ ، وَمِنْ ثَمَارِ الشَّجَرَاتِ ، وَتَوَاتُ الْجِبَالِ ، وَأَعْنَابِ الْبَرَارِي الْعَالِقَةِ بِالْغُصُونِ الشَّائِكَةِ . وَكَانَتْ

النسبات الرّخية تحمل عقب الزهرات في ربيع لا ينتهى فتتشر في الجوّ أريجها . . ومَرّت الأيام ، فإذا الأرض  
تكتسى بعيدان القمح ، وإذا سنبله الثقيلة البيضاء تحيل رقعة الأرض ناصعة ، وساد الربيع الأعوام فلا  
برد ولا مطر ، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا [ شراب الآلهة ] ، وسالت الأشجار شُهْدًا ذهبيّ اللون .

ووقع ساتورن<sup>(٤)</sup> [ كرونوس ] أسيراً في يد جوبيتر [ زيوس ] فألقى به في ظلام تارتاروس وانفرد هو  
بحكم العالم ، وكان من هذا بداية العصر الفضى الذى حلّ محل العصر الذهبى وإن كان مع ذلك في مرتبة  
أدنى منه وأرقى من عصر البرونز المصْفَرّ السُّمرة الذى تلاه . واختصر جوبيتر فصل الربيع الذى كان يمتد  
على مدار السّنة في العصر السابق ، وقسّم السنة إلى فصول أربعة : شتاء وصيفا وخريفًا متقلّبًا وربيعًا قصير  
الأمَد ، وجعل الهواء بين بارد وحار ، وظهرت الثلوج بين الأعاصير العاتية ، وأخذ الناس يبحثون عن  
١٢٠ مأوى يقيهم المطر ، فلبّجوا إلى الكهوف والأدغال . ومضى الناس يكدّون في فلاح الأرض وحرثها ،  
ويبدرون فيها حبوب الحنطة التى جادت بها عليهم سيريس [ ديميتر عند الإغريق ] ، وأخذت الثيران تن  
تحت نير المحارث .

ثم كان العصر الثالث ، وهو عصر البرونز ، الذى طُبع الناس فيه بطابع من الغلظة والقسوة  
فاستسلموا للمنازعات وشاعت بينهم الخصومات ، غير أن الشرّ لم يكن قد غلبهم على كل أمورهم .

ثم كان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذى اشتق اسمه من معدن أقلّ قدراً ، حين برزت الجرائم في  
أبشع صورها وغاب الحق وانمحق الصدق ووُثِدَ الوفاء واختفت الطاعة وطغت الغطرسة والخيانة وساد  
الطمع والخداع وتفشت القسوة . وأعدّ البحارة أشرعة ينصبونها للريح وهم بعد على غير معرفة معمّقة  
بالسفن وأشرعتها ، واصطنعوا من الأشجار التى كانت تُزحَم سفوح الجبال الشاخنة سفناً تمخر عباب البحر  
بفعل قلاعها المتنفخة وأثر الرياح ، تتقاذفها أمواج المحيطات وتأخذها بعيداً بعيداً عن موطنها . وتجرّأت  
الأرض وراء حدود بعد أن كانت ملكاً مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء ،  
وجرى الناس يكدّون بحثاً عن القوت ، ويحفرون الأرض منقبين عن معادنها المخبوءة في أحشائها ، وامتد  
١٤٠ بحثهم حتى أدركوا مملكة الظلال قرب نهر ستيكس ، وانتزعوا من أعماق الأرض تلك الأشياء التى غدت  
مصدر الآلام ، فاستخرجوا الحديد وكانت معه الوليات ، وأتبعوه بالذهب وكان أشد من الحديد وئلاً ،  
إذ كان كل من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال . وبالأيدى الأثمة شُهرت السيوف لتلقى  
السيوف مصلصلةً مجلجلة .

وعاش الناس على السلب والنهب لا يأمن الضيفُ مضيفه ، ولا يطمئن الزوجُ لحميه ، ولا يثق الأخُ  
بأخيه ، وغاض الوُدّ من صدور الناس ، وأصبح كل من الزوج والزوجة مصدر شقاء للآخر ، وغدت  
زوجات الآباء تدسسن السّم في الطعام لأبناء أزواجهن ، والأبناء يتآمرون على موت آبائهم وعلى الخلاص  
منهم ، وحلّ العقوق بالوالدين محل البرّ بهم ، ولم يعد للثقوى مكان في القلوب ، كما خرج الناس على

طاعة آلهتهم ؛ فعَمَّ الأرض البلاء وسالت الدماء ، فهجرتها أستراليا العذراء<sup>(٥)</sup> آخر من كان على الأرض من أرباب السماء .

## العمالقة

وتطلّع العمالقة إلى الأثير لا ييغون أن يكون أمناء كما لم تعد الأرض أمناء ، ولكي يغزوا ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم . وعندها أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه : فتداعى جبل أوليمبوس ، وتزحزح جبل بيليون من فوق جبل أوسا ، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جثث العمالقة هامة ، وإذا الأرض قد غُطيت صفحتها بدماء أبنائها العمالقة . ١٦٠

ولكى تبقى الحياة متصلة ، قيل إن الأرض قد نفثت من روحها في هذا الدم الدافئ فكانت مخلوقات لها سمات البشر عمرت الأرض من جديد . غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارَت فيهم نائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه ، فغلظت قلوبهم وعدا بعضهم على بعض<sup>(٦)</sup> .

## ليكاوون

ورأى ربّ الأرباب ، ابن ساتورن ، ما حاق بالأرض فثار مغضباً وزفر زفرة مدوية وقد تمثّلت في ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم علمها أحد من أفراد ملكوته ، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين ، سالكين سبيل المجرة التى تُرى وضياءً عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل . وكانت من حواليهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الغاصّة بهم ، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أُوتيت شيئاً من الجرة في أن أطلق عليه اسم پالاتينوس السموات العلى<sup>(٧)</sup> ، على حين كانت دور صغار الأرباب موزعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف . وفي قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب ، وقام كبيرهم على منصّته معتمداً على صولجان من العاج ، وهزّ خصلة شعره الرهيبة مرات ثلاثاً أو أربعاً فارتجت الأرض واضطربت النجوم ، ثم خطبهم بقوله : « لم أحسّ قط بمثل ما أحسّه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمى من اضطراب ، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذيال الأفاعى أن يلفّ كل منهم أذرعته المائة حول السماء لكى يستولوا عليها ، ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة من يشاركهم هذا الشرّ . وإن أخوف ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخطب ، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد في العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة . أقسمُ بأنهار العالم السفلى التى تسرى في غيضة ستيكس المندسة في أعماق الأرض أنى قد

جهدت في أن أقوم أمرهم ما استطعت ، غير أن ذلك لم يُغن شيئاً وكان لازماً أن يُبحث الشر من جذوره . غير أن أنصاف أرباب وأرواحاً وحوريات وساتيرا وجاناً في الغابات والتلال<sup>(٨)</sup> لم تكن قد أفسحنا لهم مكاناً في السماء ، لذا كان علينا أن نهيم لهم حياة على الأرض ، وما ظنّي بأنهم ناجون من شرّ لिकाوون الذي أعقب خمسين من الجاحدين وحاك الدسائس من حولى ، وأنا ربّ الصواعق وزمامها في يدي ، بل وربكم أيضاً .

وهمهم الأرباب وزجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذي غمر الناس حين حاولت فئة متمرّدة إخماد شعلة روما عندما انتهى إليهم خبر مقتل قيصر<sup>(٩)</sup> ، فلقد ألقى في روعهم أن ثمة دماراً سيحيط بالعالم يهزه من جميع أركانه . من أجل هذا نادى الأرباب بإنزال العقاب على من كان سبباً لهذا البلاء . وكما أن ولاء رعاياك يُشيع السرور في قلبك يا أوغسطس ، فكذلك كان يسعدُ چويتر بولاء أتباعه من الأرباب . ولكن چويتر ربّ الأرباب ردّهم إلى سكوتهم بإشارة منه ثم قام فيهم خطيباً فقال : « لقد نال جزاءه ولم يعد يخشى بأسه ، وإليكم ما فعل وما ناله على ما فعل . فلقد انتهى إلى أن ثمة مرجفات تؤذن بتدّ في هذا الزمان الذى يُظنّنا فهبطت من عليائه في الأوليمپوس على الأرض في صورة آدمى ، ورأيت ، ويا هول ما رأيت ! فلقد سمعت دون ما وقع عليه بصرى . وجُزّت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحيوانات المفترسة ، ومنها إلى كيلينه ، ثم إلى ليكاويوس القارسة البرد حيث غابات الصنوبر<sup>(١٠)</sup> . وما إن أذنت الشمس بمغيب وأوشك الليل أن يرخى سدوله ، حتى كنت على باب منزل لिकाوون طاغية<sup>(١١)</sup> أركاديا . وعندها خلعت عنى صورة آدمى وعُدّت إلى ألوهيتى . وما إن رأى الناس حتى ازدحموا حولى مصليّين خاشعين ، فأثار ذلك سخرية لिकाوون وقال للناس غاضباً : سترون إن كان من التفقتم حوله إلهاً أم غير إله ، وكان في عزمه أن ينقضّ على غرة منى فيقتلنى وأنا نائم ، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلان ألوهيتى وأنى من البشر . وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس<sup>(١٢)</sup> ، فإذا هو إمعاناً في فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتار ، ويلقى بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة في النار ، يجعل منه شواء . وأعدّت المائدة وُصِفَت الصُحُف وجلس يلتهم ما فيها في نهم وشره . فنقمتُ عليه فعله وأرسلتُ على بيته شواظاً من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهة زوراً وبهتاناً . غير أن لिकाوون استطاع أن ينجو ، ففرّ هارباً إلى الريف وهو نائر غاضب . وهناك وجد نفسه أحرس لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة ، وألفى ما عليه من ثياب قد استحالت شعراً شائكاً ، وإذا ذراعاه قد استحالتا ساقين ، وإذا هو قد مُسِخَ ذنباً من أشرس ما تكون الذئاب ، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نهشاً ويقتلها تقتيلاً . وكان على الرغم من صورته تلك التى استحالت إليها لا يزال يحمل شيئاً من ملامحه الأولى ، فلقد بقى له شعره الأشيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته ، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيهما من نظرات مرهوية . ولم تحرق الصاعقة التى أحرقت داره غيرها من دور الفساد ، وهكذا سوف يظل في أنحاء الأرض أثر لربة الانتقام<sup>(١٣)</sup> التى لا تمارس غير القسوة . ألا إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجمام ، لذا قرّ قرارى الذى لا رجعة فيه أن يُوفى كلّ جزاءه . »

وهنا صاح بعض الآلهة مناصرين چوپيتر فيما قرّر مطالبين إياه بالمزيد ، على حين لزم آخرون الصمت . غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقي البشر من عذاب ، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضى على هذا الجنس البشرى كله ، وما سوف تكون عليه معابدهم في الأرض بعد أن لن نجد منهم من يختلف إليها مقدماً القرابين ، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكم چوپيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية . وأحسّ ربّ الأرباب ما يساور أربابه من خوف فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجري دون إضرار ، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله ، وسيولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات .

وكان چوپيتر على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض لتأتى على من فيها أجمع ، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الملهبة أن تشبّ النار في طبقات الجو العالية التي يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها ، كما ذكر ما جاء في لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع ، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الدمار التي أعدها « الكيكلوبيس »<sup>(١٤)</sup> ، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتى على البشر أجمع . فحشد رياح الشمال في كهوف أيولوس ، وضمّ إليها الأعاصير التي تبدّد السحب الكثيفة ، ثم أرسل رياح الجنوب من محبسها ، فثارت تضرب بأجنحة مبلّلة في غياهب الظلمات وثيدة لثقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب يُنذر بمقدمها ، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفقاً عمّ الأرض وفاض في أرجائها . وكانت إيريس رسولة جونو [ هيرا ] وراء هذا في ثوب يجمع بين ألوان قوس قزح تنشئ السحب ٢٦٠ الأولى إنشاءً وترسل بها مدّدا في إثر بعضها ، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر يُقتلع ، وإذا المزارعون يصلّون من أجله طويلاً ويكون في حسرة لذهاب جهدهم طوال العام سدى . ولم يقنع چوپيتر بما تحت يديه من عوامل الدمار التي يسخرها حسب هواه في مملكته بل طلب إلى شقيقه نپتون [ پوزيدون ] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازوردية على الأرض ، فإذا البحار والأنهار والسماء بما ترسل من أمطار كلها حرب على الأرض لم تترك فيها ركناً مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلا أتت عليه ، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه .

وأرسل كبير الآلهة يستدعى الأنهار ، وما إن مثلوا أمامه في قصره حتى ابتدرهم قائلاً : « ليس أمامنا وقت نبذّه الآن في مُسهب العظّات ، فأمامكم مُهمّة عاجلة : أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدّين إلى أوطانكم تكتسحون ما بها من أسوار ، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان » .

هكذا كانت أوامره ، فعادت الأنهار إلى مواطنها ، وبعد أن فتحو أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر في سيول عاتية .

وضرب نپتون الأرض بعصاه الثلاثية [ صولجانه ذى الشُعَب الثلاث ] فارتجفت واهتزت ، وانشَقَّت مجار للمياه تدفقت فيها وفاضت على الجانيين ، فإذا هى تقطع النباتات من جذورها ، وتُغرق المحاصيل ٢٨٠

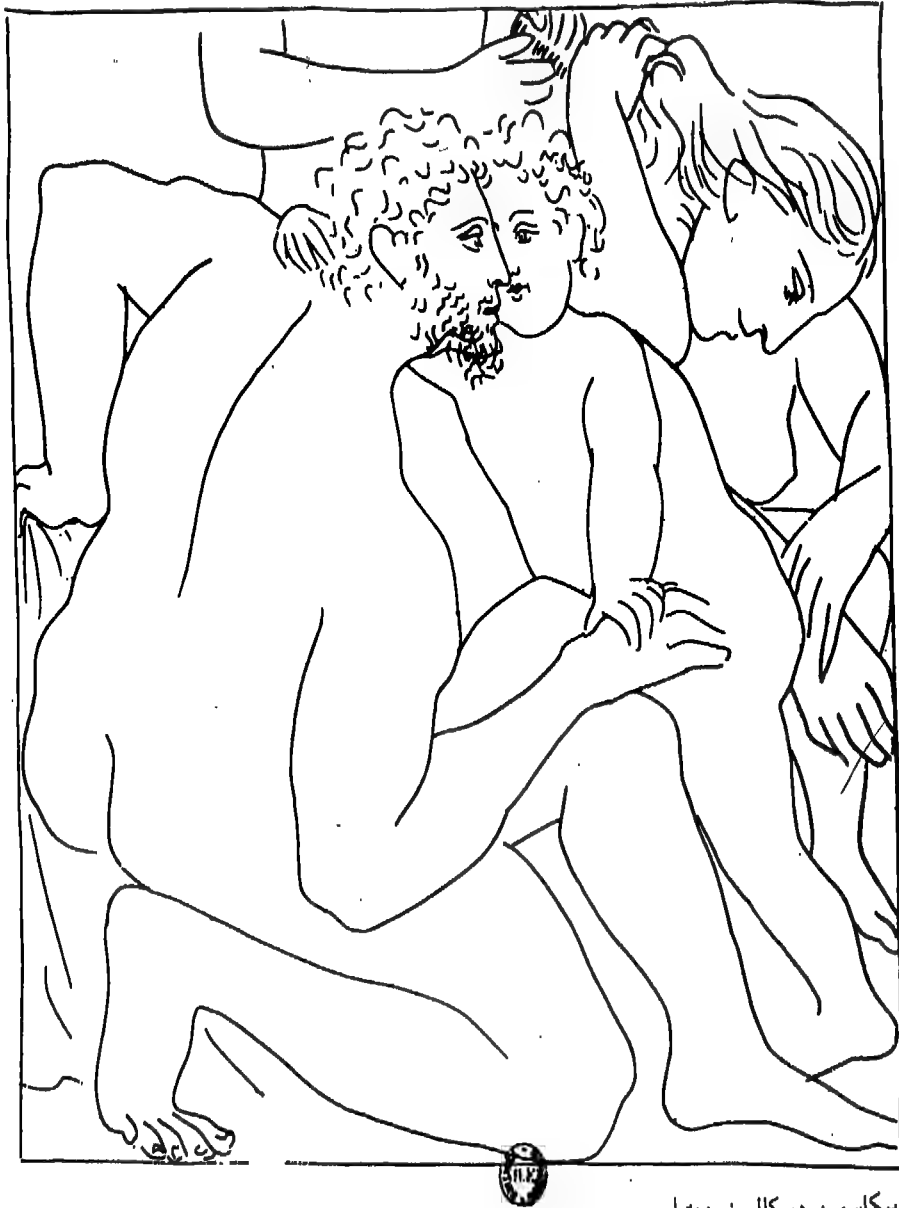
والكروم والناس والماشية ، وتهدم البيوت على من فيها والمعابد على المصلين بها ، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوَقًا ، وتغمر الشاهقات فلم يعد يُرى منها غير قممها . ولم يفلت مبنى من هذه الكارثة إلا دمرته موجة أعقبت من الأولى فتهاوى سطحه تحت الماء ، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر ، بل غدت الأرض كلها بحرًا بلا شطآن . وهرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصمًا من الغرق ، ونفرٌ إلى السفن ذوات الحيازيم<sup>(١٥)</sup> المقوسة يضربون بالمجاديف فوق أرض كانوا يخطون فيها بالمحاريث ، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التي غمرت الحقول وكانت تعجّ بالأمس بحنطتها والبيوت التي كانت فيما مضى مأواهم . وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقة بغصون أشجار الدردار . وأرسى بعض الملاحين سفنهم حيث كانت المراعى الخضراء ، وأحيانًا كانت السفن المسطحة القاع تمسّ الكروم التي ترقد تحتها . وفي الأماكن التي كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها آمنة انسابت كلاب البحر القبيحة تشقّ طريقها بين الأمواج ، وانتابت الدهشة حوريات النيريايس حين رأين الغيصات والمدن والدور مدفونة تحت المياه ، واحتلت الدلافين الغابات تلوى الأغصان العالية وثمرٌ جذوع أشجار البلوط التي ترتطم بها . وسبحت الذئب بين قطعان الماعز ، وحملت الأمواج النمر والأسود المصفرة السُمر . أما الخنازير البرية فلم تُغن عنها أنيابها القاطعة ، كما لم تسعف الأوعال سيقانها القوية على العدو ، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعاً . وحلقت الطيور في الجو ما شاءت أن تحلق حتى كَلَّت أجنحتها فهوت في ذلك الخضم ، وإذا هذا الفيض قد غطى التلال وبلغ ذروة الجبال ، وإذا الجنس البشرى قد فنى أكثره ، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع<sup>(١٦)</sup> .

## ديوكاليون وبيرا

وكان فيما غمر الماء أرض فوكيس<sup>(١٧)</sup> الخصب التي كانت حدًا فاصلًا بين حقول بويوتيا وحقول أويتا . وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمتان تكادان تلمسان النجوم وتخترق سطحه السحب ، رسى عليه الفلك الذي كان يحمل ديوكاليون وزوجته . وكان ديوكاليون بن پروميشيوس<sup>(١٨)</sup> خير البشر وألزمهم للطريق السوى ، وكانت زوجته بيلا ابنة إيميشيوس أكثر النساء إجلالًا للآلهة . وكان أول شيء فعله الزوجان أن اتجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا ، وإلى ثيميس ربّة الوحي الكاشفة عن الغيب ، فقاما يصليان لهن من أجل نجاتهما . ورأى جوبيتر الأرض وقد غطتها المياه الآسنة ، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عدّتهم آلافًا غير واحد هو ديوكاليون ، وأنه لم يبق من النساء اللاتي بلغت عدّتهن آلافًا غير واحدة هي بيلا ، وكانا من عباد الآلهة المخلصين لذلك نجوا من الهلاك وسلمت لهما حياتهما .

وأطلق جوبيتر رياح الشمال من محبسها فبددت السحب بدّدا ، وانفثع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة ، وسكنت الأمواج وهدأت ثورة البحر بعد أن ألقى ربّ البحار والأمواج صولجانه ذا الشعب الثلاثة من يمينه . وكان نبتون قد طلب إلى تريتون أن ينفخ في صُوره

الخلزوني ، ذلك الصُّور الرنان الذى يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ مخرج الصوت . وما إن جلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض ، وهذأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصُّور إلى اليوم . ثم ضمّ تریتون شفّتيه على الصُّور ثانية ، فصدر عنه صوت غمر الشيطان التى يطلع عليها ٣٤٠ فوبيوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية فى الفضاء ومتنهاها . وثبّت لحية تریتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطر منها وأمر المياه بالانحسار ، فإذا مياه الأرض كافة ، ومياه السهول التى لم تنحسر والأمواج فى أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر السامى . واستقرت الأنهار فى مجاريها والبحار فى وهاداتها ، وبدت تربة الأرض نديّة ، وبرزت التلال والجبال ، وكلما تراجعت المياه اتسعت مباحة الأرض ، ومضت أيام طويلة قبل أن تنفض الأشجار الطين عنها . وعادت الحياة سيرتها الأولى .



بيكاسو : ديوكاليون وبيرا

ونظر ديوكاليون فرأى نفسه وحيداً ، ليس إلى جواره في الفضاء الممتد غير ييرا فجزع ، وإذا عيناه تدمعان ، فمال إلى ييرا يقول لها « يا ابنة عمى وزوجتى ، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدر لها أن تبقى بعد فناء النساء كلهن ، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجه . لقد جمعت ما بيننا الأهوال ، فليس ثمة على الأرض غيرنا ولا تطالع الشمس غيرنا في مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليمّ البشر . وإن على ذلك غير مطمئن فقد يصيبنا ما أصاب أخوتنا بالأمس ، فلازال خيال السحب فى مخيلتى يروعنى . ثرى ، على أية حال كنا سنكون لو قُدر لنا ألا نلتقى ، وهل كنت ستقوين على مغالبة المخاوف وحدك ، ومن كان سيقف إلى جنبك ليعينك على المخاطر ؟ أقسم لك غير حاث أن أركاك بحياتى ، وأنى لا أملك غير أن أقذف بنفسى فى اليمّ لو عجزت عن أن أدفعه عنك ورأيتك يبتلعك يا زوجتى الحبيبة . كم أتمنى لو أنى أعدت العالم عامراً كما كان ناهجاً النهج نفسه الذى انتهجه أبى ، وكفى أتمنى لو استطعت أن أنفخ فى الصلصال الذى تصنعه يداى روحاً . إن بقاء الجنس البشرى أمره إلينا وحدنا ، ولهذا جمعت بيننا مشيئة الآلهة . »

وبكت ييرا لكلمات ديوكاليون ، ثم وقفت إلى جانبه يضرعان إلى الربّ أن يلهمهما العون . ثم مضيا إلى مياه نهر كيفيسوس [ فى بويوتيا ] التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم ، فغسلا بياهاه رأسيهما وملابسهما ، ثم تقدما إلى مذبح الإلهة المقدسة ثيميس ، وكان سقفه المسنّم قد أحالت لونه الأعشاب المتخلفة عن المياه المنحسرة وساد الظلام هيكله ، فركعاً ولثماً أرضه الندبة خاشعين وتوجّها إلى الإلهة ثيميس قائلين : « هل من مطعم فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الخالصة فترفع عنا غضبها ، ألهمينا يا ثيميس كيف نقوى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى ، أيتها الربّة الرحيمة كوني لنا عوناً فى محنتنا . » وأخذت الربّة الشفقة بهما فتمتمت بهذه النبوة : « اخرجوا من معبدى ، وضعا على رأسيكما غطاء ، وتحققا من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسكما ، واتركا وراءكما عظام أمكما الجليلة » (١٩) . وكان كلام الربّة غير بين فتملكهما العجب ، وعزّ على ييرا أن تستجيب لأمر الربّة خشية الإساءة إلى طيف أمها إذا هى أزعجت عظامها فى مرقدها ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفقتها الراجفتين بالدعاء للربّة أن تغفر ترددها . غير أنها أخذت يتدبران كلمات الربّة الغامضة ، وانتهى ديوكاليون بن پروميشيوس إلى أن قال ليرا ابنة إيميشيوس : « إن الربّات على حق ، وهن لا يُشرن بما لا تُحمد عقباه ، وإنى لأخال أن الأم الجليلة التى جاءت على لسان الربّة ليست غير الأرض ، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى باطنها ، وأن علينا أن نترك هذه الأحجار وراءنا . »

وآمنت ييرا بما خال ديوكاليون ، غير أنها بقيت يخالجها شىء من الشك فيما أشارت به الربّة ، وكان لابد لها من أن يمضيا فى التنفيذ ليبين لها صدق ما قالت . فهبطا من على رأس الجبل ورأسهما مغطيان ، وقد تحقفا من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسهما ، وأخذتا يلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الربّة . مَنْ يصدّق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به ؟ فإذا الأحجار تلين ، وإذا هى تتشكّل أشكالاً ، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سمات واضحة بل كانت أشبه بتمائيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصقل بعد . ثم ما لبث أن استحال الحجر لحماً فكسا تلك الهياكل

العظمية ، كما استحالت العروق التي كانت تتخلل الصخور عروقاً في تلك الأجسام الأدمية ، وكان كل حجر يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة الرجل ، كما أن كل حجر كانت تُلقيه پيرا يأخذ صورة المرأة . وإلى هذه النشأة القاسية الصلبة يُعزى كل ما في الجنس البشرى من عنف وغلظة وقسوة ، فكما نشأ كان .

## پيثوث

عندما أطلقت الشمس المشرقة أشعتها بالدفء بُدّد الوَمد المتلبّث من عهد بعيد أخذت الأرض تنشقّ عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع ، وبدأت الوحول والمستنقعات الندية تعلو لتفسح للبذور الدفينة أن تُطلق سيقانها بعدما تشقّ باطن الأرض الذي كان أشبه بالرحم يضمّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه ، ٤٢٠ ومع مرور الزمن تعدّدت تلك النباتات ألواناً وأصنافاً . وإنا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبّات السبعة حين يفيض تاركاً على الأرض الغرين ، فما يلبث ذلك الغرين بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعتها أن ينفرج عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقلّبون الأرض بفؤوسهم ، منها ما اكتمل نموه ويات على وشك أن ينبض بالحياة ، ومنها ما دبّت الحياة في عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلصلاً لم يتشكّل بعد . ثم ما تلبث الهوام أن تتدرّج في سلّم الحياة بين الدفء والوَمَد وهما قوام الحياة ، كما هي الحال في النار والماء ؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد ، فمرّد حياتنا إلى دفء هذه ونداوة ذاك . وهذا التواءم القائم على التضاد بين الدفء والنداوة هو سرّ الحياة على الأرض<sup>(٢٠)</sup>

وحين بعثت الشمس الحانية في السموات بالدفء إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثت على الأرض ذراري كثيرة ، منها ما جاء على أنماط ما كان ، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها ، ومنها پيثون المهول الذي ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض . ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب في قلوب الجنس البشرى الحديد ، فقد كان في جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفترش سفح الجبل أجمع ، فهالت أبوللورامي السهام ضخامته وخافه على الموجودات التي على سطح الأرض . ولم يكن أبوللو يُطلق سهامه قبل ذلك إلا على شارد الظباء أو مخلوع الفؤاد من قطعان الأغنام البرية ، غير أنه ما إن وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سدّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً ، فإذا هذه السهام تنفذ في جسمه وتمزّقه جميعه ، وإذا الدم يتدفّق غزيراً من جراحاته العديدة أسودّ قائماً . وخلد الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمى الألعاب البيثوثية<sup>(٢١)</sup> نسبة إلى هذا الأفعوان الذي قهره . وكانت ثمة تيجان من أغصان شجر السنديان تُمنح للفائزين في تلك المباريات التي كانت تنتظم ألواناً من العدو والمصارعة وسباق المركبات ، ولم يكن الغار قد عُرف بعد . ومن ثم مضى فوبيوس [ أبوللو ] يبحث عن

شجرة تزوده بإكليل من أغصانها الحانية يحوط رأسه ويتوج هامته ذات الشعر السبط المسترسل ، وكانت السنديانة أول شجرة صادفته فانتزع منها أوراق الإكليل .

## دافنى

ووقع فوبيوس لأول مرة في غرام دافنى ابنة إله النهر بينيوس<sup>(٢٢)</sup> ، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان ذلك من تدبير كيوييد الذى شاء أن يثار من أبوللو لسخريته منه ساعة أحسّ الزهو لفتكه بالثعبان بيثون ، ورأى كيوييد يجتذب قوسه المشدود فقال له : « فيم تطاولك أيها الصبى العرييد باستخدام أسلحة المحاربين ؟ إن كنتى وحدهما هما اللتان خلقتا لحمل مثل هذه السهام ، إذ أنا وحدى الذى يقوى على أن يصيب فيضمي من يعترضه من الحيوان الضارى أو يناوئه من بنى الإنسان . وحسبك شاهداً على ذلك آثار سهامى العديدة النافذة في جسد بيثون السام ، ذلك الثعبان الذى كان يفرش المساحات الفسيحة . دع عنك السهام واقنع بشعلتك وسيلة تؤجج بها الهوى ، فما أقصر باعك عن أن تبلغ حظى من الثناء » . فردّ عليه كيوييد بن فينوس قائلاً : « على رسلك يا أبوللو ، فأنت إن قويت على أن تصيب بسهامك الحيوان والإنسان فإنى بقوسى وسهامى قادر على أن أصيبك فلا أخطئك ، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان مجدى أنا حين أبلغ بسهامى الآلهة ؟ » .

وما إن فاه كيوييد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء ، وإذا هو يحطّ على قمة جبل پارناسوس . عندها نثر كنانته واختار سهمين : أحدهما ذهبى اللون محدّد الطرف يشعل جذوة الحب في القلوب ، وثانيهما رصاصى اللون ثلم الحدّ يخمدّها . وسدّد كيوييد هذا السهم الأخير إلى دافنى ابنة بينيوس ، على حين رمى أبوللو بالسهم الأول فنفذ في لحمه إلى النخاع ، فإذا أبوللو قد هام حباً ، وإذا دافنى تفرّ هاربة إلى الغابات وقد ضمتّ شعرها بشريط كما فعلت الإلهة ديانا حين أبت أن تستجيب للحب .

ومن قبلُ هام كثيرون بدافنى ابنة بينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مُلقية بالآلما يدور حولها من هيام الرجال بها ، وما دار في خلدها شيء عن الحب أو عن الزواج . وما أكثر ما لامها أبوها على عزوفها عن الرجال وتمنّى عليها لو تزوجت وأعقبت بنين وبنات ، وكم كان وجهها يحمرّ خجلاً حين كان يحذّنها في شيء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث جُرمًا ، وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال في موضوعه الأثير ، إذ كانت تُؤثّر أن تعيش حياة عذرية كما عاشت ديانا ابنة جوبيتر منذ الأزل . ولم يجد الأب بدا من أن ينصاع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها في هذه الأمور ، غير أن جمالها الفتان وشبابها الطاغى ما لبثا أن غلباها فقاداها إلى غير ما تشد وتريد . وكان أن وقعت عينا فوبيوس على دافنى فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبنى بها ، وأخذ يسعى سعيه لأن يظفر بقلبها إذ كان

٥٠٠ حبها قد ملأ عليه قلبه كله وملأ عليه جوانحه . فكان إذا نظر إلى شعرها متهدلاً على جيدها إلى كتفها تمنى أن لو كانت عقصته حتى لا توله ، وكذلك كانت تُسببه عيناها البرأقتان بريق النجمتين الساطعتين ، وتُغريه شفتاها الحمراء ، وتفتنه أناملها الدقيقة ، ويدها البضتان ، وذراعاها العاريتان ، كما كانت تشغل خياله مفاتها المحجبة عن الأنظار .

وما إن أحست دافنى متابعة فوبوس لها حتى ولت الأدبار في سرعة الريح ، ولم تلبث لحظة لتستمع إلى توسلاته وهويها قائلاً : « أيتها الحورية يا ابنة بينيوس لا تفرى منى فما أنا بعدو تخشيه . رفقا بى ، ولا تفرى منى فرار الحبل من الذئب ، أو الغزال من الأسد ، أو الحمامة من الصقر ، فما يحفزنى إلى ملاحقتك غير الحب الذى يتأجج فى صدرى . كم أشفق عليك وأنت تفرين أن تزل بك قدماك فتدئبها الأشواك وأكون أنا الذى جررتك إلى هذا المصير . رفقا ولا تسلكى سبيلا غير سوية ، وقرى حيث أنت ، وإن أعدك أن أقصر خطاى وألا أسرع . وما عليك إلا أن تسأل نفسك : من هذا الذى خلبت لبه وسحرت قلبه ؟ فلست فلاحاً يعيش فى الوديان ، ولا راعياً يرعى أغنامه بين هذه المراعى . أيتها الفتاة الغريبة ، إنك لا تعرفين ممن تهربين وإلا لما هربت . إننى سيد دلفى وكلاروس وتينيدوس وقصر باتارا<sup>(٢٣)</sup> ، أنا ابن چوپتر . بدهاى أعرف ما كان وما يكون وما سيكون ، وبقدرك ترد أوتار القيثارة أنغام الموسيقى . إن سهامى لا تطيش على الرغم من أن ثمة من هو أقدر منى على التسديد . أنا الطبيب الأسى ، والطب أنا ابتدعته ، وما من خاصة لعشب تبدو إلا وعندى علمها . ولكن وأسفاه ليس ثمة من الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب ، وما أشقانى بقدرتى إذا ما أعجزتنى عن عون نفسى على حين أقدر على عون الآخرين . »

وكان فوبوس على وشك أن يسترسل فى قوله ، غير أن ابنة بينيوس ولت عنه فراراً حياء وحذراً وخلفته حيث هو ، ولم تنح له فرصته ليقول ما يريد ، وعبت الرياح بثوبها فجعلته يعرض بجسدها فيجسد مفاتها ، كما عبت بشعرها فإذا هو يتهدل متموجاً ، وإذا هى بهذا وذاك أبهى ما تكون . ولم يقع الإله الشاب بهذا الغزل ، فدفعه الهوى إلى أن يسرع خطاه ويطاردها ، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال<sup>(٢٤)</sup> الذى يلمح أرنباً برياً عن بُعد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو فى إثره ويلاحقه ، وكلما خال أنه أدركه ومد خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه ، وهكذا يمضيان لا يدرك أحدهما الآخر . وكانت هذه هى حال الإله والفتاة .

٥٤٠ وما إن أحس الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خف فى إثرها ، وإذا هما يعدوان ، كل يريد تحقيق هدفه ، العذراء يحدوها الأمل فى أن تنجو ، والإله يملؤه الخوف من أن يخفق . وكان الإله أسرع عدواً لأن أجنحة الحب كانت تعينه ، فإذا أنفاسه تقع على شعرها المتطاير ، وإذا هى تكلم ولا تقوى على العدو ، فتقع خائفة القوى إلى جانب مياه بينيوس تصرخ قائلة : « أمدد إلى يد العون يا أبتاه ، ودع مياهاك — إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً — أن تمسخ جمالى هذا الذى أثار الإعجاب بى فى قلوب الجميع . » وما إن أتمت كلماتها حتى استرخت ، وإذا صدرها قد استحال جذع شجرة ، وإذا شعرها

أوراقاً ، وإذا ذراعاًها أغصاناً ، وإذا قدماها جذوراً ، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة ، ولكنها على هذا بدت رائعة .

ولم يُثن هذا المصير فوبيوس عن حبه لها ، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فتىء ينبض تحت اللحاء ، وأخذ يحتضن الأغصان ويفرق الشجرة بقبلاته ، فإذا هى تتضاءل وتضمّر فصاح بها قائلاً : « إذا كان ثمة ما يحول بينك وبين أن تكونى عروسى ورفيقة حياتى ، فابقى لى كما أنت شجرة أهيم بها وأطوف ، ولسوف يكون شعرى فى وصفك ، ولسوف تتغنى قيثارى بمدحك ، كما سوف تكون سهامى فى الدود عنك ، ولسوف أجعل من أغصانك تيجاناً لهامات المحاربين عندما يشهد الكايتولينيوس فى روما مواكب النصر ، ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفيّة مخلصة ، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوط العالقة بها . وكما سيقى رأسى يزينة الشباب ، فكذلك سيظل رأسك تجلله الخضرة التى لن يعتورها ذبول » .

وما إن انتهى الإله من حديثه هذا حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرخت غصونها ، وكأنها بهذا رذاك تعلن عن رضاها بكلامه وقبولها لمطلبه .  
ولم يعد بعدها عند الإله المخلص أبوللو ما يقوله .

## إيو وأرجس وسيرينكس

وثمة غيضة فى بلاد هايمونا<sup>(٢٥)</sup> تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تسمى تيمير . وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر بينيوس فتخلف على صفحتها زبداً رايباً . وهذا النهر تتجمع مياهه أول ما تتجمع من تساقط الأمطار على جبال پندوس ، ثم تنصبّ منحدره على سفوحه فتستحيل أبخرة ثم سحباً متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات ، فإذا لها صوت مدوّ يصم الأذان وتردد صدها فى الأرجاء البعيدة . وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر ، كان ثمة كهف قد شقّ فى الصخور يعدّ محراباً لهذا النهر الكبير ، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجرى كل نهر إلى حيث كُتب له ويقضى بين الأمواج كما يقضى بين الحوريات اللاتي يقطن مجراه . وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده : نهر سيرخيوس الذى تحفّ به أشجار الحور ، ونهر الإنيبيوس ذو المياه الفائرة ، ونهر أبيدانونس العجوز ، ونهر الأمفريزوس الهادى ، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى ، لا يدرى أى منهم هل يتقدم إلى نهر بينيوس والد دافنى مهنتاً أم مواسياً . ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجداول الأخرى التى تجرى كلها متدفقة لتلقى بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة . ولم يتخلف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس فقد قبع فى الكهف لم يغادره ، ولبت يغذى مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيو وغابت عنه أخبارها ، فلم يعد يعرف لها مقراً ولا يسمع عنها كلمة ، ولم يعد يدرى أمع الأموات هى أم مع الأحياء .

ولقد كان من قصة إيو هذه أن رآها چوپيتر مرة وهي آية من شاطيء نهر أبيها إيناخوس ، فتصدى لها يقول : « أيتها العذراء ، إنك لست أهلاً لغير چوپيتر ، ولسوف يسعد بك من تكوينين له ، ولكن ترى من سيكون هذا السعيد ؟ تعالى نغص معاً في ظلال تلك الغابات الباسقة ننعنم ونهنا . ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظاً من نار ألهمت به وجه الأرض فلم تعد تقوى على مسّه قدم ؟ هنالك في ظلال أشجار الغابة سوف تجدين من نفحات الهواء ما يعوّضك عن لفح الشمس ، سوف تجدين من تربتها الندية موطناً سهلاً ، ولكن حذار أن تمضي إلى الغابة وحدك فإني لا آمن عليك من شرّ الحيوانات الضارية . أما في صحتي فسوف تكوينين في رعاية إله ليس كغيره من عامة الآلهة ، بيده مفاتيح السماء ، فهو الذي يطلق الرعد والبرق ، تعالى إليّ ولا تحاولي أن تهربي مني » .

وما إن سمعت إيو كلمات چوپيتر حتى ولّت هاربة تطوى مراعى ليرنا ثم حقول لوركيون الزاخرة بالأشجار . غير أن چوپيتر ما لبث أن أرسل السحب فغشّت وجه الأرض فإذا هي ظلام كلها ، وإذا إيو أعجز ما تكون عن أن تمضي في هربها ف وقعت فريسة لچوپيتر ، وإذا هو يعدو عليها .

وتطلّعت چونو زوجة چوپيتر من مكانها في السماء إلى أرجوس ، ودهشت إلى هذه السحب التي أحالت النهار ليلاً فعجبت ، وزاد من عجبها أن هذه السحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض . وإذا كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مرات عدة متلبساً بما لا ينبغي له أن يقترفه ، ولما لم تجده حولها في السماء ساورتها الظنون بأنه لا بد مرتكب شيئاً إداً ، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمرت السحب أن تنقشع ومضت تبحث عن زوجها فيما حولها . وكان چوپيتر قد توقّع أن زوجته لا بد قادمة ، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرة ذات أرداف وضّاءة ، غير أنها على الرغم من هذا التحول ظلت جميلة فائنة .

وتقدمت ابنة ساتورن إلى البقرة تطربها زيفاً وتمتدح جماها وكأنها لا تعلم من الأمر شيئاً ، وساءلت چوپيتر قائلة : « أنى لك بهذه البقرة ، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمي ؟ » . ويفطن چوپيتر إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن ، ويسعى إلى الحيلولة بينها وبين الخوض في الموضوع فيقول لها كاذباً : إنها ابنة الأرض . ولكن ابنة ساتورن كانت أدهى منه ، فطلبت إليه أن يعطيها البقرة هدية . ويغمّ الأمر على چوپيتر ، فهو إن نزل عن البقرة فقد ضحى بأعزّ ما يملك ، وإن هو ضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير بارّ بها إذ لم يسعفها بحاجتها . وتنازعه عاملان ، عامل الحب يُشنيه ، وعامل الوفاء لزوجته التي تعقد بينه وبينها صلة من دم ومولد ، غير أنه أثر ثانيهما ووهب زوجته – التي هي شقيقته في آن معاً – البقرة حتى لا يكون عاقاً ، وجرحصاً على ألا يثير في نفسها شكاً بأنها كائن أسمر من مثل هذه البقرة .

وتلقّت الزوجة الإلهة الهدية في شيء من الحذر ، فلقد كانت تخشى أن يكون چوپيتر قد بيّت شراً وأن قد يعود فيسلبها إياها . من أجل ذلك وكلت إلى ابن أريستور ، وكان يدعى أرّجس حراستها . وكان لأرّجس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالي على حين تبقى سائرهما يقظة ، أي أنه كانت من تلك

العيون المائة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً . وكانت تلك العيون تمتد إلى كل مكان فتري ما بين يديه وما خلفه ، وما عن يمينه وما عن يساره . وهكذا ظلت إيو في محيط بصره استقبلها أو استديرها . وكان يدعها مع النهار ترعى من أوراق الأشجار والأعشاب المرة ، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع في رقبتهما رباطاً .

وكانت إيو إذا ما عَنَ لها أن تستريح افترشت أرضاً لا عُشب فيها ، وكان شرابها من مياه كدرة . وكم حاولت أن تشكو إلى أَرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعين ترفعهما إليه بالشكوى ، فكانت ترسل في الجو خواراً تترعج هي نفسها له . وحين قصدت يوماً إلى شواطئ إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيها مضى ، هالها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولت خائفة مذعورة . ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفنها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها . وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها ، يُطعمها الأب بيديه الأوراق التي يقتطفها فتلثم بيديه وتلعقها بلسانها ، وهي لا تملك أن تُفصح عن شيء ، وتلمس هذا العجز من نفسها فتتهمر دموعها . واهتدت أخيراً إلى أن تخطّ على الأرض قصبتها ، ويطالع إيناخوس ما خطّت فيعرف أنها ابنته ، فيتعلّق بقرونها ورقبتها وهي ترتجف بين يديه فيناجيهما قائلاً : « ما أشقاني ، أنت ابنتي التي مازلت أطلبها في كل مكان ؟ لقد كان فكدك أهون عليّ من أن أراك على تلك الصورة ، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبيني ، وكل ما أسمعه منك تهديدات تصدر عن صدرك المحزون ، ثم ذلك الحوار الذي يذكّرني بخوار البقر . لقد كان همّي أن أرفك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات ، وأن أهتّم لك بيت عُرسك بفراشه ومشاعله ، أما الآن فلن يكون لك زوج إلّا من أبناء جنسك ولن تلدى غير ذرية من البقر . لو لم أكن إلهاً لأثرت الموت هرباً بما أرى . وعلى هذا النحو سأظل في غمرة الحزن إلى الأبد ، .

وبينما كان الاثنان في حزنهما يبت كل منهما لواعجه للآخر ، طلع عليهما أَرْجُس برأسه ذي العين المائة ، وانتزع الفتاة من يدى أبيها وساقها أمامه إلى المرعى ، وارتقى جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك .

ولم يعد سيّد الآلهة يطبق احتمال كل هذه الآلام التي ألّت بحفيدة فورونيوس ، فصاح بابنه ميركوربوس [ هرمس ] من مايا إحدى نجوم الپلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضى على أَرْجُس . وسرعان ما لبى الابن أمر أبيه فضمّ جناحيه إلى رجله وأخذ صولجانه في يديه ، ذلك الصولجان الذي يُفرق من مسّه في نوم عميق ، كما ألقى على رأسه غطاءه ، حتى إذا ما أشرف على المكان الذي يضمّ أَرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه في يده وشقّ طريقه فوق دروب متعرّجة متنكراً في صورة راعٍ من الرعاة يهشّ على غنمه ، وأخذ ينفخ في مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع ، كما شَده بها أَرْجُس فناداه قائلاً : « إلىّ يا هذا ، ولتكن من تكون ، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصخرة ، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير ، كذلك

لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره » . وجلس حفيد أطلس يحدث أَرْجُس حيناً وينفخ في مزماره حيناً ، علّه بتلك النغمات الرتيبة يجعل أَرْجُس يهجع فينام ويغمض عيونه . وغالب أَرْجُس النوم ما استطاع ، يغمض بعض عيونه ويفتح بعضها ، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف أبتدع إذ لم يكن له عهدٌ به . فأخذ رفيقه يحدثه ويقول : « ثمة في جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد<sup>(٢٦)</sup> في نوناكريس<sup>(٢٧)</sup> حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس ، كثيراً ما كانت تفلت من مطاردة الساتير والجان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصيبة ، وكانت تدين بإلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكيها في عفتها ومسلكها ، كما كانت أشبه ما تكون بابنة لاتو [ديانا] في تشمير ردائها بحزام ، ومع أن قوسها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذهب غير أن اللبس بينها كان ممكناً . وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكييوم ، رآها پان ٧٠٠ وعلى رأسه إكليل من الصنوبر » .

وانبرى ميركورْيوس يروي قصة هرب الحورية التي لم تحفل بتضرعات پان وفرارها إلى ضفاف لادو<sup>(٢٨)</sup> . وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توسلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسحنها ، وذكرت لهن كيف كان پان يمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها ، وكيف أن القصبات كانت تنقل صدى أشجانه وترسلها في الهواء أنث رقيقة حزينة . وفُتن پان بحُسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها : « فليبقين حديثي معك على هذا النحو إلى الأبد » . وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طولاً ، والتي ضُم بعضها إلى بعض برباط من الشمع .

وحين أخذ ميركورْيوس يتيهماً لاستكمال قصته وجد أَرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه كلها ، فأمسك عن الحديث ، وأخذ النعاس يشتد شيئاً فشيئاً بأَرْجُس حين مسّه بصولجانه السحري . وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوس فأطاح برأسه وطوّح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلطّخت الصخرة كما تلتطّخ سطح الهاوية ، ثم وقف يقول : « ها أنتذا الآن يا أَرْجُس جثة هامدة بلا ٧٢٠ حراك ، قد ذُبل خذاك فلم تعدّ لهما نضرتما ، واطلم نور عيونك المائة وكأنه عليها غشاوة » . غير أن ابنة ساتورن جمعت بعد تلك العيون المائة ورصّعت بها ريش طاووسها كما رصّعت ذيله بجملته من الأحجار البراقة<sup>(٢٩)</sup> .

وتصدّت نچونو لغريماتها الأرجوسية وهي أشد ما تكون غضباً ، فوكلت بها إحدى « الإيرينات » ربّات الانتقام ، وزوّدت البقرة بمنخاس خفى في صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصطحبة دُعها أني حلت . وبقيت أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة . وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه ، رافعة رأسها متجهة إلى السماء — وما كانت تملك غير ذلك — وعيناها تذرّفان الدمع ، وهي تطلق خواراً شديداً ، وكأنها تجار إلى جوبيتر ضارعة أن يجعل لهذه الآلام نهاية . وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشهد على نفسه مستنقعات نهر ستيكس : « لا تخشى بعد هذا اليوم منها بأساً » . واطمأنت الإلهة إلى ما قطعه الإله على نفسه ، وعادت ٧٤٠

إيو إلى صورتها الأولى ، فتساقط ذلك الشعر الذى كان يكسو جلدها ، وغابت القرون شيئاً فشيئاً ، وارتدّت عيناها إلى استطالتهما بعد أن كانتا مستديرتين ، وأخذ فمها يصغر ، واستوت لها كتفاهما ويداهما ، وانخلعت عنها حوافرها وحلّت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها ، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع . عندها هبت واقفة على قدميها وهى تردّد فى فيها بعض الكلمات تختبر بذلك صوتها مخافة أن يكون كما كان خواراً ، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام ، وغدت إلهة بين الإلهات الشهيرات ، تُقدّم إليها القرابين خشوً من الناس قد التفوا بأردية من الكتان (٣٠) .

## فايثون

ووضعت إيوا ابناً هو إيبافوس (٣١) يقال إنه كان ثمرة اجتماع جوبيتر الجليل بها ، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لأمه . وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيبافوس طبعاً وأقرب إليه سنّاً غير أنه كان معتزاً بأبيه فوبيوس ، فجرّه ذلك يوماً إلى الزهو على إيبافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخيلاء فقال له : « أيها المخدوع يا من يثق بكل كلمة تقولها له أمه ، ويا من أوهموك فاصطنعوا لك أبا عزوك إليه » . فاحمرّ وجه فايثون خجلاً وكنتم غيظه فى نفسه ، وسارع إلى أمه كليمينيه وأخبرها بما قاله له إيبافوس ، ثم أردف قائلاً : « جديرٌ بك أن تألمى لما أصابنى من هوان ، وإنه لعزيز على أن ينالنى ما نالنى وأنا صامت لا أفوه بكلمة ، فقد كنت أخشى أن يكون إيبافوس صادقاً فيما رمانى به ، وعليك أنت وحدك إن كنت حقاً من السماء انحدرت أن تعطينى الحجة على ذلك . عندها سوف نمنح عنا معاً هذا العار الذى لحقنا » . وانكفاً على أمه يطوّق جيدها بذراعيه ، ويستحلفها بحقه وحق ميرويس (٣٢) وبشعلات أفراس أخواته ألا أخبرته عن أبيه من هو ؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثرت فى نفسها توسلاته ، وانتهجت إلى قرص الشمس الوضاء رافعة ذراعيها فى الفضاء لتقسم وتقول : « أقسم لك يا بنى بحق هذا الكوكب الذى يبهرننا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد ، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعون ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم . وإن كنت كاذبة فلتغش الشمس على بصرى فلا أعود أتطّلع إليها ، ولتكن هذه نظرك الأخيرة إليها . وما عليك يا بنى كى تعرف أسلافك من الآلهة إلا أن تمضى غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد » . وملأ الاطمئنان قلب فايثون وعمه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً إثيوبيا موطن شعبه ، وبلاد الهندو القرية من قرص الشمس الملتهب .

# التعقيبات

- (١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالها وجنوبها مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين . وذكر فرجيل في كتابه « فن الفلاحة » هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى في السموات .
- (٢) يابيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وپروميشيوس ، وكان الأخير يُعدّ راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة وأهمها النار ، ويقال إنه قد خلق الإنسان من تراب .
- (٣) كان القدماء يتصورون أن الشّهد قطرات ندى تساقط من السماء ثم يجمعها النحل من ورق شجر البلوط الذي كان مكرّساً للإله جوبيتر .
- (٤) ساتورن الذي يتحدث عنه أوفيد يقابل كرونوس اليوناني الذي خلعه ابنه جوبيتر « زيوس » عن عرشه وألقى به في نهر تارتاروس بالعالم السفلى . أما ساتورن للإله الذي كان يعبد الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلّى به من صفات طيبة ومن خلق يمنح إلى السلم .
- (٥) هي بنت زيوس وثيميس ، وكانت قد عاشت في الأرض بين البشر طوال العصر الذهبي إذ كانت تمثّل العدالة ، وقد ذكر فرجيل نفس الحادث في كتابه « فن الفلاحة » .
- (٦) العملاقة كائنات بشعة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة . وذكر هزودوس أن العملاقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبته من الدم الذي انتثر من جرح أورانوس « السماء » الذي ألحقه به ابنه كرونوس . وقد جمع عالم لغة يوناني في القرن الثاني قبل الميلاد اسمه أبولودوروس كل ما يتعلق بقصة صراعهم ضد الآلهة . وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأخرين ، الأمر الذي نلمسه بوضوح على لإفريز مذبح براجامون الكبير .
- (٧) كان الإمبراطور أوغسطس يعيش فوق تل الهاليتينوس في روما ، وهو التل الذي شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال سبتيموس سيفيروس وفلافيانوس . ويبدو من هذه العبارة مدى التعلق الذي ذهب إليه أوفيد .
- (٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك الذين عهدناهم في عصر الإغريق .
- (٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس عام ٤٤ ق.م .
- (١٠) أساء جبال ثلاثة في أركاديا بالمورة وكان لجوبيتر معبد مشهور في ليكاويس .
- (١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش في المدن اليونانية التي خضعت لنظام حكم القلة « الأوليجاركية » بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق.م . وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة . غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة متصفاً بالطغيان والإرهاب ، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد ، خاصة في عهد دولة المدينة « پوليس » الديمقراطية في القرن الخامس ق.م . حيث ظفر قتلة الملوك الطغاة بالتمجيد والتكريم . كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام في « الجمهورية » بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة .
- (١٢) كان إلبون يقطنون منطقة جبلية شمال شرق اليونان ، ويقال إن نيوبتوليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطئ مولوسيا « إلبروس الآن » أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماخي أرملة هكتور .

(١٣) كانت ربات الانتقام المسماة « إيرينيس » عند الإغريق و « فوريائى » عند الرومان مسئولات عن عاقبة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادئ الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية . ويقصد أوفيد هنا أنهم يعاقبون المذنبين ببث الجنون فيهم ، الأمر الذى يدفع إلى الإفراط فى ارتكاب الجرائم .

(١٤) الكيكلوبيس الثلاثة هم برونس وستيرويس وأرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس ، وكانوا حلفاء لجوبيتر فى قتاله ضد العمالقة بل هم الذين زودوه بالرعد والصواعق .

(١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة .

(١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها فى الكتب السماوية . وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما نرى فى ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جده الذى نجا وحده من الغرق بتشبيده سفينة بأمر الإله « إيا » .

(١٧) تفصل فوكيس بين بويوتيا وأويتا جنوب ئيساليا . وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر .

(١٨) كان ديوكاليون بن عم پيرا فهو ابن پروميتيوس وهى ابنة إيميثيوس شقيق پروميتيوس . وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وپيرا قد وضعا فى صندوق مخلق أرسته المياه على قمة جبل پرناسوس ، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس .

(١٩) يذكر هرمان فرانكل فى كتابه عن أوفيد صحيفة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا « جايا » الأم الأرض ، أما العظام فهى الصخور والحصى التى كان ديوكاليون وپيرا يقدفانها من وراء ظهرهما فيولد منها جنس جديد من البشر .

(٢٠) استمد أوفيد هذه النظرية من فلسفة الرواقين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس .

(٢١) كان الثعبان عند الإغريق تمهيداً لآلهة الخصوبة . وكان فوز أبوللو على بيثون رمزاً لخلق جايا من الألوهية . والمعروف أن عبادتها ظلت فى بيثون ، وهو الاسم القديم لدلفى إلى أن وفدت عبادة خليفتها أبوللو على نفس المكان ، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل . وكانت الألعاب البيثونية التى تقام فى دلفى تكريماً لأبوللو مجرد مباراة موسيقية فى بادىء الأمر ، ثم تحولت فى عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات فى الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال فى الألعاب الإغريقية الأخرى .

(٢٢) يخترق نهر بينيوس إقليم ئيساليا ويختاز عند نهايته وادى تمهى المشهور .

(٢٣) كانت كلاروس على شواطئ أيونيا ، وتينيدوس جزيرة فى مدخل الهليسبونت ، وباتارا مدينة كبيرة على شواطئ لىسيا وكلها تضم معابد أبوللو .

(٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدو .

(٢٥) هايمونيا اسم آخر لئيساليا .

(٢٦) حوريات الأشجار .

(٢٧) جبل بأركاديا .

(٢٨) نهر فى أركاديا .

(٢٩) كان الطاووس هو طائر جونو المقدس .

(٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيو وبين إيزيس الإلهة المصرية الممثلة دائماً بقرى بقره . وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها فى الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول ، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان فى حين يرتدى الإغريق ثياباً صوفية . ويروى أيسخولوس قصة مسخ إيو فى مسرحيته « الضارعات » وفى « پروميتيوس مغلولاً » . أما المؤرخ هيرودوتس فيقرر أن إيو بنت إيناخوس ملك أرجوس قد اختطفها نهار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر .

(٣١) اعتبر الإغريق إيفافوس هو العجل أبيس المصرى .

(٣٢) كليمينه هى بنت أوقيانوس وتيثيس ، وهى زوجة ميرويس ملك إثيوبيا « النوبة » ، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فايثون والهيلياديس بنات الشمس .



بيكاسو

## الكتاب الثاني

### فايثون

كان قصر الشمس شامخ الأعمدة متألقاً ببريق ذهبه وبرونزه وأسطحه العاجية المصقولة ، تنعكس الأضواء من أبوابه الفضية ذات المصراعين التي كانت صنعتها أكثر قيمة من جواهرها ، فقد نقش مولكيبير<sup>(١)</sup> [ فولكانوس أو هيفايستوس ] فوقها البحار وهي تضم الأرض بين أحضانها ومن فوقها السماء . وفي خضمّ الموج ظهر آلهة البحر : تريتون<sup>(٢)</sup> الشاذى ، وپروتیوس<sup>(٣)</sup> ذو الأشكال المختلفة ، وأيجيون<sup>(٤)</sup> المتكىء بذراعيه على ظهر حوتين ، ودوريس<sup>(٥)</sup> وبناتها بين سباحة في الماء أو ممتطية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تجفف شعرها الذى كساه البحر من زرقته ، وكُنَّ على الرغم من تخالف ملامحهن يربط بينهن ما يشبه الأخوة . وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والجوريات وجنيات

الريف ، تُظْلَهُم جميعاً السماء بيروجها الإثني عشر<sup>(٦)</sup> ، ستّة على المصراع الأيمن للباب ، والأخرى على مصراعه الأيسر .

٢٠ وأُصْعِد ابن كليمينيه إلى قصر ذلك الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التي بينه وبين إله الشمس ؟ وتقدّم إلى أبيه ، غير أنه لم يقو على أن يقترب منه فقد بهره بشدّة نوره . وكان إله الشمس جالساً في ثوب أرجواني على عرش يتألق بزمرده ، واصطفّت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن : « اليوم » و « الشهر » و « السنة » و « القرون » و « الساعات » . وهناك أيضاً كان الربيع الغضّ مكلّل الرأس بالزهور ، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه ، والخريف بقدميه المبلّلتين بعصير الكرّم الأرجواني الذي هرسه ، والشتاء القارس الأشهب بخصلات شعره البيضاء .

وملّكت الصبى رَغْدَةً ذَهَلًا من غرابة ما يراه ، واستدار إليه الإله الشمس وهو في جلسته بين حاشيته وحدجه بعينه التي ترى كل شيء ، وسأله : « فيم جئت ؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون ، يا من لا يقوى أبوك على أن ينكر بنوتك » ، فأجابه قائلاً : « أبى ، أيها الإله فويوس ، يا من يهنا كل ما في الكون الفسيح بنورك ، إذا كنت قد أجزت لى أن أناديك « أبى » ، وإذا كانت كليمينيه لا تكذبني ولا تخفي عني أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتقدّم لى دليلاً على صدقها وبرهاناً يُثبت بنوّك لك ويبدّد كل شكوكى » .

٤٠ وما إن انتهى من كلماته حتى طرح الأب عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه ، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً : « إنك حقيق بأن تكون ابناً لى ، وقد صدقتك كليمينيه فيما حدّثتك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أى طلب لك كى أبدّد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التي يُقسم عندها الآلهة ، والتي لم يقع عليها بصرى قط » .

٦٠ وأسرع فايثون فطلب من أبيه أن يتخلّى له يوماً عن مركبته ليركبها ويدفع خيولها المجنّحة الأقدام . عندها ندم إله الشمس على وعده ، وهزّ رأسه المتألّقة مرات ثلاث ، وقال : « إن استجابتي لطلبك تكشف عن اندفاعي وتسرعى ، وكم وددت لو نقضتُ ما وعدت . ولتعلم أن هذا الذى تطلبه منى هو ما أباه عليك وأحول دونك ودونه ، فأنت مُقدّم على عمل خطير تقصّر عنه قوتك ويعجز عنه شبابك الغضّ . وهل أنت غير بشر ، وما فى قدرة البشر الفانى فعّل ما تريد ، وإن جهلك بالأمور هو الذى يجعلك تطمع فيما لا يناله الآلهة أنفسهم ، فهم على ما بلغوا من قوة لا يشاركونى ارتقاء هذه المركبة النارية التي لا يقوى على قيادتها كبير آلهة الأوليمپوس نفسه رغم بأسه وامتلاكه الصواعق يطوّح بها بيده العاتية ، فمن تراه يفوق جويتر قوة ؟ والخيل لا تقوى على ارتقاء الطريق الصاعد إلّا بجهد حتى فى الصباح وهى ماتزال فى عنفوانها ، وكم أصابُ أنا بالهلع ويخفق قلبى حين تبلغ المركبة سَمَتِ السموات العليا وأطلّ على الأرض والبحار . ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخيل فى حاجة إلى يد قوية وصلابة وثبات ، وما أكثر ما كانت الإلهة تيثيس<sup>(٧)</sup> التي تستقبلنى فى مياها تخشى أن أسقط من علّ . هذا إلى ما كان يعتمل فى

السما من حركة أبدية تدفع بها النجوم في دورتها العَجَلَة في الأفلاك<sup>(٨)</sup> . وكان على أن أشقّ طريقى وسطها دون أن تهوى بها عند صدامها بى ، فأنا وحدى القادر على السير ضد مدار الكواكب الدائرة في أفلاكها . وماذا تملك أن تفعل أنت لو أسلمتكم المركبة ؟ أترأى قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً قُبّة السماء الدوّارة ؟ هل تخال السماء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُدُن الآلهة والمحاريب التى تفيض ثراء ؟ ما أبعد ذلك عن الواقع يا بنى ، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شرك خطر وحيوانات ضارية ، ولو قُدِّر لك أن تسلك طريقك السوى دون أن تنحرف هنا وهناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنّب قرنى برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامى » وأنياب الأسد الهائج ، وأذرة العقرب التى قد تُطَبِّق عليك من ناحية على حين تهدّدك أذرة السرطان من ناحية أخرى<sup>(٩)</sup> . ثم كم ستثقل عليك قيادة خَيْلى حين تشتعل النيران المخترنة في صدورهما وتنفضها من خطمها وخياشيمها ، فهى لا تكاد تطيق كفى ساعة تثور حماسها ولا تستسلم رعوسها لأعنتى . إننى أحذرك خشية أن يكون في استجابتي لطلبك ما يجرّك إلى الهلاك ، وإن الفرصة لاتزال سانحة بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما ينفعك . فليس ثمة دليل على أبوتك لك أوضح من لهفتى عليك ، وخوفى عليك شاهد أبوتى ، فلتطّلع إلى وجهى لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقى ورؤية ما يختلج فيها من قلق عليك . تلفت إلى خيَرات الكون حواليك وتشه ما شئت من طيّبات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشيء منها ، واعلم أنى لن أرجع عما وعدتُ به ، غير أنه لن يكون تكريماً لك بل عذاباً تشقى به . فيم إذن معانقتك لى تستعطفنى وأنت لا تعى كُنه طلبتك ؟ ولكن على الرغم من هذا فلا تخشى ألاّ أحقق لك ما طلبت فقد أقسمت على الوفاء بنهر ستيكس ، ولكنى أريد منك أن تنعم النظر فيه .

و ضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عرض الحائط ، فقد كان توّاقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس . وحين أحسّ الأب ذهابَ محاولاته عبثاً فى أن يُنقِى ابنه عن عزمه أخذه إلى مركبته الهائلة التى صنعها له فولكانوس وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأطر عجلاتها ، كما جعل أقطار العجلات من الفضة ، ووشى نيرها بالزبرجد ، ورصّ بها صفوفاً من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فوبيوس . وحين أخذ فايثون الطُمُوح يتحمّس أجزاء المركبة فى إعجاب كانت « أورورا » ربّة الفجر المشرق قد بدأت تفتح فى أقصى الشرق أبواب قاعاتها المترعة بالورود ، فانسلّت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزهرة<sup>(١٠)</sup> التى كانت آخر من تركت مكانها فى السماء . وما إن رآها إله الشمس تغرب مع قرنى القمر وسط السماء الوردية حتى أمر ربّات « الساعات » السريعة الخطى بشدّ الجياد إلى النير ، فاستجابت « الساعات » لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السماوية ، تنفث اللهب مُتخمة بما التهمت من الأمبروزيا [ طعام الآلهة ] ، وربطتها إلى المركبة .

وطلى الأب وجه ابنه بدهن مقدس كى يُعينه على احتمال وهج النيران ، وتوّج رأسه بحزمة من أشعة الشمس ، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يترقبه من فجيرة محزنة ، وقال : « فلتطع نصائح أبيك ما استطعت . كن مترقفاً فى استعمال السوط ، واقبض على الأعنة بكل ما تملك من قوة ، ودع الجياد تمضى فى

عَذُوها فالويل لك إن هي أبطأت ، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمسة ، واتبع الطريق المنحدر الدائري الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاثة الوسطى متجنباً القطبين الشمالى والجنوبى وعواصفهما الشديدة البرودة ، وسوف تتبيّن في هذا الطريق آثار عجالات المركبة . ولا تنجح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى ، ودع الدفء قسمة عادلة بين الأرض والسماء ، فإنك إن ارتفعت عالياً أشعلت النار في قبة السماء ، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض ، وإن آمن الطرق أوسطها . ولا تنحرف يميناً صوب كوكبة الأفعى الملتفة حول نفسها ، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجرة ، وكن بينها على بُعد وسط .

١٤٠ وسوف أترك ما وراء ذلك لإلهة الحظ « فورتونا » سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك ، وهياً الآن فقد بلغ الليل الشاطيء الغربى وما في استطاعتنا أن نتلبّث ، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبجج وأخذت الظلمة تتبدّد . اقبض بقوة على الأعنة ، برغم أنى مازلت أمل أن تستجيب إلى نصيحى ولا تُقدّم على ركوب هذه المركبة ، فما برحت أنت قادراً على التراجع عن رغبة فيها هلاكك ، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصلبة . إنك مازلت قليل الخبرة ، وإذا شئت أن تنعم عينك بالنور وأنت آمن ، فدعنى أسكبُ لك على الأرض . غير أن فايثون اندفع في حماسة الشباب واعتلى المركبة التى لم تنو بجسده الغض ، وأخذ الأعنة من يد أبيه فرحاً ، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون .

أخذت خيول إله الشمس الأربعة بيرويس وإيووس وأيثون وفليجون<sup>(١١)</sup> تملأ الأجواء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة ، وتضرب الحواجز بحوافرها ، وسرعان ما أزاحت الإلهة تيثيس الحواجز من طريق الخيل وهى تجهل المصير الذى ينتظر حفيدها ، فتفتحت أبواب السماء أمام الجياد التى اندفعت صاعدة فى الفضاء بحوافرها المجنحة متخطية رياح الشرق العاصفة فى مهادها . وأحسّت الجياد بالمركبة أكثر خفة مما كانت حين كان يعتليها إله الشمس ، وبدت المركبة كالسفينة التى يتلاعب بها الموج لحقتها ، فأخذت تتأرجح وتعلو وكأنها فارغة ، وما إن أحسّت الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المعهود . واستولى القلق على قائد المركبة الذى كانت تعوزه المهارة فى القبض على أعنة الخيل فانفلتت زمامها من يديه ولم يعد يعرف طريقه ، ولو قدّر له أن يعرفه فلن يُقدّر له أن يملك السيطرة على الجياد . عندها التهبت كوكبة الدبّ الأكبر الثلجية للمرة الأولى ، وعبثاً حاولت أن تبتدّ في مياه البحر المحرّم عليها ، ودبّت ثورة محمومة فى كوكبة الثعبان التى كانت برودتها تثبط من حركتها ، ويقال إن كوكبة « راعى الشاء » قد ولت فراراً وقلبها مشحون قلقاً رغم بطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهادية .

١٦٠

ووقع بصر فايثون التعس من السماء الشاهقة على الأرض التى على بُعد سحيق ، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً ، وغشى الوهج عينيه ، وتمنّى لحظتها لو لم تمس يداه قط جياد أبيه ، وعراه الندم على محاولته تعرّف نسبه وعلى استجابة أبيه لرغبته ، وودّ لو كان ابناً لميرويس بدلاً من فويوس<sup>(١٢)</sup> وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفت بها رياح الشمال العتية ، فأسلم ربانها لها القياد تاركاً رعايتها للإلهة يضرع إليها بالدعاء . ماذا ترى فايثون فاعلاً ؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت

١٨٠

ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يقطعها ، وأخذ ينظر إلى الغرب الذي لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه ، وهو بينهما حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجياد التي كان يجهل حتى أسماءها . وزادته خوفاً تلك الوحوش الضخمة التي وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصعة بالنجوم ، ورأى العقرب يمدّ إليه مخالبه على شكل قوسين مُرخياً ذيله ، باسطاً أذرعه المستديرة على جنبه فوق نجمين . ولم يكد الفتى يراه في صورته البشعة يتقاطر منه السم القاتل حتى جمّد الدم في عروقه وعراه فزع أسقط من يده العنان على ظهور الجياد التي وجدت نفسها طليقة مُرسلة الزمام ، فانحرفت عن طريقها المألوف وانطلقت على هواها خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة ، واتجهت إلى النجوم العالية تجرّ المركبة وراءها منتقلة من هوة إلى أخرى ، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض . وأمسك العجب بـ «لونا» ربّة القمر وهي ترى جياد أخيها تهوى والدخان ينطلق من السحب المحترقة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتشتق وتبرز فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعي فتقلب هشيماً ، وألسنة اللهب تاكل الأشجار وأوراقها متخذة من حصاد الحقول وقودها . ولم يكن هذا كله غير شيء هين إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحترق الأسوار وتهدمها وتحول شعوب بأسرها إلى رماد ، واشتعال الغابات على سفوح الجبال . وقد أكلت النار جبل آثوس<sup>(١٣)</sup> ، وجبل الثور<sup>(١٤)</sup> في سيليسيا وجبل تيمولوس<sup>(١٥)</sup> ، وجبل أويتا<sup>(١٦)</sup> ، وجبل إيدا<sup>(١٧)</sup> الذي كانت ينابيعه ذائعة الشهرة قبل جفافها ، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون ، وجبل هيموس<sup>(١٨)</sup> الذي ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أورفيوس ، وتأججت نيران بركان إتنا<sup>(١٩)</sup> فتطاوت ألسنتها إلى آفاق عالية . واشتعلت القمم التوائم بجبال پارناسوس ذات القمّتين وإيريكس<sup>(٢٠)</sup> وكيثوس<sup>(٢١)</sup> وذاب جليد جبال أوتريس<sup>(٢٢)</sup> ورودوبي<sup>(٢٣)</sup> ومياس<sup>(٢٤)</sup> ودينديما<sup>(٢٥)</sup> وميكالي<sup>(٢٦)</sup> وكثايرون<sup>(٢٧)</sup> مهد الطقوس الدينية ، ولم يحجم الصقيع جبال سكيثيا من أن تلتهمها النيران ، وكذلك كان مصير جبال القوقاز<sup>(٢٨)</sup> وأوسا وپيندوس ، وتوهج اللهب في الأوليمپوس<sup>(٢٩)</sup> أعظم هذى الجبال شأناً ، وبلغت الجرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الإپنين التي تتوّج السحب قممها .

ورأى فايثون العالم كله مشتعلًا بالنار فغشيته حرارة عجز عن احتماها وأرسل زفرات حارة كتلك التي تطلقها الأفران المشتعلة ، يحاصره وهج مركبته فيضيق بالشرّ المتطاير منها ، ويلقّ الدخان الساخن وتُعْميهِ الظلمة الحالكة فلا يدرى أين هو ولا أين يسير ، تجمع خيوله العجلى على هواها حيث تقودها أقدامها المجنّحة . وشاع بين الناس أن بشرة الإثيوبيين قد استحالت سوداء في هذه اللحظة إذ انبثق الدم إلى بشراتهم . وفي هذه اللحظة أيضاً جفّت الحرارة مياه ليبيا فغدّت صحراء ، وأخذت الحوريات ينزعن شعورهن نائحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة ، وعبثاً حاولت بويوتيا البحث عن ينبوع ديركى<sup>(٣٠)</sup> بين ظهرائها ، وأرجوس عن ينبوع أميمونية<sup>(٣١)</sup> ، وإفيري<sup>(٣٢)</sup> عن مياه پيريني .

ولم تسلم مياه الأنهار المتدفقة في مجراها السويّ من لفع النيران الذي جفّف الينابيع ، فقد تبخّرت مياه نهر تانائس<sup>(٣٣)</sup> حتى بدا جافاً ، كما جفّ نهر پينپوس<sup>(٣٤)</sup> العتيق ، ونهر كايكوس<sup>(٣٥)</sup> في ميسيا ، ونهر

إسمينوس<sup>(٣٦)</sup> السريع الجريان ، وحقاق المصير نفسه بنهر إيريمانثوس بأركاديا ، ونهر زانزوس<sup>(٣٧)</sup> الذى غاض ماؤه بعدُ . وكذا نهر ليكورمارس<sup>(٣٨)</sup> الأصفر ، ونهر مياندر<sup>(٣٩)</sup> الذى يتلوّى مجراه فى منحنيات شبيهة بالدوائر ، ونهر ميلاس بطراقيا ، ونهر إيروتاس بأسبرطة ، وكذلك نهر الفرات ببابل ، والعاصى بسوريا ، وثرومودون<sup>(٤٠)</sup> الجلياش ونهر الجنج بالهند ، وفازيس<sup>(٤١)</sup> ، وهيستر<sup>(٤٢)</sup> وغلت مياه نهر ألفيوس<sup>(٤٣)</sup> والتهمت النيران شواطئ نهر سپيرخيوس<sup>(٤٤)</sup> ، وذاب الذهب المكنوز بأعماق نهر تاجه ، واحترقت طيور نهر مايونيا<sup>(٤٥)</sup> وطيور نهر كايستر<sup>(٤٦)</sup> التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوماً لصيته ، وأمسك الذعر بنهر النيل فولّى هارباً وأخفى رأسه فى أقاصى الأرض حيث استقرّرت هناك ، وخلف مصابيه القنوات السبع جافة لا يغمرها غير التراب ، وبقيت سبع وديان بلا مياه . وحقاق هذا المصير بنهرى الهيبير<sup>(٤٧)</sup> ، وستريمون<sup>(٤٨)</sup> الواقعين فى بلاد الإيزماروس<sup>(٤٩)</sup> ، وكذلك أنهار منطقة هيسپيريا<sup>(٥٠)</sup> وهى الراين والرون وبو والتير الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون .

٢٦٧

أخذت الشقوق تغطى الأرض ويتسرب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس ، مُلقياً الرعب فى قلبى عاهلى العالم السفلى . وتقلّصت المحيطات مخلّفة مساحات شاسعة غطتها أكوام الرمال ، ومُبرزة جبالاً كانت مستورة تحت المياه العميقة<sup>(٥١)</sup> ، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى العالم ، وانقلبت الأسماك تغوص فى أعماق المستنقعات ، وجبّ الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته ، وطفّت جثث عجول البحر فوق سطح البحار ، وقيل إن نيريوس وزوجته دوريس وبناتهما قد استشعروا وهج الحرارة وهم فى أغوار كهوفهم ، وعجز نيتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاث لاشتعال الهواء خارج البحار .

وحينما نفذت مياه البحار والمحيطات المحيطة « بالأرض » إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم أخرجت « الأرض » رأسها من بين الرماد وأحاطتها بيديها اتقاء للفتحات الحارة ، فاهتز كل شئ اهتزازاً عنيفاً ، وهوت الأرض عن مكانها المعتاد وهى تبث فى ألمٍ مهممة : « إذا كانت هذه هى مشيئة القدر ، وإذا كان هذا مصيرى ، فلم لا تعجل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلك على يدك إن كان قد قُدر لى أن أهلك بالنار ، فآية كارثة تبعث بها أنت يهون على حملها » . وكانت حرارة الأجواء تلسع حلقها حين تتحدّث ، فأردفت تقول : لكم يشقّ على أن أفتح شفتى لأتحدّث . وها هو ذا شعرى قد احترق ، وانساب الرماد إلى عيني بعد ما غطى وجهى . أهذا هو جزاء خصوبتى ؟ أهذا هو التكريم الذى أناله على خدماتى ؟ أمن أجل هذا احتملت الجراح التى شقّتها فى جسدى المحارث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من الراحة طوال العام ؟ أهذا ما أجازى به عن تدبيرى الأوراق والأعشاب الرطبة للماشية ، والغلال للبشر ، وإنباتى الأخشاب العطرة التى تُحرق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة ؟ . وإذا كنت مستحقة للهلاك ، فأى ذنب جنته المياه ؟ وماذا جنى أخوك حتى تتضاءل البحار التى مُنحها ساعة تقسيم الكون ؟ . فإذا لم تكن بى مُشْفِقاً ولا بأخيك ، فلتتلفّ حواليك ولتشفق على مملكتك السماوية ، لقد أمسكت النار فى القطبين ولو أتت عليهما لانهدم قصرك . ولتنظر إلى أطلس<sup>(٥٢)</sup> يعانى مُثقلاً بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه ، وتذكّر

٢٨٠

أنه لو هلكت الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى الشاملة . فبادر إلى إنقاذ ما يسعك إنقاذه من الدمار أيها الإله الأجل ، وأدرك الكون واكتب له النجاة .

٣٠٠

ولم تكذنته ضراعة إلهة الأرض حتى حنت رأسها ودفتتها في الكهوف المتاخمة لعالم الموت عاجزة عن احتمال مزيد من الحرارة . ودعا ربّ الأرباب الآلهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذى أسلم مركبته لولده فايثون ، وبعد أن أشهدهم جميعاً على أن نجاة العالم من الفجيعة رهن بمعونة فويبوس صعد عالياً في السماء إلى ذلك المكان الذى اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرعود والصواعق الخاطفة ، غير أنه لم يرسل سحبا ولا أمطاراً وإنما أطلق رعداً مدوياً ، ورفع بيده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوّبها إلى قائد مركبة الشمس فأفقدته توازنه وحياته معاً . وكان لهيب الصاعقة أعظم أثراً من نيران مركبة الشمس فأحرقت المركبة وانطلقت خيولها مولية الأدبار على غير هدى ، وتناثرت أجزاء المركبة فراحَت عُدّة الجياد مُبنة بينما ذهب عريش المركبة يُسرة ، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة . وهوى فايثون في الفضاء والنار مشتعلة في خصلات شعره تتلوى خلفه كأنها نجم لامع في السماء الصافية ، حتى هبط في بقعة قصية من الأرض بعيدة عن مسقط رأسه ، وتلقاه نهر إيريدانوس<sup>(٥٣)</sup> العظيم قبلل وجهه المحترق بمياهه ، وقامت الحوريات الإيطاليات بدفن رفاتة التى التهمت النيران ذات الألسنة الثلاثة ، ثم نقشن على شاهد قبره هذه الأبيات :

٣٢٠

« هنا يثوى فايثون قائد مركبة أبيه .

وهو وإن لم يُكتب له النجاح في قيادتها

إلا أنه قضى نجه شهيد شجاعته الخارقة . »

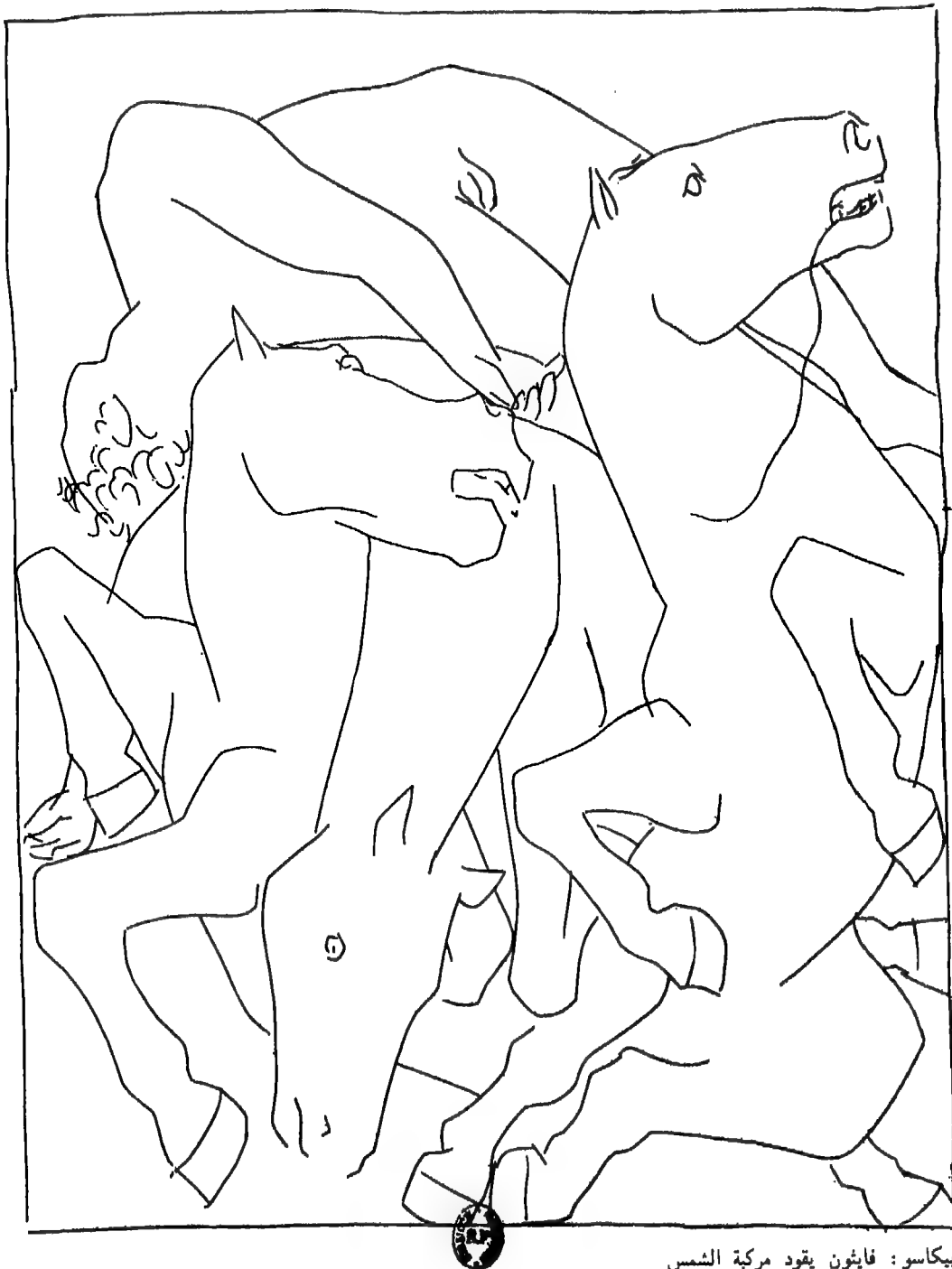
وأدت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذى أمضيه الأسى فغطى وجهه وأخفاه عن جميع الأنظار .

وإذا كان حقاً ما يقول الراوى ، فقد احتجبت الشمس في ذلك اليوم فاضاءت النيران المشتعلة العالم ، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفع ما .

وكانت كليمينيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة ، فلقد أفقدها حزنها وعبها فشقت ثوبها عن صدرها ، وراحت تضرب في الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدت مدفونة بشاطئ ذلك النهر البعيد ، فاحتضنت الصخرة التى نُقش عليها اسمه وبللتها بدموعها مُلصقة صدرها العارى بها<sup>(٥٤)</sup> .

ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقل من حزن أمهن عليه ، فاستسلمن للبكاء والعويل ، وضربن صدورهن بأكفهن وألقين بأنفسهن على قبر فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن . ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقيات عند القبر يؤدّين طقوس الحداد التى أصبحت من كثرة تكرارها إحدى العادات . وفي أحد الأيام تهاوت على الأرض كبرا من فايثوزا وشكت عجزها عن تحريك قدميها ، فحقت لنجدتها أختها الشقراء لامپيتيه ، غير أنها وقعت في قبضة جذور شجرة نبتت فجأة ،

واكتشفت الثالثة وهي تشد شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة ، وأطبق جذع شجرة على ساقى واحدة ، بينما تحول ذراعا أخرى إلى غصنين طويلين . وعلى حين أخذتهن الدهشة بما يجري لهن كان لحاء الأشجار يلتف حول أفخاذهن ويغطي أجسادهن شيئا فشيئا فكسا أرحامهن وأنداءهن ثم أكتافهن وأيديهن ، ولم يبق غير شفاهن التي كانت تنادى عبثاً أمهن .



بيكاسو: فايثون يقود مركبة الشمس

ولم يكن بوسع هذه الأم الملتاعة غير أن تهزول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كي تختلس من بناتها القبلات ما أمكنها ذلك . لقد حاولت في أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإنقاذهن من جذوع الأشجار ، وهشمت الأغصان غصناً غصناً ، وكانت كلما هشمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح ينزف ، وصاحت إبنة لها وهي تكسر غصنها قائلة : « رفقا يا أماء ، ناشدتك ألا تؤذيني بما تفعلين ، إنك تصيين بالأذى جسدى الذى يستحيل إلى شجرة ، فوداعاً يا أماء » .

٣٦٠

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة ، وانساب دموع جمدتها الشمس فإذا هي كهرمان<sup>(٥٥)</sup> أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضاء ، فتحملها مياهه بعيداً كي تصبح في الأيام القريبة زينة عرائس الرومان .

## سيجنوس

وشهد هذه المعجزة سيجنوس [ كيجنوس ] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايتون بعواطفه منه بقربته ، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا<sup>(٥٦)</sup> ومدائهم العظيمة ، غير أنه ترك مملكته ليردّد نهر إيريدانوس<sup>(٥٧)</sup> وشطآنه الخضر صدى أناته وأحزانه ، ولتمتلئ بعويله الغابات التى كثرت أشجارها بعد أن استحالت شقيقات فايتون أشجاراً ، وبعّ صوته من طول نحيبه فهزل جسمه ، وتحول شعره ريشاً أبيض ، واستطالت رقبته ، واحمرت أصابعه ونما فيها بينها غشاء ، وبرز من جنبه جناحان ، وتحول فمه إلى منقار غير مدبّب . وما لبث سيجنوس أن تحول إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع ، ولم يعد يثق بالسماء أو بجوبيتر ، وظل يذكر في أسى إرسال جوبيتر لصاعقته ، ولشدّة بغضه للنيران أثر بعد ذلك أن يعيش في الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على أن يخلّق في السماء .

٣٨٠

وارتدى والد فايتون ثياب الحداد وانطفأ بريقه المألوف وكأنما غشاها الكسوف ، وسخط على الضياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « لشدّ ما سئمت عمل المحدّد الرتيب الذى حرمت معه الراحة منذ بداية الكون ، وتولّانى الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً . إذن فليقم غيرى بمن يعينهم الأمر بقيادة مركبة الفضاء ، فإن أحجم الآلهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوع فليقدّمها جوبيتر نفسه ، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتى والسيطرة على زمام جيادى فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم ، ولأدرك وهو يمسك بأعنة هذه الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يجمل أن يكون جزاء من يعجز عن قيادتها » .

وتخلّق الآلهة حول إله الشمس يلحّون فى الرجاء ألا يدع العالم أسير الظلمة ، واعتذر جوبيتر عن إرساله الصاعقة ، وشارك بدوره فى الرجاء المشوب بالوعيد على غرار ما يفعل الملوك . وتقدّم فوبيوس

٤٠٠

فأمسك بزمام جياده التي كانت ماتزال تُرْعَدُ خوفاً فألب ظهرها بسوطه ، ووخزها وهو في غمرة الحزن ووقدة الغضب وكأنها المسئولة عن تلك الفاجعة التي نزلت بولده .

## كاليستو

وهب كبير الآلهة الواسع القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرف الأضرار التي ألحقها بها ضراوة النيران ، وحين اطمأن إلى أنها لاتزال على حالها صلبة مدّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعتها أيدي البشر . وحرّكت أركاديا<sup>(٥٨)</sup> التي يؤثرها قلقه ، فأسرع يعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التي كانت قد كفت عن الجريان ، وكسى الأرض بالخضرة وأنبث الأوراق في الأشجار ، وبث النماء والخضرة في الغابات المحترقة من جديد .

وخلال تطوافه وقع بصره على حورية أركادية فإذا هو يجمد أمامها وقد احتدمت في نفسه الرغبة . ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المغرّات بتصفيفات الشعر المتنوعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فورييه [ديانا] ، رداؤها فضفاض بُتّ بمشبك ، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّه شريط أبيض ، وقد أمسكت في يدها رمحاً أو قوساً ، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة «مفترق الطرقات» ، ٤٢٠ غير أن الخطوة لا تدوم طويلاً<sup>(٥٩)</sup> .

ومالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ، ودلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس خطاب ، وحطّت جعبة سهامها عن كتفها وأخرجت منها قوسها الطّيع وتمدّدت على العُشب مُسندة رأسها إلى جعبتها الصارخة الألوان ، وأبصرها چوبيتر في هذا الوضع عزلاء فحدّث نفسه قائلاً : « سيكون لي معها أمر لن تعرف به زوجتي ، ولو فرض أنها عرفت فسوف يكون كِفَاء ما أناله من تأنيب » . وأسرع فتقمّص شخصية ديانا مرتدياً رداءها ، ومال على الفتاة يحدثها قائلاً : « يا أحبّ رفيقائي إلى نفسي ، أين كنت تبحثين عن صيد ؟ أي جبل عبرت سفحه ؟ » فنهضت الحورية وهي تصيح فرحة قائلة : « لك يا سيدتي الربّة تحياتي ، إنني أراك أعظم من چوبيتر ، وما أخشى أن يسمع ذلك مني . » وضحك چوبيتر سعيداً بتفضيلها له في صورته هذه على صورته الحقّة وقبلها قبلة لا براءة فيها ولا تقبّل بها فتاة من بنات جنسها . وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها في الغابة لم يهللها فضّمها إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره ، وتابّت الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى ، وباليثك كنت شاهديها يا جونو . يقيناً كان غضبك سيخفّ ، ولكن كيف لفتاة مهما أوتيت أن تقهر رجلاً ، ثم من ذا الذي يستطيع أن يغلب چوبيتر على أمره ؟ ونجح چوبيتر في أن يظفر بها حتى إذا ما نال مأربه منها عاد أدراجه إلى السموات العُلى . وصبّت الحورية لعناتها على الغابات والغيضات التي شهدت اغتصابها ، كما أنسيت جعبة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتهما حيث افترشت الأرض . ٤٤٠

ورأت ديكيتينا<sup>(٦٠)</sup>؟ وهى تتسلق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادت ، فولّت الفتاة هاربة وهى تخالها چوييترو وقد عاد متقمصاً شخصية ديانا ، غير أنها حين رأت تابعات سيدتها محطن بها اطمأنت إلى أنها الربّة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة ، فعادت أدراجها لترافق الإلهة وتابعاتها . ما أشقّ أن يخفى المرء إحساسه بالخطيئة ، فقد عجزت الفتاة عن رفع عينيها عن الأرض ولم تدن من الربّة على غرار ما كانت تفعل من قبل ، وتخلّفت عن زميلاتها والتزمت الصمت ، وأخذ الخجل مما ارتكبت من خطيئة يغشى وجهها ، ولو لم تكن ديانا إلهة عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التى بدت عليها . ويحكى الرواة أن زميلاتها فطنّ إلى ما تكتم من أمرها .

وهلّ القمر بدرأ مرات تسعا ، وأوت ديانا – بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافتحة – إلى أجمة رطبة الأنسام يجرى وسطها جدول هامس يتموّج ماؤه فوق رمال القاع الأملس . ولم تكد الربّة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها الغبطة ، فغمست قدميها فى الماء ، ونادت تابعاتها قائلة : « طالما أن العيون ٤٦٠ لا تصل إلينا هنا ، فلنخلع ثيابنا ولنستحم فى هذا الجدول » . وحين خلعت الثيابات ثيابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحجّمة وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأنهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها ، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة : أعزّى عنى ، ولا تدنّسى مياه هذا الجدول المقدس » ، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها .

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبّار ، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريميتها ، ولكنها ظلّت تتخير اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار ، فلقد وضعت غريميتها ابنها أركاس ، وأخذ رأى هذا الطفل يملأ قلبها وعينيها غضباً فصرخت فى أمّه قائلة : « لم يكن ينقصك إلا أن تضعى هذا الطفل أيتها الزانية لكى يُشيع إهانتى ، ولكى يغدو دليلاً على خطيئة زوجى الشائنة . . إبنى لن أتركك دون عقاب ، وسوف أسلبك هذا الجمال الذى أغرى بك عاشقك أيتها الفاسقة » .

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها فى قوة أسقطتها على الأرض . وحين بسطت كاليستو ذراعيها متوسّلة تطلب الغفران ، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن ، وإذا كفّاهما تستديران وتنتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قديمين أماميتين ، وإذا وجهها الذى أسر بجماله من قبل چوييترو يتشوّه وينفرج فيه فكّان عريضان . ولكى تقضى الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فصار ٤٨٠ حلّقها يصدر زجّرة خفيفة ، غير أنها تركت لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دُبّة ، فأخذت تبثّ حزنها بأنين متصل ، وتفزع للسماء برفع يديها بعد تحوّلها إلى قديمين . وأحسّت جحود چوييترو أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدها ، وكم ثقلت عليها الإقامة فى الغابة فراحت تحوم حول دارها مقترية من مقرها القديم ، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنبحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور ، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيادين . وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبئ عند رؤية الوحوش الضارية . ومع أنها مُسبّخت دُبّة إلا أنها كانت تخشى رؤية الدّبّة فى مكائنها بالجبال ، كما كانت تُصاب بالذعر أمام الذئاب رغم أن أباهما كان واحداً منها<sup>(٦١)</sup> .

## أركاس

٥٠٠ وبلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدري ما حدث لأمه ابنة ليكاوون . ومضى يوماً يتعقب آثار الحيوانات المتوحشة في الغابات ويتعرف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شبابه في غابات إيريمانثوس<sup>(٦٣)</sup> ، فإذا هو أمام هذه الدبة التي توقفت محدقة فيه مُطيلةً النظر إليه دون أن تحوّل عينيها عنه . وحين دفعها تشوقها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمح الميث ليمزق أحشاءها به ، فإذا چوبيتر الجبار يمسك بيده ليخول بينه وبين ارتكاب جريمة ، مُبعداً الإبن عن الأم . وما لبث أن حملتها معا ريحٌ خلال الفضاء ليجعل منها كوكبتين متجاورتين<sup>(٦٣)</sup> .

٥٢٠ وحين رأت چونو غريمتها تتألق وسط نجوم السماء تولأها غضب عاصف ، وخاضت البحار العميقة لتقابل تيثس الشيباء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لهما من مكانة بين الآلهة الأخرى . وحين سألتها كلاهما عن سرّ زيارتها أجابت قائلة : « تسألان أنا ملكة الآلهة لماذا تركت مكاني في السماء وهبطت إلى هنا ؟ لقد فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكاني في السماء ، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظروا فسوف تريان كوكبتين حلّتا لتوّهما في السماء محاطتين بإجلال يُلحِقُ به الهوان ، إذ تتألقان في أعلى مكان بالسماء وفي المنطقة التي تحيط فيها آخر الدوائر بالطرف الضيق من محور العالم . وهل ثم من لا يلعنني حين يراى لا أنال منها ؟ ماذا جنيتُ أنا ، وما أعظم ما أملك من قدرات ؟ لقد شئت تجريدها من إنسانيتها فإذا هي تتحوّل إلى ربة ، وإذا هذا هو العقاب الذي أردت أن أنزله بالمذنب ! وكان هذا أقصى ما أملك ، فليردّ چوبيتر إليها جمالها المسلوب وليحررها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية ، ولم لا يخطو إلى أبعد من ذلك فيطلق چونو ، ويتزوج من هذه الحبيبة الجديدة ويضعها في فراشي ويتخذ من ليكاوون صهراً له ؟ إذا كنتما تحسان بأن ما نلته من امتهان يمسكها وأنا التي ربيتها صغيرة ، فاعملا على أن تدفعا عن أمواجكما الزرقاء هاتين الكوكبتين [ الدب الأكبر والدب الأصغر ] اللتين لم تُرفعا إلى السماء إلاّ تكفيراً عن سلوك فاضح ، ولا تتيحا لامرأة زانية أن تستحم في مياه بحاركما النقية » .

٥٤٠ وأقرّ إله البحر ما قالته كبيرة الآهة ، وانطلقت چونو ابنة ساتورن وسط الأثير بعربتها السابحة التي تجرّها الطواويس المشرقة الألوان بريشها الجديد الذي نبت بعد وفاة أرجس ، والذي يذكّرنا بريشيك الناصع البياض قبل تحوّلِهِ إلى أسود داكن أيها الغداف الثرثار ، فقد كان ريش هذا الطائر في الماضي في بياض الفضة أو الثلج ينافسُ اليمام الخالص البياض ، ولم يكن يقلّ بياضاً عن الإوز الذي قدّر له أن يُنقَذَ الكايتولينوس<sup>(٦٤)</sup> يوماً بصيحاته اليقظي ، ولا عن البجعة عاشقة المياه . غير أن لسان الغداف كان سبب مأساته ، فقد كانت ثرثرته سرّ فقده لونه الأبيض وتحوّلِهِ إلى اللون الأسود .

## كورونيس

لم تكن في أنحاء ثيساليا كلها فتاة أجمل من كورونيس مواطنة مدينة لاريسا . وكم حركت إعجابك يا رب دلفى ، وكان ذلك لاحتفاظها بعفتها أو لاحتفاظها بأمرها مستورا عنك حتى رآها يوماً الغداف طائر فويوس ترتكب جريمة الزنا ، وأسرع إلى مولاه على عادته في نقل الأخبار معترفاً كشف سرها ، غير أن الغراب الذى لا يقل عنه ثرثرة تعقب الغداف مسرعاً متلهفاً لالتقاط الأسرار ، حتى إذا أحاط علماً بسبب الرحلة قال للغداف : « ما أسوأ الطريق الذى تسلكه ! خذ حذرك ولا تهون من نصيحتى ، واعتبر بما حدث لى ، فلو بحثت عن سر تحوّل لوجدت أن إخلاصى هو الذى أودى بى : لقد أخذت باللاس يوماً إيرينثونيوس الطفل الذى ولد بلا أم ، وحبسته فى سلّة مجدولة من خيرزان أكتيا<sup>(٦٥)</sup> ، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكرويس<sup>(٦٦)</sup> اللاتي لم يكن قد تزوّجن بعد ، وكان نصف الملك الأسفل على هيئة ثعبان ، وعاهدتهن على ألا يفتحن السلّة لمعرفة سرها ، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجر الدردار المورق لمراقبتهن ، وكانت پاندروسوس وهيرسى أميتين على السلّة بينما أخذت ثالثتهن أجلاوروس تستشير شقيقتها فتتبعهما بالجبن ، وما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا فى داخلها طفل بجانب ثعبان منبسط . ٥٦٠

وحين قصصت ما حدث للإلهة منيرفا كان جزائى على ذلك طردى من عملى ورفع حمايتها عنى ، وصرت أدنى مكانة من طائر الليل<sup>(٦٧)</sup> . وما أجدر ما نالنى من عقاب بأن يكون تحذيراً للطيور عن ارتكاب جريمة الوشاية ، فأنا لم أسألهما جزاء ما فعلت من أجلها ، بل كان طردى عن إرادتها . وما عليك إلا أن تسأل باللاس فإن غضبها مهما احتدم لن يؤدى بها إلى إنكار الحقيقة .

ولسوف أروى قصة يعرفها الجميع . لقد أنجبني كورونيس الشهير فى بلاد فوكيس ، فلا تستهن بأمرى . وإن دماء ملكية تسرى فى عروقى ، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبى . ولقد كان جمالى مصدر مأساتى ، فبينما كنت أخطر كعاقى فوق الرمال الناعمة أبصرنى إله البحر فحرّكت إعجابه ، وجعل يغالبنى ويتوسّل إلى برقيق الكلمات ، وحين تبين له أنه لن ينجى من وراء ذلك شيئاً أخذ يخطط لاغتصابى وتملكى بالقوة ، فهربت منه وخلفت الأجزاء الصلبة من الأرض بينما أمرق عبثاً وسط الرمال اللينة ، ومضيت أسير فى غير اتجاه معين وصرخت منادية الآلهة والبشر لنجدنى فلم يصل ندائى إلى أذن بشرية ، بينما تحرّكت الشفقة فى قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لى يد العون . وحين رفعت . ٥٨٠ ذراعى نحو السماء اسودّ لونهما وأصبحت جناحين خفيفين ، وتحوّل ردائى وأنا ألقيه وراء كتفى إلى ريش تضرب جذوره العميقة فى جلدى ، وحاولت ضرب صدرى العارى بيدى غير أننى اكتشفت أن صدرى كيدى لم يعد عارياً . وحين عدت أعدو لم تغص قدمائى فى الرمال كما كان يحدث من قبل بل وجدتنى أعلو مسرعة فوق سطح الأرض ، وأخذت أحلق عالياً فى السماء وصرّت رفيقة طاهرة للإلهة منيرفا . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكيتيمينيه<sup>(٦٨)</sup> التى تحولت إلى طائر جزاء خطيئتها البشعة قد انتزعت منى شرف

هذا المنصب ؟ ألم يصل إلى سمعك نبأ تلك القصة الشائعة في أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكيتيمييه لفراش أبيها ؟ إنها هي الأخرى طائر ، إلا أن إحساسها بالخطيئة جعلها تهرب عن عيون الناس ومن ضوء النهار مخفية عارها في ظلمات الليل ، بينما يتربص بها الجميع في أرجاء الفضاء .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : « لن تنجح محاولتك في إثنائي عن القيام بواجبي ، وإنني لأسخر بكل نبوءاتك العقيمة » . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاه فويوس ، فلما جاءه أبلغه نبأ رؤيته كورونيس تضاجع شاباً من ثيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يعرف قصة هذه الخيانة حتى سقط إكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسّمات وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده ، واحتدم الغضب في نفسه فقبض على قوسه وأطلق منها سهماً لا يملك أحد الهرب منه ، فإذا هو ينفذ في الصدر الذي طالما نعيم بضمه إليه . وتأوّهت كورونيس ألماً ، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القاني غزيراً على أطرافها الجميلة البيضاء ، وصرخت قبل لفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها ، وسرت في جسدها قشعريرة الموت وقالت : « أما كان الأجدر أن تنزل بي عقابك بعد أن أضع حمل منك ، فلقد قضيت بصنيعك على ضحيتين معاً ؟ » . وما أسرع ما أحسّ العاشق بالندم على عقابه القاسي ، ولكن الأوان كان قد فات . وحنّ على نفسه لإنصاته للوشاية ولتركه الغضب يتسلط عليه ، وكره الطائر الذي قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التي حرّكت سخطه عليها ، ولعن يده وقوسه وسهامه التي قذف بها . وضّمّ جسد كورونيس المسجّى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر ، فذهبت أذراج الرياح محاولته شفاء جرحها بعد أن فات الأوان .

٦٠٠ وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته في إنقاذها ، عصره الألم دون أن تدمع عيناه لأن الآلهة لا تدمع ، وفزع كما تفرع البقرة وهي تلمح ساطوراً قد رفع بها القصاب يده ليهوى به على الجبين المنبطح لوليدها الذي ترضعه . ثم أخذ يصبّ على كورونيس العطور الجنائزية التي لم تعد تقوى على الاستمتاع بها ، وضّمّها إلى صدره ضمة أخيرة ، وقدم لها طقوس الموت المحتومة . وإذا لم يحتمل أن تحيل هذه النيران فلذة كبده إلى رماد انتزع ابنه<sup>(٦٩)</sup> من أحشاء أمه منقذاً إياه من ألهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون<sup>(٧٠)</sup> .

٦٢٠ ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه ، ففضى فويوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرّيش .

## أوكيرويه

وسعد القنطور باصطفاء الإله له لرعاية ابنه وأفعم قلبه فرحة بهذا التشريف وتلك المسئولية . وفجأة ظهرت ابنته أوكيرويه<sup>(٧١)</sup> التي أنجبها من الحورية خاريكلو<sup>(٧٢)</sup> ذات الشعر الذهبي الضارب إلى الحمرة

المنسدل على منكبيها ، والتي أعطت اسم النهر الذي وضعتها على ضفافه . وكانت هذه الفتاة تجيد فنون أبيها وأضافت إلى ذلك قدرتها على التنبؤ وكشف أسرار الغيب . ٦٤٠

وحين رأت أوكيرويه الطفل الإلهي خفق قلبها حماسة وتولتها حمى التنبؤ وقالت : « فلتشبّ أيها الطفل ، فإن الأقدار تدّخرك لإنقاذ العالم ، وسوف يدين لك البشر بحياتهم يوماً ، وسوف تُوهب القدرة على إعادة الروح بعد انتزاعها من أجسادها ، وسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تجرؤ على إحياء الموتى ، فتجرّدك صاعقة جدّك<sup>(٧٣)</sup> من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى . وعندها ستتحول من جسد إلهي إلى جسد بشري ثم تُبعث إلها ثانياً ، فتبدّل مصيرك مرتين .

## خيرون

أما أنت يا أبي الحبيب ، وقد قدّر لك أن نجيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين ، فسوف تشتاق الموت يوم يسرى في جسدك سمّ الأفعوان عبر جراحك ، وتظل تشقى عذاباً حتى يستردّ الآلهة ما تستمتع به من خلود ، فتحلّ الربّات الثلاثة خيوط قدرك لثموت<sup>(٧٤)</sup> .

وهنا طفرت الدموع من عينيها مبلّلة خديها واستطردت متنبّدة تقول : « إن الأقدار تمنعني من أن أزيد على ذلك شيئاً ، فكلماتي محسوبة علىّ ، وقد كانت مقدرك على التنبؤ مبعث غضب الآلهة علىّ حتى تمنيت لو أني جهلت المستقبل . إنني أرى وكأنني قد فقدت شكل البشري وصار عُشب المراعى غذائي ، والرّكض في السهول الفسيحة مُتعب ، واستحالت صورتي إلى صورة فرس ، وذلك أثر من آثار القرابة . ٦٦٠ ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة ، بينما والدي نصف بشر ؟ .

حملت كلماتها الأخيرة شكاة غامضة وحديثاً مبهماً ، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هي سهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به ، وما لبثت أن سهلت سهيلاً حقيقياً ومدّت ذراعيها إلى العُشب ، وإذا أصابعها تلتئم ويحيط بها حافرٌ ناعم يُغشى أطرافها الخمسة ، وكبر رأسها واستطالت رقبتها ، وتحول طرف ثوبها إلى ذيل طويل ، وصار شعرها المنسدل على كتفيها معرفة تتدلى على كتفيها الأيمن واكتمل تحول صورتها وجسدها ، وأخذت مع هذا التحول المعجز اسماً جديداً هو المُهرة .

## باتوس

وذهب بكاء ابن فيليرا – وكان من أنصاف الآلهة – وتضرّع لأبوللو كي يخلص ابنته من آثار هذا التحول أدراج الرياح ، فلم يكن أبوللو يملك تغيير إرادة چوثير الجبار ، ولو قدّر له أن يملك شيئاً من ذلك ٦٨٠ فقد كان عندها بعيداً في مدينة إيليس<sup>(٧٦)</sup> وحقول مسينيا<sup>(٧٧)</sup> حيث يقيم ، وكان هذا التحول قد جرى وهو

مرتد ثياب الرعاة ممسك في يده اليسرى بعضاً من غصن شجرة ، وفي يده اليمنى مزمارة بان ذى القصببات المتفاوتة الأطوال .

ويحكى الرواة أنه حين شرد في دنيا غرامه وهام مع موسيقى زمواره قد غفل عن أبقاره فضربت في حقول بيلوس<sup>(٧٨)</sup> ولمحها ميركوريس بن مايا ، واستطاع بدهائه المعروف أن ينحرف بها ويخفيها خلال الغابات دون أن يراه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يسمونه باتوس ، وكان الثرى نيلوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيوله الأصيلة ومراعيها . وخشى ميركوريس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودّد إليه قائلاً : لست أدري من تكون أيها الغريب ، ولكني أسألك أن تخفي أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل ، ولست ناسياً لك جميلك ، وإليك هذه البقرة السمينية مكافأة لك . فأخذ باتوس البقرة وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار : « امض ولا تخشى شيئاً ، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقنى إلى فضح سرقتك » .

وتظاهر ابن چوبيتر بالمضى في طريقه ، ثم ما لبث أن عاد متخفياً في هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته : « أيها الفلاح ساكن هذه الحقول ، إن كانت بقراى قد مّرت أمامك فلتقدّم لى يد العون ولتكشف لى سرّها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص . ولا كافئك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها » . وأغرّت المكافأة المضاعفة الفلاح الشيخ فقال : « إنها هناك أسفل هذا الجبل » ، وقد كانت هناك حقاً عند سفح الجبل ، فأمسك الضحك بميركوريس وقال للشيخ : « أهكذا تشي بى إلى نفسى أيها المخادع ! » ، ثم حوّل هذا القلب الذى نكث عهده إلى صخرة صلبة مازالت تسمى حتى اليوم « الواشية »<sup>(٧٩)</sup> ، ارتبطت بها ذكرى هذه الوشاية التى شاعت عن هذه الصخرة البريئة .

## أجلوروس

وحلّق الإله بأجنحته فى الآفاق حاملاً صولجانه ، وأخذ يتأمل حقول مونيشيوس<sup>(٨٠)</sup> ، والأرض التى تباركها منيرفا ، وأشجار ليسيوم<sup>(٨١)</sup> المتألقة ، وكان يقام فى ذلك اليوم مهرجان باللاس الذى تقضى تقاليدته بأن تسير فيه العذارى العفيفات حاملات فوق رؤوسهن سلالاً مكلّلة بالزهور زاخرة برموز طقوس باللاس لإيداعها معبد الرّبة . وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن فتلبّث عن متابعتها رحلته ، وأخذ يدور حولهن كالصقر الذى يسبق جميع الطيور حين يلمح أحشاء الذبيحة ، غير أن فزعه من رؤية الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور فى الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد ، ويظل يدور نهماً يخفق بجناحيه حول الفريسة التى يشتهى الظفر بها . وكذلك كان الإله الرشيق يفعل فوق قلعة أكتي<sup>(٨٢)</sup> ، مهتداً طيرانه محدداً دورته فى الأجواء التى تعلو القلعة . وكما يفوق نجم الزهرة « لوسيفر »

النجوم الأخرى ببريقه ، وكما يبرز القمر الذهبى « فوييه » نجم الزهرة بلمعانه ، فقد كانت هيرسى أجمل فتيات الموكب تزدهى على الأخريات بروعة جمالها ، وقد راق جمالها ابن چوپيتر فتأجج قلبه بنار حبها ، وصار وهو فى الأجواء شبيهاً بطلقة قذف بها مقلع من مقاليع جُزر البليار أحسّت فى السحب حرارة لم تحسّها من قبل . غير الإله طريقه وهجر السماء واتخذ سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ شكلاً آخر غير شكله فقد كان واثقاً من وسامته . ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال ، فصقّف شعره وأصلح عباءته لتسندل على جسده فى أناقة تُبرز الحوافى المطرزة والزخارف الذهبية ، وجلا صولجانه الذى يحركه بيده اليمنى ليُلقي به النوم فى العيون<sup>(٨٣)</sup> أو ليطرده عنها ، واعتنى بأن يصقل نعليه المجنّحين فوق قدميه المساوين .

وكانت ثمة حجرات ثلاث فى داخل القصر مزدانة بالعاج والدَّبَل<sup>(٨٤)</sup> : اليمنى حجرة پاندروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسى . وكانت ساكنة الغرفة اليسرى هى أول من وقع بصرها على ميركوريوس ، فتقدمت فى جراءة وسألته عن اسمه وعن سرّ مجيئه ، فأجابها قائلاً : « أنا حفيد أطلس وپليونيّه . أنا ابن چوپيتر الذى يحمل أوامر أبيه عبر الأجواء . لن أحاول انتحال أعذار وهمية لمجيئى ، ولكنى أصارحك أنى قادم من أجل أختك هيرسى ولأناشدك أن تُدْخِى فى فؤادها حبي حتى تصبحى أنت خالة لابنى » . وما لبثت أجلاوروس أن حملت بنظرة جشع وفضول ، وهى النظرة التى تطلّعت بها يوماً إلى السلّة الخيزرانية لمنيرفا الشقراء<sup>(٨٥)</sup> ، وطلبت فنطاراً من الذهب مقابل أدائها المهمة التى يريدّها ، ودفعته خارج بابها على ألا يعود إلا محملاً بالذهب .

ونظرت الإلهة المحاربة منيرفا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة ، وزفرت زفرة انتفخ معها صدرها فعلاً بها الترس الذى كان يغطيه ، وتذكرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ السلّة حين نكثت بوعدها وتطلّعت إلى ابن إله ليمنوس<sup>(٨٦)</sup> الذى لم تلده أم ، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله ميركوريوس وبعرفان أختها الشقيقة وبثروة ضخمة أيضاً حين تتلقى الذهب الذى دفعته شرايتها إلى أن تطالب به ، فتوجّهت الإلهة إلى دار ربّة « الحسد » ، تلك الدار الحقيرة المعتمدة الكريمة ٧٦٠ الرائحة الرطبة التى لا تشتعل فيها نار قط ، ويخيم عليها الظلام الكثيف من حواليتها ، حتى إذا بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها ، إذ لم يكن لها أن تستظلّ بسقفها<sup>(٨٧)</sup> ، وطرقت الباب بطرف رحبها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التى كانت منهمكة فى التهام وجبة من لحم الثعابين ، وهو طعامها الوحيد الذى كان غذاء لروحها الشريرة . وأشاحت منيرفا بوجهها عند رؤيتها ، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة بقايا جثث الأفاعى وتقدمت بخطوات متثاقلة ، فلم يكذبصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطبت جبينها . وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً ، وثمة حَوْل فى عينها يحرف نظرتها إلى الأشياء ، وأسنانها مهشّمة حائلة اللون ، تنفث من صدرها نفثاة خضراء ، ويقطر لسانها سماً زعافاً ، لا ترسم على شفثيها بسمة إلّا حين تشهد آلام الغير ، لم تلق فى

حياتها طعم النوم المريح ، فقلقلها وهمومها تتركها ساهدة ، وتزداد هزالا كلما وقعت عينها الزائغتان على ٧٨٠ أحد يزداد ثراء . كانت شقاء على نفسها كما كانت شقاء على غيرها ، وكان ذلك عذابها الدائم .

ومع أن تريتونيا<sup>(٨٨)</sup> كانت لا تأبه بها فقد اتجهت إليها قائلة في إيجاز : « إن ما أريده منك أن تنفثي سُمِّك في صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكرويس » ، وضربت الأرض برمحها دون أن تضيف كلمة واحدة وحلقت عالياً في الأجواء تاركة الأرض . ونظرت ربة الحسد إلى الإلهة شزراً وهي محلقة حتى غابت عن نظرها ، وهممت حاقدة على ما سوف تحققه هي لمنيرفا من توفيق ، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك والتفت بالغيوم المعتمة وانطلقت ، فإذا الحقول التي مرّت بها قد غابت نضرتها ، وإذا الأعشاب تصبح هشيماً ، وإذا الأشجار قد يبست أوراقها ، وإذا البشر تعس بتعاستها ، وإذا مدنها ودورهم خراب ، إلى أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية ، حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة . وكانت كلما نزلت نفسها إلى البكاء كبنت تلك النزعة في نفسها لأنها لم تر من الأحزان بعداً ما يكفي لأن يبعث في عينيها الدمع .

٨٠٠ وحين دخلت على ابنة كيكرويس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدئة<sup>(٨٩)</sup> ، وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سماً زعافاً في أنفاسها ما لبث أن سرى في عظامها ورثتها ، وصورت لها - كى تثير شقاءها - أختها سعيدة بزواجها من الإله الذى أضفت عليه صفات الجمال كلها حتى تثير غيرتها . وأحسّت ابنة كيكرويس غيرة خفية تنهش قلبها ، وأصبحت تعاني العذاب آتاء الليل وأطراف النهار وتزفر زفرات متصلة ، وما لبثت تعاستها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت وهج الشمس المختفية وراء الغيم . وكانت سعادة هيرسى تفعل بأجلاوروس فعل الجذوة أو النار الدفينة دون أن يظهر لها بريق . وكم تمنّت الموت حتى لا تشهد عينها سعادة أختها ، وخطر لها أن تشي بسرّ أختها لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب ، ثم افترشت أخيراً عتبة أختها لتحول بين الإله وبين الدخول . ومضى الإله يتملقها بعبارات كلها إطراء ورجاء ، ولكنها لم تُلّق بالاً لقوله وصاحت به : « كفى ، فلن أترك مكانى حتى أحملك على البعد من هنا » . وأجابها الإله قائلاً : « ليكن ما تشاءين » ، ثم ما لبث أن لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له . ٨٢٠

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هي تجذ أطرافها قد خُدّرت وباتت ثقيلة فلم تستطع أن تنهض من جلستها . وعبتاً جاهدت كى تقف لكن رُكبتها كانتا خامدتين ، وسرت في جسدها برودة شملت أطراف أناملها وجُمد الدم في عروقها فشحب لونها . وتسَلّلت إلى جسدها شيئاً فشيئاً برودة الموت ، فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام ، واستحالت تمثالاً من الحجر فقد يياضه الناصع وغشاه سواد كالح أضفته عليه روحها .

# أوروي

وبعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاوروس على ما كان منها رحل عن البلاد التي اشتقت اسمها من اسم باللاس ، وحلّق عالياً في السماء يضرب بجناحيه في الهواء . وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يمكنه له من حب ، وإنما قال له : « انطلق يا ولدى ورسولي الأمين هابطاً إلى الأرض بما تملك من سرعة ، واقصد البلاد التي إلى يسارنا والتي ترفع أبصارها إلى نجم أمك<sup>(٩٠)</sup> والتي يُطلق عليها سكانها اسم مدينة « صيدا » ، وسوف تلقى قطعاً من ماشية الملك يرعى حشائش الجبل على مسافة بعيدة ، فسُق هذا القطيع الملكي إلى الشاطئ » .

وما إن انتهى من حديثه حتى كانت الثيران قد أبعدت عن الجبل واتجهت كما أمر صوب الشاطئ ، حيث كانت ابنة الملك الشهير قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة « صور » .

الملك والحُب لا يتواءمان ويستحيل أن يشارك أحدهما الآخر مكانه . من أجل هذا تخلى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه ، وهو حامل الصاعقة ذات السنة النيران الثلاثة في يده ، وهو من يهتز الكون كله بإشارة من رأسه ، وتخفى في صورة ثور واختلط بالثيران وشاركهم خوارهم ورعى معهم فوق الحشائش الغضة ، وكان لون جلده أبيض كالثلج الذي لم تطأه قدم ولم تبُلّه نفثات ريح الجنوب الرطبة . وكان عنقه منتفخ الأوداج ، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنهما جيلان يتألقان تألق دُرّتين حتى لتجزم أنهما مع صنع فنان ، لا تلوح الرهبة على رأسه ، ولا تحرك نظرات عينيه الخوف ، بل تشيع في وجهه الوداعة . وسرعان ما أعجبت ابنة أجينور بوسامته ووداعته ، وكانت قد توجّست خيفة في مبدأ الأمر من لمسه رغم لطفه ، ثم ما لبثت أن اقتربت منه بعد قليل ، وقطفت زهوراً بيضاء قرّبتها من شفّته . فبعث ذلك السرور في قلب عاشقها مرتقباً ظفّره بالمتعة التي يهفو إليها ، واجترأ بتقبيل يديها حابساً في نفسه ما يطمح إليه من نيل بغيته التي يتطلّع إليها ، وأخذ يلهو فوق الخضرة ويتقلّب على الرمال الصّفر بجسده الناصع البياض ، وأنست به الأميرة شيئاً فشيئاً ، وأخذ يقَدّم لها صدره تارة لتربت عليه بيديها البريئتين ، وقرنيه تارة أخرى لتكلّمها بالزهور النضرة ، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدري ظهر من تعلو . وابتعد الإله بها عن الشاطئ شيئاً فشيئاً بادئاً بوضع حوافره التي كانت بعض مظاهر تنكّره على سطح المياه ثم خاض بها البحر إلى أن بلغ وسطه ، وهنا تملك الفزع الفتاة ، وأمسكت يدها اليمنى بأحد القرنين بينما وضعت يدها اليسرى على عجزه ، تاركة ثوبها للريح تعبت بها كما تشاء .

# التعقيبات

- (١) فى الأصل مولكيبير وهو لقب من ألقاب فولكانوس .
- (٢) تريون بن نبتون « پوزيدون » وأمفيترقي ، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيربوس وپروتوبوس ، وكان يصور على شكل إنسان حتى خصره ، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج .
- (٣) پروتبوس حارس كلاب البحر للإله نبتون ، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكل فى أى شكل يريد به بما فى ذلك النار .
- (٤) أيجيون بن أورانوس وجيا ساعد چوبيتر عندما حاول نبتون وچونو ومنيرفا تقييده بالأغلال .
- (٥) دوريس هى بنت أوقيانوس وتيس وزوجة نيربوس وأم النيرباديس الخمسين .
- (٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وقبة السماء نفسها المرصعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية پيثاجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض ثابتة لا تتحرك . أما فكرة تقسيم النجوم إلى إثنتى عشر برجاً على الطريق الذى تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين .
- (٧) تيس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيدس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر .
- (٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية پيثاجوراس فى اتجاه مضاد لاتجاه الكون ، بدفع دورة الكون لها .
- (٩) يهدف أوفيد من ذكر أبراج الثور والرامي والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز المخاطر التى سيمر بها فايثون . وكان « الرامي » يصور عادة على شكل قنطور يرمى بقوسه . لذلك سمي بالقنطور الهاميون وهو اسم من أسماء ئيساليا ، الوطن الأسطورى للقنطور .
- (١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكترون من ترديد اسمى نجمة الصبح « لوسيفر » باللاتينية و « فوسفوروس » باليونانية أى حاملة الضوء ، مع أنها ليست فى الواقع سوى كوكبة واحدة هى الزهرة .
- (١١) يعنى اسم الجواد إيوس « الشرقى » باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس . أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبرق فى آن واحد .
- (١٢) ملك إثيوبيا وزوج كليمنيه أم فايثون .
- (١٣) جبل آئوس فى مقدونيا .
- (١٤) جبل تاوروس فى جنوب آسيا الصغرى .
- (١٥) جبل تمولوس فى ليديا بآسيا الصغرى .
- (١٦) جبل أويتا فى جنوب ئيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه .
- (١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما فى كريت حيث ترعرع فوقه چوبيتر ، والآخر بجوار طروادة .
- (١٨) جبل هيموس فى طراقيا .
- (١٩) بركان إتنا فى صقلية .

- (٢٠) جبل إيريكس في صقلية .
- (٢١) جبل كيثوس في ديوس التي ولد بها أبولو وديانا .
- (٢٢) جبل أوتريس في جنوب نيساليا .
- (٢٣) سلسلة جبال رودوي في جنوب طرايا ، وهي الآن جزء من بلغاريا .
- (٢٤) جبل مياس في شبه جزيرة تواجيه جزيرة خيوس .
- (٢٥) جبل دينديما في فريچيا .
- (٢٦) ميكالي شبه جزيرة تواجيه جزيرة صاموس .
- (٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتيكا وبويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية .
- (٢٨) جبال سكثيا بالقوقاز .
- (٢٩) جبال أوسا وبيندوس وأوليمپوس في نيساليا . ويضيف أوليفيد إلى هذه الجبال اليونانية جبلاً إيطالية هي سلسلة جبال الألب والإينين .
- (٣٠) ثمة يتابع كثيرة في بويوتيا تحمل اسم ديركي زوجة ليكوس ملك طيبة اليونانية .
- (٣١) لجأت أميموني إحدى بنات داناوس إلى أرجوس في فترة قحط واقتربت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستجذبت بيزيدون الذي طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثي الشعب إلى صخرة ما لبثت أن تفجرت منها المياه .
- (٣٢) إفيري هو الاسم القديم لكونث حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم بيرفي ، ويرى أن أحدهما ينبع من ضربة حافر الجواد ييجاسوس المجنح .
- (٣٣) نهر تانيس هو نهر الدون الحالي في روسيا .
- (٣٤) نهر بينيوس في نيساليا .
- (٣٥) نهر كايكوس في آسيا الصغرى .
- (٣٦) نهر إسمينوس في بويوتيا بالقرب من طيبة .
- (٣٧) نهر زانثوس هو النهر الطروادي الذي ذكر هوميروس في الإلياذة أنه كان يهدد أخيل بالموت .
- (٣٨) نهر ليكورمارس في غرب اليونان .
- (٣٩) نهر مياندر في كارييا بآسيا الصغرى .
- (٤٠) نهر ثرمودون بمملكة بونتوس الواقعة في آسيا الصغرى والتي تطل على البحر الأسود .
- (٤١) نهر فازيس في كولخيس على الشاطئ الشرقي من البحر الأسود حيث الكرج الآن .
- (٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب .
- (٤٣) نهر أليوس أهم نهر في المورة .
- (٤٤) نهر سيرخيوس في أواسط اليونان .
- (٤٥) نهر مايونيا في ليديا بآسيا الصغرى .
- (٤٦) نهر كايستر في ليديا المشهور ببجعه .
- (٤٧) نهر الهير هو نهر ماريستا في طرايا .
- (٤٨) نهر سترمون هو نهر ستروما في طرايا .
- (٤٩) جبل إيزماروس على الشاطئ الجنوبي لطرايا .
- (٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوروبا الغربية ، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية .
- (٥١) هي جزر السيكلاد .
- (٥٢) أطلس بن المردة التيتان وكان قد أسر في حريم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يحمل السماء فوق كتفيه إلى الأبد .
- (٥٣) نهر إيريدانوس هو نهر الرون في رأي البعض ، ونهر الهو في رأي البعض الآخر . ويقصد أوليفيد هنا نهر الهو .
- (٥٤) اتخذ أوربيديس من أسطورة فايتون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت .

(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وبلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحور . ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحيوان الوشق من فصيلة السنائير ، بينما يميل أوفيد إلى الرأي الأول كما يبدو من النص . وما يلفت النظر أن الكهرمان في روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة .

(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تقطن الشاطئ الشمالي الغربي من إيطاليا .

(٥٧) إيريدانوس نهر أسطوري اقترن أحياناً بنهر الهو وأحياناً أخرى بنهر الرون .

(٥٨) كان لجوبيتر معبد شهير فوق جبل ليكاياوس في أركاديا .

(٥٩) ربة مفترقات الطرق المسماة تريشيا هي في واقع الأمر هيكتاى أخت ليتو ، وكانت إحدى الإلهات المتصلة بالقمر ، الأمر الذي أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التي كانت بدورها يخلط بينها وبين فوبيه ، والراجع أن أوفيد يقصد ديانا في هذا النص . أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس في أركاديا للإله بان إله الطبيعة .

(٦٠) ديكتينا لقب من ألقاب الإلهة الكريتية بريتماريس التي كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرتميس «ديانا» .

(٦١) كاليستو هي ابنة ليكاوون الذي سبق أن عرفنا تحوله إلى ذئب في الكتاب الأول . وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكاياوس إلى جوار طقوس بان حتى حلت محلها عبادة جوبيتر وحده .

(٦٢) إيريمانتوس سلسلة من الجبال في أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للخنزير البري فوقها . وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيما بعد على كاليستو بعد أن تحولت إلى دبة ثم إلى ثريا في السماء .

(٦٣) هما الذئب الأكبر وحارسه الذئب الأصغر ويطلق عليهما «الساكان» .

(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التي تعزو إلى الإوز الذي كان يرثيه جند قلعة الكايتولينيوس الفضل في إيقاظ الجند وتنبيههم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة .

(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطئ أطلقت على أثينا ، وهذا هو ما يعنيه أوفيد .

(٦٦) كيكروبس هو البطل الأسطوري لمدينة أثينا فهو ابن إلهة الأرض ، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى .

(٦٧) أى البومة طائر منيرفا المقدس .

(٦٨) هي بنت نكتيوس ملك جزيرة لسبوس ، واضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشاذة وقد حولتها الإلهة أثينا [ منيرفا ] إلى بومة رفقا بها وجعلتها تراقفها دائماً . وما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوفيد من خطبة مماثلة عزاه الشاعر كاليماخوس إلى نفس الطير في قصيدته الطويلة «هيكاليه» التي نسب فيها الشاعر خطباً للطيور .

(٦٩) هذا الابن هو إسكليبيوس الذي سرى أوفيد قصة رحيله من إبيداوروس إلى روما في الكتاب الخامس عشر .

(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وفيليرا بنت أوقيانوس . واشتهر بأنه تعهد أخيل وإسكليبيوس بالتربية والرعاية ، وكان للقنطور وجه إنسان وصدرة فوق جسد حصان .

(٧١) معنى أوكريوييه باليونانية التيار الجارف .

(٧٢) خاريكلو هي بنت أبوللو .

(٧٣) كان مقدراً لإسكليبيوس أن يرد الحياة لهيوليتوس [ انظر الكتاب الخامس عشر ] .

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبيعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس في دم الهيدرا فأصابه بالأم مبرحة جعلته يناشد الآلهة تحريره من الخلود ليستريح من عذابه فاستجابت الآلهة له وحولته إلى كوكبة في السماء .

(٧٥) هومييه أى المهرة .

(٧٦) إيليس إقليم في غرب المورة يشمل مدينة أوليمبيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .

(٧٧) مسينيا مقاطعة بشه جزيرة المورة .

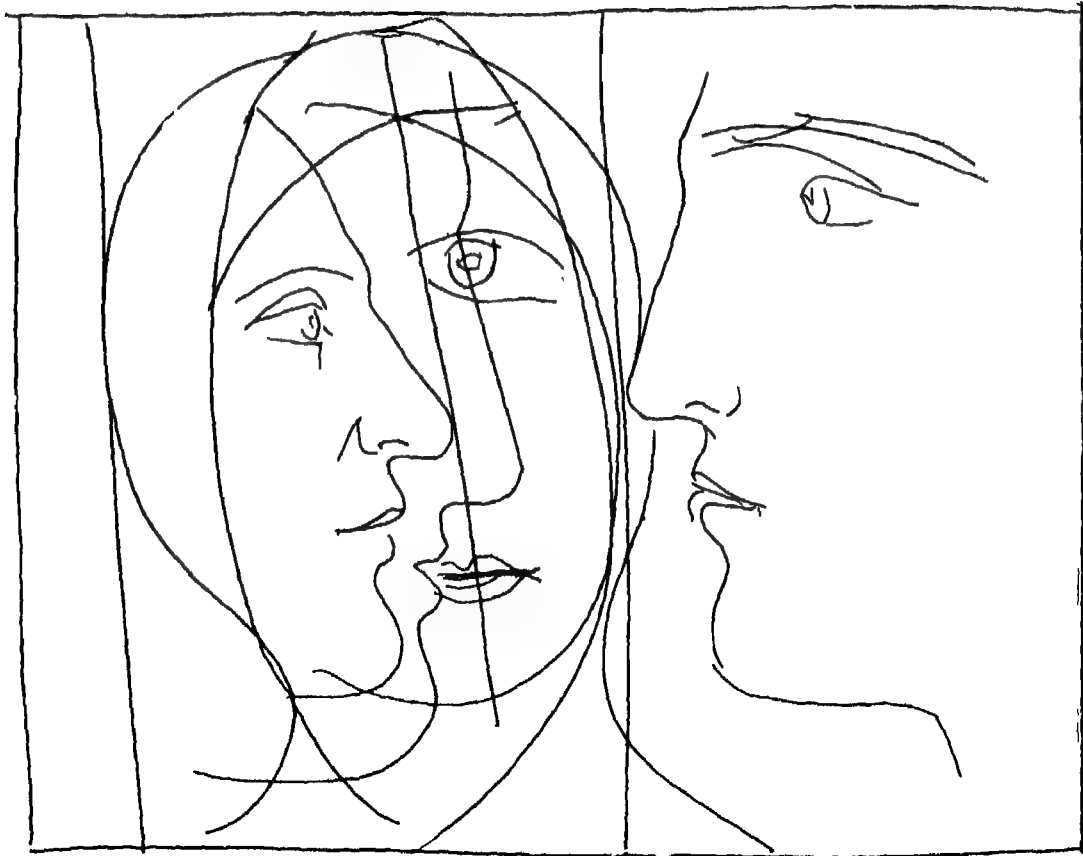
(٧٨) بيلوس مدينة بشبه جزيرة المورة .

(٧٩) صخرة قائمة بجوار بيلوس . وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذي يدل على وجود الذهب .

(٨٠) أحد الموانئ الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليريون .

- (٨١) ممشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقي فيه دروسه الفلسفية ، وهو أصل كلمة « ليسيه » الفرنسية التي تعنى مدرسة .
- (٨٢) معناها أرض الشواطىء وهو اسم قديم لآتيكا .
- (٨٣) كان من صفات هذا الصولجان الشهير أنه يلقي النعاس في الناس ويشير الأحلام وفق مشيئة ميركوريوس .
- (٨٤) كان الذبل المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية في الزخارف والترصيع وقتذاك .
- (٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكرويس ملك أثينا . ويقال إن منيرفا كانت ترعى إريخثونيوس بن فولكانوس وأخفته في خزانة سلمتها إلى بانديروسوس وأمرتها ألا تتطلع إلى ما تحويه فاطاعت بانديروسوس ، غير أن شقيقتها أجلاوروس وهيريس فتحتا الخزانة ، ولما شاهدتا الطفل بالخزانة تلتف من حوله الأفاعى أصببتا بالجنون ، وألقتا بنفسيهما من فوق الأكروبول .
- (٨٦) كان فولكانوس من أهل ليمنوس في الأصل .
- (٨٧) خشية أن يمسها الضرر .
- (٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرفا . ويرى البعض أن التريتون جدول صغير في بويوتيا ترعرعت على ضفتيه الإلهة في صباها . ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة في ليبيا .
- (٨٩) هو لون ذراعى ربة الحسد رمز كل ما هو شرير .
- (٩٠) كان ميركوريوس هو ابن مايا بنت أطلس ، وتشكل أمه مع أخواتها كوكبة في السماء ، وعليها أن نفترض أن جوبيتر يستطلع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق .





بيكاسو

## الكتاب الثالث

### كادموس

بين بساتين كريت جلس چوبيتر يستريح وقد تحلّى عن صورة الثور التي تنكّر فيها ليخدع الأميرة وظهر لها في صورته الحقّة . ولم يكن الملك أجينور قد عرف شيئاً عما حدث لابنته ، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعداً إياه بالنفى إن عاد دونها . وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً كان أيضاً أبا قاسياً لا يرحم .

وراح كادموس يضرب في أرجاء العالم ، ولكن أنّ له أن يعرف ما يُخفى چوبيتر؟ ومضى بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه ، ثم حجّ إلى معبد الهاتف الإلهي لأبوللو يصرع إليه أن يرشده إلى المكان الذي عليه أن يستقر فيه ، وأوحى إليه فوبيوس قائلاً : عليك بالمراعى النائية فسوف تقع عينك على بقرة لم يُشدّ

إلى عنقها نير ولم تضق بجِرِّ محراث معقوف ، فامض في إثرها واتبعها حيث تسير ، وحيثما تقف شيد أسوار مدينتك وسمها بويوتيا<sup>(١)</sup>

وما كاد كادموس يبتعد عن غار كاستاليا<sup>(٢)</sup> حتى أبصر بقرة تنهادى بلا حارس وليس على عنقها أثر لنير ، فتبعها ومضى في أثرها بخطى متصلة وهو يتمم بحمد فوييوس الذي هداه إلى الطريق . وبعد أن عبر مخاضة سيفيسوس وحقول بانوي ، توقفت البقرة ورفعت نحو السماء جبينها الجميل المزدان بقرنين طويلين وأرسلت خواراً تردّد صدها في الجو ، ثم تلفّت وراءها ترى من يتبعها وخرّت على ركبتيها واستلقت على العشب الناعم ، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وقبل أرض الغربة ، وحيّاً الحقول والجبال التي لم يكن له عهد بها من قبل وتأهب ليقدم قرباناً لجوبيتر ، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا منه ماء يسكبه قرباناً للآرباب .

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة ، يتوسطها غار تكسوه صفصافة كثيفة ، وتشكل جدرانه الصخرية قبوا منخفضاً يتدفق من تحته ينبوع ثر . وكان بالغار أفعوان مارس الداكن الزرق ، يعلو رأسه عُرف ذهبي ، وتتوهج عيناه ناراً ، ويزخر جسده بالسّم الزعاف ، وفي فمه ثلاثة صفوف من الأسنان ولسان ذو شعب ثلاث .

ودلف الرّحالة القادمون من بلدة صور إلى الغار المشثوم ، وأخذوا يغترفون الماء بجرارهم ، فآزعجوا الثعبان الذي نفخ رأسه من غور الغار ، وفجّ فحيحاً خفيفاً جعل الدم يجمد في أطراف الرجال فسقطت الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الفزع ، وأخذ الثعبان يزحف إليهم تتضام في زحفه حلقات جسده الحرشفي ثم تنفّج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج ، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظّل على الغابة كلها ، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتَي الدّين الأكبر والأصغر . وأسرع فهاجم الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيتهما يأخذون ، أيسدّدون حراهم أم يهربون ؟ وانطوى الثعبان على نفسه ثم قفز فصرعهم وتركهم بين ممزّق بأنياه أو معتصر بتلافيفه أو محترق بأنفاسه المسمومة .

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجيونور يتساءل قلقاً عما آخر رفاقه ، وراح يبحث عنهم مرتدياً جلد أسد حاملاً رمحه وحرثته المتألقة النصل متقدماً في شجاعة لا يعوزها سلاح . فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من لسانه قطرات الدم وهو يلحق جراحهم ، فصاح كادموس : « لأنقم لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو لألقن بكم » . ومال على صخرة هائلة وطوّح بيمنه في قوة لو أنه ضرب بها سور حصن شامخ لزعزت أركانه ، ولكنها لم تصب الثعبان القوى الجسد السميك الجلد بأذى ، إذ كانت حراشفه بمثابة الدرع الواقى ، وارتد الحجر بعيداً بعد أن دفع به جلده الأسود ، فسدّد إليه رمحه فإذا هو يخترق الجلد وينفذ إلى الأحشاء عند منتصف الظهر ، واستدار الثعبان وهو يثن ألماً ، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوى على

استخراج نصل الرمح غير أنه لم يقو على استخراج النصل المستقر في عظمه ، وانتفخت عروق الثعبان بالسسم الذى طفق على فكّيه بزبد الأبيض ، وأخذ يحكّ الأرض بحراشيفه وينفث في الجو أنفاسه التى تبدو ٨٠ وكأنها النهر في تدفقها ، ثم يخلق حلقات تبدل وتشكّل ، فيبدو كالشجرة المنتصبه حيناً أو كالنهر المتدفق في جريانه تمده الأمطار حيناً آخر ، ويطيح صدره بالأشجار التى تعترض طريقه . وتراجع كادموس قليلاً إلى الوراء متلافياً هجمات الثعبان محتماً بجلد الأسد الذى يرتديه شاهراً في وجه الثعبان حربته التى كان الثعبان يعضها عضات لا تنفذ فيها ، وما لبث الدم أن أخذ يسيل من فمه مختلطاً بالسسم ملوئاً الحشائش الخضراء . وأثخن الجرح الثعبان وتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقه ، ولكن كادموس ظل يلاحقه يريد أن يلغمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره ، وأنفذ كادموس الحربة في حلقه فأثبت رأس الثعبان في جذع الشجرة التى اثنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالأنين تحت ضربات الثعبان لها بذيله التى كانت تشبه ضربات السياط<sup>(٣)</sup> .

وبينما راح كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يقول له : مَالِكٌ تُحْمَلِقُ فِي الثَّعْبَانِ الَّذِي أَرْدَيْتَهُ ، لسوف يأتي يوم يتطّلع إليك الناس فيه أيضاً وقد استحلت ثعبانا<sup>(٤)</sup> . وعندها سرى الفزع في جسده وهرب الدم من وجهه وفقد وعيه وارتعدت أطرافه . وما لبث ١٠٠ بالاس راعية كادموس أن ظهرت ، وطلبت إليه أن يحرث الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغدو بذور شعبه الجديد . وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بذر فيها أنياب الثعبان . وحدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أخذ سطح الأرض يضطرب ، وبرزت البذور في شكل رموس رماح تعلو وسط الأخاديد ، وظهرت خوذات يهتز من فوقها الريش المختلف الألوان ، وتبعثها الأكتاف والصدور والأذرع حاملة الحراب ، وامتلاء الحقل بنبت من الجنود المسلحين بتروسهم . وفرع كادموس حين رأى هذا العدد المهول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه مستعداً للنضال ، فصاح به أحد المحاربين الذين أنبتهم الأرض قائلاً : « لا تُشهر سلاحك ، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القَبَلِ » ، وسرعان ما أعمد هذا المتحدث ١٢٠ سيفه في جسد واحد من أخواته النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح سُدّد إليه من بعيد ، ولم يعيش قاتله طويلاً إذ أسلم بدوره الروح التى لم يكن قد مضى على نبضها في جسده لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضاً حتى أفنى الصراع جميع الأخوة الذين لم يطل عمرهم أكثر من لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث الموتى تتلوى فوق صدر الأرض أمهم التى أدفأها دماؤهم الساخنة . وكانت بالاس قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو « إخيون »<sup>(٥)</sup> أن يضع سلاحه فاستجاب لها ووعداً ألا يقاتل وطلب إلى إخوته الأربعة أن يفعلوا فعله . وفي صحبة هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيد مدينته التى أوصاه الوحي بمعبد فوبيوس بينائها<sup>(٦)</sup> .

وشيّدت مدينة « طيبة » ، وفيها بدا لكادموس أنه قد ظفر بالسعادة في منفاه ، فقد بنى بالنبيلة هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة فينوس ، ورزق منها بأبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً أعزاء أقاموا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التآخي بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبوا عن الطوق وصاروا رجالاً .

ولكن على المرء أن يتلَبَّث حتى آخر يوم من حياة الإنسان ولا يحكم عليه سعادة أو شقاء ، إلا بعد أن يموت ويوارى التراب .

## أكتايون

١٤٠ كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعث أول حزن عانيت منه وسط السعادة التي رفلت في حُلُلها ، فقد نبت له قرنان في جبهته على غير مألوف الصورة البشرية ، وأنتم أيها الكلاب كنتم مصدر تعاسته حين ولغتم في دم سيدكم . ولو أنا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد ذهب ضحية القضاء والقدر ، وأنه لم يذهب جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلَّ طريقه فتكون ثمة جريمة ؟

وقع ذلك الحادث فوق جبل تخضَّب سفحه بدماء الحيوانات المفترسة المتنوعة ، وفي ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسَّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس<sup>(٧)</sup> برفاقه الهائمين على وجوههم في الأدغال في رفق ولين « أيها الأصدقاء ، لقد لَوَّثت دماء الوحوش التي اقتنصناها اليوم شباننا ولطخت سيوفنا ، وأصبنا من النجاح ما يكفيننا ، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تعلى أورورا ربَّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعنا بيوم جديد . فلنكفَّ عن الصيد الآن ولنجمع شباننا الموثقة العُقد ، فقد توسَّطت الشمس كبد السماء وأخذت حرارتها تشقِّق أرض الحقول » ، ورحَّب صحابه بقوله فلم يُتابعوا الصيد المُضنى .

١٦٠ وكان ثمة واد تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسُرَّو المدبَّية ، وكانت ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير تلجأ إلى هذا المأوى المسمى جارجافيه ، إذ كان بأعماقه غار لم تتناوله يدُ فنان بشري غير أن الطبيعة قد خلقت فيه ما يشبه الأعمال الفنية ، إذ نحتت قبوة طبيعية من حجر الخفاف البركاني وحجر التوفة المسامي . وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنتشر على صورة غدير فسيح تحتضنه شواطئ سندسية . وما أكثر ما كانت الإلهة تفد إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد في الغابات فتستحم فيه أو تنلِّي أطرافها العذرية في مائه النقي .

١٨٠ أوت الإلهة إلى الغار وأسلمت رمحها وقوسها وجعبة سهامها للخورية المكلفة بحمل سلاحها . وحملت خورية ثانية رداءها على ذراعها ، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها ، وتقدَّمت وصيفة أشدَّ مهارة هي كروكالي ابنة نهر إيزمينوس فضمت ضفيقر الإلهة المتدلَّيتين على كتفيها وعقدتها معاً خلف رأسها وتركت هي شعرها ينسدل مُرْسلاً ، وانطلقت الخوريات نيفيلي وهيال ورائيس وپسيكاس وفيلي يجلبن الماء في جرار كبيرة ويضبيته على سيدتهن<sup>(٨)</sup> .

وبينما كانت ديانا تستحم على عاداتها في الغدير كان حفيد كادموس قد ترك الصيد وأخذ بخطو متردداً خلال هذه الغابة التي لم تسبق له رؤيتها حتى بلغ الغار ، وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه ، ولم يكد يصيبه

رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن وملأن الغار بصراخهن ،  
وتحلقن حول ديانا ليحمينها بأجسادهن غير أن طولها جعلها تبرز فوقهن جميعاً برأسها وعنقها . وحين تبينت  
ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجنتاها بحُمْرة السُّحب التى تنعكس عليها  
أشعة الشمس الساقطة عليها أو بحُمْرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان . ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن  
يسترنها إلا أنها انزوت جانباً وأشاحت بوجهها ، وتمنّت لحظتها لو كانت ممسكة بسهامها ، فأخذت قليلاً  
من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فعَمَّ شعره ، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصير المشوم قائلة :  
« رُح الآن وارو إن استطعت أنك شاهدتني وأنا عارية بلا ثياب ؟ » ولم تضيف إلى قولها شيئاً آخر ، فنبت ٢٠٠  
قرنا وعُلَّ معمرٌ فى جبهته التى ابتلت بالماء ، وطالت رقبته ودقّت أطراف أذنيه ، وتحوّلت يدها قديمين  
وذراعاه إلى ساقين طويلين ، واكتسى جسده بجلد أرقش وحلّ فى قلبه الرعب . وحين رأى الماء يعكس  
صورة وجهه بقرنيه همّ أن يأسى ، غير أن شفتيه لم تتحرّكا بكلمة فجعل يثن ، وكانت هذه هى لغته  
الوحيدة التى بقيت له . وانهمرت الدموع من عينيه مبلّلة وجنتيه المسوختين ، وأخذ يفكر بعقله وكان هو  
كل ما بقى له . ماذا تراه فاعلاً ؟ أيعود إلى القصر الملكى أم يختبئ فى الغابات ؟ وبينما هو متردد فيما يفعل  
خجلاً من العودة إلى القصر وخوفاً من البقاء فى الغابات إذا كلباه ميلامبوس وإخنوباتيس المنفردان بقوة  
شتمهما يحيطانه بنباحهما ، وأولهما من سلالة اسبرطية وثانيهما من سلالة كريتيّة ، وجرت فى إثرهما فى سرعة  
الريح العاصفة سلاّات مختلفة من الكلاب ، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية ،  
ومنها نيبروفونوس القوى وثيرون المتوحش ولايلاس الشرس وپترلاس السريع العدو ، وأجّرى القوى  
الشّم ، وهيلايوس الذى أصابه خنزير برّى بجرح ، ونابى الذئبى السلالة ، وبويمينيس حارسة القطعان  
وكذا الكلبة هارپيا وجرواها الصغيران ، ولادون الهزّيل الوافد من سيكيون ودروماس وكاناسيه وستيكتي  
وتيجريس وألكى ، وليوكون الناصع البياض وأسبولوس الحالك السواد ، ولاكون الخارق القوة وأيللو  
الذى لا يملّ العدو ، وثويس وليكيسكى السريعة العدو وشقيقها القبرصى هارپالوس ذو الغرّة البيضاء ،  
وميلانيوس ولاخنى الكثيفة الشعر ، ولبروس وأجريودوس وهما كلبان من سلالة مهيّنة من أم كريتيّة وأب ٢٢٠  
اسبرطى ، وهيلكتور العالى النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسمائها<sup>(٩)</sup> ، وامتلات الكلاب حماسة لوقوعها  
على فريسة ، فخاضت الرّبي والصخور التى لم يصل إليها أحد من قبل والتى يشقّ بلوغها . وأسرع أكتايون  
هارباً من الكلاب التى تطارده مندفعاً فى الأماكن عينها التى كان يتعقّب فيها صيده . ألا ما أتعسه . . . لقد  
أصبح يهرّب من كلابه هو ، وتمنّى لو ملك أن يصبح فيها : « أنا أكتايون ، ألا تعرفوننى ؟ » غير أن الكلام  
لم يُسغه . امتلأ الجوّ نباحاً وأدركت ميلانخيتيس سيّدها وكانت أول من أعملت أسنانها فى ظهره ، ثم  
تبعها ثيريداماس ، وأنشب أوريزيتروفوس أسنانه فى كتف سيّده . ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد  
خرجت متخلّقة عن رفاقها لكنها سبقتها لولوجها طريقاً قصيراً ، وطرحت سيّدها أرضاً بينما تجمّعت بقية  
الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلا ممزقاً . وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت  
بشر ولا هو صوت وعِل وقد ملأ نحييه الجبال ، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسّلاً ، ومضى يحنّ ٢٤٠  
رأسه يئمة ويسرة فى صمت ضارع عاجزاً عن بسط ذراعيه ، بينما أخذ رفاقه الذين كانوا معه يصيحون فى

الكلاب يستحثونها على الفتك بفرستهم جاهلين حقيقتها ، يصيحون باسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه وسطهم ، وكل واحد منهم ينافس زملاءه في الصباح ، وغمرهم الحزن لأن قائدهم لم يشهد فرستهم التي أوقعها الحظ بين أيديهم ! وكان أكتايون يدير رأسه كلما سمع اسمه متمنيا لو أن ذلك لم يقع له ، وأنه لم يكن فريسة أنياب كلابه النهمة ، بل وكم تمنى لو كان كغيره من المستمتعين بذلك المشهد ، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنهشه بأنيابها حتى خمدت حياته فسكن غضب الربّة ديانا حاملة جعبة السهام<sup>(١٠)</sup> .

## سيميليه

وحين بلغت القصة أسمع الناس اختلفوا بين ممتدح طهارة ديانا وحفاظها على عفتها وبين أخذ عليها قسوة عقابها ، وكان لكل فريق من المتحاجين ما يسانده . وقد لزمت زوجة چوپيتر وحدها الصمت وأمسكت عن المدح أو القدح ، غير أنها كانت في أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التي حلت بال أجينور ، ذلك أنها كانت تطوى صدرها على حقد دفين لأسرة أوروبا منافستها الفينيقية من مدينة « صور » .

ثم ها هي چونو تلقى حدثا جديداً يضيف مزيداً إلى غضبها القديم ، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سيميليه ابنة كادموس قد حملت ببذرة چوپيتر العظيم ، فأخذت تحدث نفسها قائلة بلسان يتشوّف للنيل من الغير : « أية فائدة جنيتها من تأنيب زوجي المرّة تلو المرّة ؟ إن عليّ أن أنزل عقابي هذه المرة بالفتاة نفسها ، أو لست أنا چونو الشديدة البأس كما أعرف بحق ، أنا الجديرة بحمل الصولجان المرصع بالجواهر ؟ أو لست ملكة السموات وأخت چوپيتر وزوجته ؟ بل إنني في الحق أخته ، ولكن لعل البعض يلتمسون العذر لغريمي بأنها قد قنعت بلقاءات حب في الخفاء ، وأنا لم تعتد على حرمة فراشي إلا في نزوة عابرة . ولكن هل كان ينقصنا هذا العار الجديد ؟ إنها تحمل في أحشائها دليل جرمها ، إنها تطمع في أن تصبح أمّا بفعل چوپيتر نفسه ، وهو ما عجزت أنا عن الظفر به . ألا ما أشد ثقتها بجهاها ! ولعمري لأثبتن لها ضلال ثقتها ، ولن أكون جديرة بأن أسمى ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغوص في مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوپيتر نفسه » . ثم نهضت عن عرشها وتلفعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه ، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تخفّت في صورة عجوز يظهر الشعر الأبيض في فوديا وتملأ التجاعيد بشرتها وقد احدودب ظهرها واهتزّت خطاها وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة ، وبدت في صورة شديدة الشبه بصورة بيروى الإييداورية مرضعة سيميليه .

وانخرطت في حديث طويل مع سيميليه عرجت في نهايته على چوپيتر ، وزفرت زفرة عميقة وهي تقول : « لكمّ أتمنى أن يكون چوپيتر حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكاً كبيراً يؤرقني ، فكم من رجل تسلّل إلى فراش فتاة بريئة منتحلاً لنفسه شخصية الإله ، وأيا يكن فإن ادعائه بأنه چوپيتر لا يكفي

ولابد أن يقدم الدليل على حبه ، فاطلبى إليه أن يظهر لك في صورته مجللاً بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها  
لجئونو فى السماء ، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يتلفّع بعباءة الألوهية .



پیکاسو: چوبیتر وسیمیلیه

ونجحت چونو بحديثها في أن تستشير ابنة كادموس التي لم تشك في صدقها . وسألت الفتاة چوپيتر أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه ، فوعدها الإله قائلاً : « سلى فلن أرد لك طلباً حتى أثبت لك أن بوسعك الثقة بي ، وإنني أشهد على ذلك أرباب نهر ستيكس الجارف الذي تهابه الآلهة أنفسهم » . وامتلاً صدر سيميليه بالفرحة لظفرها بوعده لا تدري أن تحقيقه سيحمل لها الهلاك وقالت : « فلتظهر لي كما تظهر لچونو ساعة تطارحها الغرام » ، وحاول الإله إمساك شفتيها عن الكلام ، غير أن عبارتها العجلة كانت قد طفرت من فمها وانتثرت في الهواء ، فأشفق عليها چوپيتر بعد فوات الأوان الذي كان يستطيع فيه ردّها عن طلبها فلا يحقق لها ما وعدّها ، وصعد في أجواء الفضاء مُثْقلاً بالحزن العميق ، وأوماً للضباب فتجمعت عليه السحب والبرق والرياح والرعود والصاعقة التي لا يفلت منها أحد ، على أنه حرص على حمل أقل قدر ممكن من قواه وتخفف من حمل النيران التي أهلكت تيفويوس ذا المائة يد<sup>(١١)</sup> ، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضرراً من تلك الصواعق التي لا تبقى ولا تذر ، فقد كانت في حوزته صاعقة استطاعت أيدي الكيكلوبيس أن تدخل في تكوينها قدرأ أدنى من غضب الآلهة وقسوتهم ، وجعلها الآلهة من صواعق المرتبة الثانية . ودخل چوپيتر بهذه الصاعقة إلى دار أسرة أجيونور ، غير أن جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمل الإشعاعات التي تنبعث من صاعقة الإله فاحتترقت وأصبحت رمداً بفعل هدية زفافها ، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه . وإذا كان لنا أن نصّدق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد وضعه على فخذه وهو ما يزال مُضغّة ثم خاطه فيها حيث بقى شهور الحمل ، ثم حضنته حالته إينو<sup>(١٢)</sup> حتى عهدت به إلى حوريات نيسا<sup>(١٣)</sup> اللاتي خبّأته في غارهن وأخذن يغذيانه باللبن .

## تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض لوفّق نواميس القدر ، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس] بن سيميليه - المولود مرتين - في حراسة أمينة ، ثمل چوپيتر بعد رشقات نكتاره الإلهي فحاد عن الجّد وبدأ يمزح مع چونو ساعة استرخائها ، وقال لها : « إنكن معشر النساء لتجِدُن في لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التي يجدها الرجال » . غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يحتكما إلى تيريزياس الحكيم ويسلما برأيه ، ذلك أنه عرف لذات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى . فقد كان يجول يوماً في غابة خضراء ورأى ثعباناً هائلاً يواقع أفعى رهيبه ففرق بينهما بضربة من عصاه . وفجأة ويا للعجب ، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة ، وبقي سبعة أعوام وهو أنثى ، حتى كان العام الثامن وإذا هو يشهد نفس الثعبانين في نفس الوضعة التي كانا فيها قبل فحادثهما قائلاً : « لو أن هناك سحراً فعالاً قوياً يحيل من يضربكما من جنسه إلى الجنس الآخر فإنني مبادر بضربكما من جديد » ، وقام بضرب الثعبانين مرة أخرى ، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعته التي وُلد بها . وذلك ما

جعل جونو وچويتر يحتكان إلى تيريزياس بعد مجادلتها المازحة . وقد آيد تيريزياس رأى چويتر ، فغضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف وقضت على تيريزياس بأن ينسدل جفناه على ليل سرمدى . ولما لم يكن في استطاعة إله إبطال عمل إله آخر فقد عوّض چويتر تيريزياس عن فقدته نور عينيه بمنحه قدرة التكهن بالمستقبل ، مخففاً بمنته تلك عنه ما أصابه من جونو من نقمة .

## نارسيوس وإكو

وكانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مسلمة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته في مدن بويوتيا جميعاً . وكانت ليريوبى حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحبه ، وكانت هى الحورية التى احتضنها ربّ النهر كيفيسوس وسط مجراه الملتوى واغتصبها وهى سجينة بين أمواجه فأنجبت طفلاً دعتة نارسيوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وحبهن . وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرم أجابها العراف العليم بالغيوب : « نعم إذا فطن إلى حقيقة أمره »<sup>(١٤)</sup> .

وقد ظل هذا القول فترة طويلة وكأنه لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التى تمثلت فى الهذيان الغربى الذى ألم بنارسيوس وفى طبيعة الميتة التى لقيها . ذلك أن ابن كيفيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً ، وأخذ يحرك الرغبة فى صدور الفتيان والفتيات معاً ، غير أن نعومة جسده اللدن كانت تحفى صلفاً عنيداً لم يتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودد إليه . وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شبابه شداً انتباه الحورية الثائرة « إكو » التى لا تطيق الصمت حين يتحدث الآخرون فتردد دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبداً ، وكانت وقتذاك ماتزال محتفظة بجسدها لم تتحول بعد إلى مجرد صوت . ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرائر قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التى تقال أمامها . حدث هذا بلادة جونو حين اكتشفت أن إكو كانت تعوق خطاها حين تذهب لمفاجأة زوجها چويتر وهو يضايع الحوريات فى الجبال ، إذ تنخرط معها فى حديث لا ينتهى تتمكن خلاله الحوريات من الإفلات . وحين فطنت جونو إلى مسلكها ثارت قائلة : « لسوف أحرملك قدرة هذا اللسان الذى خدعنى ، فلا تهئين باستخدام صوتك إلا فى أضييق مجال » . ونفذت جونو وعيدها ، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير ترديد الكلمات الأخيرة من العبارات التى تسمعها .

ولم تكد إكو تلمح نارسيوس جائلاً فى الحقول النائية حتى اشتعلت فى صدرها الرغبة وأخذت تتبع خطاه خفية ، تتزايد مع اقترابها منه النار التى تتأجج فى أعماقها أسرع مما تشتعل النار فى الكبريت الذى يغطى رموس المشاعل . وكم تأقت أن تتقرب إليه بكلمات تطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيح لها أن تبدأ حديثاً ، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار ما تسمع فقد أخذت تترقب أصواتاً تستطيع ترديدها .

وحدث أن صاح الفتى حين أبعدته خطاه عن رفاقه الأوفياء قائلاً : « أما من أحد هنا ؟ » ، وأجابت إكو مرتدة الصدى « هنا » ، فتوقفت نارسيسوس مذهولاً وتلفت حوله ثم صاح بصوت عال : « هلم إذن » فرددت إكو قوله ، فتلفت وراءه فلم يجد أحداً ، فصاح من جديد : « ماسر هذا التخفى مني ؟ » ، ولكنه لم يسمع غير كلماته ترتد إليه ، فالتح في نداءه حتى ضاق بالصوت الذي خيل له أنه يتجاذب معه الحديث فقال : « لنلتق هنا » . ولم يكن هناك ما يدخل السعادة على الحورية أكثر من ترديد هذه العبارة ، فرددت على الفور قوله : « لنلتق هنا » ، ودلت على فرحتها بالخروج من غيبتها بين الأشجار وتقدمت نحوه تعانق أملها المنتظر ، غير أنه أفلت منها صائحاً : « ردى ذراعيك اللتين تمدينيهما لعناقى ، فإننى أفضل الموت على أن أستسلم لك » . ولم ترد إكو إلا عبارة « أستسلم لك » ، غير أنها أحسّت بالمهانة فغاصت في أعماق الغابة ، وأخفت وجهها العابس بين أوراق الأشجار . ومنذ ذلك الحين وهى تسكن الكهوف الموحشة ، وعاش حبها مع ذلك نابضاً في قلبها ، يتزايد لهيبه تزايد آلام الصدف ، وحرما قلقها النوم فأصابها الهزال وغطت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جمالها ، ولم يبق منها إلا صوتها وعظامها ، غير أن عظامها ما لبثت أن تحولت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردد . ومع بقائها مغمضة في الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقى الجميع يسمعون صوتها في الجبال .

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التى سخر نارسيسوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشاقه الذكور ، غير أن إحدى الحوريات اللاتي صدهن رفعت ذراعيها متوسلة إلى السماء أن يقع هو بدوره في شرك حب لا يخرج منه فائزاً . وسمعت نيميسيس<sup>(١٥)</sup> ربة مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل واستجابت له .

كان ثمة غدير صاف تتألق مياهه الفضية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه ، ولم ترد ماءه قطعان الماعز أو البقر التى ترعى العشب بالمراعى ، ولم يكن يقطع عليها هدوءها تغريد طير أو صياح وحش أو تساقط فروع الأشجار ، إذ أحاطت بها مروج كثيفة العشب تسقيها المياه المجاورة فتمنحها إيناعاً دائماً متصلاً ، وتحميها من أشعة الشمس المحرقة غابات تلفها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها رطبة على الدوام .

سأقت نارسيسوس خطاه إلى هذا النبع بعد ما أضناه الصيد المنهك ووقدة الظهيرة ليسترخى في هذا الموقع الذى استهواه جماله وندى نسباته ، وقد مال على الينبوع ليطفئ ظمأه فإذا هو يحس ظمأً جديداً . ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لبه فوقع في غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يعدو أن يكون ظلاً . وقد فتنته صورته فبقى يجملق في الماء بلا حراك ، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس . واضطجع على الشاطئ يتأمل عينيه الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس أو أبوللو وجنتيه الملساوين وعنقه العاجى ووجهه الجميل الذى يتورد بياضه الناصع . وامتلأت نفسه إعجاباً بتلك القسائم التى تحرك إعجاب الآخرين به . ودون أن يدري بات يولع بذاته ويمتدح نفسه ويؤجج في صدره التباهى بطلعته ، فكان هو نفسه وقود تلك النار التى يضررها . وكم من مرة حاول فيها

تقبيل ذلك الوجه المنعكس عن وجهه على صفحة الغدير ، وكم من مرة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمَّ خياله الذي تراءى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقق ما يحاول . أى شيء هذا الذى تقع عليه عيناه ؟ إنه لا يدري . غير أن هذا الذى يشهده هو مصدر الضنى فى نفسه ، وهذا الخيال الذى خدع عينيه هو الذى أثار الشوق فى نفسه إلى نفسه . أى نارسيسوس ، أيها الصبى الساذج ، فيم حاولت الإمسك بصورة خادعة ؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود حسي ، ولو أنك استدرت لغاب عنك هذا الذى تهيم به ، إن ما تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء . إنه ليس له وجود مستقل . إنه يحىء معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رزقت المرأة على الرحيل .

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فظل ممدداً على العُشب الكثيف يخلق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر ، وعراه الشرود من مدوامته التأمل ، ثم وقف فى النهاية وبسط ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها : « أيتها الغابات ، هل أحسُّ أحداً بحبٍّ أشدَّ لوعة من حبِّي هذا ؟ إنك تعرفين الخبر اليقين ، فالمحبون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفية ، وقد طالَّت حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثلى أسى ؟ إننى عاشق أتطلع إلى من أعشق ، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يقعدنى العجز عن وصله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبه . وما يضاعف من ألى أن لا شيء يفصلنى عن حبيبى ، فليس بيننا محيط ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب مُغلقة ، ليس غير قليل من الماء هو الذى يحول بيننا . وما أشوق حبيبى إلى عناقى ، فحين انشئت على صفحة المياه الصافية لأقبله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهى محاولاً الاقتراب منى ، وخيلَ لى أن فى مقدورى أن ألمسه لولا تلك المياه الرقاقة التى تحول بينى وبينه . فلتقترب منى أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً من تكون ! لماذا تراوغنى ؟ وأين تذهب كلما حاولت الوصول إليك ؟ إنك لا تتجنبنى دون شك لمظهرى أو سنى فالخجريات يعشقننى ، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فى الأمل . كما أنك تمدُّ ذراعيك لى كلما مددتُ ذراعى لك ، وتبتسم لى حين أبتسم لك ، وكثيراً ما تدفقت دمعاتك مع دمعاتى ، وبادلتنى إشارة بإشارة ، ولقد تتبعت جاهاً حركات شفتيك الجميلتين وهى تنبس عن كلمات ما بلغت سمعى أبداً . ويلاه ، إن هذا الصبى الذى يترامى لى ليس غريباً ! وها أنذا قد فطنت للحقيقة . إن صورة وجهى لا تخدعنى ، إننى أحترق بنار حبى لنفسى ، وإننى أشعل بنفسى النار التى أشقى بها ، ماذا تُرائى فاعلاً ؟ أتوسل إلى نفسى أو أتلبث حتى تتوسل لى نفسى ؟ وأى ضراعة تلك التى تُمكننى من أن أنال ما أحب ؟ فى حوزتى ما أنشوق إليه ، وثرائى هو سبب بلائى ، وكم وددت لو استطعت أن انفصل عن جسدى ، وتلك أمنية ما أعسرها على العشاق . كم وددت لو كان حبيبى غير قريب منى . إن الحزن يعتصر قواى وليس أمامى من العيش إلا أيام معدودات ، إننى أنطفئ وأنا فى زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه سوف يريحنى من الآلام ، وكم أتمنى لحبيبى أن يحيا طويلاً من بعدى ، غير أن وحدة قلوبنا ستجعلنا نهلك معاً وتنتهى حياتنا مع زفرة واحدة . »

وحيث أنهى حديثه عاد يحملق مذهولاً في الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته وتموج سطح الغدير ، وانطمست صورته ورأها تختفي فصاح بصوت عال : « إلى أين تهجرني أيها القاسي القلب ، ابق ولا تهرب مني محبب ، دعني أتطلع إليك مادمت لا أملك لمسك ، دعني أشبع حبي السيء الطالع بالنظر إليك » . ومزق من فرط حزنه طوق ردائه وأخذ يضرب صدره العاري بيده الناصعة البيضاء فتورد صدره من أثر الصفعات تورد التفاح تحمر بعض أجزائه وتبقى الأخرى مشرقة البياض ، أو تورد العنب لم يكتمل نضج عناقيده بعد .

وحيث هدأت مياه الغدير ثملت على صفحتها مآسى نارسيوس كلها فلم يطق مزيداً ، وكما تذوب الشمعة مع الحرارة الهادئة ، وكما تتبدد قطرات الندى مع دفء الشمس أخذ يذوب بحرارته الكامنة الخفية بعد ما أنهكه الحب وأضناه ، وفقدت بشرته بياضها المشرب حمرة الورد وزايلته قوة شبابه ، واختفى جمال قسماته الذي كان يأسر عينيهِ ، ولم يبق له شيء مما أحبته إكويوماً . وقد شاهدت إكوما وقع له ، ومع أن ذكرى صدوفه عنها كانت لاتزال ماثلة في أعماقها إلا أنها أحست بالحزن شفقة عليه ، وكلما زفر زفرة وقال « ويلاه » كانت تردد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماته وهو يحملق في الماء ، « واحسرتاه على الغلام الحبيب الذي ذهب حبي له سدى » ، أخذت إكويوماً تردّد صداها . وحيث نادى « وداعاً » ، ردّدت إكويوماً أيضاً هذه الكلمة ، وتمالك بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيهِ اللتين طالما هامتاً بجمال صاحبها وسقط ميتاً . وحيث احتواه عالم الموت عاد يتطلع إلى صورته على صفحة مياه ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات النبع وقصصن شعورهن إجلالاً له ، وحزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، وردّدت إكويوماً أصداها نواحيناً .

وكان حطب المحرقة والمشاغل التي تُهزّز بالأيدي<sup>(١٦)</sup> قد أعدت لحفل إحراق جسده التي اختفت ولم يعثر عليها أحد ، وإذا زهرة النرجس قد ظهرت مكانها تحمل قلباً زعفراني اللون تنشق منه وريقات بيض<sup>(١٧)</sup> .

## پنثيوس واكوييتيس

كانت أحداث هذه القصة مما أذاع شهرة الحكيم تيريزياس في كافة مدن اليونان ، وكان بها جديراً ، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب .

وكان پنثيوس بن إخيون يزدرى الآلهة ، وكان الوحيد من البشر الذي امتهن رسولهم وسخر من تحذيرات العراف العجوز تيريزياس . وحيث عيّر بفقدان بصره هزّ العراف رأسه الأشيب وقال له لائماً محذراً : « لو أنك حرمت نور عينيك كما حرمته أنا لكنت أسعد حالاً ، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باكخوس السرية . ولسوف يأتي ذلك اليوم ، ولا إخاله بعيداً - الذي يُقبل فيه الإله الجديد لير بن سيميليه<sup>(١٨)</sup> ، فإذا أنت لم تُوفه حقّه من التبحيل في المعابد المقدسة ، تمزق جسدك إرباً إرباً ، وتناثرت



وعاد مبعوثوه ملطخين بالدماء ، وحين سألهم سيدهم عن باكخوس أجابوا بأنهم لم يروه ، وأضافوا قائلين : « ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدى الطقوس السرية » ، وأسلموه الأسير التيريني<sup>(٢٢)</sup> المتحمس لعقيدة باكخوس ويداها مقيدتان خلف ظهره . ونظر إليه پنيوس وعيناه تقدحان شر الغضب ، وكان على وشك أن يبطش به ولكنه وجه للأسير سؤالاً قائلاً : « إنك موشك على الموت ، وسوف تكون بعد موتك عبرة وعظة لغيرك ، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسر احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة ؟ » وأجاب الأسير دون تلثم : « اسمى أكوتيس ، وقد وُلدت في مايونيا من أبوين من أصل متواضع ، ولم أرث عن أبى حقولاً تخرثها الثيران القوية ، ولا قطعان ماعز تَمْدَنى بالصوف ، ولا بقرة واحدة أرهاها ، إذ كان مثلى فقيراً ، وكانت مهنته طرح الشباك للأسماك واجتذابها بشصه ثم رفعها من الأنهار منتفضة على طرف قسبة من غاب . وكانت مهنته هى كل ثروته التى أورثها لى قائلاً : « امسك بهذه الثروة من بعدى وكُن خَلْفى فى هذه المهنة » . ثم مضى به الموت دون أن يترك لى غير المياه أبحث فيها عن صيد . ذلك كان كل ميراثى ، غير أنى لم أشأ إفناء عمري قابلاً فوق الصخور ، فتعلّمت إدارة دفة السفينة وقياس المسافات بمواقع النجوم : نجمة عزة أولينوس دليل المطر<sup>(٢٣)</sup> والثريا وقلائص كوكبة الثور والدين الأكبر والأصغر ، وألفت عيناى اتجاهات مهاب الرياح كما ألفت الموانئ الصالحة لرسو السفن . ويوماً ما وأنا مَبْحر صوب جزيرة ديلوس اقتربت من شواطئ جزيرة خيوس وكان رجالى يَجْدِفون فى يُسر قرب الشطّ ففجزت من القارب فوق الرمل المبتل وأمضيت مع رجالى الليل هناك . حتى إذا أخذ الفجر يصبغ السماء بَحْمرة كَحْمرة الورد استيقظت وطلبت من رفاقى أن يَمْضُوا بحثاً عن مياه عذبة وأرشدتهم إلى طريق الينوع ، ووقفت فوق ربوة لأستشف ما تأتى به الرياح ، فنادت رفاقى وعُدت إلى سفينتى وكان أوفلتيس أول من عاد من الرفاق مهللاً : « ها نحن أولاء » وكان قد اصطحب معه غلاماً تفوق وسامته جمال الفتيات ، وكان وحيداً فى الحقل قد أثقلت جفناه الخمر والنعاس ، يتعثّر فى مشيته ويتبع صاحبه مثاقلاً . وأنعمت النظر فى قسما وجهه ومظهره وثيابه فرأيتى بين يدى مخلوق يسمو على البشر ، حتى إذا امتلأت ثقة بحكمى قلت لرفاقي : « ترى أى إله يستكنّ فى هذا الجسد ؟ ما أعجزنى عن أن أتبيّنه ولكنه إله على أية حال » ، ثم التفتُ إليه قائلاً : « ها أنذا أضرع إليك كائناً من كنت أن ترفق بنا وتمدّ لنا يد العون ، وأن تصفح عن رجالى » . وهنا صاح ديكتيس « لا حاجة بى إلى صلاتك » ، وكان أسرع الملاحين فى تسلّق السارى صعوداً وهبوطاً ، ووافقه كل من ليبيس وميلاثوس الأشقر مرشد السفينة ، وكذلك الكيميدون وإيپويوس الذى كان يرفّه عن المجذفين بصوته الرخيم ويوافق بين إيقاع المجاديف . ثم حذت البقية الباقية حذوهم وقد أعماهم عن الحقيقة شغفهم بالغنيمة التى ظفروا بها ، فصحت فيهم : « لن آذن لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتتزل اللعنة على سفينتى ، وأنا صاحب الكلمة الفاصلة فى هذا الشأن » ، واعترضت طريقهم إلى السفينة ، فأثار هذا ليكاباس أشدهم جرأة وكان قد نفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجرمة قتل بشعة ارتكبها . وحين أردت مقاومته قبض على عنقى بقبضته القوية ، وأوشك أن يلقينى فى البحر لولا أنى أسندت ظهرى إلى أحد الجبال ، بينما كان الملاحون الحمقى يصفقون له على فعله . وأخيراً تدخل الصبى الذى لم يكن سوى الإله باكخوس نفسه وكأنما بدّد الصباح

غفوته وتيقظ من سكرة النيبذ ، وتساءل : « ترى أى شىء يقع هنا ؟ وفيم كل هذا الصياح ، أخبرونى أيها الملاحون ماذا أتى بى إلى هنا ؟ وإلى أين تنوون الذهاب بى ؟ » فهذا پروريوس<sup>(٢٤)</sup> من روعه قائلاً : « لا تخف ، وقل لنا أى ميناء تريد أن تبلغه ولسوف نرسو بك عند المكان الذى تختاره » . وأجاب ليبر [باكخوس] « أريد أن أرسو عند ناكسوس ، فاتجهوا بسفيتكم صوب هذه الناحية فهناك موطنى ، ولسوف تجدون بها كل حفاوة » ، فأقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد ، وطلبوا إلى أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدرت الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس<sup>(٢٥)</sup> فإذا بأوفيلتيس يصيح فى قائلاً : « ماذا تفعل أيها الغنى ؟ أى جنون أصابك ؟ » ، وصاح بى بعض الرجال ٦٤٠ « انحرف إلى اليسار » . وبينما أوما إلى بعضهم برأسه همس فى أذنى آخرون بما يضمرونه ، ففزعت وقلت لهم : « فليتلو الدفة أحد غيرى » ، ورفضت مشاركتهم فى خطتهم الإجرامية فتعقبونى باللعة متممين بالغضب ، وصاح إيثاليون : « أو تظن أمان السفينة موكولا إليك وحدك ؟ » ، وأخذ مكانى فى السفينة ومضى مخلفاً ناكسوس إلى وجهة أخرى منطلقاً بعيداً . وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلا ساعتها ، ووقف فى مؤخرة السفينة وتطلع إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء ، وقال : « ليس هذا هو الشاطئ الذى وعدتم بإرسائى عنده أيها الملاحون ، وليست هذه البلاد التى رجوتكم التوجه إليها ، ما الذى فعلته بكم لتجازونى هذا الجزاء ؟ وأى مجد يصيبه نفر من الكبار من التغيرير بصيى وحيد ؟ » . وعندها انخرطت فى البكاء غير أن الملاحين الأشرار سخرُوا من دموعى وضاعفوا من حركة مجاديفهم ، وأقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك من هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصه حق رغم استحالة تصوّره ، إذ ما لبثت السفينة أن توقفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف على حوض جاف ، ٦٦٠ وتعجب الملاحون وجدّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة ليسرّوا للسفينة أن تندفع ، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت حركتها والتفت عناقيدها الكثيفة على الشراع فجمدت السفينة مكانها ، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حربى مغطاة بأوراق عنب ، وتضطجع حوله أطياف وحوش من ثمر وفهود مفترسة مرقشة الجلود ، فهزّ البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رعباً لست أدرى . وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً : « على صورة أى وحش تتحوّل ؟ » وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتسع وخياشيمه تنفرج وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشيف . وحين حاول لبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحولتا إلى ما يشبه الزعانف . وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع ، فحنى جسده المتور الأطراف وقفز إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذيل على شكل ٦٨٠ المنجل المقوس الذى يحكى قرن الهلال . وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرة الزبد وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة . ولم يبق من العشرين ملاحاً غيرى فوق السفينة وقد أمسك بى الذعر وعرتنى الرعدة ، فهذا الإله روعى قائلاً : « لا تخف » ووجه السفينة إلى جزيرة ديا<sup>(٢٦)</sup> ، حتى إذا بلغت بادرت بتأدية طقوس باكخوس السرية ، وصرت من يومها من المؤمنين به .

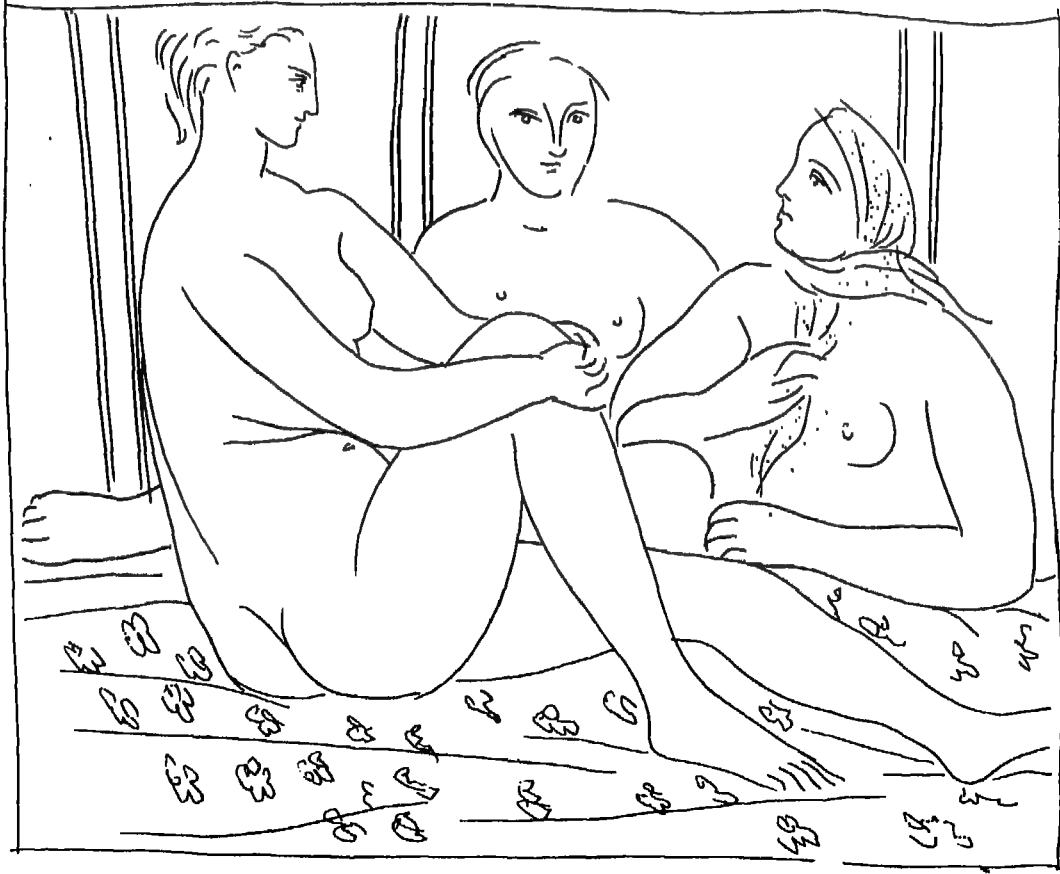
وعقّب پشّيوس على هذه القصة قائلاً : « إذا كنت قد أصخت لحكايتك الطويلة الملتوية فذلك كى أفسح لغضبي أن يهدأ ، خلدوا هذا الرجل أيها الأتباع وصبّوا على جسده جميع ألوان العذاب ، ثم ابعثوا به إلى عالم الموتى في نهر ستيكس » . وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التريفي بعيداً ، وجسوه في سجن حصين ، غير أن الرواة يحكون أنه حين أعدّ الحديد والنار لتعذيبه ، انفتحت الأبواب على مصاريعها وتساقطت الأغلال عن يديه من تلقاء نفسها . وبقي ابن إخيون سادراً في غيّه ولم يشأ إنابة أحد عنه ، بل توجه بنفسه إلى كيثايرون ، وهو الجبل الذي اختير لإقامة الشعائر الدينية ، وعليه تردّدت الأغنيات وصيحات عابدات باكخوس التي غمرت أجواز الفضاء . وكالجواد الأبيّ في ساحة الحرب يصهل متهيباً للقتال ساعة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم ، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التي ردّد الهواء صداها تهيج پشّيوس وتزيد غضبه وتُشعل الضوضاء ثورته .

كان ثمة سهل منبسط في منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرّ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكتنفه ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه . ومن هذا المكان استطاع پشّيوس أن يشهد الطقوس السرية بعينيه اللتين حُرمتا ومضى الإيمان . وكانت المرأة الأولى التي رآها تندفع صوبه كالمجنونة ، نعم . . . المرأة الأولى ، هي أمه أجافيه التي حقّرت شأن ابنها پشّيوس وهوت عليه بالثيرسوس [ صولجان باكخوس ] صائحة : « إيو . إيو (٢٧) أقبلًا لعوى يا أختاي فانا حريصة على أن يفتك سهمى بهذا الخنزير البرّى البشع الذي يهيم على وجهه طليقاً في حقولنا » . فأصاب رفيقاتها من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً ، وأخذن بكّطيع واحد يطاردن پشّيوس الذي أمسك به الذعر وأرعدت فرائصه وزايله صلفه ، فاعترف بذنبه وأنحى باللائمة على نفسه ، وصاح رغم جراحه قائلاً : غوثاه . . خالتي أتونوى (٢٨) . هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة بى ! » . غير أن اسم أكتايون لم يحرك فيها ساكناً ، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغدا بلا ذراعين يرفعها ضارعاً إلى أمه ، وكشف لها عن جسده المبتور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وشاح متوسلاً : « أترين يا أمّاه ؟ » فأطلقت أجافيه صرخات جنونية ، وطوّحت رأسها يميناً ويسرة وشعرها يتطاير في الهواء ، ثم انتزعت رأس ابنها من بين كتفيه وأمسكت به مخضبا بالدماء صائحة : « إيو ، انظرن أيتها الصاحبات ، ألا إن هذا النصر من صنع يديّ » . وأسرع من تساقط أوراق الأشجار السامقة في الخريف حين تلعب بها الرياح — على الرغم من قطرات الندى التي تكاد تجعلها عالقة بالأغصان — فلا تلبث أن تعبت بها ، أخذت أطراف پشّيوس تتناثر في أيديهن الوحشية . واتخذ نساء طيبة من هذا الحدث عبرة ، وغدوّن يحتفلن بإقامة شعائر هذه العقيدة الجديدة فيحرقن البخور للإله ويكرّمن محاربيه المقدسة .

# التعقبات

- (١) يرَدُّ أولفد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التي تعنى البقرة ، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سميت على اسم البطل بويوتوس بن پوزيدون .
- (٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لأبوللو وربات الفنون ، أى جبل پارناسوس .
- (٣) وصف أوربيدس قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمأساة « الفينيقيات » ، وكثيراً ما صور الفنانون هذا الموضوع على الأوانى الخزفية .
- (٤) يروى أولفد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع .
- (٥) اشتق اسم إخيون من كلمة إخييس اليونانية التي تعنى الأفعى أو الثنين ، وقد حمل أحد العمالقة هذا الاسم كذلك .
- (٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة چاسون الذى أمره الملك أيتيس بأن ينثر أنياب تنين على الأرض ، ويعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضاً [ انظر الكتاب السابع ] .
- (٧) هياس هو اسم بطل أطلق على شعب بدائى بأسره فى بويوتيا . ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم ، وصارت كلمة هياس فيما بعد مطابقة لكلمة بويوتى .
- (٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أولفد .
- (٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التى كان الرومان يخصصونها لكلاب الصيد العريقة شأن العرب مع الخيل . ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقى معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها إلى غير ذلك .
- (١٠) ألهمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق ، فصورها بوليجنوتوس فى دلفى ، كما مثل أكتايون والكلاب فى أعقابها فوق حشوة منحوتات بمعبد هيرا فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م . وكثيراً ما صورت مأساة أكتايون فوق الأوانى الإغريقية ، وثمة لوحة جدارية مصورة لنفس الأسطورة بهوميى . هذا إلى لوحة الفنان تسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبندقية .
- (١١) تيفويوس هو أحد العمالقة الذين تحدوا چوبيتر .
- (١٢) لينو هى بنت كادموس وزوجة أثاماس .
- (١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا ، وأغلب الظن أن أولفد لم يقصد موقعاً جغرافياً معيناً . فهناك أساطير تروى أن نيسا كان اسم تلك الحورية التى أرضعت ديونيسوس وربته ، وماتزال حقيقة هذه الأسطورة غامضة . أما مشهد مولد ديونيسوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأوانى الخزفية المصورة وخاصة فوق المزاج « كراتيرون » الكبير الموجودة بمتحف نابلى .
- (١٤) أى إذا أدرك حقيقة صورته المنعكسة فى الماء فلا يهيم بذاته حتى يهلك .
- (١٥) إحدى ربات القدر ، وهى تجسيد لنقمة الآلهة على غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة الغطرسة من غير وجه حق .
- (١٦) كانت المشاعل تُهزّ لتأجيج لهيبها قبل إشعال المحرقة .

- (١٧) هي زهرة النرجس ومنها اشتقت كلمة « النرجسية » التي تعني الإعجاب المرضى بالذات .
- (١٨) ليبر إله إيطالي قديم حل محل ديونيسوس ولقب من ألقاب هذا الإله ويعني « الحر » أو « المحرّر » بوصفه إله النبيذ والنشوة .
- (١٩) هم الفينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبة التي سبق ذكرها .
- (٢٠) ثيرسوس باكخوس أي صولجان ، وهو عصا تتوجها حلية على شكل ثمرة الصنوبر وتلتف حولها أغصان كروم دقيقة هي شعار باكخوس وأشياعه .
- (٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناي . وهنا يخالف أوفيد الأسطورة القائلة بأن طيبة كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس ، حسب ما ورد بمسرحية عابדות باكخوس لأوريبيديس .
- (٢٢) تيريفي وإتروسكي كلمتان مترادفتان ، ويقال إن أصل الإيتروسكيين من ليديا بآسيا الصغرى ، وكان الاسم الأصلي لليديا مايونيا .
- (٢٣) نجمة عنزة أولينوس هي أهم نجمة في مجموعة « الخوذي » بجوار « الدب الأصغر » ، ويرجع اسمها إلى العنزة التي أرضعت الإله جوبيتر وهو طفل . وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالخورية أمالثيا التي ظن البعض أنها ابنة أولينوس . وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة في اليونان حيث أرضعت العنزة الإله جوبيتر .
- (٢٤) تعني كلمة بروريوس في اليونانية « المرشد » في مقدمة السفينة . وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [ انظر الكتاب الثامن من الأوديسيا : ١١٣ ] .
- (٢٥) يؤخذ على أوفيد هنا نقص معارفه الجغرافية : إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهي تتجه نحو ديولوس ، وأنها قد رست على الشاطئ الغربي من جزيرة خيوس ، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لتحتتم عليه أن تتجه جنوباً لا شرقاً .
- (٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس .
- (٢٧) « إيو » هي صبيحة النشوة المحمومة لعبادات باكخوس ينادين بها الآلهة ، وقد تكون أحياناً تعبيراً عن شدة الحزن .
- (٢٨) أتونوى هي أم أكتايون الذي مزقته كلابه كما مر بنا .



بيكاسو: بنات مينياس

## الكتاب الرابع

### بنات مينياس

على أن ألكيثوى بنت مينياس لم تكن بين هؤلاء النسوة المؤمنات ، إذ لم تشأ أن تلمّ بشيء من أسرار الإله ، إيماناً منها بأن تلك الطقوس الطائشة مما لا يجوز لقومها أن يباشرها ، كما أنكرت في إصرار بنوة باكخوس لجوبيتر ، وشاطرتها هذا التمرد الأثم شقيقتها .

وكان الكاهن قد أعلن ألا بد من إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامهن ، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان ، وأن يُرخين عصابات شعورهن ، وأن يُتوجن هاماتهن بأكليل الزهور ، وأن يحملن الثيرسوس المزدان بأوراق الكروم ، ثم

حذّره من عاقبة غضب الإله إن مسّه ما يشين . واستجابت السيدات والفتيات إلى نصائح الكاهن ، فهجرن أنواهن وسلاهن وأعمالهن ولم يكن قد فرغن منها ، وأحرقن البخور للإله ، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار<sup>(١)</sup> ، كما نادينه يا مَنْ وُلد مرّتين ويا مَنْ له أمان ، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا ، وثيونوس ذى الصفائر المُرسلة ، وليناوس الاسم الذى لُقّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا ، نيكيتيلوس ، وأبينا إيليلوس ، وإياخوس ويوهان ، ثم دعونه فى آخر الأمر بالأسماء جميعها التى تتسمّى بها بين شعوب اليونان يا « ليبر »<sup>(٢)</sup> : شبابك لا يذبل فأنت الطفل الخالد وأجل كائن تتجه إليه الأنظار فى السموات العلا . لرأسك جمال العذارى حين يُشرف علينا بلا قرون<sup>(٣)</sup> ، سُدّت الشرق إلى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجنج على أرض شعبه الأسمر . ما أكثر من يعبدك من الناس أيها الإله ، يا من قضيت على پثيوس وليكورجوس المسلّح بالبلطة ذات الحدين عقاباً على مروقها<sup>(٤)</sup> ، وأغرقت الليديين فى البحار ، وأثقلت عنق النمرين اللذين يجرّان مركبتك بنيرين تزيّنها أعنة مشرقة الألوان . فى إثرك تمضى كاهنات باكخوس العابدات والسائير والشيخ الهرم التمل الذى يعتمد على عصاه لضطراب خطواته<sup>(٥)</sup> ولا يكاد يستقر على ظهر جحشه المحدودب . حيثما تمضى تهرأ أصوات الفتيان ترحيباً بك ، وتردد أصوات النساء ، ويُسمع قرع الأكفّ للدفوف وصكّات الصنوج المكورة ، ويرتفع صوت الناي الطويل الأنابيب المتخذ من قصبات الغاب ، ويتهلّل إليك نساء طيبة أن تُقبل عليهن برقتك وعطفك ، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة .

ولم يتخلّف فى بيته غير بنات مينياس اللاتي عكّرن صفو الحفل بقيامهن بالغزل والنسج — وهما أحب الأعمال إلى الإلهة منيرفا — فى غير وقتها المخصّص لهما ، فظللن يجلدن خيوط الصوف ويُدِرْنَها بأصابعهن ويشدّنها إلى أنواهن وقد استنهضن الخادِمات للعمل ، وانبرت إحداهن تقول لشقيقتها وهى تجذب خيطها برفق : « ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن العمل وشغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة ، على حين قد خلّتنا نحن هنا الإلهة باللاس التى هى أجدر بالتكريم . فلنخفّف عن أنفسنا إذن من عناء هذا الجهد ولنأخذ فى شجون الحديث ونحن نعمل بأيدينا ، ولنتسامر فتقصّ كل واحدة منا قصة ممتعة لا نحسّ معها بطول الساعات » . وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث ، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قصص كثير ، وتردّدت هل تقصّ حكاية ديركيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالخرّاشف<sup>(٦)</sup> ، أو تقصّ حكاية ابنة ديركيتيس التى نما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضى فيه آخر سنوات عمرها<sup>(٧)</sup> ، أو قصّة حورية الماء التى كانت تُحمّل الرجال أسماكاً صماء بتعويذاتها وبأعشاب قوية الفعّل حتى حاق بها المصير نفسه<sup>(٨)</sup> ، أو قصّة الشجرة التى كانت تُنبئ توتاً أبيض فصار أرجوان اللون بعد أن اصططغت بالدماء ؟ وكان هذا هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارها ، إذ كانت قصته غير شائعة فراحت تروى أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف :

## پيراموس وثيرى

كان پيراموس وثيرى يعيشان معاً في دارين متجاورتين في تلك المدينة الشاهقة ذات الأسوار العالية التي قيل إن سميراميس قد شيدتها من قوالب الأجر . وكما كان پيراموس أكثر الشباب وسامة كانت ثيزى أجمل نساء الشرق ، وقد نشأت بينهما صداقة لم تلبث مع الأيام حتى غدت حباً أوشك أن يفضي بهما إلى الزواج لولا أن حال أبواهما دون إتمامه . على أن ما لم يستطع أبواهما منعه هو تلك النار التي أتقدت في قلوبهما وأخذت تحرقهما بلهيب الشوق . ولم يكن لهما صديق يثأنه هومهما ، فكانا يتبادلان أحاديثهما بالإيماءات والإشارات ، وكلما أخفيا جبهما عن الناس تأججت نيرانه في قلوبهما . وكانت بالجدار الفاصل بين داريهما ثغرة دقيقة خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التي تليت تشييد الدارين وكانا هما أول من تبيناها ، وعين العاشق قل أن يخفى عليها شيء . وما لبثا أن جعلتا منها وسيلتهما ليتناجيا من خلالها بأعذب أحاديث الهوى والغرام مطمئنين آمينين . وما أكثر ما كانا يتحسسان أنفاسهما وقد وقف كل منهما في ناحية ، وكم حدّثا الجدار قائلين : « كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سداً منيعاً . ما أهون عليك أن تحقق لنا ما نشد . هلا أفسحت لجسدنا أن يتعانقا ، وإن ضقت بهذه فهلا انفرجت قليلاً فأتحت لشفتينا أن تلثم إحداها الأخرى وسوف نكرن على هذه من الشاكرين ، على أننا سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الوالهة » . على هذا النحو كان يجري حديثهما اليائس عبر شقّ الجدار ، حتى إذا هبط الليل ودّع أحدهما الآخر ، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبلان الجدار حيث يقفان .

٨٠

و ذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعتها وبعد أن جفّت الأعشاب بما عليها من ندى جاء إلى مكان لقائهما الأليف ، وأخذوا يندبان حظهما متهامسين بشكاة تخنقها الزفرات ، ثم اتفقا على أن يحاولا التسلل من داريهما تحت جنح الظلام في مأمن من العيون ، وتواعدا حتى لا تضلّ خطواتهما في الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس ، والاختباء في ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والثمار البيضاء التي تجاور الينبوع العذب . ولقد ظلّا نهارهما بعد أن انتهيا إلى هذا القرار يستبطنان انتباهه ، حتى إذا ما غاب قرص الشمس في خضم الظلمات خرجت ثيزى من دارها خلصة دون أن يراها أحد من الحراس بعد ما فتحت الباب وأسدلت على وجهها نقاباً وقصدت الضريح ، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد ملأها الحب جرأة ، وإذا لبوة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى الينبوع لتشرب وفمها يقطر بدم الثيران التي افترستها . لمحتها ثيزى في ضوء القمر وهي ماتزال بعيدة فهربت إلى كهف مظلم ، وكان نقابها قد انزلق على كتفها ثم سقط على الأرض وهي تجري فخلّفته وراءها . وبينما اللبوة تعود أدراجها إلى الغابة بعد أن شربت وأتخمت ، وجدت النقاب الملقى على الأرض فمزقته وتركت على مزقه بقعاً من الدماء التي كانت عالقة بأنيابها .

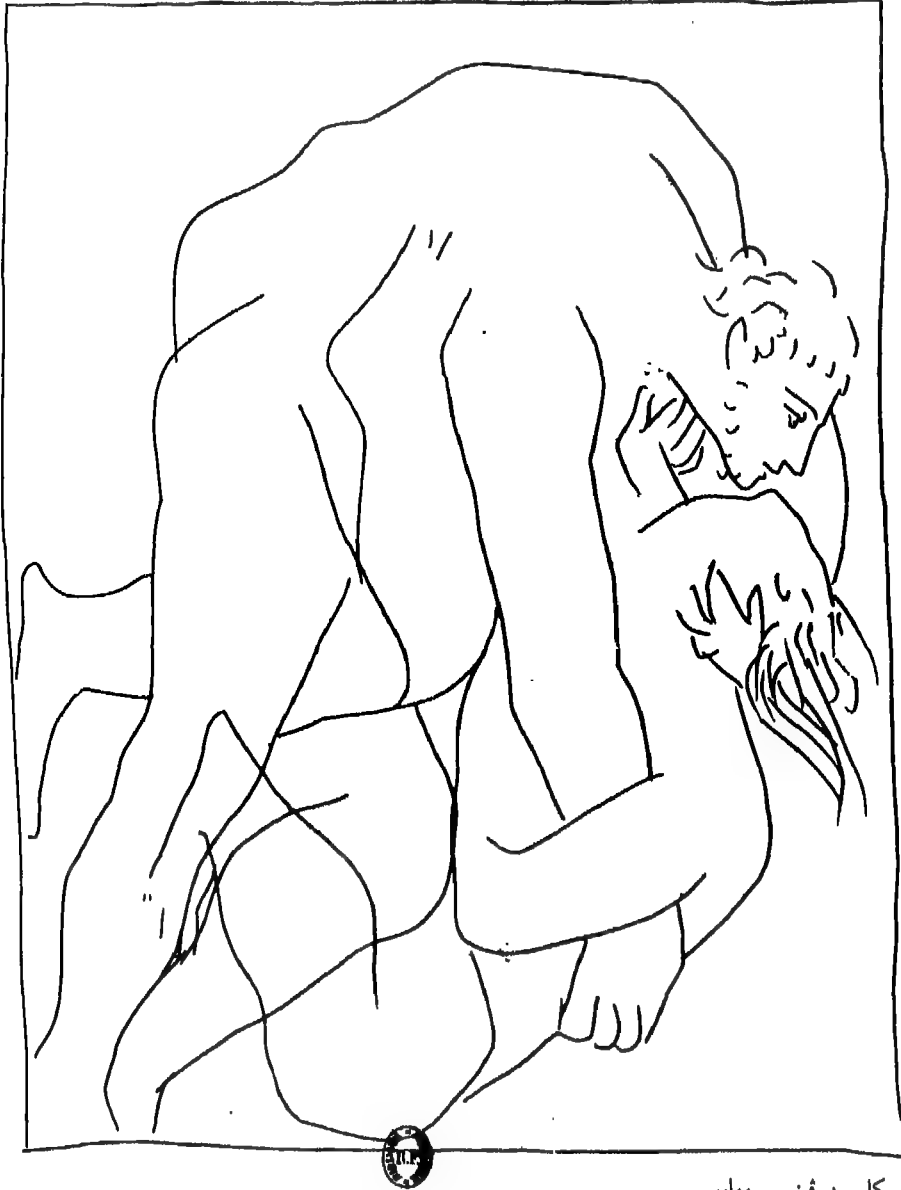
١٠٠

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبوة ظاهرة في التراب الكثيف فُبِهُت ، ثم إذا هو يجد النقب مخضباً بالدم فيصيح : « فلتشهد هذه الليلة مصرعى كما شهدت مصرعها ، فقد كانت تُيزى أجدر بالحياة منى ، أنا المسىء يا فتاتى البائسة ، أنا من أوديت بك وحملتك على أن تأتى بالليل إلى هذا المكان المحفوف بالأخطار دون أن أسبقك بالمجىء إليه . إلى أيتها الأسود التى تعيش فى هذا العرين من الصخور فمزقوى إرباً إرباً بأنيابكم القاطعة عقاباً لى على ما اقترفت من إثم ، ولكن كم أنا بالغ الجبن حين أقنع بتمنى الموت » . ١٢٠ والتقط نقاب يُيزى ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها ، وجعل ييكى ويقبل النقب الأليف له ويناجيه قائلاً « فلتشرب أنت الآخر من دمي » . وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه ، ثم انتزعه من جرحه الدامى بعد لآى وهو مُلقى على الأرض يحتضر ، فانفجر الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوبة مثقوبة انبثق منها الماء ، وتدفق الدم عبر ثقب ضيق مرسلأ صغيراً يجلجل فى الهواء<sup>(٩)</sup> . وغطى دمه المشور ثمار الشجرة بلون قان ، وشرب جذعها دمه فاصطبغت الثمار المتدلّية على الأغصان باللون الأرجوانى .

وكانت يُيزى رغم ما بها من الخوف الذى تملكها قد قفلت راجعة حتى لا يحرك تأخرها خيبة أمل حبيبها ، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروى له ما صادفها من أخطار وما فعلته للإفلات منها ، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة ، غير أن لون الثمار قد حرك الحيرة فى نفسها فتساءلت أكان هذا هو المكان نفسه أم لا ؟ وفيما هى حائرة وقع بصرها على جسد يتنفّض مُسجى على الأرض المخضبة بالدماء ، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جامدة جمود خشب البقس ، مرتعشة كصفحة البحر حين تعبت بها لمسات النسيم العليل . ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبها ، وشرعت تولول بصوت عال وتضرب صدرها وتمزق شعرها وتحتضن حبيبها وتقبّل وجتيه الباردتين فى لفة وعيناها على جرحه فيختلط سيل دمعها بدمه ، وتناجيه : « أى حدث وحشى هذا الذى اختطفك منى يا پيراموس ؟ أجبنى ، أنا حبيبتك يُيزى التى تناديك ! أنصت إلىّ ، وارفع إلىّ رأسك المتخاذل » . وسمع پيراموس صوت يُيزى ففتح عينيه اللتين أثقلهما الاحتضار ثم ما لبث أن عاد فأغلقهما إلى الأبد . ولحمت يُيزى نقابها ورأت الغمد العاجى خالياً من خنجره فصاحت قائلة : « لقد قتلت نفسك بيدك وأودت بك حبيبتك ، فلا فعلن أنا أيضاً فعلك ، إن حبى لك جارف كحبك لى ولسوف يمنحنى القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدى مثل ما أغمدت ، ولأمضى فى إثرك إلى عالم الموتى ، ولسوف يقول الناس إننى كنت سبب بلاك وشريكك فيه أيضاً . لقد كان الموت هو وحده الذى يستطيع أن ينتزعك منى ، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلنى عنك . وأنتما أيها الأبوان يا من كُتب عليهما الشقاء ، كل ما أرجوه منكما من فضل هو أن تدفنانا معاً فى قبر واحد مادام الموت والحب الصادق قد جمعا بيننا . وأنت أيتها الشجرة التى تظللين جثة واحدة عما قريب ستظللين جثتين ، فلتحملى إلى الأبد ذكرى موتنا بشارك التى تُثمرينها قانية اللون آسية ، كى يذكر الناس دوماً دَمنا الذى نزنناه معاً » . ١٦٠

ولم تكذب تيزي تفرغ من كلماتها حتى ثبتت سنّ الخنجر في صدرها وارتمت فوقه وهو مازال دافئاً بدم  
 پيراموس . وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى ذوبها ، وغدت شجرة التوت تُثمر ثماراً تستحيل عند  
 نضجها أرجوانية قانية . وفي إثناء واحد اجتمع ما بقي من رماد العاشقين بعد أن سحبت جذوة الحب  
 المتقدة .

## فينوس ومارس . ليوكوثوي . كليتيه



پيكاسو: فينوس ومارس

وساد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصتها ، ثم انبرت ليوكوثوي تتحدث إلى شقيقاتها اللاتي  
 مضيّن يستمعن لها في صمت يزكيه الانتباه ، فقالت :

« إن ربَّ الشمس نفسه الذى يُنْشَقُّ كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره فى إَسار الحب ، وسوف أروى لكنَّ كيف وقع فى الشراك . فلقد كان ربَّ الشمس أول من شهد خيانة فينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذى يرى كل شىء قبل غيره . وكان قد حنق على فينوس لسلوكها فأُنهى إلى زوجها فولكانوس [ هيفايستوس ] بن جونو نبأ هذا الاعتداء على حُرمة فراشه كما أنهى إليه المكان الذى يلوذ به العشاقان . فطار صواب فولكانوس وسقط من يديه الحديد الذى كان يشكِّله ، غير أنه بدأ لساعته فى صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقَّ من أدقِّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، وصاغها رهيفة حسَّاسة تهتز لأخفِّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بمهارة حول الفراش ، فلم تكد زوجته وعشيقتها يدلفان إلى الفراش حتى أطبق عليهما الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه بحلق وبراءة وأوثقهما معاً وهما متعانقان . وسرعان ما فتح فولكانوس ابن جزيرة لمنوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد فينوس بين أحضان مارس ، ورآها الآلهة فى تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها ، غير أن أحدهم تَمَنَّى لو ظفر بهذه المتعة مهما كان الثمن . وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة ماثراً تنذر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك .

١٨٠

ولم تغفر فينوس سيِّدة كَثِيراً هذه المكيدة لمن أفشى سرَّ حبِّها وهُدَّ غرامها المستور ، واعتزمت عقابه بإيقاعه فى فضيحة غرامية ماثلة . فيم يفيدك الآن جمالك وروعتك وبهاؤك المتلألئ ياربَّ الشمس يا ابن هيبيريون ؟ ها أنت ذا يا من تَسْطُطُّ الأرض كلها بنور لهيبك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر . ها أنت ذا يا من ترى كل شىء فى الكون تَوَّراً قد علقت أنظارك بليوكوثوى لا غيرها ، على حين إن نظراتك من حقِّ العالم كله ؛ فانت تُشْرِقُ تارة مبكراً فى السماء وتتلبُّث تارة أخرى عن الغوص فى خضمِّ المغيب ، وتُطِيل أحياناً ساعات النهار شتاء بسبب انغماسك فى التأمل العميق ، ويصيب الكسوف فى أحيان أخرى نورك حين يتسلَّل القلق إلى نفسك فتغشاك تلك الغشاوة التى تثير الفزع فى قلوب البشر ، وتشعب لا لشيء إلا لمرور القمر أمامك وهو أقرب كوكب للأرض ، هل تُرى أحبك هو وحده الذى أشحب لونك ، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تحسَّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركى فانتة بلاد آيا ولا كليتييه التى لم تياس من مقاسمتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك وقتذاك بما خلَّفته فى قلبها من جرح عميق<sup>(١)</sup> . لقد أنستك هؤلاء جميعاً ليوكوثوى ، وقد ولدتها أمها يورونومى أجمل نساء الأرض التى تهبُّنا العطور ، والتى ما لبثت حين اكتملت أنوثتها أن أزرى جمالها بجمال أمها والجميلات الأخريات ، وكان أبوها أورخاموس ملك المدن الأخمينية سابع ملك فى سلسلة أسرة بيلوس المؤسس الأول للمملكة<sup>(٢)</sup> .

٢٠٠

تحت سماء الغرب تقع مراعى خيول مركبة الشمس التى لم تكن تغتذى بالحشائش وإنما بالأمبروزيا [ طعام الآلهة ] ، فيملؤها قوة وانتعاشاً بعد أن تنهكها واجباتها اليومية لكى تستطيع أن تستأنف نشاطها . وبينما كانت الخيول تلتهم غذاءها السماوى والليل يحل محل النهار فى السماء دخل ربَّ الشمس دار حبيته متخفياً فى صورة أمها يورونومى . وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادماها الاثنى عشرة

٢٢٠ تلفَ خيوطها الناعمة على مغزها الدوّار ، فلما رآها قبلها كما لو كان أماً تُقبلُ ابتها الغالية ، ثم قال لها :  
 « لدى سرٌّ أريد الافضاء به إليك ، فلتتركنا أيتها الخادما ولا تحرمن أماً من محادثة ابتها على انفراد .  
 وفعلت الخادما ما أُمرن به ، ولما لم يبق في الحجرة سواهما كشف الربُّ عن نفسه لليوكوثوى ، وقال لها :  
 « أنا الإله الذى يقيس مسار السنة ، وأنا من يرى كل شيء ومن ترى الأرض بى كل شيء . أنا عين  
 الكون ، صدّقني يا ليوكوثوى فإنّ أهيم بحبك » ، فاضطربت الفتاة وسقط المغزل من يدها التي جمدت  
 من فرط فزعها ، غير أن فزعها أضفى عليها مزيداً من الجمال . ولم يطل انتظار الإله فاستعاد شكله  
 الحقيقي وبريقه المألوف . ومع أن هذا المشهد المفاجيء قد حرك الخوف في قلب ليوكوثوى غير أنها انبهرت  
 بجلال الإله واستجابت لعناقه دون أن تنبس بأية شكاة .

وإذ كانت كليتيه ماتزال تحبّ ربَّ الشمس حبّاً لا نهاية له ، دفعته الغيرة والحنق على منافستها إلى  
 أن تُشيع على الوجود تلك العلاقة الأثمة . ثم إذا هي تشى بها عند أبيها أورخاموس فتنبى إليه سرّ تلك  
 العلاقة ، وإذا هو تشور نائرتة ويأبى أن يستمع إلى توسلات ابنته وهي تقول مُولولة : « صدّقني يا أبى أنه  
 اغتصبني على الرغم مني » . وألقاها الأب الضارى في حفرة عميقة وأهال عليها كوما من الرمال ، لكن  
 ابن هيبيريون سارع بتشتيت الرمال بأشعته ، حتى فتح لك أيتها التعسة ثغرة تطلّين منها بوجهك على ضوء  
 النهار ، غير أنك لم تستطعي أيتها الحورية رفع رأسك المختنق تحت ثقل الثرى ، ولم تعودى غير جسد خال  
 ٢٤٠ من اللحم مُلقى في الحد .

وكان حزن إله الشمس قائد الجياد المجنّحة على مصير حبيبتيه أشبه بحزنه على احتراق ابنه فايثون  
 بالصاعقة ، وقد حاول أن يعيد الحياة إلى أطراف ليوكوثوى الباردة بأشعته غير أن القدرَ حال بينه وبين  
 محاولته الحارقة ، فاكتمى بأن أراق النكتار [ شراب الآلهة ] على جثتها وقبرها . وبعد أن رثاها طويلاً  
 صاح : « لتصعدنّ إلى السماء على الرغم من كل شيء » . وسرعان ما ذاب جسدها المضمّخ « بالنكتار »  
 السهاوى وغمر الأرض بأريجيه ، وشيئاً فشيئاً أخذ جذر شجرة البخور الذى استطال في الثرى يخترق القبر  
 ويمدّ فروعه في الفضاء .

٢٦٠ أما كليتيه التي قد يغتفر لها الحب مشاعرها وتغفر لها مشاعرها وشايتها ، فلم يقلع بصرها ثانية على  
 إله الضياء ، إذ كفت عن مشاركتها مُتّع الحب فلدّت ، وأذبلها الغرام الذى سلب عقلها ، ولم تعد تطيق  
 رفقة الحوريات ، ومضت تقضى الليل والنهار جالسة على الأرض المترية تحت قبة السماء مُشعّنة الشعر .  
 وعاشت تسعة أيام بلا طعام ولا شراب سوى قطرات الندى ، ولم تنهض من جلستها قط بل بقيت على  
 الأرض ووجهها مصوّب إلى ربّ الشمس تُديره أنى اتجه في مساره المألوف . ولم تلبث أعضاؤها أن  
 التصقت — كما قيل — بالأرض وتحول بعضها إلى جذع لا حياة فيه تكسوه زرقه شاحبة ، واصطبغ بعضها  
 الآخر بلون أحمر هو رأسها الذى تحول إلى زهرة شديدة الشبه بالبنفسج ، تستدير في اتجاه ربّ الشمس  
 العزيز عليها رغم ارتباطها بجذورها ، وظلّت على حبّه وفية حتى بعد أن تحولت إلى زهرة رقيب  
 الشمس (١٢) .

## سالمكيس وهزمافروديتوس

وفرغت ليوكونوى من قصتها الغريبة التى اجتذبت أسماع رفيقاتها ، ينكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر باعتبار أن الآلهة الحقيقيين قادرين على كل شيء ، وإن كنّ جميعاً لم يعددن باكخوس من بين هؤلاء الآلهة . وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقات الكيثوى منها أن تروى لهن بدورها قصة جديدة ، فبدأت تتحدّث وهى تدفع «مومها» عبر الخيوط المشدودة على النول وتقول :

«لن أروى لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعى إيدا التى يعرفها الجميع ، والذى مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى وحوّلته إلى صخرة»<sup>(١٣)</sup> ، فما أعنف الأحاسيس التى تلتهب فى نفوس العشاق . كما لن أروى لكنّ ما حدث من خروج على نواميس الطبيعة مع سيثون الذى كان تارة ذكراً وتارة أنثى ، ولن أقصّ حكايتك يا كيليميس أيها الحارس الأمين لجوبيتر وهو طفل وقد مُسخت الآن كتلة من الفولاذ ، ولن أتحدّث عنكم أيها الكوريثيس يا أبناء الغيث الفياض ، ولن أذكر قصة كروكوس الذى تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتين . سأطرح هذه القصص جانباً لأنى عازمة على اجتذابكن بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون»<sup>(١٤)</sup> . سوف أقصّ عليكم ماذا كان للسمعة السيئة التى لحقت بينوع سالمكيس ، وسرّ إثارة مياهه الضارة بأعصاب من يردّونه فتثير الضعف والحدرد فى أطرافهم ، فبرغم معرفتنا الحقّة بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك التأثير مازال خفياً .

أنجب ميركورىوس [ هيرميس ] من فينوس إلهة كثيراً طفلاً ربّته الحوريات فى كهوف جبل إيدا ، جمعت قسّماته بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه هيرمافروديتوس بين اسميهما<sup>(١٥)</sup> . وحين بلغ الخامسة من عمره ترك التلال التى وُلد فيها وغادر جبل إيدا الذى نشأ به ، وبدأت هوايته للأسفار فمضى يقصد البلاد البعيدة ويشهد الأنهار الغريبة لا تثنى الصعاب حماسه ، فبلغ فى رحلاته مدن ليسيا وبلاد الكارين القريبة منها ، واكتشف بهذه المنطقة بركة صفت مياهها فبان قاعها ، ولم تكن تحفّ بها أعواد الغاب ولا خلفاء الماء ولا النباتات الشائكة التى تنتشر حول المستنقعات ، بل تتغطى شواطئها بالأعشاب الرطبة الخضراء ، وتسكن بها حورية غير مدربة على الصيد لا تحلق إطلاقاً السهام ولا سرعة العدوّ ، وكانت الحورية الوحيدة التى لم تلقها ديانا السريعة الخطو . ويروى أن شقيقاتها كثيراً ما كنّ ينصحنها قائلات : « اتخذى لك ياسالما كيس رماً قصيراً أو جعبة سهام مزدانة بألوان فاقعة ثم انضمي إلى صفوف الصائدات ، وأضيفى إلى متع هواياتك جولات الصيد الشاقة » ، غير أنها لم تتخذ لنفسها رماً قصيراً ولا جعبة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمت إلى صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلى متع هواياتها جولات الصيد الشاقة . وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام فى بركتها وتصفيف شعرها بمشط من كيتوروس<sup>(١٦)</sup> ، عملاقة فى الماء الصافى تتأمل على صفحته مفاثن جمالها ، ملتفة بغلالة رقيقة ، مستلقية على فراش من أوراق غضة

وأعشاب لينة ، ومن حين إلى حين تنهض لتقطف الزهور . وذات يوم وقع بصرها على الصبي هيرمافروديتوس ، فإذا هي تُحسّ لهفة إلى الاستئثار به . وعلى الرغم من شوقها وتعجلها الدنومنه فقد تابطات في أخذ زيتنها وإصلاح هندامها لتتجلى له في أبهى صورة ، ثم بادرت قائلة : « ما أجدرك أيها الفتى الجميل بأن تعدّ إلها . وإذا كنت إلهاً فلعلك كيوييد ؟ أما إذا كنت بشراً فلا شك أن أبويك مباركان وأن ٣٢٠ شقيقك سعيد وشقيقتك أكثر سعادة إن كانت لك شقيقة ، وسعيدة كذلك مرضعتك التي رعتك ، وأكثر من هؤلاء سعادة حبيبتك التي ستأخذ منها زوجة إن كانت لك خطيبة . فإن كانت لك خطيبة دعني أنعم بحبك سراً ، وإن لم تكن لك خطيبة فليست أتمنى إلا أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد » .

ولم تكد الحورية تفرغ من حديثها حتى تورّد وجه الفتى الذي لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه في لون التفاح الناضج المتدلّي من شجرة تغمرها أشعة الشمس أوفى لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أوفى لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزية لتدفع عنه الخسوف<sup>(١٧)</sup> . وألحت الحورية في تقبيله ولوقبلات أخوية ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجي بذراعيها فصاح بها : كُفّي عن عبثك وإلا مضيت بعيداً مُخلّياً هذه الأرض بعين مائها . فسّرت في جسد الحورية رعدة وقالت له : « لأبتعدنّ عنك ولن أتطفّل عليك بعدُ أيها الغريب » ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الرحيل بينما كانت تخطو وعيناها تتلفتان إليه حتى إذا ما وارتها أشجار أكمة كثيفة ركعت على الأرض كي ترقبه . واطمأن الفتى حين أحسّ أنه وحده واقترّب من البركة ومدّ قدميه إلى الماء كاشفاً عن ساقيه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتى ذهب جماله العارى بلُلبّ سالماكيس ، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو ينعكس على المرأة ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرّقت عشقاً ورغبة عارمة في أن تضمّه إلى صدرها ، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهوتها المشبوبة . وبصفحة كَفّيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليمنى وتارة بذراعه اليسرى ، يُبرق جسمه من تحت الماء الصافي وكأنه تمثال من العاج أوزنبقة تحت لوح من الزجاج الشفاف . وخلعت هي الأخرى ثيابها مُطوّحة بها هنا وهناك وقفزت وراءه إلى البركة صائحة : هل أنذا قد ظفرت به . وأمسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة ، وتسَلّلت يداها من تحته فلمست صدره النافر ، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه الأيمن كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها مَحَلَقاً في السماء فلا يسعها إلا أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كي يهوى ، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمة ، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته في أعماق البحار بتطويقها بأذرعه من كل جانب . وقاوم سليل أطلس الحورية<sup>(١٨)</sup> لا يريد أن يمنحها المتعة التي كانت تتوق إليها ، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقته بجسدها كله ملتصقة به صائحة : « قاوم ما شئت لكنك لن تُفلت مني أيها الرغد ، ولتمنحني الآلهة أمنيقي فلا يأتي يوم ينفصل فيه هذا الفتى عني أو أنفصل عنه » . واستجابت الآلهة وحقّقت لها أمنيّتها ، واتّحد جسدهما الملتصقان وأصبحا شخصاً واحداً بعد ما كانا شخصين . وكما تنمو الشجرتان صِنُونٍ معاً لا يفترقان ، كذلك

التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية في عناق متلاصق ، فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا ندرى أيهما ذكر أم أنثى أو أيهما شيء واحد معاً أو أيهما ليسا من هذا ولا ذاك .

٣٨٠ وحين رأى هيرمافروديتوس أن الماء الصافي الذي نزل إليه ذكراً قد أحاله آخر الأمر إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تحاذلت ، رفع يديه إلى السماء متوسلاً بصوت لم يعد صوت ذكر : « أباه . أماه . ناشدتكما أن تُحققا أمنية ولدكما الذي يجتمع اسمكما في اسمه ، وهي أن يخرج كل من ينزل إلى هذه البركة من الرجال وقد غدا خُثنى ما بين رجل وأنثى » ، واستجاب الوالدان لضراعة ابنهما الذي صار ذكراً وأنثى فلوثا مياه البركة بسحر مروّع يصيب كل من ينزل بها .

٤٠٠ وحين انتهت القصة كانت بنات مينياس لازلن منشغلات بأعمالهن ، مستخفات بالإله ، مزدريات بأعياده ، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفية تصاحب أنغام مزممار مقوس وصنجات صنوج نحاسية وانتشر في الهواء أريج مرّ وزعفران ، أخذت الأنوال عندها تنحصر . والعجيب الذي يقرب من المستحيل أن النسيج نبت به أوراق كأوراق اللبلاب وتحول جزء منه إلى كروم ، كما تحولت الخيوط إلى محاليق ، وأطلت أوراق الكروم من سداة النسيج وعلت عنقايد العنب الناضج حمرة الأرجوان واقترب النهار من الزوال ، وأطلت عتمة لا نكاد نعرف أين الليل هي أم من النهار ، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المودّع بخيوط الليل المقبل . وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهج زيت المصابيح ، وانطلق عواء وحوش ضارية في أنحاء الدار ، وسارعت الشقيقات فاخفن في مواقع مختلفة من دارهن التي ملأها الدخان ، هاربات من ذلك العواء وهذا الضوء المتوهج الذي أخذ يزحف إلى الأركان المظلمة ، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة ، وانطوت أذرعهن في غشاء خفيف غدا جناحين . ولكن كيف فقدن أشكالهن الأولى ؟ إن الظلام غيب عنا تعرف كنه ذلك . ومع أنه لم يكن لمن ريش يطرن به فقد حلّقن في الهواء بأجنحة شفافة ، وحين حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلا بالفاظ واهنة ضئيلة ضالة أجسادهن التي مسخت خفافيش ، ولم يستطعن أن يُفصحن عن شكواهن إلا بنعيق حاد ، وبدأن يتردّدن على الأطلال لا الغابات ولا يحلّقن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء ، واشتق اسمهن « فسيپرتيليونيس » من اسم نجم أعماق الليل « فسيپير » (١٩) .

## أثاماس وإينو

٤٢٠ انتشرت عبادة باكخوس في أنحاء طيبة ، وراحت خالته إينو<sup>(٢٠)</sup> تتحدّث عما يروى من جبروت الإله الجديد ، وكانت الوحيدة من أسرته التي لم ينلها سوء ولم يُعزّنها شيء إلا ما حاق بشقيقاتها . ورأتها جونو مزهوة بولديها من أثاماس وبالإله الذي رعته في طفولته ، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة : « لقد مسخ ابن غريمي الملاحين الليديين أسماكا وألقى بهم في البحر ، وأثار أمّا حتى مزقت جسد ابنها إرباً إرباً ، ثم

غشى ثلاثة من بنات مينياس بأجنحة من نوع لم ير له من قبل مثيل ، على حين أجدى أنا چونو جامدة لا أجد ما أفعله غير البكاء أمام إهانات وُجِّهت إلى دون أن أثار لها ؟ هل في هذا ما يُشبع رغبتى ؟ وهل هذا هو مدى قوق وجبروتى ؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقننى درساً وما أعبوب أن يتعلم المرء من خصمه ، فقد كشف لى عما يمكن أن يسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال نيتيوس ، لماذا إذن لا تُصاب إينوبلسعة الجنون الذى حاق بذويها من قبل ؟ » .

وكان ثمة طريق تواريه ظلال أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدياً إلى العالم السفلى عبر مناطق ساكنة خرساء تغطيها مياة نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب ، وكانت أرواح الموتى<sup>(٢١)</sup> تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها تاركة إياها فى مقابرها ، وكانت الكآبة والبرودة يخيمان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأقى للمرة الأولى إلى عالم الأموات ، أو تقصد قصر ديس [ پلوتو ] المدهم . وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة فى جميع الجهات تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعها ، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغص بزحمة الوافدين . هنا وهناك تروح الأطياف وتحىء بعدما تخلصت من الدم واللحم والعظام ، يحول بعضها فى ساحات الأسواق ويهيم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السفلى ، وتحاكى جماعة الحرف التى كانت تمارسها فى حياتها الماضية ، ويدق آخرون العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم من آثام .

غادرت چونو ابنة ساتورن مسكنها السماوى لتزور هذه البقعة مستسلمة لغضبها وحقدتها فأنت عتبة العالم السفلى تحت ثقل جسدها المقدس ساعة دخولها ، ورفع كيريروس رؤوسه الثلاثة وقد نبحت ثلاث نبحات . وعندها نادى چونو « بنات الليل » [ ربّات الانتقام ] تلكم الشقيقات الرهيبات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفقن شهورهن الثعبانية . وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى المكان المسمى « الديار الأئمة » [ مقرّ الأشرار ] حيث يرقد نيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسلماً أحشاه للنسور تمزّقها ، وحيث يحسّ تانتالوس الظمأ ولا يستطيع أن يبلغ الماء ، كما يهفو إلى الشجرة المظلة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها ، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط ، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه ، وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كان بعضه يهيم بأن يلحق بعضه الآخر فلا يكاد يبلغه<sup>(٢٢)</sup> ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاغتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لمن على ما دُبرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن .

وحدجت چونو الجميع بنظرة صارمة ولاسيا إيكسيون ، ثم التفتت إلى سيزيفوس قائلة : « لماذا يلقي هذا الرجل عذاباً متصلاً ها هنا بينما يعيش أخوة أثاماس المتغطرس وزوجته فى قصر مُنيف على الرغم مما يبدو عليهما من ازدراء لى<sup>(٢٣)</sup> ، ثم بدأت تُفصح عما تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتخريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى ارتكاب الجريمة ، وتتابع من فمها الوعود تلتمس من الربّات العون ، حتى إذا أنهت حديثها هزت تيسيفونى رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاه ، وقالت : « لا حاجة بك إلى المزيد من الإيضاح ، ولتطمثنى إلى تحقيق كل ما أمرت به . فلتغادرى هذا المكان

الكثيب ولتعودى إلى السماء التى إليها تنتمين . وعادت چونو إلى مسكنها فرحة ، وحين أوشكت على ٤٨٠ النفاذ إلى السماء طهرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها .

وصرعان ما أمسكت تيسيفوني القاسية بمشعلها المغمور بالدم واتشحت بمعطفها الذى صبغه سيل من الدم بلونه الأحمر ، وتمنطقت بشعبان محوى حول خاصرتهما ، وغادرت دارها فى صحبة ربّات الحزن والخوف والرعب والجنون الراعش القسيات ، ووقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس ، فاهتزت أعمدة المدخل وشحب لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان ، وهربت الشمس من مكانها المألوف فى السماء . وأفزعته هذه الإشارات المشثومة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً ، وحاولا الهرب من الدار ، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدّت ذراعيها الملتف حولهما الثعابين ، وهزّت برأسها فأرسلت الأفاعى فحيحها وانفلت بعضها على كتفيها وبعضها على صدرها نفثتها وتُصفر بينما اندلعت ألسنتها المرعدة خفاقة . ثم انتزعت من صفائرها ثعبانين طوّحت بهما فسقط أحدهما على صدر إينو والآخر على صدر أثاماس ، ونفثا فيهما أنفاسهما السامة ، ومع أن جسديهما لم يُسما بأى جرح فإن الضربة القاسية قد مسّت روحها . وكانت تيسيفوني قد أحضرت معها ضمن ما أحضرت سائلاً ساماً فتاكاً أعدته إحدى الساحرات من رغاء فكى الكلب كيربيروس ومن سمّ الأفغوان إخيدنا<sup>(٢٤)</sup> ومن خليط من الجنون المصحوب بالهذيان ، ومن فقد الذاكرة الذى يعمى العقل ، ومن الدموع والجريمة والسُعار وشهوة القتل . وقد طحنت الساحرة ذلك كله معاً ونذّته بدماء حارة وطهته فى قدر برونزى بعد تقليبه بعضاً خضراء من نبات الشوكران السام . وألقت تيسيفوني هذا السم الذى يسلب العقول على الملك والمملكة وهما واقفان يرتعدان ، ثم أشعلت مشعلها وأدارته حولها مرات ومرات ، حتى إذا أدّت المهمة التى عهدت بها إليها چونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموتى التى يحكمها ديس ، ورفعت الثعبان الذى كانت قد تمنطقت به .

وعندها أصيب أثاماس بن أيولوس بالجنون . ومع أنه كان لا يزال داخل أسوار قصره إلا أنه أخذ يصبح قائلاً : « إلى يا أصدقائي ! أنشروا شباككم فى هذى الغابات ! فقد لمحت الآن لبؤة فى صحبة شبليها » . واندفع الأحمق فى إثر زوجته يطاردها وقد تخيلها وحشاً مفترساً ، ثم اختطف من بين ذراعيها طفله ليأرخوس الذى كان يتسم له ويسط نحوه ذراعيه ، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالقلاع فتهشمت رأس الطفل على الصخور . وجنّ جنون المرأة حزناً على ولدها أو تأثراً بفعل السم الذى أفقدها صوابها ، وانطلقت تعوى هاربة مشعثة الشعر وعلى ذراعها طفلها الرضيع ميليكيرتية وتصبح : « إيويه يا باكخوس ! » . وسمعتها چونو تنطق باسم باكخوس فقهرته ساخرة وهى تقول : « عسى أن ينفعك ذلك الطفل الذى ربّيته ببركاته » .

وصعدت إينو قمة تل صخرى يُشرف على البحر الذى أكلت أمواجه سفحه الأدنى لتمرّ المياه تحته بمنأى عن هطول الأمطار ، وكانت لصخور قمته أسنان حادة تمتد فى فضاء البحر . وكان جنون إينو قد أمدها بالقوة على تسلّق القمة دون أن يشيها الخوف عن هدفها ، ومن القمة ألقت بنفسها هى والطفل الذى

تحمله في مياه البحر ، فازبدت الأمواج في المكان الذي سقطا فيه . غير أن فينوس أخذتها الشفقة بحفيدتها البريئة فتوسلت إلى عمها نبتون قائلة : « يا إله البحر العظيم الذي تلى منزلته مملكة السموات جلالاً ، سألتك أن تنعم على بنة كبرى فتترقق بهذين العزيزين اللذين ترى الأمواج تلعب بهما في البحر الأيوني ولتضمهما إلى حاشيتك من آلهة البحر . إن حقا إني من زبد البحر خلقت ومن أعماقه المقدسة انبثقت فكم أنا إليه مدينة ، وما زال اسمي اليوناني « أفروديتي » يذكركم بهذا الأصل »<sup>(٢٥)</sup> . واستجاب نبتون لرجائها ٥٤٠ فجرد إينو وولدها من شخصيتيهما البشرية وأضفى عليهما جلال الربوبية وأعطاهما اسمين جديدين يناسبان شكليهما الجديدين ، وأسمى الإله الجديد بالايون وضمه إلى حاشيته هو وأمه التي أسماها ليوكوثوي<sup>(٢٦)</sup> .

وكانت وصيفات إينو الفينيقيات قد اقتنن آثار قديمها إلى أن غابت عنهن تلك الآثار عند حافة صخور تشرف على البحر ، ولم يساورهن شك في وفاتها فأسين لمصير أسرة كادموس ويكين عليها وضربن صدورهن ومزقن شعورهن وثيابهن ، ورمين جوثو بالظلم لقسوتها البالغة على منافستها ، فامتلات الإلهة سخطاً عليهن لاتهمهن لها وتوعدتهن قائلة ، « لسوف تلقين جميعاً ما يذكركن بجبروتي دوماً » ، وما أسرع ما نفدت وعيدها . وحين همت أوفى وصيفات إينو بإلقاء نفسها من أعلى الصخور في البحر وهي تصيح : « لسوف أتبع مليكتي إلى أعماق البحر » ، إذا هي تجرد نفسها عاجزة عن الحركة وقد جمدت في مكانها ملتصقة بالصخور . وأحست ثانية وهي تندب ضاربة صدرها تصلب ذراعيها حين حاولت رفعها . وجمدت ثالثة كانت تشير يدها نحو موج البحر وبقيت ذراعها ممدودة لمياهه ، كما جمدت أصابع رابعة بين خصللات شعرها وهي تشده . وهكذا جمدت كل واحدة منهن على الوضعة التي كانت تتخذها ساعة فاجأتهن اللعنة التي صبها عليهن الإلهة ، وتحولت الأخريات من نساء طيبه إلى طيور تحوم فوق البركة ٥٦٠ وتحف بأجنحتها على سطحها .

## كادموس وهارمونيا

ولم يبلغ العلم بكادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحولوا إلهين من آلهة البحر ، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التي نزلت به وتملكه الفزع مما شهده من نذر الشؤم ، فاعترم الرحيل عن المدينة التي أسسها متخيلاً أن الشؤم الذي يعصف به مرته إلى شؤم المكان لا إلى شؤمه هو .

وبعد أسفار طويلة مع زوجته التي صحبتته في هجرته وصلاً أخيراً إلى بلاد الليريا<sup>(٢٧)</sup> وقد أحنت الشيخوخة والأحزان ظهريهما . ومضيا يستعيدان في الحين بعد الحين أمجاد سلالتها وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما : ألم يكن حقاً أن ذلك الثعبان الذي صرعه برعى مقدساً ، ذلك الذي نثرت أسنانه قبل حين رحلت عن « صيدا » أول مرة على أنها نوع جديد من البذور فوق تربة الأرض ؟ فإذا كان موته هو الذي حرك الآلهة كي تنتقم مني ، فإني أتوسل إليها أن تمسخني أفعواناً مثله فيمتد جسدي ويتحوى كجسد الثعبان . وفيما هو يتحدث بدأ جسده يتمدد ويأخذ شكلاً متحلقاً طويلاً

كالشعابين ، وتصلب جلده واصطبغ بلون أسود ، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرة تلقى شيئاً من الضياء على لونه الداكن ، ثم سقط على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدق حتى انتهت إلى ذيل مدبب ، لكن ذراعيه بقيتا على صورتها البشرية . وكذلك بقى وجهه الذى غمرته دموع عينيه فانبرى يقول : « هلمى إلى يا أتعس الزوجات ، وتحسسى ما تبقى من صورق البشرية ، خذى بيدى وهى ماتزال يداً قبل أن أتحول أفعواناً كاملاً » . وما لبث أن عجز عن مواصلة الحديث فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين ، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث ، وأصدر فحيحاً غريباً كلما حاول أن يندب حظه . وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحت له طبيعته الجديدة .

وضربت زوجته صدرها العارى بكفها صائحة : « ناشدتك ألا تهجرنى أيها الزوج المنكوب ، ولتخرج من هذا الشكل البشع يا كادموس . ماذا حل بك ؟ أين قدماك ويداك وكثفاك ولون بشرتك وملاحك ؟ لقد اختفت معالمك كلها وأنت تبادلنى أطراف الحديث . ألا فلتسخنى أيتها القوى السماوية بالمثل على صورة هذا الأفعوان » .

وجعل كادموس يلحق وجنتى زوجته منزلقاً بين أحضانها كما كان يفعل من قبل ، وانبرى يقبلها ويحاول التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى . وفزع جميع أصدقاء كادموس وكانوا مايزالون إلى جانبه ، بينما تربت زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوج بريشة ، وما لبثت أن مسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً ، وطوق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة ، وبقياً منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين مُستأنسين يأنسان بالبشر ولا يغيب عنهما أنهما كانا من البشر .

## پيرسيوس . أطلس . أندروميدا

ووجد كادموس وزوجته عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقَدَّسه مواطنوها وأهوه كما أقبلت حشود الأخيين [ اليونانيين ] تصلى له فى المعابد التى شُيّدت لتكريمه . ولم يشد إلا أكرسيوس بن أباس المنحدر من نفس السلالة التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصد الإله عن أسوار مدينة أرجوس ، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهى مثلما رفض التسليم بنوّة پيرسيوس لجوبيتر الذى حملت به داناي بعد أن أخصبها جوبيتر حين أتاها فى صورة شؤبوب من القطرات الذهبية (٢٨) .

غير أن أكرسيوس سرعان ما ندم على تفريطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره بنوّة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة ، فما أقدر الحقيقة على أن يكتب لها الفوز . وبينما السماء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشق طريقه محلقاً بجناحيه الرفافين فى أجواز الفضاء حاملاً معه رأس ميدوسا ، تلك الغنيمة الجديرة بالذكر التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسى بشعر من

الأفاعى . وبينما هو يجلتقى في سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس الجورجونة الذى كان يحمله البطل الظافر فاحتضنتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعى ، وهذا سر امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتاكة . وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع بيرسيوس فى أنحاء القبة السماوية الشاسعة وكأنه سحابة حُبل بالمطر تتلاعب بها الرياح ، يطوف فوق الأرض ويتأملها من عل ، فرأى كوكبى الدب الأكبر والدب الأصغر الشديدى البرودة ثلاث مرات ، كما شاهد مغالب كوكبة السرطان مرات ثلاث ، وكَم من مرة دفعت به الريح إلى الغرب ثم أعادته إلى الشرق .

وعندما أوشك النهار على الغروب لم يأتَمن بيرسيوس ظلمة الليل فحطَّ على قمم هيسبيريا فى مملكة أطلس<sup>(٢٩)</sup> بالغرب ، وحاول الإخلاق للراحة حتى ينادى لوسيفر نجم الصباح<sup>(٣٠)</sup> أضواء الفجر وتُشرج أورورا ربّة الفجر جياذ النهار . هناك كان يعيش أطلس بن يابيتوس الذى كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة ، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض ، ويمتد ملكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياذ إله الشمس المكدودة ساعة تأوى مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار ، وتزدحم مراعيه بالآلاف القطعان التى يملكها من الأغنام والماشية ، ويملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية وتتدلّى من غصونها ثمار من ذهب .

وحينما أوى بيرسيوس إلى هذا المكان قال لأطلس : « إذا كنت أبها الصديق ممن يهتمون بعراقه الأصل فأنا سليل جوبيتر ، وإذا كنت ممن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما فعلته ، ولقد جئت ملتصقاً ضيافتك » . وسرعان ما تذكر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التى كشفت له عنها يومائيميس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له : ليسرقن ابن من أبناء جوبيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس وينعم بها » . فأحاط أطلس حدائق فاكهته — خشية تحقيق هذه النبوءة — بأسوار منيعة ، ووضعها فى حماية أفنون هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته ، ولهذا ردّ بيرسيوس عنه قائلاً : أعزّب عنى وارحل من هنا ، وإذا حدّثتك نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تجدك نفعا وإن استعنت بجوبيتر نفسه » .

وحين تلكأ بيرسيوس فى الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف ، وحاول الإلقاء به بعيداً فقاومه الآخر فى بسالة وهو يحاول كسب وده بعبارات رقيقة ، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ ومن ذا الذى يستطيع أن يدانى أطلس فى قوته ؟ ] صاح قائلاً : « إذن ، مادمت لا تعبأ بالصدّاقة ، فأليك هذه الهدية » ، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا البشع فتحول أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين البشر ، وإذا شعر رأسه وشعر لحيته أشجار ، وإذا يدها وكفاه سفوح جبال ، وإذا رأسه قمة جبل ، وإذا عظامه صخور . وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه فى جميع النواحي ، كما علا حتى بلغ عنان السماء ، وإذا النجوم العديدة فى قبة السماء ترتكز عليه . وكان هذا كله لوفى مشيئة الآلهة .

وبينما هذا يحدث كان أبولوس<sup>(٣١)</sup> بن هيبوتيس قد حبس الرياح فى سجنها الأبدى ، وأشرق لوسيفر نجم النهار يتلألأ فى السموات العلى مستهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية . وعاد البطل إلى جناحيه

وثبتها على قدميه وتسَلَحَ بسيفه المقوَّس وشقَّ طريقه في الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجنَّحين ، وطار عابراً فوق عدد لا يحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته في جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على القبائل الإثيوبية<sup>(٣٢)</sup> وحقول كيفيوس حيث كان « چوپيتر آمون » قد أصدر أمره الجائر بأن تعاقب أندروميذا على تناول أمها بأحاديثها المتباهية .

وعندما شاهد پيرسيوس الأميرة مكبَّلة الذراعين بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصَّلب ، خُيلَ إليه أنها تمثال من الرخام لولا شعرها الذي كان يعث به النسيم والدموع الحارة التي كانت تنهمر من عينيها ، وشدهه جمالها النادر فوقع في هواها على غير وعى منه ، وأنسى تحريك جناحيه في الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها : « ليس لك أن تكبَّلي بهذه السلاسل ، وأجدر بك القيود التي تُغَلِّ قلوب العشاق ! ناشدتك أن تذكرى لى اسمك واسم بلدك والسبب الذي من أجله شُددت إلى هذه الأغلال » . ٦٨٠

ولزمت الأميرة الصمت في بادئ الأمر ، فما كانت لتجسر على مخاطبة رجل وهى فتاة عذراء ، ولولم تكن يداها مقيدتين لأخفت وجهها بكفَّيها استحياء ، ولكنها لم تكن تملك غير أن تذرف الدموع . وحين ألحَّ عليها پيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسَّر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبته ، فكشفت له عن اسمها واسم بلادها ، وعن زهو أمها الفاتنة بجبالها . وقبل أن تُكْمَل قصتها ارتفع صخب مياه المحيط وبرز من بينها وحش يتهدَّدها وقد انبسط صدره على رقعة فسيحة من الأمواج فنذت عن الفتاة صرخة مدوِّية ، وكان والداها على مقربة منها وقد طواهما حزن عميق غير أن أمها كانت أشدهما حزناً . وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها لا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلُّق بها وهى مكبَّلة بالسلاسل . وحين وقع عليهما بصر الوافد الجديد ، قال لهما : « قد يكون أمامكما فسحة طويلة من الوقت تسكبان فيها الدموع كما تشاءان ، غير أنكما لا تملكان غير وقت لا يطول إذا أردتما مساعدتها ، أنا پيرسيوس بن چوپيتر من داناي التي لَقَّحها بذهبه المُخَصَّب بينما كانت سجيناً أحد الأبراج ، أنا پيرسيوس الذي قهر الجورجونة ذات الجداول الثعبانية . أنا من حلَّق خلال طبقات الهواء بأجنحتي المرفرفة . ولو أننى تقدمتُ لخطبة فتاتكم لأثرتنى على غيرى ، غير أننى آثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكما من أعجاذٍ بطولَةٍ جديدة أحققها بعون الآلهة لى . فلتعدانى بأن تكون هذه الفتاة من نصيبى إذا قُدِّر لي أن أنقذها بجراأتى ، ولسوف أكون عند عهدى » . ورضى أبوها بهذا ، [ ومن ذا الذى لا يرضى ! ] وتوسَّلا إليه أن ينقذها ووعداه بأن يمنحاه مع ابنتها مملكتها هدية عرس له . وكان الوحش مقبلاً آنذاك يشق الأمواج بصدرة مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدِّمها الحاد تدفعها قوة سواعد ملاحيها المفتولة ، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلع البليارى . وحلَّق پيرسيوس عالياً في السحب ، وانعكس ظلُّه على سطح الماء فشرع الوحش يهاجم هذا الظل في شراسة ، بينما انقضَّ پيرسيوس على ظهره وأغمد سيفه في كتفه اليمنى إلى مقبضه المنحني وكأنه نسر چوپيتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوَّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً مغالبه الشره في عنقه ذى الحرافيش خشية أن يلتفت فيواجهه بأنياحه السامة . وأخذ الوحش يخور خواراً بعد أن

أثار الجرح العميق فيه ألماً شديداً جعله ينتصب عالياً في الهواء ثم يغوص في المياه وكأنه خنزير برى مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارت فزعه بنباحها . وانطلق البطل يخلق حول الوحش بجناحيه السريعين متوقياً أنيابه النهمة ، ويلاحقه بضربات سيفه المقوس في أى جزء يلوح له منه ، فمرة يطعن ظهره المكسوي بمرسنة من المحار الجوفاء ، ومرة يمزق أضلاعها ، وأخرى يشطر ذيله الذى انكمش حتى صار كذيل السمكة ، ويطوح المرة بعد المرة بسيفه المقوس كالمنجل فيصق الوحش من فمه سيلاً أحمر مصطبغاً بدمه الذى بلل رذاذه جناحيه پيرسيوس وأثقلها . وإذ خشي مواصلة الاعتماد على ريشه بعدما ابتل ، لمح صخرة تبرز فوق سطح الماء ساعة هدا لم يلمحها ساعة كان نائراً ، فتعلق بها وأمسك بيده اليسرى نتوءاتها المدببة وطعن بسيفه جنبي الوحش ثلاث ورباع حتى أجهز عليه ، فرددت شواطىء البحر ورياض السماء أصوات التهليل والتصفيق وغمر الفرح كلا من كاسيوس وكيفيوس واحتفيا بصنهما پيرسيوس منقذ الأسرة وحاميها ، وهكذا كانت أندروميذا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها فى آن واحد . وهبطت الفتاة من الصخرة بعدما تحررت من قيودها ، وغسل البطل الفائز يديه فى الماء الذى أتوه به من البحر ، وإذ خاف أن يجرح الصخر رأس ميدوسا بشعرها الثعبانى وضعها على حشية ملساء من أوراق الشجر وغطاها بأعشاب البحر . وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوركيس التى نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بلامستها ، واكتست أوراقها وفروعها صلابة عجيبة . وانبرت حوريات البحر يتكشفن هذه الظاهرة العجيبة على العديد من الغصون ، مبتهجات كلما رأين غصناً جمد أمام أعينهن من جديد ، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليحصلن على المزيد من هذه المادة . ومايزال « المرجان » يتميز حتى اليوم بتصلبه عند ملاسته الهواء ، وهو ليس إلا نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء ، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالبحر (٣٣) .

وقام پيرسيوس ببناء مذابح ثلاثة يكسو العشب أرضها ، يقع أحدها إلى اليسار تمجيداً لميركوريوس ، والثانى إلى اليمين تمجيداً لك أيتها العذراء المقاتلة ، والأخير يتوسطهما تمجيداً لجوبيتر ، ثم قدم القرابين فذبح بقرة لمنيرفا وعجلاً لميركوريوس الإله المجنح القدمين ، وثوراً لجوبيتر أعظم الآلهة وأجلها . ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميذا جائزة بطولته الأخيرة ، وعقد عليها دون أن يدفع مهرأ ، ولوح كل من كيبيد وإله الزفاف بمشاعل العرس أمامهما وغدّيا النار بفيض من البخور ، وتدلّت أكاليل الزهور من السقف ، وانطلقت الأناشيد ، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير فى كل مكان تعبيراً عن السعادة التى تغمر القليلين المتحايين ، وفُتحت الأبواب على مصاريعها ، وتبدى القصر الذهبى بأكمله ، وجاء أشرف البلاط الإثيوپى إلى الوليمة الفاخرة التى مدّ ساطها .

وحين فرغوا من تناول الطعام ، وطافت الخمر التى جاد بها باكخوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس ، تساءل پيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب معيشتها وتقاليدها وأخلاق سكانها ، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه ، ثم إذا هو يسأل هو الآخر قائلاً : « هلا ذكرت لنا يا پيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت الرأس التى نبتت فيها الثعابين بدل الشعر ، فذلك وربى شيء

يتطلب إقداماً وحذراً ؟ » . عندئذ حدثهم سليل أسرة أجيونور عن مغامراته ، فقال إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصلبة ، تقيم عند مدخله إبتا فوركيس الشقيقتان اللتان تشتركان في عين واحدة تريان بها . واستطاع بيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء انتقال العين بين الشقيقتين ، ثم سلك طرقاً نائية لم يسلكها أحد من قبله خلال البلاد الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات . وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الطرق تماثيل الرجال والوحوش التي حولتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حية إلى كتل حجرية ، وحملى في صورة ميدوسا المخيفة المنعكسة على الترس البرونزي الذي كان يحمله على ذراعه اليسرى ، وبينما كانت هي وأفاعيها تغط في نوم عميق جزّ عنقها منتزعة رأسها من فوق كتفها . ومن دماء الجورجونة المتدفقة وُلد الجواد پيجاسوس ذو الجناحين السريع الخفق ، كما وُلد شقيقه خريساوور<sup>(٣٤)</sup> . ٧٨٠

ومضى بيرسيوس يروى أحداث أسفاره الطويلة ومخاطرها رغم غرابتها ، وتحدث عن البحر والبر كما شاهدتهما من عل ، وعن النجوم التي صعد إليها بأجنحته المرفرفة . ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد ، وسأله أحد الأشراف ، « وكيف للثعابين قد التفت برأس ميدوسا دون شقيقتها ؟ » فأجابه بيرسيوس قائلاً : « مادمت ترى في ذلك قصة جديدة بأن أروينا فهاكها وأصيحُ بسمِعِك إليها : لقد اشتهرت ميدوسا في وقت من الأوقات بجهاها الذي أوقد نار الغيرة بين المتقدمين لخطبتها كل منهن يأمل أن يظفر بها ، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنتها ، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها عندما كانت تتمتع بهذا الحسن . وقيل إن إله البحار قد سلبها عُذرتَها داخل معبد مينرفا ، الأمر الذي أغضب ابنة جوبيتر فأدارت ظهرها وأخفت وجهها الخفير خلف تُرسها ، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حيات بشعة ، ومن يومها ومينرفا ترتدى فوق صدرها تُرساً يحمل صورة تلك الأفاعى التي خلفتها بمشيئتها كي تثير الرعب بين أعدائها »<sup>(٣٥)</sup> . ٨٠٠

# التعقيبات

- (١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التي كانت تطلق على ديونيسوس . وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقي ، وانتشر في بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق.م ، وكان الإغريق ينعنون بها صفات الإله ديونيسوس العريضة الماجنة . أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد ساعة مولده ، ويدل اسم ليبيوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم ، ويتعلق اسم ابن النار بطروف ميلاده [ انظر الكتاب الثالث ] .
- (٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [ انظر الكتاب الثالث ] وطفل نيسا [ انظر الكتاب الثالث ] وثيونوس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب . ونكتليوس هو لقب الإله الذي يحتفل بطقوسه الماجنة ليلاً ، أما إيليليوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة ، وباخوس هو اللقب الذي أضفى على ديونيسوس في مدينة إليوسيس . أما ليبر فهو اسم أحد آلهة الخصوبة القدامى في العشاير اللاتينية ، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه ، ومعناه « الحر » أو « المحرر » .
- (٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور .
- (٤) انظر قصة بتيوس في الكتاب الثالث . أما ليكورجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدوا لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون ، الأمر الذي أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلت خيوله .
- (٥) هو ميلينوس بن بان الذي تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إدمانه الخمر معروفاً بالحكمة .
- (٦) ديركيتيس نسبة إلى الربة السورية ديركيتو التي تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت ، وكانت تمثل بجسم سمكة .
- (٧) أنجبت الربة ديركيتو - كما تقول الأسطورة - بنتاً هي سميراميس المشهورة التي تزوجت من نينوس ملك آشور الذي شيد لها حدائق بابل المعلقة . وقد أمرت سميراميس أن تسور المدينة بأسوار ضخمة وعليها مائتان وخمسون برجاً ، وفي نهاية حكمها علمت أن ابنها نينياس كان يتآمر ضدها فوهبت العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى يمامة وطاربت بعيداً .
- (٨) هي قصة الحورية بجزيرة نوسالا وكانت تجتذب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك ، فعاقبها إله الشمس رب هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة .
- (٩) كان الرومان يوزعون مائة القنوات الحجرية العالية بواسطة الأنابيب بين الأبنية العامة والخاصة . وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة في حياته الواقعية .
- (١٠) كليمنيه ورودوس حوريتان إحداهما هي أم فايثون والثانية على قول البعض أم الهلياديس . أما كيركي التي سيقص أوفيد قصتها مع جلاوكوس وسكيللا في الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس . وسميت جزيرة آيا التي كانت تسكنها فيها بعد بشبه جزيرة كيركيو في إيطاليا . وكليتيه أيضاً هي بنت أوقيانوس .
- (١١) سمي علة ملوك هذا الاسم في آشور ، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملوك صور .

(١٢) أى أنها تحولت إلى زهرة اشتهرت فيما بعد باسم «عَبَد الشمس» أو رقيب الشمس .  
(١٣) كان دافنس بن هرمس من إحدى الحوريات شقيقاً للرعاة ، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية ، وكثيراً ما يذكر ثيوكريتوس اسمه . وقد أحبه حورية اسمها ليكا أو ناييس ثم خانتها ففقد بصره ومسح صخرة وصارت أسطوره ملتصقة بريف صقلية [ انظر الكتاب الثانى ] .

(١٤) كيلميس هو أحد كهنة كويل فى جبل إيدا . والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان ، وكانوا قد رعوا زيوس فى طفولته . أما كروكوس فهو الذى أحب سميلاكس حباً يائساً فمسخته الآلهة نبات الزعفران ، كما مسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى القشاغ .

(١٥) يتكون الاسم من اسمى هرمس [ ميركورىوس ] وأفروديتى [ فينوس ] مجتمعين .  
(١٦) كيتوروس اسم مدينة وجبل على الشاطئ الشمالى لآسيا الصغرى ، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب .

(١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وضرب الصنوج البرونزية .  
(١٨) كانت جدته مايا أم هرمس بتاً للمارد أطلس .

(١٩) تحولت بنات مينياس إلى خفافيش ، وهى باللاتينية فيسر تيليونيس نسبة إلى « فيسر » نجم أوج الليل أى الزهرة فى ساعات الليل .

(٢٠) إينو هى صغرى بنات كادموس وشقيقة سيمليه ، وقد قامت بتثنية ديونيسوس عقب ولادته . أما زوجها أثاماس بن أيولوس فكان ملكاً لأورخوميني فى بويوتيا وقد أنجبت منه ولدين .

(٢١) لم تكن تحظى بالسكنية غير أرواح الموتى التى أديت لها الطقوس الجنائزية .  
(٢٢) أحب إيكسيون جونو وحاول إغوائها فأبلفت زوجها چويتر الذى شكل امرأة على غرار جونو من السحاب ورفعها إلى المكان الذى كان سيلقى فيه جونو وضاجع إيكسيون السحابة وأنجب منها فصيلة القنطورى ، ثم عاقبه چويتر بأن أرسله إلى العالم السفلى حيث شلته ميركورىوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية .

(٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأيولوس ومنهم أثاماس .  
(٢٤) إخيندا وحش نصفه امرأة ونصفه ثعبان . وكانت أم الكلب أورثوس الذى صارعه هرقل ، والكلب كيريروس ذى الرموس الثلاث والهيديرا والحيميرا وأسد نيميا .

(٢٥) «أفروديتى» مشتق من «أفروس» أى الزبد باليونانية .  
(٢٦) تروى الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتيه قد حمله درفيل إلى شواطئ كورنث ، وهناك تلقاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألعاب التى سميت بالألعاب البرزخية تكريماً للذكراه . أما ليوكوثوى [ إينو ] وپلاميون [ ميليكيرتيه ] فقد اتخذوا إلهين فى روما بدلاً من الآلهة الإيطالية القبلية ماتوتا وپورتونوس . وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد عابجا هذه الأسطورة فى مأساتين بعنوان «أثاماس» لم يبق لنا منها شيء . كذلك قصص أوريبيديس نفس الأسطورة فى مأساة مفقودة بعنوان «إينو» .

(٢٧) ألبانيا الآن .

(٢٨) كان آباس ملك أرجوس وأب أكريسىوس أحد أقرباء كادموس ودانائوس وأيجيوس ( انظر الكتاب الثالث ) . وكان أكريسىوس والد دانائى قد أفزعه ما تكهن به العراف بأنه سيموت قتيلاً بيد حفيده فحبس ابنته فى حجرة محصنة بالنحاس . واذ رآها زيوس مسّت شغاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شؤبوب من الذهب فأنجبت منه پيرسيوس . وبعد أن سمع أكريسىوس صيحات الطفل پيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرباب . وإذ كانت نبوءة العراف ما تزال تؤرقه أغلق على الأم دانائى وطفله پيرسيوس صندوقاً وقذف به إلى البحر حيث رسا على شاطئ سيريغوس فالتقطه الملك پوليديكتس . وقد عالج سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة فى مأساة مفقودة اسمها «أكريسىوس» .

(٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبيريا .

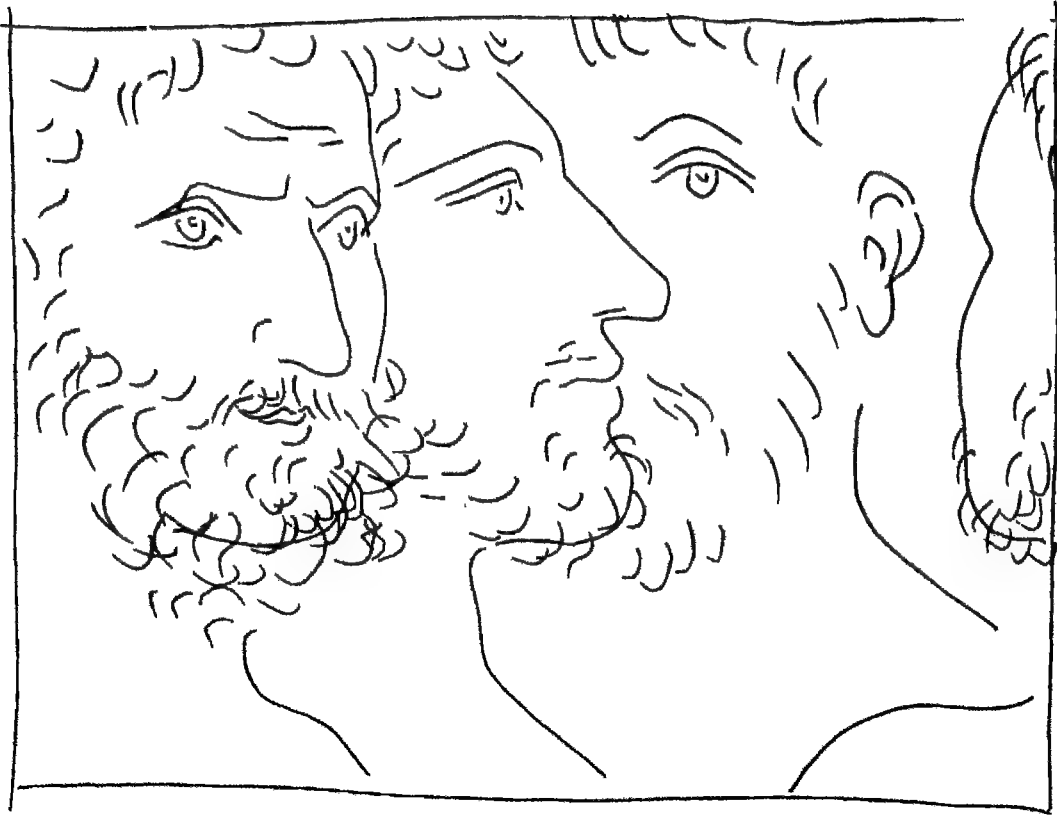
(٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التى تبدو قبيل الشروق .

(٣١) أيولوس هو رب الرياح .

- (٣٢) تعنى كلمة إثيوبيا بلاد ذوى البشرة المحروقة ، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء . وقد ميز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين : ذوى الشعر المجعد وهم الزنوج ، وذوى الشعر السبط وهم المنود .
- (٣٣) كان القدامى يجهلون الأصل الحيوانى للمرجان . واقتصرت هذه التسمية بعد هيرودوتوس ( القرن الخامس ق.م . ) على البلاد الواقعة جنوب مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة .
- (٣٤) خريساوور هو شقيق الجواد پيجاسوس ، وقد تزوج ابنة أوقيانوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذى صارعه هرقل .
- (٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينا [ منيرفا ] .

\* \* \*





بيكاسو

## الكتاب الخامس

### پيرسيوس [تتمة]

وبينما البطل ابن داناي يروي مغامراته لحشد من الإثيوبيين من أسرة كيڤيسوس كان ثمة جمع صاخب من الجباهير الثائرة قد احتشد داخل القصر ، أخذوا يصيحون صيحات لا تتفق وتهليل الأعراس ولطفها ، بل تشويها ضراوة المحاريين . وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحركها العاصفة الهوجاء ، وكان فينيوس<sup>(١)</sup> هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومعرضهم على القتال . وقف شاهراً رمح البرونزي الحد المنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعد : « ها أنذا قد جئت لأنتقم ممن اختطف العروس التي وعدت بها ، ولن ينقذك مني جناحك ولا جويتر الذي تمثل على صورة قطرات ذهب خادعة » . وتأهب ليسند رمح فزجره كيڤيسوس قائلاً : « ما هذا الذي تفعله يا أخاه ؟ أية حماقة تلك التي تدفعك إلى أن تقدم على هذا الجرم ؟ أهكذا يكون جزاء من أسدى إلى معروفًا جليلاً ، أبهذا تكافئ من أنقذ حياة ابنتي ؟ إن پيرسيوس لم يخطفها منك إنما خطفتها بنات نيريوس [ حوريات البحر النيرباديس ] الصارمات ،

٢٠ خطفها أمون ذو القرنين<sup>(٢)</sup> والوحش الذى انطلق من البحر ليفترس أحشائها . لقد اختطفت منذ تلك اللحظة التى كانت فيها مشرفة على الهلاك فوق الصخرة ، هذا إذا لم تكن أنت بقسوتك تريد لها الهلاك ، وتتخذ أنت من خوفنا عليها ما تتلهى به . فما كان يحق لك أن تقف جامداً وهى مكبلة بالأغلال على مرأى منك ولا تمد لها يد العون وأنت عمها وخطيبها معاً ، أو يليق بك بعد هذا أن تشكو وأن تحرّم من أنقذها جائزته . وإذا كنت حقاً تقدرها حق قدرها أما كان الأولى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شدّت عليها . وماذمت لم تفعل فلتدع من أنقذها يظفر بما وعد به ويحني ثار ما قدّم . لقد خلصنى من أن أرزح تحت عبء شيخوخة أحرّم فيها حنان ابنتى ، ولتعلم بأننا لم نُؤثره عليك بل أثرناه على الموت الذى كان يتهدّدها يقيناً .

٤٠ وارتجّ على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدرى إلى أيها يسدّد رمحهُ ، وبعد تردّد لم يطل قذف پيرسيوس برمحهُ بكل ما أثاره فيه الغضب من قوة ، غير أن رميته ذهبت هباءً إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد مسدّداً رمحهُ إلى صدر خصمه ، ولكن ما أسرع أن احتفى فينيوس بالمحارب الذى منحه حماية لم يكن جديراً بها . ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين رويتوس فسقط صريعاً يقرع الأرض بكعبيه ويُخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على الموائد . وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة وقذفوا الرماح هنا وهناك مُنادين بقتل كيبيوس وصهره . ولكن كيبيوس كان قد بادر فغادر قصره مُشهداً آلهة الضيافة على أنه لا يد له فيما حدث وأنه كان محقاً صادق النية .

وأقبلت باللاس المحاربة وقدمت تُرسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكت فيه الشجاعة . وكان أول من تصدّى له هندى اسمه أثيس وضعت أمه « ليمناى » وهى إحدى حوريات نهر الجنج تحت مياهه الصافية . وكان صبيّاً أكمل السادسة عشر من عمره بهيّ الطلعة تزيد ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدى معطفاً من معاطف « صور » وُشّي بأهداب من قصب ، ويحيط بعنقه عقد من الحلّيات الذهبية ، ويضمّ شعره المعطر بالمُر مشط مقوّس ، لا يخطئ رمحهُ هدفاً مهماً بعد ويجيد استخدام القوس ، غير أنه ما كاد يبدأ فى شدّ قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح فجندلته على الأرض وتشمّت عظام جمجمته ووجهه .

٦٠ وحينما رأى ليكاباس الأشورى أعزّ أصدقائه مُجنّداً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، تُغشى الجراح ذلك الوجه الذى كان مفتوناً به وتعمّه بركة من الدماء ، فانتزع القوس الذى كان أثيس قد شدّ إليها السهم وصاح : « لأنازلنك الآن بنفسى ، ولن أتركك تفرح بموت صبيّ لن يُكسبك موته غير العار » . وانطلق السهم قبل أن يتمّ عبارته ، غير أن پيرسيوس أفلت منه فلم يُصِب غير طيّات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوّس — الذى أطار به عتق ميدوسا — وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحلق ليكاباس بعينيّه الزائغتين فى أثيس ثم سقط بجواره مطمئن النفس لموتها معاً وذهابها سوياً إلى عالم الأشباح .

وحاول كل من فورباس الأسواني وأنتيميدون الليبي الاشتراك في المعركة غير أنها انزلقا في بركة من الدماء الفاترة على الأرض فسقطا وصرعهما بيرسيوس حين أغمد سيفه في ضلوع أنتيميدون وفي حلق ٨٠ فورباس . وكان مصير إريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن بيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه ، إذ كان إريتوس مسلحاً بشاطور عريض الحد ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلًا بارز النقوش ، وهوى به على رأس إريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الورا وارتطم رأسه بالأرض مهشماً فأخذ يعانى سكرات الموت .

وأودى بيرسيوس بحياة كل من پوليديجمون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازي وليسيوس التيسالي ، وهيليكس المسترسل الشعر ، وفليجياس ، وكليتوس ، ثم انطلق يطأ جثث ضحاياه بقدميه . ولم يجسر فينيوس على منازلة خصمه عن قرب بل قذفه برمحه عن بُعد فأخطاه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذى كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يغنه ذلك شيئاً ، لذلك حتى على فينيوس وصاح فيه قائلاً : « مادمت قد حملتني حملاً على أن أنحاز إلى أحد الفريقين وجعلت مني خصماً لك ، فلأصيبك بجرح لقاء ذلك الجرح الذى أصبتني به » ، وجعل ينزع الرمح من جسده وهم بقذف عدوه به غير أنه سقط على الأرض والدماء تنزف منه .

ومات هوديتيس — أعظم أبطال إثيوبيا بعد الملك — بسيف كليمينوس ، وصرع هيسبيوس پروثونور ، فتكفل بيرسيوس بذبح هيسبيوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنّ عادل ورع هو إيماتيون لم يشترك في القتال بسيفه لشيخوخته ، ولكن شارك بلسانه فمضى يصب لعناته على هذه المعركة الأثمة ، بينما يمسك المحارب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحارب وظل لسانه يتحرك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوامان بروتياس وأمون ، وكانا لا يقهران بفضل قفاز<sup>(٣)</sup> المصارعة ، غير أنه لا حيلة للقزاز ألام صولة السيوف فقضى عليهما فينيوس بسيفه ، كما قضى على أبيكوس كاهن سيريس الذى كان يلف جبينه بعصابة بيضاء . كذلك خر لامپيتيديس صريعاً ولم يكن قد خلق للقتال ، وإنما كان مطرباً ، وكما كان غناؤه للسلام كذلك كانت قيثارته ، وكان قد دعى ليعزف فواصل موسيقية وينشد بعض الأغاني خلال الحفل ، ورآه پتالوس وسط مجموعة رجال ممسكاً بريشة قيثارته العديدة الجدوى في القتال وصاح فيه « لتنشد ما بقى من أغنيتك لأطياف العالم السفلى » وأغمد سيفه في وجته لامپيتيديس اليسرى فسقط على الأرض وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فأطلقت نغمًا حزيناً . وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثار له فخلع قضيباً ضخماً من الباب ودق به عتق پتالوس فخر صريعاً كما يخر العجل المذبوح قرباناً ، وحاول پيلاتس وكان قادمًا من شواطئ نهر سينيس<sup>(٤)</sup> أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كوريشوس الليبي فأثبت يده بخشب الباب ، وأدركه أباس بطعنة في جنبه مات على أثرها وظل معلقاً بمصراع الباب ، كما قتل ميلانيوس أحد أتباع بيرسيوس ، وكذلك دوريلاس أغنى ملاك ناسامونيا<sup>(٥)</sup> وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرهم ملكاً لأهراء التوابل ، فلقد طعنه هاليكونيوس البختياري برمح نفذ مائلاً في فخذه فجرح

خصيته ، وراه أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة زائغ العينين فقال له : « حَسْبُكَ بعد تلك الأراضي الشاسعة التي تملكها ، هذه الرقعة الصغيرة التي ترقد عليها » . وسارع بيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانترع الرمح وكانت لاتزال به حرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فمزق أنفه ورقبته ونفذ من الخلف . وظل القدر يرعى يدي بيرسيوس حتى قتل الشقيقين كليتيوس وكلايس اللذين ولدا من أم واحدة وماتا بجرحين مختلفين ، فقد نفذ رمح بيرسيوس في فخذى كليتيوس بينما غاص في حلق كلايس وكأنه يعضه بأسنانه ، كما مات كيلادون من منديس<sup>(٦)</sup> ، وأستريوس الفلسطيني الأم المجهول الأب ، ومات أيثيون الذى كان مع حلقة في التنبؤ جاهلاً بمصرعه ، وكذلك ملك تواكتيس حامل دروع الملك وأجثريس الموصوم بقتل أبيه .

١٤٠

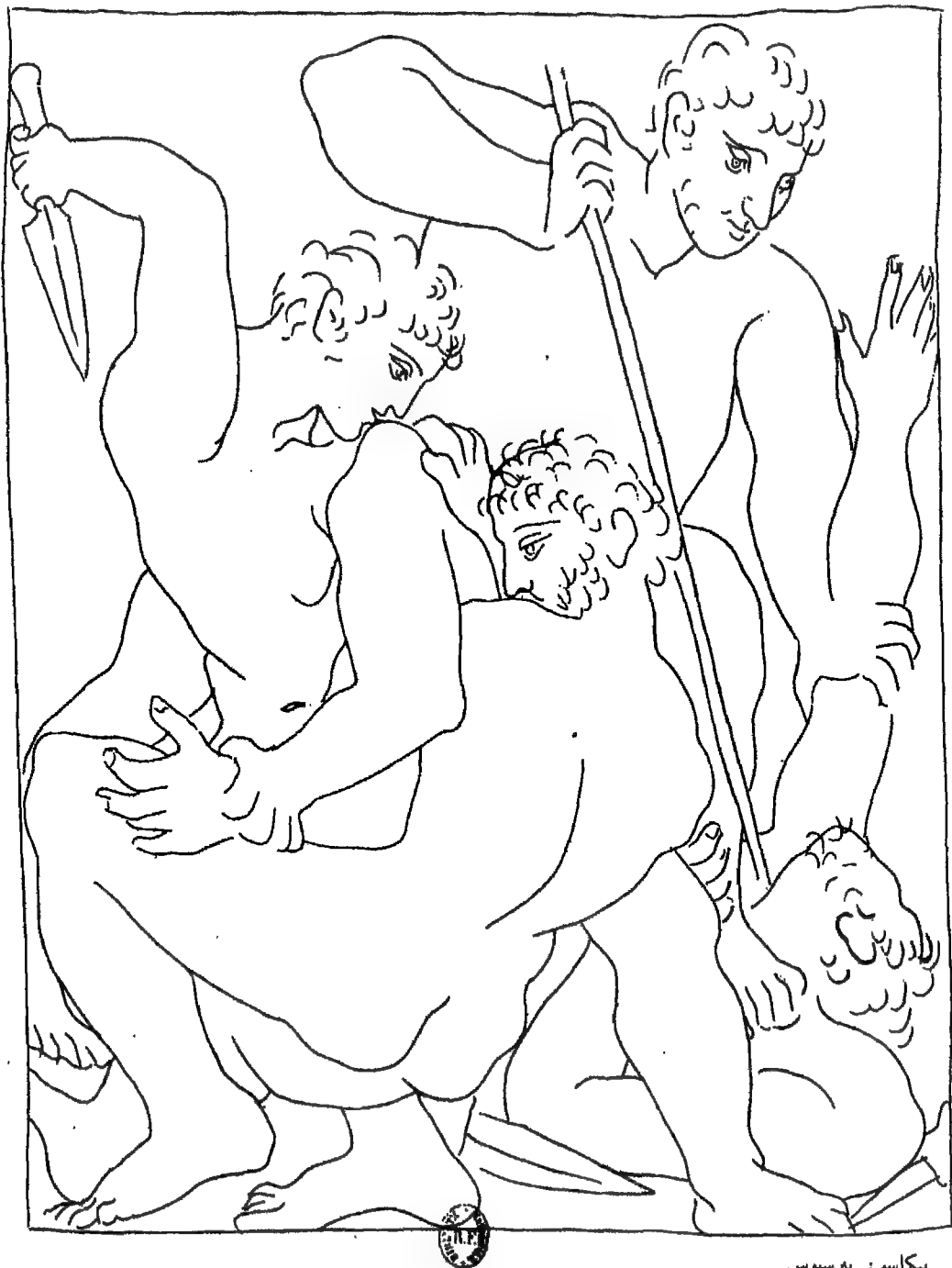
وكان على بيرسيوس بعد ما أبلى في هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كل ما بذله ، فقد انفرد به المهاجمون للإتيان عليه ، وتكالبت عليه من كل حذب وصوب عصابات تبغى ألا يمضى في نيل ما وعد به من حقوق . ولم يُغن شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه ، فلقد ضاع صياح الملك وصراخه وسط صليل السيوف وأنين القتلى ، وكانت بيللونا ربّة الحرب قد نثرت الدماء على آلهة الأسرة لتذكى نار القتال .

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف بيرسيوس وحده ، وتهاوت رماحهم عليه تهاوى البرد في الشتاء أو أشد ، فأسند كتفيه إلى عمود حجرى كبير يحمى به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم . وكان يترصد له من جهة اليسار موليبوس الخارونى<sup>(٧)</sup> ويهاجمه من اليمين إيثيمون النبطى<sup>(٨)</sup> ، وبدا بين خصميه كنمر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار في واديين مختلفين في آن واحد فلم يدر أيهما يهاجم أولاً ، وودّ لو استطاع أن يقفز إلى الاتجاهين في اللحظة نفسها . وأخذ بيرسيوس يُراود نفسه فيمن يبدأ بقتله ، وإذا هو يُعاجل موليبوس بطعنة مزقت ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحظته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شارعاً سيفه على رقبته ، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة العمود وانكسر وارتد نصله في حلق من أطلقه ، ولم يكن الجرح مميتاً لكن وقفته مرتجفاً أعزل أتاحت لبيرسيوس أن يُرديه بسيف ميركوريوس . وأخيراً يتقن البطل من أن شجاعته تقصر أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح : « مادمتُم تُكْرهوننى على الالتجاء إلى ما لم أكن أحب اللجوء إليه ، فلسوف أطلب العون ممن كانت لى خصماً ، ولْيُشج بوجهه إذن من كان صديقاً » ، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكشفها أمامهم . وانبرى له ثيسكيلوس يسخر منه وهو يقول : « هل لك في غيرنا ممن نخدعهم جيلاًك » ، وكان قد تأهب لقذف رمحه فإذا هو يجمد في وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام ، ، وتقدّم في إثره أمبيكس محاولاً إغمار سيفه في صدر بيرسيوس الشجاع غير أن يده جمّدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحجّر على هذا الوضع . وحينئذ برز نيلبوس الذى كان يدعى زوراً انتسابه إلى النيل ذى المصبّات السبع ، ورفع تُرسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة ، وصاح : « تطلّع يا بيرسيوس إلى أين يمتدّ نسبي ، ولسوف يُسرّى عنك أنك ذاهب إلى عالم الموتى على يدي بطل مثلى » ، وهنا اختنقت كلماته الأخيرة في حلقة وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم ولكن بلا صوت . وصاح إيريكس مؤنباً المحاربين بقوله : « إنه الجبن هو

١٦٠

١٨٠

الذى يجعلكم تجمدون وليس رأس الجورجونة ، هلموا معى للقضاء على هذا الفنى وسلاحه السحرى « ٢٠٠  
ولكنه لم يكذب يدفع خطوة للأمام حتى تجد كتمثال من حجر .



بيكاسو : بيرسيوس

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذى نزل بهم ، فثمة محارب من أنصار بيرسيوس هو  
أكونتيسوس كان قد وقع بصره على رأس الجورجونة فجعد هو الآخر على الفور ، وظن أستياجيس من

خصوم بيرسيوس أنه مازال حيًا فضر به بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجبًا ، وإذا هو الآخر يتحوّل تمثالاً حجرياً تعلو وجهه قسّات التعجب .

ويطول سرد أسماء الجنود الدهماء الذين هلكوا في هذه المعركة ، فلم يبق حيًا منهم سوى مائتين ، تحوّل مائتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلّعهم إلى رأس الجورجونة . وفي النهاية امتلأ فينيوس أسى على ذلك القتال الذي بدأه ظالمًا ، لكن ما عساه يفعل الآن ؟ لقد رأى رجاله تماثيل في وضعات مختلفة ، وكان يتبيّنهم ويناديهم بأسمائهم طالباً منهم العون غير مصدّق عينيه ، وأخذ يلمس أقرب الأجسام إليه فوجدها رخاماً صلباً فابتعد عنها يائساً مُقرّاً بالفشل ، ورفع ذراعيه متوسّلاً إلى بيرسيوس وهو يتجنب النظر إليه قائلاً : « أنت الفائز يا بيرسيوس فانخف سلاحك البشع عن الأنظار ، أخف رأس ميدوسا ، أخف ذلك الرأس الذي يحوّل الرجال إلى صخور ، ناشدتك أن تخفيه ، فلم تدفعني إلى القتال كراهيتي لك وحبي للسيطرة بل هي الرغبة في العروس التي وعدت بها . لقد قمت لها بالكثير الذي يجعلك لها أهلاً لكنني عرفتها قبلك ، ولن أنجّل الآن من تسليمها إليك ، هب لي إذن شيئاً واحداً أيها البطل العظيم ، هب لي حياتي وحدها وليكن لك بعد هذا ما تريد . »

٢٢٠

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلّع إلى الرجل الذي يتوسّل إليه ، فأجابه بيرسيوس قائلاً : « فينيوس يا أجبني الخليفة ، لسوف أعطيك ما أستطيعه وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل دنء الطوية مثلك . لا تخشى أن يصيبك سيفي بأذى ، فسوف أجعل منك تمثالاً منتصباً في قصر حمي يبقى على الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتي التي كنت قد خطبتها يوماً » . ثم لوح برأس بنت فوركييس في الاتجاه الذي يتطلّع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف . ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جمد ، وجمدت الدموع في عينيه واستحال صخوراً بقيت قسّات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت يداه تعبران عن خضوعه وذلته .

وعاد « بيرسيوس » حفيد أكريسيوس بعد ذلك إلى موطنه منتصراً تصحبه عروسه ، ودخل من باب مدينته حيث وُلد . وبالرغم من أن جدّه لم يكن قد بدل ما يستحق عليه العون ، إلا أن بيرسيوس انبرى يأخذ بحق أكريسيوس وهو يعدّ الإهانة التي لحقت بجدّه إهانة له ، فهاجم « پرويتوس » الذي كان قد أرغم أخاه « أكريسيوس » بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح الأسلحة ولا مقاومة القلعة المكتسبة في حمايته أمام بشاعة نظرة المخلوقة الغريبة ذات الشعر الشعاني .

٢٤٠

أما أنت يا پوليديكيتيس<sup>(٩)</sup> ، يا من تولّيت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فما حرّك عطفك هذا الإقدام الذي أوتيّه ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التي شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التي حلّت به ، ولكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفر وغضب جائر لا حدود له ، فكنت تهوّن من بطولاته كافة وتدّعي أن قتل ميدوسا لم يكن غير حديث كذب . وعندها صاح به بيرسيوس : « لكى

أثبت لك صدق ما أدعى ، فلتُشيحوا بوجوهكم جميعاً ، وسرعان ما حوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسكب قطرة من دمائه حين أخرج له وجه الجورجونة « ميدوسا » .

## هيبوكرينى . ربّات الضن . بنات پيپروس

لم تفارق تريتونيا « منيرفا » [ تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا ] طيلة الوقت أخاها البطل الذى أنجبه جوبيتر من خلال القطرات الذهبية . وما لبثت أن التفت بسحابة ورحلت عن سيريفوس خلفه وراءها كلاً من جزيرتي كيثنوس وجياروس ، وسلكت أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسعة حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : « ثمت إلى سمعى شائعة تقول بأن ينبوعاً قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح « پيجاسوس » وليد « ميدوسا » ، ولذلك ٢٦٠ جثت لأشهد هذا ينبوع العجيب بعد أن شهدت الجواد وهو ينبثق من دماء أمه المسكوبة ، فأجابتها أورانيا : « مرحباً بك أيتها الإلهة ، وأياً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهى كفيلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أما قصة ينبوع فصحيحة لأن الجواد پيجاسوس هو الذى فجّره » . ثم قادت باللاس إلى ينبوع المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تحمّل دَهْشَةً فى هذا ينبوع الذى فجّره ضربة من حافر جواد ، ثم جالت يبصرها حول ينبوع مستعرضة الأجسام العريقة والكهوف والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة . وهنّأت بنات « نيموزينى » على موطنهن الذى يفيض عليهن سعادة ويتفق وما يضطلعن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : « أيا باللاس تريتونيا ، يا من كنت ستصبحين واحدة منا لولا شجاعتك التى قادتك إلى حمل رسالةٍ أجلّ شأنًا . إن ما تقولينه هو الحق بعينه وإنك لعل حق فى امتداحك دارنا ورسالتنا . إن حظنا لسعيد لو أتيج لنا أن ننعّم به فى هدوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى الناس لا حدود له ، فالإناث بغير حراسة يعيشن فى خوف مستديم ، وصورة « پيرينيوس » الشرس ماثلة دائماً أمام عينيّ ويقى الدعر مستولياً علىّ منذ تلك الحادثة . لقد كان محارباً عنيفاً استولى بمعونته جنده الطراقيين على بلاد دوليس وحقول « فوكيس » ونصب نفسه ملكاً على الأراضى التى اغتصبها عنوة . وكنا نحن الربّات فى طريقنا إلى معبدنا فى جبل « البارناسوس » فرآنا ساعة مررنا به وتظاهر بإجلال أشخاصنا الإلهية ، ودعانا لدخول داره لنحتّمى من المطر قائلاً : « يا بنات نيموزينى ، أرجوكن أن تتلبّسن برهة وآلاً تتردّدن فى الاحتفاء بدارى من المطر والعاصفة ، فطالما دخلت الآلهة أكواخ أناس أشدّ فقرًا منى » ، فحفزنا ترحيبه وكذا رداة الطقس إلى قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريح الشمال ريح الجنوب وبددت غيومها فبلدت السماء صافية من جديد ، وهممنا باستئناف مسيرنا فإذا پيرينيوس يُغلق علينا داره ويشرع فى الاعتداء علينا . لكننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التى حلّقنا بها عالياً ، فانطلق يصعد أسوار القصر مسرعاً وراءنا صائحاً فينا « أينما تذهبن سامضى فى إثركن ! » ولكنه سقط فى غمرة جنونه من البرج فهوى على الأرض وقد تناثرت عظام جمجمته المهشمة ونخضبت الأرض بدمه » .

ورفرفت أجنحة في الفضاء خلال حديث ربّة الفن ودوت من أعلى الغصون عبارات التحية ، فتطلّعت إينة جويتر إلى أعلى لترى مبعث هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدث إنساناً ولم يكن غير طير من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقق التي تستطيع محاكاة مختلف الأصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعية مصيرها . وعندما بدت الدهشة على منيرفا أخذت ربّة الفن تفسّر لها الأمر وتقول : « هؤلاء أيضاً قد تحوّلن حديثاً إلى طيور بعد فشلهن في إحدى المباريات . وكان أبوهن « بيروس » أحد كبار أثرياء بيللا وكانت أمهن أويى من « پايونيا »<sup>(١٠)</sup> قد ناشدت لوكينا ربّة الوضع العون تسع مرات ، وأعانتها فوضعت تسع مرات . وكانت الشقيقات التسعة الحمقات قد تملّكهن الغرور لكثرة عددهن ومضين يتنقلن عبر بلاد « هايمونيا » وأخايا . وحين وفدن على جبل هليكون استفززننا بقولهن ، « ألا توقفتن عن فرض أنفسكن على الجهلة بادعائكن أنكن منشدرات رخييات الصوت ، إن تكنّ واثقات بمواهبكن فتعالين معنا يا بنات ثيسپياي »<sup>(١١)</sup> المقدسات نبار فلسنا دونكن في رخامة الصوت ولا في مهارة الإنشاد ، كما أننا نساويكن في عددكن ، فإذا خسرتن المباراة تركتن ينبوع الذى فجّره ابن ميدوسا وينبوع أجانيبي في بويوتيا . وإذا خسرنا نحن انسحبنا خارج سهول مقدونيا إلى پايونيا التي تكسوها الثلوج ، ولتقم الحوريات مقام الحُكم في المباراة . ولقد كان عاراً علينا أن نباريهن ، كما كان من العار أن نتراجع ونسحب من المباراة . ثم كان اختيار الحوريات اللاتي أقسمن بأنهرهن أن يكنّ في جانب العدل ، واتخذن أماكنهن على كتل الصخر الصلد . ولم نحتج للاقتراع فيمن يبدأ المباراة ، إذ أنشدت من استهلّت المباراة نشيداً يقص حروب سكان السهلات ونسبت المجد إلى العمالقة زوراً واستهانت بأعجاد كبار الآلهة ، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ونشر الذعر بين سكان السماوات ، وكيف هرب منه جميع الآلهة وفرّوا حتى لاذوا بأرض مصر في وادى النيل ذى المصبّات السبع ، وطاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض في مأواهم فتنكر الآلهة في أشكال أخرى كي يخدعوه : تخفى جويتر في صورة كبش يقود القطيع ، وهذا هو السرّ في تصوير آمون الليبي<sup>(١٢)</sup> حتى اليوم بقرون لولبية ، وتخفى أبوللو في صورة الغراب ، وتحول ابن سيميليه تيساً ، وشقيقه فريبوس قطّة ، وچونو عجلة بيضاء ، وفينوس سمكة ، بينما أخذ ميركوريس إله كيليني أجنحة الطائر آيس . أنشدت الكثير من هذا القبيل على القيثارة متحدّية بذلك ربّات الفنون . وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيها الإلهة ، أو قد لا تدع لك مشاغلك وقتاً تستمعين فيه إلى أنشودة الربّات ؟ « فاجابت باللاس « لا تخشى ذلك واخبريني بما أنشدته بدقائقه على ترتيب وقوعه » . ثم جلست باللاس في ظل الشجر الرّخى ، وواصلت ربّة الفنون قصتها قائلة : « لقد اخترنا من بيننا « كاليوى »<sup>(١٣)</sup> لتمثّلنا جميعاً ، فنهضت واقفة وقد شدّت خصلات شعرها المسترسلة بإكليل من اللبلاب ، وغمزت أوتار قيثارتها الحانية بسبّابها ، وأنشدت :

٣٠٠

٣٢٠

## سيريس وپروسيرپينا

« كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس وأول من زرعت القمح وسائر الغلال ، وفرضت النواميس الأولى على العالم ، فنحن ندين بكل ما نملكه لسيريس ، وعلى أن أتغنى بها وليت نشيدى يكون جديراً بها ، فالإلهة يقينا جديرة بأغنيى . »

أرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد العملاق تيفويوس الذى جرؤ وتطلع إلى الإقامة في السماء ، وطالما صارع لينهض من تحت الجزيرة ، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت جبل بيلوروس القريب من أوزونيا<sup>(١٤)</sup> ، كما جمدت يده اليسرى تحت جبل پاخينوس ، بينما شد وثاق ساقه أسفل ليليايوم<sup>(١٥)</sup> ، واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه بينما كان مستلقياً على ظهره تحته وهو يلفظ الحمم واللهب من فكّيه المخوفتين . وطالما حاول إلقاء عبء الأرض من فوق ظهره وطى المدن والتلال الضخمة التى تقيدّه ، وعندها كانت الأرض تزلزل حتى خشى ملك الأشباح الصامته نفسه أن تنشق الأرض عن فجوات واسعة تسمح لضوء النهار أن يتسرّب إلى مملكته فيُخيف أطياف الموتى القلقة . ودفعه الخوف من ذلك إلى مغادرة مملكته المظلمة في مركبته التى تجرّها الجياد السود ، ودار بها حول الدعامات التى تقوم عليها صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعف بها ، فلمحته سيدة إريكس [ فينوس ]<sup>(١٦)</sup> التى احتضنت ابنها المجنّح [ كيوييد ] وقالت له : « أى كيوييد يا من أنت ساعدى وسلاحى ويأسى ، خذ يا بُنى هذه السهام التى تخضع بها الجميع لسلطانك ، وارم بأسرعها قلب ذلك الإله الذى يسود آخر مملكة من بين ممالك الكون الثلاثة . لقد أخضعت آلهة الأفاق العلوية بما فيهم چويتر نفسه ، وكذلك فعلت بآلهة البحار دون أن تستثنى كبيرهم ، فلماذا تُحمل شأن تارتاروس ؟ لماذا لا يمتد سلطان أمك وهو أيضاً سلطانك إلى العالم السفلى وهو ثلث الكون ، ولا تنس أن السماء قد بدأت تزدرينا لتراخيها ، وأخذ سلطان الحب يضمّر ويضمّر معه سلطاني ، ألم تر إلى باللاس وديانا ربّة الصيد يديران وجهيهما عنى ؟ كما أن ابنة سيريس مستظل عذراء إذا تركنا الأمر بيدها ، فتلك أمنيّتها . وإذا كنت تحرص حقاً على مملكتنا التى نتقاسمها فاربط بين هذه الإلهة وبين عمّها<sup>(١٧)</sup> . ولما فرغت فينوس من حديثها ، فتح كيوييد جعبته وتخيّر من بين سهامه الألف أمضاها وأطوعها لقوسه كما شاءت أمه ، وشدّ قوسه مستنداً إلى ركبته وأطلق السهم الذى أصاب قلب بلوتو وانغرس نصله فيه . »

وكانت على مقربة من أسوار مدينة هنا<sup>(١٨)</sup> بحيرة عميقة الغور أطلق عليها اسم « بيرجوس » ينافس هديل بجعاتها الغناء الذى يُطرب سمع نهر كايستر<sup>(١٩)</sup> من بجعاته الشّاديات فوق مياهه الجارية . وكانت الأشجار تحيط بالبحيرة وتحميها بأوراق غصونها الكثيفة من أشعة فوييوس وتكسوها بظلال رطبة ، وتنتشر المراعى الخصبة من حولها متأنقة بالأزاهير حتى باتت كالربيع الدائم .

كانت پروسيرينا هناك تلهو باقتطاف أزهار البنفسج والسوسن ثم تجمعها مرحةً مرح الطفولة البريء في سلتها أو بين طيات ثوبها محاولة أن تَبَزَّ رفيقاتها ، وقد وقع عليها بصر پلوتو حين أصابه السهم فإذا هو يقع في غرامها فاخطفها ، فما أشد لطفه الحب ! وأخذت الإلهة المدعورة تبكى وتصيح مستغيثة بأماها ورفيقاتها وهي تمزق صدر رداثها حتى سقطت الأزهار التي كانت قد جمعتها في ثناياها ، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التي تجر مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثه على مضاعفة جهده ، ويهز أعنتها المصبوغة بألوان داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهي تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبرك الكبريتية في بلاد الهاليكي<sup>(٢٠)</sup> التي تنبثق مياهها من باطن الأرض وهي ساخنة نفور ، ثم مرّت بالبقعة التي شيدت فيها سلالة باكخاداي الوافدة من كورنثه وبرزخها<sup>(٢١)</sup> أسوار مدينتها بين مينائين يكبر أحدهما الآخر .

## كياني

وكان ثمة خليج في المنطقة التي تفصل بين بركة كياني وجدول آريثوزا الوافد من پيزا ، تتجمع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذى يزداد ضيقاً في عدّة مواقع . وكانت « كياني » أشهر حوريات صقلية التي أطلق اسمها على البركة تحيا به ، وقد برزت حتى خصرها خارج المياه وتعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت : « لن تذهب بابتة سيريس أبعد من هذا يا پلوتو ، ولن تتزوج بها إذا لم تكن هي راغبة في ذلك ، وكان أولى بك أن تخطبها بدلاً من اختطافها . ولو أنحت لى فرصة لحذثك عن حادث مشيل ، فلقد وقع أنابيس<sup>(٢٢)</sup> في غرامى ، ثم أصبحت عروسه بعد أن نجح في استمالتي بتوسلاته لا استسلاماً لمثل هذا الذعر الذى تحرّكه في قلب الصبيّة » . وما لبثت أن بسطت ذراعيها خلال حديثها فسدت الطريق أمام پلوتو بن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستثار خيوله العابسة ، وقذف بصولجان مُلكه في قاع البركة فانشقت الأرض ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس ، وانطلقت مركبته وغاصت إلى مملكته من خلال هذا الشق . ومضت كياني تندب اختطاف الإلهة حزينة على استهانة پلوتو بسلطانها على برّكتها ، واستقر في قلبها جرح لا شفاء منه ، فبدأت تذوى من فرط بكائها حتى تحلّلت تماماً في الماء الذى كانت في الماضى إلهته الجليلة وتحاذلت أعضاؤها فأخذت عظامه تنثني وأظافرها تفقد صلابتها . وكانت أجزاء جسدها الدقيقة هي أول ما بدأ في التحلل : شعرها الداكن الزُرقة وأصابعها وساقاها وقدماهما . وما أسرع ما تحوّلت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة ، ثم اختفى كتفها وظهرها وردفاها ونهداها في سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذى يجرى في عروقها إلى ماء سيال ، ولم يبق منها شيء تقبض عليه كفت إنسان .

وتسلّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرينا وهي تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها ، ولم تشاهدها « أورورا » ربّة الفجر ساعة يقظتها بصفائرها النديّة ، كما لم يشاهدها هيسپيروس نجم

الليل وهى تأوى ساعة إلى الراحة ، فقد أشعلت بيديها مشعلاً من خشب الصنوبر من بركان « إتنا » وطافت به باحثة بين الظلمات القارصة البرودة ، فلم تكن تحس فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جهد السير وأذتها آلام العطش . وقبل أن تعثر على ينبوع تطفئ بياهه هيب ظمئها ، وقع بصرها عَرَضاً على كوخ مسقوف بالقش قرعت بابه المتطامن فخرجت منه امرأة عجوز ، وحين رأت الإلهة وعرفت أنها إنما جاءت طلباً للماء ، أعطتها شراباً عذباً مغشئاً بطبقة من دقيق الشعير المحمص . وحين أخذت سيرس تشرب تقدّم منها صبيّ معروق الوجه صفيق الملامح أخذ يعنفها ويصمها بالشراة ، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما بقى من هذا الشراب وانتثر عليه الشعير المختلط بالسائل ، فامتلاً وجهه بالبقع وحلّت قدماه محل ذراعيه ونما له ذيل وتضاءل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحى أصغر من السحلية حجماً . ودهشت المرأة العجوز وبكت مادّة يدها لتلمس هذا المخلوق الجديد الغريب ، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبئ فيه ، وكان يحمل اسم « ستليو »<sup>(٢٣)</sup> الدال على لون جسده الذى انتثرت به البقع هنا وهناك .

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره ، حتى إذا لم يَعدْ هناك مكان لم تبحث به قفلت راجعة إلى صقلية . وقد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطئ بركة كياني ، ولو لم تكن الحورية قد تحلّلت إلى مياه لاستطاعت أن تروى لسيرس تفاصيل ما حدث . وكانت كياني راغبة في الحديث إلا أنها لم تكن تملك فماً ولا لساناً ولا أداة أخرى تتكلم بها ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تُعطي لسيرس إشارة تكشف لها عن أمر ابنتها ، إذ عرضت على سطح مياهها حزام بروسيرينا [ بيرسيفونى ] الذى كانت تتمنطق به والذى سقط منها في البركة المقدسة . وما إن رآته سيرس ، وكانت تعرفه حق المعرفة ، حتى جعلت تمزّق شعر رأسها وكأنها لم تعرف بفقد ابنتها إلا ساعتها فقط ، ومضت تضرب صدرها بيدها . ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها . واختصّت جزيرة صقلية التى وجدت بها آثار فقيدتها بمزيد من اللوم ، وأخذت تحطم بيديها في قسوة المحاريث التى كانت تقلّب الأرض ، وقضت في غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة في الحقول بالهلاك بالطاعون ، وأمرت الحقول بإفساد ما غرس فيها من بذور ، وصارت التربة التى كانت تُباهى بخصوبتها في أنحاء العالم جدبة قاحلة فخيبت الآمال التى وضعها فيها الناس ، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تتلفها حرارة الشمس المشتعلة أو يجرفها سيل من الأمطار أو تُبيدها موجات الرياح العاصفة ، على حين كانت الطيور الشرّهة تتربص بالبذور ساعة بذورها ، والأعشاب الضارة والأشواك المستعصية تأقى على المحاصيل .

ومن أعماق البركة برز وجه الحورية « آريثوزا » من إيليس التى هام بها ألفيوس<sup>(٢٤)</sup> ، فأزاحت خصللات شعرها المبتلة عن جبينها ، وقالت لسيرس : « يا أم المحاصيل العظيمة ، يا من بحثت عن ابتك العذراء في جميع أرجاء العالم ، هوّن عليك ما بذلت من جهد ، وخفّفي من غضبك على الأرض الوفيّة لك ، فليست الأرض هى الملوّمة حين انشقت لتدع المعتدى ينفذ عبرها . لقد فعلت ذلك مكرهه ،

ولست بذلك أدافع عن بلادى ، لأننى وُلدت فى « پيزا »<sup>(٢٥)</sup> ونشأت فى « إيليس » فأنا غريبة عن هذه البلاد . على أننى أحب صقلية أكثر من أى بلد آخر رغم أنى لست من أهلها فهى الآن موطنى ، أقمت فيها تحت اسم آريثوزا<sup>(٢٦)</sup> فكفكفى غضبك عليها وترفقى بها أيتها الربّة ، ولسوف أقص عليك سبب تركى لبلادى وركوب هذا البحر حتى صقلية حين تسنح فرصة ، وبعد أن تكونى قد أخذت قسطاً من راحة البال ونعمت بشيء من البهجة . ويكفى أن أقول لك إن الأرض قد انشقت أمامى فنذتُ عبر كهوفها السفلى إلى الأعماق ، ثم عدتُ ثانية إلى سطح الأرض هنا ورأيت النجوم التى طالما اشتقتها . وبينما كنت انساب فى مستنقعات ستيكس شاهدتُ ابنتك پروسيرپينا بعينى وقد عصف بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الفزع ، ومع ذلك بدت ملكة حقّة ، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السفلى المطلق .

٥٠٠

ووقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة ، وبقيت على هذا الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها ، ثم سرعان ما أخذت مغالبة الغضب تحلّ محلّ قسوة الحزن ، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير ، وأمام چوبيتر وقفت مقبّبة الجبين منقوشة الشعر وقالت شاكية : « جئتُك يا چوبيتر متوسّلة أن تُعيننى على حماية ابنتك وابنتى ، فإذا لم يكن للأم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرك ابنتك عواطف الأبوة فى قلبك . لا تضمنُ إذن بحببتك على ابنتك بدعوى أنها ابنتى . لقد عثرتُ أخيراً على ابنتك التى طالما بحثت عنها ، وما أظننى بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظفرا بها . لقد اختطفت وإننى لغافرة لمختطفها ذنبه إذا هو ردّها ، وليس لابنتك أن تتزوج من قاطع طريق ، حتى لو لم تكن ابنتى . فأجابه چوبيتر « إن ابنتك موضع إعزازى كما هى موضع إعزازك منحها معاً حناننا ونهتم معاً بشئونها . ولو أنك سميت الأشياء بأسمائها الحقيقية لما وجدت ثمة عار فى مصاهرته ، ويكفيه أنه شقيق چوبيتر حتى لو لم تكن له ألقاب أخرى ، فأنا لم أتقدم عليه مرتبة إلا بالخط وحده . أما إذا كنت ملهوفة على التفريق بينهما فمن اليسير على پروسيرپينا أن تصعد إلى السماء لو أنها لم تذلّ بشفتيها أى طعام مما ينطوى عليه ذلك العالم السفلى ، فذلك وحده شرط ربّات الأقدار » .

٥٢٠

## أَسْكَالافوس والسيرينات

ولم تحوّل كلمات چوبيتر سيريس عن إصرارها على إنقاذ ابنتها ، غير أن الأقدار لم تسمح بذلك لأن الفتاة كانت قد قطعت صيامها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السفلى الجميلة التنسيق إذ قطفت رمانة من غصن شجرة دانٍ ، وأخذت منها — بعد نزع قشرتها — سبع حبّات امتصت عصارتها ، وكان الذى رآها تفعل ذلك هو أسكالافوس الذى يقال إن الحورية « أورفنيه » قد أنجبته من زوجها إله النهر أخيرون منذ زمن بعيد فى غابات أفيرنوس الكثيفة الظلال ، فأذاع النبأ ساعة رأى پروسيرپينا تتناول

٥٤٠

حبّات الرمان ، فحال بفعلته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض . وهنا أطلقت ملكة إريوس [ العالم السفلى ] زفرة يائسة ومسخت الواشى طائراً مشثوماً ، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذى يجرى فى العالم السفلى وأنبئت له منقاراً وريشاً وعينين واسعتين ، ففقد شكله الأدمى واكتسى بجناحين سمراوين ، وعظّم حجم رأسه ، وطالت أطافره وتحوّلت مغالب معقوفة ، وبدأ يجهد كى يحرك الرّيش الذى نبت على ذراعيه المتراخيتين . لقد صار طيراً تثير رؤيته النفور وتنذر بوقوع الكوارث هو طير اليوم الكسول نذير الشؤم عند البشر .

ولقد بدا عقاب أسكالافوس جزاء وفاقاً لوشايته ، ولكن ماذا حدث حتى اكتست أجساد بنات أخيلووس بالريش وبرزت لهن مغالب كالطيور بينما احتفظن بوجوههن البشرية ؟ أكان ذلك لغنائكن الرخيم فى رفقة پروسيرينا حينما كانت تقطف أزهار الربيع أيتها السيرينات الحكيمات ؟ فلما بحثنّ عنها فى ربوع الأرض سدى توسلتنّ إلى الآلهة أن تزودكنّ بأجنحة تخففن بها فوق البحار حتى تُشهدنها على لهفتكنّ ٥٦٠ عليها . واستجابت الآلهة لتوسلكنّ ، وفجأة وجدتنّ أطرافكنّ تكتسى بالريش الذهبى ، ولكن بقيت أغانيكنّ المرثمة تُطرب الأذان ، وبقيت فى أفواهكنّ الألسنة البشرية بقدرتها على الغناء ، فاحتفظتنّ بوجوه العذارى وبصوت الأناسى .

ومع ذلك تدخل جوبيتر ليحكم بين أخيه وشقيقته الحزينة ، وقسم العام إلى قسمين متساويين حتى تستطيع الإلهة التى بسطت نفوذها على عالمين ، أن تمضى مع أمها من العام ذلك العدد من الشهور الذى تقضيه مع زوجها . وما أسرع ما تبدّل وجه سيريس ومزاجها ، وأشرق جبين الإلهة الذى كان معتماً فى عينيّ پلوتو نفسه وتألقت الفرحة عليه ، وكأنه الشمس التى حجبتها السحب الحبلية بمياه الأمطار حينما تخرج منتصرة من بين الغيوم .

## آريشوزا وتريپتوليموس

ويعد أن استعادت سيريس الحنون مرحها بعودة ابنتها عادت فسألت عن سبب هروب آريشوزا وتحوّلها إلى ينبوع مقدس ، فهدأت مياه الينبوع عندما أخرجت الحورية رأسها منه ، ثم جففت شعرها الأخضر بيدها وأخذت تروى قصة الشوق القديم لنهر إقليم إيليس قائلة :

كنت إحدى الحوريات الساكنات فى « أخايا » ، ولم تكن بينهن من تفوقنى هياماً بالتجوال فى الغابات ونصب شباك الصيد . ومع التفانى للعمل وقعودى عن البحث وراء الشهرة بالجمال إلّا أننى كنت أنادى فى كل مكان بآريشوزا الجميلة ، ولم أكن أسعد بالمديح الذى كان يُكال لقسمات وجهى عن طيب خاطر ، ٥٨٠

وكننت أخجل من ذكر مفاتن الجسد التي كانت الفتيات الأخريات يفخرن بها ، بل كنت أعتقد أن من الجرم محاولة تحريك إعجاب الرجال .

وكننت ذات يوم عائدة من غابة « ستيمفالوس »<sup>(٢٧)</sup> مُرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذي نال مني ، فأوليت إلى جدول هادئ كدتُ لصفاء مياهه أن أعدّ حبات الحصى التي بقاعه ، فمياهه تجري بطيئة حتى يخيّل إليك أنها ساكنة ، وتظلّل ضفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية وأشجار الحور التي ترتوى من مياهه . واقتربت من الجدول وغمست قدمي في مجراه ثم ساقى حتى ركبتني ، ولم أقنع بذلك بل خلعت ثيابي وعلقتها على شجرة صفصاف متطامنة وألقيت بجسدي العاري في الماء ، وبينما كنت أسبح في دائرة محكمة أضرب الماء بساعدي حيناً وأدور حيناً آخر أحسستُ بزجرة وسط البركة ألقت الرعب في نفسي فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطئ ، وعندئذ صاح ألفيوس : « إلى أين تُسرعين بالهرب يا أريثوزا ؟ » ثم كرّر القول بصوت أجش « إلى أين تهربين بسرعة هكذا ؟ » . وقد اضطرتت إلى الفرار عارية ، إذ كانت ثيابي معلقة على الضفة الأخرى ، فزاد لبيب شوقه إلى خلال مطاردته لي ، وقد ضاعف عُري من إغرائه فأصرّ على اغتصابي ، وكننت أعدو فيُسرع في العدو ورائي وكأنني حمامة تنطلق مرتجفة بين يدي صقر يقترب منها رويداً رويداً .

٦٠٠

وعدوتُ تحت أسوار « أورخومينوس »<sup>(٢٨)</sup> ويجوار مدينة « پسوفيس »<sup>(٢٩)</sup> حتى بلغت جبل « سيليني » ثم مراعى جبل « مينالوس » وجبل « إريمانثوس » الندي ومدينة « إيليس »<sup>(٣٠)</sup> ، واستمر يطاردني دون أن تقلّ سرعتي عن سرعته ، غير أنني بدأت بعد فترة أفقد قدرتي على الاحتفاظ بسرعتي دون أن يفقد هو قدرته ، ومع ذلك ظللتُ أعدو على سفوح الجبال وفي بسيط الوادي وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعبد . وكانت الشمس ورائي فرأيت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدمي ، فحسبتُ الخوف هو الذي صوّر لي ذلك ، غير أنه كان من المؤكد أن وقع أقدامه كان يخيفني . وقد كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرك خصلات شعري ، حتى إذا حلّ بي التعب من جهد العدو ناديتُ صائحة « أدركنني بعونك يا « ديانا » فقد أحيط بي ، أنقذني حارسة أسلحتك التي عهدت إليها المرة تلو المرة بحمل قوسك وسهامك داخل جعبتك التي قد شدّت وثاقها » . وبلغت كلماتي قلب الربة فسأقت غمامة كثيفة ألقت بها عليّ ، وإذا غطّنتني الغمامة توقّف النهر حائراً لا يدرى أين اختفيت ، وصاح بي مناديا : « أريثوزا أين أنت يا أريثوزا » وكرّر نداءه لي ولكن هيهات ! يا للهزة التي اعترتني ساعتها . لقد كنت كالحمل يسمع عواء الذئب المحيطة بحظيرته ، أو كالأرنب البري المختبئ بين الأشواك يرقب أنياب خصومه من الكلاب دون أن يجسر على الحركة . ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم ير آثار أقدام تتجاوز هذا المكان ، وظل يرقب البقعة التي تغطيها الغمامة . وانبتق العرق البارد يغطي أطرافي ويكسو جسدي كله بقطرات لازوردية ، وحيثما كنت أحرك قدمي كانت تنفجر من تحتها مياه ينبوع ، وتقاطر الندى من شعري ، وتحوّلت في أقصر من هذا الوقت الذي أقص فيه قصتي إلى ينبوع . غير أن النهر تعرّف من هذه المياه على أسرة قلبه فنزع عنه صورته البشرية التي كان قد تخفّى فيها واستعاد صورته السائلة لكي يمزج مياهه بمياهي ، غير أن عذراء

٦٢٠

ديلوس [ديانا] شقت الأرض من تحتى فألقيت بنفسى بين كهوفها المظلمة حتى وصلت إلى ٦٤٠ «أورتيجيا»<sup>(٣١)</sup> ، تلك البلاد العزيزة على لأنها تحمل اسم الربّة التي استطاعت قبل غيرها أن ترفعنى من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء .

وبعد أن انتهت «أريثوزا» من قصتها ، شدّت ربة الخصوبة تينين إلى مركبتها وثبتت شكيمة العنان في خطميها ، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة «باللاس» حيث عهدت بمركبتها إلى تريبتوليموس ، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها في الأرض البكر التي لم تُفلح من قبل قط ، وأن ينثر الباقي في الأراضي البور ، فحلّق الصبى عالياً فوق أوروبا وبلاد آسيا ، ثم اتجه صوب مملكة سكوثيا حيث كان يرتقى عرشها الملك «لينكوس» . وحين دخل القصر الملكي سأله عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه ، فأجاب قائلاً : «اسمى تريبتوليموس وموطنى «أثينا» ولم أجيء بالبحر ولا بالبرّ فما سرت على قدمي ولا صعدت سطح سفينة ، وإنما كانت السماء طريقي . لقد جئت حاملاً معى هدايا سيريس التي ما تكاد تنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تُثمر حصاداً وفيراً وغذاء شهياً » . وسرعان ما أكلت الغيرة قلب ذلك الملك الهمجى الذي كان يأمل أن يُنسب له منح البشرية هذه الهبة ، واستضاف الصبى تريبتوليموس حتى إذا أخذ يغط في النوم هاجمه بسيفه ، غير أنه لم يكد يُقدم على تمزيق صدر الصبى حتى مسخت سيريس هذا السفاح فهذا جاحظ العينين<sup>(٣٢)</sup> ، ثم أمرت الصبى الأثينى أن يعتل مركبته المقدسة ويمضى في رحلته عبر الأجواء .

٦٦٠

هذه الكلمات ختمت «كاليوبى» أكبر ربّات الفنون من بيننا سناً أنشودتها التي فرغت الآن من إلقاتها عليكن ، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون ، فأخذت غريماتنا المنهزمات يقذفنا بالسباب ، فقالت لهن كاليوبى : «إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكن التي كانت ثمرة تطاولكن ، وأخذتن تُصيفن إلى خطئكن الاعتداء علينا بالسباب ، وإذا كان صبرنا ذا حدود ، فسوف نُنزل بكن عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن» . فضحكت النساء المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد ، غير أنهن ما لبثن أن شاهدن الريش يبرز من أظافرهن ويغطى أذرعتهن ومازلن يثرثن ويسخرن ، ونظر بعضهن إلى بعض وبقين يرقبن وجوههن وهى تتقلص إلى مناقير صلبة ، ويمسخرن نشات فصيلة جديدة أضيفت إلى طيور الغابات . وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن إلى السماء محلقات في الهواء . لقد تحوّلن إلى طيور العقعق ناشرى المخازى وأحاديث الإلفك في الغابات ، ومازلن بعد تحوّلن إلى طيور محتفظات بقدرتهن على الكلام ، فما برحن يثرثن دون أن تشبع رغبتهن الصاخة في الكلام .

# التعقيبات

- (١) فينيوس هو شقيق كيفيوس وابن بيلوس [ انظر الكتاب الثالث ] . وهو غير فينيوس الذي حرره أهل أرجوس من طيور الهاريس ( انظر الكتاب السابع ) .
- (٢) كان آمون يعبد على شكل كبش ، وعندما وُحِد الإغريق بينه وبين « زيوس آمون » صوّره دائماً بقرى كبش .
- (٣) القفاز هو « الكايسوس » المكون من عدة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفها المصارعون والمجالدون والملاكمون حول قبضاتهم . وكانت مباريات الكايسوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها . ولا يعد أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه . وثمة وصف لهذه المباراة في إلياذة هوميروس ( ٢٣ : ٦٥١ وما بعده ) وفي إنيادة فرجيل بالكتاب الخامس ( ٤٢٦ وما بعده ) .
- (٤) نهر سينيس هو نهر صغير في طرابلس بركة إلى جوار مدينة لبيتس ماجنا [ لبدية الحالية ] .
- (٥) فزان الحالية .
- (٦) أطلق اسم « منديس » على الجدى الذى يصور في النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون . وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنه الإله بان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمال مصر . وأصبحت منديس خلال العصر البطلمي من أهم مدن القطر ، فقد لقب بطليموس الثانى نفسه بأنه ابن الجدى الحى العظيم الذى يسكن منديس ، ساء وصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقة الجدى الحى العظيم ، الأمر الذى أدى إلى تأليهها . وقد عثر على نصب تذكارى تنص نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب ، بل لقد خصص كل دخلها لعبادة الإله الجدى .
- (٧) خاونيا في شمال اليونان [ إيبيروس الآن ] .
- (٨) الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوب فلسطين في إقليم كانت عاصمته البتراء . وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية .
- (٩) انظر الكتاب الرابع : كان بوليديكتيس قد وقع في غرام دانائى وحاول أن يتخلص من ابنها بيرسيوس بأن فرض عليه إتيان أفعال مستعصية منها قطع رأس الجورجونة . وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلاديس [ جزر الأرخبيل ] غربى جزيرة پاروس .
- (١٠) بيللا مدينة في مقدونية وأصبحت عاصمة لها في عهد الملك فيليب الثانى ، وبايونيا منطقة جبلية شمالى مقدونيا .
- (١١) ثيسپاي مدينة جنوبى غرب طيبة في بويوتيا بها معبد مقدس لربيات الفنون باقى إلى اليوم .
- (١٢) يغلظ أوفيد عمداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية ، فالعمالق تيفويوس [ تيفون ] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [ سيث خصم أوزيريس ] ، وزيوس هو آمون الإله الكبش ، وديونيسوس الإله الذى كرس له التيس هو منديس الإله الجدى ، وأرتميس هى باستت الإلهة القطعة ، وهيرا هى إيزيس ذات قرون البقر ، وهرمس هو نحوت الإله على شكل أيس . وكان الغراب طير أبوللو ، وكانت أفروديتي تشبه عشتاروت الآشورية .

- (١٣) كاليوبي هي ربة الشعر الملحمي وفنون الخطابة .
- (١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس .
- (١٥) بيلوروس وباخينوس وليليبيوم هي الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية ، يقع أولها في الشرق وثانيها في الجنوب وثالثها في الغرب .
- (١٦) قيل إن أينياس كان قد شيد لأمه فينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [ وإريكس اسم مدينة وجبل في آن واحد ] .
- (١٧) بيرسيفوني هي ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلي .
- (١٨) مدينة « هيتا » في وسط صقلية وتدعى الآن « إنا » ، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرينا قد وقع بها .
- (١٩) كان نهر الكايستر في ليديا بآسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته .
- (٢٠) الهاليكي هما ابنا توامان لجوبيتر من الحورية ثاليا كانا يعبدان كبطلين في صقلية . أما برك الهاليكي الكبريتية فكانت بين قطنانيا وسراقوسة شرقى صقلية .
- (٢١) سمى الباكدادى على اسم باكخيس ، وكان في الزمن الغابر ملكاً على كورنث ، وقد هجرت هذه السلالة كورنثة إلى كل من صقلية حيث شيدوا سراقوسة ، وإليريا حيث أسسوا أسرتها المالكة .
- (٢٢) أنايبس اسم نهر صغير في صقلية جنوبي سراقوسة .
- (٢٣) ستليو هو نوع من السحالي : والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البقع قد انتشرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحلية المدعوة ستليو ، وإن لم يذكر أوفايد اسم السحلية صراحة في النص .
- (٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور في المورة يسرى جزء منه في قاع الأرض .
- (٢٥) بيزا بلدة في إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمبيا حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .
- (٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس في غرام قناة أريثوزا فرت منه وسرت تحت الأرض في المورة بل تحت قاع البحر حتى انبثقت من جديد في صقلية .
- (٢٧) ستيمفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة في أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدى التى قضى عليها هرقل ضمن أعماله الخارقة .
- (٢٨) أورخومينوس مدينة في أركاديا غير مدينة في بويوتيا شهيرة بنفس الاسم .
- (٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيريمانثوس على حدود أركاديا .
- (٣٠) سيليني ومينالوس وإرمانثوس جبال ثلاث في شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالي ، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر بينيوس بالمورة بعد تدمير مدينة بيزا التى كانت أهم مدينة في إيليس .
- (٣١) كلمة تعنى جزيرة السمان ، وهى أحد أسماء جزيرة ديلوس التى ولدت بها « ديانا » .
- (٣٢) نوع من فصيلة النمرور أصغر حجماً وأجحف عينا يسمى أيضاً الوشق .





بيكاسو: بالاس وأراخنى

## الكتاب السادس

### بالاس وأراخنى

استمعت منيرفا إلى هذه القصة مهللة لنشيد ربّات الفنون مُشيّدة بانتقامهن العادل ، ثم ناجت نفسها : « علينا ألا نقنع بإطرائنا للآخرين ، ولنكن نحن كذلك جديرين بإطراء الآخرين ، وألا نترك أحداً ينال من ألوهيتنا دون أن نُوقع به ما يستحقّه من عقاب » ، وذكرت وهى تناجى نفسها مصير

أراخنى ، تلك الفتاة اللبديّة التي تدعى أنها لا تقل مهارة في الغزل عنها . ولم تكن أراخنى عريقة الأصل غير أن مهارتها أكسبتها شهرة واسعة ، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التي كانت تعتمد على أرجوان الرخويات البحرية من فوكيا<sup>(١)</sup> . كما كانت أمها التي قضت نحبها من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعة . ومع ذلك فقد نالت ابنتها - التي وُلدت في كوخ بسيط بقرية من قرى هيبايا الصغيرة - شهرة طافت بأنحاء ليديا بفضل مهارتها في حرفتها ، حتى أن حوريات الغابات كن يتركن مكانهن الأثير وسط كروم تيمولوس<sup>(٢)</sup> ليشهدن أعمالها معجبات بها . كما كانت حوريات الماء يتركن نهر باكتولوس<sup>(٣)</sup> ليستمتعن بمشاهدة نسجياتها ، كما كن يتابعنها وهي تنسج ، فقد كانت شديدة البراعة في إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها وتخليصها من العهن المنفوش وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهي تديره بإبهامها في حلق ، وكذا كانت فائقة المهارة في تطريز النسجيات . ٢٠

وكان من المعروف أن الفتاة لقنت حرفتها على يدى الإلهة باللاس ، غير أنها كانت تنكر ذلك ، كما كان يغضبها أن يقال إنها لقنت حرفتها عن معلّمة ما معها كانت مكانتها ، وتتحدّى الناس قائلة : « فلتأت باللاس ولتبارينى ، فإن هى فازت علىّ كان لها أن تفعل بى ما تشاء » .

وتنكرت باللاس في صورة عجوز وخط الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها ، وتوكّأت على عصا ومشت في خطوات متثاقلة ، ثم بادرت أراخنى قائلة : « ليست الشيخوخة هى تلك الأعباء التي نضيق بها ، بل هى خبرة طويلة أفدناها على مرّ السنين ، وإنى أهيب بك أن تستمعى إلى نصيحتى : احرصى ما شئت أن يقال لك إنك أكثر البشر مهارة في غزل الصوف ، ولكن احذرى أن تعدّنى طورك فتقرن نفسك في هذا الصدد بإلهة من الإلهات ، بل عليك أن تتوسّلى إليها لتغفر لك تطاولك عليها ، ولسوف تصفح عنك حين تطلبين إليها ذلك » . وطرحت أراخنى النسجية التي كانت في يدها ، وحذجت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهى مقبّبة الجبين وأجابت ناثرة دون أن تعرف أنها الإلهة : « أراك قد بلغت من العمر أرذله ، وهذا ما يعيبك . لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك ، فإن كانت لك بنات أو زوجات أبناء فادّخرى لمن نصائحك لأنى قادرة وحدى على رعاية مصالحى ، ولا تخالى أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر في نفسى فإننى مازلت عند رأى ، لماذا لا تأتبنى باللاس نفسها فتطاولنى ، ولماذا تهرب من مباراتى ؟ » وحينئذ صاحبت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت في صورتها الإلهية : « ها هى ذى الإلهة قد أتت » ، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد ملكهن الروع إلا أراخنى التي ظلّت في مكانها لم تركع ، وإن كانت قد احمرت وجنتها فجأة غير أنها ما لبثت أن انقشعت عنها تلك الحمرة ، كما يفعل الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يزایلها فتصبح مع نور الشروق ناصعة البياض . وقد صمدت أراخنى متطلّعة إلى الفوز الذى صوّرت لها رعونتها أنها ظافرة به ، ولم تضيف ابنة چوبيتر تحذيراً بل قبلت التحدى غير مُرجّئة البدء في المباراة ، وأخذت كل منهما ، هى وأراخنى ، مكانها في أحد أركان الغرفة ، وبسطت كل منهما السدى في النول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف ، ثم فصلت الخيوط المشدودة إلى صفين بالدق الخاص بتحريك السدى ، ٤٠

- وأخذتا تقذفان الوشيجة [ المكوك المدبب ] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلق في الهواء وتنسجان به خيوط اللحمة عبر خيوط السدى ، وكلما امتد خيط عرضي اندفع المشط بأسنانه العديدة ليثبتته مكانه . وكانتا قد جمعتا ثيابهما بمنطقة فوق خصرهما ، بينما تخفى حركة أيديهما العجلى الإرهاق الذى تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز ، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان « صُور » البرونزية باللون الأرجوانى وبألوان أكثر قتامة يَتميّز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة ، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والتى تتقارب ظلّالها لتشكّل أخيراً ذلك التنوّع من الألوان الزاهية ، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تميّز الفاصل بين كل لونين لتمام تشابهها عند هذه الفواصل ، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها . وقد أضافتا إلى النسيج خيوط القصب وأخذتا فى رسم الأساطير على نسجتيهما .
- ورسمت باللاس فى نسجيتها صخرة مارس تعلو قلعة كيكرويس بأثينا والمباراة التى جرت قديماً لإطلاق اسم أثينا أو نبتون على هذه المدينة<sup>(٤)</sup> . وأجلست الآلهة الإثنى عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسطهم جوبيتر تحفّه مهابة الملوك ، بينما يتميز كل منهم بخصائصه ورموزه . وأظهرت باللاس ربّ البحار نبتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الصخر بحريته الطويلة ذات الشُعَب الثلاثة ، فانبثق الجواد الوحشى من بين الصخر آية استحقاقه تسمية المدينة باسمه . كذلك صوّرت باللاس نفسها فى النسجية مُمسكة بترسها ، حاملة رمحها الحاد واضعة خوذتها على رأسها ، مغطّية صدرها بزردها ، مثبتة شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذين بتلك المعجزة وهم يحملون معجبين ، كما صوّرت « ربة النصر » مكلّلة بها نسجيتها<sup>(٥)</sup> .

- وقد شاءت الإلهة إثارة الندم فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة ، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب ، فأضافت إلى النسجية صور مبارات أربع أخرى ، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية ، وجعلتها تميّز بألوان صارخة مع تصغير شخصوها : فصوّرت فى الركن الأول مباراة هايموس ورودوى من طراقيا ، وكانا من البشر وتسمّيا باسمى كبيرى الآلهة فتحولاً إلى جبلين<sup>(٦)</sup> . وفى ركن ثان صوّرت المصير التعس الذى لاقته ملكة الأقزام<sup>(٧)</sup> حين تحدّثت الآلهة جونو فأذبتّها وحولتها إلى طائر كركى وحكمت عليها أن تعلن الحرب على قومها<sup>(٨)</sup> . وفى الركن الثالث صوّرت باللاس أنتيجونى<sup>(٩)</sup> التى جرّوت على منافسة شريكة عرش جوبيتر العظيم فحولتها جونو إلى طائر دون أن يستطيع ردّ هذا القضاء عنها والدها لاوميدون ولا مدينتها طروادة ، وقد أنبت لها الإلهة جناحين فى ظهرها ناصعى البياض فأضحت طائر لقلق تققع بشقى منقارها زهواً . وفى الزاوية الأخيرة طرّزت باللاس صورة سنيراس<sup>(١٠)</sup> بعد فقدّه بناته محتضناً درجات سلّم المعبّد التى كانت فى الماضى أعضاء أجساد بناته ، وهويكى جائماً فوق الأحجار . وزيّنت باللاس حواف النسجية بأغصان الزيتون المجدولة رمز السلام ، وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها .

أما أراخنى فقد صوّرت فى نسجيتها أوروبا حين خدعها جوبيتر متخفياً فى هيئة ثور ، وجعلت الحياة تنبض فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الرائي أمواجاً حقيقية ، بينما استدارت أوروبا إلى الوراء نحو

الشاطيء الذى خلّفته وهى تصبح برفيقاتها وترفع قدميها فى براءة خوفاً من أن يبللها الماء المتدفق . كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه<sup>(١١)</sup> وقد قبض عليها النسر بمخالبه وأخذ مقاومتها ، كما صوّرت ليذا مضطجعة تحت جناحي طائر البجع ، وأضافت صورة أخرى لجويتر متخفياً فى هيئة ساتير ليُخصب أنتيوى الأميرة الجميلة ابنة نيكتيوس توأمين اثنين ، ثم متنكراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنك يا ملكة تيرينت ، ومتشكلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليغرى داناي ، وفى صورة السنة لب من أجل ابنة أسويوس ، وفى شكل راع من أجل منيموزينه ، وفى ثوب حية رقطاع من أجل بروميرينا ابنة سيريس ، كما صوّرتك أنت كذلك يا نيتون وقد تخفّيت فى هيئة ثور مفترس تغطى ابنة أيولوس العذراء ، ثم وأنت فى صورة إينيبيوس تضاجع زوجة أليوس وتولدها توأمين ، وكذا وأنت تخدع ابنة بيزاليس فى صورة كبش ، ثم وأنت فى صورة جواد تحنو على ربة الحصاد الخيرة ذات الشعر الذهبى ، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضاجع ميلاثو ، ثم فى هيئة طائر ثلث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعباني أم الجواد المجنح . وكما صوّرت الشخصيات بدقة كذلك صوّرت الأماكن تتفق والأحداث ، حيث نرى فويوس فى ثياب فلاح ثم فى ريش صقر تارة وفى جلد أسد تارة أخرى ، وفى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاريوس<sup>(١٢)</sup> ، كما نرى باكخوس يقتصب إريجونى خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب ، ثم ساتورنوس [ كرونوس ] بعد أن تحوّل إلى جواد لينجب خيرون ذا الطبيعة المزدوجة<sup>(١٣)</sup> . وقد طرزت أراخنى حوافى النسجية بزهور متشابكة مع أغصان لبلاب رخو .

١٢٠

لم تستطع باللاس ولا ربة الحسد أن تكتشفا عيياً فى نسجية أراخنى فتملّك الإلهة العذراء الشقراء غضب عارم لتفوّق منافستها ، فمزّقت النسجية التى تسجل نزوات الأرباب الأثمة ، ثم أمسكت بالوشيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس<sup>(١٤)</sup> وهوت بها مرات ثلاث على جبهة أراخنى ابنة إيدمون وأتبعتها بضربة رابعة . وضاق صدر أراخنى بهذا الفعل الميّن فلقت فى عنف حول عنقها جبلاً شنقت به نفسها ، ورأتها باللاس معلقة من عنقها فأشفقت عليها وقالت لها : فلتدومى حية ، ولكن معلقة فى الهواء إلى الأبد ، ولا تعقدى على أمل بعد ، إذ سيكون هذا مصير أبنائك وأحفادك من بعدك . ثم أخذت فى الابتعاد بعد أن نثرت على أراخنى عصارة عشب مقدس لهيكاتى ، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقيّة أطرافها وبرزت فى جنبها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها ، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منها الخيط . وها هى ذى تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل ، وإذا هى تصبح عنكبوتاً .

١٤٠

## نسيوي

أثار أهل ليديا نبأ هذا الحادث وأفزعههم ، ولم تلبث هذه المأساة أن بلغت أسماع الناس فى أنحاء فريچيا ، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله .

وكانت نبوى تعرف أراخنى منذ زمن طويل وتعيش قبل زواجها فى ميونيا على جبل سيبيلوس<sup>(١٥)</sup> ، غير أنها لم تتعظ بما حاق بأراخنى التى لم تكن تقدّس الإلهة حتّى التقديس . وقد جعلت هى الأخرى تتناول على الآلهة ، وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور ، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها ولا نبيل محتده ومحتدها ولا بقوة مملكتها وعظمتها بل كان تباهاها بكثرة أبنائها ، ولولا جهرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك . وذات يوم اندفعت إلى الطرقات مانتو ابنة تيريزياس التى كانت تتنبأ بالمستقبل يحدوها إلهام إلهى ، وأخذت تصيح : « يا نساء طيبة ، يا قاطنات شط نهر إيزمينوس ، توجن رءوسكن بالأكاليل ، ١٦٠ وتجمعن حول المحارب ، وقدمن القرابين وأحرقن البخور ، وتضرعن للربة لاتو وولديها الاثنين ، ذلك أمر إلهى أجرى على لسانى » . وخرجت نساء طيبة متوجات الرأس إلى المحارب المقدسة يقدمن القرابين ، ويحرقن البخور ، ويتضرعن للربة لاتو .

وأقبلت نبوى فى رهط من وصيفاتها ، مرتدية ثوبها الفريجى المنسوج من خيوط القصب الذى اجتذبت به كل الأنظر . وكانت وهى فى ثيابها الفاخرة رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جمالها ، تلقى برأسها إلى الوراء ، وتنسدل خصلات شعرها طليقة على كتفيها ، ووقفت منتصبه القامة تلقى بنظرة مترعة كبرياء وغضباً ، ثم صاحت : « ما هذا النزق ! ما لكنّ ولآلهة من السماء — سمعتن عنها ولم تشهدنها — تقدمن لها كل هذا التكريم الذى يفوق ما تقدمنه لمن ترونها يعيونهن . كيف تضرعن للربة لاتو أمام المحارب التى أقمتهن تكريماً لها ، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم ألوهيتى ؟ إن أبى تانتالوس هو وحده من بين البشر الذى أذن له بالجلوس على مائدة الآلهة ، وأمى شقيقة الهلياديس ، وجدى هو أطلس الجبار الذى يحمل قبة السماء على كتفيه ، وجدى الآخر هو جوبيتر الذى هو أيضاً والد زوجى . ثم إن شعوب فريجيا تدين لى بالولاء ، وأنا أحكم مع زوجى أمفيون المدينة التى تجمعت أجزاء أسوارها بسحر أنغام قيثاره زوجى<sup>(١٦)</sup> ، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكى ، وأينما خطوت فى دارى وقع طرفى على ثراء بغير حدود . ثم إننى بعد هذا جميلة جمال الإلهات ، ولى سبعة أبناء وسبع بنات ، وعماً قريب سيكون لى عددهم زوجات أبناء وأزواج بنات ، فهذا هو مجدى الذى أزهبه . أو تجرأن بعد ذلك على أن تفضلن على ابنة مارد يسمى كوريوس<sup>(١٧)</sup> ، تلك الربة لاتو التى تعرفن أن الأرض الفسيحة رفضت أن تمنحها رقعة ضئيلة لتكون لها مأوى حين أوشكت أن تضع جنينها . لقد نبذت السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التى تعبدونها حتى أشفقت عليها [ جزيرة ] ديلوس وقدمت لها مأواها قائلة : « إنك تضرين فى الأرض على غير هدى ، كما أضرب أنا فى البحار » ، ومنحتها الجزيرة مأوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأمين . ولقد أنجبت أنا سبعة أضعاف ما أنجبت ، فأنا سعيدة الحظ ، لا يمكن لأحد أن ينكر سعادتى ، وسأبقى سعيدة لا يملك أحد أن يشكك فى ذلك . إن وفرة النعم التى أحظى بها تمنحنى أماناً وتحمينى من غوائل ربة الحظ « فورتونا » ، فسيبقى لى دوماً أكثر مما تسلبنى ، وإننى أملك الكثير الذى لا يترك لى مجالاً للخوف . ولنفترض أنه انثزع منى بعض أولادى ، فإن أنا فقدتهم فسيبقى لى أكثر من مجموع أسرة لاتو التى لا تتميز ٢٠٠ عن المرأة العقيم إلّا قليلاً . ألا فلتكف عن تقديم هذه القرابين ، ولتخلعن عن رءوسكن هذه

الأكاليل . وأطاعت النساء فخلعن أكاليهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس ، وإن لم تستطع نبوي أن تحول بينهن وبين أن يهمن بالشكوى والتضرع للربة لاتو .

استبد الحنق بلاتو فوقفت على قمة جبل سيتتوس تستعدى ولديها أبوللو وديانا قائلة : « ها أنذا أمكما المزهوة بكما والتالية لچونو نفسها في المرتبة ، فيأتى اليوم من يثير الشك حول ألوهيتي . ها أنذا يا ولدتي أجد من ينتحني عن المحاريب التي عبدتنى فيها الأجيال إن لم تبادرا بتقديم العون لى . وليس ذلك وحده ما يثيرنى ، فقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كفرها بالمقدسات إهانتى حين جرؤت وأدعت بأن أسرتها تعلقو شأنًا عن أسرق واتهامى بأننى عقيم [ ألا فلتصبح هى العقيم ] . لقد كشفت عن كفرها بالمقدسات كأبيها . وانطلقت لاتو تتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أبوللو لها بقوله : « كفى ! فكلما أرخيت لنفسك في الشكوى عوقنا هذا عن المضى في توقيع العقاب عليها » وكانت أخته معه على هذا الرأى ، فأسرعا محلقين في الفضاء واختفيا في السحب حتى بلغا قلعة كادموس .

٢٢٠

وكان هناك سهل فسيح خارج الأسوار تدب فيه الخيل في حركة متصلة ، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور العربات العشب الأخضر النامى على سطح السهل ، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المظهمة المغطاة بأكسية من نسيج صور الأرجواني ويقبضون على أعنة الخيل الذهبية . وكان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نبوي يدور بجواده قابضاً عليه في ثقة حين ندت عنه صرخة مدوية بينما انغرس سهم في صدره ، فسقط مقود الفرس من بين يديه وهو يئن قائلاً « يا ويلته » ، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد حتى سقط على الأرض . وكان سيپيلوس الابن التالى قد سمع خشخشة جعبة سهام فاطلق العنان لجواده كما يفعل ربان السفينة حين يلمح سحب العاصفة فينشر أشرعته كلها حتى لا تفوته من الريح هبة .

٢٤٠

غير أن انطلاق سيپيلوس لم يمنع السهم من أن يصيبه في أعلى عنقه وينفذ من حلقة ، فيسقط من فوق جواده ويتقلب بين حوافره الحادة ويخضب الأرض بدمائه الدافئة . وكان فيديموس التعس وتانتالوس الذى ورث اسم جدّه قد ذهباً إلى رياضتهما اليومية التي يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنين جسديهما بالزيت حين أصابها سهم واحد اخترق صدرهما معاً وهما ملتصقان ، فأخذاً يثنان ألماً وسقطا على الأرض متعانقين ولفظا معاً نفسيهما الأخيرين . وحين رآهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما ، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبين الأمر حتى أصابه هو الآخر سهم انتزع قطعة من رثته فتدفقت من جسده الدماء . ولم يهلك داماسيختون الذى لا

٢٦٠

عهد لشعره بالمقص من جرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً في عضلة ساقه ، وبينما كان يحاول إخراج السهم باذلاً كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه في حلقة ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة . وأخيراً رفع إيليونيوس آخر الأشقاء ذراعيه إلى السماء محرّكاً شفثيه بتوسلات ذهبية أدراج الريح قائلاً : « أيتها الآلهة ناشدتكم جميعاً الرحمة بى » [ فقد كان يجهل عبث الابتهاال إليهم ] . وتأثر أبوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذى أصابه فجعل السهم رفيقاً قليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه .

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المنسابة من عيون الأقارب أبناء الكارثة المفاجئة إلى نبوي التي أذهلها أن يكون بين الآلهة من يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا

النحو ، وانتهت الكارثة بأمفيون وقد شهر سيفه وأغمده في قلبه ليكون الموت خاتمة لحزنه على أبنائه .

ويلاه . كم تغيرت نيوي بعد النكبة ! أهذه نيوي المغرورة التي كانت تفضّ الناس من حول محارب لاثو ، وتمضي مختالة وسط المدينة تشعل قلوب مواطنيها حقداً وضعيفة . لقد غدت موضع الرثاء حتى من خصومها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التي غشيها برد الموت وأخذت تقبلهم الواحد بعد الآخر ، ثم رفعت ذراعيها الشاحبتين إلى السماء وصاحت : « يحق لك أن تشمئ بي يا لاثو القاسية ، ولترو قلبك من ٢٨٠ دمعى ، افرحى ملء قلبك الوحشى ، فهذه الجنازات السبع ستوردنى إلى المحرقة مرات سبع . افرحى بنشوة النصر على غريمك ، ولكن ما إخالك انتصرت فهازلت رغم كل شقائى أكثر ثراء منك ، وحتى مع فقدى من فقدت من أبنائى فهازال عندى المزيد » .

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى سُمع هزيم وتر قوس فزع الجميع له عدا نيوي التي ضاعفت الكارثة من جسارتها . وكانت شقيقات الفتيان الموق واقفات أمام التعوش في ثياب الحداد بشعرهن المرسل على أكتافهن ، وإذا سهم يخترق أحشاء إحداهن ، وحين حاولت انزاعه انكفأت فاقدة الروح فوق جثة شقيقها ، وكانت ثانية تواسى أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفية تفقد معها القدرة على النطق وينحنى عودها وتموت مطبقة شفيتها . وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكها . وبينما احتمت شقيقة بأختها أدركها الموت معاً ، وأخذت أخرى تحتضر مرتعشة . ومزقت نيوي ثوبها بعد موت ستة من بناتها وحاولت حماية ابنتها السابعة بجسدها وصاحت : « فلتبقى لى واحدة هى صغرى بناتى اللاتى فقدتهن ، دعى لى هذه الصغرى فهى واحدة فحسب » . غير أن ابنتها الباقية أخذها الرضى قبل أن تفرغ نيوي من توسلاتها . وحين أصبحت نيوي وحيدة تحيطها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالها الحزن إلى حجر ، ولم يعد النسيم ٣٠٠ يحرك شعرها ، واختفى الدم من وجهها الذى فقد لونه ، ولم تعد ذراعها ولا ساقاها تتحركان ، وجدت عينها فى محجريها ، والتصق لسانها بحلقها ، وانغلق فمها صمماً ، وتوقف النبض فى عودها ، وكذا تجمدت أعضاؤها ، غير أن دموعها بقيت تجري كما كانت . وهبّ إعصار عنيف فحملها إلى موطنها<sup>(١٨)</sup> حيث حطت فوق قمة جبل وأخذ الماء يتدفق منها . وماتزال هذه الكتلة من الرخام تسكب الدموع حتى اليوم .

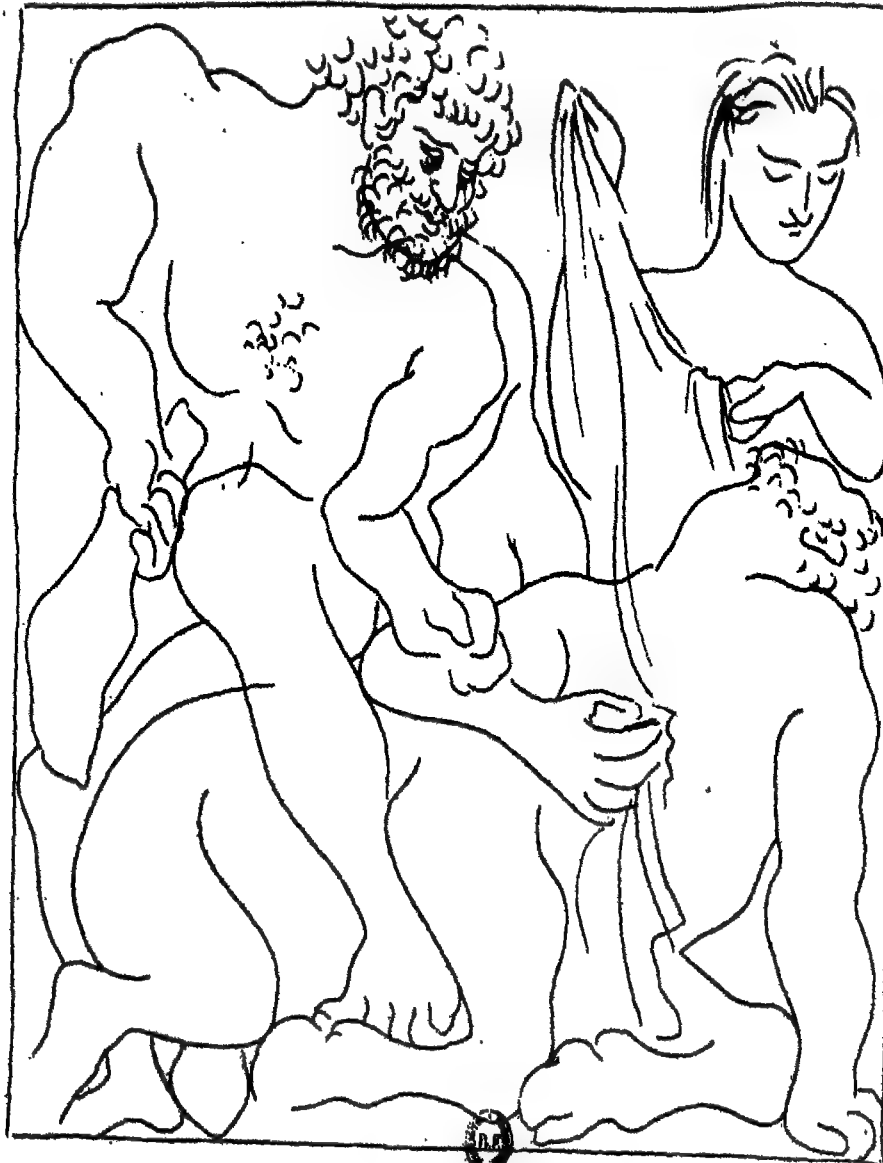
## فلاحو ليكيا

وأصيب الرجال والنساء بالذعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتوأم التوأمين ، وأخذت هذه الحادثة تُحصى على ألسنتهم أقاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أنسوها . وحكى أحدهم : « كان يحيا فى قديم الزمان على أرض ليكيا الخصبة جماعة من الفلاحين الذين لم يقدموا للإلهة ما هى جديرة به من تكريم ، مثلهم فى ذلك مثل نيوي فنالوا هم الآخرون جزاءهم . وقد بقيت قصتهم رغم

غرابتها مجهولة إلا من قليل من الناس ، ولعل سبب ذلك هو ضعة أصل أبطالها . غير أنى كنت قد ذهبت إلى المستنقع الذى حدثت عنده المعجزة يوم طعن أبى فى السن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهد إلى باجتلاب بعض الأبقار المنتقة من تلك البلاد ، واختار لى قبل الرحيل دليلاً من أهلها ، وقد وقع بصرى فى أثناء مسيرى خلال المراعى بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة ، نبتت حوله أعواد الغاب التى علاها السواد المنبعث من دخان النيران التى كانت تُشعل منذ القدم لطهى القرابين الذبيحة ، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات : « هلا رحمتى » فانبرت أردد همسه متعجباً ، ثم سأله عما إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [ بان ] إله الغاب أم لغيره من آله المنطقة فروى لى دليل القصة التالية :

لم يُشيد هذا المحراب من أجل إله من آله الجبال أيها الفتى ، وإنما أقيم من أجل الإلهة التى منعتها جونوزوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة ، ثم أشفقت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيوائها . وحين بلغت لاتو استندت إلى جذع نخلة وأعانتها شجرة زيتون الربة بالاس على وضع طفلها التوأمين رغم كيد جونوزوجة أبيهما . ولم يكد الطفلان يخرجان للحياة حتى أكرهت جونو الغاضبة لاتو على ترك ماواها حاملة طفلها الإلهين على صدرها . وانتهى الأمر بلاتو أن وجدت نفسها تتجول فى بلاد ليسيا موطن الخياير<sup>(١٩)</sup> ، حيث الشمس تحرق الحقل بأشعتها اللافتة وقد أنهكتها حرارتها وطول المرحلة وأحسّت بالظما هى وطفلها اللذان كانا يسكان ثدييها ويمتصانها فى لهفة إلى آخر قطرة فيها . وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادى كان على مقربة منها جماعة من الفلاحين يجمعون أعواد الغاب والسعدى الغزيرة النمو فى مياه المستنقع . وحين اقتربت من البركة وانحنت عليها لتروى ظمأها من مائها الندى حاول الفلاحون منعها فلم ترض الإلهة منهم ذلك وقالت لهم محتجة : « كيف تمنعوننى أن أردّ هذا الماء وورود الماء حقّ للجميع ؟ وما شاءت الطبيعة أن تخص واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية . لقد جئت لأستمتع بخير هو للجميع ، ومع ذلك فهأنذا أركع متوسلة إليكم أن تمنحون شيئاً من الماء ، فلست أطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافى المرهقة فى هذه البركة ، وكل ما أرجوه هو إطفاء ظمئى ، فقد جفّ حلقى حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوتى ينطلق من حنجرتى ، ولسوف تكون جرعة الماء عندى بمثابة « النكتار » الإلهى ولسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتى ، ولتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدان أيديهما هما الآخرين متوسلين لكم ؟ [ وكان الطفلان قد مدّا بالفعل ذراعيهما ] . ومن ذا الذى لا تؤثر فيه توسلات الإلهة ؟ ومع ذلك بقى الفلاحون رغم توسلاتها متمسكين بمنعها عن الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على الخروج من المنطقة ، وكالوا لها الكثير من السباب ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يعبثون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة ، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من حب للأذى . عندها غلب غضب لاتو عطشها ، ولم تعد راغبة مع سورة غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا رفق عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما ، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت بهم قائلة : « إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا

المستنقع . واستجابت السماء لدعائها ، وإذا الفلاحون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم  
الطفو على سطحه ، أو إخراج الرأس أو القفز حول الشط . ومع بقاء ألسنتهم سليطة اخشوشنت أصواتهم  
وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التي أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رؤوسهم بأكتافهم ،  
واخضر لون ظهورهم بينما ابيضت بطونهم التي صارت أكبر أجزاء أجسادهم ، وتحولوا إلى ضفادع تقفز  
حول المستنقع المليء بالأوحال (٢٠) .



بيكاسو: أبولو يسلخ مارسيا

## مارسياس وپيلويس

وإذ انتهى الراوى - الذى أجهل اسمه - من سرد أحداث هذه الكارثة التى حاقت بأهل ليكيا ، بدأ راوٍ آخر يسرد قصة « الساتير » الذى أودى به مزمارة منيرفا ذو القصببات<sup>(٢١)</sup> وعاقبه ابن لاتو [ بسلخه حياً ] فصاح به مارسيا : « لماذا تنتزعنى من سِلْخى ؟ كم أنا نادم على ما كان ، وهل تساوى هذه المنافسة فى نفخ المزمارة هذا كله ! » . وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرّى لحمه وأخذ ينزف دماً ، وتبدّت عضلاته عارية للأعين كما ظهرت العروق نابضة بالدماء ، وانكشفت جميع أعضائه الداخلية وهى تحفّق حتى بات من اليسير إحصاؤها ، وتخلل الضوء رثتيه ، وحزن عليه جان الغاب وأخوته الساتير والخوريات بل وأوليمپوس نفسه الذى ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه ، وجميع رعاة الأغنام والأبقار . وارتوت الأرض الخصبة من الدموع التى سالت عليها فتشربتها حتى تفجّر من باطنها نبع تنبثق مياهه عالية فى الهواء ، ثم يهوى فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفق منحدرأ بين شاطئيه حتى يصب فى البحر المضطرب الموج . وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياص أصفى أنهار فريجيّا . ٤٠٠

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها . ويروى البعض أن واحداً فقط من الرجال قد ذرف دونه غيره الدمع من أجلها . وكان هذا الرجل هو پيلويس الذى انتحب وشقّ ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذى صنّعه الآلهة من عاج ، يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها فجمعتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً ، عدا تلك العظمة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع ، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلويس ، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده .

## پروكنى وفيلوميل

وكان أن طالب سكان المدن القريبة حكاهم بالتوجه إلى طيبة لتقديم العزاء ، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكنائى موطن أسرة پيلويس ، وكاليدون التى أثارت فيها بعد حقد ديانا القاسية ، وأورخومينوس الخصبة وكورنث الغنية بالبرونز ، وميسينى الجبارة وباتراس وكليونائى المقهورة وپيلوس مدينة نيلبوس ، وترويزن التى لم تكن قد خضعت بعد لپيثوس ، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحرّين ، والمدن التى عند البرزخ . وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التى تتخلّف عن المجيء ، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب ، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر ٤٢٠

تحاصر أسوارها وتلقى الرعب في قلوب أهلها ، حتى خف لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه .

وما إن اطمأن پانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وقوته وانحداره من سلالة الإله مارس الجبار حتى زوجة من ابنته ، غير أن ربات الحسن وهيمين [ إله الزواج ] وچونوالموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفلة الزفاف ، بينما أضاءت الصافحات [ ربات الانتقام ] طريق العروسين بمشاعل سرقتها من موكب جنازى ، ثم هيآن مخدع العرس . وأقبلت البومة المشئومة فحوت حول الدار وحطت فوق سطح حجرة العرس ، وهكذا حل الشؤم عندما زُفت بروكنى إلى تيريوس وأصبحت أبوين .

وابتهجت طراقيا - التى لم تكن تدرى بعد ما يتهدها - ، ورفع مليكها الشكر للآلهة ، وغدا يوم بناء ابنة پانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد ابنها إيتيس عطلة رسمية . ألا ما أكثر ما يغفل الناس عما سيحيق بهم ! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت بروكنى زوجها متلطفة : « إن كنت تحبني حقاً دعنى أمضى لأرى شقيقتي ، وإلا فجيء بها إلى هنا وعدّ أبى بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها ، فلسوف تكون رؤيتي فيلوميلا خير ما تهديه لى » .

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يحركها الشراع والمجداف ، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكرويس [ أثينا ] ونزل على شاطئ پيرايوس . وحينما دخل على حميه الملك وحياً أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله وأخبره حديث زوجته ووعداها بأن غيبة شقيقة زوجته لن تطول إن أذن لها بزيارتها . عندها ظهرت فيلوميلا بجهاها الأسر مرتدية ثوباً فاخراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغابات ، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة في جسده واضطربت في فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو مخازن التبن . والحق إن جمال فيلوميلا كان أخاذاً ، وضاعف من نزوة تيريوس فرط هذا الجمال ، فهو من بلدة يتميز أهلها بالضعف أمام إغراء متع فينوس . وقد خطر بباله - خلال لهفته - أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادمتها الخاصة فيستعين بها كي تساعد في إغوائها بهداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها ، أو من يدرى فلعلها تيسر له اختطافها والنزوح بها بعيداً ، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية ، وهو المتأهب دائماً لسحق أى شيء يعترض طريق رغباته الجامحة . وأحس أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجج فيه من لهيب ، وأحس من فرط لهفته تباطؤ الزمن ، وراح يكرر خلال حديثه رسالة زوجته ملحفاً في الرجاء على أنه رجاء زوجته وقد أكسبه الحب طلاقة لسان . وكان كلما تخطى في حديثه الحدود اعتذر بأن تلك هى إرادة زوجته بروكنى ، وشفع حديثه بالدموع وكان امرأته قد أوحى إليه بذلك . أيتها الآلهة ، ما أشد ما يعمى البشر ، لقد خال القوم في إلحاحه الذى مكّنه من تحقيق خطته الشريرة لونا من الوفاء لزوجته فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن فى الواقع إلا جُرماً . على أن فيلوميلا كانت هى الأخرى تشاركه اللهفة ، وحين رآها تعانق أباهاً مداعبة وتلفّ عنقه بذراعيها وتغمره بقبلاتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها ،

٤٨٠ أخذ يتخيلها وكأنها تحتضنه هو وتقبله فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى أنه تمنى لو كان هو الوالد في هذا الموقف . ولو أنه كان والدها ما كان إثمه يُرى على ما اقترفه بعد ذلك<sup>(٢٣)</sup> . وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمر الفرح فيلوميلاً فشكرت أباه ، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هي وأختها ، بينما كان مقدرًا لهذا القرار أن يودى بها معاً .

ومالت الشمس نحو المغيب حيث كانت جيادها تجرّ مركبتها على منحدرات الشفق ، ونُصبت الموائد الملكية ، وامتلات الكؤوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون في نهاية الحفل ليستسلموا لنوم هادئ ، عدا ملك طراقيا الذي بقى مؤرق الجفنين في فراشه مصاباً بحمى حبه للأميرة ، مستعرضاً في ذاكرته طلعتها ولفلتاتها وذراعيها ، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها .

٥٠٠ وحينما انبلج نور الفجر ، وتأهب تيروس للرحيل شدّ پانديون على كَفِّه داعم العينين موصياً إياه برعاية رفيقته في السفر بقوله : « بنى العزيز ، لقد كان لرجائك الحارّلى ما لم يدع أمامى فرصة للخيار ، وهأنذا أعهد إليك بابنتى استجابة لرغبتها ولرغبتك ، وإن مستحلفك بشرفك ويحقّ الآلهة وبُحُرمة ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية أوالد ، وأن تعيدها لى فى أسرع وقت ممكن ، فهذه الفتاة الغالية هى مبعث بهجتي أيام شيخوختى ، وسوف تطول ساعات غيابها على نفسى . وأنت يا فيلو ميلا عَجَلْ بعودتك إلى إن كنت تحببني ، وكفاني بُعد شقيقتك عني » . ثم ختم وصاياه وقبّل ابنته قبلة الوداع باكياً فى صمت وضَمَّ يدها بيديه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد ، وحملها تحياته لابنته الغالية وحفيده الصغير ، وخنقت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تبين واختلطت أفكاره بنذير طالع مشوم .

ولم تكد السفينة المزدانة بمختلف الألوان تبتعد عن الشاطئء حاملة فيلوميلاً على سطحها حتى صاح الملك تيروس : « يا للنصر الذى حققته ، ها أنا ذا أحمل معى تلك الفتاة التى طمعت فيها » ، وجعله إحساسه بالزهو يضيق بانتظار أفراحه ، ولم يستطع هذا الملك المهمجى أن يرفع عينيه عن غنيمته ، شأن النسر القابض بمخالبه على أرنب برّى يودعه وكره العالى ، ومضى القناص يحملق بعينه فى فريسته التى سُدّت أمامها منافذ الفرار .

٥٢٠ وأنت السفينة رحلتها ، ونزل الملاحون إلى شاطئء وطنهم منهكين ، وأسرع الملك باقتياد ابنة پانديون إلى حظيرة تحيط بها أسوار عالية تخفيها عن الأنظار وسط غابة عتيقة حيث حبسها هناك . وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الذعر وشحب وجهها وتولتها الرعدة وهى تتوقع أن تحل بها المأسى ، ولكن تيروس لم يحدثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدنسة ، ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فأخذت تستغيث ولا مغيث صارخة باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة وترعد خوفاً رعدة حمل صغير أنترع من بين أنياب الذئب ذى الفروة الداكنة ودمه لا يزال ينزف وهو غير مصدق أنه بات بمأمن ، أو كاليامة رأت على ريشها دماً فغشياها الخوف وتزايد هلعها من الشرك الذى كان محدقاً بها . وحينما عاد إليها رشدها بعد قليل جعلت تمزق شعرها المنفوش وتضرب يديها على صدرها كالمعولة على فقد

عزيز ، ثم مدت يديها صائحة فيه : « أيها الهجومي ، هل بعد هذا ذنب لم تقتطفه أيها الوحش ، ألم تهز مشاعرك وصايا أبي التي بثك إياها دامعاً وهو يسلمني إليك لأرحل معك ، ألا تشغلك ذكرى شقيقتي ولا عُذرتي ولا روابط الزوجية . لقد كفرت بكل شيء ، وها نحن أصبحنا : أنا ضرة لشقيقتي ، وأنت زوج لشقيقتين ، وإنني لجديرة بالعقاب بعد أن غدوت أئمة في حق أختي . لماذا لا تسلبني الحياة أيضاً لتتم بذلك جرميتك ؟ كم أتمنى لو أنك قضيت عليّ قبل إقدامك على اغتصابي الذي جعلني حظية لك ، إذن ٥٤٠

لذهبت إلى عالم الأرواح بلا خطيئة . وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً ، فلن يضيع شيء عبثاً كما ضاعت عفتي ، فلسوف تدفع ثمن فعلتك يوماً طال الزمن أو قصر ، ولسوف أخلع عني إزار الحياء وأشهر بفعلتك أمام الملأ ، ولو أن الفرصة واثنتي يوماً لتقدمت إلى شعبك ورويت عليه قصتي معك . أما إذا أبقيتني سجينة في هذه الغابة فلسوف أملؤها صراخاً حتى أستدر عطف صخورها التي شهدت إذلالتي ، وحتى تسمع السموات صيحاتي وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً ، أو إن كان قد شهد هذا واحد منهم » .

وأثارت كلماتها غضب الطاغية الفظ وملأته خوفاً لا يقل عن غضبه ، فأخرج سيفه من غمده المعلق في خاصرته وأمسك بشعر فريسته ولوى ذراعيها في عنف خلف ظهرها . ورأت فيلوميلا السيف فازدادت أملاً في الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها وهي لا تكف عن لعنه والاشمئزاز منه دون أن تسعفها الكلمات ، فإذا هو يمسك لسانها بمقبض ثم يهوى عليه بالسيف فيشطره ، وإذا الشطر الباقي يرتجف في حلقتها على حين كان شطره المبتور يتلوى فوق الأرض الداكنة كما يتلوى ذيل ثعبان بُتر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قوية ، وكأنه شاء أن يلحق بقدمي صاحبتة قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد . ولقد قيل – ٥٦٠

وإن كنت لا أستطيع تصديق ما قيل – إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث البشع يصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوه فواقعه مرات ثلاثاً أو أربع . ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالي بما كان فيعود إلى زوجته وروكني يحكي لها حين سأله عن أختها قصة مُلَفِّقة يدعى فيها وفاتها متظاهراً بالحزن والأسى حتى أنفع بدموعه الحاضرين . فمزقت بروكني ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف من فوق كتفها وارتدت ثوباً أسود ، وشيدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدّم عنده القرايين لروح فقيد لم يمت بعد ، وتبكي مصير أختها التّيس وما قاسته من عذاب قبل موتها ، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً .

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثني عشر . تُرى ما الذي كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله ؟ لقد كانت تحت حراسة قوية تمنعها من الهرب ، وكانت الجدران المحيطة بالخطيرة عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلبة ، وكانت شفتاها الخرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها ، غير أن الحزن والألم قد شحذا عبقريتها ، والحاجة تفتق الحيلة ، فجلست إلى نول بدائي نسقت عليه الخيوط بدهاء ، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حمراء ، ثم أسلمتها حين أنهتها إلى ٥٨٠

خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة . ونفذت الخادمة ما أمرت به ، وسلّمت النسجية إلى بروكني دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة ما فيها . وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجية حتى طالعت

فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشؤمة ، فلم تنبس بينت شفة ويدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه ، إلا أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام ، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسى ما يكشف عن شقائها ، وتماسكت حتى لا يضيع الوقت في ذرف الدموع ، لكنها عادت تفكر في خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بقوانين الخير والشر .

وخلال الأعياد الكبرى التي تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام تمجيداً للإله باكخوس يؤدين فيها طقوسه السرية تحت ستار ظلمة الليل فيضجّ جبل رودوبي بقرع الصنوج ، خلّفت الملكة قصرها متأهبة لأداء طقوس تكريم الإله ، حاملة معها الصولجان الذي كان يُلَوَّح به أثناء شعائر العريضة ، متوّجة رأسها بإكليل من أوراق الكروم ، مسدلة على جنبها الأيسر جلد وعل ، معلقة رمحاً دقيقاً على كتفها . ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها ، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون ، متظاهرة بأن شيئاً لم يبعث الاضطراب في أعماقها غيرك أنت يا باكخوس ، إلى أن بلغت الحظيرة فحطمت رفيقاتها بأبها وسط ضجيج الاحتفلات بباكخوس وصراخهن ، واصطحبت بروكني أختها وألبستها ثياب إحدى المحتفلات بباكخوس ، وغطت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المدهولة إلى القصر .

٦٠٠ ولم تكذ فيلوميلا تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموت ، غير أن بروكني بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوّقتها بذراعيها ، فلم تقو فيلوميلا على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعيني أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها ، ورنّت ببصرها نحو الأرض ، وعبرت إيماءاتها عما لم يستطع صوتها البوح به ، فقد كانت ملهوفة إلى القسم بالآلهة بأن العار الذي لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً . واحتدم غضب بروكني وأوقفت نحيب أختها بقولها : « ليس ثمة وقت للدموع ، بل للسيوف أو لما هو أَمْضى إن كان لديك مثل هذا السلاح ، فقد بُتّ منهية للانتقام على أية صورة كان هذا الانتقام يا أختاه . فإما أن أشعل النار العاتية في القصر حتى يحاصر لهيبها تيروس المخادع من كل جانب ، وإما أن أقطع لسانه أو أفقأ عينه أو أجبّ عضوه الذي سلبك شرفك ، أو أجعل روحه الأثمة تخرج من جسده عبر ألف جرح غائر . نعم ، يجب أن نعدّ العدة للانتقام رهيب ، بيد أني مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير » .

٦٢٠ وبينما كانت بروكني مسترسلة في التعبير عما يحتمد في وجدانها آتبل عليها إبنا إيتيس فأوحت لها رؤيته بالانتقام الذي يمكن أن تقدم عليه ، فتطلّعت إليه بعينين يفتقدان الحنان متممة « كم يشبه أباه ! » ولم تزد على ذلك . وغلا الغضب الصامت في صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب ، غير أن ابنها اقترب منها وطوّق عنقها بذراعيه الدقيقتين وقبلها وهو يثرثر في رقة هزّت فيها مشاعر الأمومة ، فزايها غضبها وترقرت عيناها ، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام فتركته والتفتت نحو أختها . وعلى حين كانت تنتقل ببصرها بين طفلها وأختها أخذت تعتف نفسها قائلة : « أنى لهذا الطفل أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات الرقيقة التي تعجز عن مثلها هذه الأخت المبتورة اللسان ، وكيف له يدعوني يا أماء وهي

لا تستطيع أن تدعوني يا أختاه ! تأملّي يا إبنة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت ، إنك لا شك تأثمين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيريوس ؟ » .

- ٦٤٠ ولم تتلبّث پروكنى بل أخذت إيتيس من يده وذهبت به إلى مكان قصى من القصر الفسيح كما تجرّ النّمر الطّيب الرضيع بشواطىء نهر الجنج خلال الغابة الكثيفة ، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به فمدّ يديه صارخاً « أماه ! » وحاول أن يلف عنقها بذراعيه ، لكنها أغمدت السيف في جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه . ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخاد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقه ، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التي كانت ما تزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء ، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسلقتا بعضه وشوتا البعض الآخر على السّياخ ، ثم دعت پروكنى زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضى بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة . فجلس تيريوس والتهم ما بين يديه ، وما خال إنه يأكل فلذة كبده . وبعد أن فرغ من طعامه التفت لزوجته قائلاً : « أين إيتيس ولدنا ؟ » . عندها لم تستطع پروكنى أن تخفى فعلتها النكراء ولا أن تردّد لهفتها لأن تكون أول من يُفّضى إليه نبأ هذه الضحية التي ذبحتها ، وإذا هي تقول له : « إن من تطلبه ليلقاك قد استقرّ في جوفك » . وإذا هو يحيل بصره فيما حوله ويسأل : « أين ابني ؟ » ، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهوّل إلى القاعة بهيئتها الرثّة وشعرها الأشعث الذي خضبته دماء الطفل ، وكانت قد شاركت في قتله ، وإذا هي تلقى برأس إيتيس بين يدي أبيه . ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها في التعبير عما تكنّ أمتع من تلك اللحظة . وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقي مائدة الطعام واستغاث بالشقيقات الغافيات في أعماق نهر ستيكس ذوات الرعوس الشعبانية ، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُستمرأ ، وانطلق ينوح منهاراً ، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التعس ، وتارة أخرى يطارد ابنتى پانديون شاهراً سيفه العارى عن غمده ، غير أنهما كانا في سرعتهما أشبه بطائرين مجنّحين بعد أن نبتت لهما أجنحة ، فحلّقت إحداهما هاربة صوب الغابات ، بينما تعلّقت الأخرى بطنف الحجرة وماتزال آثار الذبيحة عالقة بصدرها ، إذ كان ريشها أحمر مخضباً بالدماء المُرّاق (٢٤) . وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطّشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرف ويمتد في فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف ، وهو الطائر الذي سُمّي بالدههد والذي يبدو وكأنه قد ارتدى عُدة القتال .

## بورياس وزيتيس وكالايديس

وحينما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه في ظلمات تارتاروس قبل أن يحين أجله الذي كان مُقدّراً له .

٦٨٠ وحمل إيرينثيوس صولجان پانديون من بغده وانتقل إليه حكم البلاد ، وكان بعدالته وبراعته في استخدام السلاح قوياً مرهوباً ، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عدا ، وقد تميّزت من بناته اثنتان بالجمال ، سعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس ، ووقع بورياس في حب الثانية التي كانت تسمى أوريشيا ، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودها عبثاً وكان ينبغي أن ينجح في إقناعها باللين لا بالقوة ، غير أن ذكرى بنى وطنه الطرايين وبخاصة ملكهم تيريوس بقيت عقبة في سبيل زواجه . وحينما لم يُجده تودّده إليها ولم يحقق له مأرباً تملكته عاصفة من الغضب الذي كان سريع الوقوع في أسره لسبب أو لآخر ، فناجى نفسه قائلاً « إن سلوكي جدير بهذا الصّد . كان الأولى بي أن أستخدم أسلحتي وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد ، وما كان لي أن أتشفّع بالرجاء الذي ليس من طبيعتي . العنف شيمتي ، به أستطيع أن أبدد السحب الكثيفة وبه أشيع الاضطراب في البحر ، وأحطم أضخم أشجار البلوط ، وأحفظ الثلوج جامدة ، وأجلد الأرض بسوط من البرد . وحينما أنازل إخوت في الفضاء الكوني [ الذي يمثّل حليتي ] يمتلئ الجو بصخب عراكنا ويومض البرق من بين أعماق السحب . وحين أدخل الكهوف المقدسة في أعماق الأرض وأدفع بظهرى أدنى قبابها يهتزّ الكون كله ويشيع الاضطراب حتى بين أرواح الموق وفي أرجاء عالم الأحياء ، لقد كان على أن أطلب يد الأميرة لا رجاء واستعطافاً بل بقسر إيرينثيوس على أن يصبح صهراً لي . »

٧٠٠ وبهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيه ليشقّ بهما طريقه في الهواء ، وسرعان ما جعل خفقان جناحيه الرياح تعصف فوق الأرض كلها وتبعث الاضطراب في مياه البحر . ونشر فوق قمم الجبال عباءته محمّلة بالغبار ، ثم اندفع نحو الأرض مختفياً في غيمة ، وأطبق ظلام جناحيه على أوريشيا التي تملكها الفزع ، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثار نيران لهفته ، فأسرع مطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمته أسوار المدينة التي يقطنها شعب الكيكونيس<sup>(٢٥)</sup> . وفي هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا المستبد البارد المشاعر ، وحملت منه فأنجبت له توأمين من الذكور هما كالايس وزيتيس<sup>(٢٦)</sup> وكانا يشبهان أمهما في كل شيء عدا أنه كان لهما جناحان مثل أبيهما . على أنها لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقى كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يشبّا عن الطوق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضراً . وحينما بدأ الزغب الأشقر يغشى ذقنيهما بدأ الريش في الوقت نفسه ينبت فوق كتفيهما وكأنهما طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضموا إلى أهل مينياس<sup>(٢٧)</sup> في الطواف بالبحار المجهولة في أول سفينة شيّدت للبحث عن الفروة الذهبية .

# التعقيبات

- (١) هي فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين في آسيا بين أزمير وكوماي .
- (٢) تيمولوس اسم في ليديا يفصل بين حوضي نهر هرموس وكايستر .
- (٣) باكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التي تفيض بالذهب .
- (٤) صخرة مارس « أريس » هي الأريوبايجوس ، ذلك التل القريب من أكروبول أثينا الذي كان قلعة كيكروبس ، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين أثينا وبوزيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة . وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق ، فنحتها فيدياس على الجبين المثلث الغربي للبارثينون .
- (٥) يعد معبد الإريخيوم على جبل الأكروبول تسجيلاً لهذين الحداث الأسطوريين يتمثل في احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المعجز الذي روى الرواة أنه قد احترق عندما دمر خشبائشا [ خاشيار شاه أو خشاياترا أو أكسر كسيس عند اليونان ] الأكروبول ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين . وثمة حفرة في الصخر أسفل البوابة الشمالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح بوزيدون .
- (٦) هما أخ وأخت تسميا باسم چويتير وچونو فمسخا جبلين عقاباً لهما .
- (٧) هي چيرانا ملكة شعب من الأقزام يفطنون أعلى النيل ألهمها شعبها مما أثار غضب چونو وديانا فحولتها چونو إلى طائر كركي .
- (٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت في حرب مستمرة مع الطيور الكبيرة الحجم وخاصة طائر الكركي .
- (٩) كانت أنتيجوني [ وهي غير أنتيجوني ابنة أوديب ] ابنة لاووميديون ملك طروادة ، وكانت — مثل رودوبي وچيرانا — قد أثارت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يزرى بجمال شعر چونو .
- (١٠) كان سنيراس ملك پافوس في قبرص وكاهناً لأفروديتي في الوقت نفسه ، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير ، وقيل إنه أبو أدونيس . أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحولتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلم معبدها [ انظر الكتاب العاشر ] .
- (١١) إبنة كيوس أحد العمالقة وفويي إبنة إلهة الأرض ، وقد أحبها چويتير وتنفى في صورة نسر ليضاجعها ، فلما أغضبته حولها إلى طائر السمان .
- (١٢) أنجب مكارئوس ابن أيولوس بنتا هي أمفيسا أو إيسيه التي أحبها أبوللو ، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفي .

(١٣) يعود السرقى جمع القنطور بين جسد الحصان وصدر الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذى يسميه الرومان ساتورنوس كان يحون زوجته ريا مع فيليرا ابنة أوقيانوس ، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوماً تخفى كرونوس فى شكل حصان ليفلت منها ، الأمر الذى أدى إلى ظهور هذه الطليعة المزدوجة فى ابنة أخيرين .

(١٤) اسمه الحديث كودروس وهو اسم مدينة وجبل فى جالاطيا بالاناضول .

(١٥) سيلوس جبل مشهور شمال أرمير فى آسيا الصغرى .

(١٦) كان ثالتلوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نيوى . وكان قد استقبل الألهة على مائدته ولكنه قدم لهم ابنة أيتلوس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه وألقوا به إلى العالم السفلى . وكانت أم نيوى هى ديونى ابنة أطلس التى كانت قد تزوجت من أنغيون وهو ابن زيوس من أنتيوى وقد اشتهر بأنه شديد استوار طيبة بالعرف على قيثارته كناية عن براعته فى العزف .

(١٧) كانت كايو ابنة المارد كوريس الذى كان أقل شهرة من أخويه هيريون ونيبتوس .

(١٨) على سفح جبل سيليلوس فى ليديا صنخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نيوى . وأغلب الظن أن أوفيد استوحى الوصف الذى ذكره من أحد المجموعات المنحوتة التى تصور بنت نيوى المنعزلة إلى براكسييليس أو سكويانس . ويقال إن هذا التمثال كان قد نقل إلى روما منذ عهد قريب [ بالسنة لأوفيد ] ووضع فى معبد أبوللو فوق تل بالاتيوس .

(١٩) الحيايز وحش مشهور له رؤوس ثلاثة أحدها لاسد والثانى لجدى والثالث لثور ، وثقت ثلاثها لها ، وقد ولد هذا الوحش من إخذنا وتيفون .

(٢٠) تروى الأسطورة أنه بعد ذلك توجهت الإلهة يرافقها بعض الذئاب « ليكوى باليونانية Lykoi » إلى نهر زانثوس حيث استطاعت أن تروى ظمأها وتغتسل هى وابناها . وتكريماً لمرافقها سميت المنطقة ليكيا .

(٢١) تروى الأسطورة أن أثينا [ منيرفا ] هى التى اخترعت المزمارة المزدوج التى صنعتها من غاب بحيرة تريتون . فسخرت منها كل من هيرا وأفروديتى ، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمارة وتأملت نفسها على سطح مياه أحد يتابع إندا أصاب وجهها التشويه فحققت لذلك ، وألقت بالمزمارة إلى الأرض مقسمة بأن من يلتقطه سيناله شر العذاب . وحدث أن التقطه ساتير اسمه مارسياس برع فى النفخ فيه إلى درجة تحدى معها أبوللو فاقبعت بينهما مباراة ظفر فيها أبوللو بجائزة ربات الفنون فى عزف القيثارة . فأمر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه . وكان أوليمپوس أحد رفاق مارسياس الأوفياء هو الذى جمع ما تبقى من أشلائه ودفنها . أما نهر مارسياس فهو من روافد نهر مياندر .

(٢٢) انظر الكتاب الثامن .

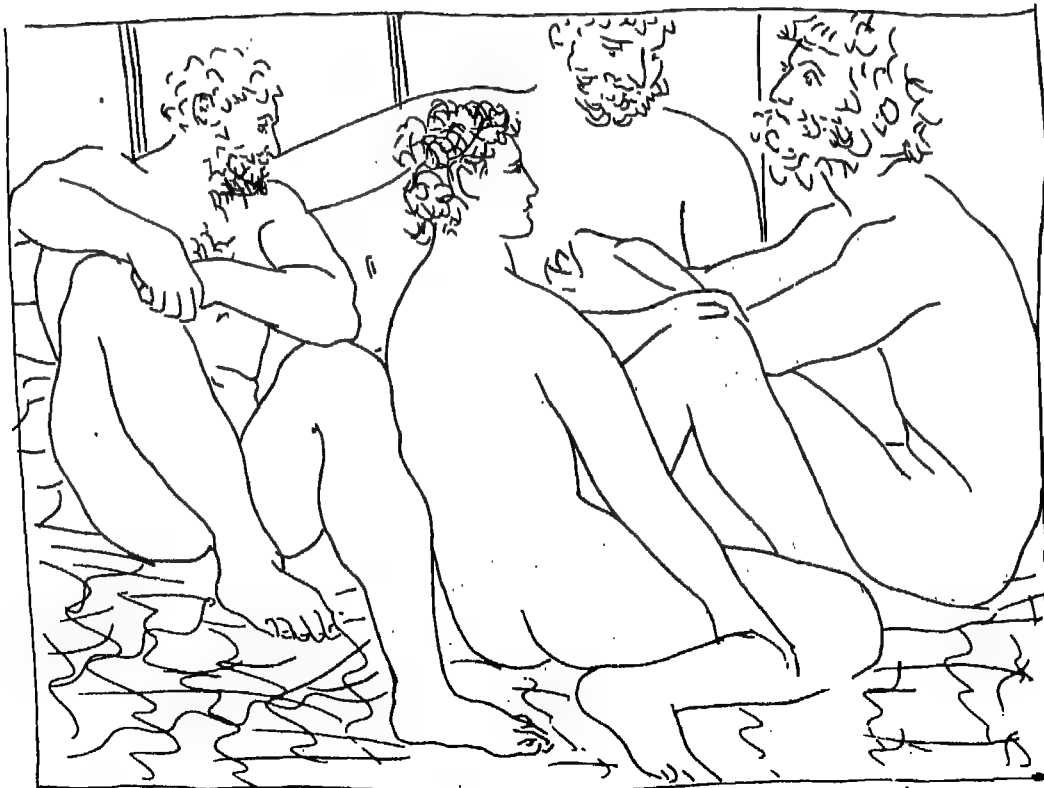
(٢٣) أى أن إثم عشق الأب لابنته ليس أبشع فى نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته .

(٢٤) مسخت فيلوميلا بلبلا ، فى حين مسخت پروكتي عصفور جنة يكسو صدره الاحمرار .

(٢٥) الكيكوريس من سكان طراقيا وقد أغار عليهم أوديسيوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم فى صف بريام ملك طروادة ضد الأخيين .

(٢٦) كان كالايس وريتن من بين بخارة الأرجو ، ويرجع الفضل لهما فى تخليص فيتيوس من طيور الهاريس [ انظر الكتاب السابع ] .

(٢٧) سكان أروخومبيوس فى برونيا نسبة إلى ملكهم ميثياس .



بيكاسو: كيفالوس يروي قصته لأبناء أياكوس ملك جزيرة إيجينا

## الكتاب السابع

### جاسون وميديا

على حين كان المينياسيون [أبناء سلالة مينياس] تمخر بهم البحر سفينتهم التي بُنيت في  
 باجاساي<sup>(١)</sup>، لمح الملاحون فينيوس<sup>(٢)</sup> وقد هدّه الكبر ونقد بنور بصره نور الحياة، ورأوا أبناء «ريخ  
 الشمال» الصغار يذودون طيور الهاريس بعيداً عن فمه حتى لا تؤذيه، ثم انحرفوا حتى بلغوا  
 نهرفاسيس<sup>(٣)</sup> الصاخب المزبد يقودهم جاسون الذليع الصيت وهم يغالبون الصعاب<sup>(٤)</sup>. حتى إذا مثلوا  
 بين يدي الملك أيتيس جعلوا بطلبونه بفروة الكبش الذي حمل فريكسوس، فانقلب يملّ عليهم شروطاً  
 قاسية تلزمهم القيام بمهام جسيمة. وشغفت ميديا ابنة الملك بحب جاسون، وكم حاولت أن تدفع ذلك  
 عن قلبها فلم تفلح، فأذعنت لسلطان الهوى وهي تناجي نفسها: لماذا تراني فاعلة فيما قضاه على إله من

الآلهة ، فما من شك في أننى صرت صريعة ما يسمى الحب . ولعل حبي لجاسون هو الذى جعلنى أرى شطط أبى فيما اشترطه عليه ، وهو الذى جعلنى أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عينى من قبل . ثم مالى أحسّ القلق يتسلّل إلى نفسى رويداً رويداً ؟ ترى هل تملكين أيتها الفتاة التعسة أن تنجى بقلبك الغض من تلك النيران المضطربة وتعودى إلى ما كنت عليه خالية القلب ؟ إنى لأراى عاجزة يتنازعنى عقلى وعاطفتى ، وأنا لعاطفتى أميل مع علمى بأن الخير لى فيما يمليه عقلى . وكيف بى قد استهوانى حب رجل غريب فأصبحت أحلم بالزواج منه مع علمى بأن فى موطنى من قد يستهوئى . وسواء عاش جاسون أو مات فذلك مردّه إلى الآلهة ، ولكنى آمل أن يعيش ، وعلى أن أصلى للآلهة لكى يعيش وإن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جنى ، ومن ذا الذى يرى شبابه ونبل أصله وشجاعته دون أن يقدره إلا إذا كان وحشاً جامد الحس . وإذا لم تكن لجاسون كل هذه السجاياء فمن هذا الذى لا تحركه كلماته ؟ لقد مسّ قلبى ولم يلبث أن عشت حبه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فسوف تحرقه أنفاس الثورين اللذين ينفثان اللهب ، أو يصصره أعداء البشر الذين ستنتبهم الأرض حين تُبذر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة الثنين النهم . وما كان يمكن أن أكون إلا غمرة قد قلبها من صخر أو حديد إن أنا لم أحلّ دون هذا . وما آتمنى إن رأيته يموت ، وهل أقوى على أن أثير عليه الثورين أو أمكنّ منه المحاربين الذين تنتبهم الأرض ، أو الثنين الذى لا يغفو أبداً ؟ كم أتمنى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلأصليّن من أجله ولسوف أسعى لسلامته .

٤٠ ترى هل أخون أبى ، وأعين غريباً على النجاة وقد يبحر بعدها دونى ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركنى هنا أواجه العقاب جزاء خيانتى لوطنى . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يؤثر على امرأة أخرى فهل أتركه يلقي حتفه جزاء نكرانه للجميل ؟ لا ، إنى أرى فى براءة وجهه ونبل طباعه ورقته ووسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يخدعنى أو أن ينسى ما قدمت له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعده ولسوف أشهد عليه الآلهة ، فإذا لم يكن ثمّ ما أخشاه فلم هذا الخوف إذن ؟ فلا تأهب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل جاسون مديناً لى بحياته فيتزوجنى فى احتفال مهيب ، وستأتينى نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكرمنى على أنى منقذة أبنائهن . ثم هل تُرانى أهجر أختى وأخى وأبى وأهلى بل ووطنى نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار ؟ ولم لا أتركهم والذى قاس وأهل وطنى جفاة ، وأخى مازال طفلاً ، وأختى تباركنى دائماً بدعواتها ، وأعظم الآلهة تسكن صدرى ، وليس هناك مما أخلفه ورائى شيء ذو قيمة بينما أستهدف بفرارى شيئاً أعظم هو المجد . فإنقاد هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرّف على بلاد أفضل من بلادى ، وزيارة مدن طبقت شهرتها الآفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإلمام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أترقبه . ثم إننى سأظفر بجاسون الذى أرى فيه عوضاً عن كل كنوز الأرض ، وحين أصبح زوجته فسوف ينظر الناس إلىّ على أنى محظوظة باركتها السماء ، وسترتفع هامتى عالية حتى تلامس النجوم .

٦٠ ولست أعبا بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التى هى للملاحين بالمرصاد<sup>(٥)</sup> ولا عن خاربيديس خصم السفن التى تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيئها ، ولا عن سكيللا الشرهة

المنطقة بالكلاّب المفترسة النابحة في أعماق بحار صقلية . إنها جميعاً لا تخيفني ، فسوف أمضي في رحلتي الطويلة في البحار وأنا بين أحضان حبيبي ، ولن أحس وأنا ملتصقة بصدر زوجي چاسون إلاّ الخوف عليه وحده . ولكن أى زواج ذلك الذى تتحدثين عنه يا ميديا ؟ يحسن بك ألا تخوضي في شيء من غير اللائق أن تخوضي فيه لاسيما وأنت آخذة فيه ، ومن الخير أن تطرحي هواجسك الشريرة » .

وكتفت ميديا عن مناجاتها لنفسها بعد أن استبان لها أن العقل أولى أن يُتبع ، وأن عليها أن تغلب عواطف البنية والشرف على حبها لچاسون . وحين أدرك كيوييد أن الهزيمة لحقت به بدأ يحزم أمره للرحيل بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتي ابنة پيرسيس المختفى في ظلال الأكمام بأعماق الغابة وهى عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها . ولكن ما إن وقع بصرها في الطريق على چاسون بن أيسون حتى علت وجنتيها حمرة ما لبثت أن اختفت ثم أعقبها شعوب واصفرار ، وأحسّت بمشاعر الحب تعاودها وتستعر في أعماقها ، وكأنما كانت ثمة جهرات متقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا بها تتأجج . هكذا أضرمّت رؤية چاسون حب ميديا الذى كان قد أصابه الفتور ، واتقدت في قلبها الجذوة التى كانت قد خمدت .

كان من الطبيعي أن يثير مشهد چاسون الوسيم حب ميديا ، فقد كان عندها أكثر وسامة من ذى قبل فأخذت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى ، مأخوذة بطلعته غير مصدقة أنه واحد من بنى البشر ، ولم تعد تستطيع أن تحوّل بصرها عنه . وما كاد يأخذ في الحديث إليها ممسكاً بيدها اليمنى بين يديه متوسلاً إليها أن تعينه ، أخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا نجحت مهمته حتى انهمرت من عينيها الدموع وهى تتمتم : « لقد بات الموقف أمامي بيّناً ، ولست أجهل حقائق الأشياء ، وإننى أعلم أن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذى يقودنى ليوردنى موارد الهلاك ، ولكنى سوف أعينك على النجاة والفوز ، كى تحقق لى أنت ما وعدتني به بعد نجاتك » .

وأقسم چاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤمّنة ثلاث مرات<sup>(٦)</sup> ، وبالإله المائل في الكهف ، وإله حميه المستقبل<sup>(٧)</sup> ، وبعين الشمس التى ترى كل شيء ، وبكل ما يملك ، وبالمخاطر الرهيبة التى سيتعرض لها . ففقت ميديا بقسمه وصدّقته ، وزوّدتة بأعشاب سحرية قرأت عليها تعاويذها وعلمته كيف يستخدمها ، فامتلاً قلبه سروراً وعاد إلى سفينته فرحاً .

وعندما بزغ الفجر واختفت النجوم ، تجمّع الناس في حقل مارس المقدس واتخذوا أماكنهم في السفوح المرتفعة المحيطة به ، وتوسّطهم الملك متألّقاً في ثيابه الأرجوانية اللون مهيباً بصولجانه العاجى رمز سلطته . وفجأة ظهر الثوران ذوا الخوافر الذهبية والأنوف الصلبة ينفتان لهباً أشعل النيران في الحشائش الخضراء ، واختلط خوارهما بصخب النيران التى تندلع من حلقيهما ، وإذا هذا الخوار مع قوة النار أشبه بفورة الحرّض [ الجير الحى ] في قبو غمره سيل من الماء ، غير أن چاسون بن أيسون تقدم نحوهما ، فهزأ رأسيهما شارعين قرونها المدببة الحديدية الأطراف وأخذت أظلافهما تحفر الأرض ، وامتلاً الفضاء بخوارهما

المختلط بالسنة الدخان ، وجمد ملاحو الأرجو في أماكنهم خوفاً ، عدا چاسون الذى تابع خطوه دون أن يحس حرارة أنفاس الثورين النارية بفضل السحر الذى اعتصم به ، وتقدم في شجاعة فربت على لُغديهما المتدليين ، ورفع النير ووضعه على عنقيهما فمضيا يجرّان المحراث الثقيل والنصل الفولاذى وراءهما ،

١٢٠ وأخذت خطوط الحرث تمتد في الأرض البكر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملاحى الأرجو . ثم مدّ يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفعوان التى كانت قد غُمست من قبل في السم الزعاف ونثرها في شقوق الأرض المحروثة ، فما لبثت أن أخذت تنمو في التربة وتشكّلت فيها كما تتشكّل الأجنّة البشرية في أرحام الأمهات حتى يكتمل نموها فتخرج إلى النور ، وهكذا ظهر حصاد من أجساد بشرية لا يُعد ولا يحصى غما في جوف الأرض الحُبلى . وأعجب من هذا أنه برز منها شاهراً أسلحة نمت هي الأخرى معه في باطن الأرض ، وأفزعت الهيلازجيين<sup>(٨)</sup> عندما أخذت تسدد رماحها الحادة إلى رأس البطل التيسالى . وتحرك الخوف في قلب ميديا على چاسون رغم السحر الذى حصّنته به ، وشحب وجهها وغاضت الدماء من أطرافها ، وسرت في جسدها رعشة مفاجئة وهى ترى هذه الأعداد الغفيرة من المحاربين تحيط باللقى وحده ، وساورها القلق مخافة أن تكون الأعشاب التى أعطتها لچاسون أقل تأثيراً مما ينبغي أن تكون عليه ، وانبرت تتمتم بتعاويد أخرى تستعين بها وتستخدم أفانينها لتزيد موقفه قوة ، وإذا چاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويلقى به وسط أعدائه ، فإذا بهم يتحولون عنه لينشب بينهم قتال مرير ، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فأفنى بعضهم بعضاً . عندها تهلل وجه الأخيين [ اليونانيين ] بشراً واحتضنوا الفائز فرحين ، وتحركت في صدر الأميرة رغبة في عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل ، فكتمت فرحتها في نفسها وشكرت الآلهة على إنجاحها تعاويذها السحرية ذات الأثر في نجاة چاسون .

١٤٠ لم يبق أمام البطل إلا أن يبعث النوم في عيني التين الذى يحرس الشجرة التى علّقت عليها الفروة الذهبية ، وقد كان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذى الفروع الثلاثة وأنيا به المقوسة ، غير أن چاسون لم يكد ينثر عليه العشب الذى تجلب عصارته السبات العميق ، ويتمم بالتعويزة التى تهدىء البحر العاتق والنهر الهائج حتى أسلم التين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضا من قبل أبداً ، وانتزع چاسون الفروة الذهبية ، ومضى حاملاً معها غنيمة انتصاره وهى الأميرة ميديا التى أعانته على تحقيق رغباته ، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطياً العقبات حتى ميناء إيولكوس<sup>(٩)</sup> .

## أيسون

وقدمت نساء تيساليا القرايين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين ، وكذا فعل آباء الأبطال فعلهن . فاشعلوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحاريب ، ونحروا الضحية المذهّبة القرون التى كانوا قد نذروها للآلهة . وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى قرّبت من حثفه فتوجه چاسون إلى

١٦٠

زوجته قائلاً : « أى زوجتى التى أدين لها بحياتى والتى يعجز العقل عن إدراك ما أسدته لى ، أترك قدرة وأنت التى لا يستحيل على سحرك شىء ، أن تأخذى بعض سنى عمرى وتضميها لى عمر أبى ؟ » ، وانسابت مع كلماته دموع عينيه فحرك حبه لأبيه قلب ميديا ، واتجهت بفكرها لى أبيها أيتس الذى كانت قد هجرته ، لكنها أخفت مشاعرها قائلة لزوجها : « ما أقساه من عرض هذا الذى تعرضه ، أو يدور بخلدك أن باستطاعتى الاقتطاع من عمرك لأصل به حياة غيرك . إن إلهة هيكاتى لا تميز ذلك ، فما من حقل أن تطلب لى ما أعجز عن تحقيقه ، غير أنى سأحاول أن أقدم لك هدية تفوق ما تطلب يا چاسون ، وسأستعين على تجديد شباب أبىك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقى أنا حين تتفضل الإلهة المؤهلة ثلاثاً فتعيني فى محاولتى الجريئة » .

وأضى القمر ثلاث لىال حتى اكتملت استدارة قرنيه ، ومع تألى ضوءه تسللت ميديا من دارها فى ثيابها الفضفاضة عارية الرأس حافية القدمين مرسله شعرها على كتفيها متعثرة الخطى فى سكون السحر ، والطيور والوحوش فى غنادعها مستسلمة لنوم عميق ، وأوراق الأشجار ساكنة على الغصون لا يتحرك لها حفيف ، والهواء المحمل بالضباب قد سكن وقد تراءت من خلله النجوم المتوهجة فى كبد السماء . مدت ميديا ذراعيها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاث ، ونثرت مياه النهر على رأسها مرات ثلاث ، وصاحت صيحات ثلاث معها نحيب وعويل ، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصلبة وأخذت تهمهم : « أيتها الليل الحارس الأمين لأسرارى ، أيتها النجوم الذهبية التى ترسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار ، أيتها الإلهة هيكاتى يا صاحبة الرؤوس الثلاثة ويا من هدتنى دوماً لى ما أقوم به وأعانتنى على تحقيقه ، أيتها التعاويذ السحرية ، أيتها الأرض التى تنبت الأعشاب السحرية ، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات وجان المغارات وجان الليل ، أقبلوا جميعاً . فبعونكم أستطيع حين أريد أن أصدّ جريان الأنهار فترتد مياهها لى منابعها بين دهشة الشيطان ، وأن أهذى عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها بأناشيدى وأن أطرد السحب أو أجمعها ، وأن أرسل الرياح أو أخدها ، وأن أفتك بالشعاين بسحر تعاويذى وأن أحرك الصخور والأشجار ، وأمر البلوط أن يقتلع نفسه ، بل أمر غابات بأكملها أن تفعل ذلك أو أن أمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتش وتزجر ، وأطياف الموق فتخرج من قبورها ، والقمر أيضاً أجذب من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية<sup>(١٠)</sup> التى تدق لتخفف من عنائه . إن جمالى يزرى برونق مركبة جدى<sup>(١١)</sup> ويفقد الفجر أطيافه بفعل عقاقيرى ، أنتم الذين أعنتم على تهدئة وهج أنفاس الثورين ووضعتم عليهما النيرين ليمضيا بالمحراث المعوج ولم يكونا قد جراً شيئاً قبل ، وأنتم الذين أثرتم المحاريين الذين نبتوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم البعض الآخر ، وأرسلتم النوم لى عينيّ التين الذى لم ينم من قبل أبداً ، ثم أسلمتم الفروة الذهبية لى اليونان . ما أحوجنى اليوم لى عقاقير تعيد نضرة الشباب لى شيخ فان وترده لى مقتبل العمر ، وسوف تهبوننا لىأى بعد أن لمعت النجوم استجابة لندائى ، وأقبلت مجموعة من التنانين المجنحة بهذه المركبة التى أوقفها بجوارى » .

٢٢٠ واعتلت ميديا المركبة التي كانت قد هبطت إليها من السماء وربتت على أعناق التنانين التي تجرّها ، وحركت أعتتها فانطلقت في الفضاء ، وأطلّت على وادي نهر تمّ في ثيساليا ثم وجّهت تنانيتها جنوب المناطق التي ستحلّ بها . وعكفت ميديا على فحوص أعشاب جبل أوسّا ثم اتجهت إلى هضاب جبل پيليون المرتفع وجبل أوثريس وجبل پيندوس وأوليمپوس<sup>(١٢)</sup> أعلى الجبال قمما وجمعت منها الأعشاب التي اختارتها ، بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالنصل المقوس لسكين من البرونز ، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطئ نهر أييدانوس ، ومن أمفريسوس وإنييوس ، وپنيوس ، ومستقعات سپيرخيوس ، ومن شواطئ بويي<sup>(١٣)</sup> التي ينمو بها الغاب ، كما اقتطعت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذي نال شهرة كبرى لما له من أثر في إطالة العمر بعد ما فعل فعله في جسد جلاوكوس<sup>(١٤)</sup> .

٢٤٠ وأمضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان في المركبة التي تجرّها التنانين المجنّحة ، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنية نخالة الذكور ، وشيّدت محرابين في العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكتي والأيسر لربة الشباب<sup>(١٥)</sup> ، وغطتهما بأكاليل من غصون الأشجار التي تنمو في الغابة ، وحفرت خندقين قرييين ملائهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قرباناً ثم ملأت كتوساً من النبيذ وأخرى من اللبن وسكبتهما فوق الدماء في الخندقين ، ثم تمتمت بتعاويذها منادية جان الأرض ، متوسلة إلى ملك الظلال ومليكتة المخطوفة ألا يسلبا العجوز الحياة ، وأخذت تكرر الصلوات حتى أثارت عطفهم جميعاً . وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطاً من الأعشاب المنثورة أضجعت عليه الشيخ الفاني وأخذت تتلو عليه تعاويذها حتى استسلم للنوم العميق ، ثم أمرت ابنه وأتباعه أن ينصرفوا عن المكان وحذرتهم من أن تقع أعينهم غير المتهيئة للسحر على مشهد الطقوس السحرية التي سوف تؤديها فاطاعوا وتفرقوا ، بينما أخذت هي تدور وحدها حول المحرابين بشعرها المرسل كأنها إحدى عابدات باكخوس ، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعواداً دقيقة في الحُفَر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبت ، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرابين ، وطهرت الشيخ بالنار ثلاث مرات ، وبالماء ثلاث مرات ، ثم بالكبريت ثلاث مرات ، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدراً تطهو فيه الجذور التي جمعتها من وديان هايمونيا والبذور والأزهار ذات العصارات الحريفة . وكانت هذه مقومات سائل قوى الأثر يغلى ويفور بزبد أبيض في القدر ، ثم أضافت إليها الأحجار التي جلبتها من أقصى الشرق ، والرمال التي غسلتها بمياه الأوقيانوس ونُدف الثلج التي جمعتها بالليل على ضوء القمر ، ولحم بومة مرعبة وجناحيها ، وأحشاء غول وهو ذلك المسخ العجيب الذي يستبدل بقسماته الحيوانية أحياناً قسمات بشرية ، ولم يفتها أن تضيف الجلد ذا الحرافش لشعبان مائي يسكن مياه كينييس في ليبيا وكبد وعل معمر ورأس غراب عمّر ما يربو على أكثر من أجيال تسعة ومعه منقاره ، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التي لا أسماء لها ، والتي كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمة تفوق طاقة البشر .

٢٨٠ وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف ، وأخذت تحرك به هذا المزيج الذي تحول إلى سائل وهو يغلي على النار ، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرّ وأورق ، وسرعان ما أصبح محملاً بالكثير من عناقيد الزيتون ، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزي على الأرض اخضرّت البقعة التي تقع عليها ونمت بها الحشائش وتفتّحت فيها الأزهار . وعندما اطمأنت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقّت به حلق الشيخ الطاعن في السنّ وتركت دماء الهرمة تسيل منه حتى جفّت عروقه ، وأخذت تملؤها بالشراب الجديد الذي امتصه أيسون عبر الجرح الذي أحدثته ميديا في فمه أيضاً ، وسرعان ما زال الشيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد ، وغابت مظاهر الشيخوخة والضعف واختفى شحوب وجهه ، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فبسطها ، واكتسبت أطرافه قوة الشباب ، وتعجّب الملك الشيخ من هذا التغير الذي أعاده إلى حالته التي كان عليها منذ أربعين عاماً مضت .

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سمائه أدرك أن الشباب من اليسير رده ثانية بالمثل إلى مرضعاته ، وأن اليد الطولى في هذا تعود إلى ميديا أميرة كولخيس ، ومن ثم طالبها بتحقيق هذه الأمنية فرضخت لندائه .

## پلیاس

٣٠٠ ولم تنته أعمال ميديا السحرية عند حدّ ، فلقد قصدت ذات يوم دار پلیاس شقيق أيسون والذي انتزع منه العرش ، وادعت أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده ، فرحبت بها بناته بدلاً منه لأنه كان واهن القوى أحنّت الشيخوخة ظهره . ولم تمض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرا محبتهم متظاهرة بصداقتهن ، وقصّت عليهن ما بذلته من عون لچاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون ، فأسهبت فيها وأطالت حتى حرّكت أمل بنات پلیاس في إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها ، فأخذن يتوسلن إليها أن تفعل لأبيهن ما فعلته لأب چاسون مقابل ما تشاء .

وصممت ميديا طويلاً متظاهرة بالتردد في قبول طلبهن ، مدّعية أنها سوف تفكر في الأمر ملياً . وطال قلق المتوسلات وهن ينتظرن ، ثم كان أن وعدتهن بتقديم عونها هن قائلة : « لكي أبتّ الطمأنينة في قلوبكن فسوف أحول الكبش المسنّ الذي يتقدم قطعان غنمكم إلى محل صغير بدوائي السحري » . عندها أحضرن لها كبشاً كثيف الفروة ملتوى القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر ، فأحدثت بسكينها جرحاً في حلقة خرجت منه بقعة دم علفت على نصل السكين ثم أمسكت بالكبش فغمست قوائمها في وعاء مليء بأعشاب قوية السحر ، فأخذت قوائمها تنكمش وقرونها تحترق وتزول وتذهب عنه آثار السنين . وإذا الجمع يسمع فجأة ثغاء خافتاً يتردد وسط الوعاء النحاسي الذي قفز منه محل صغير يتلفت باحثاً عن أمه .

٣٣٠ فتحركت الدهشة في قلوب بنات پلياس ، وأقنعهن الدليل بصدق وعدها ، وعاودن إلحاحهن بأن يكون لأبيهن حظه من هذا السحر .

٣٤٠ حط فوبيوس إله الشمس عن جواده المجنحة عدتها بعد هبوطه إلى مياه أيبريا ثلاث مرات . وفي الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تبرق في السماء وضعت إبنة أيتيس المخادعة قدراً كبيراً على نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السحر ، وتمدد الملك وأغفى كأنه أخذته سنة من نوم شبيه بالموت ، وتلت ميديا تعاويذها التي جعلت الملك يغط في نوم عميق ، وقالت ميديا لبنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن : « كيف وقفتن جامدات لا تفعلن شيئاً ، ألا فلتمسكن بسيوفكن واطعن بها أباككن حتى ينسكب دمه كى أبدأ بعد ذلك بملء شرايينه بدم الشباب ، فحياة أبيكن وتجديد شبابه بين أيديكن ، فإن كنتن تحببني فلتقمن بواجبكن نحوه . أطرذن شيخوخته بضربات سيوفكن لتخرج مع دم جسده الفاتر » . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على خطة لم يكن يعلمن شراً عاقبتها ، وأمعن في طعن والدهن إظهاراً لعمق جبهن وإن تحاشين النظر إليه وهن يفعلن ذلك ، فنهض الملك مثقلاً بالجراح مشوهاً تغطيه الدماء ، وحاول أن يرد سيوف بناته التي أشرعت من حوله فلم يفلح وصاح بهن وهو يئن « ماذا دهاكن يا بناتي وما الذي جعلكن تشهرن السيوف لتقضين على أبيكن ؟ » . وسرعان ما خارت عزيمه بنات الملك بعد سماع كلماتهن وخانتتهن شجاعتهم ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوه بكلمات أخرى بطعنة في حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده في الماء المغلي ، وأسرعت تطير في الهواء تحملها دوابها المجنحة قبل أن يحيق بها مكروه . وحلقت طائرة فوق جبل پيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [ أم القنطور خيرون ] ، وفوق أوتريس والمناطق التي اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذي طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمعت حوريات البحر حول كيرامبوس<sup>(١٦)</sup> [ ومسخته جُعرانا ] ثم حملته وطرن به في الهواء فأنقذه من الغرق في الطوفان .

٣٦٠ وبينما كانت ميديا في طيرانها أشرفت على مدينة بيتاني الأيولية<sup>(١٧)</sup> التي ينتصب فيها تمثال الأفعوان الحجري الضخم<sup>(١٨)</sup> ، وفوق غابة إيدا<sup>(١٩)</sup> حيث أخفى باكخوس العجل الذي سرقه ابنه بعد أن حوَّله إلى وعل<sup>(٢٠)</sup> ، وفوق المكان الذي دُفن فيها والد كوريشوس<sup>(٢١)</sup> وقد طواه كتيب من رمال خفيفة ، واستمرت محلقة فوق تلك الحقول حيث تنبح مايرا<sup>(٢٢)</sup> فيملاً نباحها الغريب لقلب الرجال رعباً ، وفوق مدينة يوريبيلوس حيث نبتت القرون في جباه سيدات جزيرة كوس<sup>(٢٣)</sup> لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن بلادهم ، كما حلقت فوق رودس الجزيرة التي أحبها فوبيوس وفوق مدينة ياليسوس مقر التلخينيين<sup>(٢٤)</sup> الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقهم چويتري في مياه شقيقه نبتون ، ثم أطلقت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التي أصيب فيها ألسيداماس<sup>(٢٥)</sup> يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته يمامة ودیعة . كما شاهدت بحيرة هيرييه وتمهى<sup>(٢٦)</sup> موطن سيجنوس التي اشتهرت بعد أن تحول الأخير إلى طائر البجع . وفي ذلك الموقع كان فيليوس نزولاً على إرادة الغلام سيجنوس قد قدم له طيوراً جارحة كان قد استأنسها وأسداً كان قد روضه ، ثم طلب إليه سيجنوس أيضاً أن يروض ثوراً وحشياً فأبى أن يفعل

ذلك ، إذ لم يكن الغلام يبادلُه عاطفة بعاطفة . وأخيراً أبى فيليوس أن يستجيب لإلحاح ذلك الصبي فيروّض له ثوراً إرضاءً له ، فصاح فيه سيجنوس غاضباً « عما قريب ستقول يا ليتنى روّضت لك الثور »<sup>(٣٧)</sup> . ومضى سيجنوس فألقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه مات على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع ، وأخذ يرفرف في الهواء بجناحين في بياض الجليد ، وياتت أمه تبكيه حتى ماتت فتحوّلت إلى بركة تحمل اسمها . وعلى مقربة منها بليورون<sup>(٣٨)</sup> التي طارت إليها كومبى ابنه أوفيس<sup>(٣٩)</sup> فراراً من أبنائها الذين كانوا يريدون إيقاع الضر بها . وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا<sup>(٤٠)</sup> المكرّسة لابن ليتو [لاتو]<sup>(٤١)</sup> والتي تحوّل ملكها وملكيتها إلى طائرين ، ولمحت على يمينها كيلينيّه حيث قدّر القدر أن يأتى مينيفرون بها ما تأتبه البهائم ، وذلك حين غشّى أمّه ، ورأت غير بعيد سيفيسوس يعنى مصير حفيده الذى حوّل أبوللو إلى فقمة ، كما رأت كذلك دار يوميلوس<sup>(٤٢)</sup> الحزين على ولده الذى تحوّل إلى طائر . وأخيراً وصلت بدواؤها المجنّحة إلى كورنثه حيث ينبثق الينبوع المقدس « بيرينى » ، وحيث كانت تتوالد من نبات عش الغراب كائنات حيوانية تنتعش مع المطر<sup>(٤٣)</sup> .

ولم تكد عروس چاسون الجديدة تموت بعد أن هراً الثوب المسموم الذى بعثت به إليها الأميرة الكولخيسية ، ويشهد البهران على كلا جانبي البرزخ اضطرام النار في دار الملك ، حتى حملت ميديا سيفها المخضب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بقتل أبنائها من چاسون وهربت فراراً من غضبه ، فحملتها دوابها المجنّحة إلى مدينة أثينا قلعة باللاس حيث طارت فينى أشرف النساء في صحبة بيريفاس<sup>(٤٤)</sup> العجوز ، وكذلك حيث طارت ألكيون<sup>(٤٥)</sup> حفيده بوليسيمون محلّقة عالياً بجناحيها اللذين اكتسبتها . وفي أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا ، ولم يكتف بإيوائها بل اتخذ منها زوجة له<sup>(٤٦)</sup> .

## ثيسـيوس

وإلى أثينا وصل ثيسـيوس الذى وطّد السلام وأشاع النظام في أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين ، ولم يكن الملك أيجيوس يعرف أنه ابنه ، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة « الأقونيطن » التى كانت قد جلبتها معها من شواطئ سكوثيا والتي يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدنى كيريروس الذى عاش داخل كهف مظلم ينفذ منه طريق إلى العالم السفلى وهو الطريق الذى اجتازه هرقل بطل تيرينث ، بعد أن شدّ وثاق كيريروس بسلسلة من الفولاذ ، بينما كان الكلب يقاوم ويدير رأسه بعيداً عن ضوء النهار . وحين تملك كيريروس ثورة الغضب ملأ الفضاء بنباحه القوى الصادر عن رعوس ثلاثة ، فأخذت قطرات اللعاب التى هى أشبه ما تكون بالزبد الأبيض تتناثر من خطمه هنا وهناك في الحقول الخضراء ، وإذا هى تثبت وتضرب بجذور لها في التربة الخصبة التى أينعتها ، وإذا هى تُنبت نباتاً ضاراً من جنسها ، وإذا انبثق هذا النبات وسط الصخر لذا ستاه أهل الريف أزهار الصخر « الأقونيطن » . وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدمها لهذا الطارىء وكأنه يقدمها لخصم من خصومه

وكانت ميديا قد أخفت عليه أن هذا الطاريء ابنه . وما إن رفع ثيسوس الكأس إلى شفثيه وهو لا يدري ما دُبِّرَ له حتى أبصر الأب نقش شعار أسرته على المقبض العاجي لسيف البطل ثيسوس فإذا هو يعرف في التّوَّان هذا الطاريء ابنه ، فأطاح بالكأس القاتلة عن شفثيه . فخفّت ميديا وولّت وجهها هرباً خوفاً من الموت الذي كان يتعقبها ، وإذا هي تطويها السُّحب بين طيّاتها وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو .

وأحسن أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بشيء من الفزع لهذه الجريمة البشعة التي كادت أن تقع فأشعل المصابيح على المحاريب ، وأقى بالثيران المزدانة الرعوس بالأكاليل وذبحها قرباناً للآلهة ، فكان يوماً مشهوداً في حياة الأثينيين ، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب في حفل ترفرف عليه البهجة ، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحت تنصايح : « شكراً لك ولشجاعتك يا ثيسوس العظيم ، يا فخر ماراثون ، لأنك قويت على ذبح الثور الكريتي<sup>(٣٧)</sup> ، ولأنك منحت فلاحى الحقول الممتدة حتى كروميون<sup>(٣٨)</sup> الطمانينة بعد قتلك للخنزير الوحشى . لقد شهدت أرض إبيداوروس مصرع ابن فولكانوس المسلّح بالهرواة على يدك<sup>(٣٩)</sup> ، كما شهدت شواطئ سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسى<sup>(٤٠)</sup> ، ورأت إليوسيس المدينة العزيزة على الإلهة سيريس موت سيرسيون<sup>(٤١)</sup> ، كما قضيت على سينييس الذي كان يتعدى طوره بقوته الخارقة فيثنى جذوع الأشجار ويُميل قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياها لتتمزق أعضاؤهم وتتناثر ، وأصبح الطريق إلى ألكاثوى<sup>(٤٢)</sup> مدينة ميجارا بفضلك آمناً ومباحاً للجميع منذ قتلت اللص سكيرون الذى رفضت الأرض والبحار أن تضم رفاته فظلت الرياح يتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيرون . ولو أننا شئنا أن نحصى أجدادك ووازناها بسنى عمرك لأرّيت عليها عدداً ، وكم تتمنى لك يا أشجع الأبطال أعظم الأمنيات فنرفع الكئوس تكريماً لك » . ودوى تصفيق الشعب ودعواته في جنبات القصر الملكى ولم يعد في المدينة مكان لم يعمّه الفرح .

## آياكوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، فسرعان ما تتسلل الموم لتعكر صفو الأفراح ، وهكذا تغيّرت فرحة أيجيوس بعودة ولده إلى قلق بإعداد مينوس<sup>(٤٣)</sup> ملك كريت العدة للحرب انتقاماً لمقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوى وأسطول جبار ، كما كان يطوى صدره على حقد دفين ، فحرك سفنه السريعة التي تمثل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وأخذ يجمع جيوشاً من حلفائه كي يحاربوا إلى جانبه . فاستمال إليه جزيرة أنافى بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قسراً ، وانضمت إليه جزيرة ميكونوس الخالية من المرتفعات ، وجزيرة كيمولوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التي ينمو بها الزعر البرى ، وجزيرة سيريفوس المنبسطة السهول ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التي باعها الخائنة آرنيه الطرواقية<sup>(٤٤)</sup> للأعداء لقاء ذهب دفعها جشعها إلى

طلبه منهم ، تلك الفتاة التي تحولت بعد حصولها عليه إلى طائر يسمى غراب الزُّرع الأسود القدمين والجنّاحين ، والتي ظلت تهيم بحب الذهب إليها بعد تحولها طائراً . غير أن أوليافوس وديديمي وتونس وأندروس وجياروس وبيباريثوس التي تتكاثر فيها حبّات الزيتون الناصعة أبت أن تدعم أسطول ملك كريت .

واتجه مينوس إلى أونيوييا مملكة أياكوس التي أطلق عليها اسم أمه إيجينا فخرج لاستقبال مينوس حشد كبير من الناس مرّحين به في حماس ، وأسرع للقاءه تيلامون يصحبه شقيقاه بيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه . كذلك خرج أياكوس يمشي واهناً تحت ثقل شيخوخته مرحّباً بمينوس وسأله عن السبب في قدومه إلى بلاده ، فقال له عاهل المدن المائة الحزين على ولده : « جئت أنشد عونك في الحرب التي أخوضها لأثار لابني ، وكم أود أن تمدني ببعض رجالك ليكونوا جزءاً من جيشي في تلك الحرب العادلة . إني أناشدك أن تمدني يد المعونة لاستطيع أن أهون عن نفسي ما أجده من وحشة لابني في قبره » . فأجابه أياكوس حفيد أزوبوس قائلاً : « أن أجيبك إلى ما تطلب من المحال بمكان ، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع بلاد آل كيكرويس [ الأثينيين ] منّا ، فبيننا معاهدات وثيقة » . ووجم مينوس وانصرف وهو يقول : « لتجنّب شرّ العواقب الوخيمة من جراء تلك المعاهدات » . قال هذا إيثاراً منه بأن يلوّج بالحرب دون أن يتورط في إشعالها فيبدّد طاقاته سريعاً .

ولم يكن الأسطول الكريتي قد ابتعد كثيراً عن شواطئ أونيوييا حين أقبلت على مينائها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده . وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على رؤيتهم السابقة له ، وصافحوه في حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم . وكان كيفالوس يسترعى أنظار المارة بوسامته التي ظل محتفظاً بها ، وبغصن الزيتون الذي يحمّله رمزاً لبلاده ، ويسير وسط سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سنّاً هما كليتوس وپوتيس ابناً باللاس .

وبعد تبادل التحيات المتعارفة ألقى كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذي ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التي وقّعها الأسلاف ، والوقوف في وجه مينوس الذي يعتزم بسط سيطرته على اليونان بأسرها . وحينما انتهى السفير من رسالته ذات المنطق الدالّ والعبارة البليغة ، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً : « يا أهل أثينا لكم ماشتم من عون من غير أن تسألوني إياه ، وليكن كل ما نملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية دون تردد ملكاً لكم ، ولا تعوزني هنا الموارد ، كما أن لي من الجند فوق ما أحتاج للدفاع عن بلادى ضد الأعداء ، وشكراً للآلهة على ما أعطتني . وهكذا ترى أنه ليس لي ثمة عذر للتخلّف عن عونكم » . فرد عليه كيفالوس : « ليذمّ لكم رخاؤكم ولينمّ مع الزمن ، وكم اغتبطت الغبطة كلها منذ أن وطئت قدمي بلادكم بلقاء هذا العدد الغفير من شبابكم المملوء فتوة ووسامة ، غير أني لا أجد هنا الكثير ممن سعدت بلقائهم في زيارتي الأولى لكم » .

وتنهّد أياكوس وبدت في صوته رنة أسي وهو يجيب قائلاً : « لقد عشنا محنة قاسية قبل أن ننعم بهذا الرخاء الذي تشهده الآن ، وسوف أسرد عليك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيع وقتك سدى

بالأحداث العارضة . فقد ذهبت المحنة بهؤلاء الشبان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم وهم على هذا لا يمثلون غير جزء ضئيل ممن فقدناهم .

## الطاعون في إيجينا

عمّ البلاد طاعون مُهلك أرسلته علينا الإلهة جونو غضباً وحقدًا على بلادنا التي تحمل اسم غريميتها<sup>(٤٥)</sup> ، ولقد حسبنه بادية ذى بدء وباء عاماً لم ترسله علينا قوى إلهية ، فإذا نحن نقاومه بوسائلنا الطبية غير أن هذه الوسائل لم تلبث أن انهارت أمام تلك المحنة القاسية الضارية .

كانت السماء قد أعتمت في الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثم على الأرض حابساً فيها هواء ومداً ما لبث أن أقي على نشاط الناس وحيويتهم ، واكتمل البدر مرات أربع وعاد هلالاً مرات أربع ، وريح الجنوب تهب حارة محرقة ، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوّثت بالجراثيم التي نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء في الجداول والأنهار ، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط ميتة ، وعمّ الأسى المزارعين التعساء وهم يشهدون ثيرانهم القوية تهوى صرعى وهى تحرث ، وكباشهم الكثيفة الصوف تثن تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمّر أجسادها ثم تنفق ، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق وقبعت في أماكنها تئن أنين الموت . كذلك لم تعد للمخترير البرى ضراوته ، وفقد الغزال سرعته التي كانت تعينه على الفرار من الوحوش ، وجمدت الدببة عن التصدى لقطعان الماشية إذ غدت أكثر منها ضعفاً ، وتعفنت الجثث في الغابات والحقول والطرق وملاّت رائحتها الكريهة الهواء . والغريب أن الكلاب والذئاب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركها تتحلل وتفنئ مدنسة الأجواء بنتنها ، ناشرة الوباء في الأفاف الفسيحة .

واستفحل خطر الوباء حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له . وكان يبدأ دائماً بأمعاء ضحاياها فيجعلها تضطرم حرارة تحمّر معها جلودهم وتلهث أنفاسهم ، ثم تتنفخ ألسنتهم وتخشوشن ، وتجف شفاههم وتظل منفرجة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوّث . ولم يكن المرضى يطبقون البقاء في الفراش أو يحمّلون غطاء فكانوا ينبطحون على الأرض طلباً لسطح نديّ ، غير أن الأرض كانت ترتد ساخنة عندما تلامسها أجسادهم . وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشى المرض بينهم هم أنفسهم ، بل لقد أصبحت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى ، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتغانياً في رعايته عجل ذلك بإصابته ثم بموته . ودفع اليأس بالمرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم ، فتباعدوا عن العفة والوقار ، ورابطوا عند الينابيع والأنهار يحاولون إطفاء ما أصابهم من ظمأ لا يطفئه إلا الموت ، إذ كان بعضهم ينحنون على الماء الجاري ليشربوا منه ، ثم إذا هم أعجز ما يكونون عن أن يهضوا فيموتون غرقاً في هذا الماء الذي جاءوا إليه ليطفئ حرارة أجسامهم ، وبالرغم من ذلك كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه . وكان كثير من

هؤلاء البؤساء يضيّقون برقدتهم على الفراش ويزحفون بعيداً عنه ، وكان بين من تخونهم قواهم من يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التي كانوا يخالون أن الموت جاثم فيها ، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخائفة هي علّة مرضهم . وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والغيوبة يهيمون على وجوههم في الطرقات ما وجدوا القدرة على السير ، بينما كان الآخرون الذين لا يقوون على الحركة ينوحون راقدين محدقين بنظراتهم الزائغة في الأفق ، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال .

٥٨٠

فإذا كنت سائلي عما كنت أشعر به حينذاك ، فلقد كنت أياس ما أكون من الحياة ، وكم تمنّيت أن يكون مصري مصري شعبي ، إذ كنت حينها أجلتُ البصر رأيت أجساداً هنا وهناك متناثرة فوق الأرض وكأنها تفاحات يانعة قد اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها ، أو كثمار البلوط المتناثرة تحت شجرتها التي عركتها العاصفة . أرايت هذا المعبد المواجه لنا فوق التلّ والذي نرقى إليه بدرج ؟ إن الذي يسكنه هو چوپيتر . أو تظنّ أنه لم يجد من يُقدّم له القرابين ويُطلق البخور على مذابحه ؟ لقد وجد يقيناً الكثير منهم ، غير أن شيئاً من ذلك لم يُجد نفعاً في كشف الغمّة عنا . وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم ، وكم من آباء صلّوا من أجل أبنائهم ، فسقطت زوجاتهم وأبنائهم موقى عند المحاريب قبل أن تُسمع دعواتهم وقد أطبقوا أكفهم على أعواد البخور التي كانوا ييغون إحراقها . كما كانت الثيران التي ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر ، بينما كان الكاهن يتلو عليها صلواته ويصّب النبيذ بين قرونها . وقد حدث حين قدّمت أنا قرباناً لچوپيتر عنى وعن بلادى وعن أولادى الثلاثة أن صاح ثور القربان فرعاً وسقط على الأرض ، فلما عملت السكّين في حلقة لم تقطر منه سوى قطرات قليلة من الدم ، فلقد أسلم روحه قبل أن يُذبح .

٦٠٠

على أن أحشاء الحيوان التي ماتت بهذا الطاعون لم يوجد فيها ما يكشف عن كُنه الوباء أو ما يحمل نذيراً من نذر الآلهة . فقد كان هذا المرض المروع يسرى في الجسم حتى يبلغ الأحشاء فيقضى على صاحبها عاجلاً . وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى بين يدي المحراب وكأنما أراد ذووها بميتهم هذه في تلك الأماكن أن يسترحموا الآلهة ، وقد خلصوا من الحياة بخنقهم أنفسهم بالحبال هرباً من رعب الوباء ، فعجّلوا مُريدين إلى هذا المصير المحتوم . ولم تكن ثمة طقوس جنازية لأولئك الموقى الذين أتى عليهم الطاعون ، كما لم تُحمل جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هي العادة إذ لم تكن أبواب المدينة تتسع لمروور هذه الجنائز التي لا تُحصى فُتركت كثرة من الجثث على وجه الأرض ولم تُوارى في مقابر تسترها ، وكذا تراكمت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفر بطقوس الإحراق ففقدت مناسك الإحراق قدسيّتها ، وإذا الناس يتدقّقون بجثث أخرى إلى المحارق ليزاحوا غيرهم عليها . ولم يترك هذا الوباء لبك أن ييكى فقيده ، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ ولّوا دون أن تُدرف عليهم دمعة ، وضاعت الأرض بموتها فلم يعد ثمة مكان لقبر ما ، كما لم يبق من الأشجار ما يكفى لإيقاد نيران المحارق .

## الميرميدون

وأصابني هول الكارثة بالأسى العميق فادرت وجهي للسماء أصبح متضرعاً : « أى چوپيتر ، إن حقاً ما يقال إنك ضاجعت أُمى إيجينا ابنة أزوبوس ، وإنك تُقرّ أيها الإله القدير ببَنوّي من غير حياة ولا خجل ، فأعِذْ إلى رعاياي أو فلتُمتنّ معهم » . وإذا أنا أرى وميض برقٍ وأسمع قصف رعدٍ ، فأيقنت أن چوپيتر استجاب لدعائي ، فانطلق لساني يقول : « إلهي ، لقد لقنت معنى إشارتك التي أرجو أن تكون بشارة خير لي ، ثم أهلا بهذا الوعد الذي وعدتني به » . ٦٢٠

ونظرتُ إلى شجرة البلوط القريبة المتفرعة الأغصان التي هي وقفتُ على چوپيتر والتي هي نبتةٌ من بذرةٍ من أجمة دُودُونَا المقدسة<sup>(٤٦)</sup> ، فإذا أنا أرى رتلًا طويلاً من النمل في أفواهه ذرات وهو يسير بها في شقٍّ من تجاعيد جذع الشجرة ، فتأملتُ مُعجَباً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً : « يا أجلُّ إله ، هب لي عدد هذا النمل أناساً يملأون بلادى الخاوية » ، فإذا شجرة البلوط تُرعد وإذا فروعها تتمايل ولا وجود لريح عابرة . ومع أنني كنتُ أرعدُ خوفاً وتأثراً انتصب معها شعر رأسي مُرَعَّتْ لألثم الأرض والشجرة بقبلائي وقد امتلأت نفسي آمالاً كتمتها في أعماقي دون أن أبوح بها لغيري .

وأرخي الليلُ سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة الهموم ، ورأيتُ في منامي شجرة البلوط بفروعها وأعداد النمل الغفيرة عليها وهي تهتزُّ هزَّتْها التي رأيتها في اليقظة ، وجموع النمل تتساقط منها حاملة الذرات منتشرة بها وسط الحقول . وعلى حين بغتة بدأت تبرز من الأرض مخلوقات صغيرة أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد اختفت سيقانها الدقيقة وألوانها الداكنة ، فإذا هي على صورة البشر . وعندها زایل النوم جفوني حتى إذا عاودتني اليقظة إذا الحُلمُ هباء لا حقيقة له ، فعزَّ على ما حرمتني إياه الآلهة . غير أن جلبةً مُدويةً في أنحاء قصري لفتت سمعي ، وخيَّلَ إلى أنني أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرمانٍ من الاستماع إليها ، وخيلتُ أن هذا لم يكن غير بقيةٍ من آثار النوم ، وإذا تيلامون يدفع على باب حجرتي ويخطو نحوي قائلاً : « هلم يا أبى فسوف تشهد شيئاً فوق الآمال والخيال » . وخرجتُ فإذا أنا أرى الرجال أنفسهم الذين رأيتهم في منامي في صفوفهم نفسها التي كانوا فيها ، فأُنِسْتُ بهم وإذا هم يُقبلون علىّ ويُحيونني تحيةً الملك . عندئذُ وقيتُ نذري لچوپيتر ، وفرقتُ دور المدينة وحقول الريف التي مات أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين سَمَّيتهم باسم الميرميدون<sup>(٤٧)</sup> حتى يبقى ذكرُ الأصل الذي منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذي غَدَوْا يحملونه ، ولقد رأيتهم أنت رؤية العين ؛ غير أنهم ظلُّوا يحتفظون بطبعهم فهم لا يزالون يُحسنون الاقتصاد والتدبير ، ولا يُقعدهم الجهد ، ويحرصون على ما يفتنون ، ويخزنون ما يجمعون ، ولسوف يكون لك منهم في الحرب جنود يتماثلون سناً وشجاعة حالما تسكن ريح الشرق التي جاءت بك هنا لحيرنا [ وكانت ريح الشرق هي التي جاءت به فعلاً ] فينفسح المجال لريح الجنوب . ٦٦٠

## كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل في رواية القصص ، وشهدت ساعاته الأخيرة إقامة المآدب ، وأق المساء فحملهم إلى النوم . وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهب حينما أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية ، وكانت السفن ما تزال راسية في الميناء رغم الحنين العاصف إلى العودة ، فمضى ابناً باللاس في رفقة كيفالوس للقاء الملك الذي كان نائماً بينما كان الأميران تيلامون وبيليوس منشغلين في تعبئة الجند للحرب ، فقام فوكوس الابن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أهبائه الجميلة ، وقد لمح في يد كيفالوس حفيد أيلولوس رجلاً من خشب مجهول نوعه صيغ له سن من الذهب فقال له متسائلاً : « إن اهتمامي بالغابات وبالصيد كبير ، ولذلك فقد أثار عجبى ذلك الخشب الذي نُحت منه رمحك ، لأنه ليس من خشب البلوط ولاً كان أصفر ، كما أنه ليس من خشب القرانيا ولاً كان ذا عَقْدٍ كثيرة ، إننى لا أدري من أية شجرة هذا الرمح ، ومع هذا فإن عيني لم تقع على أجمل منه » ، فأجابه أحد السفراء قائلاً : « لسوف يثير إعجابك أداؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله ، فهو لا يخطيء هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وجهته متى انطلق ، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مُرسله ملوثاً بدم ضحيته دون أن يعيده أحد » . وتتابع أسئلة فوكوس سليل نيريوس عن الرمح ومصدره ومن أعطاه لكيفالوس . وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير ، غير أنه لم يفصح بشيء عن الثمن الباهظ الذي دفعه لحيازة هذا الرمح خجلاً وندماً . وبينما بدأت الكلمات تنساب من شفتيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التي فقدها واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

« من يصدّق يا فوكوس يا ابن الإلهة أن هذا الرمح هو الذى يُدِرُّ اليوم عينيّ بالدمع كما سوف يُدِرُّهما بالدمع على مدى الأيام إن طال بى العمر ، وكم تمنيت لو لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذى قضى على زوجتى بالموت وقضى على أن أعيش متهدّماً .

لعلك سمعت عن أوريثيا الأميرة التى اختطفت من أثينا ، إنها أخت زوجتى پروكريس<sup>(٤٨)</sup> ، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جمالاً وخُلُقاً لرأيت أن پروكريس كانت أولى بأن تُختطف من أختها ، وقد زوجنى منها أبوها إيرينخيوس ، وكانت عطاء الحب لى حتى نعتنى الناس بالسعيد . وقد كنت سعيداً حقاً ، ولولا إرادة الآلهة لبقيت سعيداً طول العمر<sup>(٤٩)</sup> . ومع نهاية الشهر الثانى على حفل قراننا ، كنت أنصب شباكى صباحاً يوم لأصيد الوعول ذات القرون فلمحتنى أورورا ربّة الفجر التى كان نورها الزعفرانى قد قشع الظلمة فاستولت على لُبى على الرغم منى . وكم أتمنى أن يؤذن لى فأقول الحقيقة دون أن أغضب هذه الإلهة . 'حقاً ، لقد كانت ربّة الحدّ الفاصل بين الليل والنهار وخلافة الحسن وردية الشفتين ، غذاؤها جرعات النكتار شراب الآلهة ، غير أنى كنت أعشق پروكريس التى كانت تحيا فى قلبى ولا ينطق فمى بغير اسمها ، فذكرتها بموائق الزوجية وبزفافنا الحديث العهد وضّمات عناقنا ولقاءاتنا فى عُش الزوجية الذى

غادرته منذ لحظات ، فإذا الإلهة تمتلئ حقداً وتقول : « كُفَّ عن هذا التَّوَلُّه أيتها النَّاكر للجميل ، واحفظ عليك زوجتك . وإذا قُدِّر لي أن أرى المستقبل جلياً فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيت عليها » ، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجتي . وأخذت خلال عودتي أستعيد حديث الإلهة ، وبدأت الخشية تراود نفسي ألا تكون زوجتي آمنة على رباط الزوجية ، وكان جماها وشبابها يدفعاني إلى الشك في إخلاصها لي بينما كانت فضائلها تردني عن هذا الشك . ثم إنى كنت عائداً من عند إلهة زينت لي لوناً من ألوان الخيانة ، كما أننا نحن العشاق نرتاب في كل شيء عندما نعشق . وهكذا عزمْتُ على أن أختبر تلك التي كانت سبب ٧٢٠ هُمى ، وأن أحاول اختبار إخلاصها وعفتها بإغرائها بالهدايا . وضاعفت « أورورا » شكوكي ، فغيَّرت ملامح وجهي فشعرت أني تحولت من حال إلى حال .

دخلتُ أثينا مدينة باللاس في صورة لا يعرفني معها أحد ، ودلفت إلى بيتي فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها . وبعد محاولات عدَّة نجحت في أن أحظى بمقابلة پروكريس فلما رأيته اهتزَّت نفسي وكدتُ أعرض عن اختبار إخلاصها ، ولم أستطع إلا بصعوبة منع نفسي من أن أعانقها كما كان ينبغي أن أفعل . كانت حزينة ، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أى امرأة سواها فقد كان الأسى على بعاد زوجها يُثقل على قلبها . ولك أن تتخيل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفي عليها فتنة طاغية . هل أقص عليك كم من المرات صمد طهرها أمام محاولاتي ، وكم من المرات قالت لي : « إننى أصون نفسي لرجل واحد حيثما كان ، وإننى لا أشركُ سواه في المتعة بى » ، فأى رجل عاقل لا يقنع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها ؟ لكنى لم أقنع وجاهدت كى أطعن نفسي بنفسي . وانتهى الأمر بأن هَوَّنت من صمودها بعد أن ضاعفت عطايأى لها ووعدتها بثروة طائلة لقاء قضاء ليلة معها . وعندها صرختُ في وجهها : « ما أسوأ حظك ، فليس هذا الذى يدعى العشق بين يديك غير زوجك . فمعى الآن البرهان على خيانتك » . وإذا طَوَّقها العار لم تنبس ببنت شفة وولَّت فارةً من زوجها المداهن وقد علاها الخجل ، تاركة الدار التي نصب زوجها لها فيها هذا الشرك . ومن أجل فعلتى نَبَذْتُ الرجال جميعاً ، وانبرت هائمة على وجهها في الجبال مكرِّسة نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد .

واشتعل حبى لها بعد أن تركتني بنار أشدَّ ضراوة مما كنت أحسها قبلُ ، ورُحْتُ أتوسَّل إليها أن تغفر لي ، واعترفت لها بخطئى وبأن تلك الهدايا لو قدِّمت لي لتردَّيتُ في الخطأ نفسه ، وبعد هذا الاعتراف منى وبعد أن انتقمت للإهانة التي طعنْتُ بها شرفها قبلتُ أن تعود إلى فامضينا معاً سنوات هائلة كنا فيها على خير وفاق . وكأنما لم تكتف بالهدية التي منحتنى إياها بعودتها إلىَّ ، فقدَّمت لي كلباً كانت قد تلقَّته من الإلهة التي وضعت نفسها في خدمتها قائلة لها : « إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى » ، كما أعطتني في الوقت نفسه ٧٦٠ هذا الرُّمَح الذى تراه الآن بين يدي . وإنك لا شك راغب في أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية ، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغريبة :

نجح أوديب بن لا يوس في أن يفسر الأحاجى التي لم تبلغ كنهها العقول الأخرى ، وألقت سفنكس تلك العرَّافة الغامضة بنفسها من الجُرف فخدمت ميَّنةً بالغازها وأحاجيها . ولا شك أن الإلهة المنصفة

ثيميس لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون جزاء<sup>(٥٠)</sup> ، فأرسلت في التوبلاء ثانياً إلى أيونيا جثم على مدينة طيبة في صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على أنفسهم وعلى قطعان ماشيتهم . فذهبت مع شباب البلاد المجاورة ونصبنا شباكنا حول السهل الفسيح ، غير أن الوحش تخطاها بقفزة سريعة خفيفة وأفلت من حبال الشراك التي كنا قد شددناها . فأطلقنا خلفه مجموعات من الكلاب التي أفلت الوحش منها في سرعة الطير ، فصاح بي الجميع أن أطلق كلبى « لايلابس » وهو الكلب الذى أهدته إلى زوجتى بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة فوق عنقه ، ولم أكد أطلق سراحه حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد نعلم مكانه . كان الغبار المثار يدل على آثار خطاه ولكنه اختفى عن عيوننا ، ولم يكن الرمح بأسرع منه ، ولا القذيفة المنطلقة من مقلاع يتأرجح في الهواء ، ولا السهم النحيل المنبعث من قوس كرىتى .

وكان ثمة تلٌ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلقته وتطلعت من فوقه إلى مشهد سباق فريد ، فكان يُخيّل لى أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكى الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكىه . وكان الوحش بدهائه لا يمضى عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرةً بمئة ومرة يسرة حتى يندفع خَطَم الكلب الذى كان يتشم خطاه ، ثم يثنى راجعاً ، يدور دورة ودورة ليُضِل من يطارده وتضطرب معه سرعة هذا المطارد . ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه في سرعة العدو ويبدو وكأنه قد أمسك به ، غير أن فكىه لا ينطبقان على غير الهواء . وبادرت إلى رغى وحين أحكمت قبضتى عليه لأحسن تسديده حانت منى التفاتة ما كدت بعدها أعود بعينى إلى حيث تتعاقب الحيوانات حتى عرتنى الدهشة . ذلك أنى لم أعد أرى في السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك اقتراس خصمه ، ويقيناً لو أن إلهاً كان يرقبهما ، ما ودَّ أن يكتب لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً .

وأمسك كيفالوس عن الكلام ، فسأله فوكوس قائلاً : « ولكن بم تعيب هذا الرمح ؟ » فأجمل كيفالوس إثم هذا الرمح بقوله : « كانت سعادى يا فوكوس هى مصدر أساى ، ولأحدثك عنها أولاً . وكم يطيب لى يا ابن أياكوس أن أذكر أيام سعادى ، ففي السنوات الأولى لزواجى كنت سعيداً بزواجى ، وكانت هى سعيدة بى ، كان كلانا يحب الآخر حتى ما كانت تؤثر على الزواج منى الزواج من جويتر ، وما كنت لأقع فى غرام امرأة أخرى ولو كانت فينوس نفسها . لقد كنا قلين يضطربان بنار واحدة ، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد فى حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسللة إلى قم التلال ، ولم أكن أحب أن أصطحب معى خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قوية الشم ولا شباكاً محكمة الوثاق . كان رُحى هو كل عدتى ، حتى إذا كُلت كفى من سفك دم الحيوان الوحشى رُحت أتلتمس الظلال الرُخية والأنسام النديّة التى تتصاعد من أعماق الوادى القارص البرودة . كنت أسعى وراء هذه الأنسام الرُخية وسط حرّ النهار متلهفاً إلى أن تخلصنى من الإرهاق . وكان من عادى أن أسترسل فى الغناء ، وأذكر أنى كنت أرُدُّ : « أقبل أيتها الأنسام وامنحبنى السعادة ، انفذى إلى صدرى أيتها الساحرة ، واطفئى كما عودتى تلك النار التى



بيكاسو: كيفالوس وپروكريس

٨٢٠ تلتهمني . وربما كنت أردد كلمات حانية أخرى أملاها على قدرتي فأترنم قائلاً : « أنت نشوق الكبرى ، تملئينني حياة بلمساتك وتحركين في حب العزلة والغابات ، إن فمي أظمأ ما يكون للارتواء من أنفاسك » . ولقد وقعت هذه الكلمات الغامضة في أذن من أساء فهمها فتصور أن كلمة « أنسام » التي أرددها هي اسم إحدى الحوريات وظن أني أهيّم بها غراماً . وقد تعجّل هذا الواشي الأحمق وذهب للقاء پروكريس وأسرّ إليها بما سمعه وأفضى إليها بهذه الخيانة الموهومة . ولما كان المحبّ يُبلبله أدنى شك ، فقد سقطت زوجتي مغشياً عليها صريعة هذا الخبر المفاجيء المزعوم حتى إذا أفاقت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتى لها . وأثارها هذا الاتهام الكاذب وبدأت تخشى شيئاً لا وجود له ، وتخاف اسماً ليس ثمة أنثى تحمله ، وأخذت البائسة تنتحب كما لو كانت لها غريمة حقيقية ، ومع ذلك فقد كانت تشكّ في صدق هذه

الوشاية ، وكانت تتمنى في مأساتها أن يبطل هذا الاتهام ، وترفض أن تصدق الواشى إلا إذا رأت خطيئة زوجها بعينها ، وإلا فلن تُدينه .

وفي صباح اليوم التالى حين بدد الفجر ظلمة الليل خرجت متوجهاً إلى الغابة ، حتى إذا انتهت من الصيد اضطجعت على العشب وأخذت أردد منشداً : « تعالى يا أنسام ، أقبل وخلصني من الإرهاق » ، وخيل إلى فجأة أنني أستمع إلى أنات تردد كالصدى في إثر كلماتي ، فواصلت غنائي : « تعالى يا مهجة ٨٤٠ قلبي » . وسمعت حفيف أوراق تسقط فظننت أن وحشاً يقبل ، وأطلقت ربحي السريع فإذا هي پروكريس وقد أصابها الرمح في صدرها تصيح « وامصيتاه ! » . وتبينت في عسر صوت زوجتي الوقية فهرولت إلى المكان الذى انطلق منه صوتها ، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تلطخت ثيابها الممزقة بدمها ، وهى تنتزع من جرحها الرمح الذى كانت قد أهدهت إلى ، وحملت بين ذراعى في رفق ذلك الجسد الذى أعزّه أكثر مما أعزّ جسدى ، وضمت جرحها العميق بقطعة انتزعتها من ثوبى ، وجهدت في حبس الدم حتى لا يتدفق ، واستحلفتها ألا تموت وتتركنى أعانى بعدها من جريمة قتلها ، غير أن قواها ما لبثت أن خانتها . وكانت في احتضارها تعاني لتفصح عما في صدرها من غير إكثار وهى تقول : « استحلفك بحق رباط الزوجية الذى جمع بيننا ، بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحت الآن بين أيديهم ، استحلفك بحق ما أسبغت على من حنانك ، وبحق حبي لك الذى لم يضعف حتى في اللحظة التى أسلم فيها الروح ، والذى كان سبب موتى ألا تسمح « للأنسام » أن تغدو لك زوجة بعدي ، فتأخذ مكانى في فراشنا » . حينئذ أدركت أن هذا الاسم هو الذى جرّها إلى ذلك الخطأ فكشفت لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجد نفعاً ، فغابت عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها ينساب مع بقايا دمه ، وظلت محمقة فى ، ثم ضمت صدرى إلى صدرها وأسلمت على شفقي روحها البائسة ، إلا أن قسماتها كانت تشع ٨٦٠ بسكينة تشى بانفلات روحها واثقة من إخلاصى لها .

وانحدرت دموع الشبان جارية حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذى كان دمه يسيل هو الآخر ، وساعتها رأوا أياكوس مقبلاً فى صحبة ولديه الآخرين فى مجموعة من الجند الجدد المدججين بأقوى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضى بهم .

# التعقبات

(١) المينياسيون [ أبناء سلالة مينياس ] هم أهل أرجوس ، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مينياس جدّهم لأهمهم . وقد أطلق هذا الاسم على چاسون نفسه لأنه كان حفيد مينياس عن طريق أمه الكيميديه . وكانت پاجاساى بلداً فى خليج پاجاساى جنوب ئيساليا على مقربة من مدينة يولكوس عاصمة مملكة أيسون والد چاسون .

(٢) كان فينيوس ملك طراقيا قد فقا أمين ابنه عقاباً لها على تهمة كاذبة ألصقتها بها زوجته ، فقضى الآلهة أن يصبح فينيوس كفيفاً ، كما حكموا عليه أن تعذبه الماريسس — وهى طيور ذات روءس نساء بشرية — بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن فمه حينما يقبل على التهامه .

(٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويروى كولخيس وهى جورجيا الحالية ، ويصب النهر فى شرق البحر الأسود .

(٤) الفروة الذهبية هى فروة الكبش الذى حمل فريكسوس وشقيقته هيلى عبر البحر [ انظر الكتاب السادس ] ، وكانت هيلى قد سقطت فى مضيق الدردنيل الذى أضفت عليه اسمها . وأدرك فريكسوس كولخيس وحده حيث قدم الكبش قرباناً للإله أريس [ مارس ] .

(٥) كان على بحارة الأرجو أن يتجنبوا صخوراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السمپليجاديس ، كانت تلتصق بالسفن وتهوى بها إلى قاع البحر .

(٦) أى هيكاتى إحدى ربات القمر والعالم السفلى فى آن واحد ، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التى تبث الذعر فى نفوس المسافرين ليلاً . وكانت تمثل على شكل ثلاثة شخوص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثل الحالات الثلاث المتوالية للقمر ، أى الهلال ثم البدر ثم المحاق ، لهذا اشتهرت هيكاتى بالبقطة لأنها تستطيع الرؤية فى اتجاهات ثلاثة فى الوقت نفسه .

(٧) هو آيتيس والد ميديا وابن الشمس .

(٨) الهيلازجيون اسم أول قبائل عاشت فى اليونان القديمة ، وأصبحت هذه التسمية تطلق فيما بعد على اليونانيين عامة .

(٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلاّ توطئة لسرد أعمال ميديا السحرية ، وهو ما جعل أوفيد يطرح جانباً قصة ملاهى الأرجو .

(١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكم فيه ، وأن إبطال فعل السحريتم عن طريق قرع الصنوج البرونزية . أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسا فليس مؤكداً ، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس فى قبرص ، وهى مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها نناجم النحل .

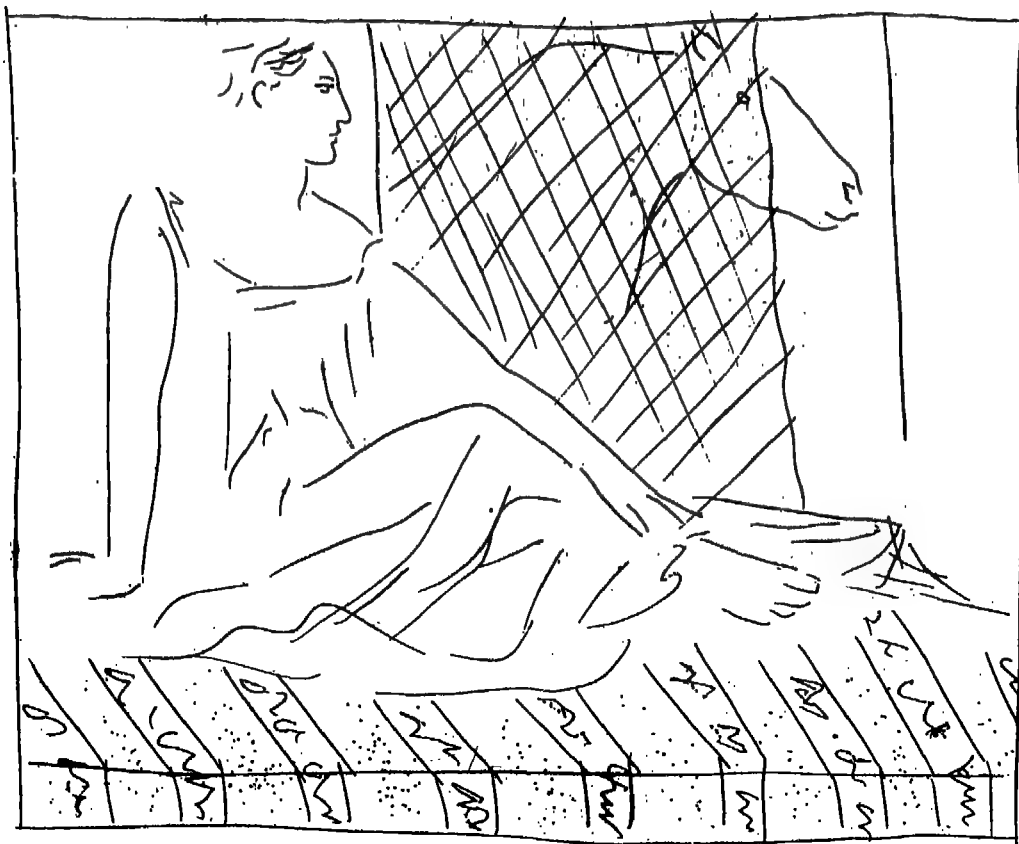
(١١) أو إله الشمس أبو آيتيس .

(١٢) هذه الجبال هى التى تكتنف سهول ئيساليا .

(١٣) ذكرت كافة هذه الأنهار فى الكتاب الأول . أما بوىى فهى بحيرة فى ئيساليا عند سفح جبل پيليون .

- (١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً في الكتاب الثالث عشر .
- (١٥) ربة الشباب وهي جوفتنا عند الرومان ، وتقابل هيبى عند الإغريق .
- (١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جمراناً لمحاولته هتك عرضهن وخلفته فوق جبل پارناسوس
- (١٧) في آسيا الصغرى .
- (١٨) يعنى أوفيد شواطئ جزيرة ليسبوس ، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل في الكتاب الحادى عشر .
- (١٩) المقصود هنا جبل إيدا في فريجيا .
- (٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونوس بن باكخوس لأنه كان قد سرق منهم عجلاً فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه . وفى الوقت نفسه حول العجل إلى وعل .
- (٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة فقد كان والد كوريتوس هو باريس بن بريم .
- (٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة ، وهي إشارة إلى هيكلها التي تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [ انظر الكتاب الثالث عشر ] .
- (٢٣) مسخت جونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريبيلوس بن نبتون .
- (٢٤) كان أهل رودس يسمون التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من ألقاب جونو . أما ياليسوس فكانت مدينة في شال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة في تشكيل المعادن وفى السحر أيضاً .
- (٢٥) ألسيداماس هو أحد مواطني كارثايا وهي مدينة بجنوب جزيرة كوس في بحر إيجه ، وكانت إينته كتيبيلا قد تحولت إلى يمامة لأن أباهما خطبها إلى رجل آخر غير الذى وعده بخطبتها من قبل .
- (٢٦) ليس المقصود هنا وادى تمهى المشهور وإنما إقليم في بويوتيا . أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد في الكتاب الثانى وغير ابن پوزيدون [ نبتون ] الواردة قصته في الكتاب الثانى عشر .
- (٢٧) فيليوس شاب بويوتى كان يعشق سيجنوس بن هرييه عشقاً محرماً ، وقد ازدري سيجنوس هذه العلاقة قائلاً لفيليبوس أنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يقتك بأسد ضخم وأن يقتنص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم لجويتر قرباناً ثوراً برياً كان ينشر الرعب في الريف كله . واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وينصائح هرقل ، الأمر الذى جعله ينسى عشقه لسيجنوس .
- (٢٨) بليورون مدينة في جنوب إيتوليا .
- (٢٩) كومي إبنة أوفيسوس هي أول من ابتكر الدرع النحاسى . وقد تأمر أبناؤها على قتلها فمسختها الآلهة طيراً كي تنجو من هذا المصير .
- (٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطئ أرجوس ، وقد اشتهرت لانتحار ديموسثينيس فيها بالسّم ، ولا يرد تحول ملك كالاوريا وملكتها إلى طائرين إلا في نص أوفيد .
- (٣١) ليتو أم أبوللو وديانا .
- (٣٢) كان يوميلوس قد قتل ابنه بوتريس في ساعة غضب فحوّله أبوللو إلى طائر عقاباً له .
- (٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً .
- (٣٤) كان بيريفاس ملكاً في أتيكا قبل كيكرويس واشتهر بالعدالة ، وعنده القوم مثلاً كانوا يعبدون زيوس [ جويتر ] الذى نقم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك ملحقاً بشخص أبوللو ، أما زوجته فينى فقد مسحها عقاباً بحرياً .
- (٣٥) ألكيوى هي إبنة الفرسان سكرون دفعها أبوها في الماء فحوّلها الآلهة إلى طير القاوند .
- (٣٦) يمر أوفيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميديا التى انتقم من چاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كريون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى العروس الجديدة وشاحاً وتاجاً مغموسين في السم ، ثم أشعلت النار في القصر وذبحت أولادها من چاسون وهربت . وهذا هو موضوع مأساة ميديا عند أوريبيديس وعند سنيكا ، بل وعند أوفيد نفسه !
- (٣٧) تروى الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذى قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يوسثيا حيث عتقه . ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أتيكا وأخذ يثير الرعب بين الناس . وجاء ثيسوس فروضه وقاده إلى أثينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أبوللو في دلفى .

- (٣٨) كانت أنثى الخنزير البرى تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنثه . وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تيفون وإخيدنا واستطاع ثيسوس أن يقضى عليها .
- (٣٩) كان بيريفيتيس بن فولكانوس [ هيفايستوس ] يقرع كل من يمرّ به بهراوته النحاسية الضخمة ، واستطاع ثيسوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب .
- (٤٠) كان اللص پروكروستيس يتصيد المسافرين المارين بمدينة إليوسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكته ويشد أطرافهم ثم يبتز من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة . وقد تغلب عليه ثيسوس وأرغمه على معاناة نفس العذاب الذى كان يلذقه الآخرين .
- (٤١) كان سيرسيون بن نيتون يتحدى المارة بإليوسيس إلى المصارعة فيقضى عليهم ، وقد صارع ثيسوس وسحقه فى الأرض .
- (٤٢) ألكاثوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذى يدعى ألكاثوس ، وتروى الأساطير أن أحد ملوك ألكاثوى القدامى كان ليلكس الذى وفد عليها من مصر . ويسمى شعب هذه المنطقة بليليجيين نسبة إلى ليلكس .
- (٤٣) « مينوس » لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته ، مثل كلمة « فرعون » المصرية . فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروبا الأسطورى والآخر حفيده زوج پاسيفاي وعاهل دولة البحار ، غير أن أغلب الشعراء يخلطون بينهما . أما الحضارة المعروفة بالمينوية فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثانى قبل المسيح . ومن آثارها المشهورة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطئ الشمالى وفستوس فى جنوب الجزيرة . وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخبيل .
- (٤٤) لم تذكر قصة آرئى إلا فى هذا النص .
- (٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزيوس اسم أمه إيجينا على جزيرة أويونيا .
- (٤٦) كانت دودونا فى إيروس بشمال اليونان تزدهر بأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان ، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم عن طريق حفيف أوراق شجر البلوط المقدس .
- (٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة « ميرميدون » باليونانية « النملة » .
- (٤٨) انظر الكتاب السادس .
- (٤٩) كانت فكرة غيرة الآلهة من سعادة البشر المفرطة مألوفة عند القدامى ، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهى تعاقب كل من يزهد من البشر بسعادته ويختال . وقد أعطى أوفيد مثلاً لهذا الانتقام فى قصة نيوى بالكتاب السادس .
- (٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوفيد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدوله أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه .



پیکاسو : باسیفای والتور

## الكتاب الثامن

### مينوس وسكيللا

كانت نجمة الصُّبح قد أرسلت نور النهار وبددت ظلمات الليل حين خمدت ريح الشرق وتجمعت الغيوم في السماء ، ونشرت ريح الجنوب الحانية الشراع ليعود كيفالوس بصحبة أبناء أياكوس وأخذت تدفعهم إلى الشاطئ المأمول فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون . عندها كان مينوس يغزو شواطئ ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة الكاثوس التي كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الأشيب تتخلله على جانبي مفرق الرأس خصلة من شعرات أرجوانية اللون متألفة يستمد منها قوته العاتية .

وتراعى الهلال الوليد بقرنيه ست مرات متتالية دون أن يحسم مصير الحرب ، وكان الطرفان يتنازعان النصر منذ أمد طال ، وكان الملك قد أضاف بُرجاً إلى أسوار المدينة الشاذية ، ويُقال إن أبوللو بن لاثو قد أودع قيثارته الذهبية به ، فأخذت أحجار هذه الأسوار عنها أنغامها وحذقتها . وما أكثر ما كانت ابنة الملك نيسوس تصعد في البرج خلال العصر الذى سادته السلام فتلهو برمي الأسوار بحصوات صغيرة فإذا الأسوار تنطلق شاذية بالأنغام . وكذا في أوقات الحرب لم تتخلف عن أن تصعد في البرج لتُشرف على معارك مارس الرهيب . وقد أتاحت لها تلك الفترة الطويلة التى امتدت فيها الحرب التعرف على أسماء القادة ومالهم من شبكة وسلاح ، وما يمتطون من جياد ، وما يحملون من جعبات لسهامهم الكريمية الصنع ، كما تبينت قسما وجوه الجنود ، وكان أكثر ما تبينت قسما وجه مينوس بن أوربا قائداهم الأعلى ، بل لقد استشفيت ما وراء تلك القسما . فكان مينوس فى نظرها وسيا حين يعتزم بخوذته البرونزية المزدانة بحزمة من الريش ، ومهيباً حين يرتدى ترسه الذهبى المتألق . وكان إذا رمى بذرعه المقتول العضلات رجه اللدن أعجبت بمهارة البطل وقوته ، وحين كان يثنى قوسه الممتدة وهو يهيم السهم على الوتر إذا هى تقسم أنه أشبه بأبوللو عندما يتهيم لرمى سهامه . وحين كان يخلع خوذته البرونزية ويكشف عن وجهه وهو فى ردائه الأرجوانى ممتطياً جواده الأبيض المزدان بسرج زاهى الألوان وقد أحكم لجام مطيته ، إذا ابنة نيسوس تخرج عن رزانتها . وكم كانت تغبط الرمح السعيد الذى يمسك به ، وكذا جدائل اللجام التى حظيت بامساكه بها ، وكم هاجت رغبة فى أن تنزل فى حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضة العود ، وكم تمنّت لو قدفت بنفسها من البرج إلى حيث معسكر مينوس ، كما تمنّت لو قدّر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية لتُتيح لجيوش الأعداء الدخول ، أو لو كان فى قدرتها أن تحقق رغبة ما لمينوس .

٢٠

وكانت وهى فى مكانها الذى تجلس فيه من البرج تستطيع أن ترى خيام الملك الكريمية الناصعة البياض ، وإذا هى تُناجى نفسها قائلة : « لست أدرى أفرحة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشتومة التى تدور رحاها . ثم كم أنا حزينة إذ جعلت هذه الحرب من مينوس عدواً لى ، ولكنى مع هذا فرحة إذ لولا هذه الحرب ما قدّر لى أن أراه . وهل لمينوس أن يضع السلاح على أن يأخذنى رهينة بين يديه فأحظى برفقته لقاء السلام ؟ فلا عجب أن تكون أمك يا أيجل الملوك التى أشعلت نار الحب فى فؤاد أبيك الإله صورة منك . وقد أنعم مرات ثلاثاً إذا قدّر لى أن أخلق فى الأجواء بجناحين فأملك أن أهبط فى معسكر مينوس لأكشف له عن حقيقتى وعن وهى به ، وأنا عندها على أهبة بأن أجزيه ثمن حبه إيلى إلا أن يكون هذا الجزاء التفریط فى قلعة وطنى . فليحترق عُش الزوجية الذى أحلم به ، فلن يكون ثمن سعادتى خيانتى لقومى . وكم بمن كُتب لهم النصر فى ساحة القتال من رزقوا الخير فأحسن المنهزمون لتساعدهم أنهم هم الغائمون . ولقد كان مينوس عادلاً فى حربه ، فما تلك الحرب التى شنها إلا ليثأر لابنه الذى قتل غيلة ، وقد زاده الهدف الذى يسعى إليه قوة إلى قوة عدته . وما أشد إيماناً بأن الهزيمة بنا لاحقة ، وما أدرى أى مصير سيكون لهذه المدينة . إذن فما لى أن أشجع وأفتح له أبواب مدينتنا تلبية لنداء حى ، ولا أترك نفسى للانتظار الذى سيؤول إلى اقتحام الأسوار . فمن الخير أن يتم له نصر عاجل لا تراق فيه دماء ولا يعرض حياته للخطر .

٤٠

٦٠

وفي هذا ما يطمئني الطمأنينة كلها بأنه لن يناله أحدٌ بسوء قاصداً أو غير قاصد ، وأقول غير قاصد ، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسدد رمحاً إلى صدرك وهو يعرف من تكون أى مينوس العزيز .

هكذا هيمن على فكر ابنة نيسوس أن تُسلم نفسها إلى مينوس وأن تكون مملكة أبيها مهراً له ، ورأت في ذلك نهاية للحرب ، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغنى ، وقالت تحدثت نفسها : « ثمة حامية تحرس مدخل المدينة ، ومفاتيح الأبواب مع أبى . ألا ما أشقانى أن يكون أبى هو الوحيد الذى أحشاه ، وأن يكون العقبة في طريق مسعاى . ليت الآلهة خلقتنى بلا أب . على أن كل إنسان هو في النهاية إله نفسه ، ثم إن فورتونا « ربّة الحظ » تصمّ أذانها لنداء الجبناء . ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيتُ به من هذا الغرام المبرح لاقتحمت منذ أمدٍ بعيد آية عقبة تقف في سبيلها وهي قانعة راضية بما تفعل ، فما بالى أكون أقل شجاعة ؟ وها أنذا أحسّ الشجاعة ثلأً جوانحى وتدفعنى لأن أشقّ طريقى بين المشاعل والسيوف ، وأرانى في غير حاجة فيما أنا مُقدمة عليه إلى أن أخوض آيأً منها ، فما أبغى غير خصلة من شعر رأس أبى ، تلك الخصلة الأرجوانية التى هى أنفـس عندى من الذهب ، فَبِهَا وحَدها سوف أحقق ما أطمح فيه من سعادة .

٨٠

وفيا هي تقلّب وجوه الرأى غشّى الليل الذى تتزاح معه هموم الناس ، وإذا هي مع إنسدال الظلام أكثر جُرأة . ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء ويخفّ عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسَلّت في هدوء إلى حجرة أبيها ، ونفّذت خطتها الشنعاء وانتزعت من رأس أبيها تلك الخصلة التى بها حياته ومصيره ، فما أفظعه من جرم ! .

قبضت ابنة نيسوس على غنيمتها الثمينة ونفّذت عبر أبواب المدينة وشقّت طريقها وسط جنود الأعداء مفعمة بالثقة في أنها تقدّم إليهم خدمة كبرى ، حتى إذا بلغت مليكهم الذى تملكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له : أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بى إلى طريق الجريمة ، وجئتُ أسلمك مفاتيح بلادى ودارى ولا أريد سواك مقابلها . خذ هذه الخصلة الأرجوانية دليلاً على حبى ، وبهذا فإنى لا أسلمك خصلة أبى وحدها بل رأسه أيضاً ، وييدها قدّمت له الهدية النكراء ، غير أن مينوس ازورّ عنها واهتزت مشاعره من هول فَعَلتها وصاح فيها : « ما أنت إلا عارُ دهرنا ، وإنى لأدعو الآلهة أن تطهر الأرض منك ، وأن يأبى البر والبحر أن يكونا مأويين لك ، فأنأ أرفض أن يلوّث مخلوق دنس مثلك عالمى أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد جوبيتر » .

١٠٠

وحينما تم لمينوس النصر وأمل شروطه العادلة على أعدائه المههورين ، أمر بفكّ حبال السفن وبأن يتخذ الملاحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية . وحين تيقّنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطئ دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسلاتها استحوذ عليها غضب جنونى وانخرطت في الصراخ وقد تطاير شعرها ، وجعلت تلوّح إلى مينوس : « إلى أين تمضى يا من أثرتك على أبى وبلادى ؟ إلى أين تمضى مخلّفاً من هيات لك الفوز والانتصار ، وإلى أين تنأى يا عاتى القلب بعد أن ظفرت بنصر أنا التى أستحق عليه كل إجلال وكل لوم . ألا تثير مشاعرك ما قدّمت لك من هدية ،

١٢٠  
 ألا يعينك حبي لك وأنا التي وضعت فيك وحدك آمالي كلها ؟ وإلى أين أروح أنا لو تخليت عني ؟ لقد  
 حاقت الهزيمة ببلادي ، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعت دخولها ، فقد أغلقت أبوابها في وجهي  
 إلى الأبد لخيانتي لها . وهل أستطيع أن أرجع إلى أبي بعد أن أسلمته لك ؟ إن مواطني ليمقتونني وهم على  
 حق في ذلك ، كما أن شعوب البلاد المجاورة يستنكرون المثل السيء الذي اقترفته . لقد أوصد العالم كله في  
 وجهي ولم يبق لي ملاذ في غير كريت ، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذي  
 قدّمته لك لما كنت ابن أوروبا بل ابن سيرتيس<sup>(١)</sup> غير المأمونة ، أو ابن ثمرات أرمينية أو ابن مياه  
 خاربيديس التي تهبها ريح الجنوب ، فلست إذن ابن جويتر ، ومن ثم ليست قصة ميلادك إلا أكذوبة ،  
 وليس إذن إلهاً متقمصاً ثوراً ذلك الذي ضاجع أمك ، بل هو ثور متوحش حقيقى لم يستشعر حباً قط  
 لإحدى البقرات . أبتاه ! فلتنزل بي عقابك ، وأنت يا أسوار البلاد التي خنتها ، فلتشمتي بي فأنا جديرة  
 بحقدك على ولا أستحق سوى الموت ، وليقتلني واحد من بين الذين آذتهم خيانتى . لماذا يا مينوس تريد أن  
 أعاقب على جريمة قادتك إلى النصر ، على حين أن هذا العمل الذي يعده أبى وقومى جريمة ليس غير منّة  
 تطوّق عنقك ؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفت في تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت  
 منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هي وحدها الخليفة بأن تتخذك زوجاً لها<sup>(٢)</sup> . أجبني يا مينوس ،  
 هل تبلغ كلماتك أم أن الريح التي تدفع سفنك تبدّد شكواى أيها الناصر للجميل . لا يدهشنى الآن  
 أن پاسيفاي قد أثرت الثور عليك ، إنك لأشدّ وحشية من الثور . ما أشقانى ! ها هوذا يأمر ملاحيه  
 بالإسراع والأمواج تعصف وضربات المجاديف تشقّ المياه بينما أغيب أنا وبلادى عن عينيه ، غير أنه لا  
 جدوى ، فعبثاً تحاول نسيان جميل ، ولسوف أتبعك على الرغم منك وسأتعلّق بسفينتك سابحة في مياه  
 البحر .

١٤٠  
 ولم تكذ تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن ، تُكسبها رغبتها  
 النائرة قوة وأى قوة ، فما لبثت أن تعلّقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفلة ، ولمحها أبوها [ بعد أن تحوّل  
 إلى نسر بحرى وحشٍ الجناحين أخذ يحلّق في الأجواء ] فانقضّ عليها وهى متعلّقة بالسفينة وجعل ينهش  
 لحما بمنقاره الأقنى ، فألم بها فزع أرخى قبضتها عن السفينة ، وبدأت تهوى فتلقّفتها نسمة خفيفة حالت  
 بينها وبين أن تلمس الأمواج ، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر أطلق عليه اسم كيريس [ أبو  
 قردان ] أى من يجزّ الشعر ، وهو الاسم الذى يذكر الناس بخصلة الشعر التي اقتلعتها من رأس أبيها<sup>(٣)</sup> .

## المتاهة وتاج أريادنى

١٦٠  
 وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ونزل إلى الشاطئ ذبح مائة ثور قرباناً ووفاء بنذره لجويتر ،  
 وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها . وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجناً خلال غيابه ليصم  
 الأسرة الملكية بالعار . وما لبث هذا المولود المهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع ويكشف

قصة حبها المشينة مع الثور . فأصرّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب الكريه الصورة وقرّر حبسه في بناء مغلق معتم ملتبس المداخل ، يستحيل معه أن يصل أحد إليه أو يراه . ووفق دايدالوس أشهر صناع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء<sup>(٤)</sup> بأن جعل العلامات في هذه المتاهة مضللة ليشقّ على العين بتلك التعرجات المتجهة إلى أنحاء مختلفة أن تهتدى إلى سبيلها . وكما تتلوى مياه نهر المياندر لاهية في حقول فريجيا ، وكما يشقّ مجراه الحائر سبيلاً خفياً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يُداني مآثاه ، وكما يرتدّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضم حيناً آخر فيفتّر تياره بعد أن يضلّ مقصده ، كذلك ضاعف دايدالوس من سبل التضليل بشقّه سبلاً ودروباً لا حصر لها<sup>(٥)</sup> .

حَسَبَ مينوس ذلك المخلوق الغريب الذى نصفه ثور ونصفه آدمى ، وكان قد قدّم له ضحايًا من أهل أثينا<sup>(٦)</sup> مرتين . وحين قدم له الضحايا في المرة الثالثة مجازاة للاقتراع الذى يتجدّد كل تسع سنوات قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سيُقوا إليه كى يلتهمهم . ذلك أن نيسوس الذى دُفع إلى المتاهة لكى يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادنى في أن يهتدى إلى طريق العودة ، إذ أخذ يعيد لفّ الخيط الذى كان قد ترك أوله عند الباب ويحمله كلما ولج إلى الداخل ، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذى كان قد دخل منه والذى لم يخرج منه أحد قبله . وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اختطف ابنة مينوس ، غير أنه تخلّى عنها وهجرها على شاطئ تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها حزينة إلى أن جاءها باكخوس فطوّقها بذراعيه وقدّم لها العون ، وتناول التاج من فوق رأسها ليحوّله إلى كوكبة من نجوم السماء كى يسبغ عليها مجداً أبدياً ؛ فكانت جواهر التاج تتحوّل وهو طائر في الفضاء إلى نجوم متألّثة ما لبثت أن انتظمت في السماء محتفظة بشكل التاج مستقرة في منتصف المسافة بين نجوم الجاثى على ركبته وكوكبة حامل الثعبان<sup>(٧)</sup> .

## دايدالوس وإيكاروس

وبعد أن سئم دايدالوس الإقامة في كريت اشتاق العودة إلى بلاده [ أثينا ] التى طال غيابه عنها والتى كان يفصله عنها البحر ، فأخذ يناجى نفسه قائلاً : « قد يملك مينوس أن يحول دونى ودون العودة عبر الأرض أو البحر ، وأنسى أن السماء مفتوحة أمامى يمكننى العودة عن طريقها ، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شيء ما استطاع أن يستحوذ على الفضاء » . وأخذ بعد ذلك يُعمل فكره في فن لم يعرفه من قبله أحد ، ويخضع الطبيعة لقوانين جديدة ، وانبرى يثبّت صفًا من الريش في خيط مبتدئاً بأقصره متدرّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدرًا إلى أعلى ، على النحو الذى يصنع به الرعاة مزاميرهم من الغاب فيزيد في طول كل أنبوبة عن سابقتها ، ثم شدّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكّلها على هيئة أجنحة الطائر الحقيقى بانحناءاتها الخفيفة ، وقد وقف ابنه إيكاروس إلى جانبه ضاحكاً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكّل الأداة التى ستُورده حتفه ، وكان يقبض على الريش

٢٠٠ الذى ينتفش مع هبات الريح أو يطوق جود الشمع بإليهامه ، فيعوق بعينه ما أنفقه أباه في هذا العمل العجيب .

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع في الهواء وحاول حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل ، ومضى يوصي ابنه قائلاً : « أنصحك يا إيكاروس أن تحلق بجناحك على ارتفاع وسط بين البحر والشمس ، إذ لو دانيت سطح البحر نذت مياهه جناحك فتقلت ، ولو حلفت عالياً لألهب وهج الشمس جناحك ، فتوسط في طيرانك بين بين . وإن أحذرك أن تصوب بصرك إلى النجوم وخاصة كوكبة راعي الشاء أو كوكبة الجوزاء في الدب الأكبر أو نجوم سيف الجبار<sup>(٨)</sup> ، ولتدخلن لك مرشداً » . وبينما دايدالوس العجوز يدلي بإرشاداته جعل يثبت الأجحة على كتفى ابنه إيكاروس وقد احمرت وجنتاه ويلتتها الدموع وارتعدت يدها حناناً ، وقبل ولده في خدّه قبلاته الأخيرة . فقد حلق بجناحيه في الهواء مؤزّع النفس على رفيقه ، هذا القلق الذى يساور الطائر وهو يخرج صغاره من العش في أعالي الأشجار ويطلقها في الهواء للمرة الأولى . وبدأ يستحث إيكاروس أن يتبعه على أن يبقى على مقربة منه ، ويعلمه من الفن ما كان سبباً في هلاكه ، ويحرك جناحيه متطعماً إلى الخلف يرقب ولده . وقد رآهما صياد كان يلقي شبابه وراع كان متكئاً على عصاه وفلاح كان منكفئاً على محراثه ، وأخذ العجب منهم فظنوا هذين الرجلين القادرين على الطيران عبر الأجواء إلهين من بين الآلهة .

٢٢٠

وكانت جزيرة ساموس التى وهبت لچونو تقع عن يسارهما وپاروس وديلوس من خلفهما ولبنشوس عن يمينها وكذلك جزيرة كاليمنى الغنية بعسلها<sup>(٩)</sup> ، حين انتشى الصبى بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فعلاً في السماء حتى اقترب من الشمس المخرقة فذاب الشمع العطر الذى يلصق الريش بعضه ببعض ، وإذا هو يحرك ذراعيه بعد أن تعرتا فصرخ منادياً أباه ، ولكنه كان عندها يهوى . وسرعان ما سقط في مياه البحر الذى ابتلعه في أعماقه وحمل اسمه . وأخذ الأب التعس الثاقل ولده يصرخ « إيكاروس أين تراك الآن يا ولدى ، وأى أجواز الفضاء غيبتك ؟ » . وظل يصيح باسم إيكاروس حتى لمح نثار الريش على سطح الماء ، وعندها نقم على فنه ، ثم وارى ابنه التراب ، وما تزال الأرض التى دُفن بها إيكاروس تحمل اسمه .

## پيرديكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه الذى لقي حتفه لمح طائر الحجل المائى الثرثار فجعل يغرد طرباً ويرفرف بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة ، وكان طائراً فريداً لم ير مثله من قبل ، إذ كان إنساناً تحول منذ قريب إلى طائر ليتمثل عقاباً أبدياً لدايدالوس ، ذلك أن أخته — ولم تكن تعلم ما خبأه لها القدر — أرسلت ابنها وكان فتى ذكياً في الثانية عشرة من عمره ليُعلمه دايدالوس ويُنشئه . وقد أعجب الصبى بالعمود الفقري للسماك واتخذهُ نموذجاً يصنع على غرارهِ أسناناً على حافة شريط من الحديد فإذا هو يخترع

٢٤٠

المنشار ، كما كان أول من استطاع وصل ذراعين متساويين الطول من الحديد بحيث إذا ركز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة ، ومن هنا اخترع الفرجار ، الأمر الذي أثار الغيرة في قلب دايدالوس فألقى بابن أخته من فوق قلعة منيرفا ، ثم افتعل جلبة توحى بأن الصبي قد سقط قضاء وقدراً ، غير أن الإلهة باللاس حامية العباقرة سرعان ما أمسكت بالفق وهو يهوى وحولته إلى طائر وكسته ريشاً وهو ما يزال معلقاً في الفضاء ، ومنحته سرعة في الجناحين وأخرى في القدمين يستغنى بهما عن إعمال بدييته ، وبقي اسمه عالماً به يُبَيِّزُه ، فهو لا يطير عالياً في الأجواء بل يجعل قريباً من الأرض ، كما أنه لا يتخذ عشه في قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين حزم الأغصان التي تتخذ منها الأسوجة ، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكره بسقوطه منها فيما سلف .

## الخزير الكاليدوني . ملياجر

٢٦٠ وعندما أحس دايدالوس بالإرهاق من طول السفر استقرَّ بيلاد إتنا ، وكان كوكالوس ملك هذا الإقليم قد حمل السلاح دفاعاً عنه بعد هروبه وأظهر له من ضروب العطف الكثير<sup>(١٠)</sup> ، وكانت مدينة أثينا قد تخلّصت بفضل انتصار ثيسوس من دفع الجزية الرهيبة التي كانت تُثقلها بالأحزان ، فزُيّنت المعابد بالكاليل الزهور وأخذ الناس ينشدون للربة المحاربة منيرفا ولجوبيتر والآلهة الآخرين ويقدمون لهم القرابين التي نذروها . وذاعت شهرة ثيسوس كالبرق في مختلف مدن أرجوس حتى بات الأخيون يفرعون إليه في الأوقات التي يُجَدِّقُ بهم فيها خطر ، وكذا لجأ إليه أهل كاليدون على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان ما يزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر الربة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها<sup>(١١)</sup> .

وتروى الأقاصيص أن الملك أوينيوس قد نعم بحصاد وفير في عام رخاء فقدم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس<sup>(١٢)</sup> والنبيل لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرفا الشقراء ، وجعل لآلهة الريف ثم لبقية الآلهة ما كانوا يترقبونه ، عدا ديانا ابنة لاتو فقد كانت الوحيدة التي أهملت محاربيها ولم تُقدم لها قرابين أو يطلق لها بخور ، فاحتدم الغضب في صدرها وصاحت قائلة : « لن أترك هذا الأمر يمر دون عقاب يخفف عن نفسي ، ولن أسمع بأن يزدّد الناس تراخى في الثأر لنفسي ، فما من أحدٍ يعيب على أن أنتقم لإهانة لحقت بي » ، ثم أطلقت خزيراً برياً في ضخامة ثيران مراعى إبيروس الكثيفة الحشائش وأعظم جثة من ثيران صقلية . كان خواره مجلجلاً ، وعينه الدمويتان ترسلان شرراً ، وعنقه الضخم الصُّلب يشمخ عالياً ، يغطي جلده شعر خشن نافر كالرماح ، ويلطخ كتفيه العريضين زبد يغلى ، وأنيابه كأنياب الفيل الهندي ، تنبعث نار من بين فكّيه فتحرق أنفاسه أوراق الأشجار .

كان هذا الوحش الغريب يسحق القمح الذي ما يزال غضاً في سنبله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى ، فحطّم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم ، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تمتلئ الصوامع أو تكثر ساحات الدُّرس عامرة بالحصاد ، وتناثرت عناقيد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع

حَبَّاتِ التوت وأغصان الزيتون الدائمة الخضرة . كذلك أخذ هذا الخنزير البرى يشن هجمات ضارية على قطعان الماشية فلم ينج منه لا الرعاة ولا كلابهم ، ولم تغلح الثيران الشديدة البأس في حماية القطعان التي تحرسها ، وكان الناس يهربون منه متفرقين هنا وهناك ، ولا يحسّون الطمأنينة إلّا حين يهتمون خلف أسوار المدينة . وظلّ الحال على ما هو عليه حتى اجتمع ملياجر مع جملة من الأبطال وحدث بينهم الرغبة في نيل المعبد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب . ٣٠٠

والتقى إبنّا تينداريوس<sup>(١٣)</sup> التوأمان اللذان اشتهر أحدهما بللاكمة والآخر بالفروسية ، وچاسون مُشيد أول سفينة [ سفينة الأرجو ] وثيسوس وبيرثوس الرفيقان المتلازمان ، وابنا ثيستوس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدو ولدا أفاريوس ، وكاينيوس أيضاً الذي كان امرأة في سالف الزمان<sup>(١٤)</sup> ، وليوكيبيوس الصائب الرمح ، وأكاستوس قاذف الرمح الشهير ، وهيرثوس ودرياس ، وفينيكس بن أميتور ، وولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس . وانضم إليهم تيلامون وپيليوس والد أخيل ، وكذلك ابن فيريس ويولاوس من بويوتيا ثم أريتيون المقدام وإخيون العداء الذي لا يبارى ، وليلكس اللوكريسي وپانويوس وهيليوس وهيباسوس الوحشي ونسطور الذي كان في مقتبل العمر ، وانضمت إليهم فصيلة من الرجال الذين بعث بهم هيبوكوون من أميكلاي القديمة ، وكذلك لايرتيس هو پينيلوي الذي اصطحب معه أنكاياوس الأركادي والعراف الحكيم ابن أميكس وأمفيارووس الذي لم يكن يخشى حتى ذلك اليوم أذى يناله من زوجته<sup>(١٥)</sup> . ثم الفتاة الصيادة بطلة تيجيا وفخر الغابات الليكاوية<sup>(١٦)</sup> وقد شبكت طوق ثوبها بمشبك مصقول وجمعت شعرها من الخلف مضموماً في عقدة واحدة ، وعلقت كثانة سهامها العاجية على كتفها اليسرى بينما أمسكت القوس بيدها اليسرى ، وكلما سارت اهتزت الكثانة بسلامها محدثة صوتاً ، [ ولو أن قسماها على وجه فتى لقلل إنها قسامات فتاة ، وإن كانت فتاة قيل إن قساماتها مثل قسامات الفتى الوسيم ] ، ولم يكد البطل الكاليدوني يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة ، واحتدمت رغباته الكامنة في الأعماق ، وزفر زفرات حارة وهو يتمتم : « طوبى لذلك الرجل الذي سوف يظفر بها زوجة » ، ولم يُنح له مع هذه الحال أن يضيف كلمات أخرى ، فقد كان هناك أمر أجّل خطراً يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرى . ٣٢٠

انطلق الصائدون حتى بلغوا تلك الغابة التي لم تنل الأزمان من أشجارها الضخمة فلم تمسسها فأس حطّاب ، والتي ترقى عند نهاية السهل مطلة على الحقول المنحدرة ، فنصب بعض شباك الصيد ، وأطلق بعض الكلاب ، بينما اقتفى الآخرون أقدام الخنزير البرى متعجلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذي جاءوا لاصطياده مغامرين بحياتهم . وكان الخنزير البرى قد كمن في أسفل جزء من مجرى في أعماق واد تنمو فيه نباتات المستنقعات والعشب المائي والغاب وتجتمع فيه مياه الأمطار ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة ، وانطلق بين الأشجار التي أخذت تهتز وترسل أصواتاً مختلفة ، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم في قوة على أسلحتهم المشهورة الوضاعة النصل فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب التي تجمعت لتصدّه محاولاً تشتيتها بقفزات جانبية . وقذف إخيون أول سهم فطاش ولم ٣٤٠

يحدث إلا جرحاً طفيفاً في جلدع شجرة اسفندان ، ثم بدت القنيفة الثانية التي أطلقها چاسون وكأنها ستصيب ظهر الخنزير البرى غير أنها لشدتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه ، وعندها صاح مويسوس بن أمبيكس قائلاً « لكم أخلصت في عبادتك يا فويوس وسوف أظل غلصاً ، فسدد رعى ليصيب هدفه » واستجاب الإله لأمنيته ، غير أن الإلهة ديانا سلبت الرمح وهو في مسراه نصله الحديدى فلم تصب الخنزير البرى غير يد الرمح الخشبية ، فامتلا الوحش غضباً ، وأخذت سورة الغضب تعصف في عنف البرق ، وانطلق الشرر من عينيه واحتدم اللهب في صدره ، واندفع كصخرة تهوى من منجنيق فوق الأسوار أو على أبراج غصت بالجنود ، وارتمى الوحش النهوم للدم بعد قفزة لا تقاوم فوق الأبطال الشبان ، فطرح إيوبالاموس وبيلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بحملهما بعيداً . ولم يكن إينايسيموس بن هيوكون سعيد الحظ إذ وقع بين أنياب الخنزير القاتلة ، وكاد نسطور يهلك قبل حرب طروادة لولا أنه غرس رمحه في الأرض وأثكأ عليه ليثب إلى قمة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو يدلك أنيابه في جذعها ، ثم انثنى الوحش فمزق أنيابه فخذ هيباسوس بن يوريتوس ، واعتلى الشقيقان التوامان [ كاستور وپوللوکس ] قبل أن يصبحا نجمين في السماء صهوق جواديهما الأنصع بياضاً من الجليد وقذا الخنزير برميحهما ، وكادا يصيبانه لولا إفلاته داخل الأدغال المعتمة التي لا ينفذ خلالها جواد أورمع .  
 وأسرع وراءه تيلامون ، لكن حماسه الرعناء جعلته يسقط على رأسه مصطدماً بجذع شجرة ، وبينما كان پيليوس يعاونه على النهوض من سقطته كانت بطلة تيجيا قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر الخنزير ونفذ أسفل أذنه وصبغ بعض شعراته بقطرات الدم . وأثار نجاح الفتاة وفرحة ملياجر الذي كان أول من رأى دم الخنزير يسيل ، فلفت إليه نظر أصدقاؤه وقال لأتالانتا « ما أحقك بأن تتقلدى وسام الجدارة » .

غلب الرجال الخجل وأخذ بعضهم يستنهض همم البعض وبدأوا يسددون رماحهم دون أن تكون ثمة خطة للهجوم فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم . ولم يصب أحدهم الهدف ، فاندفع أنكايوس الأركادى حاملاً بطلته ذات الحدين ، واتجه نحو مصيره المحتوم يصبح في جنون : « انظروا كيف أن ذراع الرجل أقوى من ذراع المرأة ! أفسحوا لى الطريق ، ولسوف أقضى على هذا الخنزير البرى يبدى مهما حتمه ابنة لاتو ودافعت عنه بأسلحتها ، وكرها عنها » . ورفع بطلته بكلتا يديه لكى يضرب الخنزير مغروراً غرور كلماته ، غير أن الخنزير البرى تنبه لهذه الهجوم الجريئة وأعمل أنيابه في أعلى حقو أنكايوس سالكاً بذلك أقرب طريق يصل به إلى إهلاكه ، فتهاوى أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلّت وسط بركة من الدماء ، وغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر . وإذا پيرثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً رمحه بيده القوية ، فناداه ثيسوس الإيجى قائلاً : « يا من هو أعزّ على من نفسى افزع إلى مكان أمين ، فنحن على البعد أقدر منا على القرب ، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه » وأطلق مع كلماته رمحه المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزى الثقيل فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط . وسدد چاسون في إثره رمحاً أصمى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً في فخذه فخرّ على الأرض ، غير أن ملياجر

بن أونيوس سدّد رحين اختلف مصيرهما ، إذ غاص أحدهما في الأرض بينما استقر ثانيهما في منتصف ظهر الخنزير . عندها لم يدع الوقت يذهب سدى ، فاقترب من الوحش الذى أخذ يتلوى ثائراً يسيل من شذقيه زبد مختلط بالدم المتدفق ، وها هو ذا من أدماء يقف بجواره وقد أثار غضب الوحش الجنونى ، ثم غرس رمح اللامع في كتفه ، فصاح رفاقه مهلّلين مشجّعين وأخذوا يشدّون بأيديهم على يد البطل الذى حقق



بيكاسو : ملياجر

النصر ، وتطلعون مذهولين إلى ضخامة الوحش الذى شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها ، غير أنهم ظلوا يخشون الاقتراب منه ظناً منهم أن يكون ما يزال قادراً على التصدى لهم . ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والتفت إلى أثالانتا قائلاً : « تقبل هذه الغنيمة التى ظفرت بها يا عذراء نوناكريس<sup>(١٧)</sup> ، ولتشاركيني مجدى » ، ثم أعطاهما رأس الوحش بأنيابه الضخمة وجلده الخشن الشعر . وقد أعجبت أثالانتا بالهدية ومهديها ، غير أن صنيعة أثار غيره الآخرين فسرت بينهم مهمة هز بعدها ابنا ثيستوس قبضتيهما وصاحا بغضب : « اتركى هذه الغنيمة أيتها الفتاة ، ولا تنتزعى شرفاً هو حقنا نحن ، ولا تسترسلى فى الغرور بجمالك فقد يصبح هذا المفتون المتيم بجمالك عاجزاً عن أن يحمى فنتك » . وانتزعا الغنيمة من أثالانتا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها ، فأحق سلوكهما ابن مارس وانفجر غاضباً وجزاً على أسنانه وهو يصيح : « أيها اللصان إنكما بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده ، وسوف تعلمان أننا يتوعد وأينا ينقذ » ، وأسرع فأغمد نصله الفاتك فى قلب بليكسيوس الذى كان أبعد ما يكون عن أن يتخيل ما كان . وقد تردد توكسيوس بين الرغبة فى الانتقام لأخيه المضرج بدمه وبين الخشية من أن يلاقى مصير أخيه ، ولكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردد ، فقد عاجله برمح الذى كان ما يزال يحمل أثر سخونة الجريمة الأولى .

## شأألثايا

وكانت ألاثايا قد توجهت إلى المعبد حاملة القرابين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنها ملياجر حين شاهدت جنائى شقيقها بمحمولين إلى دارهما ، فملأت المدينة عويلًا وصراخاً وهى تضرب صدرها ، واستبدلت بثيابها المطرزة بالذهب ثياباً سوداء ، غير أنها ما كادت تعلم اسم قاتل شقيقها حتى أنسيت أحزانها وجففت دموعها ولم تعد لها إلا رغبة واحدة هى الانتقام . وكانت الشقيقات الثلاثة ربّات الأقدار<sup>(١٨)</sup> قد وضعن كتلة من الخشب فى المدفأة بدار ألاثايا ابنة ثيستوس ساعة كانت ترقد فى فراشها بعد أن وضعت مولودها ، وبينما كن يغزلن خيوط القدر بمس إيهامهن قلن : « لييقن هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية » ، وما كدن يهين كلمتهن ويغادرن الدار حتى أسرع الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطفأتها بالماء وخبأتها فى حنايا الدار ، وعاش الطفل فى أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية . وقد أسرعت ألاثايا بعد مصرع شقيقها فأخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعاً صغيرة أخرى من خشب الصنوبر وكومتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التى هى إيذان بموت ابنها . وحاولت مرات أربع أن تلقى بالكتلة الخشبية وسط النيران إلا أن شجاعتها كانت تخونها فى كل مرة ، إذ كان حبها لابنها يعادل حبها لأخويها ، كما كان قلبها يتمزق بين الوفاء لابنها والوفاء لشقيقها . وكان التفكير فى الجريمة التى سوف تقترفها يزيد وجهها شحوباً ، ثم تعاودها الرغبة فى الانتقام فيحتقن وجهها غضباً . وكانت تسيطر عليها مشاعر القسوة أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة ، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشى تجفف

دموعها حتى تعود الدموع فتنبثق من جديد . وصارت كالسفينة تتناوحها الأمواج وتتقاذفها الرياح في اتجاهات مختلفة فتضطرب في سيرها ، إذ كانت مترددة بين عواطفها المتنافرة ، فما يكاد غضبها يبدأ حتى يعود ثانية ويثور .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوة على عاطفة الأمومة فيها ، وآثرت أن ترضى طيفى شقيقها اللذين يسرى دمهما في عروقها فاقترفت جريمة تلطخت بإثمها . وحينما شاهدت الموقد المشوم يتوهج بالنيران صاحت : « ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدى » وأمسكت بيديها الأثمتين الكتلة التى عليها يتوقف مصير ابنها ، ووقفت أمام المذبح الجنائزى وقالت تدعو : « ياربَّات العقاب الثلاث ، انظرن إلى هذه التضحية الخارقة التى قد تُطفئ من غضبك<sup>(١٩)</sup> ، فإننى فى آن واحد أثار وأقترف جريمة لا ترضى عنها الآلهة ، فلا مناص من أن يكفر الموت عن الموت والجرم عن الجرم ، وأن تتبع الجنازة الجنازة حتى تهلك أسرتنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية ، فكيف يمضى أوينيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكى ثيسيتيوس ولديه ؟ من الخير يا شقيقى ويا بنى أن تسكبوا جميعاً الدموع . ولكن هل فى مقدوركما يا طيفى شقيقى يا من فارقتما جسديكما أن تقدرا هذا التكريم الذى أخصكما به وأن تتقبلا هذا القربان الكرهى الذى يكلفنى النطفة التعسة التى نمت بين أحشائى . يالى من شقية ، ترى إلى أين يمضى بى غضبى ؟ يا شقيقى ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن . اننى أعترف أن ابنى يستحق الموت ولكن ما يعترضنى هو أن أكون أنا التى دبَّرتُ موته . ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب ، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بتحقيق جريمته ويحكم كاليدون ملكاً ، بينما أنتما حفنة رماد وشبحان لا حراك بهما قد غيبكما الثرى ؟ ولكن هل فى مقدورى أن أقدم على ذلك ؟ ألا تبا للمذنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه ، ولتسقط بموته مملكته ووطنه . . ولكن أين حبّ الأم لأولادها ، وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم ، وأين ذلك الضنى الذى حملته أشهراً خمسة ثم أشهراً خمسة ؟ ولداه ! لكم أتمنى لو كانت النار قد التهمتكم بينما كنت طفلاً صغيراً . لقد عشت بفضل والآن تموت بسبب خطيئتك أنت ، فلتتل إذن جزاء جريمتك . لقد منحتك الحياة مرتين ، المرة الأولى يوم ولدتك ، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة

الخشبية المتقدة ، ألا فلتردّ إلى الحياة التى منحتها لك مرتين أو فلتجمعنى ثانية بشقيقى . كم وددت لو أنزلت بالجاني العقاب ولكنى غير قادرة . ماذا تُرانى فاعلة ؟ أحياناً أرى جراح أخوى ماثلة أمام عيني ومشهد مصرعهما الرهيب ، وأحياناً أخرى تنهار شجاعتي أمام مشاعر أمومتى وحقّ ابنى على . ما أشقانى ، لسوف يكون نصركما فادح الثمن يا شقيقى ، ولكنى سوف أنصركما مادمت سأتابعكما أنتما وهذا الذى سأسلمه لكم لكى يسرى عن رويكما » . ونع هذه الكلمات ألفت بالكتلة الخشبية المميّنة وسط النيران بيد مرتعشة وقد أدرات وجهها بعيداً ، على حين أخذت كتلة الخشب والنار تلتهمها ترسل أنات مكبوتة .

ولم يكن مليا جر يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائباً حين أحس نيراناً تشتعل فى أحشائه ، فبذل جهداً كبيراً لكى يقوى على تحمّل آلامه القاتلة ، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالد قد أصبح يتهدده

بلغ منه الأسى مبلغه ، وعدّ الضربة التي قتل بها أنكا يوس خاتمة طيبة ومئة من القدر ، وأخذ ينادى أباه ٥٢٠ .  
الشيخ الفاني بصوت مختنق بالأنين ، ونادى أشقاءه وشقيقاته الحائيات وزوجته ، ومن يدرى لعله كذلك نادى أمه ! وكان كلما استعرت النار استعرت آلامه ، وحين أخذت السنة اللهب تضعف تباعاً ثم تمعد في النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء في الهواء وقد غطى جمرات الفحم رماداً أبيض .

وعمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامه ، وأخذت النسوة الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن . وانبطح والد ملياجر على الأرض فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضن بالغبار برماً بطول عمره . أما أمه التي كان ضميرها يعذبها على هول جرميتها فقد اقتضت من نفسها فاستلّت خنجرأ أغمده في صدرها .

ولو أن الآلهة منحتى ميثاق الأفواه والألسنة وملكات ربّات الفنون في جبل هليكون لما استطعت الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّده شكاتهن الحزينة ، فكُن يضربن صدورهن وقد غاض دمهن وما أكثرن لجماهن ، ويقين ما بقيت جثة أخيهن يُعدن إليها الحرارة ويدلكنها بأيديهن ويغطينها بقبلائهن ويعانقن المحفة التي فوق المحرقة ، حتى إذا تحوّل جسده رماداً أخذن حفلات منه ذررها على ٥٤٠ صدورهن ، ثم ركن جاثات على قبره يقبلن اسمه المنقوش على الحجر ويبللنه بدموعهن . وحين شفت تلك النواذب التي حلّت بيت پارثا وون غلّة الإلهة ديانا مسخت الفتيات جميعاً عدأ جورجيه وزوجة ابن النيلة ألكمين ، وأنبت ريشا يغطي أجسادهن وحورت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن في الهواء ، وأحالت أفواههن مناقير محدّبة ، وأطلقتهم بعد تحوّلهم على هذه الصورة إلى الفضاء .

## أخيلووس

وبينما كان ثيسبوس عائداً من المعركة التي اشترك فيها للقضاء على الخنزير البرى متجهاً إلى قلعة إريخيوس التي تحرسها أثينا التريتونية [ نسبة إلى جزيرة تريتون بأفريقيا ] صدّه نهر أخيلووس (٢٠) المترع بماء الأمطار وعاقه عن العودة ، وقال له ربّ النهر : « هلمّ فادخل بيتي يا سليل كيكرويس العظيم ولا تعرّض نفسك لقسوة أمطارى فما أكثر ما تقتلع الأشجار برُمّتها وتدفع أملها في صخب الصخور التي تعرّض طريقها ، فكم رأيت من حظائر مرتفعة فوق الشيطان تنجرف بمواشيها دون أن تغنى عن الثيران قوتها ولا عن الجياد سرعتها ، وكم يحتدم السيل حين تذوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال ، وما أكثر ما حوى من شباب في دواماته الطاغية ، إنه لأمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شطآن النهر فيهدأ انسيابه في ٥٦٠ مجراه » .

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً : « لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلووس وأنعم بضيافتك » ، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السوداء والصخور البركانية ، اكتست أرضه النّدية بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف ومحارات متعددة الألوان . وكانت الشمس قد قطعت

ثلثي مسارها في السماء حين اضطجع ثيسوس ورفاقه على الأرائك ، وإلى جانبه ابن إيكسيون<sup>(٢١)</sup> وليليكس<sup>(٢٢)</sup> بطل ترويزين الذي وخط الشيب فوديه ، وكذا رفاق ثيسوس الذين رأى إله النهر الأكارناني أنهم جديرون بالتكريم أيضاً ، فلقد كان أخيلووس فخوراً بضيفه الكبير ، وفي التواقبت حوريات حافيات الأقدام وقدمن لهم الطعام على الموائد ، ثم قدمن لهم بعد الطعام الخمر في كتوس مرصعة بالجواهر الكريمة . ونظر ثيسوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً : « ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة ، وإن كانت تبدو لي أكثر من جزيرة واحدة ؟ » فأجابه إله النهر قائلاً : « حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل جزر خمس ، غير أن بُعد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة . لشد ما أنا راغب في أن أخفف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إلهامهم شأنها حين أقص عليك قصة هذه الجزر الخمس . فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنجر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران ودعون جميع آلهة الريف إلى موائلهن ونسبني ، وأدين رقصاتهن المرحية دون دعوى ، فتولأن غضب عاصف جعل مياهي تتدفق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً غابةً ودمر الحقول واحداً إثر الآخر ، وغشى الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتي لم يعرفن قدرى إلا حينذاك ، ردفعت المياه بالأرض وبهن إلى البحر فاقتطعت المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقى الأرض وتناثر جزراً في المحيط هي هذه « الإخيناديس »<sup>(٢٣)</sup> الخمسة التي تراها أمامك . غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسميها الملاحون بيريميلي ، وكانت في الماضي فتاة دفعني هيامي بها إلى أن أسلبها عذرتها ، فثار أبوها هيبوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج ، غير أنى تلقفتها بذراعى وعاونتها على السباحة ، وأخذت أصبح : « يا نبتون يا من تسود ثانی مملكة في الكون ، يا إله المياه السيارة ، أيها الإله المسلح بالحربة الثلاثية الشعب ، يا من نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة في نهاية مطافنا . فلتنصت إلى ولتستجب إلى دعائي ، فأنت تعلم أنى سبب مأساة هذه الفتاة التي أحملها ، ولو كان أبوها هيبوداماس عادلاً أو رحيماً ، أو لو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترفق بها وعفا عني . فلتدرك هذه الفتاة البائسة التي ألقت بها وحشية أبيها في الأمواج ، أصرع إليك يا نبتون أن تهيب لها ملجأ أو تجعل منها هي ملجأ فاستطيع أن أضربها إلى صدرى من جديد » ، فطأطأ ملك البحار رأسه . ومع لفظة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فزعاً لكنها واصلت سباحتها ، وأخذت تحسّس صدرها الخفاق في خوف ، وبينما كنت أطوف بيدي على جسدها شعرت به يجمد ويغطي التراب نهديا . وفيما كنت أحدثها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تستحيل هي الأخرى ييساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هي جزيرة راسية .

## فيليمون وبوكيس

ولاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته وساد الجميع تأثر عميق بالمغامرة التي رواها ، غير أن ابن إيكسيون الذي كان بطبعه مغروراً يحقر الآلهة ويسخر من سذاجتهم تحدى مضيفه قائلاً : « ليست قصتك

يا أخيلوس إلا محض اختلاق ، وما أنت إلا مبالغاً في إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أو منحهم أشكالاً<sup>(٢٤)</sup> . وقد أذهل تحدّيه الجميع وخالفوه رأيه وخاصة ليليكس الذى أكسبته السنون خبرة فانبهرى قائلاً : « إن للسما قدرات لا حدود لها . وإذا ما رغبت الآلهة فى شيء وقع ، وإليك قصة تُذهّبُ عنك كل شكوكك :

٦٢٠

كانت بتلال فريچيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون ، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بى پيثيوس إلى حقول پيلوپس التى كان يحكمها أبوه فى الماضى<sup>(٢٥)</sup> . وعلى القرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبلُ بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم تجثماً لطيور المستنقعات . وكان چوپتر قد زار هذه المنطقة مرة متخفياً فى هيئة إنسان ، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السحرى بعد أن أطرح جناحيه ، وقد طرقا معاً أبواب ألوف المنازل طالين مكاناً يأويان إليه لكنها أغلقت جميعاً فى وجهيهما ، إلى أن لقيا فى النهاية ترحيباً بهما فى كوخ مُغطى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هى بؤكيس برفقة فيليمون الذى كان فى مثل عمرها ، وكان قد تزوّجها أيام شبابهما وعاشا فى الكوخ معاً حتى أدركتهما الشيخوخة ، وقد هوّنا على نفسيهما ما كانا فيه من عوز بتسليمهما به وتحملهما له دون مرارة ، ولم يكن فى رفقتهما خلد بل كان يخدمان نفسيهما ، فكانا الأمرين والمأمورين معاً .

٦٤٠ ولم يكد الضيفان السماويان يتخطيان عتبة الدار المتواضعة ويطلّان الرأس كى يتمكنّا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز لهما أريكة أسرع بؤكيس ببسط نسيج رخيص عليها ، ثم حرّكت الرماد الذى كان ما يزال ساخناً فى الموقد ، وأججت نار الليلة السابقة وغدّتها بالحية الأشجار الجافة وأوراقها وأخذت أنفاسها التى نهنت منها الشيخوخة تطلق ألسنة اللهب ، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار حتى وضعت فوقها قدراً من البرونز . وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها ، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذ خنزير مقدّد أخذ منه شريحة أنضجها فى القدر البرونزى . وفى الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيهما بحديث مسلّ حتى لا يضيقا بانتظار الطعام ، وقد ملأ لهما إناء من خشب الزان كان معلقاً بمسار فى الجدار بماء دافئ حتى يغتسل الضيفان ويتعشا . وكانت هناك حشية منتفخة بحشائش النهر وأعشابها الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة ، فقاما وغطّياها ببساط لم يكن يستخدم إلا فى الأعياد ، وكان مع ذلك بالياً لا يصلح إلا لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة . وتمتدّد الإلهان على الفراش ، وقامت بؤكيس العجوز وقد شمّرت عن ساعديها ومشت مضطربة ونصبت أمامها منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الآخرين طولاً فوضعت بلاطة تحتها لتتزن ودلكت سطح المنضدة بورق النعناع ، ثم بسطت فوقها التوت المرقّش الذى تعشقه الربّة مینرفا الحكيمة والكرز البرى المحفوظ منذ الخريف فى ثفل النبل وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الحارّ بعد أن وضعت كل ذلك فى أطباق من الفخار ، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطن بالشمع الذهبى اللون . وبعد قليل قدّمت اللحم الساخن ، ثم وضعت النبل غير المعتقد على المائدة ناحية لتُفسح لأطباق أخرى كانت تحمل

٦٦٠

البندق والتين والبلح المجفّفين والبرقوق والتفاح العطر في سلاله المكشوفة ، والعنب الأسود الناضج بين أوراقه الأرجوانية ، وكان في وسط هذه الفاكهة كلها قرص من العسل الأبيض ، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريين وترحابها السخى .

٦٨٠ وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يمتلئ وحده كلما فرغ ، فإذا هما يذعران ويدهشان ، ورفعاً أيديهما ضارعين إلى الآلهة وأخذاً يعتذران عما قدّما من وجبة هيئة ، وعرضاً على المضيفين المقدسين أن يذبحا لهما ما عندهما من إوزة فريدة كانت تحرس عليهما بيتهما المتواضع . وشرعاً بمسكان بالإوزة ، فإذا هم يهرب أمامهما مما أجهدهما سعياً وراءها لشيخوختها إلى أن لاذت بالإلهين فحميها من أن تذبح معلنين إنيها إلهان وقالوا : « لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذى هم به جديرون لجحودهم . أما عنكما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم ، ولكن عليكم أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل » ، واستجاب الزوجان العجوزان وتبعاً الإلهين وأخذاً يتسلقان المرقى الطويل فى عُسر وجهد متكئين على عصويهما مثقلين بشيخوختيهما .

٧٠٠ كان بين الزوجين وبين قمة الجبل مرمى سهم حين أدارا أعينهما فرأيا مستنقعا فسيحا قد ابتلع كل شيء عدا دارهما التى بقيت قائمة وحدها ، وفيما هما يدهشان لهذا الأمر ويندبان حظ جيرانها ، لمحا كوخهما الذى كان يضيق بساكنيه يتحول إلى معبد ، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغناء [ القش ] المضفر إلى سقف ذهبي ، وازدان بابه بنقش زخرف جميل وتغطت أرضه بالواح رخامية . وقال ابن ساتورن بصوت ملؤه الرحمة والركة : « حدّثني أيها الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجديرة بزواج مولع بالعدل ، أى شيء تتمنيان ؟ » وبعد أن تشاور فيليمون مع بؤكيس برهة رفع للإلهين رغبتيهما المشتركة قائلا « أن نكون لكما كاهنين ولعبدكما حارسين . هذا ما نبغى أن نظفر به ، وإذ كنا قد أمضينا حياتنا معاً فى وفاق تام فهل لنا أن تحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتى ولا تُودعنى فى قبرى ؟ » ..

وقد تحققت أمنيتهما ، فظلا حارسى المعبد طوال الحياة التى قدّر لها أن يعيشاها . وجاء يوم ناء فيه بطول العمر وكان يقفان أمام الدّرج المقدس يرويان قصة هذا المكان ، ورأت بؤكيس فيليمون يتغطى بورق شجر ، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطى بؤكيس . وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما ، فتبادلا الحديث ما رزقا القدرة على ذلك ، ثم صاحبا معاً « وداعاً يا زوجى . . . وداعاً يا زوجتى » وما لبث فهاهما أن اختفيا فى لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التى تحول كل منهما إليها . وما يزال فلاحو فريچيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين ثمتا من جسديهما .

٧٢٠ ذلك ما قصّه على شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفوعين بدافع من الخداع أو التضليل . وقد رأيت أنا نفسى أكاليل معلقة بالأغصان ، كما قدمت أكاليل أخرى نضرة بديلاً عنها بينما كنت أتمتم : « ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة ، ومن يُكرّم الآلهة يُكرّم » .

## إيريزيختون

وفرع ليليكس من قصته التي تركت أثراً عميقاً في نفوس مُستمعيه ولاسيا في نفس ثيسوس الذي كان وجوده يعزّز صحة ما قيل . وإذ كان ليليكس بدوره يودّ أن يستزيد من معرفة المعجزات التي حقّقها الآلهة ، لهذا تحدث إليه إله النهر معتمداً على مرفقه قائلاً : « هنالك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة وبقيت عليها أبداً ، وهنالك أجساد أخرى تحوّلت إلى صور شتى متباينة . أنت مثلاً يا پروتيوس إله ساكن البحر الذي يحيط الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً في صورة شاب ، وأحياناً أخرى في صورة أسد ، وقد كنت يوماً خنزيراً برياً هائجاً ، ومرة أخرى ثعباناً يرهب الجميع الاقتراب منه ، أو ثوراً مهيب القرون ، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة ، وأحياناً ماء جارياً . كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداٍ مع الأمواج .

٧٤٠

وكانت زوجة أوتوليوكوس ابنة إيريزيختون<sup>(٢٦)</sup> تحظى بهذه القدرة نفسها ، غير أن أباه كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يطلق البخور في محاريبهم ، ويقال إنه انتهك حرمة غابة مقدسة لسيريس ودنّس أَدْغالها القديمة ببلطته ، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحقّقت . وكثيراً ما كانت الحوريات يؤدّين رقصاتهن المرحّة في ظلالها ، كما كن يعقدن أذرعتهن ويشكّلن دائرة حول جذع هذه الشجرة التي يبلغ محيطها خمسة عشر ذراعاً ، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بقدر ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها ، ولم يثن هذا إيريزيختون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة . وإذ رآهم يترددون لم يتورّع هو عن أن ينتزع البلطة من يد أحدهم قائلاً : « لسوف تسقط وتلامس قممتها الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على الإلهة أم كانت هي نفسها الإلهة » . وهوى بالبلطة خلال نطقه بهذه الكلمات على جذع الشجرة بضربة قاطعة فإذا شجرة سيريس تهتز وتئن ، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشعب . ولم يكذب يشقّ جذع الشجرة حتى تدفق دم غزير أشبه ما يكون بدم ثور نُحر قرباناً في المذبح .

٧٦٠

سكن الجميع وعرتهم الدهشة ، وحاول أحدهم أن يحول بين هذا الاعتداء الأثيم ويردّ البلطة القاسية ، فحججه إيريزيختون بنظرة قائلاً : « خذ هذه كفاء نواياك الورعة » وضربه بالبلطة ضربة شجّت رأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضربات . عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردد : « أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب في طيّات هذه الشجرة ، أنذرك وأنا أُلْفِظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب ، وفي ذلك ما يخفّف عني فراقي للحياة » . وعندما أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وأخذت تهتز ثم شدّت بالحبال سقطت محطّمة تحت ثقلها الرهيب عدداً كبيراً من الأشجار المجاورة .

حزنت الحوريات الأخريات حزناً بالغاً على تلك الخسارة الفادحة التي لحقت بهن وبالعابرة ، وجعلن  
يكيّن شقيقتهم وارتيدين عليها ثياب الحداد السوداء ، ودنون من سيريس حزينات يسألنها أن تنزل عقابها  
بإيريزيخون فهزّت الإلهة رأسها قبولاً منها لما سألن ، ثم أتت على الحقول بحصادها الوافر ، واشتطت في  
عقابها مما كان يثير في الناس أحياناً الشفقة على المذنب ، ولكن ما طُبع عليه من إجرام بشع نزع الشفقة  
عليه من قلوب الناس ، فتركت الجوع يعضّ في جسده . ولم يكن من اليسير أن تذهب الإلهة سيريس للقاء  
« ربّة الجوع » المهلكة [ فالقدر لا يسمح بقاء سيريس مع ربّة الجوع ]<sup>(٢٧)</sup> فاستدعت سيريس إحدى  
حوريات الجبال قائلة : « في أقاصي أراضى سكوثيا مكان ثلجي منعزل لا ينمو فيه شجر ولا نبات ، يسكنه  
أرباب الصقيع والشحوب ورعشة المرض والجوع الذي لا يشبع قط ، مُرّ ربّة الجوع هذه أن تنفذ إلى  
جوف ذلك المعتدى على المقدسات ، وألاً تنهزم أمام وفرة الغذاء ، وأن تحارب في صفى حتى لو ذهبت  
بوفرى ، ولا يفزعك طول الرحلة . خُذى مركبتى ودوابى الوحشية المجنّحة وقوديهما عبر الفضاء »<sup>(٢٨)</sup> ،  
وأسلمتها سيريس المركبة فانطلقت بها الأوريدة<sup>(٢٩)</sup> في أجواز الفضاء حتى بلغت سكوثيا ، ففكّت قيود  
الدواب فوق قمة جبل ثلجي يسمى القوقاز ، وأخذت تبحث عن « ربّة الجوع » فوجدت عليها في حقل  
صخري تنتزع بأظفارها وأسنانها أعشاباً هزيلة ، ووجدتها شعناء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو  
شفتيها زبد أبيض كريح ، وفي حلقها بحة صوت حزينة ، وجلدها مشقّق يكشف عن أحشائها للرائي وقد  
نثأت عظام خاضعتها المقوسة المعروقة ، ومعدتها خاوية فبدأ صدرها معلقاً لا يكاد يمسه غير عمودها  
الفقرى ، وبدت مفاصلها من فرط هزالها ، وظهرت غضاريف ركبتيها شبيهة بالورم ، كما برز عظم  
كاحلها . وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البعد [ لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها ] وأبلغتها رسالة الإلهة  
ولم تنتظر إلا برهة صغيرة ، وكانت قد وقفت بعيداً إذ ما كادت تبلغ المكان حتى أحسّت لساعتها بالجوع  
يهدها ، فأدارت مركبتها وعادت إلى هايمونيا .

ومع أن نشاط ربّة الجوع لا يتفق ونشاط سيريس إلا أنها أمضت أوامر الإلهة بدقة ، وقد حملتها  
الريح عبر الأجواء حتى بلغت الدار المعينة لها ، وتسَلّلت مباشرة إلى غرفة نوم الكافر فوجدته في سبات  
عميق [ إذ كان الوقت ليلاً ] وأحاطته بذراعيها واحتضنته ونفدت إليه عبر أنفاسه ، وأخذت تملأ بنفثاتها  
فمه وحلقه وصدره ، وأشاعت في شرايين النائم الحاجة إلى الغذاء ، ولم تكد تُنهي مهمتها حتى غادرت  
تلك المناطق الخصبة وعادت إلى مأواها القفر وسط حقول الجذب التي اعتادت الإقامة بها .

رأى إيريزيخون وهو ما يزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدده أنه يبحث عن طعام ،  
ومضى يلوّك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصططكت ، وأضنى حلقه المخدوع بابتلاع غذاء  
وهيمى فكان يزدرد بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه ، حتى إذا استيقظ أحسّ رغبة عارمة في الطعام تنهش  
حلقه النهم وأحشائه الخاوية . وأسرع يطلب كل ما تنتج الأرض والبحر والفضاء ، وراح يشكو أنه يموت  
جوعاً وبين يديه المائدة المتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد ، ولم يعد يكفيه وهو رجل واحد ما يكفي مدناً  
عديدة وشعباً كاملاً ، وأصبحت معدته أشد ما تكون لهفاً إلى الطعام كلما امتلأت به ، كالبحر يتلقى بين

شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوى ظمؤه أو يكفّ عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة ، أو كالنار العاتية التي لا يفلت منها شيء وتلتهم كتل الأخشاب التي لا تُحصى ويزداد نهمها كلما ازداد ما يُقدّم لها من مواد وتزداد حدة كلما توفّر لها ما تلتهم . كذلك كان فم إيريزيخثون يزدرد الأطعمة كلها مطالباً بالمزيد ، ٨٤٠ كل طعام يحرك فيه الرغبة إلى غيره ، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشائه فراغاً وخواء .

وتضاءلت ثروة آبائه وأجداده لإشباع جوعته وملء بطنه ، ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقي نهمه العارم يذكر حدة . وبعد أن قذف كل ما يملك في أحشائه بقيت بين يديه وحيدته التي كانت ما أولاها بأب غيره ، فإذا هو يبيعها لسد مسغبته . غير أنها كان لها كبرياؤها الذي لا تخضع معه لسيد ، فمدّت يديها إلى البحر القريب ضارعة : « لك وحدك يا إله البحر أن تحرّرنى من عبوديتى ، يا من وهبت لك عُذرى » . فاستجاب الإله نبتون لضراعتها إذ كان قد استمتع بها من قبل . وكان مالكها الذى آلت إليه يفقو أثرها ويتبع خطاها حينها حولها الإله إلى صورة أخرى ، فإذا هى على قساة رجل يرتدى ثياب صياد سمك ، وإذا مالكها يرى بين يديه صياد سمك ، وإذا هو يقول له :

« أنت يا من تخفى تحت الطعم الخفيف شصك البرونزى ، أنت يا من تجيد تحريك قصبه الصيد ، كم أتمنى أن تهدأ مياه البحر لك دوماً وأن ينخدع لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشصّ إلا بعد أن يعلق به . منذ برهة وعلى هذا الشاطئ كانت تقف فتاة في ثياب بسيطة شعناء الشعر ، وبعينى هاتين رأيتها منذ قليل . خبرنى أين هى فإن آثار أقدامها تشى بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان » ، وأدركت الفتاة أن الإله كان موقفاً فيما احتال به لخلاصها ، وما أشد ما اغتبطت حين سأل مالكها عن مكانها ، فأجابت : « معذرة يا سيدى كائنات من كنت ، فإننى لم أصرف نظرى عن المياه العميقة ، إذ كنت أشد ما أكون انبهاً إلى صيدى . ولكى أحمو شكوكك فإننى أشهد إله البحر الذى يعيننى فى مهمتى على أن أهدأ غيرى رجلاً كان أو امرأة لم يظهر على هذا الشاطئ منذ وقت طويل » ، فصدّقها سيدها واستدار يدوس الرمل بقدميه وابتعد بعد أن انخدع بالحيلة . وبعدها عادت الفتاة إلى صورتها الأولى ٨٦٠

وحين علم أبوها أن ابنته حفيذة تريوياس تملك القدرة على التحول من صورة إلى أخرى ، باعها مرات عدة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متخذة صورة ماهرة مرة وصورة طائر مرة ثانية وصورة ثور يوماً وصورة وعل يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النهم أطعمة مختلصة . ولما نفذ كل ما كان يمكن أن يطعمه دفعته حدة الجوع القارص إلى البحث عن غذاء جديد لسد مسغبته ، فأخذ إيريزيخثون الشقى يقطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذى بها نفسه .

ولكن كيف لى أن أضيع الوقت أيها الفتیان فى سرد قصص الآخرين ، على حين أنى أستطيع أن أتحول وأظهر فى صور عدة وإن كانت محدودة . فأنأ أظهر أحياناً كما نرونى الآن ، وحينأ أتحول إلى ثعبان ، وحينأ أبدو ثورا يتصدّر القطيع قوته كلها فى قرنيه . وأقول قرنين لأنه كان لى هذان القرنان ، وأنتم الآن ترونى ونصف جبهتى أعزل » . . . . . وأعقبت كلماته هذه ات ٨٨٠

# التعقيبات

(١) السيرتيس هي تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطئ تونس وطرابلس وقرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازي ومسراطة] هي الجزء الجنوبي الشرقي لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحة بسبب الشط الرمل المختفى تحت سطح البحر . والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هي الجزء الجنوبي الغربي منها . وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتى يفرضوا احتكارهم للتجارة في هذه المنطقة حارمين منافسيهم منهم . فالمعروف أن هذه السمعة لم تمنع ازدهار التجارة في جزيرة مينتكس [جربه] التي اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكابي [قابس الحديثة] وميناء تابارورا [سفاقس الحديثة] .

(٢) هامت پاسيفاي زوجة مينوس ولعا بثور ظهر بغتة من المياه بمشيئة نبتون فأمرت دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تختفي داخلها كي تضاجع الثور الذي أنجبت منه إبناً هو المينوطور [الوحش ذورأس الثور وجسد الإنسان] . وإذا اشمئز الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه في المتاهة . ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصري ، إذ يذكر هيرودوتوس في الكتاب الثان من تاريخه قصة تخيط إبنه منكورع ودفنها في تمثال خشبي أجوف لبقرة مطلية بالذهب .

(٣) يُرجع أوفيد كلمة كريس - دون أدلة - إلى الفعل اليوناني «خيرين» الذي يعنى قطع أو جز .  
(٤) ثمة رأى يقول إن دايدالوس هو اسم أسطوري يعنى المهندس الصانع ، ويقال إنه من أهل أثينا وأنه ينتمى إلى أسرة آل إيرينيوس . وكانت ثمة عشيرة في أثينا اسمها آل دايدالوس ، والراجح أن دايدالوس الحقيقي هو الذى قتل ابن أخته ، أما دايدالوس الأسطوري فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والعمارة وحفر الخشب والعاج ، وقد نسبت إليه تماثيل عدة ترجع إلى العهد السحيق ، فسمى أوائل المثاليين في أثينا بأبناء دايدالوس . وليس هناك دليل تاريخي على قصته التي حدثت في كريت إلا أنها تدل على الأهمية الكبرى التي كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية في تاريخ ثقافتهم وفنونهم .

(٥) يتيح لنا هذا الوصف للمتاهة أن ندرك الأسس التي بنيت عليها الأسطورة ، فقصر مينوس الذي تم الكشف عنه في كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة ، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحريم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك ، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذي لا بد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانيهم . وقد تكون كلمة «لايرينثوس» أى المتاهة مشتقة من الكلمة اليونانية في لهجتها الكارية [لابريس] التي تطلق على البلطة المزودة . ومعروف أن لهذه البلطة دور كبير في الديانة الكريتية فهي منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة .

وقد تكون المتأهة هي « قصر البلطة » دون أن يُقصد بها متأهة ، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل ويبحث . ويُرجع البعض الثور إلى أصول أسطورية مصرية إلا أنه موجود في الرسوم الجدارية لقصر كنوسوس في مشاهد لمسابقات الثيران . وقد عثر في حفائر كنوسوس على رموس ثيران من الفضة ذات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزدوجة المشار إليها ، وما يزال الأمر يكتنفه الغموض .

(٦) المعروف أن مينوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقدّمون غذاء للمينوطور . وكان ثيسبيوس قد تطوع بمحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كي يقضى على الوحش . أما ديا فهو اسم قديم لجزيرة ناكسوس .  
(٧) كوكبة الإكليل الشبالي ( أو القَكة ) الموجود بين نجم الجاثي على ركبته [ أو نجم الراقص ] وكوكبة حامل الثعبان [ الحورية ] .

(٨) يوصى دايدالوس هنا ابنه بنفس النصائح التي أوصى بها فوبيوس ابنه فايشون في الكتاب الثاني .  
(٩) يخطيء أوفيد هنا كما أخطأ في وصفه لطيران ميديا في الكتاب السابع ، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقي من جزيرة إيكاريا التي سقط بجوارها إيكاروس ، في حين تقع ديلوس شمال پاروس ، وجزيرتا لبتثوس وكاليمنى شرقي ناكسوس .

(١٠) يروى أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتمياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [ أجريجتوم الآن ] ، فجاهه مينوس بأسطول ضخم يطالبه بالمهرب . وتظاهر كوكالوس ودعا مينوس إلى وليمة حيث قتله غرقاً في حمام من الماء المغل بمساعدة بناته . وكانت هذه الأسطورة موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها « كاميكوى » .

(١١) كالكيدون مدينة في إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوينيوس هو والد ملياجر .

(١٢) سيريس أو كيريس إحدى ربّات اللاتينيين تقوم بإثاء الزرع وحمايته .

(١٣) يبدأ أوفيد هنا سرد أسماء الأبطال الذين اشتركوا في صيد الخنزير البري مثلباً فعل حين سرد أنواع الكلاب في مصرع أكتايون [ الكتاب الثالث ] ، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفراد بها أوفيد بل إنه قد اقتبسه عن مصدر أدبي مجهول الاسم .

(١٤) انظر الكتاب الثاني عشر ( ١٨٩ ) .

(١٥) كان أمفيارايوس الأرجوسي عراًفاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل من يشترك في الحرب ضد طيبة . وكانت زوجته إيريفيليه قد قُتلت بالمعدن الذهبي الذي أهدها إليها بولينيكه وكان في الماضي عقد هارمونيّا زوجة كادموس . وعندما قرر أدرستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشن الحرب ضد طيبة بناء على رغبة بولينيكه طالب أدرستوس صهره أمفيارايوس أن يخرج معه إلى القتال فاختبأ أمفيارايوس في بيته لأنه يعلم سلفاً أنه ملاق حتفه في المعركة حسب نبوءته هو نفسه ، فأجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك في هذه الحرب . وبعد أن لى طلبها صاعراً أرسل جويتر صاعقة شقّت الأرض أمام قدميه فابتلعت ، ويقال إنها حيلة لجأ بها جويتر كي يضمن له الخلود . وماتزال أطلال معبده الذي كان يتنبأ فيه بالغيب قائمة بجوار قرية أوروبوس في أتيكا .

(١٦) هي أثالانتا من تيجيا [ في أركاديا ] بنت ياسوس ، تركها أبوها في العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها ، فأرضعتها دبة وعاشت على الصيد في الغابات [ انظر الكتاب العاشر ] .

(١٧) اسم جبل في أركاديا .

(١٨) هن ربّات الأقدار كلوثو ولاخييس وأتروپوس .

(١٩) تقوم ربّات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التي تحرّم قتل الأقارب ، وقد قتل ملياجر خاليه فاستحق عقابهن .

(٢٠) يفصل نهر أخيلوس بين نهر أركانانيا وإيتوليا في غربي اليونان ، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كالكيدون ، ولم يكن هذا النهر في الواقع على طريق عودة ثيسبيوس إلى أثينا . وبعد هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها ميهاً .

(٢١) هو بيريثوس نديم ثيسبيوس الذي رافقه حينما هبط إلى العالم السفلي . [ انظر قصة زفافه إلى هيوداميا وما وقع فيه من عراك بين اللاتيت والقنطور في الكتاب الثاني عشر ] .

(٢٢) لا علاقة بين ليلكس في هذا الفصل وليلكس الوارد في الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الأهلة عند مصب نهر أخيلوس على الشاطئ الغربي لأركانانيا ، ومن وقت لآخر كان الغربيين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

(٢٤) لم يكن بيرثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذى حاول ذات مرة أن يهتك عرض جونو . وكان بيرثوس قد هبط إلى العالم السفلى في رفقة ثيسوس لكي يختطف بيرسيفون ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبله بالأغلال . واستطاع هرقل فيما بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه ثيسوس .

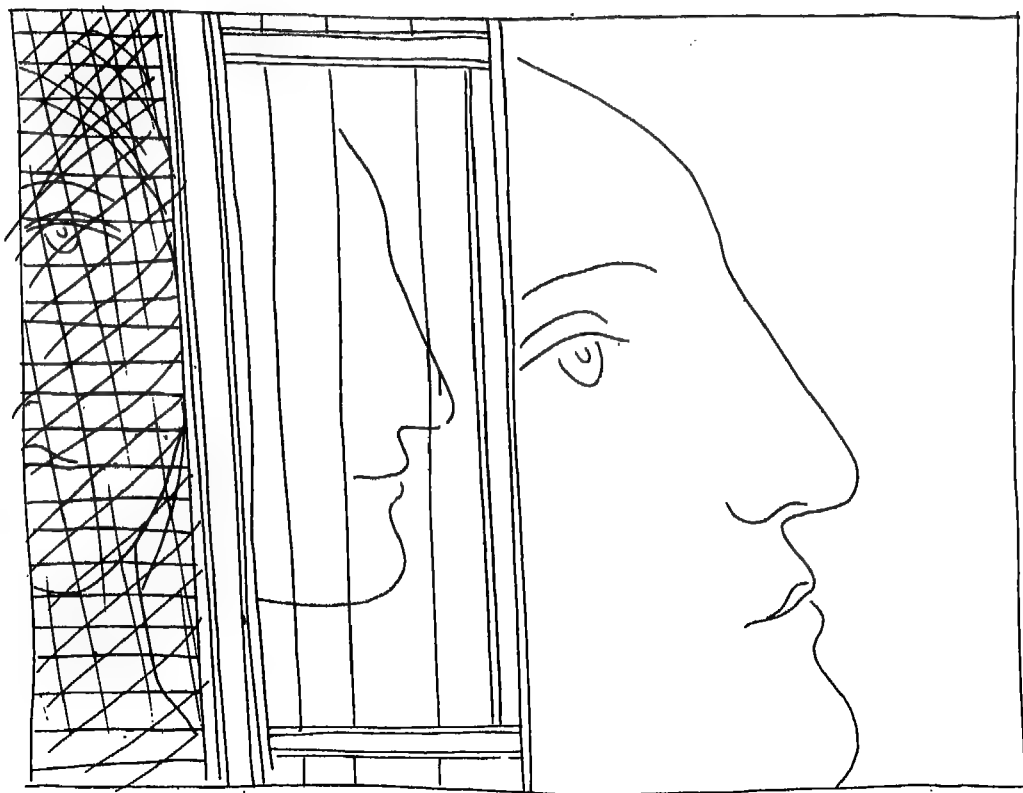
(٢٥) ليلكس هو ابن پيثوس بن پيلوس بن تانتالوس الذى ولى عرش فريجيا ، ثم التجأ إلى اليونان بعد أن بعثته الآلهة من الموت [ انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعده ] .

(٢٦) هي منسترا . وليست القصة التي سيرويها أوفيد عن عذاب الجوع الذى فرضته الإلهة ديميتر على إيريزيخثون إلا توطئة تفسر كيف تلقت منسترا من نبتون هبة تحول شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يُضبط متلبساً وذلك لقدرته أيضاً على التشكل كيفما يريد . وكان أبا لانتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [ انظر الكتاب الحادى عشر والكتاب الثالث عشر ] .

(٢٧) لاغرو فسريس هي ربة الخصوبة والحصاد الوفير .

(٢٨) المركبة التي تجرّها التناثين المجنحة ، وكانت ديميتر [ سيريس ] قد أعطتها من قبل لترتوليموس ليمضى بها إلى البشر ، كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير ترتوليموس فوق مركبته في الفنون الإغريقية .

(٢٩) حورية الجبال والمغضاب .



بيكاسو

## الكتاب التاسع

### أخيلووس وهرقل

سأل البطل ابن نبتون الإله أخيلووس عن سر أنيه وعما أصاب جبينه من سوء ، فأجابه إله نهر كاليدون وكانت خصلات شعر رأسه تنسدل تحت تاج من قصب الغاب قائلاً : « إنك تطلب صنيعاً يكلفني إسداؤه الكثير ، وهل لمهزوم أن يفخر بمعاركه ؟ ولكني سوف أكون أميناً فيما أقصه عليك . إن الخجل من الهزيمة يهون أمام مجد خوض المعارك ، وعزائي أن خصمي كان بطلاً عظيماً ، ولعل أصوات الجماهير قد حملت إلى سمعك اسم ديانيرا ، فقد كانت في الماضي عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خطّاب عديدون ، فمضيتُ مثلهم إلى دار من كان يتمنى كل منا أن يصاهاهه ، وقلت له : « فلتقبلني زوجاً لا ابتك يا ابن پارثاؤون » . كذلك قصده هرقل هو الآخر فانسحب المتنافسون الآخرون حين تباهى منافسي الوحيد بأنه يقدم أباه چوبيتر ليكون هو الآخر حماً للفتاة ، ثم مضى يستعرض جلائل أعماله بتغلبه على الأخطار التي عرّضته لها زوجة أبيه [ چونو ] . ولقد احتججت على ما ساقه من أسباب تركيه بقولي : عارٌ

٢٠ على إله أن يتدنى فيُبيح لواحد من البشر أن يُصهّر إليه ، [ فلم يكن هرقل قد أصبح إلهاً بعد ] . إنك ترى أنني سيد النهر الذي تتعرج مياهه في مملكتك ، وأننى لن أكون ذلك الصهر الغريب الوافد إليك من بلد نازح ، بل صهراً مختاراً من بلادك وواحداً من بين رعاياك . وحسبى أن چونو ملكة السموات لم تطاردنى عن كراهية ، وأن أحداً لم يفرض علىّ عملاً عقاباً لى . أو تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ولد چوپيتر مع أنه ليس أباك ؟ وإن صحّ هذا فلم يكن إلاّ عن خطيئة . إنك حين تدعو چوپيتر أباً ترمى أمك بالزنا ، فاختر أحد أمرين : ألاّ يكون چوپيتر لك أباً أو أن تكون أمك قد أهدرت شرفها .

ولم ين هرقل عن أن يتوعّدنى بنظراته خلال حديثى ، وعجز عن أن يكتم غضبه المشتعل فى نفسه ، فصاح بى : « إن ذراعى يفوق لسانى ، ولسوف أترك لك ميدان الكلام ، وحسبى أنا ساحة الوغى » ، وتقدّم نحوى بخطى جريئة ، وخجلت أن أترجع بعد كل ما صدر على لسانى من زهو وتباه ، فخلعت عنى عباءة الخضراء ومددت ذراعى وتأهبت وثّيت قبضتى إلى صدرى وشمرت للعراك ، فقبض هو تراباً فى كفّه نثره علىّ ، فغطيته بدورى بالرمال حتى بدا أصفر اللون ، وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقى وتارة على ساقى وكنت دائب الحركة بهما كى أفلت منه ، إذ كان يلاحقنى ويسدّ علىّ كل منفذ ، وكان ثقل وزنى يحمينى من ضرباته ، وكنت ككتلة من صخر تقف صامدة فى وجه الأمواج التى تحيط بها صاخبة ، غير أن هرقل لم يأبه وكان من ضخامة جسمه ما يكفل حمايته . وتباعد كل منا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لنستأنف العراك ، وتشبّث كلّ منا بمكانه فى حزم لا نقبل معه استسلاماً ، ولامست قدمائى قدميه ، وانحنيت بصدرى إلى الأمام ، وأخذت أعتصر أصابعه بأصابعى ، وأدفع جبهته بجبهتى ، وكنت قد شهدت قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجمل بقرات القطيع ، وكان القطيع يرقب المتصارعين دون أن يعرف لمن تكون الغلبة فيظفر بالزعامة . وحاول هرقل ثلاث أن يدفع صدرى بعيداً عنه ولكنه لم ينجح إلاّ فى الجولة الرابعة ، فقد استطاع فك قبضتى وإرخاء ذراعىّ المشدودين ثم سدّد إلىّ ضربة أدارتنى حول نفسى [ فيجب أن أعترف بالحقيقة كاملة ] ثم ألقى بكل ثقله على ظهرى . ولتصدّقنى فلست أحاول الزهو بادعاء الأكاذيب ولست أبالغ حين أقول إننى أحسست كأن جبلاً يدكّنى . وقد نجحت فى أن أدسّ بين جسدنا ذراعىّ اللتين كانتا تتصبيان عرقاً ، وأن أخلّص جسدى من ذراعيه اللتين كانتا تطوّقان عنقى ، بينما كنت ألث وهو يضيق علىّ الحناق ولا يدعنى أسترّد أنفاسى ، إلى أن أمسك بعنقى فتهاتوت ركبتيّ على الأرض وأخذت أعضّ الثرى .

وحين أدركت أنني أضعف منه احتلت كى أفلت من قبضة البطل فتحوّلت ثعباناً طويلاً ، ورُحْتُ أُنَحْوَى مرسلًا لسانى المشقوق بفحيح كربه ، فانطلق هرقل التيرنثى مستهزئاً بحيلى ، وقال : « لقد كانت هوايتى فى طفولتى الفتك بالثعابين ، وإذا كنت تفوقنى قدرة فلست غير ثعبان وحيد لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التى كانت جراحها تمدها بالمزيد من القوة والبأس ، فكانت كلما قُطع لها رأس من رءوسها نبت مكانه رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة ، وعلى الرغم من رؤوس الأفاعى العديدة التى كانت تتشعب منها ، وعلى الرغم من تزايد قواها مع كل محاولة للنيل منها فقد سيطرت عليها وقهرتها

وأحرقت جسدها . تخيّل إذن ما سوف يحيق بك بعد أن تحوّلت إلى ثعبان زائف تقاتل بأسلحة غريبة عليك وتتخفّى في شكل مستعار ! » . وحين انتهى من كلماته أطبق بأصابعه على حلقي حتى كدت أختنق وحاولت جهدي الإفلات من قبضته . وحين قهرني ثعباناً استحلت ثوراً مفترساً ، وهي الصورة الثالثة التي بقيت لي ، ونشب القتال بيني وبينه ، فانفضّ على من الناحية اليسرى ولفّ ذراعيه حول عنقي ، ومع تراجعى أخذ يلتصق بي ويضغط بكل ثقله على رأسي حتى غرس قرنيّ في الأرض ومرغني في التراب ، ثم أمسك أحد قرنيّ بقبضته العاتية وحركه حتى انتزعه من جبهتي التي تشوّهت وطوّح به ، وأسرعت الحوريات إلى القرن فملأنه بالفاكهة والزهور العطرة وقدمنه قرباناً مقدساً للآلهة ، فازدادت إلهة الرخاء الحكيمة ثراء بقرني .

وحين فرغ أخيلووس من حديثه تقدمت إحدى قيان الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثياب ديانا ، ومرسلة شعرها يتموّج على كتفيها ، وحاملة قرناً مليئاً بمختلف ثمار الخريف الشهيّة . ولم يكد النهار يطلّ على قمم الجبال مع أشعة الشمس الأولى حتى بادر الأبطال بالرحيل دون ترقب لعودة النهر إلى سكونه الطبيعي في مجراه قبل أن ترتدّ مياهه عن الضفتين ، وعندها أخفى أخيلووس بين الأمواج وجهه الرفي القسّات وجبهته التي فقد أحد قرنيها .

## نيسوس وموت هرقل

لم يفقد إله النهر في معركته غير هذه الحلية التي سلبه إياها خصمه المنتصر بينما بقي جسده كله سليماً . لم يمسه سوء ، وقد اعتاد أن يخفى هذه السوءة تحت تاج من أوراق الصفصاف أو من الغاب . أما أنت يانيسوس المتعطر فقد لحق بك الهلاك الذي صبه عليك حبك وهيامك بالعدراء ديانيرا بعد أن اخترق ظهرك سهم خاطف .

ففيما كان هرقل بن جوبيتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة بلغ شاطئ نهر إفيروس المصطحب الأمواج فوجده فائضاً على غير العادة بمياه الأمطار الشتوية التي كانت تثير فيه دوّامات عديدة يصعب معها عبوره . ولم يكن هرقل يخشى على نفسه بل كان قلقاً على زوجته ، وعندما اقترب منه القنطور نيسوس الجبار الذي كان خبيراً بآماكن العبور الضحلة وقال : « دعني أحمل عنك هذه السيدة إلى الشاطئ الآخر ، فأوفر عليك جهدك لتقوى أنت على أن تعبر النهر سابحاً » ، عهد البطل البويوت إلى القنطور نيسوس بعدراء كاليدون التي عراها الشحوب وحلّت بها الرعدة هلعاً وخوفاً من النهر ومن نيسوس ، وطوّح هرقل بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يحادث نفسه وهو مثقل بكثافته ويجلد الأسد الذي يرتديه قائلاً : « أما وقد شرعت في خوض النهر فلأمض إلى أن أبلغ الغاية » . وألقى بنفسه في الماء دون تردّد ودون أن يعبأ بالمناطق التي تهدأ فيها حدّة المياه أو بالمناطق الأخرى التي تتدفق فيها المياه . وحين انتهى

١٢٠ إلى الضفة الأخرى التقط القوس الذى كان قد طُوح به ، وإذا هو يسمع صراخ زوجته ، فتبين أن نيسوس كان يحاول أن يخونه في زوجته التى حملها . فصاح به : « إلى أين تندفع أيها الوغد مستخدماً سرعة ساقيك خادعاً إياى بأباطيلك ، إننى أخاطبك يا نيسوس ياذا الخلقين ، اصغ إلى وحذار أن تسلبنى زوجتى ، وإذا لم ترع حقوقى فلتتعظ بالعجلة التى رُبط بها أبوك من قبل بسبب عشق محرم<sup>(١)</sup> فلن تغلت منى ، ولن يجديك ما رزقته من صفات الخيل فستلاحقك سهامى قبل أن ألحق بك عذواً . وسرعان ما نفذ ما قال أخيراً ورمى بيده سهماً نفذ في ظهر القنطور الهارب وأطل سنه المعقوف من صدره . ولم يكذب نيسوس ينزع السهم من صدره حتى تدفق الدم من جرحيه يمازجه سم<sup>(٢)</sup> الهيدرا الرهيب ، فكتم الدم الدافئ المتدفق بقميصه ليجعل منه وسيلته للثأر ، مناجياً نفسه : « لا . لن أقضى نحبي دون قصاص » ، وقدم قميصه المسبغ دماً للعداء التى اختطفها راعماً أنه عوذة تحرك دفين الحب .

١٤٠ ومَرَّ وقت طويل ، وكانت أمجاد هرقل العظيم قد عمّت الكون وزادت من حقد جحونو زوجة أبيه ، وحين عاد منتصراً من أوخاليا<sup>(٣)</sup> أخذ يتأهب لتقديم القرابين تمجيداً لجوبيتر ووفاء بنذره في كينايوم<sup>(٤)</sup> . وانتهى إلى سمع ديانيرا ثرثرة ربّة الشائعات التى يمتزج الزيف فيها بالحقيقة وتزكّيها بأباطيلها ، والتى تبدأ تافهة ثم تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هى أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيتريون وبين ينولى . وصدقت الزوجة النبأ ، ولم تكذب تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدُّمع يفيض من عينيها لترُوح عن همها . ولكنها عادت تناجى نفسها وتقول : « فيم هذا البكاء ، فما أسعد غريمي بأن ترانى باكية ، وإذا كانت لا بد قادمة علينا فعلى أن أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدى إلى وسيلة أحول بها بينها وبين أن تسلبنى فراشى . أيجوز لى أن أجار شاكية أم ألزم الصمت ، أأعود إلى كاليدون أم أبقي هنا ؟ أهجر دارى أم أبقي فيها لأعكر عليها صفوها ، إذ لا حيلة لى أن أفعل غير هذا . وادكر أننى أختك يا ملياجر<sup>(٥)</sup> ، ولسوف أكيل لها ضربة قاصمة تقضى عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة امتهنت واعتدى على كرامتها » . غير أن فكرها ضلّ بين اتجاهات عدّة ، وقرّ رأيها على أن تبعث بقميص نيسوس الملطّخ بدمه إلى زوجها لكى يشعل فيه الحب الذى خبا دون أن يساورها شك في خطر قد يخلق به ، فلم تكن ديانيرا تخال أن هذا القميص سيُلبسها ثوب الحداد ، فعهدت به إلى ليخاس الذى لم يخالج ذهنه هو الآخر شك في أمره وأسرت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدمه هدية لزوجها البطل الذى تقبله دون أن يدري ما يجتبه له القدر ، فالتقى على كتفيه ذلك القميص الملطّخ بدم الهيدرا الليرناوية .

١٦٠ وفيما هو يحرق البخور بين السنة النيران المنبثقة متمتماً بصلواته للالهة ساكباً الخمر على المذابح الرخامية من دورق في يده ، كان السم يسخن ويذوب من حرارة النار ويسرى أثره المدمر حتى بلغ أطراف جسده . وقاوم البطل آلامه ما استطاع بشجاعته المعهودة دون أن يثن أنه واحدة ، حتى إذا نفذ صبره حطّم المذابح وملاً غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهرولاً وهو يمزق القميص المشثوم ، غير أنه مع كل مُزقة منه كان ينزع قطعة من جلده . ألا ما أبشعها من ذكرى ! لقد كان القميص أشد ما يكون التصاقاً بجسده فكان عسيراً عليه أن ينتزعه من فوق جسده إلا وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية . وكما كانت

دماؤه تنزّ أزيز الحديد المُحمّى عليه في النار حين يُغمس فجأة في ماء بارد كذلك كان فعل السّم في جسده وهو يهتصره . ولم يكن هذا ما يعاينه فحسب ، بل كانت ثمة نارٌ نهمة تلتهم أحشاءه وعرقٌ أسود يتصبّب من جسده كله ، على حين تتداعى عضلاته المحترقة ويذيب الألم الدفين نخاع عظامه . وعندها رفع يديه إلى النجوم وصاح : « انعمي بمأساتي يا ابنة ساتورن . نعم ، اشمقي بي في علياء سبائك أيتها الإلهة القاسية القلب ، وأشبعي نظراتك بعذابي ، وليسعد قلبك الغليظ ، أما إذا كانت حالي تثير الشفقة في قلب خصم



بيكاسو: القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى العنراء ديانيرا

١٨٠ مثلك ، فخلّصيني من الحياة التي أنا فيها فريسة آلام رهيبة ، خلّصيني من الحياة التعمسة التي لا أذوق فيها إلا المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لي . سيكون هدية جديدة بزوجة أب ، أو لست أنا الذي هزمت بوزيريس<sup>(٦)</sup> الذي كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء ؟ أو لست أنا الذي سلبت أنتايوس الرهيب قدرته التي كانت تدعّمها أمه الأرض ؟ أنا الذي لم يفزعني راعي هيريا ذو الأجساد الثلاثة ولا الكلب كيربيروس ذو الرؤوس الثلاثة ! أو لستما أنتما يا يدَي اللتان مرّغتما قرنَي الثور المخيف في التراب ؟ أو لم يشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيμφالوس وغابات پارثينيوس ؟ أو لم تعدّ بفضل بسالتكما حمائل سيف ملكة الأمازونات الذهبى ، وكذا الثمار التي كانت في حراسة تنين لا يغمض له جفن ، أو ليس حقاً أنني أتيت على عيْث القنطور والخنزير الوحشى الذي كان يخرب أركاديا ، وأن الهيدرا لم يُغن عنها شيئاً تزايد قوتها مع فقد بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى ؟ هل أذكرك أنني حين رأيت جياذ ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتلئ حظائرهما بمزق الجثث الأدمية هدمت الحظائر وقتلت الجياذ وصاحبها ؟ ها هما

٢٠٠ تان اليدان اللتان خنقت بهما أسد نيميا الوحشي ، وها هو ذا الكتف الذي حملت عليه السماء . كم أحست زوجة جويتر القاسية بالإرهاق من كثرة أوامرها لي دون أن أحس أنا الإرهاق في تنفيذها ، وها هي ذي كارثة جديدة تكلّ أمامها الشجاعة وعدّة الهجوم والدفاع معاً ، ففي أعماق رثتي تضطرم نار تلتهم كل ما تجده في جسدي من أعضاء بينما يعيش الملك يوريشيوس<sup>(٧)</sup> قوياً معافى ، فهل ثمة من يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة ! .

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى حطّمه الألم فهام على وجهه فوق سفوح جبل أويتا بخطوات ثور قد أنخنه رمح صياد رماه وانفلت هارباً ، فكان أحياناً يثن وأحياناً أخرى يردد غضباً محاولاً أن ينزع عنه ثيابه أو يقتلع جذور الأشجار أو يصبّ غضبه على الجبال أو يرفع ذراعيه إلى السماء مقرّ أبيه جويتر .

٢٢٠ وها هو ذا هرقل يلمح ليخاس الذي اختفى مرتعداً في جوف صخر فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً : « أنت يالليخاس من يهدينى هذه الهدية القاتلة ؟ أنت إذن من دبّر موتى ؟ » ، فأخذ ليخاس البائس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر ونبس بكلمات يعتذر بها يخنقها الخوف وهو يحاول أن يقبل ركبتي هرقل الذي أمسكه ودار به ثلاث دورات في الهواء ثم قذف به في مياه بحر يوبويا باندفاعه تربي على اندفاعه المتجنّيق ، فإذا جسد ليخاس يجمد في الهواء . وكما يقال إن أنفاس الرياح الثلجية تكثّف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً ، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشّة أن تتجمّد وهي تدور حول نفسها ثم تستدير متخذة شكل حبات برد سميك ، كذلك لم يكد ليخاس يُقذف به وسط الفضاء ويجمّد الفرع دمه حتى تحوّل جسده كله إلى صخرة صلبة كما تقول أسطورة قديمة . وما تزال إلى اليوم صخرة مرجانية خطيرة منبطحة فوق وهدة منخفضة على صورة آدمية وكأنها جثة ، وما يزال الملاحون لا يجرون على أن يطئوها ، ويطلقون عليها اسم ليخاس .

أما أنت أيها الإبن العظيم لجويتر ، فإنك بعد أن اقتلعت الأشجار من فوق قمة أويتا وسوّيت منها محرقة . أخذت قوسك وجعبتك الضخمة وسهامها التي ستفتح بها مملكة طروادة ، وقدمت ثلاثتها هدية لفيلوكيتيس بن پوياس<sup>(٨)</sup> الذي عهدت إليه بأن يُشعل النار في محرقك ، وفيما كانت السنة اللهب النهمة تعمّ كومة الخشب الحافلة غطيتها بجلد أسد نيميا ثم تمددت فوقها متكئاً برأسك على هراوتك ، وقد بدا على وجهك الهدوء كما لو كنت مضطجعاً في وليمة مزدان الجبهة بأكاليل الزهور وسط أقذار مليئة بالنبيذ .

٢٤٠ وتأجج اللهب وانتشر في جوانب المحرقة كلها ثم بلغ أطراف البطل الذي كان يرقبه هادئاً في استخفاف ، وخشيت الآلهة ما سيصيب بطل الأرض ، فتطلع إليهم جويتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً : « إن ما يبدو عليكم من خشية هو متعة لي يا سكان السماء ، إنني أغبط نفسي من كل قلبي على أنني رب شعب يدين بالجميل لمن أحسن إليه ، كما أني سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابني فهو جدير بها لما حقق من مآثر عظيمة خارقة ، إلا أن هذا لا يوّن من تقديري لموقفكم النبيل . فلتحرّروا قلوبكم الوفية من هذا الفرع الذي لا معنى له ولا تقلقوا لهذه النيران المشتعلة في أويتا ، فإن هذا الذي قهر الكثير

في قدرته أن يقهر هذه النيران . إنه لن يحسّ سطوة فولكانوس إلا في هذا الجزء من جسده الذي أخذه عن أمه ، أما ما أخذه عنى فهو خالد في مآمن من الموت ومن عصف النيران . والآن وقد أصبح هذا الجزء لا بقاء له على الأرض فسأرفعه إلى في السماء ، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنهض به ، وإن كان بينكم من يضيق بأن يصبح هرقل إلها فهذا لأنه يضمن على ابني بهذه الجائزة الثمينة ، ولكنه مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير وسوف يؤمن بما فعلت رغم ضيقه به . « وصفق الآلهة لحديثه ، بل إن ملكة السموات وزوجة جوبيتر سمعت الشطر الأكبر من الحديث دون برّم به ، ولم يرسم الضيق على وجهها إلا مع الكلمات الأخيرة ، فقد رُئيت غير مرتاحة للزم الذي لزمها به زوجها . على أن إله النار فولكانوس [ هيفايستوس ] قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار ، فلم يعد من اليسير التعرف على هرقل بما تبقى منه لأن شيئاً مما يذكر بأمه لم يبق ولم يحتفظ إلا بما يحمل من بصمات جوبيتر . وكما يحدث للشعبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق برّاقة حراشفه الجديدة ، كذا حدث للبطل التيرينثي إذ تحرّر من غلافه الأرضي الفاني وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته وبدا أعظم مما كان وعُلت هبة جليلة تدعو إلى التوقير ، وعندئذ رفعه أبوه القدير في سحابة معتلياً عربة تجرها جياد أربعة ، وجعله ينفذ بين النجوم المتألّفة<sup>(٩)</sup> .

## الكمينا وجالانثيس

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثقل عما هو معهود ، ومع هذا لم يخمد غضب يوريسثيوس بن سثينيليوس فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل بنفس الحقد الرهيب الذي كان في الماضي يطارد به أباه<sup>(١٠)</sup> . وأحسّت الكميناء الأرجوسية في غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلا يسول صديقها التي اختارتها نجية لها في شيخوختها ، ومضت تروى لها مآثر ابنها التي كان العالم كله يعرفها والمآسى التي تجرّعتها . وكان هيلوس نزولاً على ما مره به أبوه هرقل قد أعطى لهذه المرأة اليافعة مكاناً في فراشه وقلبه وأودع رحمها ثمرة سلالة كريمة ، ولهذا حدّثتها الكميناء قائلة : « أننى أدعوك أن تكون الآلهة بك رحيمة وأن تخفّف آلامك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها ، يوم تدعين الربّة لوكينا حامية الحوامل حين الوضع وقد ساورك الخوف . أذكر كم كانت قاسية علىّ تودّد آلمها لجونو حين دنت لحظة ميلاد هرقل الذي كانت ثمة أعمال كبرى سوف يضطلع بها . كانت الشمس تتحرك في برجها العاشر ، وكان حملى يُثقل جنبى ، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف ما كان لجوبيتر من أثر في هذا الحمل المكنون ، ولم يعد في مقدورى أن أحتمل آلامى ، وحين أتحدث اليوم عن ذلك أحسّ الفزع يمتصر جسدى . لقد أصبحت ذكرى الولادة وحدها حتى اليوم موجعة . وبعد أن طال عذابى سبع ليال وسبعة أيام رفعت يدي إلى السماء خائفة القوى من الألم ، وصرخت عالياً منادية لوكينا ومعاوناتها ، وأقبلت لوكينا ، غير أن غريمى جونو كانت قد رشتها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتي ، فلم تكذّ تسمع أنأتى حتى جلست على هذا المذبح القائم على بابى

واضعة ساقاً على ساق ، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهي عاقدة العزم على العبث بمصيرى ، وصاتت بصوت خفيض كلمات سحرية عوّت حركة الجنين الذى كان قد بدأ يهلّ . وبذلت جهداً خارقاً ، وكنت خلال شرودى أرمى جويتر بالبحر ، وكم تمنيت الموت بينا أرسل شكاة تلين قساوة الصخر ، وأخذت الأمهات فى مدينة كادموس يتوسلن إلى الآلهة ويشجعننى وسط آلامى المضنية . وكانت إلى جانبنى جالانثيس الشقراء إحدى وصيفاتى التى غدت عزيزة علىّ لسرعة تليتها رغباتى ولما كانت تقدمه إلىّ من عون . وقد أدركت أن فى الأمر لمحات من شرور جونو ، ولحت فى دخولها وخروجها من الباب غير وانية أن الإلهة جالسة على المذبح ضامة ذراعيها عاقدة أصابعها على ركبتها ، فقالت لها جالانثيس : « أنت كائنة من كنت ، قومي فهنئ سيدى الكميناء الأرجوسية فلقد خلّصت من آلامها وصارت أما وتحقق أمانها . ونهضت الإلهة التى عليها يتوقف وضع كل جنين فزعة وأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رحى وانحدر الطفل فخلّصت من آلامى . ويقال إن جالانثيس استغرقت فى الضحك حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة القاسية واجتذبتها من شعرها الجميل . وإذ حاولت أن تنهض من الأرض أفسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعيها إلى قديمين أماميتين ، غير أن الفتاة احتفظت بخفة حركتها وتغير شكلها دون أن يتغير لون ظهرها وغدت تلد من فمها ، إذ كان هذا الفم هو الذى انطلق بالكذب على الإلهة مضللاً لتعين سيدتها على الوضع ، وهى ما تزال تتردد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضى [ بعد أن تحولت إلى عرسة ] .

## دريوى . يولاووس

وبعد أن فرغت الكميناء من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها القديمة ندّت عنها زفرة ، فقالت لها زوجة ابنها التى أدركت عمق حزنها : « لقد كانت تلك المرأة التى تبكيها يا أمى غريبة عنا لا تجرى فى عروقها دماء أسرتنا ، فكيف بك لو قصصت عليك المصير الغريب لأختى ؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحذرك إليك وأنا فى غمرة الدمع ووخز الألم . كانت تريوى وحيدة أمها فقد أنجبني أبى من زوجة أخرى ، وكانت أشهر نساء أوغاليا جمالاً ، وكان الإله الذى يسود دلفى وديلوس قد اغتصبها وافتض بكارتها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريمون الذى كان يخال أنه سيسعد السعادة كلها بهذا الزواج . وكانت ثمة بحيرة ينحدر ساحلها فى لطف انحدار شيطان البحر ، وعلى آكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان . وقصدت تريوى هذه البحيرة دون أن يخالها شك فيما سيكون من أمرها . على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أكثر إثارة ، فقد راحت تهدى الأكاليل للبحوريات وبين يديها حمل رقيق ، طفل لم يكمل عامه الأول ، كانت ترضعه من لبنها الدافق المشبع . وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس<sup>(١)</sup> صينة المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بأرجوان مدينة صور وقد أذنت بالثمر . جمعت تريوى حزمة من الزهور لطفها كى يلهو بها ، وأخذت أتبادل معها أطراف الحديث ، وكنت على وشك قطف بعض الزهور كما فعلت فإذا بى أرى قطرات من دم تتساقط من الزهور ، وأشاهد أغصانها تهز كأنما تسرى بها رعدة . وقد علمنا من

الفلاحين بعد ذلك بوقت طويل أن الحورية لوتيس قد تحولت شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة ، ولكنها مع ذلك لم تغير اسمها .

ولم تكن أختي تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذي يهدد السابلة بتلك الأماكن . وقد رأت أمام ما اعتراها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتي جاءت للابتهاال إليهن ، غير أن قدميها كانتا قد انغرستا كالجذور في الترى وعلقتا به ، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها ، وأخذ لحاء خشبي يكسوفى بطء جسدها من أسفل قدميها إلى الركبتين ، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه ، فإذا يداها قد امتلأتا بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله . وأحسّ أمفيسوس الصغير [ وهو الاسم الذي خلعه عليه جدّه يوريتوس ] أن اللبن لم يعد يدرك فاه ، كما تصلّب ثدي أمّه . شاهدت هذا المصير المروع ينزل بأختي تحت بصرى وما كان يبدي أن أدفع عنها . أختاه ، لقد حاولت ما استطعت أن ٣٦٠ أؤخر بقبلاقي زحف الجذع والفروع وكمن تمنيت أن يكسوفى هذا اللحاء . وعندها جاء أندريمون زوج دريوى وأبوها التعس ييحثان عنها فلوّحت لهما كي يلتفتا إلى الشجرة التي حلّت محل من جاءا ييحثان عنها ، فغمرا بقبلاتهما الخشب الذي كان لا يزال ينبض بالحياة ، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضماها بأذرعيها . أختاه الحبيبة ! لم يبق فيك شيء لم يتحول إلى شجرة ، عدا وجهك وتلك الدموع التي تروى الأوراق المنبثقة من جسدك ، ولم يبق منها غير فم ينطلق منه صوتها في أجواز الفضاء شاكية : « إذا كان ثمة من يصدّق البؤساء فأقسم بالألهة أنى لم آت ما أستحق عليه هذا المصير الرهيب ، فقد حاق بي هذا العقاب دون جرم اقترفته . فكمن كنت نقية طاهرة في حياتي ، وإن كنت كاذبة فليدبلنّ عودى ولتسقطنّ عنى تلك الأوراق التي تظلّنى ولاهوينّ تحت وقع ضربات البلطة وليأتينّ اللهب على حياتي . هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلق في أغصان الأمومة على أن تعهدوا به إلى إحدى المرضعات ، ولتتيحوا لى أن أراه دوماً مضطجعاً في ظلّ ، وليختلف إلى كثيراً ليلهو في ظلالى . وإذا ما بلغ أن ينطق فعلموه أن يحيينى على أننى أمه وليردّد فى أسى أن أمه يطويها جذع هذه الشجرة ، ولكن فليحذر المستنقعات ولتجنبّ قطف زهور الأشجار وليحترس من لمس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات . وداعاً أيها الزوج العزيز ، وأنتما أختي وأبى ، وإذا كنتم تحبوننى حقاً فاحموني من جراح النصل القاطع وأنياب قطعان الماشية ، وإذ كان من المتعذر على أن أنحنى إليكم ، فلتشبّوا أنتم إلى كى ألثم شفاهكم مادام فى قدرتكم أن تبلغوا شفتى ، ولعلكم ترفعون إلى طفلى كى ألثمّه . وما أنا مستطيعه بعد ذلك أن أضيف شيئاً ، فها هو ذا لحاء رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقى الأبيض ، وأخذت قمة الشجرة تطوى رأسى . أبعدوا أيديكم عن عيني فمن العيب أن تمّدوا إلى يد العون ، وخلّوا اللحاء الصاعد يغشى عينيّ المحتضرتين » . وعجز فمها بعد ذلك عن الحديث واختفى من الوجود ، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً بعد أن مُسخت شجرة » .

وبينما كانت يولى تحكى هذه القصة الغريبة كانت الكميناء وهى تبكى تجفّف دموع إبنة يوريتوس بأناملها ، وإذا بأعجوبة جديدة تقع فتقطع اتصال أفكارها الحزينة ، إذ رأتا يولاووس واقفاً بالبوابة الشاهقة وقد عاد صبيّاً نمت على وجنتيه شعرات كالزغب ، فلقد استجابت هيبي [ ابنة جونو ] (١٢) ٤٠٠

لتوسلات زوجها هرقل وخلعت على يولاووس قسما شبابيه الباكر . وكانت هيبي على وشك أن تقسم بالآ تفعل أبداً مثل هذه المكرمة لأحد بعد ، فعارضتها ثيميس قائلة : « إن طيبة على وشك أن تسقط بين برائن الحرب الأهلية ، ولن يستطيع سوى چوپيتر قهر كاپانيوس . وسيموت أخوان يقتل كل منهما الآخر ، وسيشهد الكاهن أمفياراووس وهو ما يزال على قيد الحياة طيفه بعد الموت عندما تنشق الأرض لتلقاه ، وسيثار ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه فيصبح في آن واحد ابناً باراً وأثماً ، ثم يهوله جرمه فيفقد عقله وينفى خارج وطنه ويفر تطارده ربّات الانتقام ، ويلاحقه شيخ أمه ، وإذا يوم من الأيام تطالبه زوجته كاليرهوى ابنة إله النهر أخيلووس بالقلادة الذهبية المشثومة التي سيكون معها حتفه ، وكذا سينفذ سيف فيجيوس والد زوجته الأولى في جنبه إلى أن ينفذ الدم من جسده . وبعد ذلك كله ستجثو كاليرهوى ضارعة إلى چوپيتر العظيم أن يهب الشباب لولديها وهما مازالا في المهد صغيران ، وتسأله ألا يطول بهما الزمن حتى يأخذا بثأر زوجها الظافر . وها هي ذى دعواتها تهزّ قلب چوپيتر ، فيمنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها شاين قبل بلوغهما الحُلُم ، ويهبهما تلك الهبات التي تهبها عادة هيبي [ إلهة الشباب ] زوجة ابنه هرقل السماوية وابنته من جونو في آن معاً » (١٣) .

## بيليس

ولم يكدهم يجرى لسان ثيميس بتلك النبوة كاشفة النقاب عن المستقبل حتى أخذ الآلهة يتناولون الموضوع بمختلف الأقاويل في صخب ، وإذا هم يهمس بعضهم إلى بعض قائلين : « لماذا لا يكون للآخرين مثل هذه المنّة ؟ فشكت ابنة المارد پالاس (١٤) الشيخوخة التي كانت لزوجها بالمرصاد ، وشكت سيريس إلهة الخصب والحصاد من الشعر الأبيض في رأس يازيون (١٥) ، وطالب مولكيبير [ فولكانوس ] لإريخثونوس أن يكون له الحق في أن يبدأ حياته من جديد . وحاولت فينوس أيضاً أن يعود إلى أنخيسيس شبابيه بعد أن ساورها القلق على أيامه المقبلة ، وامتلأ كل إله حماسة من أجل أتباعه ، وتزايد صخبهم وخلافهم ، ولكن ذلك كله ما لبث أن سكن حين تحدث چوپيتر قائلاً : « أيها الآلهة ، إذا كنتم تكتنون لي شيئاً من التوفير فأفصحوا لي عن رغباتكم ، وهل من بينكم من يظن نفسه قادراً على قهر القدر ؟ إن القدر هو الذي أعاد يولاووس إلى السنّ الذي كان قد تخطاه ، والقدر هو الذي سوف يهب الشباب لطفلي كاليرهوى لا بالقوة ولا بالخداع . ولكي ترضوا بهذا الناموس بنفوس راضية فاعلموا أننا جميعاً — أنتم وأنا — رهن القدر ، ولو ملكت تغيير الأقدار لما انحنى ظهر ابني أياكوس تحت وطأة الأعوام ، ولبقى رادامانثوس يرقل في ريعان الشباب أبداً ، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز (١٦) الذي تهوّن من أمره شيخوخته العاتية والذي لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التي أثرت عنه في الماضي . فسكنت كلمات چوپيتر من شكاة الآلهة ، ولم يعودوا يجأرون بالشكوى بعد أن رأوا الشيخوخة تدبّ في رادامانثوس وأياكوس ومينوس . وكان اسم مينوس وحده حين كان في ريعان الشباب يلقي الرعب في الأمم الكبرى ، أما الآن

٤٢٠

٤٤٠

فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديونى المزهو بشبابه وبأبوة فوبيوس له ، فلقد كان جدّ مقتنع بأن ميليتوس يهتد عرشه ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آبائه .

على أنك قد هاجرت من تلقاء نفسك يا ميليتوس ، وحملتك سفينة سريعة عبر أمواج بحر إيجه لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسسها<sup>(١٧)</sup> ، وهناك عرفت سيان ابنة مياندر الفريدة في جهاها حين كانت تسير في إثر منحنيات ضفاف أبيها الذى كان يتعرج مرةً ومرةً . وفي هذا الموقع وضعت لميليتوس توأمين هما بيبليس وكاونوس . وفي قصة بيبليس عبدة للفتيات حتى لا يبعدن عن الحب المشروع ، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أبوللو الذى يماثله جمالاً فأحبته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا ، ولم تكن تدرك أولاً كنه عاطفتها ، ولا تعدّ نفسها أئمة حين تغمر أخاها بقبلات متلاحقة أو لأنها تطوّق عنقه بذراعيها ، فلقد عاشت طويلاً في أسر خداع كاذب لعاطفة أخوية ، وشيثاً فشيثاً أخذ حبّها يجانب الطريق السوى ، فكانت تأتى — حين تغد لزيارة أخيها — في أحسن زينتها حريصةً على أن تبدو فاتنة في عينيه ، ٤٦٠ وتحسّ الغيرة حين تجدد إلى جانبه امرأة أكثر منها فتنة . ومع هذا لم تتبين حقيقة مشاعرها ، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجج في فؤادها من لوعة . كان الوله يغلى في أعماق قلبها فانبرت تنادى كاونوس بـ « سيدها » ، وتنفر من الأوصاف الدالة على الأخوة والقرابة ، فتفضل أن يناديها بيبليس لا أن يناديها بأختها ، ومع ذلك لم تكن تفصح في نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يقطى ، أما حين كانت تستسلم لاسترخاء حانية فما أكثر ما كانت ترى محبوبها في منامها ، بل لقد خيل لها أنها ترقد في أحضان أخيها ، فتعلوها حمرة الخجل مع أنها ما كانت غير غافية في فراشها ، فإذا هرب من عينها النعاس التزمت الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها ، ثم تناجى نفسها مضطربة الفكر قائلة : « يالشفائي ! ما معنى هذه الخيالات التى تتراءى لى في هدأة الليل ؟ لكم خشيت أن تتحقق . ولماذا تراودنى هذه الأحلام ؟ ما أجمل كاونوس حتى في أعين حاquديه وكم أنا به معجبة ، ولو لم يكن أخى لكان بوسعى أن أعشقه ولكان لى خير الأزواج فنكّد طالعى هو أننى أخته . ولكن مادمت لا أحاول أن أرتكب في يقطى ما يخالجنى في سباتى فكم أتمنى أن تتراءى لى تلك الروى لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب ، ثم إن متعتها لا تعود بضرر . أى فينوس ، وأنت يا كيوييد المرافق المجنّح للام الحانية يا لها من ٤٨٠ متعة تلك التى تذوّقتها . ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشى ، شعور الاستسلام الذى غمرنى حتى نخاع عظامى ، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت متعنى فيه قصيرة عابرة ، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألمت به الغيرة من عطيقى . كم أتمنى لو أتيح لى أن أغير اسمى واقترب بك . كم كنت سأصبح كتنّة مثلى لأبيك ، وكم كنت ستصبح صيهاً كفتاً لأبى ! وكم تمنيت لو أن الآلهة جمعت بيننا في كل شيء غير أن نكون من صُلب واحد ! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنت سليل أسرة أنبل من أسرق . ولست أعرف إذن أية امرأة ستجعل منها أما لأبنائك يا أجمل الرجال ، يا من اختارت الأقدار التعيسة لنا نفس الأبوين . فلتكن لى أخاً شقيقاً فحسب ، فإن ما يربط بيننا هو ما يفصم هذا الرباط ، فما بالى أحلم هذه الأحلام ، وهل لحلمٍ مهما بلغ قيمته ؟ ألا فلتغفر لى الآلهة قولى ؛ فقدما بنى الآلهة بشقيقاتهم ؛ فلقد

بنى ساتورن بأويس مع أنها من أصله الذى ينحدر منه ، كما بنى أوقيانوس بثيتيس ، وبني سيد الأوليمپ بجونو . ٥٠٠ حقاً لقد فاتنى أن للآلهة سُنَنهم ، وهل لى أن أسوى بين البشر والآلهة فى نواميسهم التى تخالف نواميسنا فتبيح للأخ أن يبنى بأخته ؟ لسوف أقتلع من قلبى هذا الحب المحرم ، وإن لم أقدر فما أولانى أن ألقى حتفى قبل أن أقع فى الخطيئة ، ثم ما أولانى أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جثة هامدة قبلات شقيقى .

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين ، وإذا افترضنا أننى حزمت أمرى فقد يعدّه هو جريمة ، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم<sup>(١٨)</sup> ، ولكن كيف انتهيت إلى هذا ؟ ولماذا تتراءى أمامى هذه الأمثلة ؟ وأى منزلق أنحدر إليه ؟ فلتغرّب عني أيتها الرغبات المدنسة ، فكم أنا حريصة على ألا يكون بينى وبين أخى إلا كل ما هو مشروع . ولو أنه هو الذى شغف بى أولاً فلعلّ كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه ، وما كنت أقدر أن أرفض توسلاته لو كان قد فعل . هياً أفصحى يا بييليس ، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة ؟ بلى ، فسيدفعنى الحب إلى ذلك . وإذا لم أستطع وأغلق الخجل فمى فسأبعث إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبنى .

وتولّأها الصمت عند هذا ، وإذا فكرتها تلك تخرج بها عن ترددها . ونهضت على جنبها قليلاً واتكأت على مرفقها الأيسر وقالت : « لأكشفنّ له عن هذا الحب الطائش ، وعليه هو أن يتخذ قراره ، وأسفاه ، إلى أين يمضى بى هذا البلاء ، وأية نار هذه التى تحرق قلبى ؟ » وبعد أن استقرت على ما ستكتب أخذت تخطّه بيدها المرتجفة . وأمسكت القلم الحديدى بيئمانها ولوح الشمع فى يئسراها ، وإذا هى تردّد بعد أن بدأت ، ثم إذا هى تكتب ولكنها لم ترض ما كتبت ، فطمست وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت . وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها ، وتضعها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد ، وساءها كل ما كانت مُقدمة عليه ، وامتزجت على وجهها الجراءة المرتسمة بالحياء . وبعد أن خطّت كلمة « أختك » قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت : « إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهى لا ترقب منك إلاّ السلام<sup>(١٩)</sup> . وإن الخجل ، نعم الخجل ، يحول بينها وبين ذكر اسمها . وإذا سألتنى عما أطلب فهو رغبتى فى عرض حالى من غير أن يُذكر اسمى حتى لا تتعرّف أنت على بييليس فى شخصى قبل أن أطمئن إلى أن دعواتى باتت مستجابة . ومن الممكن أن تقع على دليل قلبى الجريح فى شحوب وجنتى ونحول جسدى وتعبيرات وجهى وعينى الدامعتين ، وفى الزفرات التى أطلقها دون سبب ظاهر ، وفى ضبّاق المتكررة لك ، ثم فى قبلاقى التى لا بد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها . ومع ما أحمله فى قلبى من جرح عميق ، وبرغم الجنون المشبوب المحتدم فى صدرى فعلت كل ما بوسعى [ وأشهد الآلهة على ذلك ] لكى أبرأ . وقد جاهدت طويلاً وأنا فى مأساتى من أجل أن أفلت من سهام كيوييد التى لا ترحم ، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة ، واليوم أجدنى مرغمة على أن أعترف بهزيمتى وأطلب عونك على استحياء . أنت وحدك تستطيع إنقاذى أو القضاء على الفتاة التى تحبك فاختر هذا أو ذاك . إن التى تضرع إليك اليوم ليست خصماً لك ، بل هى أقرب ما تكون إليك ، تتلهّف شوقاً لتزيد اقتراباً منك

ولتتحد معك برباط أوثق . فلنترك للعجائز علم القانون ، فعليهم أن يبحثوا عما هو مباح وعما هو جريمة وعما هو ليس بجريمة ، ولنُخل الجوبينهم ويبن القانون يفعلوا به ما يعن لهم ، فإذا قانون فينوس الشجاعة هو الجدير بسنوات عمرنا . ما هو الحلال ؟ إننا مازلنا نجهله ، ولكننا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا في كبار الآلهة أسوة ، ولن يقف في طريقنا شيء ، فلا قوة تعترضنا ، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة تعوقنا ، ولنفرض جدلاً أن هناك ما يدعو للخوف فأى شيء نخشاه ؟ إذ بقدرتنا أن نُخفى متعتنا المختلصة باسم محبة الأخ لأخته ، وإذا كنت حرة في أن أثبتك سرى خفية ، فما أولانى أن أعانقك وأقبلك علنا . فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه ؟ فلنأخذك الشفقة بهذه التي تقرّ لك بحبها والتي لم تكن لتجرؤ على ٥٦٠ التصريح به لو لم تغلبها على أمرها تلك العاطفة المشبوبة . ناشدتك ألا يُذكر اسمك على شاهد قبرى على أنك المستول عن موق . تلك كانت العبارات المرسله هباء وبلا جدوى ، والتي حفرتها يدها على لوح الشمع الذى ضاق بكلماتها ، فكتبت آخر سطر فى هامشه ثم ختمت هذه الرسالة التي مهرتها آثمة بخاتمها المرصع بالجواهر والذى بلّته بدمعها [ لأن لسانها كان جافاً ] ، ونادت خادماً لها والخجل يغمرها ، وقالت له بصوت يشيع فيه القلق والتلطف : احمل هذه الرسالة إلى . . ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة « أخى » . وفى اللحظة التي قدّمت له الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض ، فاضطربت لهذا النذير ، وعلى الرغم من هذا أرسلتها ، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية .

ولم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى غضب غضباً مفاجئاً وقذف بالألواح التي تسلّمها بعيداً ، وأمسك بيديه التي كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه : « أغرب عن وجهى بأسرع ما تملك أيها الشرير يا رسول العلاقة المحرّمة ، فلو لم يذع موتك عارنا لكان موتك ثمناً لجريمتك » . ولأذ حامل الرسالة بالفرار مذعوراً وأبلغ سيده ما كان من كاونوس من رد رهيب ، وعلا الشحوب وجه بيبليس حين علمت أنها كانت موضع الازدراء ، وسرى فى جسدها كله صقيع وغشيه ٥٨٠ الاضطراب ، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرح إليها معه ، وبصوت خافت كأنه الهنس قالت : « لقد نلت جزائى ، فما كان أشد حمقى حين اندفعت فكشفت له عن قلبى الجريح ؟ لماذا عجلت هكذا وسجلت على الألواح اعترافاً كان حرّياً بي أن أخفيه ؟ لقد كان جديراً بي أن أبدأ باختبار عواطفه بكلمات مبهمه لا تورطنى . كان ينبغى على كى تدفع الريح سفينتى ألا أسلمها إلا طرفاً من الشراع ، وأراقب شدتها فأبحر فوق مياه لا تنهّدها الأخطار . أما الآن فقد تركت الرياح التي لم أختبر شدتها تدفع بكل أشرعتى ، فألقت بي فوق الصخور أنا وقاربى المحطوم وابتلعتنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا للشاطئ . بل لقد حدّرتى فال لا يخيب من أن أستسلم لهواى ، حين أمرت الخادم أن يحمل الألواح الشمع فأفلتت من بين يديّ وهوت بأمنيائى إلى الأرض . أو لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر ، أو أن أنصرف عن هذا الأمر كله ؟ بل لقد كان على أن أستبدل باليوم غيره ، فلقد حدّرتى الإله حين وجّه إلى علامة تحمل ما سوف يقع لو لم أكن سقيمة العقل . وقد كان على أن أخاطبه بنفسى بدلاً من أن أهمس ٦٠٠ للألواح بسرّى . كان على أن أواجهه فأطلق العنان لعاطفتى المحمومة حتى يلمح دمعائى ويشهد ملامح

وجهي الذي يحبه . وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بحت به في رسالتي ، ولاستطعت بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعي حتى لو صدني . وعندها كنت أستطيع بينا أنظاها بالإشراف على الموت أن أقبل قدميه وأجثو على الأرض متوسلة إليه أن يمنحني الحياة . كان في مقدوري أن أستخدم وسائل شتى ، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفي لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تلين قسوة قلبه . من يدري لعل الخادم الذي أرسلته إليه قد أتى خطأ ما ، أو لعله لم يحدثه الحديث اللائق ، وإنني واثقة أنه لم يختار اللحظة المناسبة ولم ينتظر الساعة التي لا تساور فكره فيها الهموم . تلك هي الأسباب التي عاقت تحقيق رغبتى ، فيقينا إن أخى ليس ابن غيرة ، كما أن قلبه لم يُقد من صخر ولا من فولاذ ، ثم هو لم يرضع في طفولته لبن لبوة . ولسوف أفوز به ، فلا تصد له من جديد دون أن يدفعني نفوره إلى التخل عن مقصدي طالما بقيت تتردد في صدرى أنفاس من الحياة . وإذا كانت بغيتي في البداية - لو أُتيح لى أن أعود إلى ما أقدمت عليه - هي أن أخوض هذه المغامرة ، فقد أصبحت بغيتي الآن - وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت - أن أنتزع النجاح الكامل قسراً . ولو صحَّ أنني نبذت رغباتي جانباً فما أظنه ينسى أبداً جُرأتى ، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال حبي له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة منى لتعرف ما يحمله لى من أحاسيس لأوقعه في شراكي ، أو على الأقل سيتصور أنني لم أكن مستسلمة لسطوة إله يعتصر قلبي ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهوات . على أنني غير مستطبعة آخر الأمر أن أبدو مبراة لم أقترف جرماً كبيراً . لقد تدنست نيتي وما أستطيع أن أدعى البراءة . وما بقى على أن أقوم به لتحقيق آمالي قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يزيد جرمتي شيئاً . وكانت كلماتها تعبر عن اضطراب فكرها واضطراب الصراع فيه ، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطية كل ما هو خلقى في محنتها ، معرضة نفسها لامتهان لا ينقطع .

وحين يش كاونوس من رجوع أخته عن محاولاتها معه قرر الفرار من الوطن هروباً من زنا المحارم ، وراح يشيد لنفسه مدينة جديدة فوق أرض غريبة<sup>(٢٠)</sup> . وقيل وقتها إن ابنة ميليتوس فقدت صوابها فمزقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خديها غائبة عن وعيها ، ثم كشفت علنا عن هوسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وحبا الأثيم ، وهجرت هي الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة ، وتبعت آثار أخيها في المنفى ، متشبهة بعبادات باكخوس على جبل إيساروس حين يهيجهن ثيرسوسك<sup>(٢١)</sup> يا ابن سيميليه ، فيُحيين أعيادك التي يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة . وعبرت ببيليس الحقول الفسيحة وهي تصرخ على مشهد من نساء مدينة بوباسوس<sup>(٢٢)</sup> ، ومن هناك ساقتها خطاها التائهة إلى بلاد الكارين وإلى الشعب الليليحي<sup>(٢٣)</sup> المدجج بالسلاح ، ومرّت بليكي تاركة وراءها كراجوس وليميريه ونهر زانثوس والهضاب التي يسكنها الخيميرا ، ذلك الكائن الوحشى الذى ينفث جسده السنة اللهب والذى كان له جذع أسد وذيل ثعبان<sup>(٢٤)</sup> .

وأخذت الغابات الفسيحة التي اخترقتها ببيليس تتضاءل في عينيها كلما بُعدت عنها حتى أضناها السير سعيّاً وراء أخيها ، فسقطت محطمة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض

الصلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة . وأقبلت الحوريات الليليّيات فحاولن إيقاظها والتخفيف من آلامها وصرفها عن غيها ، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفيتها وظلّت راقدة تمزّق بأظافرها العشب الأخضر وتروى المراعى بأنهار الدمع ، ويقال إن حوريات الماء قد احتفرن مجرى لدموعها لم ينضب أبداً . وأى هبة خير من هذه كان يمكن أن يقدّمها إليها ! وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللزج من الترية الحبلّى به ، وكما يتجمّد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس ، تحوّلت حفيدة فويوس التى أنهلكها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبتة ببيليس .

## إيفيس

وكان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة سكان المدن المائة التى تتنظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فيستوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة ، ولكنه ولد حرّاً تنكافاً ثروته ومكانته ، وعاش حياته بعيداً عن الشبهات .

وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحتها قائلاً : « إننى أصلى رجاء امرين : أن تحفّ عنك آلام وضعك ، وأن تُرزق بمولود ذكر ، فإنجاب البنات جمل يثقل على من ضاقت موارده مثلى ، على أنى إذا فشلت ضراعاتنا ورزقنا بنت فسوف أقضى بقتلها [ على الرغم مما أكّنه من مشاعر الأبوة . . . ولتغفرى لى ذلك ] . وبينما هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة ، وقد حاولت زوجته بتوسلاتها المتتالية ألا يضيق الخناق على أحلامها ولكنه كان صلباً فى تمسّكه بنواياه .

وحين بدأت تليثوزا تنوء بحملها ، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها ، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدسة وقد توجّج جبينها بالنّاج الهلالى المرصّع بالسنايل الذهبية تحيط بالصّل الملكى ، فبدت جليلة مهيبه<sup>(٢٥)</sup> ، وقد صحبها كلبها أنوبيس العاوى ، والقطعة المقدسة بوباستيس ، وآبس ذو الرداء المتعدد الألوان ، والإله الذى يحبس صوته ويضع أصبعه على شفّته داعياً إلى الصمت<sup>(٢٦)</sup> ، وكذلك مصلصلاتها ، وأوزيريس الذى لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه ، والثعبان الغريب المنتفخ بالسّم المنوم . وتحدثت الإلهة إلى تليثوزا التى خيلَ إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام ، وقالت الإلهة : « أنت واحدة من أفراد حاشيتى يا تليثوزا فخفّى عنك قلقك ، ولا تطيعى زوجك فيما أشار به عليك ، ولا تبخلّى بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكتينا من مساعدتك فى وضعه . أنا إلهة الغوث أقدم العون لمن يتوجّه إلىّ بالرجاء ، ولن يجار لسانك بالشكوى من أنك لجأت إلى إلهة لا تقرّ بالجميل » . ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتها ، ونهضت تليثوزا الكريّية من

فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسّلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت في منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى أخفت الأمر عن زوجها وأدعت أنه ذكر . ولم تتجه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلا لمرصعة الطفل ، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس . وسعدت الأم بذلك الاسم الذي يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز فلم تخدع أحدا بهذا الاسم ، وبقي سرّها خفياً بسبب هذا الاسم . وألبست طفلتها ثياب الذكور ، وأخفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تخفه على الآلهة التي باركت خطواتها . وكانت للطفلة قسمات تميز بالجمال الذي يشارك فيه الذكور الإناث . وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزواجها من إيانثى ابنة تيلستيس الكريتي أجمل بنات فيستوس وأكثرهن فتنة وكانت في سن إيفيس ، تلقياً معاً تعليمهما على أيدي الأساتذة أنفسهن فمسّ الحب قلبيهما البريثين ، غير أنهما كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين . فبينما كانت إيانثى شديدة الלהفة للزواج من إيفيس التي تحسبها رجلاً وتتظر في شوق يوم زفافها إليه ، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلها لن تستطيع أن تجد إلى جانبها السعادة ، وكان إحساسها بالضيق يزيدها التصاقاً بالفتاة ، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع ، وتردّد فيها بينها وبين نفسها : « أى مصير ينتظرني ، لقد وقعت في حبال حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل ، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتي لحزرتني من قبضة هذا الحب ، أما إن شاءت هلاكى فلم لم تُصبنى ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له . إن البقرة لا تهيم بحب بقرة ، والفرس لا تعشق فرساً ، والنعاج تتجه دوماً للكباش ، وأنثى الوعل تطارد ذكورّه ، وعلى هذا النحو تتزاوج الطيور . ولا ينطوى عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها . ليتني لم أُولد ، غير أنه مقضى أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء . لقد أحببت ابنة الشمس<sup>(٢٧)</sup> ثوراً حقاً ، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً . أما حبي أنا فهو — لو كشفت عنه — أكثر شذوذاً من حبها ، فقد كانت لذة الجسد التي ترقبها هي التي أغوتها ، وقد استطاعت بالحيلة حين تخفّت في تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذي تخيلته عاشقاً حقاً .

٧٢٠

٧٤٠

٧٦٠

٢١٠

أجله واقترب موعد زفافى ، وستصبح إيانثى لى دون أن أقوى على تملكها ، وسأحس الظلم وأنا وسط المياه ، مالى أراكما هنا يا چونو يا راعية الزواج وأنت يا هيمينايوس<sup>(٢٨)</sup> ؟ وماذا تفعلان فى حفل ليس به زوج ، بل نحن فيه زوجتان ؟ . وما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت .

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل ضراوة عن حب إيفيس لها ، وراحت تتضرع قائلة : « مدّ إلى يد العون على عجل يا هيمينايوس » . غير أن تيليثوزا كانت نخشى ما تدعو إليه إيانثى وتوجل الموعد متصنعة المرض أو متعللة برؤى مقلقة أو بفأل سيء حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع الزفاف الذى تأجل مرات عدة ولم يبق إلا يوم واحد . وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتفة حول رأسها وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها ، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت : « يا إيزيس ، أنت يا من تقطين الباريتونيوم<sup>(٩)</sup> وحقول مريوط وفاروس<sup>(٣٠)</sup> والنيل المتشعب إلى سبعة فروع ، أسرعى إلى نجدتنا . أتوسل إليك أن تمنحنا دواء لآلامنا ، أنت أيتها الإلهة التى رأيتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرفت على حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك ، وحفرت بإخلاص وصاياك فى ذاكرتى . إذا كانت ابنتى مازال على قيد الحياة ، وإذا كنت أنا نفسى أحياء فى مأمن من العقاب ، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك التى أدين لك بها اليوم ، فلتترفعى بنا نحن الاثنين ، وامنحنا عونك الكريم » . وانسابت الدموع من ٧٨٠ عينيها مع انتهاء دعائها ، وخيل لها أن المحراب يهتز . وفى الحق إن المحراب اهتز كما اهتزت أبواب المعبد ، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بالقمر ، ودوّت جلبة عاصفة ، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه الدقة ، لكنها عدت ذلك فالأ حسناً وامتلأ قلبها بهجة ، وخرجت من المعبد ومضت مع إيفيس التى اتسعت خطواتها عما كانت عليه من قبل ، وقد فقدت بشرتها نعومتها ، وغدا شعر رأسها قصيراً مصففاً فى بساطة ، وأصبحت قسماً وجهها أكثر صرامة ، ويدت أقوى مما كانت وامتلات نشاطاً قل أن يمتلىء به جسد أنثى ، واستحالت هذه الأنثى الرائعة الجمال فتى فى غمضة عين ! هيا إذن أيها الزوجان السعيدان ، احملا هداياكما إلى المعبد وانعما بالفرحة فى طمأنينة .

ومضى العروسان بهداياهما إلى المعبد ، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول : « ها هو ذا إيفيس يقدم قرباناً نذر بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة ، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح - كما اشتاق - صبياً » .

ومع صباح اليوم التالى أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أركان العالم الفسيح ، واجتمع كل من فينوس وچونو وهيمينايوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة ٨٠٠ إيانثى<sup>(٣١)</sup> .

# التعقيبات

- (١) نيسوس أحد القنطورى وهو ابن إيكسيون أنجبه من الغيامة التى أرسلتها جونو بينها وبين إيكسيون عندما حاول الاعتداء عليها . وقد نال إيكسيون عقابه فى العالم السفلى بأن شدته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع .
- (٢) كان هرقل قد غمس سهامه فى الدم السام للهدرا الليرناوية . عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الاثنى عشر راجع المقدمة التى صُدِّر بها د. أحمد عثمان ترجمته لمسرحية سينىكا « هرقل فوق جبل أويتا » ( من المسرح العالمى . الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص ١٠ - ١٠٧ ) .
- (٣) أومخاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها فى ئيساليا والثانية فى ميسينيا والثالثة فى يوبويا . وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أبولو بهذه الأخيرة ، وكان رامى سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته ممن يقهره فى مباراة الرماية ففاز هرقل ، غير أن يوريتوس وأبنائه أبوا تسليم يولى بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد ، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبنائه وأخذ يولى أسيرة .
- (٤) كان للإلهة جوبيتر معبد على رأس كيناىون أو كينايوم إلى الشمال الغربى من يوبويا .
- (٥) تذكر ديانيرا مصرع خالى ملياجر على يديه انتقاماً لإهانتها لأتالانتا [ انظر الكتاب الثامن ] .
- (٦) يبدأ أوفيد هنا استعراض مآثر هرقل . وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يفد إلى بلاده قرباناً للآلهة ، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطم قيوده وقتل بوزيريس وابنته وحاشيته .
- (٧) يوريشيوس هو ملك أرجوس الذى فرض على هرقل القيام بالمغامرات الاثنى عشر التى وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة .
- (٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياس أعز صديق لهرقل . وبعد أن عاون هرقل فى إعداد المحرقة وهبه هرقل قوسه وسهامه . واشترك فيلوكتيتيس فى حملة الأخيين ضد الطرواديين ، غير أن ثعباناً أرسلته جونو لدخه فى قدمه فتركه رفاقه الإغريق فى جزيرة لمنوس لاشمئزازهم من رائحة العفن الصادرة عن جرحه . وعندما قال العراف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التى كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسيوس ونيپتوليموس وديوميديس لإحضاره . ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع .
- (٩) كانت اللحظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات « نساء تراخييس » لسوفوكليس .
- (١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا . إذ حاول يوريشيوس بعد موت هرقل أن يخطف أبنائه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخييس الذى أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريشيوس أثينا مطالباً ئيسيوس بهم إلا أن الأخير هزم يوريشيوس . وهذه القصة موضوع مأساة « أبناء هرقل » لأوريبيديس .
- (١١) ليس المقصود هونيات اللوتس المعطرى بل المقصود هو شجرة العنّاب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس . ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء فى نص لافيد .

- (١٢) تزوج هرقل هيبى ابنة جونو بعد أن تحول إلهاً في السماء .
- (١٣) كان أمفيارايوس قد أوصى ابنه الكايون بأن يثار له فقتل أمه . وقد فقد الكايون صوابه نتيجة لذلك وطاردته ربوات الانتقام كما ورد في « مأساة السبعة ضد طيبة » ، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من ألفيسيبيو ابنة الملك وأمهرها قلادة أمه الذهبية . وازداد جنونه بمرور الأيام فقصد الهاتف الإلهي الهيبى الذي أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلوس حيث تزوج كاليرهى بنت إله النهر التي طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية ، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى ، ولكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة في معبد أبوللو بدلفى . فتضرعت كاليرهى إلى چوپتر كي يتيح لأبنائها الثار لأبيهم قبل إدراكهم سن الرشد ، الأمر الذي وافق عليه رب الأرباب .
- (١٤) هي أورورا التي مُنح زوجها تيتونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدى . ويبدو أن الصواب قد جانب أوفيد حين نسب أورورا إلى المارد بالاس بينما هي في واقع الأمر وفق رواية هزودوس ابنة المارد هيريون .
- (١٥) ابن چوپتر من إكترا بنت أطلس ، وكان يحظى بعطف سيريس التي عشقته وأنجبت منه پلوتوس فغضب عليه چوپتر وأرسل عليه صابغة قتلته .
- (١٦) مينوس ورادامانثوس وأياكوس أبناء چوپتر من أوروبا .
- (١٧) مدينة ميليتوس في آسيا الصغرى التي كَوْنها طمى نهر المياندر .
- (١٨) زَوْج إله الريح أيولوس أبناء من بناته الست .
- (١٩) هنا نوع من البلاغة اللفظية ، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة في الوقت نفسه ، وهي تورية قصدها الشاعر .
- (٢٠) أسس كاونوس مدينة باسمه في كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كاليس بالقرب من البحر .
- (٢١) الثيرسوس عصا تنتهى بحلية على شكل ثمرة صنوبر هي صولجان باكخوس .
- (٢٢) بوباسوس مدينة في كاريا شرقي كنيدوس .
- (٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة في كاريا بآسيا الصغرى .
- (٢٤) ذكر هزودوس أن الخيميرا هي إينة تيفون وإخيدنا ، ومن ثم كانت أختا للكلب كيربيروس وللأفعوان الليرناوى . وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافى يرجع إلى أصول شرقية بعيدة .
- (٢٥) روى أوفيد أسطورة إينة إيناخوس التي رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [ انظر الكتاب الأول ] . وتدل الإشارة الواردة في النص على إقبال الرومان على العقائد المصرية ، والمعروف أن إيزيس كانت تُمثل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلها كانت تمثل إيو . وفي وصفه لإيو نسب أوفيد سنابل القمح والصل لها كما كانت الحال بالنسبة للإلهة والفراغة عند المصريين القدماء .
- (٢٦) هو حور [ حورس ] بن إيزيس وقد سبّاه الإغريق هارپوقراطيس وصوّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه في فمه .
- (٢٧) پاسيفاي زوجة مينوس ملك كريت .
- (٢٨) هيمينايوس هو الإله الجميل راعي الزواج وأحفال الزفاف . وقال البعض إنه ابن أبوللو من إحدى ربوات الفنون ، وادعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس ولينوس ، ويصوّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرجة الزفاف .
- (٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ ربما هي مرسى مطروح الآن ] وكثيراً ما كانت كلمة « پاريتون » تعنى المصرى أو السكندرى لدى الرومان .
- (٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصلها بطلميوس « المنقذ » بالمدينة وشيّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة .
- (٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً في فيستوس ، واسم بطل هذه القصة ليوكيبيوس لا إيفيس ، وإن الفضل في تحولها إلى فتى مرته إلى لاتولا إلى إيزيس . ويذكر نيكاندر بهذه المناسبة اثنين تمتعا بنفس القدرة على التحول من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينيوس اللابثى ، وقد ذكر أوفيد أولهما في الكتاب الثالث وثانيهما في الكتاب الثانى عشر .





پیکاسو: الأفعى تلدغ كاحل يورديكي

## الكتاب العاشر

### أورفيوس

استجاب هيمينيوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكي يشهد حفل زفافه ، فشقّ أجواز الفضاء متلفعاً بردائه الزعفراني<sup>(١)</sup> إلى أن بلغ شواطئ الكيكونيين<sup>(٢)</sup> ، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت لا جدوى فيها لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفل سوء الطالع . وقد بدا أورفيوس مقطبّ الجبين لا يعلو

وجهه سيم البشر وانصرف عن شدو نشيده المؤلف ، وكذ فهقت الشعلة التي يحملها وانبعث منها دخان كثيف يهيج دموع الحاضرين وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى . وقع ما هو أكبر شراً مما أنبا به الفأل ، فقد اعترضت أفعى طريق العروس وهى تتجول في المروج بين صاحباتها ولدغت كاحلها فهوت على الأرض جثة هامدة ، فهال ذلك حبيبها الشاعر مُنشد جبال رودوبى وهوى هابطاً إلى عالم الموتى في جُرة لا حدود لها شاقاً طريقه إلى شاطئ نهر ستيكس عبر بوابة تيناريوس<sup>(٣)</sup> كى يحرك أرواح الموتى شفقة ، وأخذ يجوس بين أشباح الأرواح الداوية إلى أن انتهى إلى حيث بيرسيفونى وزوجها اللذان ييمنان على هذه الأنحاء المعتمة ، وجعل ينشدهما على أنغام القيثارة :

« أى إلهى العالم السفلى الذى سمنضى إليه نحن البشر الفانين ، هل لى أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة ؟ ما أتيتُ إلى هنا لأتجول في دروب تارتاروس المعتمة ولا لأكبّل بالأصفاد كلب ميدوسا المفترس ذا الرؤوس الثلاثة والشعر الكثيف المتلبّد الذى تنساب بين تلافيفه الشعاب<sup>(٤)</sup> ، وإنما أتيتُ سعياً وراء عروسى التى خبت جذوة حياتها وهى في ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت في عروقها سمها الزّعاف . وكم وددتُ لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزاني باذلاً جهدى لأتدرّع بالصبر ، غير أن الحنين إلى عروسى غلبنى ، والحب كما تريان إله له شهرته بين البشر ، وما أدرى هل تكون له شهرته هذه بينكم ، وما إخالكما يغيب عنكما أمره . وعلى أية صورة كانت الصلة بينكما قبل أن تتزوجا ، فما من شك في أن الحب هو الذى جمع بين قلوبكما ، فبحق هذه الدروب الرهيبة والمتاهات ، وبحق هذا الصمت المخيم على ملكتكما الشاسعة أضرع إليكما أن تُعيدا إلى يورديكى الحياة التى فقدتها يانعة ، وإنى لأعلم أن مصيرنا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى هذا المكان وكلنا ماضون إليه ، وأن سلطانكما على البشر أبدى لا انقطاع له ، وأن زوجتى سوف تُردّ روحها إليكما شأنها في ذلك شأن غيرها ، وذلك بعد أن تقضى حياتها المقدورة على الأرض . وما أرجوه منكما هو أن تهانى الفرحة بصحبتهما ، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدها ثانية إلى الأرض فما في نيتي أن أعود إلى عالم الأحياء ، ولكما عندها أن تتشفّيا بموتى كما تشفّيتما بموتها . »

وفما كان أورفيوس يتغنّى بكلماته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الشاحبة بالبكاء ، وغفل تانناوس عن متابعة المياه وهى تغلت منه<sup>(٥)</sup> ، وتوقفت عجلة إيكسيون عن الدوران ، وأمسكت الصقور عن نهش كبد تيتيوس ، وأغفلت بنات داناوس ملء جوارهن ، واستولى الدهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته<sup>(٦)</sup> ، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشدو الحزين فابتلت وجناتهن بالدموع ، ولم يملك حاكم العالم السفلى وزوجته إلّا الاستجابة لتوسلاته . ودعيا يورديكى ، فأقبلت من بين الأشباح تنهادى مُثقلة بجرحها ، ومضى أورفيوس الطراقى مُنشد جبال رودوبى بزوجته على شريطة ألا يمدّ عينيه إليها إلّا بعد أن يغادرا وديان أفيرنوس<sup>(٧)</sup> حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده .

وانطلقا معاً بين السكون والظلمة يرقبان السفوح وقد خيم عليها ظلام لا تُشَقّ غياهبه ، وحين اقتربا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحسّ

بلهفة إلى رؤيتها ، فمال ببصره إلى الوراء فإذا يورديكي التعسة تعود لساعتها إلى الأعماق ، وهي تمّد ذراعيها إليه ، وعبثاً حاولت أن تحمله على الإمسك بها أو أن تتعلّق به ، وإذا ملء كفيها هواء . وعاجل الموت يورديكي ثانية دون أن تلفظ بشكاة ، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها ! ولما همّت بوداعه تبدّدت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه ، وإذا هي تجد نفسها ثانية في المكان الذي كانت قد خلّفته منذ لحظات .

ومزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموت ، وصار أشبه بذلك الرجل الذي هلع حين رأى كيريروس ذا الرؤوس الثلاثة ممّداً على الأرض مغلول الرأس الأوسط ، ولم يخلص من هلمه إلّا حين فقد صورته الأولى وتحوّل حجراً<sup>(٨)</sup> ، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التعسين اللذين تحولا في مراعى إيدا<sup>(٩)</sup> حجرين لشدة غرور ليثيا بجهاها ، مما حمل أولينوس على أن يحمل جريرة إثمها على عاتقه ، فإذا هو قد حمل وزرها وغدا من المذنبين . وقد حاول أورفيوس أن يعبر نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء ، ولم تُغنّ توسّلاته لحارس المعبر كي يأذن له بالعبور ، فبقى مطروحاً على شاطئ النهر سبعة أيام لا يذوق طعاماً أو شرباً ، يقتات من الحزن والقلق والدموع ، وعاد بعدها إلى جبل رودوبي السامق وجبل هايموس الذي يقع في مهب الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموت .

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النديّة التي تتم دورات ثلاثاً في العام ، وكان أورفيوس قد هجر حب النساء خلال تلك الفترة كلها ، إما لتلك المأساة أو لعهد قطعه على نفسه . وكم من فتيات كن يتشوّفن للزواج منه استشطن غضباً لتجاهله إياهن ، غير أن أورفيوس آثر أن يقصّر علاقاته على صحبة الفتيان ذوى الشباب الغضّ ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وشبابهم القصير المدى ، فكان أول من جنح بشعب طراقيا إلى هذا السبيل<sup>(١٠)</sup> .

## كِياريسّوس

وجلس الشاعر سليل الألهة فوق ربوة منبطحة يغطّيها العُشب وليس ما يُستظّل به من أشعة الشمس ، ولكن ما إن أخذ يحرك أوتار قيثارته الشاجية وتنبت منها أنغامها الأولى حتى أقبلت إليه الأشجار بظلالها ، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا<sup>(١١)</sup> وأشجار الحور شقيقات فايثون ملتفة حوله ، وسنديانة زيوس العملاقة السامقة الأفنان ، وشجر الزيزفون والزنان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التي نصنع منها عيدان الرماح وشجر التنوب الأملس وشجر السنديان المثقل بجوزاته وشجر الجميز مكمن الفرع ، وشجرة الاسفندان ذات الأوراق المتبائية الألوان ، والصفصاف الذي ينمو بجوار الأنهار ، واللوتس عاشق الماء ، وشجيرة البقس الدائمة الخضرة ، وشجرة الطرفاء النحيلة ، والريحان الثنائي اللون ، وشجرة اللّورة التي تحمل الثوت الداكن الزرقة ، واللبلاب أيضاً جاء يجرّ ذبوله ، والكروم المورقة ، والدردار بين ثناياها ، وشجرة الغبيراء وشجرة الصنوبر الراتنجي ، والفرصاد البرّي المثقل بالثمار

الحمراء ، والنخيل اللدن الذى يُمنح سعه جائزة الفوز فى المباريات ، وشجرة الصنوبر أعزّ الأشجار إلى سيبيل [ كويل ] أم الآلهة ذات الأوراق المنتصبة وكأنها معرفة شعناء لجواد ، وذلك أن كاهنها آتيس كان قد استحال من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة<sup>(١٢)</sup> . وإلى الجمع الحاشد انضمت شجرة السرو بهيئتها المخروطية التى تذكرنا بحدود زوايا المنعطفات فى حلبة السباق ، وهى إن كانت اليوم شجرة ، فلقد كانت من قبل فتى عشقه ذلك الإله الذى يجيد غمز أوتار القيثارة إجادة شدّ وتر القوس .

واليكم القصة : فى سالف الأيام كان ثمة وعلى بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا<sup>(١٣)</sup> برعايتهن ، وكانت قرونة متشعبة تمتد هنا وهناك متألفة بوميض ذهبي ، وتطوق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تسدل على صدره ، وتبرق على جبينه نعيوزة فضية مثبتة بأشرطة جلدية رفيعة ، وتتدلى من أذنيه لآلى وضاعة على صدغيه الغائرين . وكان لا يخالط قلبه خوف ، يدخل على الناس بيوتهم ويداعب الغرباء بمدّ عنقه نحوهم ، وكان كيباريسوس أكثر شباب كوس وسامة هو أقرب الناس إليه وأشدّهم التصاقاً به ، وكان يقتاده إلى المراعى الخضراء والينابيع الثرة ويكّل قرونة بأجل الزهور ، ويمتطي ظهره فى بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد ، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق يمنة ويسرة بأعنة أرجوانية .

١٢٠

وفى ظهر يوم من أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطئ البحر أحسن الوعل بالإرهاق ، فاستلقى على العشب ينشد الراحة خلال الأنسام الندية فى ظلال الأشجار ، وتراءى لكيباريسوس مداعبته فوخزه بحربته المسنونة دون قصد إيذائه ، فإذا الوعل قد جرح وانكفاً يحتضر وهم كيباريسوس يقتل نفسه ليلحق بصديقه فى رحلة الموت ، فأسرع أبوللو إليه يواسيه بأجل القول ويحاول إقناعه بالقصد فى حزنه ، غير أن الصبى مضى يئن ويتنحب واتجه إلى الآلهة يسألها أن تحقق له رجاءه الأخير وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد . ولم ينقطع الصبى عن البكاء حتى جفّت من عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخضرة ، وجمد شعره وتشعث بعد ما كان مُرسلاً يتموج على جبينه الناصع البياض . وغمر الحزن العميق الإله أبوللو فناجى نفسه فائلاً فى أسى : « لسوف أظل أبكيك أبداً ، ولسوف تظل أنت تذرف الدمع من أجل الآخرين ، ولسوف تبقى دائماً رفيقاً لزمرة المحزونين<sup>(١٤)</sup> .

١٤٠

## جَانِيمِيدِيسْ

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته محرّكاً إبهامه عليها متوسطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسراب الطيور ، حتى إذا اطمأنت أذنه إلى اتساق النغمات المختلفة التى يعزفها بدأ يشدو قائلاً : « أمّاه ، يا ملهمة الشعراء ، فليكن چوپيتر الذى تنحنى لجبروته جميع الكائنات أول من أستهل به أغنيتى ، وما أكثر ما رويت من قبل عن جبروت چوپيتر ، وما أكثر ما تغنيت بالعاقبة وبالصواعق المدمرة التى هوت على سهول

فليجرا<sup>(١٥)</sup> بنغمات أكثر جلالاً . أما اليوم فما أحوجنى إلى نغمات هادئة توائم قصص الغلمان الذين عشقهم الآلهة والفتيات اللاتي استبدت بأفئدتهم عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالياً .  
فقدماً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريجي . ولكي يبلغ كبير الآلهة ما يريد أثر أن يتخذ صورة كائن آخر بدلاً من صورته ، فاختار صورة ذلك الطائر الذي يطبق حمل صواغقه على جناحيه [النسر] ، وحين استحال إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن خطف ابن إيلوس<sup>(١٦)</sup> ، الذي ما يزال إلى اليوم يعدّ كئوس النكتار ليحتسيها چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو بذلك .

١٦٠

## هياكيتشوس

وكان فوبيوس على وشك أن يمنح هياكيتشوس بن أميكلاس منزلة سامية في السماء لو أن الأقدار القاسية قد أرخت له الزمن ليحقق هذه الأمنية ، ولكنه مع ذلك خلد على النحو الذي كان مُقدراً له وقتها ؛ فإذا ما جاء الربيع في أعقاب الشتاء ، وإذا ما خلف برج الحمل برج الحوت الندى يعود هياكيتشوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرة في المروج الخضراء .

لقد منح فوبيوس الصّبي حُباً لم يمنحه غيره من البشر ، فهجر مدينة دلفي صرّة العالم ، وأخذ يختلف إلى يوروتاس ومدينة أسبرطة التي لا أسوار لها مُغفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة ، ولم يتردد في حمل شباك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكيتشوس إلى حواف الجبال الوعرة ، فزادت هذه الصّحبة المستديمة نيران حبه تأججاً .

١٨٠

وفي يوم من الأيام ، وفي اللحظة التي تتوسط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله الشمس والصّبي عنها ثيابها ، ودلّكا جسديهما بزيّ الزيتون الدّسم فبدوا يُبرقان ، وأخذاً يتباريان في قذف القرص العريض . وبدأ فوبيوس فأمسك بالقرص ثم قذف به في الهواء ، فمزّق القرص بثقله خلال مسيرته السحب الكثيفة ثم هوى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة . وشغف هياكيتشوس الفتي الأسبرطي باللعبة دون أن يُعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به ، غير أن القرص ما كاد يرتطم بالأرض الصّلبة حتى ارتد إلى الوراء طائراً في الفضاء مرتطمّاً بوجهه في عنف . فعلا الشحوب وجه ملك الشمس ووجه الصّبي ، وأمسك الإله بجسد هياكيتشوس المتداعى وحاول وقف نزيف جرح الصّبي الدّامي ، كما أخذ يدلك أطرافه لكي يبعث فيها دفء الحياة ، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق جسده بعقاير الأعشاب ، غير أن محاولات أبوللو راحت كلها سُدى فقد كان الجرح مميتاً لا يجدي معه دواء ، وتدلّى رأس هياكيتشوس المحتضر تدلّى زهرة البنفسج في البستان أوزهرة الخشخاش الجامدة أوزهرة السوسن المصفرة البتلات حين ينكسر ساقها فلا يقف شاخاً بل تشنى قمته مهتدلة محملقة في الأرض في انكسار . وخارت قوى الصّبي فاندكّ عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض ، فقال له فوبيوس :

٢٠٠ « ها أنت يا هياكينثوس تقضى نحبك بين يديّ وتفقد عمرك على مرأى منى ، وإن الجرح الذى قضى عليك يؤنبني معاتباً ، ولكن أية خطيئة ارتكبتها سوى أننى أشركتك فى لعبة ما ، وهل ألام على كلفى بك ؟ ما أجدرنى أن أقضى نحبى معك ، ولكنى لا أملك أن أفلت من قوانين القدر ، وسوف تظل عالقاً بذاكرتى ، وسيبقى اسمك على فمى إلى الأبد ولن يغيب عن فكرى أبداً ، وستردّ اسمك أغنياق كلما شدوت محرّكاً أوتار قيثارتى ، وستحوّل أنت إلى نوع جديد من الزهور تعيد إلى الأذهان نحبى عليك بما تحمله من اسم . وليأتين يوم يرتبط فيه أشجع الأبطال بهذه الزهرة ويُقرأ اسمه على أوراقها . »

وفىما كانت الكلمات تنساب من فم أبوللو الذى هدّه الإرهاق ، كان الدم الذى انساب على الأرض ملطّخاً الأعشاب قد تحول إلى زهرة ، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء غير أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان ، وهكذا كرم فويوس هياكينثوس إذ حوّله إلى زهرة . وحين لم يقنع بهذا سجّل أساه على بتلاتها ، فحملت زهرة الهياكينثوس حروفاً تنمّ عن الحزن كأنها الآهات . ولم تخلج اسبرطة من ميلاد هياكينثوس على أرضها ومازالت تكرّمه إلى اليوم ، وما تزال تجرى الألعاب الرياضية لتكرمه كل عام ، وتقدم عروضها لوفى العادات القديمة فى احتفالات مهية<sup>(١٧)</sup> .

## الكيراستيس والپروپيتيديس

٢٢٠ وإذا عنّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثونتي الشهيرة بمناجها<sup>(١٨)</sup> عما إذا كانت قد أنجبت مختارة بنات الپروپيتيديس<sup>(١٩)</sup> الفاجرات لبرئت من هذا الوزر البراءة كلها ، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تنجب أولئك الرجال المسّمين بالكيراستيس<sup>(٢٠)</sup> [ نسبة إلى القرون التى تعلو جباههم ] والذين كان يتصدّر بوابتهم مذبح للإله چوبيتر المضيف . ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الدامى لظن أنه قد ذبحت عليه عجول رضيعة أو خراف صغيرة ، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجَزّ فوقه لتكون قرباناً بشرياً . وفزعت فينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة ، وأخذت الإلهة الرقيقة أهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفيوسا<sup>(٢١)</sup> غير أنها ترددت وحدثت نفسها قائلة : « أى جرم اقترفته مدّنى والمناطق التى أحبتها ؟ وأية جريرة تلك التى أخذها عليها ؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم ، فإما أن يعذبوا نفياً أو موتاً أو بعذاب بين بين ، ولم لا يكون جزاؤهم أن يتحولوا إلى صور تختلف عما هم عليها ؟ » . وفىما كانت آخذة فى التفكير فى تلك الصور التى تختارها لهم وقعت عينها على قرونهم ، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون . وعندما تجاسرت بنات الپروپيتيديس الفاجرات على إنكار ألوهية فينوس غضبت عليهن ، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتى تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة ، وإذ فقدن كل إحساس بالحياء بدأت الدماء تجمد فى وجناتهن حتى أصبح من اليسير تحوّلن بعد ذلك إلى قطع صلبة من حجر الصّوان<sup>(٢٢)</sup> .

## پيجماليون

وحين رأى پيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات كره ما أودعته الطبيعة في المرأة من نقائص مردولة وارتضى لنفسه حياة العزوية بعيداً عن النساء ، غير أنه في الوقت نفسه سخر منه الرائع في نحت تمثال عاجى له بياض الثلج وصاغه أكثر حملاً من نساء الأرض ، وإذا هو يقع في غرام ما صنعت يده . وكان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياء يقف به . ما أروع أن تضفى البراعة على الفن لوناً من الأسرار ! لقد انبهر پيجماليون بما صنعت يده وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئاً بهذه المحاكاة لجسد المرأة ، فهام بالتمثال ومضى يتحسس لا يفتر ، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه حقاً من لحم ودم ، وبات بعد لا يصدق أن التمثال قطعة من عاج فحسب ، فكان حين يقبله يخال أن التمثال هو الآخر يقبله ، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص في لحم يخشى عليه من قسوة أصابعه . وكان يخاطبه مستعظفاً ويحمل إليه الهدايا التي نهأ بها الفتيات كالأصداف وحصى الشطآن المصقول وصغار الطير ، والزهور المختلفة والكرات الملونة ، وقطرات العنبر المتساقطة من الأشجار التي كانت في الماضي أخوات فايثون [ أى الكهرمان ] ، ثم كسى تمثاله ثياب النساء ووضع في أصابعه الخواتم ولَفَّ حول عنقه العقود الطويلة وجعل اللآلئ تتدلَّى من أذنيه والقلائد على صدره . وكان التمثال جميلاً في حاله عارياً أو كاسياً ، فأضجعه فوق فراش مغطى بنسيج له لون أرجوان صُور ، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسدها ، وسماه ضجيجة الفراش .

وبدأت أعياد فينوس تقام في أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال ، وأخذت العجول الملتفة القرون الموشاة بالذهب تُنحر على المذابح وتعمل المِدَى في رقابها البيضاء ، وبدأ البخور يتصاعد في كل مكان ، وجاء پيجماليون يقدم قربانه ويصلى خائفاً بجوار المذبح وهو يتمتم : « إذا كان في قدرتك أيتها الإلهة أن تهبى كل شيء ، فهبى لى القدرة على الضراعة إليك [ ولم يشجع على أن يُصرِّح برغبته في الزواج من الفتاة التي من العاج بل اجترأ قائلاً ] : « امنحني أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية » . وما أسرع ما فطنت فينوس المثقلة بالحلى الذهبى والتي كانت في هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمى إليه من ضراعة ، فقلدت في الهواء بالسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وعطفها عليه . وما كاد پيجماليون يعود إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تمثالاً ويميل عليها يقبلها حتى أحس بدفع الحياة يدب فيها ، ومدَّ يده يتحسس صدرها فإذا العاج يلين وإذا بشرتها تلين للمس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس<sup>(٢٣)</sup> من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه في أشكال مختلفة لأغراض شتى . وذهل العاشق وكان بين فرحة المصدق وشك المرتاب ، وأخذ يتحسس ما كان تمثالاً والذي طالما ضرع من أجله مرّات ويتلمس نبضات عروقه . وما إن استوثق پيجماليون فنان پافوس<sup>(٢٤)</sup> أن التمثال عاد جسماً حياً حتى لهج بالشكر لفينوس . وانكفاً بهصر بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة ، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاحمرت وجنتاها

خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها ، فإذا هى ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار فى آن واحد . وأعدت لها فينوس عرساً شهدته ، وبعد أن اكتمل القمر مرات تسع وضعت عروس بينجاليون طفلاً أسمته پافوس ، وبهذا الاسم سُميت الجزيرة بعدُ .

## مُورْها

٣٠٠ أنجب پافوس ولده سينيراس الذى ترك من ورائه أسرة وليته لم يفعل ، ولو أنه لم يفعل لكان من السعداء المخلدين . وهاكم هذا النشيد المروع : لتعزفن عنى أيتها الفتيات ولتأتوا عنى أيها الآباء حتى لا تبلغ كلمائى مسامعكم ، وإن بلغت فلا تصدقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع ، وإذا تراءى لكم أن تصدقوا فلتصدقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء .

وإذا كان قد كُتب على بيثة أن تَشْقَى وَيَشْقَى فيها شعبها ، فما أسعد إسماروس وأسعد بلادنا ببعدها بعداً شاسعاً عن تلك البيثة التى ولد بها كائن يستطيع أن يكفر بالمقدسات . وقد تكون أرض پانشايا<sup>(٢٥)</sup> غنية بالبلسم والقرقة وعشب الجدوار وبأنواع كثيرة من الزهور ، ويفرح من أشجارها عقب الصمغ العربى والبخور ، ولكن ما جدوى هذا كله إذا كانت تنتج المرّ كذلك ، تلك الشجرة الجديدة التى لم تكن تستحق ما يُذل فيها من ثمن باهظ . ثم إن كيوييد يؤكد أن سهامه لم تُصَب « مُورْها » بجرّح ، ويقول إن التى أصابتها بهذا الداء المعيب هى إحدى الشقيقات الثلاث<sup>(٢٦)</sup> ، تلك المسلحة بجمرات من نهر ستيكس وبالشعابين المتفخخة الأوداج ، وإذا عددنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة ، فإن عشقها له هذا العشق هو جريمة تبنى على جريمة الكراهية .

ولقد تتابع الخاطبون فى طلب يدك من مختلف الأنحاء ، وتنافس من أجل الظفر بيدك كل شباب الشرق . ولك يا مُورْها أن تختارى من شئت من بين كل الرجال الذين تقدّموا لخطبتك غير رجل واحد . وأحسّت الفتاة بما يخالجه وجاهدت أن تخلص من تلك النزوة التى كانت تتملكها ، وناجت نفسها قائلة : ما هذا الذى يُبلبل فكرى . . . إننى أضرع إلى آلهة الساء التى تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطرى ما يخالجه ، وأن تحول بينى وبين أن أقترف ما هو جرمٌ حقاً . ولكن أهو حقاً جرم ؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نكته من حب للآباء ؟ إن الحيوان كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده فى ذلك ، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها ، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه ، ولا على الجدى حين يصطفى من سلالة عنزته ، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها . ألا ما أسعد الحيوان بما يهنا به ، ثم ما أقسى ذلك الضمير الإنسانى بما يفرض من قيود جائرة حرّمت ما أحلته الطبيعة . ولكن لازالت ثمة شعوب يقترن فيها الأبناء بأمهاتهم والآباء ببناتهم توثيقاً لروابط الحب بينهم<sup>(٢٧)</sup> ، ولعل حظى العاثر أننى لم أولد فى بلد من هذه البلاد ، وعلى الآن أن أدفع ثمن

مولدى هنا . ولكن مالى أسترسل فى هذه الخواطر دون إعمال فكرى ؟ فلأطرح جاهدة تلك الشهوات المحرمة . إن سينيراس جدير بحب البنت لأبيها ولو لم أكن ابنته لتزوجته ، لكنى لا أملك أن أتزوج له لأنه أبى ، وهكذا تصبح صلة القرى بيننا هى مبعث نكبتى . ولو أننى كنت غريبة عليه لتحقق أحلامى فى يسر . ولقد كان من الممكن أن أجد الراحة فى رحيلى من بلدى كى أخلص من الشعور بالذنب ، ولكن ٣٤٠ حبنى لسينيراس ورغبتى فيه يقضيان على أن أبقى بجانبه لأملأ عينى منه ولأتحدث إليه ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر . أيتها الفتاة المارقة أتتطلعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك ؟ أتحاولين أن تخلطى الأنساب وتخرقى القوانين ، أو تريدين أن تنافسى أمك وتضاجعى أباك فتصبحى اختاً لإبنك وأماً لأخيك ؟ أو لا ترهين ربّات الانتقام الشقيقات الثلاث اللاتي تنبت مكان شعورهن ثعابين سوداء تتلوى ، واللاتي يخشى المذنبون ألسنة اللهب التى يطلقنها من شعلاتهن وهن يلوحن بها فى عيونهم ووجوههم ؟ فلتأخذى حذرک ، ولا تدعى الأفكار الأثمة تعشش فى وجدانك مادمت لم تسقطى بعد فى وهدة الخطيئة ، ولا تحاولى انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطأة المروعة . وهى أنك عزمت على أن تقدمى فسّجبهين بالحقيقة لأن أباك يرعى روابط الأسرة حقّ رعايتها ولا يفرط فيما يقضى به العرف . وكم كنت أتمنى لو أن ما أصابنى كان من مس .

وحين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من الخاطبين لابتته حار ولم يدر ما يفعل ، فأخذ يذكر أسماءهم لها ويسألها عمّن تختاره من بينهم فلزمت الأميرة الصمت فى بادئ الأمر ، ثم حملت فى وجه أبيها حائرة اللب وفاضت عينها بدمع غزير . وخال أبوها أن ما اعترأها من حياء العذارى فأخذ يحفف دموعها ويربت على كتفها لتكفّ عن البكاء ، وانحنى عليها يقبلها فإذا الفتاة تحس متعة أية متعة ، وسألها أبوها : ٣٦٠ « أى زوج تختارين ؟ » ففزت الفتاة وهى تحيب : « زوجاً على مثالك » . وحسب الرجل ذلك منها لونا من ألوان البر ولم يفتن إلى ما تخفى ، وقال لها : « كم أتمنى أن تظلى بى بارة » ، وأحسّت الفتاة خجل الأثمة عند سماعها كلمات أبيها فاطرقت برأسها .

وأوى الناس إلى فراشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم ولكن ابنة سينيراس لم يغمض لها جفن ، واثارت فى قلبها لواعج لا تحمد ، وتملكتها نزواتها الطائشة ثانية . وكانت تستسلم حيناً لليأس فتستكين خجلة ، وتتنازعها الجراءة حيناً فتتحرق شهوة . ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة ، فلقد أصبحت أعجز من أن تبّ فى أمر طالما عناها وعاشت تحت ثقله ترتج ، مثلها فى ذلك مثل شجرة ضخمة توالى عليها ضربات البلطة وهى تهزّينة ويسرة لا تدرى على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة ، والخطابون حولها يرقبون وقوعها . ولم تر « مورها » خلاصاً لها من حبها إلا فى الموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تنشدها ، فلقت حول عنقها الذى انقطع الدم عن بلوغه أنشودة وأثبتت طرفها فى عتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التدلى : « وداعاً سينيراس يا من هو أعزّ الناس عندى ، وما أظنك ٣٨٠ شيعيب عنك سرّ موق » .

وبلغت كلماتها سمع مربيتها وكانت ترقد على باب حجرة نومها فنهضت وفتحت الباب ورأت ما أعدته مورها للانتحار فأطلقت صرخة مدوية ولطمت صدرها ممزقة ثيابها ، وبادرت فحلت الأنشودة الملتفة على عنق الفتاة وهي تبكي ، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسألها عن سر ما همّت به ، لكن مورها ظلت صامته تحمق في الأرض حزينة لما فاتها من التخلص من الحياة ولاكتشاف محاولتها الانتحار .

وألحّت المربية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها في الانحار ، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت أنداءها الضامرة الذابلة وهي تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها لها في مهدها وباللبن الذي غدّتها به في طفولتها أن تسرّ لها بهومها ، لكن مورها لم تفصح عن سرّها وأشاحت عنها بوجهها وهي تتنّ وتزفر زفرات حارة ، وازدادت المربية إصراراً على تعرّف الحقيقة ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها . وقالت لها : « أسرّي لي بدخيلتك أقدم لك عون ، فلازلت غير متبلّدة رغم شيخوختي ، وإذا كانت ثمة لوثة قد ألّت بك فإني أعرف من يشفيك بالتعاويد والأعشاب ، وإذا كان هناك من مسك سحره بشرّ ففى الطقوس السحرية ما يخلصك من هذا الشرّ ، وإن كان ما بك من همّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرايين ضمان لرضي الآلهة عنك . وليس ثمة شيء بعد هذا ، فإنك تعيشين عيشاً رغداً ناعمة بجوار أمك وأبيك » . ٤٠٠

وزفرت مورها زفرة عميقة حين سمعت كلمة « أبيك » وما خالت المربية أن في هذه الزفرة ما يشين ، ولكنها أحسّت أنه ثمة غرامٌ عارمٌ هو سرّ شقاها ، وازدادت عزمًا على أن تعرف خبيثة نفسها مهما كلفها ذلك ، فأخذت تتوسّل إلى سيدتها أن تطالعها بأمرها ، وضمت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين ترعدان وهي تقول لها : ما أعرفني بسرّك ، إنه الحب يخفق به قلبك ، ولكن لا عليك فستجديني إلى جانبك دوماً عندما يعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك .

فانتزعت مورها نفسها من بين أحضان مربيتها شاردة الفكر ، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهي تصرخ : « اغزبي عني وإن أضرع إليك أن تُخلّيني وحدي ، رفقاً بي ولا تحاولي أن تكشفني خبيثة عاري » . وعندما عادت المربية تلحّ ، ثارت مورها قائلة : « إن ما تحاولين أن تعرفينه جُرم فاضح فكفّي عما تحاولين » . وهلعت العجوز لما سمعت فارتمت على قدمي مورها ضارعة حيناً بما لها من دالة ومنذرة حيناً بأنها ستنتهي إلى أبيها ما اعترمت عليه ، وكانت وهي في حديثها لها تلوح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وفزعها إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تساقط من عينيها على صدر مربيتها . وكم جهدت في أن تفصح غير أن شفيتها لم تنفجراً إلّا عن كلمات قالتها وهي تستر وجهها بثوبها : « ما أسعد أُمّي حين ظفرت بأبي زوجاً » ثم تنهّدت ، فإذا المربية يرد الدم في عروقها ، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هولاً . لقد أدركت العجوز ما تخفيه الفتاة فأخذت تحذرها عاقبة فعلتها الشنعاء . ٤٢٠

وما كان عند الفتاة ما تنقض به رأى مربيتها ، لكن حبها كان عارماً لا يستجيب لنصح ، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً . ورثت المربية للفتاة وأخذت تهوّن عليها ما هي فيه ،

ووعدها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغى كى تخلصها من الموت ، ولكنها لم تعرض لذكر الأب ولم تعدها بالظفر به ، غير أن هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة .

وحلّ عيد الإلهة سيريس الذى تشارك فيه المتزوجات جميعاً ويرتدين لذلك ثياباً بيضاء ويحملن حزماً من بواكير سنابل القمح يقدمنها للإلهة ويقضين ليالى تسعاً يُجانبُن فيها الرجال ولا يضاجعن أزواجهن . . .  
وحين خرجت سنخريس زوجة سينيراس تشارك الزوجات فى هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى جواره ، انتهزتها المربية فرصة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحدّثته عن فتاة هائمة به فى عُمر مررها فطلب الملك من المربية أن تأتى بها . وما أسرع ما خفت المربية إلى مورها تحمل إليها تلك البُشرى ، ولكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولّاهما شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة ، وظلت مضطربة بينهما لا تدرى بأيهما تأخذ غير أن شعورها بالفرح كان غالباً .  
٤٤٠ . وحين خيم السكون على الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبتى الدب الأكبر والدب الأصغر خطت مورها إلى الإثم ، فإذا القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه ، وإذا النجوم تغشّيا سحب كثيفة سوداء ، وإذا الليل تخمد جذوة فحماته ، وكان أول نجم ولّى هو نجم إيكاروس ، ولّت فى إثره ابنته النجمة إريجونيه التى لم تبلغ منزلتها فى السماء إلّا لحبها الطاهر لأبيها . ولقد تعثّرت مورها المسكينة فى طريقها مرات ثلاث ، وكانت البومة فى كل عثرة تعثرها تحذّرها بنعيقها الكتيب ، غير أن مورها لم تلق لذلك بالا ولم تستمع لوخز ضميرها ومضت تمسك بيسراها يد مربيته وتتلمس يمينها طريقها وسط الظلام الدامس إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت الباب إلى حيث يرقد بخطى ثقيلة وهى شاحبة الوجه قلقة هلعة ، وإذا شعور بالندم يكاد يردّها عما أقدمت عليه ، ولقد همّت أن تفعل وهى لم تستبين أمرها بعد .

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها ، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيب وأسلمته الفتاة قائلة : « ها هى ذى لك يا سينيراس » ثم تركت الاثنين وحدهما . وضم الرجل إليه فلذة أحشائه على فراشه الدنس ، وأخذ يهدئ من روعها ويطمئنها واثراً أن يناديها « يا ابنتى » لعلّو سنّه ، وإذا هى الأخرى تناديه « أبتاه » ، وهكذا اجتمع الاسمان على أمر محرّم .

وغادرت مورها مخدع أبيها وفى أحشائها نطفته ، واستقر فى رحمها الدنس حملٌ دنس هو الجنين الذى كان ثمرة الخطيئة . وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما ، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التى ضاجعها مرات عدة ، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبين فى ضوءه وجه ابنته ، وإذا هو تترأى له بشاعة جريمته ، وتولاه جنون فنهض إلى سيفه ينتزعه من غمده المعلق ، فهزّلت مورها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقق ، تضرب فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول بانشايا .

٤٨٠ . ولقد شهدت مورها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة ضربت فيها على غير هدى ، وأدركت بلاد سبأ بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوى على احتمال ثقل حملها ، وأجست نفسها موزعة بين رهبة

الموت والنفور من الحياة . ولم تعرف ماذا تسأل الآلهة أن تحققه لها فأخذت تدعو : « أيتها الآلهة إذا كنتم تصغون لضراعة المذنبين فإنى أعترف أننى جديرة بهذا المصير ، وما أرضانى بما يلحقنى من عقاب صارم ، لكنى غير راغبة فى أن أدنس الأحياء ببقائى بينهم ولا الموتى بذهابى إليهم ، وإننى أتوسل إليكم أن تذهبوا بى بعيداً عن مملكتى الموت والأحياء ، وأن تمسخونى كائناً آخر تمتنع عليه الحياة والموت معاً » . ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقها وتنشق أظافر أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنغرس فى الأرض ، وإذا هى ساق شجرة شائخة ، وإذا عظامها تخشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحول دمه إلى عصارة نباتية ، وأصبحت ذراعها غصوناً ممتدة وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجفّ جلدها وغدا لحاء طوى رحم الفتاة بما فيه كما لفّ صدرها ، وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها فى طيات اللحاء ، ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مرّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعد ، وحملت اسم المر .

٥٠٠ وبلغ الجنين مبلغه وهو مكنون فى جوف الشجرة ، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة ، وكم عانت مورها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة ولكنها لم تملك أن تفصح عما تحس ، كما لم تملك أن تفزع إلى الإلهة لوكينا لتأخذ بيدها فى وضعها . وأحست الإلهة لوكينا بشجرة تتلوى وتتبعث عنها زفرات متصلة وتندى بفيض تلك الدموع المنهمرة ، فحقت تعين الشجرة فى محتتها ومسحت بيدها عليها وهى تتمتم بتعويدة الوضع ، فانشق الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهلك ، وأسرعت الحوريات يتلقين الطفل ووضعنه فوق العشب الغض بعد أن غسلنه بدموع أمه . ولقد كان الوليد فى جمال كيوييد الذى يبدو عارياً فى لوحات المصورين ، ليس ثمة من فارق بينهما غير جعبة السهام التى يحملها كيوييد حتى أن ربة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .

## أدونيس وقينوس . أنالائنا وهيبومينيس

٥٢٠ ومرت الأيام فى تعاقبها وما بالى بها احد فما أسرع ما تمضى السنين ، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذى يقال إن أخته أنجبته من جدّه ، والذى كان خبيثاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب . وما هو ذا يصبح شاباً ، ثم ما هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله قينوس وينتقم منها لما أشعلته فى أمه من شبق . فلقد تصادف أن اقترب كيوييد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه قينوس ليقبلها فإذا هو يخدش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يطل من جعبته ، فدفعت قينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذى لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه . غير أن افتتانها بجمال الشاب [ أدونيس ] أنساها رعاية شيطان جزيرة كيثيرا<sup>(٢٨)</sup> ، كما لم تعد تتردد كثيراً على جزيرة پافوس ، تلك الجزيرة التى كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ، ولا شبه جزيرة كينيدوس<sup>(٢٩)</sup> الغنية بالأسماك ولا على أماثوس الجبل بالمعادن ، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضّلت صُحبة أدونيس على السماء .

وأصبحت فينوس رفيقة أدونيس تصحبه أين ذهب ، وهجرت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجهاها وزيتها ، وانطلقت تجول في الغابات والجبال مشمرة ثيابها إلى ركبتها على غرار ديانا إلهة الصيد . وأخذت فينوس تستحث كلاب الصيد وتطارد الحيوانات السهلة القنص كالأرانب البرية السريعة العدو والغزلان والوعول الشاغخة القرون ، لكنها تجنبت الخنازير البرية الوحشية ، ولم تخاطر بالتعرض للذئاب المتلصصة والديبة الحادة المخالب والأسود التي تحيا على دماء البهائم ، وحرصت على نصيح أدونيس باتباع نهجها محذرة إياه من الوحوش ، مؤملة في أن يُصغى إلى نصيحها ، وقالت له : « كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفر منك ، ولا تأمن الحيوانات التي تتصدى لك . ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يا فتى الحبيب . لا تعرض للكواسر التي زودتها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تتشوف إليه من مجد ، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذي يفتن فينوس أثر على الأسود والخنازير البرية المشعثة الشعر ، فهذه لا تُدعِر الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البري كالبرق في انقضاضه بمخالبه ، كما أن الأسد إذا أثير يتوَّج دوماً للهجوم . لشد ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات » .

وتساءل الفتى عن سر كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : سأقص عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجرعة التي حدثت منذ أمد بعيد . ها هي نى شجرة حور يدعونا ظلها الوارف أن نتفياها فلاضطجع تحتها إلى جانبك ، فإن ما أبدله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابني بالإرهاق . وتمتددا على العشب ووضعت هي رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها وهي تبادل القبلات :

« لعلك سمعت بنبا الفتاة التي كانت تنافس الرجال في العدو وتبز أكثرهم مهارة . وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتانالانتا<sup>(٣٠)</sup> تسبق الرجال جميعاً ، ولم يكن من السهل معرفة سر الإعجاب بها ، أكان لحفة قدميها في العدو أم لسحر جمالها الفريد . وقد استشارت يوماً أبوللو في أمر زواجها ، فقال لها : « لست يا أتانالانتا بحاجة إلى زوج ومع ذلك فلن تفلتني من الزواج ، ولسوف تتحولين إلى كائن آخر دون أن يدرك الموت » . وتولوا خوف من هذه النبوة فلجأت إلى الغابات تحيا في ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : « لن أتزوج إلا بمن يسبقني في العدو ، فلتباروني وسوف يظفر بيدي ويفراش عرسي من يتقدمني ، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة . تلك هي شريعة السباق » .

ولم يحجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق ، فقد كان سلطان جمال أتانالانتا طاغياً يجتذب الكثيرين ، وجلس هيومينيس وسط المشاهدين يرقب هذا السباق غير المتكافئ وينحى باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً في سخرية : « كيف يرضى رجل أن يعرض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة » ! غير أنه ما كادت تقع عيناه على وجه أتانالانتا وجسدها بعد أن أزاحت عنه غلائله [ ورأى قوامها مثل قوامي أنا فينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدت امرأة ] حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه : « فليغفر لي أولئك الذين أنحيت عليهم باللائمة منذ حين ، إذ لم أكن

أعرف قدر الجائزة التي من أجلها يتبارون . واتصل اطراؤه للفتنة حتى تحول إلى افتتان بها ، وتمنى ألا يسبق أتاننا أحد من الشبان فقد أثارت فيه الغيرة خوفه من أن يفوز بها غيره ، وقال لنفسه « لم لا أجرب أنا الآخر حظي في السباق ؟ فإن الآلهة تناصر الجسور غير الهيأب » . وانطلقت الفتاة بخطوات مجنحة تطوى المسافات أمام الشاب البويوق كأمضى سهم من سهام سكويا فزاد إعجابه بها . ولقد زادها السباق فتنة إذ تطايرت في الريح أربطة حذائها خلف قدميها ، وتموج شعرها فوق كتفيها العاجيين ، وخفقت الشرائط المطرزة التي تزين ساقها ، واكتسى يياض بشرتها العذرى بحمرة قانية كيباض جدران الممر المغطاة بغلالات قرمزية في فناء دار رومانية . وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتاننا بقصب السبق ، وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب ينزل بهم . وعلى الرغم من أن هيومينيس شهد مصرع المتسابقين القاسي فإنه تقدم إلى الأمام وتوسط الجمع وحمل في الفتاة قائلا : « لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين بلوغه في يسر ، ولماذا تحاولين التغلب على منافسين ثقيل الخطى وهم على غير ذربة كاملة ؟ فلنتبار معاً فإن كتب لي الحظ النصر فلن تحسني بالحجل من هزيمتك أمام رجل في مثل منزلي ، فأنا ابن أونخيستوس من ميجارا سليل نبتون وآخر أحفاد ملك البحار ، وليس إقدامي أقل شأناً من تحدي ، أما إذا كان الظفر من نصيبك أنت على هيومينيس فسوف تكسين مجداً وتعم شهرتك الآفاق . . » والتفت إليه ابنة إسخوينوس في حنان ، ولم تعد تدري أتمنى فوزها أم هزيمتها أمامه ، وحدثت نفسها قائلة : « وهل من إله يتنكر لصاحب هذا الوجه الجميل فيغريه بطلب يدى حتى ولو كان في ذلك حظه ؟ ما إخالني أهلاً لهذا ، وإنني لأحس برعشة تخالج قلبي من أجله ليس مبعثها جماله رغم ما له من سحر يهز القلب بل لأنه ما يزال فتياً فشبابه الغض لا جماله هو الذى يثير شفقتي ، ثم إنه شجاع لا يرهب الموت ، كما أنه من أفراد الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار ، وإلى هذا كله فهو يحبني ولا يبخل عليّ بشمن ليظفر بالزواج منى ولو كان ذلك الثمن عمره إذا لم يسعفه القدر بالفوز . ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان ، ولتأنا عن سرير زفافي الملطخ بالدم فما أقسامها من شروط تلك التي فرضتها لزواجي . ولسوف تجد غيري من الفتيات راغبات فيك وأنت جدير بإعجابهن . ولكن مالى أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت والخطب يعينك ولا يعينني ، ولتلق جزاءك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة ، وقد يكون موتك من أجل رغبتك في الحياة معي ، ولكن هل يكون هذا جزاء حبك لي ؟ ولسوف يثير موتك بغض الآخرين لي ، ولكن ما جريرى ؟ هلاً عدلت عن السباق للظفرى ، فما أشد نزقك ، فكم هي جميلة قسماتك النظرة التي تشبه قسمات الغيد الحسان ، ليتك لم تروى يا هيومينيس المسكين فما أحقك بأن تحيا ، ولو أنى كنت من المحفوظات ولم يقف القدر حجر عثرة في سبيل زواجي لكنت أنت الرجل الوحيد الذى أسعد به شريكاً لحياى . ولم تدر أتاننا الغيرة التي لا تجربة لها ما حدث لها بعد أن مستها سهام إله الحب للمرة الأولى ، فلقد وقعت دون أن تدري في شرك الغرام .

واحتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد ، فقصدني هيومينيس سليل نبتون يطلب العون وهو يقول : « إننى أضرع إليك ياربة كثيراً أن تعينني في مغامرتي الجسورة ، وأن تؤججى في قلبي نيران

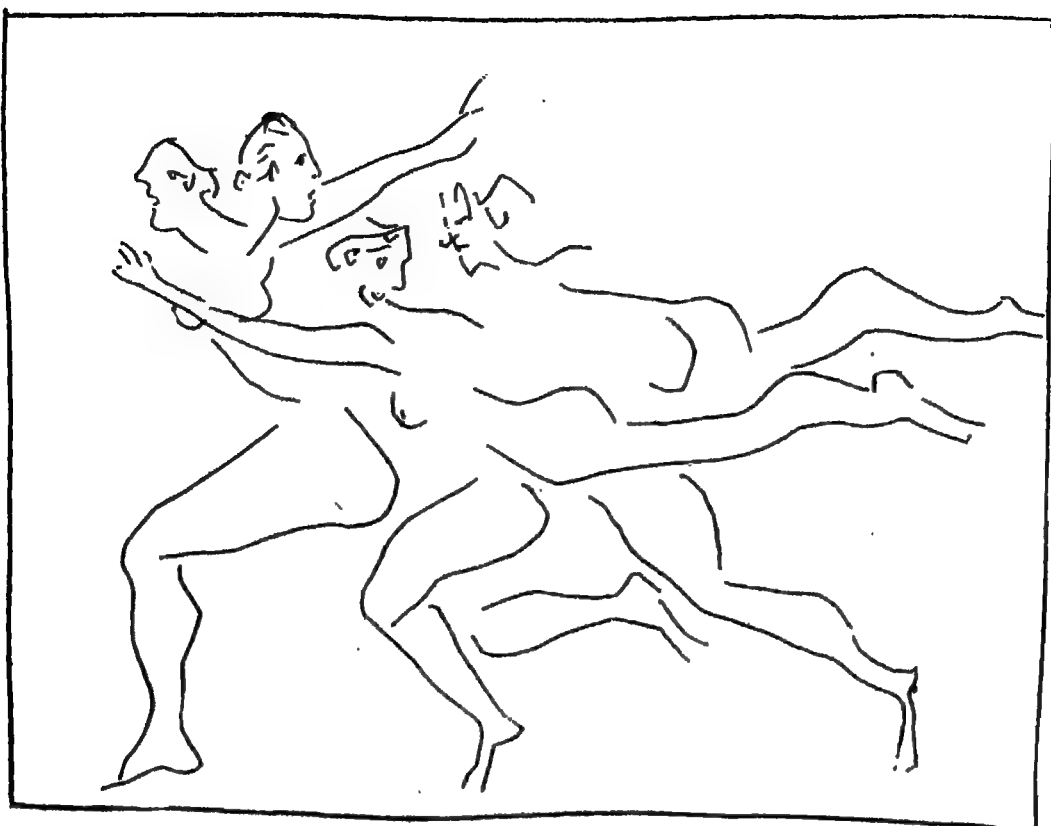
الحب التي أشعلتها أنت فيه . وحملت الأنسام الرقيقة ابتهاالاته إلى ومست قلبى فلم أتردد فى مدّ يد العون إليه ، وكنت ساعتها آتية من أجل بقاع جزيرة قبرص ، من حقل تاماسوس الذى أهدها لى شيوخ الجزيرة لينضم لمعبدى ، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن . وكنت أحمل فى يدى ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح هذه الشجرة ، فأسرعت إلى هيوميونيسس مخفية عن الجميع إلا عنه وحده وأعطيته التفاحات الثلاث ، وهمست إليه بأمر طلبت منه تنفيذه .

وآذن البوق ببدء السباق ، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مسرعين لا تكاد تحس أقدامهما سطح الرمال ، فبدّوا وكأنهما يستطيعان الجرى فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما ، أو فوق أعواد القمح المنتصبة دون أن تنثنى ، وامتلا الفتى جرأة وسط صرخات النظارة الذين كانت قلوبهم معه فانبروا يشدون من أزره ويصيحون به : « فلتسرع يا هيوميونيسس ولتبذل أقصى جهدك ولأنت الفائز » . ولعل ابنة ٦٦٠ إسخوينيوس كانت أكثر سعادة بهذه الصيحات من ابن ميجارا البطل . وكم من مرة تباطأت أتانالانتا عنه وهى قادرة على سبقه ، تطيل النظر إليه قبل أن تخلفه ورائها على مضض .

وأخذت شفتا هيوميونيسس تحفان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والهدف لا يزال بعيداً ، فدفع بإحدى التفاحات الذهبية الثلاث فأخذت الفتاة ببريقها وتوقفت ذهلة ، ثم انحرفت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاحة الذهبية اللامعة مشغوفة بها . فانفسح المجال أمام هيوميونيسس لكى يتقدم الفتاة فدون أكف النظارة بالتصفيق ، واضطرت أتانالانتا لمضاعفة جهدها لتعوض ما ضاع ، وقد نجحت فى أن تسبق الفتى وتخلفه ورائها . ومرة ثانية نجح هيوميونيسس بصرفها عن الطريق بإلقاء التفاحة الثانية ، غير أنها نجحت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاحة الثانية . وبقي الشوط الأخير ، وأخذ الشاب يتضرع صائحاً : « أيتها الإلهة ، يا من وهبتى هذه الهدية ، كونى الآن فى عونى » ، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاحة الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبذل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق ، واضطربت الفتاة وحاترت فى أمر هذه التفاحة ، أتمجرى ورائها أو تتركها ؟ غير أن فينوس دفعتها ورائها . وحين التقطت الفتاة التفاحة زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها ، وهكذا حاققت الهزيمة بأتانالانتا فتزوجها هيوميونيسس بعد أن كُتب له النصر عليها .

غير أن الشاب النزق أنسى ما فعلته له الإلهة فينوس ولم يتجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور ، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه وأقسمت لتجعلن منه عظة للآخرين حتى لا يسلكوا مسلكه ، ولتنزلن بهما العقاب معاً .

وبينما هيوميونيسس وأتانالانتا يمران إلى جوار المعبد المتوارى فى أعماق الغابة والذى كان إخيون<sup>(٣١)</sup> الشهير قد نذر إقامته لأم الإلهة ، كان الجهد قد بلغ منها بعد أن قطعاً مسافة طويلة على الأقدام ، فأحسا رغبة فى أن يأويا إليه فيستريحاً قليلاً فإذا فينوس تحركت فى هيوميونيسس الرغبة لمضاجعة زوجته ، وإذا هو ينزوى بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الخفاف له قدسيته منذ عهد بعيد ويجمع



بيكاسو: سباق أتالانتا وهيرمينيس

كثيراً من تماثيل الآلهة الخشبية . واستسلم هيومينيس لرغبته ، وإذا هو قد دبّس المحراب ، وإذا التماثيل تزوّر عنه بوجهها . وكادت أم الآلهة كوييل ذات التاج المتعدّد الطوايق أن تغرق الأثمين في مياه ستيكس ولكنها رآته جزاء دون ما يستحقان ، ورأت أن تغشى رقبتهما بشعر أسود وأن تبدلها عن أصابعها مخالب ، وأن تحيلهما حيوانين يعتمدان على صدرهما ، ومدّت لهما ذيلين ينسحبان على وجه الرمال ، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقظوب ، وجعلت حديثهما عواء ، وأسكتتهما الغابات التي أصبحت مأواهما الوحيد إذ قد أصبحا أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس . غير أن كوييل ما لبثت أن روّضتهما فشدّتهما إلى مركبتها فباتا يقضبان شكيمتيهما . فحذار يا حبيبي العزيز أدونيس أن تقرب منها ، بل عليك أن تفرّ منها كما تفرّ من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التي لا تولى هاربة بل تهاجم من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سبباً في هلاكنا نحن الاثنين .

وحلّقت فينوس في الأجواء منطلقة بمركبتها التي يقودها البجع بعد أن حدّرت أدونيس ، غير أن الشجاعة لا تجدى معها التحذيرات ، فلقد لمح خنزيراً برياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته من جُحره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه المتدلّي ، فدبّ الذعر في قلب أدونيس وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه وعض فحذه قريباً من خصيته بنابه فتلوى فوق الأرض محتضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنات أدونيس أسباع فينوس التي لم تكن مركبتها الخفيفة بيجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص فأدارت طيورها البيضاء واتجهت إليه ، ولمحتة عن بعد يتمرغ في دماثة فاقد الوعي . وقفزت من مركبتها إليه وشقت ثوبها عند صدرها وشدت شعر رأسها ، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلقا لمثل هذا الفعل العنيف وانبرت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة : « لا ، لن ينخضع لكن كل شيء . وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد . وسوف يمثل كل عام مشهد موتك يذكر بما كان فيه من نواحي<sup>(٣٢)</sup> عليك . ولتنبثق زهرة من دماثك . لقد استطعت يا بيرسيفوني أن تحوّل امرأة إلى شجرة نعناع عطرة ، فهل ألام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم صورة جديدة ؟ » .

وصبت فينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمسه حتى غلى الدم وتضاعدت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشفافة فوق المياه المصفرة في الأماكن الموحلة . ولم تكد تمضي ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة في لون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفى بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الريح التي خلعت عليها اسمها ، وهي زهرة شقائق النعمان<sup>(٣٣)</sup> .

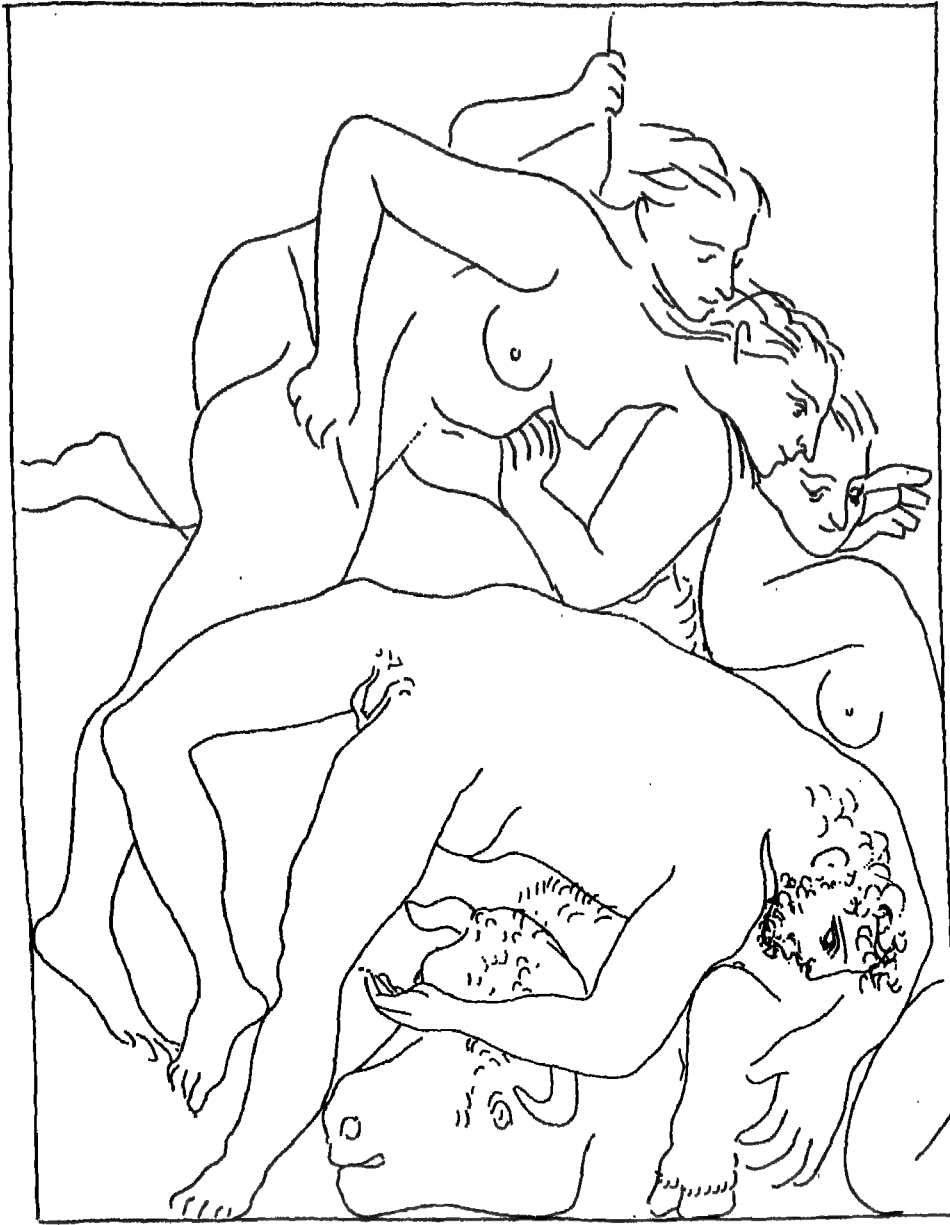
# التعقيبات

- (١) كان الزعفران هو لون الطرحة التي تتلفح بها العروس عند الرومان والمسماة «فلاميوم» ..
- (٢) اسم شعب طراقي يقطن شواطئ نهر الهيرسوس .
- (٣) بوابه تيناريوس هي إحدى بوابات العالم السفلي ومكانها برزخ تيناريوس المسمى الآن برزخ ماتابان بالمورة .
- (٤) هو الكلب كيربيروس .
- (٥) تانتالوس بن جوبيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك ليديا ، صوره الشعراء من قديم الزمن بأنه قد عوقب على سرقة كلباً كان يحبه جوبيتر حباً شديداً ، وقيل إنه عوقب على سرقة للنكتار والأمبروزيا من على مائدة الآلهة ، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه بيلويس وطهى جسده طعاماً للآلهة . وثمة رواية أخرى بأنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام جوبيتر المحبب معاشرة شاذة . وكان عقابه بالعالم السفلي أن يظلم ظمأً شديداً وهو واقف في بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقته فإذا ما قرب من فمه انحسر الماء ، كما علقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التي تبعدها الريح كلما حاول قطفها .
- (٦) كان سيزيفوس شقيقاً لأثاماس وسالمونيوس وابناً لايولوس والحورية إيناريتا واشتهر بأنه أحب أمراء عصره . تزوج من ميروبي بنت أطلس وأسس مدينة إيفيرى التي سميت كورنثوس فيما بعد . وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتدائه المتلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنايمه . وقال البعض إن جوبيتر هو الذي عاقبه ، لأنه عندما مرض مرض الموت توسل إلى زوجته ألا تدفن جسده بعد موته فلما ذهب إلى العالم السفلي سمح له الإله بلوتو أن يعود إلى الأرض لكي يعاقب زوجته على تهاونها في تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور ، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد . فأرسل بلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلي رغم أنفه ، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادي فيعود إلى دفعها من جديد بلا توقف . وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسي الوجودي أسطورة سيزيفوس عنواناً لكتاب فلسفي عن عبث الحياة ولا معقوليتها .
- (٧) دخل أوريوس العالم السفلي عن طريق بوابة تيناريوس وهي كهوف في جنوب المورة ، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أفيرنوس بجوار كوماي في إقليم كامبانيا بإيطاليا .
- (٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل ، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلي حاملاً الكلب كيربيروس .
- (٩) لا يعرف شيء عن أولينوس إلا أنه مؤسس إحدى مدن آخايا التي تحمل اسمه ، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التعتة فغير معروف . وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة في عهد أوغيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور .

- (١٠) يتغنى أوفوريوس بعد ذلك مباشرة بحب الآلهة للغلمان جانيמידيس وهياكينثوس وكياريسوس .
- (١١) خاؤونيا إقليم في إبيروس على شواطئ بحر أيونيا .
- (١٢) سجل أوفيد هذه الأسطورة في الكتاب الرابع من « التقويم » ، وهي أن كوبيلى قد أحبت الشاب الفريجي آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التي ترعاها والتي انتقمت من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يخشى ذاته ، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمي لكوبيلى . وقد اقترنت عبادته في روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ ق.م . وكانت شجرة الصنوبر هي شجرته المقدسة وتلعب دوراً هاماً في طقوس عبادته ، ويذكر أوفيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .
- (١٣) كارثيا مدينة في جنوب جزيرة كوس .
- (١٤) كان شجر السرو ومايزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان هذا الشجر يزرع حول معارق الجثث .
- (١٥) كانت سهول فليجرا هي الميدان الذي كتب النصر فيه لجوبيتر على العمالقة . ويقول البعض إنها في خلقدونية بآسيا الصغرى في حين يعتقد البعض الآخر أنها قرية من مدينة كوماى في جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غربي نابلى حتى اليوم بالسهول الفليجيرية .
- (١٦) تنسب بنوة جانيמידيس عادة إلى تروس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء في نص أوفيد .
- (١٧) كان يحتفل بأعياد هياكينثوس في شهر مايو بمدينة أميكلاى في لاكونيا على مقربة من أسبرطة .
- (١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهي مدينة في جنوب شرقى قبرص اشتهرت بمعبد الإلهة فينوس ربة الجزيرة .
- (١٩) الهرويتيديس هن بعض نساء قبرص ممن عُمدن على الإلهة فينوس ففضت الإلهة بأن توفد بناتهن إلى الشواطئ لاحتراف الدعارة مع الغرباء . وقيل لهن قد مسخن أحجاراً لاستهترهن بكل شعور بالفضيلة .
- (٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوى قرون . ومرد ذلك إلى أن كلمة كيراستيس معناها ذو القرون . وقد لقت الجزيرة بهذا اللقب بسبب كثرة تنوعاتها وألستها في البحر .
- (٢١) أوفوسا وتعنى جزيرة الأفاعى ، وهو لقب أطلق على جزر عدة في البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوفيد هو الشاعر الوحيد الذى أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسائها الأصلية .
- (٢٢) انفرد أوفيد بين الشعراء بقص هذه الأسطورة التى تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات في معابد فينوس .
- (٢٣) هيميتوس جبل باليونان مشهور بعسله حتى اليوم .
- (٢٤) پافوس اسم لمدينة تقع في الجنوب الغربى لجزيرة قبرص ، وقد عرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .
- (٢٥) اسم لجزيرة خرافية بالبحر الأحمر ، تصور أوفيد أنها اليمن أو طرف شبه الجزيرة العربية التى اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .
- (٢٦) هن ربات الانتقام « فوريى » ، ألكتو وميجيرا وتيسيفونى .
- (٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بأخته وخاصة بين الفراغة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .
- (٢٨) جزيرة على شواطئ المورة مكرسة للإلهة فينوس .
- (٢٩) اسم مدينة في جنوب مقاطعة كاريا على طرف شبه الجزيرة التى تحمل اسم كنيديوس في آسيا الصغرى ، وكانت فينوس ربتها .
- (٣٠) يشير إلى أثالانتا بنت إسخوينيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلطون بينها وبين بنت ياسوس التى تحمل الاسم نفسه ويظلمة اقتناص الخنزير البرى في كاليدون [ انظر الكتاب الثامن ] . أما إسخوينيوس فكان من أصل بويوى وهاجر إلى أركاديا . والقصتان تدور أحداثهما في أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللبس .
- (٣١) كان إخيون أحد العمالقة الذين ولدوا من أسنان التين التى نثرها كادموس على الأرض [ انظر الكتاب الثالث ] ، وقد ساعد إخيون كادموس في تشييد طيبة باليونان وتزوج بابته أجافيه فأنجبا پنيوس .

(٣٢) كان يحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر في بيلوس بفينيقيا إلى أن انتشرت في أنحاء العالم الإغريقي . فكانت النساء يلتفتن حول تمثال ممّدة لأدونيس على محفة الموت يُنحَن ويكيّن معبرات عن حزنهن ، وقد وصف ثيوقرطوس واحدة من هذه الحفلات بالإسكندرية في إحدى قصائده الرعوية . وكان البعث إلى موت أدونيس ، هذا البعث الذى أمر به جوبيتر بناء على التماس فيثوس . وكان يحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يحتفل بذكرى موته . ويقال إن أدونيس كان يقضى بعض شهور كل عام في العالم السفلى بجوار بروسيرينا [ بيرسيفون ] التى عشقته ، ثم يخرج إلى فيثوس ليقضى معها بقية العام . وتعتبر هذه الحفاقة عن أطوار الخصوبة في الكون وتعاقب الفصول والمواسم .

(٣٣) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيمون » وهى مشتقة من كلمة أنيموس التى تعنى الريح .



پیکاسو : موت أورفيوس

## الكتاب الحادي عشر موت أورفيوس

وتغنى الشاعر الطراقي بأغان تَسَحَّرُ الصخور والغابات وتروّض الحيوانات الأبدية ، وأطلت عليه نساء كيكونيا<sup>(١)</sup> المجدويات من فوق قمة تلّ وهو ينشد على أنغام قيثارته ، وصاحت إحداهن وشعرها

يتطاير في الهواء : « ها هوذا من يستخف بنا » وسدّت حريتها<sup>(٢)</sup> إلى فم الشاعر الذى يهيم به أبوللو ، غير أن الحرية لم تصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار . وألقت أخرى عليه حجراً كبيراً فسقط عند قدميه مأخوذاً بجبال غنائه وشدو قيثارته دون أن ينال منه وكأن لسان حاله يعتذر عن حمق من قذف به ، وتوالت قذائف النسوة وقد تولّتهن ثورة الغضب المحموم . ولقد كان من الممكن أن يطيش ما قذفن به بسحر أغنيات أورفيوس ، ولكن صياحهن الصاخب وأنغام الناي الفريجي والبوق المقوّس والرّق ولطم الصدور قد غطّى ذلك كله على صوت أورفيوس وقيثارته ، وسرعان ما نزع دم الشاعر الأعزل وأخذ يصبغ الحجارة بلونه القرمزى . ٢٠

وأصاب قذائف النساء الطيور العديدة والأفاعى التى كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته ، كما أصابت الحيوانات الأخرى التى خفت لتستمتع لغنائه . وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينما يلحن طير الليل يخلّق بينهن ، أو كمجموعة من الكلاب تطارد غزالاً ، يلقي بعضهن بالحجارة وبعضهن بأغصان الأشجار التى انتزعنها . وأثار تجمعهن الخوف فى نفوس الفلاحين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرثوا أرضهم ويفلحونها بفؤوسهم ومعاولهم ومدّاتهم<sup>(٣)</sup> . وأسرع النسوة نحو الفتوس فمزقن بها الثيران التى تهّدهم بقرونها ، ثم اتّجهن نحو الشاعر فتوسل أورفيوس إليهن أن يتركه لكنه فشل فى استدرار عطفهن ، وسدّدن إليه ضربة قاضية فخرجت روحه من بين شفّتيه اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر ومضت روحه تحملها الرياح . ٤٠

انسابت دموع الحزن من مآقى الطيور والوحوش والصخور والغابات الكثيفة التى كانت تتبعه حيث يغنى ، وتساقطت أوراق الأشجار التى أخذت تبكى الشاعر وغدت الفروع عارية ، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدموع وفاضت بها ، كما مزّقت الحوريات شعورهن وارتيدين ثياب الحداد السوداء .

وتناثرت أعضاء الشاعر فى أماكن مختلفة ، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللذين طُفيا على الماء . عَجَبًا ! لقد بقيت القيثارة تُصدر أحياناً شجيرة ، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالغناء والنهر يردّد صدى أنغامها . وما لبث الرأس والقيثارة أن اندفعا إلى البحر الفسيح حتى بلغا شاطئ جزيرة ليسبوس قرب ميثمنا . فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغريب المطروح على الشاطئ والمغطى بشعر خالطه زبد الموج الأبيض ، وأوشكت الأفعى أن تلتهمه لولا أن ظهر أبوللو وحولّه إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بفم الأفعى المفتوح . ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلى ، فتعرّف على الأماكن التى سبق له رؤيتها ، وظل يبحث عن زوجته يورديكى حتى وجدها فعانقها فى شوق الملهوف . وأخذ يتجولان معاً ، يسبقها مرة ويتبعها أخرى ، ويطلق إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً . ٦٠

وحزن باكخوس أعرق الحزن على الشاعر العذب الألمان ، ولم يشأ أن تمرّ جريمة قتله دون عقاب ، فثبّت نساء طراقيا فى الأرض إذ غرس سيقانهم فى أعماق الثرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة ، فأصبحن كالطيور شدّت قوائمه فى الشراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيد فإذا هو يزيد إحكامه كلما زادت



پیکاسو: موت اور فیوس [رسم اضافی]

٨٠ حركته . وقد انتاب النساء الذعر وأصابهن الجنون وهن يحاولن الخلاص دون جدوى ، وكان ثبات أقدامهن في الترى يجمد بهن عن أن يتحركن ، وأخذت كل منهن تمّد يدها لتحسّس قدميها وأصابها وأظافرها فإذا هي لا تجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقها الجميلتين ، وجعلن يضربن أفخاذهن فإذا هي الأخرى قد صارت خشب بلوط ، فتولّاهن أسى عميق . ولم تلبث أنداؤهن واكتافهن أن تحولت إلى جذوع أشجار وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة ، ولم يكن ذلك وهماً طاف بخيالهن ، بل كان حقيقة مفزعة .

## ميداس

لم يكتف باكخوس بذلك ولم تهدأ نفسه فهجر طراقيا مصطحباً معه ثلة من أتباعه المعريدين ، ليزور كروم [ جبل ] تمولوس التي يؤثرها ونهر باكتولوس الذي لم يكن قد سال ذهباً بعد ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين . وسهر على خدمته حشد من كاهناته والساتير غاب عنه سيلينوس ، ذلك أن فلاحي فريجيا كانوا قد ألّقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنحاً لشيوخوخته وفعل الخمر به ، فقيدوه بسلاسل من زهور واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذي كان أورفيوس الطراقي وإيومولپوس الأثيني من بعده قد لقناه أسرار عقيدة باكخوس ، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفى للإله وشريك له في الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالي . وفي اليوم الحادى عشر عندما كان « لوسيفر » نجم الصباح يهدى قطيع النجوم إلى ما وراء السماء مضى الملك إلى ليديا مُشرق النفس ، وردّ سيلينوس إلى راعيه وحاميه الفقى .

١٠٠ وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مرشده سيلينوس ورأى أن يكافئ ميداس ، غير أنه أعطاه حرية اختيار ما يشاء ، ولكن اختيار ميداس لسوء حظه كان ينطوى على ما يكمن فيه شقاؤه ، إذ قد ولّى وجهته إلى الإله قائلاً : « هبني قدرة على أن أحول ما ألمسه إلى ذهب أصفر » . وإذا الإله يأسى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محققاً له مشيئته ، فانصرف الملك الفريجى سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يطمئن نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب . وما لبث ميداس أن ذهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غض فإذا هو يتحول إلى قضيب من الذهب ، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهج بلون ذهب مُنطفئ ، ثم لمس حفنة تراب فاستحالت كتلة ذهب ، كما تحولت سنابل القمح الجافة في يده إلى حصّادٍ من ذهب ، كذلك استحالت التفاحة التي اقتطفها من غصنها تفاحة من ذهب تحسبها هدية من الهيسپريديس . ولم يكد يلمس أعمدة قصره حتى تحولت هي الأخرى ذهباً براقاً . وحين همّ بغسل يديه تحولت قطرات الماء التي فسى كفّه شؤبوا من ذهب كفيلاً بإثارة شهوة داناي ، وتجاوز الخيال ما كان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً . وامتلات نفسه فرحاً بقدراته الجديدة وجلس إلى المائدة التي حلها الخدم بأطيب ما تشتهيه النفس من طعام ، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحولت إلى

١٢٠

معدن صلب ، ولم يكذب يطبق أسنانه على قطعة لحم حتى وجدها تنطبق على قضيب ذهبي ، ومع رشقات النبيذ كان السائل يتحول إلى ذهب سائل بين شفتيه .

فإذا الشقاء يهصره في هذا الثراء الطارئ وأحس بثقل وطأة المأساة ؛ ولم تعد له أمنية غير أن يُحرّم تلك القدرة ، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما تمنّاه ، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب . وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت ، فتضرّع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً : « أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة ، لقد أخطأت ، وها أنذا أضرع إليك أن ترحمي وأن تحرّري من هذا البلاء الذي كان بدءاً بشير خير » . وتحرك الخير الكامن في أعماق الإله - كما هي طبيعة الآلهة القادرين - حين اعترف ميداس بخطئه وردّ إليه طبيعته الأولى ، وقال له : « امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذي تمنّيته بحماقتك ، وسر على شاطئ النهر المتدفّق [ باكتولوس ] بجانب مدينة سارديس العظمى<sup>(٤)</sup> واصعد في اتجاه مضيقه عبر مرتفعات الشيطان حتى تصل إلى المكان الذي ينبثق فيه ماؤه في دفتات كبرى يغطيها الزبد ، فاغمس رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك » . ومضى الملك ١٤٠ فاغتسل عند منبع النهر ، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكتست بلون جديد ، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبي صلبة الثرى لتشرّبها مياه النهر .

ورُهِد ميداس في الثراء ، وراح إلى الغابات يتخذ منها سكناً متعبداً للإله بأن المقيم بكهوف الجبال ، غير أن حماقته ظلت تلازمه فورطته في بلاء جديد . ذلك أن پان قد وقف عند جبل تمولوس الشاهق الذي تشرف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيبياي<sup>(٥)</sup> الرثة الحال من ناحية أخرى ، ووقف يُزهي بين الحوريات اليافعات بمواهبه الموسيقية ويفاخر بقدراته التي تفوق قدرات أبوللو في عزف المصفار المصنوع من قضبات الغاب المتلاصقة بالشمع ، ورأى أن يباري أبوللو في مباراة غير متكافئة ، محتكماً إلى جبل تمولوس<sup>(٦)</sup> ، فجلس العجوز على سفح جبله جلسة القاضي ليقضي بين المتبارين ، وأزاح الأشجار بعيداً عن أذنيه غير أوراق لشجر البلوط تكّل شعره الأسود ، وعناقيد جوز البلوط تتدلّى فوق صدغيه الغائرين ، والتفت إلى إله القطعان قائلاً : « إن قاضيكم ١٦٠ على أهبة الاستماع » . وعزف پان على مزماره الرعوى لحناً أثار إعجاب ميداس الذي كان قريباً من المكان . بعدها التفت تمولوس إلى فوبيوس إله الشمس فتلفتت الغابة كلها معه ، وكان أبوللو قد كلّل شعره الذهبي بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس ، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صور ، وحمل في يده قيثارته المطعمة بالعاج الهندي وبالأحجار الكريمة ، وأمسك بيمنه ريشة العزف وانطلق يحرك أوتار قيثارته بأنامل حذّقة ، فانتشى تمولوس ودعا پان إلى الإقرار بهزيمة مزماره أمام قيثارة أبوللو<sup>(٧)</sup> .

وقد سلّم الجميع بحكم إله الجبل عدا ميداس الذي لم يسلم به لمجانبته للعدالة ، مما أغضب أبوللو فأصرّ على ألا تبقى أذن ميداس الحمقاوين على حالتهما البشرية ، فأطالهما وكساهما بشعر رمادي خشن ، ومنحهما القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك . وبقي جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحولتا إلى أذن جحش ثقيل الخطو .

١٨٠ ونجمل ميداس لهيئة تلك الزرية فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه ، غير أن الحلاق وهو يقصّ شعره الطويل كشف عن هذا السر المخجل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرقه شوقاً لذلك . وحين ضاق بكتمان الأمر حفر حفرة في الأرض ومس فيها بسرّ الأذنين اللتين رأهما في رأس سيده ثم أهال التراب على الحفرة وسوّاها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه ، وخلّاهما ومضى هادئ البال ، وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب مكان الحفرة . ولم يتقصّ عام حتى كان الغاب قد نما واستطال ، وأخذ يذيع السرّ الذي خبّاه الحلاق ، وينبئ بتحوّل أذنى ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوادعة ، مكرّراً الكلمات نفسها التي أسرها إليه الحلاق .

## لاووميدون . هيزيونيه

٢٠٠ انطلق أبوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله ثمولوس مرتحلاً عبر الأجواء ، وبعد أن تلبّث عند مضائق هيلليه « هيليسپونت »<sup>(٨)</sup> بنت نيفيل هبط على سهول طروادة حيث شاهد معبداً عتيقاً لچوپيتر ربّ الرعود في پانومفايوس<sup>(٩)</sup> إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى اليسار من شبه جزيرة روتيا المحاطة بالمياه العميقة ، وأبصر بالملك لاووميدون إلى جوار المعبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة ، وهو ما كان يتطلب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصيّة ومصاعب جمة . فتنكر أبوللو في زى آدمى وأخذ في مساعدة طاغية فريچيا مستعيناً بإله البحر المتدفّق حامل الصولجان ذى الشعب الثلاث وربّ الهوّات التي تثير العواصف ، ووعد الملك الفريچى بقدر من الذهب لقاء معونته . ولما اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعدّه ، فقال له ربّ البحار : « لن تمضى جرميتك بغير عقاب » ، ودفع البحار كلها تجاه شواطئ طروادة المتعطّشة التي أصبحت كالبحار فغطت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأواجها الغاتية حقول الفلاحين وبيوتهم . ولم يقنع الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه إبنة الملك لتقديمها قرباناً إلى وحش من وحوش البحر ، غير أن هرقل هرع إلى الأميرة هزيونيه حين شدّت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها ، وطالب بالحياد التي وعده بها لاووميدون مكافأة على صنيعه<sup>(١٠)</sup> ، ولما لم يظفر بها اعترّم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التي انهارت متداعية للمرة الثانية . وقد رفض تيلامون الذي اشترك مع هرقل في إنقاذ هزيونيه أن يرحل دون أن يظفر بما هو أهل له من تكريم ، فنزل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها ، أما پيليوس<sup>(١١)</sup> الذي كان قد مدّ يد العون إلى هرقل هو الآخر فقد كرم بأن تزوج إلهة فأصبح چوپيتر بذلك حمّاً وجداً في آن واحد ، وبذلك لم يغد الإنسان الأوحّد الذي ظفر بأن يكون حفيد چوپيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحّد الذي اتخذ من إحدى الإلهات زوجة ، وإليكم ما حدث :

## پيليوس وثيتيس

كان پروتيوس العجوز قد أفضى إلى ثيتيس بهذه النبوة : « قضى القدر عليك أن تكونى أمّاً يا إلهة البحار ، وسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى يتنافس أباه بطولته ويبرّه ، ويصبح في أعين

البشر أعظم منه قدراً . ولذلك حرص جوبيتر على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتي من صلبه من يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور في أعماقه من لهفة جائعة ، أذناً لحفيده بيليوس بن إياكوس أن يتزوجها ويسعد بضمّ عذراء البحار .

وكان في هايمونيا خليج تمتد ذراعاها المنحنيان مثل ذراعى منجل ، ولولا ضحالة مياهه — إذ الماء ليس غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال — لأصبح مرفأً مختاراً ، وكانت سواحله جامدة لا تتعثر الأقدام عليها ولا تترك بها أثراً ولا تنبت بها طحالب . وكانت ثمة غيضة من شجيرات الأس ذات ثمار مختلفة الألوان يتوسطها كهف لا يُعرف إن كان من صنع الطبيعة أم من صنع الإنسان ، وإن كان الراجح أنه من صنع الإنسان . وكانت ثيتيس دائمة التردد على هذا الشاطئ فتتجرد من ثيابها وتمتطي ظهر درفيل ، وذات مرة رآها بيليوس وهي مستغرقة في سبات عميق ، فذنا منها محاولاً في رفق اكتساب ودّها ، لكنها صدته فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها قهراً ، وكان على وشك أن يحقق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة ، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفف من قبضته ٢٤٠ عليها ، حتى إذا أحالت نفسها ثمرة مخططة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها ، وراح يصبّ قربان النبيذ فوق مياه البحر تكريماً لألهة البحار مُتقرباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كي تتيح له الزواج من ثيتيس ، فصعد إليه عراف كارباتوس<sup>(١٢)</sup> من أعماق البحر قائلاً : « لسوف تظفرياً ابن إياكوس بالعروس التي تتمناها إذا أمكنك أن تغافلها وهي في الكهف الصخري وتشد وثاقها وهي غارقة في النوم خالية البال مما يدبر لها ، وعليك ألا تتخذ بعشرات الصور التي تتمثل فيها الإلهة واشدد قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى » . وغاص پروتيوس في الماء وغطت الأمواج آخر كلماته . وكانت الشمس تمضي بمركبتها في منحدر الأفق مقتربة من بحر هسperia [ بحر الغرب ] ساعة اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخري تضطجع على حشيتها المألوفة ، وانقض بيليوس على الحورية وأمسك بجسدها العذرى بقبضتيه القويتين ، وسرعان ما بدأت في تحويل شكلها ، غير أنها تبينت أن أطرافها غدت أسيرة وأن ذراعيها بقيتا مبسوطتين ٢٦٠ على جانبي جسمها ، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له « ما من شك أنك قهرتني بمعونة السماء » ، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقي ، فاحتضنها بيليوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم .

## بيليوس لدى كيكس

وعاش بيليوس سعيداً بزوجه وولده ينعم معها بحياة ملؤها الرفاهية والرخاء ، ولم يذق الشقاء إلا حين قتل أخاه فوكوس وطرد على أثر ذلك من دار أبيه<sup>(١٣)</sup> ، فالتجأ إلى بلاد تراخيس<sup>(١٤)</sup> التي كانت تحيا في سلام تحت حكم كيكس بن لوسيفر نجم النهار الذي ورث عن أبيه تآلق وجهه ، والذي كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه . وقد وصل ابن إياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر ، ودلف إلى

المدينة في صحبة بعض الرفاق بعد أن ترك قطعانه في واد ظليل عند أسوار المدينة . وحين أذن له الملك بلقائه قدم له غصن زيتون وكشف له عن نفسه غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جرم وعما كان سبباً لنفيه ، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً في عاصمته أو في مملكته ، وأجابه الملك قائلاً في رقة : ٢٨٠

« إن بلادى تفتح ذراعيها لجميع الوافدين عليها يا بيليوس ، وتتيح لهم العيش في هناء ولا تضر عداء للغرباء فتلك شيمتنا ، وما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجوئك إلينا حتى نرحب بك بما يليق بجلال الاسم الذى تحمله لاسيما وأنت حفيد چوبيتر ، فلا تجهد نفسك توسلاً ورجاءً ، فلسوف تحظى بما تطلب ، ولتعدّ كل ما تراه هنا ملك يدك ، وإننى لأتمنى أن تنعم هنا بأفضل مما نعمت به في حياتك السابقة » ، ثم أجهش الملك بالبكاء فسأله بيليوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق فأجابهم قائلاً :

قد تظنّون أن الصقر الذى يحيا على اقتراس ضحاياه ويثير الرعب في قلوب الطير كان يخفق بجناحيه المريشين منذ وُجد ، وليس هذا بصحيح ، فلقد كان أولاً رجلاً غليظ القلب يدعى دايداليون توافاً إلى الحرب مندفعاً إلى العنف ، وكنت وإياه ابنين للنجم الذى يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها . وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأرعاه حبّى لزوجتى ، كان أخى يجد متعته في إثارة الحروب وقهر الدول والملوك بشجاعته التى أصبحت تبعث الرعب في أسراب الحمام بمدينة نيزى<sup>(١٥)</sup> . وقد وُلدت لدايداليون ابنة أسماها خيونى ، وكانت فريدة في جمالها مما جعل العشاق يتزاحمون حولها منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها . وذات يوم رآها مصادفة كل من أبوللو وميركورىوس ، وكان أولهما عائداً من دلفى وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقها في غرامها معاً لحظة رأيها . وبينما أرجأ أبوللو الظفر بها حتى يجنّ الليل أسرع ميركورىوس ولس وجه الفتاة بعصاه التى تصيب من تمسّنه بالنعاس فراحت الفتاة في سبات عميق واستسلمت بين ذراعى الإله القويتين ، ثم أقبل أبوللو متخفياً في زى امرأة عجوز أثناء الليل الذى انتثرت في سمائه النجوم ، واستمتع بالفتاة التى سبقه ميركورىوس إلى الاستمتاع بها . ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيونى توأمين أحدهما من الإله المجنح القدمين وهو أوتوليوكوس ، ذلك الطفل الماكر المطبوع على ضروب الخداع والمدرّب على إحالة الأسود الأبيض والأسود بما جعله شبيهاً بأبيه في سعة الحيلة ، وثانيهما من أبوللو وهو فيلامون ، ذلك الطفل الذى ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته في العزف على القيثارة .

٣٢٠ ترى ماذا أفاد خيونى أن تضع توأمين أو تكون موضع إعجاب إلهين ، أو تكون ابنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرعود ، أولاً يجرّ المجذّ الكوراث أحياناً ؟ فكم جرّ المجد من ويلات على كثير من البشر وكانت تلك التعسة من بينهم ، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزهو بجمالها وإزدراء جمال ديانا ، فغضبت الربة أشد الغضب وصاحت فيها : « ليأتين اليوم الذى تُقرّيننى فيه على أعمالى » . وأمسكت بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاول عليها فشقته فأصابه الجعّ ، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها ، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دمائها ، وأحسستُ أنا بالشقاء بينا أضمتها بين ذراعى ، وأخذت أواسيها بقلب محزون ، وأبّت أخى الحبيب الذى كان يغمر ابنته بحنانه كلمات

عزائى ، غير أن الوالد المكلم الذى انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلماتى إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطئ هدير الأمواج ، وقد حاول مرات أربع أن يلقي بنفسه وسط لهيب المحرقة حين رأى النار تشتعل فى جسد ابنته لولا إمساكتنا به ، غير أنه ما لبث أن انفلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عدواً لا يقوى عليه البشر وكأنما رُزقت قدماء جناحين ، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته فى الموت على قمة جبل پارناسوس وألقى بنفسه من فوق الصخر الشاهق ، فأسرع إليه فوبيوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يحلق فى الأفق بجناحيه اللذين نبنا له فى لحظات ، ومنحه فوبيوس منقاراً معقوفاً وغالب مقووسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التى حققت له الشهرة فى الماضى . وهكذا أصبح صقراً لا ينطوى اليوم صدره على قطرة من الشفقة يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملاً نفوس الآخرين شقاء .

٣٤٠

وبينما كان ابن لوسيفر يقص هذه القصة الغريبة ، كان أنيتور ابن بلدة فوكيس راعى قطعان پيليوس يبحث الخطأ لاهناً حتى إذا أقبل صباح : « أيا پيليوس ، إننى أحمل إليك أنباء كارثة فادحة » ، فطلب منه پيليوس أن يقص عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقباً وارتسمت على وجهه سياء الخوف بينما أخذ الراعى يسرد القصة قائلاً :

٣٦٠

« عندما توسّطت الشمس كبد السماء فى منتصف طريقها المرسوم وقد بقى لها قدرٌ ما قطعت ، سُقْتُ قطيعك المنهك صوب الشاطئ المنحدر حيث خرّت بعض الثيران مستلقية على جنوبها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها متعلقة بصفحة مياه المحيط ، وأخذ البعض الآخر يتجول هنا وهناك أو يسبح فى الماء طافياً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى . وقريب من الشاطئ يطلّ معبد من الخشب الغُفل ، ليس مزوّفاً بزخارف ذهبية ولا مطعماً بالواح رخامية منقوشة ، وتظله أغصان أشجار عتيقة ، ويسكنه نيريوس وبناته ، وقد أخبرنى ملاح كان يجفّف شبابه عند الشاطئ أنهم أرباب هذا البحر . وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلفت مياهه من مياه البحر ، وكانت هذه الأرض الرخوة تغص بأشجار الصفصاف وينبعث منها أصدااء لصخب عنيف يثير الملح فى أرجاء المنطقة . وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع فى صورة ذئب ملوث الجسد بالوحل القذر ، قواطع فكّيه مغطاه بالدم والرغاء ، مشتعل العينين بوهج أحمر ، وكان جوعه ومع ما فى الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبة شديدة ، وكما لم تهدأ شراسته كذا لم يهدأ جوعه ، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مجندلاً الرؤوس جميعها قاتلاً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاولوا إبعاده ، واصطبغ الشاطئ والماء القريب منه بلون الدم القاني ، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن احمرت ، كما أخذت أصدااء خوار الوحش تردد بين جنبات المستنقع ، وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلفنا الكثير ، وأصبحت المحنة ليس معها تردّد يعوّق كل ما فى طوقنا أن نفعله ، وأحسست بواجبنا فى أن نمتشق سيوفنا وأن نمضى إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد . »

وتوقف الراعى عن الكلام ، ولم يعبا پيليوس بخسائره من القطعان ، وقد تذكر الجريمة التى اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية ، وأدرك ساعتها أن أمه الحورية هى التى تنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياه قرباناً جنائزياً لابنها القاتل فوكوس<sup>(١٦)</sup> .

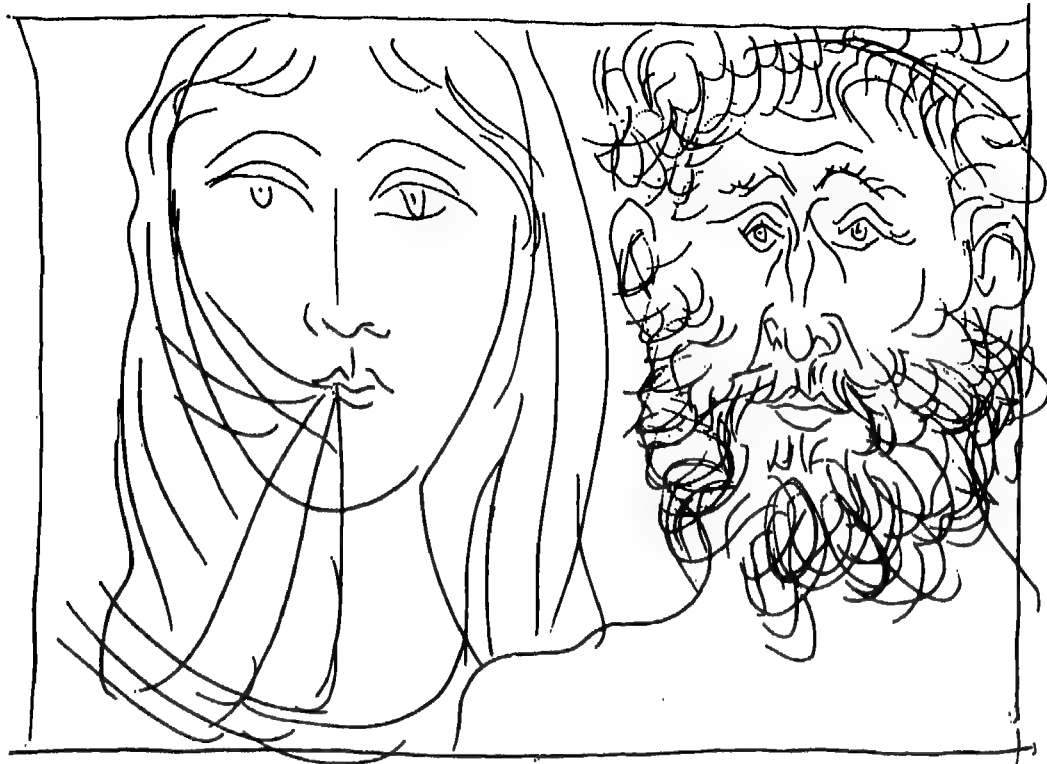
وما لبث كيكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والتأهب للانقضاض على الوحش كما تنهبا هو نفسه ليمضى معهم ، غير أن زوجته الكيونيه أسرع بالدخول عليه وقد أثارها الأحداث فأخذت تشد شعرها المشوش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسلة إليه أن يقنع بإرسال الرجال دون أن يصحبهم ، وذرفت الدمع عله ينقذ حياتها وحياته ولا يمضى لما عزم عليه ، فانبرى پيليوس ابن إياكوس يطمئنها قائلاً : « ليست مخاوفك إلا دليلاً على ما تكنين من عطف رقيق وحب لزوجك أيتها الملكة . ألا فلتطرحى هذه المخاوف جانباً ، ومع عرفانى لك بجميل مساندتك لى فى هذه المحنة ، فما أريد أن يخرج أحد نيابة عنى لمنازلة وحش لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل ، وليس لى من مفزع أفزع إليه غير آلهة البحار ألتمس عونهم » .

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدى به السفن الضالّة ، فصعدوا فى هذا البرج وصوبوا نظراتهم المفعمة بالآثات إلى قطعان الثيران المجندلة على الشاطئ ، وأبصروا الوحش الذى افترسها والدماء تقطر من فمه وتلوث فراه . وعندئذ بسط پيليوس يديه تجاه شيطان البحر الفسيح متوسلاً إلى پساماثيه ذات الشعر اللا زوردي أن تضع حداً لغضبها وأن تمدّه بعونها ، ولم تلق ضراعاته صدى فى نفس الربة ، إلا أن ثيتسس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذى كان ينشده ، ولم يكن من السير الخيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الافتراس بعد أن جُنّ بلعق الدماء ، وظل كذلك حتى حوّله الربة إلى تمثال من الرخام وهو يغرس أنيابه فى عنق بقرة ، وبقي محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذى بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان ولم يعد يثير الرعب الذى كان يثيره من قبل . على أن ربّات القدر لم يأذن لپيليوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى ما لا نهاية فبقى منفيّاً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد الماجينيتيين<sup>(١٧)</sup> حيث تطهر من جريمة القتل على يدى أكاستوس من ئيساليا<sup>(١٨)</sup> .

## كيكس والكيونيه

وكان الملك وقتذاك نهبا للقلق الذى يؤرقه على مصير شقيقه وتقضى عليه مضجعه نُذر الشر التى بدت له ، فتأهب للذهاب إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التى تضى الطمأنينة على النفوس ، غير أنه عرف أن ذهابه إلى معبد دلفى مستحيل بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرير وأتباعه الفليجيون . وما كاد كيكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرعدة فى أوصاله ، وشحب وجهها فصار فى بياض خشب البقس ، وترقرق فى مآقيها الدمع ، وحاولت أن تتحدث مرات ثلاثاً فكانت

- الدموع المناسبة على خديها والزفرات التي تطلقها تخنق صوته ، وأخذت تعتب عليه في وله وتتوسل إليه قائلة : « أى خطأ اقترفته أنا فجعلك تنتكر لى يا أعز أعزائى ؟ أين هى رعايتك التي كنت تُضيفها على وحدى دون أى انسان آخر ؟ كيف تستطيع الآن أن تتخلّى عني وترحل لأعيش وحيدة ؟ أهكذا حُزمت ٤٢٠ أمرك على الذهاب بعيداً عني ؟ وهل يمكن أن أبقى عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيبتى عنك ؟ أراك ستخبرنى أنك راحلٌ برّاً حتى لا تثير فكرى المضطرب فيشغلنى الحزن على فراقك عن الخوف عليك . حقاً إنه ليس ثمة شيء يخيفنى مثل البحر ، ذلك المحيط الموحش المخيف ، فلقد تطيّرت منذ أميد قريب حين رأيت ألواحاً خشبية محطمة على الشاطئ ، وكَم من موقى قرأت أسماءهم على شواهد قبور خاوية (١٩) ، فلا تغرنك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة في قلبك اعتماداً منك على أن حماك هو الإله أيولوس بن هيبوتيس الذى يُمسك الرياح العاصفة ويهدىء ناثرة البحر بإرادته ، فلو أنه أطلق العنان للريح فأتيج لها السيطرة على المحيط لما استعصى عليها شيء ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها ، ولتصارعت السحب أمامها على صفحة السماء مُرسلة في تصادمها برقاً من الشرر الملهب ، وكلما تزايدت معرفتى بالرياح [ فمعرفتى بها معرفة قوية فطالما رأيتها في بيت أبى وأنا صبيّة ] ازدادت يقيناً بوجوب تحاشيها . على أنه إذا لم تنجح توسلاتى في إثناك عن عزمك على الرحيل يا زوجى الحبيب ، وإذا كنت ما تزال مُصرّاً عليه فخذنى إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة ، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلا ما قد يكون من نصيبى أنا ، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع وتُبهر معاً على صفحة البحار الواسعة » . ٤٤٠



بيكاسو : كيكس والكهونه

وأبى زوجها ابن النجم المتألق بما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفته من دموع ، فقد كان لهيب الحب يُشعل قلبه بمقدار ما يشعل قلبها ، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل كما أنه لم يشأ أن يقحم الكيوني في مغامرة محفوفة بالأخطار ، فحاول في النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح في كسب رضاها ، فأضاف يقول معزياً : « قد يكون الفراق بيننا طويلاً الأجل ، لكنني أقسم لك بالضوء المشع من أبى بأننى عائد إليك — بمشيئة ربّات القدر — قبل أن يُكمل القمر دورتين » .

ومع هذا العهد — الذى قطعه على نفسه والذى بعث في نفس زوجته الأمل في عودته سريعة — أمر بإعداد سفينته التى لم تكد تراها زوجته حتى ارتجفت أطرافها من جديد واغرورت عينها بالدموع كأنها تعرف سلفاً ما سوف تأتى به الأيام ، وعانقت زوجها مودعة إياه قانطة حزينة ثم انهارت مقاومتها وتهاوت ، فأخذ كيوس يتلمس الأعذار لتأخر إقلاعه غير أن ملاحيه الشبان كانوا قد جلسوا في صفين وقد أمسكوا بمجاديفهم العريضة وأخذوا يشقون الموج بضربات رتيبة الإيقاع . ونظرت الكيوني بعينيها المبللتين بالدمع إلى زوجها الواقف على مؤخرة السفينة يردّ على تحيتها ملوحاً بيده مودعاً ، وما زالت تحدق بعينيها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظرها ، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصارى الكبير حتى اختفت الأشرعة هى الأخرى ، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم . وحينما خلت إلى نفسها أحست بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت في البكاء من جديد .

غادرت السفينة الميناء بركبها وهزّت الريح جبال الأشرعة التى نُشرت على الصّواري تملؤها الرياح ، ونظّم الرّبان إيقاع ضربات المجاذيف . ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتنتأى عن جميع الشيطان حتى بدأ البحر يشتعل بياضاً في ظلمة الليل الساجى بقفزات أمواجه العالية الزابدة ، وتزايدت قوة رياح الشرق ، فصاح الرّبان بملاحيه : « فلتسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّارى وضّمّها جميعاً » ، غير أن رياح العاصفة التى كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحارة كما غطى هدير الماء على كل صوت ، ومع ذلك سارع بعض الملاحين من تلقاء أنفسهم باجتذاب المجاذيف داخل السفينة ، وأخذ بعض يدرءون عن السفينة ثورة العاصفة ، وقام آخرون بضّم الأشرعة ، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقذفه في البحر . وبينما كان هذا يجرى على غير نظام أو تدبير تزايدت عنف العاصفة وتصارعت الرياح المقبلة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب في البحر الغاضب ، وامتلاّت نفس الرّبان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ في أمر لا يُبدى ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حذقه ومهارته ، وكان الرجال يصيحون ، وحبال الأشرعة تنقطع ، والبحر كتلة نائرة من الأمواج المتلاطمة ، والرعود تهدر في الأفاق ، والأمواج تعلو كالجبال مشرّبة كأنما تريد بلوغ السماء وتنثر رذاذها على الغيم المتكاثف ، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التى يثيرها من قاع المحيط ، وأحياناً يصبح أكثر سواداً من مياه نهر ستيكس ، وأحياناً أخرى ينشر في الأجواء طبقات من الرّبّد الأصفر ترسل صفيراً عالياً . وكانت السفينة التراخيسية تميل بمئة ويسرة ، تعلو تارة وكأنها تطل من قمة جبل على أودية نهر أخيون بالجحيم ،

وتغوص تارة أخرى في جوف الأمواج متطلّعة إلى أعلى وكأنما ترقد في إحدى بحيرات العالم السفلى . وكلما ارتطم أحد جنبها بموجة عاتية ارتفعت قعقة شديدة وانطلقت أنات موجعة وكأنها قلعة تتحطم وتميد تحت ضربات المنجنيق و«مذك» أبواب القلاع المحاصرة . وكانت الأمواج المندفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تتدفق على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السباع الباسلة حين تستجمع شجاعته لتندفع نحو الأسلحة المصوّبة إليها من كل جانب . وبدأت قوائم السفينة تترجح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكك والقطران<sup>(٢٠)</sup> الذى يغطيها يذوب وينمحي ، فانفتحت ثغرات ينفذ من خلالها ماء البحر الرهيب ، وانفجرت كوات السحب فجأة مطلقة الأمطار ، وبدت السموات وكأنها تنفضّ جميعاً على البحر ، بينما بدا المحيط الثائر وكأنه يشرب إلى السماء وابتلت الأشربة بالفيض المنهر ، واختلطت مياه البحر بمياه السماء ، ٥٢٠ وغابت النجوم من القبة الزرقاء ، وضاعفت العاصفة من ظلمة الليل ، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضيء فيها المشهد كله فتوهج المياه باحمرار لحيها .

تدفّق الماء إلى قاع السفينة المجوّف شأنه شأن جندي يبرز وحده من بين صفوف الجند محاولاً المرّة بعد المرّة أن يتسلّق استحكامات مدينة محاصرة حتى يحقق أخيراً هدفه ، ويتمكن وحده من بين ألف رجل من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطربة في النصر . فقد استطاع الموج بعد أن ألقى بثقله مرات تسع على جوانب السفينة أن يرقى في المرّة العاشرة إلى ارتفاع شاهق ، وأن يندفع في هجمة عاتية لم يرتد عنها إلا بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينفض على أسوار حصن متداعية ، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها . وكان الملاحون أسرى رعب ممزّق شبيه بذلك الذعر الذى يستشرى في مدينة يحاول العدو تقويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها في دعمها خشية تداعياها . ونسى الملاحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم ، وبدا الموت مقبلاً عليهم مع مقدم كل موجة تفتح ثغرة في استحكاماتهم ، وعجز البعض عن حبس دموعه ، واستبد الذهول بأحدهم ، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مهياة ، والتمس ثالث عون السماء التى أخذ يمدّ يديه إليها دون أن تشهدها ٥٤٠ عيناها ، وشرّد بعض بفكرهم إلى آبائهم وذوئهم ، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلفوه وراءهم ، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بالكيونيه لا تحرك شفتاه بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلّا إليها ، ولكنه كان راضياً لأنها لم تصحبه ، ووّد لو قدّر له أن يتطلع ثانية إلى شيطان بلاده وأن ينطلق إلى بيته عائداً ، ولم يكن يدرى مكانه وسط الخضم المضطرب وعبر ستار السحب الداكنة التى أخفت صفحة السماء فضاعفت من ظلمة الليل المدهم . وكسرت الرياح العاصفة الصّارى وتحطّمت معه الدفة ، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفر يتوسّط أسلابه ، ثم هوت هذه الموجة في عنف وكأنها تقتلع به جبل آئوس ويندوس من جذورهما وتلقى بهما في البحر الفسيح ، فغاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج ، وغاص مع السفينة كثير من الملاحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد ، وتعلقت قلّة بأخشاب السفينة الحطّمة . وأمسك كيكس بيده - التى طالما قبضت على صولجان الحكم - قطعة من الحطام الطافي ، وأخذ يردّد عبثاً أسماء أبيه وحميه ، وكان اسم ٥٦٠

الكيونيه قد تردّد على شفّتيه أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديثه كله عنها وفكره مشغولاً بها . وأخذ يصلى من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته ، وأن يدفن في نهاية الأمر بيديها الرفيقتين . وانطلق يردّد اسم الكيونيه بصوت عال وهو يطفو على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه ، فإذا أطبق البحر عليه من كل جانب قنع بأن يتمم باسمها ، وفجأة تدافعت على صفحة الخضم المزبد موجة سوداء عاتية غطت كيّكس فغرق . وفي تلك الليلة غشّت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون ، ودفن وجهه في الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء .

لم تعرف الكيونيه بالكارثة ، وظلت كما كانت تحصى الليالي وهي تؤمل عبثاً عودة زوجها إليها ، وتُعجل في نسج بعض الأردية له كما كانت تُعجل في نسج أردية أخرى لها لتزدان بها عند عودته ، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة في معبد جونو ، وأكثر من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب ، وردّدت دعواتها كي يعود زوجها إليها سالماً وألا يميل عنها إلى امرأة أخرى يؤثرها عليها ، وكانت هذه الضراعة الأخيرة هي الوحيدة التي استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة .

٥٨٠

على أن الربّة جونو عزّ عليها ألا تستطيع أن تسعفها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً ، وودّت أن تُبعد عن هياكلها المقدسة تلكم اليدين اللتين لم تؤديا شعائر الدفن الواجبة<sup>(٢١)</sup> فالتفتت إلى إيريس قائلة : « يا أخلص من حمل رسائل إلى البشر ، أسرعى إلى دار ربّ النوم<sup>(٢٢)</sup> الغافى ، وسليه أن يدع الكيونيه تحلم حلماً يتبدّى لها معه زوجها الراحل كيّكس لتدرك حقيقة الأمر » . وصدعت إيريس لأمر الربّة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف ، وانطلقت في مسار قوس قزح المقوس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذى أمرتها الربّة بزيارته .

وعلى مقربة من بلاد السيمريين<sup>(٢٣)</sup> كان ثمة كهف عميق منعزت في جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافى ، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا ساعة شروقها ولا عند توسطها كبد السماء ولا ساعة غروبها . وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً في الجوظلاًلاً خافتة من عتمة الغسق . ولم يكن بهذا المكان ديك يختال بعُرفه ويؤذّن للفجر بصياحه ، ولا كلاب لُفّة تقطع الصمت ، ولا إوزاً يعلو صياحه على نباح الكلاب ، كما لم تكن هناك وحوش مفترسة ولا قطعان سوائم ، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر . كان الصمت الأبكم يخيّم على المكان ، وكان نهر « ليقى » الذى يُغرى بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخبره الخافت فوق الحصى الراقد في أعماق الكهف الصخرى ، وكانت أزهار الخشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف ، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل الندى من عصاراتها عطر النعاس الرّخى وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء . ولم يكن للدار باب واحد خشية أن يثر فيه مفصل دوّار ، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبه ، وكان يتوسط الكهف فراش كبير من خشب الأبنوس داكن اللون تغطيه أستار سوداء في نعومة الريش ، وكان الإله نفسه يرقد في هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه في كلل ، ترقد حوله ربّات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالاً متباينة ،

٦٠٠

فصورة لسنايل القمح وقت الحصاد أو للأوراق على أشجار الغابة وثالثة لرمال الشاطئ المتراعى الأطراف .

ودخلت الرسالة إيريس العذراء وجعلت تزيج يديها أطيااف الأحلام التى اعترضت طريقها ، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميض ألقي فى مسكن الإله ، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كى يفتح عينيه الكليلتين المُثقلتين بالنعاس ، وحاول النهوض فمال رأسه حتى لامست ذقنه صدره ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة ، إلى أن نهض متكئاً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن السرّ وراء زيارتها ، فأجابته قائلة : ٦٢٠ « ياربّ النوم ، يا من يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء ، يا أكثر الآلهة نشدانا للسلام ، يا من إليك تهدئة الخواطر وإزاحة الهموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الثقيلة فتنتعش بعد طول الجهد والكلل ، مُرّ أحلامك القديرة على محاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبعثها ثانية كما جرت فى الواقع ، مُرّها أن تتقمّص مظهر الملك كيكس وأن تشدّ الرحال إلى ألكيونيه بمدينة تراخيس التى أذاع شهرتها هرقل ، وأن تُربّها صورة الملك غريقاً . ذلك ما أمرت به چونو » . ورحلت إيريس بعد هذا كى تفلت من تأثير ربّ النوم القهار ، فلقد أحست بالنعاس يتسلّل إلى عينيها ، وعادت أدراجها سالكة نفس المسار المقوسّ الذى عبرته منذ لحظات .

وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الأدميين ، ولم يكن أحد يفوقه مهارة فى تقليد طريقة المشى وتعايير الصوت ورنّاته ، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدى الثياب نفسها التى تميز كل شخص عن غيره . وعلى حين تخصّص مورفيوس فى محاكاة البشر ، درج ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسميه البشر فوبيتور على تقمّص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة ، كما تميز ابن ثالث هو فانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه فى مظهر مخادع فيمثل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أى شئ من الأشياء الجامدة التى لا روح لها . وكان ثلاثتهم يقومون بتمثيل الأحلام التى تظهر ليلاً للملوك والقادة ، فى حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثّلون الأحلام للعامة من الناس . وقد برّز الإله العجوز أبنائه كلهم فى مواهبهم فى تمثيل الأحلام غير مورفيوس الذى اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفذ ما طلبته إيريس إبنة ثاوماس . ولم يكد يعهد إليه بهذه المهمة حتى غاص رأسه المائل على صدره فى ثنايا فراشه واستغرق ثانية فى نومه العميق .

وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الخالكة دون أن يُسمع لجناحيه حفيف ، وسرعان ما بلغ مدينة هايونيا حيث ألقي جناحيه جانباً ، وغير من هيئته ليبدو فى صورة كيكس . وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية من الثياب اقترب من فراش زوجته البائسة ألكيونيه بلحية مندّاة وشعر رأس مبتل تتساقط منه قطرات ماء ثقيلة ، ومال على الفراش دافع العينين قائلاً : « أى زوجتى التعسة المسكينة ، أتستطيعين التعرف على زوجك كيكس أم أن الموت قد غير هيئتي ؟ تطلّعى إلىّ ولسوف تعرفينى حقاً ، وإن رأيت شبحاً لزوجك لا صورته الحقيقية . أى ألكيونيه ، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأننى فارقت

الحياة ، فلا تدعى الأحلام الزائفة تداعب فكرك بعودك . لقد هبت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفينتنا في بحر إيجه ، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هُشمتها ، وجمد الموت بشفتي اللتين كانتا ترددان اسمك . وما يحمل لك هذا النبا رسول لا يوثق به ولا شائعات مُبهمه ولا ألسن تتناقلها ، وإنما أنا الذي جثت بنفسى أحمله لك بعد أن ذقت الموت غرقاً كي أخبرك بقدرى ومصيرى ، فلتنهضى الآن من فراشك ولتدرفى الدمع من أجلى ، واتشهى بثياب الحداد ، ولا تدعيني أذهب إلى غياهب تارتاروس غير مأسوف على ولا مشيع بالبكاء .

ويدا مورفيوس خلال حديثه مع الكيونييه وكأنما يبكي حقاً ، وقد تعرّفت على صوت زوجها في صوته ورأت إيماءاته في إيماءاته ، وغالبها الأنين والبكاء في نومها ، ورفعت ذراعها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض يداها على غير خواء ، فصاحت به قائلة : « انتظر ! لم تتعجل الرحيل ورحلتنا واحدة ؟ » .

ونفضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصوت صرخاتها ، وتلفتت حوالها بادية ذى بدء لتستوثق مما إذا كان الرجل الذى ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها ، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح ، فلما لم تقع عينها على رجلها أخذت تلطم خديها بيديها وتشق ثوبها وتضرب صدرها ، وصاحت تقول لوصيفتها التى هرولت إليها تستطلع سبب حزنها : « لقد قُضى على الكيونييه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيّكس . فلا تحاولى التسرية عنى بكلمات عزاء ، لقد مات زوجى إثر تحطّم سفينته ، وقد رأيته وعرفته ومددت إليه يدي حين أوشك على فراقى وحاولت استبقائه . ولم يكن من وقع عليه بصرى غير شبح ، ومع هذا فقد كان هو زوجى ، ولئن شئت أن تعرفى كل شيء فإن قسمات وجهه لم تكن هى التى عهدتها فيما مضى ، إذ لم تكن تشع بتألقها السابق . لقد رأيته واقفاً في هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء . يا للبائس المسكين ! ويا له من مشهد مثير للرثاء » ، ثم عادت فتطلعت حولها لترى إن كان قد خلف وراءه أثراً ، واستطردت تناجى زوجها قائلة : « كان هذا هو سبب فزعى وخوفى حين رجوتك ألا تتركنى وألا تمضى إلى حيث تعصف بك الرياح ، فلئن كنت ماضياً إلى حتفك فما كان أجدرك بأن تصطحبنى ، وكم كان أولى بى أن أمضى معك ، ولو مضيت معك ما قضيت شطراً من حياتى بعيدة عنك ، وما كنا لنموت مفترقين ، فما أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك ، وعلى الرغم من أنك خلّفتنى هنا وحيدة ، وعلى الرغم من أنى لم أشاركك العاصفة التى عصفت بك ، فما أنذا تأتى على العاصفة ، ومع أن البحر لم يطوئ في جوفه فقد غدوت وكأن البحر طوانى في أعماقه ، ولو أننى حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت فى التغلب على أحزاني لأصبح قلبى أشد ضراوة من البحر . لا ، لن أحاول مقاومة أحزاني ، كما لن أحاول هجرى المسكين ، ولسوف ألحق بك . ومع أن رماد جسدنا لن يجتمع فى وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك . وهكذا إذا كان قد قُدر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد » . ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد ، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأنات عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكلم .

وأقبل الصباح فغادرت ألكيونيه دارها وقصدت قصد شاطئ البحر حيث ودعت كيكس وهو يُقلع بسفينته ، وأخذت تغدو وتروح عنده وهي تهمهم قائلة : « هنا كان يشدّ الحبال ، وعلى حافة هذا الشاطئ قبلى قبلة الوداع » . وبينما كانت تستعيد أقواله وأفعاله وتتذكرها حيث وقعت صوّبت طرفها صوب البحر فرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجثة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً ، غير أن الأمواج كانت تحمله نحوها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم من بُعد أنه جثة إنسان . وتحركت مشاعر ألكيونيه لمراى هذا الرجل الغريق ، ومع أنها لم تكن تعرف من يكون إلا أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة : « واسفاه على مصيرك أيها البائس كائن من تكون ، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة » . ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجسد من الشاطئ وأخذت ألكيونيه تحلق فيه ونفسها تنهاوى شيئاً فشيئاً فإذا هي في النهاية تتبينه وتعرف أنه زوجها ! فصاحت صارخة : « إنه هو » ، وسرعان ما شقت ثيابها ولطمت خديها وشدت شعرها ومضت تعول وهي تقول بأسطة نراعيها المرتجفتين ناحية جسد كيكس : « أى زوجى العزيز ، أعلى هذه الصورة تعود إلى أيها المسكين ! » .

وكان على الشاطئ حاجز صنعتته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج الثائرة فيكسر حدتها ويهون من قسوة لطماتها ففزت إليه ألكيونيه ، ثم ما لبثت أن طارت إليه فقد نبت لها جناحان في ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء في رقة وكادت تلمس الماء وهي محلقة على شكل يدعول للرثاء ، وأخذ فمها الذى اتخذ شكل منقار ضامر يطلق في أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشجن وأنات شكاة وتوجع .

وحينما بلغت ألكيونيه الجثة الساكنة الخرساء التى لم تعد تحمل قطرة دم ضمت بجناحيها الوليدين أطرافها العريزة ، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها الصلب . وقد تساءل الناس عما إذا كان كيكس قد أحس بها أم أن اضطراب البحر هو الذى رفع رأسه ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أحس بوجودها ، فقد رحمتها الآلهة فأحالتهم طائرين<sup>(٢٤)</sup> ظل الحب يربطهما معاً حتى بعد أن آل بهما الحال إلى هذا المال . وهكذا بقيا وفين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لها أجنحة الطيور ، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء . ومنذ ذلك الوقت لا تزال ألكيونيه في عشها تحتضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام في فصل الشتاء . وفي هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدا ، ويحكم أبولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق ، متيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادئ .

## أيساكوس

وفيما كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخ كان يرقبهما يُشيد بالحب الباقي الخالد الذى يجمع بينهما وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطاس ذى عنق طويل ويقول : « أترى إلى هذا الطائر الذى يرف على سطح الماء بساقين دقيقتين قد امتدنا خلفه ، إنه

هو أيضاً من نسل الملوك ، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة بخطوة فستجد أنه ينتهى إلى أيلوس الذى أنجب أساراكوس ، ثم جانيميديس الذى اختطفه جوبيتر إلى السماء ، ثم لاووميدون وپريام الشيخ الذى قُدّر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة . لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور ، ولولم يكن قد لقي مصيراً غريباً فى شبابه الباكر لذاغت لاسمه شهرة لا تقل عن شهرة اسم هكتور نفسه . غير أن هكتور هو ابن هيكوبا ابنة ديماس ، وإن كان يقال إن أيساكوس — وهو اسم هذا الطائر — كان ابناً لألكسيروى ابنة جرانيكوس ذى القرنين ، وضعت أمه سرّاً فى غابات إيدا . وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً فى حمى التلال بعيداً عن أبهة البلاط ، ولم يكن يتردد على مجتمعات إلْيُوم [ طروادة ] إلّا لما ، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظاً عصياً على الهوى ، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسيرييه ابنة كبرينيّه<sup>(٢٥)</sup> خلال الغابات محاولاً الإمساك بها ، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينيّه تحفّف شعرها المنسدل على كتفيها تحت أشعة الشمس . وما إن لمحت الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مذعورة أمام ذئب أغبر ، أو كما تطير بطة أمام صقر طاردها بعيداً عن بُركتها . وقد أسرع الأمير الطروادى عُدّوا بقدمين زادهما الهوى المشبوب خفة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من سرعة عقبيها ، وإذا حيّة كانت مستكنة فى العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تعدو ، ونضحت أنيابها سمّاً سرى فى جسدها فانقطعت عن العُدّوا لتوها وانقطعت معه حياتها أيضاً ، وضمم العاشق جسدها الداوى فى جنون وأخذ يصيح : « ما أشدّ تعاستى ، إننى أنا الذى طاردتك وما كنت أتوقع هذا الذى سيحدث يا فتاتى المسكينة . لقد شاركت مع الحيّة فى القضاء على حياتك ، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإننى أنا الذى أتحّ لها هذه الفرصة ، على أنى أكثر منها جُرمًا . فليكن موتى عزاء لك عن فراقك الحياة » ، وما لبث أن ألقي بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزججة قاعدتها ، غير أن ثيتيس أخذتها به الشفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقّته على صدرها فى رفق وغطّته وهو يسبح فى مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذى تمنّاه لنفسه . وتملّك العاشق غضباً لما رآه من إرغامه على حياة ياباها ، ولحرمان روحه من التحرر من محبسها التعس كما تافت أن تفعل ، وما إن اكتسب جناحيه الجديدين حتى حلّق بهما فى الأجواء على ارتفاع خفيض ، ثم ألقي بنفسه ثانية على صفحة البحر غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته ، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملّكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضى بها نجه . ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذى يبعد ما بين رأسه وجسده ، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم « الغطّاس » إشارة إلى إيغاله فى أعماقها<sup>(٢٦)</sup> .

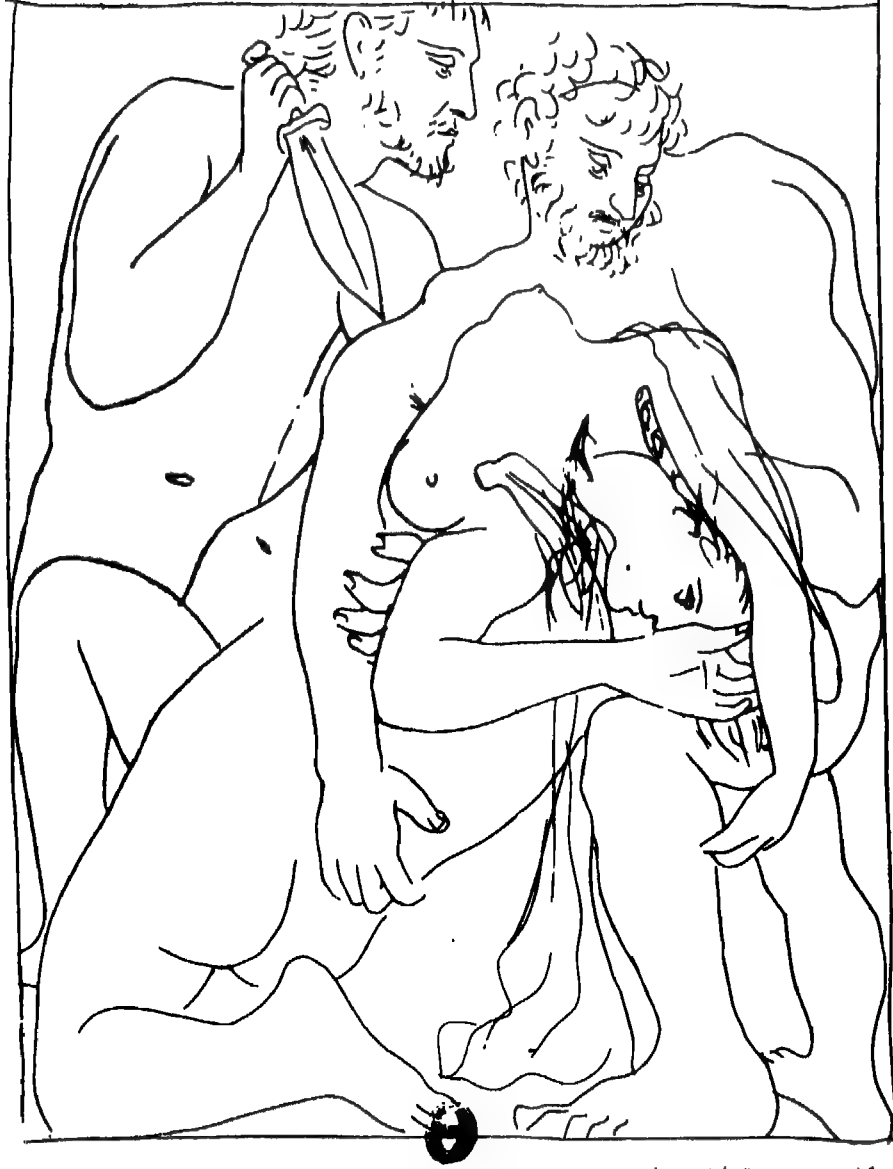
٧٦٠

٧٨٠

# التعقيبات

- (١) انظر الكتاب العاشر .
- (٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذى ينتهى ساقه بشمرة صنوبر ، وهو المسمى ثيرسو لوخوس ، أى الثيرسوس على شكل الحربة وينتهى ساقه بحد سهم ، وهو الثيرسوس المقصود هنا .
- (٣) المدمّة أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة وتسويتها .
- (٤) عاصمة مملكة ليديا بآسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها لحصار أعدائها من كل الأجناس .
- (٥) اسم مدينة أقل أهمية من سارديس فى ليديا على الطريق بين سارديس وإفسوس .
- (٦) قد يكون هذا هو المثال الوحيد فى الشعر اللاتينى لتجسيد الجبال ، فى حين كانت الأنهار كلها تخاطب كأنها أشخاص إلهية .
- (٧) قد يكون هذا الوصف لأبوللو ترجمة حرفية لتمثال أبوللو حامل القيثارة للحفوظ بمتحف الفاتيكان .
- (٨) الهيلسبوننت وسط الدردنيل حيث سقطت هيلليه إينة أثاماس ونيفيل وهى تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش ذى فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها .
- (٩) المعنى الحرفى لكلمة بانومفايوس هو المكان الذى تنبثق منه رسالة الهاتف الإلهى .
- (١٠) هذه إشارة إلى إريخثونيوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس فى الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فرس خارقة للعادة ، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن اثنى عشر مهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تنثنى أعوادها ، كما كانت تستطيع الركض فوق زبد الأمواج ، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحرى ، ولكن لاووميدون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لاووميدون وكل أبنائه واختطف هيزيونيه أسيرة له .
- (١١) كان بيليوس بن أياكوس وشقيق تيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل .
- (١٢) اسم جزيرة بين رودس وكريت اسمها الآن اسكارپانتو ، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها ، إذ يدعى البحر بين الجزيرتين بالبحر الكارپاتى .
- (١٣) انظر الكتاب السابع .

- (١٤) تراخيس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا . وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذي لعبته في أسطورة هرقل ، وقد سميت مأساة « نساء تراخيس » لسوفوكليس التي تقص موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكون من نساء تراخيس ، كما تدور أحداث المأساة في قصر كيكس ملك تراخيس .
- (١٥) اسم مدينة في بويوتيا سميت باسم الحورية نيزي ، غير أنه لا يعرف شيء عن اقتران المدينة بالحمام ، إلا أن هوميروس لقبها في الكتاب الثاني من الإلياذة بأنها بوليثيرون أي العامرة بالحمام .
- (١٦) الحورية بساماثي ابنة نيريس هي أم فوكوس .
- (١٧) هم أهل ماجنيزيا ، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أولا — وهو المقصود هنا في ثيساليا — هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر بينيوس ، وثانيها مدينة في كاريا على ضفاف نهر المياندر ، وثالثها في ليديا على سفح جبل سبيلوم حيث تحولت نيبوي إلى صخرة .
- (١٨) ذكر أوفيد أكاستوس بن بيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا في حملة الصيد بكاليدون [ انظر الكتاب الثامن ] .
- (١٩) اكتشفت بالفعل بعض النصب الجنائزية في جبال قديمة بأثينا مخصصة لضحايا البحر ، وأغلبها في جبانة كيراميكوس ، أي حي الفخارين .
- (٢٠) الشمع في الأصل .
- (٢١) المقصود هنا أن يدى الكيونيه مدنستان من حيث لا تدري ، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المسئولة عن إقامة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفى .
- (٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهينوس عند الإغريق .
- (٢٣) بلاد السيميرين هي بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك ، وقد ذكر بعض القدماء أنها في أقصى الغرب ، وذكر البعض الآخر أنها في شمال البحر الأسود .
- (٢٤) هو الطائر المعروف باسم القارند أو الألسهون ، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس .
- (٢٥) كبرنيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة .
- (٢٦) اسم الطير باللاتينية هو « ميرجوس » ويعنى الغطاس كما هو معروف الآن في اللغات الأوروبية ، ويميل العرب إلى تسميته بالغطاس .



بيكاسو: تضحية إيفيجينيا

## الكتاب الثاني عشر

### الإغريق في أوليس . ربّة الشهرة

لم ينته إلى علم پريام أن ابنه إيساكوس قد تحوّل إلى طائر يخلق بجناحين في الأجواء ، فراح ييكي لفراقه ، وأقام هكتور وأخوته لشقيقهم ضريحاً خاوياً عليه اسمه وليس فيه رفاته وقدّموا عنه القرابين ، ولم

يشهد الحفل الجنائزى أخوهم باريس الذى عاد إلى الوطن بعد غية مصطحباً زوجته وكان قد اختطفها وأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة في إثرهما حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية سادت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار في بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك .

وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الآلهة وفقاً للعُرف المتبع ، وحين توهّجت النيران في المذبح العتيق زحفت أفعى ذات حرافش داكنة على شجرة دُلب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودنت من عُشّ يضم ثمانية من فراخ الطير في قمة الشجرة<sup>(١)</sup> التهمت جميعاً مع أمها التي جهدت أن تدوّد عن صغارها المنكوبة . وبُهِت الجميع حين وقف العرّاف كالحاس ابن ثيستور ليطالعهم بهذه النبؤة قائلاً : « أبشر يا شعب اليونان فسيحالفنا النصر ، وسوف تسقط طروادة لكن بعد عناء طويل » ، فهذه الطيور التسعة تعنى تسع سنين من الحرب المتصلة ، وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهي تلتفّ حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجري على صورة الأفعى المتسلّقة .

٢٠

ولم يقصر الإله نيرئوس عن إثارة الزوابع في بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض في تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك في تشييد أسوارها . غير أن كالحاس بن ثيستور لم ير هذه الرأى وطالع الجميع بما يرى ، وأنه لا معدى عن إباحة دم عذراء ليُسكّن غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث الناس أن رأوا أن مصلحة الجماعة فوق المصلحة الخاصة . وغاب الحنان الأبوى لأجائمنون حين واجه واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين الكهنة يريقون دمها أمام المذبح وهم سيكون لسفك دمها الزكّى تضحية وقرباناً للإلهة الغضبي التي سعدت بما كان ، فإذا هي ترسل سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ظبية حلت مكان الفتاة الموكينية في موقعها . وسكن غضب ديانا بهذا القربان الذى ارتضته ، كما سكن غضب البحار فدفعت الريح السفن الألف حتى بلغت سواحل فريجيا بعد مخاطر جمة<sup>(٢)</sup> .

واتخذت ربّة « الشائعات » مكاناً في قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر . فمن هذا المكان الذى تلتقى فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجري مهما نأى وتسمع كل صوت يخفق فيه ، وأقامت بيتها فوق ربوة عالية خلّته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّدته بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتباتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيردّد صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسماع . ولم ينعم البيت بالهدوء لحظة ، ولم يسد الصمت ركناً من أركانه ، ومع ذلك لم تعل فيه صرخات بل همسات كوسوسة الأمواج التي تُسمع من بعيد ، أو بقايا أصداء رعود أطلقها جوبيتر تدفعها السحب الداكنة . وملأت أركان البيت الشائعات التي اختلط فيها الصدق بالزيف ، تجول بين الأروقة والردهات وكأنها جماعات من أطياف يصبّ بعضها الأقاصيص في الأذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيداً ، وكذا الشائعات تنمو بما يضيفه كل قاص .

٤٠

- ٦٠ وفي هذا البيت كانت تعيش ربة « السذاجة » التي تصدق كل شيء ، وربة « الخطأ الجامع » وربة « الفرح الطائش » وربة « المخاوف الجزعة » ، وربة « الفتنة التي تنفجر بغتة » وربات « الوسواس » التي لا يعرف أحد مصدرها ، وكانت ربة « الشهرة » نفسها ترقب كل ما يحدث في أرجاء السماء والأرض والبحار ، وترقب ما يحدث في كل أنحاء العالم .

## سيجنوس

- وأذاعت ربة « الشائعات » اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهبّة للحرب من طروادة التي لم تكن تتوقع هذه المفاجأة ، وسرعان ما تهيأ الطرواديون للدفاع عن شواطئهم محاولين منع اليونانيين من الهبوط فوقها ، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلاوس أول من يسقط في المعركة بسهم هكتور<sup>(٣)</sup> ، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التي جشمتهم الكثير ، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائريهم ، كما تحقق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التي انسكبت من أجساد ضحاياهم .
- وغطى لون الدم المراق شاطئ سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نبتون<sup>(٤)</sup> ، وتمزيق سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفح جبل پيليون أجساد كتائب كاملة من الجنود . وكان أخيل قد أخذ يشق الصفوف بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلق هكتور إلا في السنة العاشرة من الحرب ، بينما أسرع في لقاء سيجنوس الذي انطلق نحوه في مركبته الحربية التي تقودها جياد بأعناق بيض وكأنها الجليد وهي تعلّق أعنتها ، ولوّح بذراعيه صائحاً فيه : « ليكن عزائك في موتك أيها الشاب كائناً من كنت أن حتفك سيكون على يديّ أخيل الوافد من ثيساليا » ، وأطلق حربته التي أصابت هدفها ، غير أنها تركت أثراً هيناً بصدر خصمه وكأنها كانت حربة مثلومة السنّان . وبينما أمسكت الدهشة بأخيل ، صرخ فيه خصمه قائلاً : « يا ابن الإلهة ، لقد سبقتني إليك شهرق لتعرف من أكون ، فكيف تعجب إذ لم تصبني حربتك بجراح ؟ » [ ولقد كان أخيل عندها يعجب حقاً ] ، فاستطرد قائلاً : « إنني لا أحمي رأسي بهذه الخوذة ولا أستر جسدي بهذه الدرع المقوسة ، وإنما أضعها كما يفعل الإله مارس . ولو شئت لنزعت عن جسدي هذه العدة الواقية دون أن أصاب في حلبة القتال بأذى ، فليس من العبث أن يكون المرء ابناً لنبتون الذي يحكم البحار كلها لا ابناً لإحدى النيريايس » .

- وفيما هو يتحدث أطلق حربة اصطدمت بسنام درع أخيل البرونزي ونفذت من طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة<sup>(٥)</sup> ، فأمسك بها أخيل وألقاها جانباً ، ثم قبض على حربته وسدّها بذراعه المفتولة لكنها مع ذلك لم تمس سيجنوس بأذى ، وكشف سيجنوس عن صدره ومع هذا لم تصبه الحربة الثالثة . واشتعل غضب أخيل مثلما يشتعل غضب الثور الهائج في الحلبة عندما يقتحم طريقه بقرنيه المخيفين نحو الملاء الحمراء التي تثير جنونه إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مجدية ، وأمسك أخيل بحربته وبعد أن اطمأن إلى بقاء منها مُثبّتاً في ساقها الخشبي صاح قائلاً : « ترى هل فقدت ذراعي

قوتها التي ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان وأصبحت خائفة ؟ أو لم تكن قوية يوم تقدّمت الجميع وهدمت جدران ليريسوس ، وحين أغرقت مدينتي تيندوس وطيبة موطن إيتيون في دماء سكانها ، وحين صبغت نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التي تحيا على ضفتيه<sup>(٦)</sup> ، وحين ذاق تيليفوس مرتين طعم حربتي . أو لم أقتل هنا كثيراً من الرجال تكدّست أجسادهم على شاطئ البحر ؟ ألا إنهم في مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعي التي مازلت أنعم بها حتى الآن .

وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينوتيس ، وهو أحد الليكيين البسطاء فانغrust في صدره بعد أن اخترقت الدرع المصفّح ، وسقط مينوتيس ممدداً فوق الأرض الصلبة ، فنزع أخيل حربته من جسده وقال : « ها هي ذى إذن يميني ، وها هي ذى حربتي التي حققت بها الآن نصراً . فلاسدّها إلى هذا الخصم آملاً أن أحقق النصر نفسه » . ١٢٠

وهاجم أخيل ثانية سيجنوس الذي لم يحاول تفادي الضربة التي لم تحد عن مرماها فاصطدمت به الحربة التي من خشب الدردار وخلفت صوتاً مسموعاً ، ثم ما لبثت أن ارتدت كما ترتد عن جدار أو عن صخرة ، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملكته النشوة التي لم يكن لها ما يبررها ، إذ لم يكن الدم الذي رآه سوى دم مينوتيس . ودفع الغضب أخيل إلى الوثوب من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بالسيف الذي استطاع أن يشق به درع سيجنوس وخوذته ، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذي لا يقهر ، ولم يستطع أخيل احتلال هذا الهوان ، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربع ، ويمقبض سيفه هوى على صدغيه ، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه ، حتى استولى الخوف على سيجنوس وانتشرت سحابة سوداء أمام عينيه وتابع خطوه إلى الخلف حتى ارتطم بصخرة كانت تعوق تفهقره ، فأمسك به أخيل ثم رفعه وضرب به الصخرة ضربة قاتلة . ووقف فوق جسده فهشّم ضلوعه بترسه ويضغظه ركبتيه على صدره ، وكنم أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدة فهاث سيجنوس مخنوقاً . وحين أخذ يخلع عن خصمه عدّته الحربية وجد أن العدة خالية لا شيء فيها إذ أن إله البحر كان قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذي سُمي منذ يومها بطائر البجع [ سيجنوس ] . ١٤٠

## كايكوس

وبعد هذه المعركة نعم الجيشان بهدنة لبضعة أيام ، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانات طروادة على أسوارها بعيون متطلّعة وديدبانات الإغريق في خنادقهم على أهبة الاستعداد ، ومضى أخيل الذي انتصر على سيجنوس ينحر بقرة ليقربها قرباناً للإلهة أثينا وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت في الأجواء رائحة الشواء التي تراح لها الآلهة . واقتطع أخيل قدرأ من اللحم خصّصه للطقوس المقدسة ، ثم وزّع الأجزاء الأخرى من اللحم المشوى على الموائد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يرشفون النبيذ مضطجعين ١٦٠

لينسوا همومهم ، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المزمار من الغاب المتعدد الثقوب ، بقدر ما شذهم الحديث الممتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذي حققوه ، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه ؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون في حضرة أخيل ؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو عن الضربة القاضية التي أنزلوها بسيجنوس وكانت معجزة المعجزات ، فالمعروف أن الجراح لا تنفذ إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف يتسلم إذا مسه . وبينما كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشتهم وعجبهم إذا بنسطور يذهلهم بقوله : « لقد كان لكم في سيجنوس خير مثال لمن تلقى الحراب بصدره ساخراً دون أن تنفذ فيه نصالها ، ولقد رأيت أنا قبل رجلاً سُدَّتْ إلى جسده آلاف الطعنات فلم تنل منه ، وهو كايينوس ساكن جبال أوثريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت . أما ما يذهل له المرء حقاً فهو أن يعرف أن هذا الجسد الصلب الذي صمد للرمح وُلد جسدَ امرأة » .

١٨٠

فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروي لهم قصة هذه المعجزة العجيبة ، وقال له أخيل : « تحدث يا وريث حكمة العصور الماضية وصاحب الشخصية الفذة ومالك ناصية البلاغة الرصينة ، واسرد علينا قصتك التي نتحرق شوقاً لسماعها . فلتكشف لنا عن شخصية كايينوس وسرّ تغيره من امرأة إلى رجل ، وما هي تلك المعركة التي تعرّفت فيها إليه ؟ وهل حاقت به هزيمة يوماً ، وعلى يد من ؟ » . وتحدث نسطور العجوز قائلاً :

« حقاً كم أوهنت السنون العديدة من ذاكرتي ومحت من ذهني كثرة من أحداث شبابي ، ومع ذلك فمازلت أذكر الكثير . على أن من بين جميع المخاطر التي وقعت لي سلماً أم حرباً تلك القصة التي سأرويها لكم لأنها ألصق الأشياء بفكري . وإذا كانت السنون الطوال تتيج للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أني عشت قرنين من الزمان ، وها أنذا داخل في الثالث<sup>(٧)</sup> .

وهبت كايينيس ابنة إلاتوس جمالاً طاغياً فاقت به جميع بنات ثيساليا ، مما حرك قلوب كثير من شباب المدن المجاورة بالأمل في الظفر بها ، فلقد كانت كايينيس من مواطنيك يا أخيل . وقد حاول بيليوس هو الآخر الزواج منها ، وقد يكون قد حاول الظفر بأمك يا أخيل أو لعلها وعدته بالزواج منها ، غير أن كايينيس كانت تأبى الزواج من كل من تقدّم وإذا شائعة تذيع تقول إن إله البحار انتهب فرصة انفرادها على الشاطئ يوماً واحتواها بين ذراعيه ، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها : « لك أن تتمنى على ، ولسوف أحقق لك ما تطلبين » . فأجابته قائلة : « ما أكرهني أن أذوق يوماً ما دُفّته الآن من مهانة ، وكم وددت لو صيرتني رجلاً ، فإن فعلتها حققت لي أعظم رغباتي » ، وإذا جرسُ كلماتها الأخيرة أشدّ عمقاً حتى ليخال أنه جرس رجل ، وكان في الحق جرس رجل ، فلقد حقق إله البحر للتورغبتها ، فإذا الفتاة كايينيس تصبح رجلاً سُمي من يومها كايينوس ، ومُنح جسداً حصيناً لا تحدشه الرماح أو تجرحه .

٢٠٠

ومنذ ذلك اليوم وكاينوس يحياً سعيداً بهذا العطاء الإلهي مستمتعاً بما يستمتع به الرجال ، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر بينوس .

## القنطوري

ولقد ذهبت أشهد زفاف هيوداميا إلى پيرثوس بن إيكسيون الشجاع بين من دعاهم پيرثوس من جماعات القنطوري المتوحشين أبناء السحاب ومن أمراء ئيساليا إلى قصره الذي أخذ يضعج بالمرح . وحين أقبلت العروس تتهادى وسط وصيفاتها من السيدات الوقورات الفاتئات واللاق تبرهن جمالاً انطلقت أغاني الزفاف ، وانتشى پيرثوس بحظه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة . غير أنه قد حيل بينه وبين تلك السعادة التي كنا نرتقبها ، فقد أشعل وجه هيوداميا الندي نار الغرام في فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطوري الذي لعبت الخمر برأسه فاستسلم لشهواته المحتدمة ، وقام فقلب الموائد وأثار الفوضى في الحفل وقبض في شراسة على هيوداميا . وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالى صراخ النسوة ، وصاح ئيسوس قائلاً : « أمسك الجنون يا يوريتوس فإذا أنت تعتدى على پيرثوس وأنا حي بعد ، فأثرت غضب اثنين باعتدائك على أحدهما » ، وتقدم فأنقذ العروس من بين يدي يوريتوس الذي سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدى للبطل وسدد له ضربات بقبضتيه القويتين أخذت تنهال على وجهه وصدره . فاستدار البطل إلى كأس عريق كان قائماً فوق المنضدة نثأت زخارفه البارزة فأخذه وطوح به في وجه القنطور فشج رأسه الذي طفع بالدماء وأسال دمه من جرحه ومن فمه معاً ، فسقط على ظهره وقوائمه تترنح في الهواء وتلايف تحه تحتلط بالنبذ المتدفق على الأرض . عندها احتدم غضب جماعة القنطوري وقد منحتم الخمر جرأة وهرعوا صائحين « إلى السلاح . إلى السلاح » ، واحتدم القتال فإذا الكئوس تتحول إلى أدوات تراشق نتطاير عبر البهو بعدما كانت وسيلة متعة .

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح المقدس فاقتحمه وحمل شمعدانا متعدد الأذعة مليئا بالشمعات المتقدة ، وشهره كما يشهر الكاهن السكين التي ينحر بها القرابين ثم هوى به على رأس اللايث كيلادون فحطم عظامه وشوه وجهه ، فقد برزت عيناه خارج محجريها وغار أنفه داخل حلقة . غير أن پيلاتيس تصدى لأميكوس ويده رجل من أرجل منضدة فقهره بضربة دفعت بذقنه داخل صدره ، وانبثق الدم من جسده وفمه ، ثم بعث به إلى عالم الموت بضربة أخرى .

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متقدة وهو يقول : « ولم لا أخذ من هذا عدة أستعين بها ؟ » ثم ألقى بها وسط جماعة اللايث فأودت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذي أجمع الناس على أن أمه ميكالي كثيراً ما جعلت بعوداتها ورقاها الهلال يهوى من السماء على الرغم من استعصائه ، وعندئذ صاح به إيكزاديوس : « لو أن سلاحى في يدي لما أفلتت من العقاب » وانتزع قرن وعمل كان معلقاً بشجرة صنوبر وجعل منه رمحاً دفع به في عيني جرينيوس فاقتلعهما ، والتصق شيء من لحمها بالقرن بينما

سال سائره على لحيته وتدلّ منها ممتزجاً بالدم المتخثر فوقها . والتفت رويتوس إلى شعلة من شعلات الهيكل المتقدة فأمسكها وهشم بها رأس خاراكسوس المغطاه بشعره الأشقر ، وأشعل النار في رأس جاجنيس التي احترقت وكأنها العشب الجاف ، وأخذ الدم في جراحه يفهق كما يفهق الحديد المحمى حين يُسقى بالماء . ٢٨٠ لكن خاراكسوس الجريح هز رأسه المشتعل وانتزع عتبة الباب الحجرية وحاول أن يقذف بها خصمه إلا أنها هوت من بين يديه على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطمته . وتملكت الفرحة رويتوس فصاح : « ليت الباقون ينتفعون بقواهم كما انتفعت بها أنت » ، وأمسك بالغصن المحترق واستأنف هجمته محطماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثنى وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللزج .

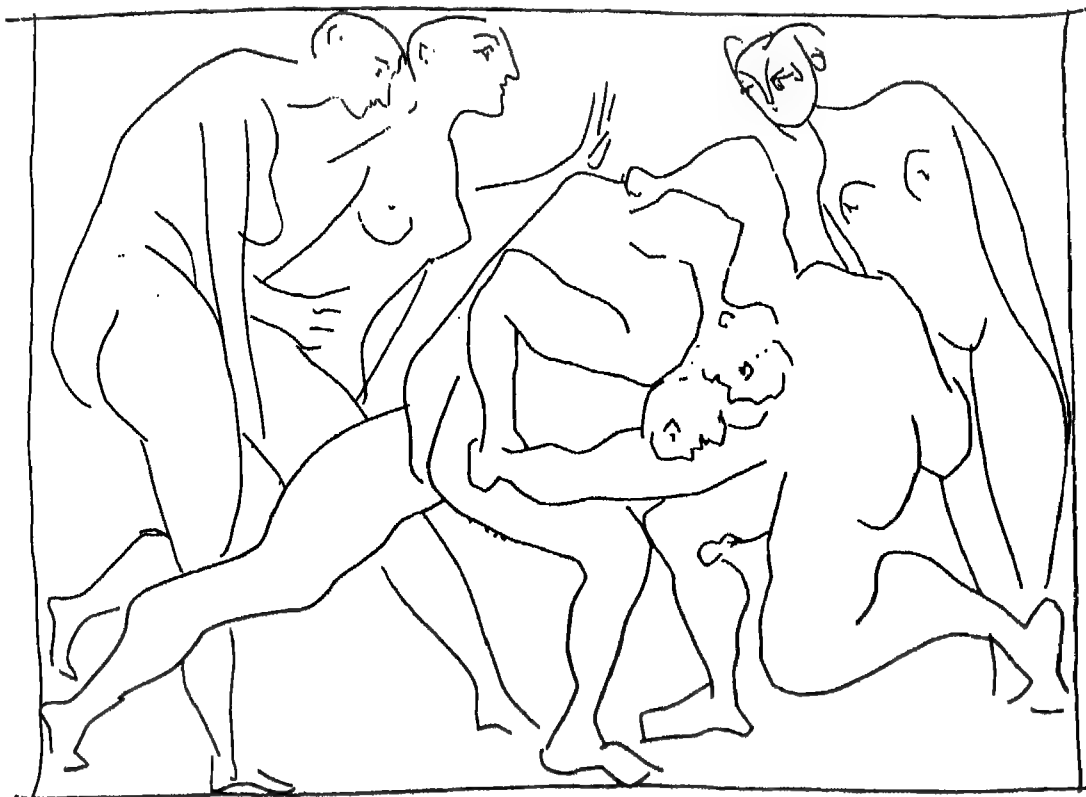
واستدار نحو إيفاجروس ودراياس وكورثوس ذلك الشاب الغض الذي بزغت شعيرات عذاره في وجنتيه فألقاه صريعاً ، فصاح إيفاجروس في القنطور : « أى مجد تحقّقه بالانتصار على هذا الصبي ؟ » فأسكتته رويتوس بدسّ قضيب محمى في فمه الفاجر تاهباً لاستكمال الحديث وأنفذه من فمه إلى صدره . ثم أخذ بهذا القضيب المحمى يُضيق على دراياس وما استطاع قهره على الرغم مما كانت له من انتصارات على من سبقوه ، فقد استطاع دراياس أن يغرس غصن شجرة محترق في مكان التقاء عنقه بكتفه فأطلق رويتوس أنيناً عالياً وبذل غاية الجهد حتى انتزع الغصن من عنقه ، وأسرع بالفرار والدم يتدفق غزيراً من جرحه . ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون المجروح الكتف اليمنى ، ونحا نحوهم ثاوماس وپيسينور وميرميروس تُثقل الجراح خطاه مع أنه بزّ منافسيه عدواً من قبل ، ثم انفلت في إثرهم فولوس وميلانيوس وأباس صياد الخنازير البرية وأستيولوس العراف الذى حاول أن يُثنى رفاقه عن القتال غير أنه لم يفلح . وصاح لينيسوس في نيسوس مُهيباً به بعد أن رآه يحجم خوف أن يُصاب « ليس بُمنجيك أن تولّى الأدبار ، فسيمدّ القدرُ في عمرك إلى أن يودى بك سهم هرقل » . غير أن يورينوموس وليسيداس وأريوس وإمبريوس لم يفتلوا من الموت إذ أودت بحياتهم ضربات دراياس فوق وجوههم ، كما تلقى كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب .

ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أئيداس وهو مضطجع على جلد دب اقتنصه فوق جبل أويساً ممسكاً كأس نبيذ في يده المتخاذلة . فما كاد يلمحه فورباس من بُعد حتى انقضّ عليه برمحه الذى أنفذه في رقبته صائحاً به « تجرّع هذا النبيذ ولسوف تجرعه ممزوجاً بمياه نهر ستيكس » ، ولم يمهله فرماه بسلاح سنانه من حديد وساقه من خشب الزان وأنفذه في عنقه . وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلاحه فأشرف على الموت وما درى أنه مُشرف عليه ، وتدفّق دمه أسود فملاً كأسه وغمر فراشه .

ورأيتُ بعينى پيترايوس يحاول أن ينتزع من التربة شجرة بلوط ضخمة وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة ليقنلها من جذورها ، فانقضّ عليه پيرثوس من الخلف وأنفذ في ظهره حربه فمزقت ضلوعه وألصقت صدره بجذع الشجرة ، وصرع پيرثوس كلاً من ليكوس وكروميس ، ثم حقق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ غصناً في رأس هيلويس مخترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى ،

ومضى يطارد ديككتيس الذى فرّ مذعوراً حتى سقط فى هوة سحيقة تحطمت ضلوعه على أسنان صخورها المديبة .

٣٤٠ وقد حاول أفاريوس - وكان على قرب - الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوى بها على خصمه ، غير أن ثيسوس عاجله بضربة من غصن شجرة بلوط حطمت ذراعيه ، ولم يُشغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه ، فلقد غدا عاجزاً ، وأسرع يقفز على القنطور بينور ثم غرس ركبته فى ضلوعه وجذب شعر معرفته الغزيرة إلى الخلف بيده اليسرى ، بينما هشم باليمنى عظام وجهه بهراوته ذات الأُتُن [ العُقَد ] . ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها نيديمينوس وليكوتاس الماهر فى تسديد الرماح ، وهيباسوس ذا اللحية المرسلة على صدره ، وريفوس الذى يفوق الأشجار طولاً ، وثيريوس صائد الدببة على سفوح جبال ثيساليا الذى كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة لافتراسه إياها .



بيكاسو : اعتداء القنطورى على اللايث

٣٦٠ وضاق ديموليون بانتصار ثيسوس فحاول انتزاع شجرة صنوبر ضخمة لم تستسلم له فجزّ أحد فروعها ورمى به ثيسوس الذى ألهمته الربة باللاس أن يتفاداه - أو لعل هذا ما يريدنا ثيسوس أن نصدّقه - فانطلق الفرع إلى كراتور الفاره الطول ففصل عنقه عن صدره وكشفه اليسرى ، وكان كراتور هو حامل عُدّة أبيك الحربية يا أخيل يوم قدّمها أمتور كبير شعب الدولويس ضهاناً للسلم بعد هزيمته على يد أبيك . وإذ شاهد أبوك بيليوس مشهد كراتور بجرحه الرهيب الذى شطره إلى نصفين صاح « لسوف أنتقم لك

يا كراتنور ، يا أعز جنودى إلى « ، وسدد بيده التى زادها الغضب قوة حربة ذات ساق من خشب الدردار إلى القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت فى عظامه وهو يضطرب من قوة اندفاعها . ونجح القنطور فى انتزاع مقبض الحربة الخشبي دون أن يُخرج نصلها الحديدى المستقر فى رثيته ، ومع ذلك تحرك القنطور وقد عاودته قوة جديدة وأخذ يثأر بيليوس بحوافره ، وبيليوس يتلقى الطعنات بخوذته وترسه يحمى بهما جسده ، إلى أن استطاع أن يُنفذ خنجره فى صدر القنطور . وكان بيليوس قد صوب قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينووس وكلائيس ، ثم ألحق بهما دوريلاس الذى كان يعتمر بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه ، ويمسك بقرنى ثور مقوسين جعل منها حربته القاتلة التى كم تلطخت قبل بالدماء ، وقلتُ له ساعتها وقد ملأنى الغضب قوة : « انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك لحربتي » . ولم ألبث أن سدّدت ضربة إلى جبهته لم يستطع تفاديا فرفع يده يحمى بها جبينه ، فنفذت الحربة مخترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة مدوية ، وخلفه جرحه القاسى عاجزاً عن الحركة . وكان بيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه طعنة مزّقت بطنه ، فقفز القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد .

ووسط المذبحة الدائرة لم يشفع للقنطور كيلاروس جماله بلحيته الذهبية التى كادت أن تبرز وشعره الذهبى المنسدل على الكتفين حتى منتصف خصريه . ولم يكن نصفه الأسفل الذى على شكل الفرس والسليم من العيوب أقل جمالاً من نصفه العلوى ، ولو كان فرساً كامل التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور وفخر الفرسان ، إذ كان ظهره خليقاً بأن يعلوه أقدر الفرسان كما كان صدره مفقود العضلات . وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو فى قسما وجهه وفى عنقه وكتفيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسانى جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التى يُثير بها الناس ويعجبون . وكان جُله أشد سواداً من حلقة الليل ، بينما كانت قوائمه وذيله فى بياض الثلج . ومع تراحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يمل إلا لأجلهن وهى هيلونوميه التى ملكت أن تسلبه لبه بحنانها ورقتها وبحبها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها ، فكانت تصفّف شعرها بالمشط ، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحصى البان تارة أخرى ، وأحياناً بتيجان تبيثها من الزنبق الأبيض . وكانت تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفقة من غابات باجاساى ومرتين تغطس بجسدها فى مياهه ، وتغضى كتفها بأفخر فراء الحيوانات البرية التى تتنقيها . وقد هام بها كيلاروس كما هامت به ، وكانا يتجولان معاً فى الجبال ، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما . وكانا قد ذهبا معاً إلى قصر ملك اللايث ، وإذا هما يشاركان فى تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان ، وفجأة انطلقت حربة من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى نفذت فى ملتقى صدر كيلاروس بعنقه ، ومع أن الجرح الذى أصاب القلب كان هيناً إلا أن جسد القنطور كان قد فقد الاحساس وغشيتة برودة الموت بعدما انتزع السهم منه . وأسرعت هيلونوميه باحتضان حبيبها المحتضر ، ووضعت يدها على الجرح محاولة كبته ، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس لتمنع روحه من أن تفارق جسده ، ولكنها ما إن رآته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوية ونذّت عنها كلمات حالت صرخات المحاريين بينها وبين سماعيها ، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذى به مات زوجها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها .

وما تزال تتمثل أمام عيني حتى اليوم صورة فايوكوميس الذي كان قد دثر جسده الحصاني وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض ، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يشق على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها ، وألقى بها على تيكثافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاه إلى أسفله ، وتهشمت جمجمته العريضة وانسابت عصارة مخه خيوطاً من فمه ومنخرية وعينية وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة ، أو كما يقطر العصير من ثقب معصرة ثقيل ضاغطها ، غير أنى تقدمت لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المتهالكة وغرست سيفي في فخذ ذلك العدو الظافر - وأبوك شاهد على صحة ما أقول - وكذلك هوى خثونيوس وتيلييوس تحت ضربات سيفي ، رغم أن أولهما كان مسلّحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّين ، وثانيهما بحربة استطاع أن يصيبني بها ، وها أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثلاً في هذه الندبة القديمة التي ما تزال واضحة للعيان . ولقد كان الأجدر في تلك الأيام الخوالي أن يوفدوني في حملة لغزو برجامون<sup>(٨)</sup> [ طروادة ] ، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحت بأسلحتي في وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه ، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد ، أو لعله كان ما يزال طفلاً . أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواي .

٤٤٠

بماذا أحدثك ؟ أقص عليك كيف تغلب بيريفاس على القنطور پيرايثوس ؟ أو كيف دفع أمبيكس حربته المنحوتة من خشب القرانيا رغم فقدائها لطرفها المسنون في وجه إيكيتلوس المنتصب على أربعة قوائم ؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدوبوس من پيليثرون بغرس وتد في صدره ؟ وما زلت أذكر كيف رمى نيسوس حربة صيد استقرت في ملتقى فخذى سيميلوس ، ولا تحسب أن موبسوس بن أمبيكس لم يكن سوى عرّاف فقط ، فإن حربته هي التي أردت القنطور هوديتيس الذي حاول عبثاً النطق وهو ملقى على ظهره ، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة في فمه .

وخلال ذلك كان كاينوس قد أتى على خمسة من الأعداء هم : ستيفيلوس وبروموس وأنتيماخوس وإليموس وپيراكتيس المسلح بالبلطة ، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أنى أذكر أسماءهم وعددهم . ثم انطلق لاتريوس الفارع الجسد القوى الأطراف مسلّحاً بما غنمه من هاليسوس المقدوني إثر قتله ، وكان يعيش في زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة ، يتدفّق فيه ريعان شاب وإن وخط الشيب فوديه ، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية ، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راكضاً مرات عدّة في دائرة محددة ، ثم تحدّث قائلاً في خيلاء : « حتى أنت يا كاينيس ، كيف لي أن أصبر على وقاحتك ؟ أنت كما عهدتك لا تزال امرأة وستظل كذلك في نظري ، فهل أنسيت الهيئة التي وُلدت عليها ، أم أنسيت الفعلة التي أتيتها والشمّن الذي دفعته كي تستحيل رجلاً زائفاً ؟ أذكر الهيئة التي وُلدت عليها ثم ابحت عن سلّة من خيوط الصوف واجدها بإبهامك ، واترك شئون الحرب للرجال » . وحين استمع كاينوس إلى هذا الحديث المهين شهر حربته وهوى بها على القنطور حيث مَوَّصل نصفه البشري مع نصفه الحصاني ، فشقّ جذعه وهو يشرب عالياً متاهباً للانقضاض عليه . وجنّ لاتريوس تحت وطأة الألم وضرب بحربته هذا

٤٦٠

الوجه العارى لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس ، غير أن الحرية ارتدت ثانية كما ترتد حبات البرد من على السطح الذى تسقط عليه ، أو كما ترتد الحصاة عن سطح طبل أجوف . ثم دنا من كايينوس محاولاً ٤٨٠ غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه . ولكن لانيوس صاح : « على الرغم من هذا فلن تُقِلت منى وسأقتلك بنصل سيفى وإن ثلُمَ سنه » ، وشرع سيفه ليهوى به على فخذى كايينوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة ، وإذا السيف يرسل رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام ويتحطم وتتناثر أجزاؤه على الجلد الصلب . وبعد أن تعرّض كايينوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن يُصاب بأذى صاح فيه قائلاً : « والآن لنر ماذا سيكون أثر سيفى فى جسدك ؟ » وما لبث أن غرس سيفه الفتاك فى فخذى القنطورى حتى مقبضه وأخذ يديره ويحركه فى أحشائه وهو يُحدث فيه جرحاً بعد جرح ، فاستشاطت جماعة القنطورى غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كايينوس يطعنونه بأسلحتهم غير أنها كانت تسقط من أيديهم مثلومة الأطراف . وبقي كايينوس بن إيلاتوس سليماً لم يصب بخدش ، فبهت مهاجموه لهذا الأمر الغريب ، وصاح مونيوكوس قائلاً : « يا للعار ، أينهم شعب بأسره أمام رجل وحده ، بل هو أقرب أن يكون رجلاً ، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجل حقاً . ولقد غدونا نحن بجُبننا دواب على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً . فما نفع أطرافنا القوية وقوتنا المزدوجة ؟ ولم إذن ٥٠٠ جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات ؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء إيكسيون الذى ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضى جونو المتعالية مادماً نسطه هكذا ضحايا عدو لا يعدو أن يكون نصف رجل . دُحِرْجُوا فوق جسده الصخور والأشجار والجبال ، وغطوه بالغابات حتى تحمد روحه المتشبثة بالحياة ، ولتدق الأشجار عنقه ، ثم ليقتض عليه ثقلها كما تقتضى عليه الجروح » . وأمسك وهو يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريح جنوبية عاتية وقذف بها خصمه الباسل ، وتبعه آخرون فى اقتلاع الأشجار ، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل پيليون ظلال غاباته ، ودُفن كايينوس تحت ثقل كومة هائلة من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكتفيه القويتين ، غير أن تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطى رأسه أخذ أنفاسه فإذا قواه تخور ، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة ٥٢٠ الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك ، وكأنما نزل زلزال رهيب أخذ يهزّ جبل إيدا العظيم . ولا نعرف حقاً ماذا حدث بعد ذلك ، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم تارتاروس . غير أن مويسوس بن أمييكس نفى هذه القصة ، وقال إنه رأى طائراً بجناحين أسمرين يُقِلت من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء ، وقد رأيت أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذى لم أر له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، وحين رآه مويسوس يحلّق تحليفاً لا عُسر فيه فوق معسكره ويصرخ صرخات عالية جعل يلاحقه بعينيه وفكره فى طيرانه ، وصاح فيه قائلاً : « سلاماً لك يا كايينوس يا فخر جنس اللايث ، يا من كنت يوماً بطلاً صنديداً ، وصرت الآن طائراً فريداً » . ولما نعرفه من هيئة مويسوس صدّقنا ما قال ، وضاعف الحزن غضبنا المحتدم لأن عدداً كبيراً من الأعداء قد احتشدوا على رجل واحد وظفروا به ولوّحنا بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا ، ولم نتلبث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا ، وأقلت الباقون فراراً مخنفين فى ظلمة الليل .

## پيريكليمينوس

واستشاط تليوليوموس غضباً لأن ملك فيلوس قد روى معارك اللايث مع القنطوري أنصاف البشر  
 ٥٤٠ دون أن يتحدث عن هرقل فصاح قائلاً : « عجباً سيدى ، أفضت وأنسيت ما أبداه هرقل من ضروب  
 البسالة ، مع ثقى فى أن أبى قد قال أكثر من مرة أنه هو الذى هزم تلك المخلوقات وليدة السحب  
 السماوية » . فأجابه نسطور بنبرة حزينة قائلاً : « لم تضطرنى إلى أن استعيد أحداثاً تثير الأسى ؟ ولم تدفعنى  
 لأنكأ جراحاً التامت مع الزمن ، وأتحدث عن أهلك مع كراهيتى إياه بعدما لحق بى الكثير من الأضرار  
 بسببه . حقاً إنه أتى من الأمور — كما تعرف الآلهة — ما يفوق التصور ، وملاً الدنيا بمغامراته [ وليس من  
 شأنى أن أنكر هذا ] ولكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه<sup>(٩)</sup> ، فمن هذا الذى  
 يمتدح أعداءه ؟ نعم لقد هدم أبوك مرة جدران ميسينيه ومرة أخرى دمر مدينتى إليس وفيلوس اللتين لم تحجيا  
 جناية ما ، كذلك أحرق بيتى بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على من فيه بحد سيفه ، ولن أذكر شيئاً عن  
 قتلاه العديدين ، وحسبى أبناء نيلوس الاثنى عشر ، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء نيلوس ،  
 لكنه بطش بهم جميعاً سوى ، ولو أننا سلمنا بهزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجيباً ،  
 ذلك أن نبتون مؤسس سبط نيلوس قد رزق ذلك الصبى بقدرة يقوى بها على أن يبدو فى أية هيئة يشاؤها  
 وأن يخرج عنها حين يريد . ولقد تبدل فى الهيئات كلها حذراً من هرقل ، غير أن ذلك كله لم يجده نفعاً .  
 ٥٦٠ فقد جعل نفسه الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذى يحمل بمخالبه المحذبة صواعقه ، وأخذ ينهش وجه هرقل  
 بمنقاره المعقوف ويخبطه بجناحيه ومخالبه ، فتصدى البطل التيرنى له بأن شد قوسه إلى صدره وأطلق سهمه  
 الذى لا يخطئ أبداً ، فنفذ فيه وهوبين السحب عند منبت جناحه . ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن  
 العضلات الممزقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران ، ولم يقو جناحاه  
 المتهاويان على التحكم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذى كان عالقاً بجناحه ،  
 فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر . أو تظن أن من واجبى بعد ذلك أن أثنى على هرقل أيها  
 الربان الوسيم لأسطول رودس ؟ ومع ذلك فكل ما أثار به لأخوتى أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة ، لأن  
 الصداقة التى تربط بينك وبينى وثيقة » .

وبهذه الكلمات التى جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة اختتم قصته ، ودارت كثوس النبذ ثانية ،  
 ونهض الجالسون عن المائدة ليأووا إلى مضاجعهم ما بقى الليل .

## موت أخيل

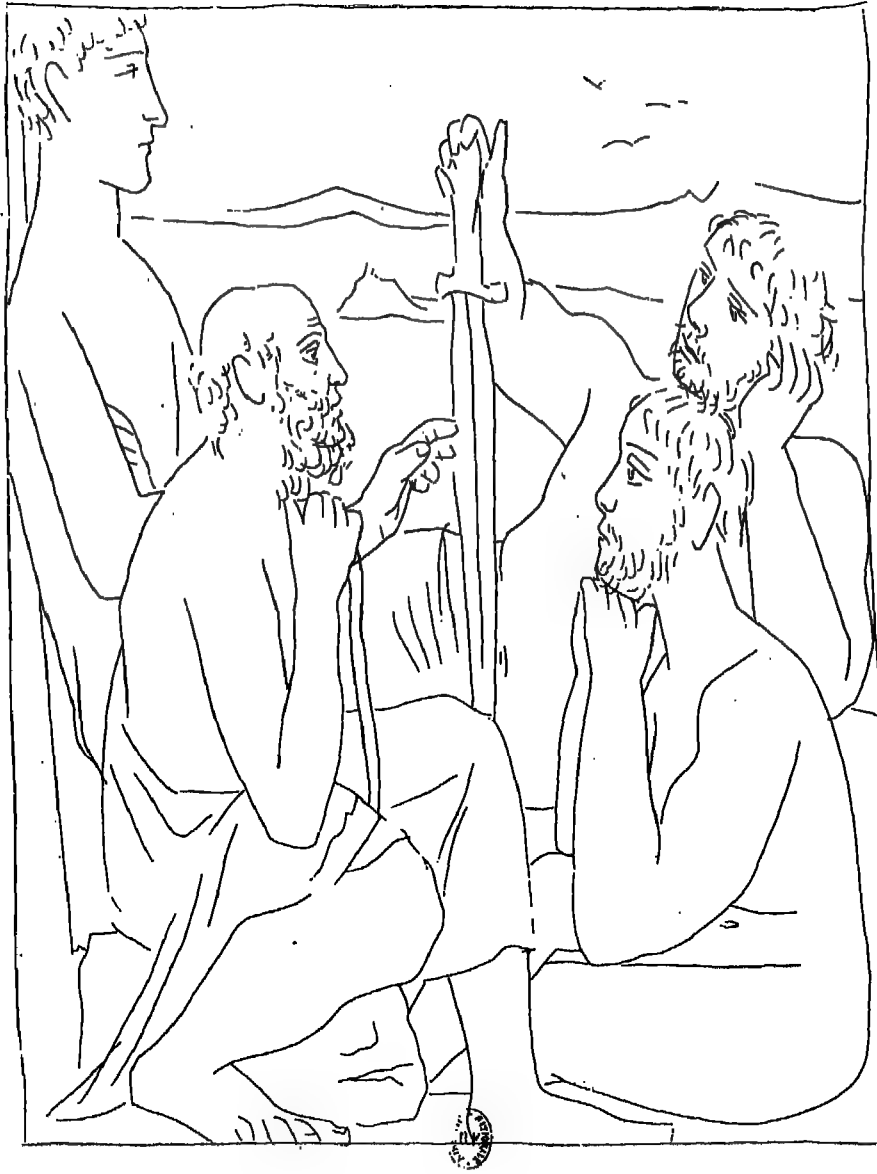
استبد الحزن بالإله نبتون الذى يسيطر سلطانه على أمواج المحيط بصولجانه الثلاثى الشعب لمصرع  
 ابنه سيجنوس الذى مُسخ بجعة من بجعات فايتون ، فأخذ يستنزل اللعنات على أخيل القاسى القلب

ويغلي غضباً على خصمه . وأخيراً ، وعندما طال الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرين أخذ في ٥٨٠ الحديث مع أبوللو المسترسل الشعر قائلاً « يا أعزّ أبناء أخى عندى ، يا من شاركتنى في بناء أسوار طروادة دون أن تجنى من ورائها نفعاً ؟ ألم يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيدة تُشرف على الزوال ؟ ألم يحزنك مصرع الآلاف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها ؟ ألم يترأى لعينك طيف هكتور - من بين القتلى - وجثته تُجرّ على الثرى مرّة بعد مرّة حول پرغامون مدينته الحبيبة ، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة ، هذا البطل الممجى الوحشى الذى هدم ما شيدناه ويسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب ، فليأت إلى ولسوف يرى ما سننزل به حربى ذات الشعب الثلاثة ! ولكن طالما أنى لا أجد فرصة لملاقاته وجهاً لوجه فلتبشش أنت به بسهم خفى من سهامك لا يُدرى من أين أتى » .

ووافق أبوللو إله جزيرة ديولوس مستملياً من كراهته لأخيل التى لم تكن تقل عن كراهية عمه له ، فطوته سحابة ثم هبط منها في صفوف الطرواديين . ولمح وسط المعمة باريس وهو يصوب سهمه إلى محاريب يونانيين لا شأن لهما فكشف عن نفسه لباريس وقال له : « لم تبدد سهامك في سفك دماء العامة ؟ ٦٠٠ إذا كنت تُعزّ أقاربك فلتدبر وجهك نحو حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقائك الصرعى ! » وأشار أبوللو إلى أخيل وهو يُحدث باريس وكان أخيل ساعتهما يحصد بسيفه أعناق محاريب طروادة ، ثم أدار أبوللو قوس باريس ناحية البطل اليونانى ، ووجه بيده الباطشة سهماً أصاب في التّو هدفه ، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها پريام منذ مصرع ولده هكتور . وهكذا لقي أخيل قاهر الأبطال ذائع الصيت هزيمته على يدي جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها . لعمري لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً في حومة الوغى على يد أنثى<sup>(١١)</sup> لاثرت الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون<sup>(١٢)</sup> . ها هو ذا البطل الذى كان يثير الفزع بين الطرواديين يغدو طُعماً للنيران وهو من كان فخر اليونانيين وزعيمهم المظفر في ساحات القتال . وأشرف على حرق جثته في المحرقة الإله الذى كان قد صنع له سلاحه ليخوض به الحرب<sup>(١٣)</sup> واستحال أخيل العظيم رماداً ، ولم يبق منه غير تلك الحفنة التى لا تكاد تملأ وعاء صغيراً ، غير أن أمجاده عاشت من بعده حيّة في أسباع العالم ، فكانت شهرة ابن پيليوس ليست دون عظمته وكان بهما جديراً ، كما أنه بعد أن ترك الحياة لم يعبأ بوحشة تارتاروس . وكم أثار تُرسه ٦٢٠ المارك بعد موته واحتدم الصراع من أجل الظفر به ، كما أثار سلاحه العراك للظفر به . على أنه لم يجرؤ على المطالبة بتُرسه ابن تيديوس ولا أچاكس بن أويليوس ، ولا أصغر أبناء أتريوس ، [ أچامنون ] ، ولا أخوه المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً [ منيلاوس ] . ولم يثق أحدٌ بجدارته لطلب هذا المجد سوى أچاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس . وعرف أچامنون سليل تانتالوس كيف يتخلّص من مهمة قد تجرّ عليه الأحقاد ، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر وجعلهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسين .

# التعقيبات

- (١) شجر الذّلب .
- (٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريبيديس : « إيفيجينيا في أوليس » .
- (٣) تنبأ عرّاف يوناني بهلاك أول يوناني يهبط على شاطئ طروادة فقدّم پروتيسيلاوس نفسه قرباناً لتلك النبوءة وسقط بسهام هكتور . وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسبون ، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذي يسجل اسمه قد اكتشف مؤخراً في حفائر طروادة .
- (٤) انظر الكتاب الحادي عشر .
- (٥) ليس المقصود هنا الدرع الذي أعده هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذي وصفه هوميروس في الكتاب الثامن عشر من الإلياذة ، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأجاكس [ انظر مستهل الكتاب الثالث عشر ] .
- (٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق في حصار طروادة ، وكانت ليريسوس مدينة في مملكة ميزيا بأسيا الصغرى ، وتينيدوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطئ الطروادي ، وأطلق أوفيد على ثيبه اسم طيبه ، وهي مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس في ميزيا ، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماخي الذي قتله أخيل مع أبنائه ، أما الكاياكوس فهو اسم نهر في ميزيا .
- (٧) كان لنسطور أحد عشر أخاً قتلهم هرقل مع أبيهم ، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أبوللو الحق في أن يحيا مجموع عدد السنين التي كان مقدراً أن يحياها إخوته لو استكملوا عمرهم . لذلك يقال إنه عاش ثلاثمائة سنة .
- (٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق ، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه ، فيز هو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها في تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء .
- (٩) ديفوبوس هو شقيق هكتور ، وپوليداماس هو ابن پانثوس وكلاهما مذكوران في الإلياذة . وقد اتخذت الإلهة أثينا شكل ديفوبوس لتطمئن هكتور الذي كان يطارده أخيل ولتعيده إلى المعركة حيث كان مقدراً له أن يموت . أما پوليداماس فهو الذي نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه .
- (١٠) يشبّه أوفيد هنا باريس بامرأة احتقاراً لشأنه .
- (١١) الثيرمودون نهر صغير يصب في البحر الأسود ويسرى خلال بلاد الأمازونات في پونتوس على شاطئ البحر الأسود ، وكانت مليكتهن پنثيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت في المعركة بأخيل الذي قضى عليها .
- (١٢) فولكانوس أو هيفايستوس هو إله النار والحداة ، وهو الذي صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعده للقتال كما أحرقه فيما بعد بلهبه فوق محرقة الموتى .



پیکاسو: اچاکس يطالب بأسلحة أخيل

## الكتاب الثالث عشر أچاکس يطالب بأسلحة أخيل

جلس القادة وسط جماهير الجنود الذين اصطفوا وقفاً ، ونهض أچاکس صاحب الترس المصنوع من  
جلود ثيران سبعة وأخذ يخطب فيهم مُرغياً مُزبدآ وعيناه عالقتان بشواطئ سيڭيا وبالسفن الراسية

عندها ، ولَوَّحَ بقبضة يده وهو يصيح : ها أنذا أمام سفن الأسطول يا جوبيتر أدافع عن قضيتي أمام من جرموا على أن يسوّوا بيني وبين أوديسيوس ! هذا الذي فرّ هارباً من نيران هكتور<sup>(١)</sup> بينما اقتحمتها أنا لأدفعها بعيداً عن سفننا ، والذي يؤثر المقارعة بالحجّة على المجاهدة بالسيف ، ففصاحته في الخطابة تعدل بأسى في القتال وإنى لراغب عن منازلته بالكلام على قدر ما هوراعب في تجنّب منازلتي بالذراع . على أن ما أنجزته من أعمال ليس في حاجة إلى أن تفصح عنه كلمات فقد شهدتموها أيها اليونانيون ، وما أعوز أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التي لم تشهدها سوى ظُلْمة الليل . وإن الجائزة التي أطمع فيها لعظيمة ، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يُفقدّها كل قيمة ، ولن يباهى أچاكس بجائزة مهما عَظُم شأنها إذا ما تطلّع إليها أوديسيوس . وها هو ذا الآن يظفر بمجد كبير ، لأنه بعد هزمته أمامي سيغدو من المشهورين ، إذ قد جعل نفسه ندّاً لى .

وإذا كان ثمة شك في شجاعتي فإن لى إلى جانب ذلك سنداً قوياً هو نُبلُ تَحْتدى ، فأنا ابن تيلامون الذى اقتحم أسوار طروادة في رفقة هرقل الشجاع ، كما أفلح في سفينة الأرجو التي بُنيت في پاچاساى حتى بلغ شواطئ كوخيس ، ثم إن جَدّى هو إياكوس الذى يفصل بعدالته بين الموق الهامدين في المملكة التي يتعذب فيها سيزيفوس بن أيولوس مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف جوبيتر كبير الآلهة بأبوتّه لإياكوس وهو ما يجعلنى من الرعيل الثالث لأحفاد جوبيتر . وما كان لى أن أزجّ بهذا النسب في قضيتي هذه لولا أنه نسب أخيل العظيم ، فلقد كان أخى وابن عمى ، ولهذا فإننى أطلب بميراثه . وأما أنت يا أوديسيوس يا من تشبه جدّك سيزيفوس في الغش والخداع فكيف تستطيع إقحام اسمك في أسرة إياكوس وأنت غريب عنها ؟ . أو ترفضون أنتم منحنى هذه الأسلحة وقد سبقته إلى ميدان الوغى دون أن يستحقنى أحد ؟ أو تفضّلون آخر من حمل السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدّعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التي فضحت جُبْنه إنساناً أشدّ دهاءً منه . لقد كان پالاميديس بن ناوپيليوس هو الذى حمل أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ من الحرب : أيقنّ له أن يحمل تلك الأسلحة العظيمة بعد أن كان يعزف عن حمل السلاح ؟<sup>(٢)</sup> وهل أحرّم أنا من إرث قريبي لإقدامى على المخاطرة منذ البداية ؟ ليته كان مجنوناً حقاً أو ليته بقى كذلك بين الناس ! وليتنا لم ننسّق إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريجية ! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن پوياس في ليمنوس حيث يقال إنه يأوى إلى أحد كهوف الغابات محرّكاً أشجان الصخور ببكائه وضراعه للآلهة أن تُنزل بابه لاييرتيس [ أوديسيوس ] ما يستحق من جزاء<sup>(٣)</sup> ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلا بد أن يُستجاب لهذا الدعاء .

إن هذا المسكين المنكود الحظ الذى خرج معنا مقسماً بين الولاء لقضيتنا وهو من قادة اليونان وورث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من ثياب غير ريش الطير ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن يرميها بسهامه ، تلك السهام التي كان عليه أن يقضى بها على طروادة . ومع ذلك فهو ما يزال حياً لأنه لم يصاحب أوديسيوس في سفينته . كذلك كان پالاميديس التعسّ يتمنى لو خلفناه هو الآخر في ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يُرمى بتهمّة ظالمة ، ذلك أن خصمى يذكر جيداً أن پالاميديس

قد مرَّغ اسمه في الوحل حين كشف عن ادعائه الجنون ، ولم يغفرها له أوديسيوس فأنهم زوراً بخيانة الإغريق ودلّ على هذه التهمة بتقديم سبائك ذهب كان قد خبأها في مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع أوديسيوس أن يوهن من قوة الأخيين بنفى البعض وقتل البعض الآخر ، وكان هذا أسلوب أوديسيوس في الحرب ، وبهذا الأسلوب نفسه كان يرّوع من حوله .

ومع أنه يملك من البلاغة ما يبيّز به نسطور الوفي فإنه لن يستطيع إقناعي بأنه لم يرتكب خطأ حين هجر نسطور العجوز الذي أرهقه الإعياء وكان جواده جريحاً فتوسل إليه أن يساعده فلم يستجب لرجاء من كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أنني لا أختلق هذه الاتهامات ، فقد نادى على أوديسيوس باسمه مرات عدّة ونعى عليه ذعره وهربه ، غير أن الآلهة ترعى أمور البشر من عليائها بالعدل ، فما هو ذا من رفض مساعدة نسطور تُعَوِّزُه هو نفسه المساعدة ، وكما تخلى عن غيره كان طبيعياً أن يتخلى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصيح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعَت إليه فرأيته شاحب الوجه يُرعد فرعاً وذعرأ من الموت الذي يتهدّده ، فحميته بترسي وهو جاث على الأرض وأنقذت حياة هذا الجبان ، وإن كان هذا في نظري أمراً تافهاً لا أحفل أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصرّاً على منافستي في الاستحواذ على هذه الأسلحة فلتعد معي إلى حيث أنقذتك من يد الأعداء ، لتعد بجرحك وصراخك المدوّى وهاك ترسي لتختبئ خلفه وحاول وأنت في حمايته أن تبارزني . إنني لم أكّد أيها السادة أنتزع هذا المحارب مما يحيق به من خطر — وكان جرحه قد أوهن قواه فلم يعد يقوى على الوقوف — حتى أخذ يجري هارباً بعوني كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العدو . وتقدم هكتور إلى المعركة في صحبة آلهته ، وكان ييث الرعب حيث مضى لا في قلبك وحدك يا أوديسيوس بل في قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشد الهول الذي يصاحبه في خطوه ، وقد استطعت أنا في اللحظة التي كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قذفته من بُعد بكتلة ثقيلة من الصخر ، حتى إذا تقدم يطلب النزال انبريت له وكنت الوحيد الذي جرؤ على ذلك . وقد تضرّعتم للآلهة أيها الأخيون أن يقضى الاقتراع باختيارى لمنازلته واستجابت الآلهة لضراعتكم ، أتريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المبارزة ؟ إن هكتور دون ريب لم يتغلب عليّ . وأين كان أوديسيوس حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران في حماية چويرتر ؟ لقد وقفت أحمى بصدرى سفنكم الألف التي كانت محط آمالكم في العودة إلى الوطن . من أجل هذه السفن العديدة ، أعطوني إذن هذه الأسلحة .

٨٠ وإذا سمحتم لي أن أقول الحق كله فإن أسلحة أخيل تترقب النصر على يديّ أكثر مما أترقبه أنا منها فمجدها متصل بمجدي اتصالاً وثيقاً ، وإن السلاح هو الذي يُهبب بأچاكس ، وليس أچاكس هو الذي يُهبب بالسلاح ، وليُقْبَلْ أمير إيثاكا الذي لا يزن شيئاً [ أوديسيوس ] وليقارن بين ما أنجزت وما أنجز ، وليحدّثنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الخانع وعن أسره لهيلينوس بن پريام ، وسرقته « للبالاديوم » ذلك التمثال المقدس في معبد پاللاس . إنه لم ينجز شيئاً قط في وُضْع النهار ، ولم يقدم على عمل دون عون ديوميديس ، فإذا ارتأيتُم أن تكون هذه الأسلحة ثمناً لمثل هذه التفاهات فاجعلوها بينهما وليكن لزميله

ديوميديس أكبر النصيين . ولكن ما جدوى منح هذه الأسلحة لابن إيثاكا الذي لا يتحرك إلا في الظلام ولا يصل إلا بالخدعة إلى عدو قليل الحيلة . وإن برىق خوذته الذهبية هو الذى سيكشف حركته وهو مختبئ في الظلام ، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها ، كما لن تستطيع ساعده المنهكتان حمل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون ، وستثقل الترس المنقوشة عليها صورة الكون بأسره على يده اليسرى المتخاذلة التى لا تحذق إلا السرقة والخطف . كيف تطمع في عطاء لن يزيدك إلا ضعفاً ؟ وما أشد فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة ، فما أيسر عليه أن يسلبك إياها لا أن يهاها وهى في حوزتك ! قد يكون الفرار هو ميزتك الوحيدة يا أجبن الجبناء ، لكن سرعتك سوف تهنّ إذا حملت مثل هذه الأسلحة الثقيلة . ولتنظر إلى ترسك الذى لم يُختبر في القتال إلا لما وما يبدو وكأنه لم يُمسّ ، بينما يحمل ترسى ألف أثر من ضربات السيوف التى تعرّض لها وما أحوجه إلى أن يستبدل به غيره . ثم ما أجدرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال ، فلتلقوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء ، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق من يعود بها .

١٢٠

وأخلد ابن تيلامون إلى الصمت وسرت ثمنات التقريظ بين الجميع حتى نهض ابن لايرتيس [ أوديسيوس ] واقفاً ، فأرخى بصره قليلاً ثم رفع رأسه وجال ببصره بين قادة الجيوش ، وانفرجت شفاه استعداداً لأن يخطب ثم بدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير وقال : « أيها الإغريق . لو كانت الأقدار قد رعت آمالنا جميعاً لكنا الآن في غنى عن الخوض في أمر هذا الإرث ، ولبقيت يا أخيل بيننا حياً حاملاً أسلحتك ولكنّا أكثر سعادة بوجودك بيننا . ولكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يَبقى بطلنا بيننا [ وهنا تظاهر بمسح دَمعة جرت من عينيه ] فمن أحق بخلافة أخيل سوى من نصّبه قائداً لجيوش الإغريق ؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألا يستميلكم خصمى إليه ، وهو كما يبدو فظ القلب غليظه [ وهذه حقيقة لا مرأ فيها ] ، كما أرجو ألا يستثيركم أحد علىّ لذكائى الذى لم أستخلمه قط إلا لنفعمكم أنتم . فلا تدعوا بلاغى - إذا صحّ وصف حديثى بالبلاغة - تنقلب سبباً لبغضكم لئلاى ، فلسانى الفصيح يدافع الآن عن صاحبه الذى طالما دافع عنكم ، أو ليس من حق كل امرئ أن يستغل الملكة التى وهبها ؟

١٤٠

إن نبل أنسابنا ومآثر أجدادنا وهى ليست من صنع أيدينا لا تنهض مسوَّغاً لتمييزنا عن غيرنا ، ولكن مادام أچاكس قد أثار اتصال نسبه بچويتر فإننى أستطيع أيضاً الزهو بأن چويتر كان مؤسس أسرى ، فأنا أنتسب إليه في الدرجة التى ينتسب بها أچاكس إليه . وإن أبى لايرتيس هو ابن أركسيوس بن چويتر ، هذا إلى أنه ليس بين أسرى من أدين ونُفى خارج وطنه<sup>(٤)</sup> ، كما أن نبل نسبى يتجلّى أيضاً في قرابتي لميركوريوس عن طريق أمى . وهكذا ينتمى كل من والدتى بجذ من أجدادها إلى إله . ومع ذلك فلست أطلب بهذه الأسلحة التى أمامكم لأننى من سلالة أكثر نبلاً من سلالة أچاكس لو قدرنا في الحسبان نسب أسرة والدتى ، هذا إذا أضفنا أن أبى لم يسبق له أن سفك دم أخ له<sup>(٥)</sup> . وإنى أطلب بأن تزونا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف على ألاّ تُضفوا على أچاكس ميزة ما لا لشيء سوى أن تيلامون هو شقيق پيليوس . ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلا لمن كان ذا شجاعة وجراة دون التفات إلى مجد الأسلاف . ولئن كنتم تبحثون عن

أقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم بيليوس والد أخيل أو ابنه بيروس . وإذن فما هو حق أجاكس في الإرث ؟ بل لتحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل في قُيًّا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة في سكيروس ! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أجاكس<sup>(٦)</sup> ، ومع ذلك فهل رأيتموه يطلب بنصيبه ؟ ولو طالب به لنفسه فهل كان له أن يُعطاه ؟

١٦٠ وإذا كان الأمر منافسة بالمآثر وحدها ، ففي استطاعتي أن أقول إنني أنجزت أكثر مما أستطيع عده . ولو سردتها عليكم على تتبعها التاريخي لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها .

كانت أم أخيل — وهي إحدى حوريات النيريايس — قد تنبأت بالميتة التي تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بهذا الجميع ومن بينهم أجاكس المائل أمامكم ، ورحت أنا أعرض على أخيل سلماً من تلك التي تستهوى النساء بعد أن دسست بينها بعض الأسلحة التي تثير فضول الرجال الشجعان . وما كاد يراها البطل حتى أطرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرمح في يد والترس في يد ، فقلت له « إن طروادة المشثومة ترقب دخولك يا ابن الإلهة فلم تتردد في أن تقهر هذه المدينة المنيعه ؟ » ، وأخذت بيده لأدفع به نحو مستقبل زاخر بالمغامرات ، وأنا لهذا أعدت مآثره مآثرى أنا . ومن ثم فانا الذي انتصرت على تيليفوس الصُلب ، وأنا الذي عاجلت جروحه استجابة لضراعه بعد أن أنفذت فيه رخي ، وإن فتح طيبة ليعود إلى وحدي . ولا يفوتكم أن تذكروا لي فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيوس وسيللا مدن أهوللو ، وسكيروس أيضاً ، واذكروا أن يميناي هي التي هُدمت أسوار ليرنيسوس ، ولا داعي أن أذكركم بأسماء كل من قهرهم أخيل . وفي الحق إنني أنا الذي قُدمت لكم مقاتلاً استطاع أن يقهر هكتور الجبار ، فلي أنا الفضل في أن جثة هكتور الشهير ملقاة أمام عيونكم ، ولست أريد ثمناً لهذا إلا الأسلحة التي كانت بها بطولته . إنني أنا الذي أعطيته إياها يوم أن كان حياً ، وقد آن لي أن أستردها بعد أن قضى نجه .

١٨٠ ويوم أصبحت فجيرة منيلاوس هي فجيرة الداناوين<sup>(٧)</sup> [ الأخين أو الإغريق ] جميعاً خرجت إلى المرفأ ألف سفينة تقصد قصد أوليس المواجهة لجزيرة يوبويا وبقيت طويلاً تنتظر الرياح التي تدفعها إلى الأمام بعد أن ظلت تتعرض للرياح التي تردّها للمرفأ ، وهتف العراف بأمر أقسى ما يكون حين أنبأ بأن الآلهة قضت بأن يضحي أجامنون بابنته البريئة قرباناً للإلهة العطشى ، فأبى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكنت مشاعر الأبوة من قلبه ، وكنت أنا الذي أقنعت ذلك الأب الحاني بإيثار مصلحة الأمة على عواطفه<sup>(٨)</sup> ، ولقد كانت محنة شاقة . وليغفر لي ابن أتريوس أنني نجحت في إقناعه وهو الوالد المفجوع ، فغلّبت مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسئولية الخطيرة التي يحملها على مشاعره قبل أن يدفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه . وقد بعثوا بي كذلك إلى أم الضحية كي أقنعها ، وكان إقناعها أمراً عصياً فلجأت إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها لي ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أجاكس لكانت شرعنا ما تزال مُستكنة في المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية .

وقد أوفدوني كذلك سفيراً إلى قائد القلعة الطروادية فذهبت ومثلت بين يدي مجلس شيوخ طروادة المهيب ، وكان جميع أعضائه شهوداً وما اعتراني خوف بل دافعت عن القضية التي عهد بها الإغريق إلى ،

وألقيت التبعة على باريس وطالبت بإعادة هيلينا والغنائم ، وأثرت عطف بريام واستملت لجانبى أنتنور ، وقد أفلت من أن أقع في قبضة باريس وإخوته والجماعة التى شاركت في خطف هيلينا بقيادته . وإنك لتعلم ذلك كله يا منيلاوس ، فقد كنا في ذلك اليوم نجابه خطراً واحداً لأول مرة في حياتنا . ٢٠٠

كم يطول حديثى لو شئت أن أقص عليكم كل ما اضطلعت به من مهام نافعة سواء بحنكتى أو بذراعى خلال هذه الحرب الطويلة ، فقد تحصّن العدو على إثر المعارك الأولى وراء أسوار المدينة ولم تكن ثمة فرصة يواجه فيها بعضنا بعضاً في العراء ، ولم نلتحم في قتال صريح إلا بعد أعوام عشرة ، فماذا فعلت أنت يا أچاكس خلال هذه المدة التى لا معارك فيها وأنت الذى لا تجيد إلا الحرب ؟ وماذا قدّمت أيامها ؟ لو سألتنى ماذا فعلت أنا لقلت لك أننى كنت أعدّ الكمائن للعدو ، وأقيم التحصينات حول خنادقنا ، وأسرى عن رفاقنا ، وأستحثهم على احتمال صعب الحرب بصدور رغبة ، وأدربهم على التسلح والتزود بالموثون . غير أن مليكنا أجاممنون ، بعد أن أفزعته رؤيا في منامه عن نصيحة من نصائح جوبيتر ، أمرنا بقبض أيدينا من هذه الحرب . وقد كان من حق الملك أن يتعلّل بما قرره ناسباً قراره إلى كبير الآلهة ، ولقد كان من حق أچاكس أن يرفض تنفيذ هذا الأمر وأن يطالب باستمرار القتال حتى تبيد طروادة مادام يملك ذلك . فلماذا لم يعترض طريق الجنود الذين حزموا أمرهم على الرجوع ؟ ولماذا لم يقف دون هؤلاء المترددين يمنهم بسلاحه ؟ أو كان هذا كثيراً على محارب لا ينطق إلا عن زهو وتفان ؟ إننى أسألكم كيف تفسرون قعوده هذا ؟ لقد احمرّ وجهى خجلاً يا أچاكس عندما شاهدتك تدير ظهرك للعدو وتستعد للإبحار بسفنك ! وساعتها أطلق الأسى عقدة لسانى فصحت قائلاً : « ما هذا الذى أراكم تفعلونه يا رفاقى ؟ وأى جنون هذا الذى يردكم عن طروادة بعدما باتت في متناول أيديكم ؟ وماذا تراكم حاملين إلى دوركم بعد قتال دام عشر سنين سوى العار ؟ » ، وأفضت في الحديث حتى نجحت بقوة حجتي وبياني في إنهاض المحاربين إلى صفوف القتال . وحينئذ عاد أجاممنون وأمر جنوده الذين هيمن عليهم الفزع بأن يحشدوا ، ولم يجرؤ ابن تيلامون أن يفتح فمه في تلك اللحظة ، بينما أطلق ثيرسيستيس<sup>(٩)</sup> لسانه في سبّ الملوك فلم أدعه يعلّ بل عقاب ، ورحت أشد من عزيمة رفاقى المذعورين وأستنفهم للقاء العدو إلى أن ردّ حديثى إليهم إقدامهم الذى كادوا يفقدونه . ولهذا أقول إن كل عمل باسل حققه أحد رفاقى منذ تلك اللحظة هو لى ، لأننى أنا الذى رددتهم عن النكوص إلى مواجهة العدو .

ثم إننا لو فتشنا بين الإغريق عمّن يمتدحك أو يتوق لرفقتك ما وجدنا بينهم أحداً . وإن ديوميديس لشريك لى فيما أفعل وهو دائب التقدير لى والثناء على ، وهو أول من يقول بأن أوديسيوس رفيقه الجدير بثقته . وليس اختيار ديوميديس لرفقتى أنا من بين آلاف الإغريق شيئاً لا يقوم على سبب ، وما خرجت للقاء العدو بحكم الاقتراع بل أنا الذى أقدمت بمحض إرادتى مستهيناً بأخطار القتال غير عابء بالظلام ، وقتلت دولون الفريجى ذلك البطل الذى كان مثلى لا يهاب المخاطر . وما قتلت إلا بعد أن أرغمته على الكشف عما أعدّه العدو في طروادة الجاحدة . وكان بوسعى أن أقنع بهذا المجد وأعود إلى خيامى ، لكننى قصدت خيام ريزوس في معسكره وقتلته ورفاقه ، حتى إذا ظفرت بكل ما تُقْت إليه من نصر اعتليت مركبة

خصمى التى استوليت عليها ودخلت بها معسكرى يخفق قلبى بفرحة الانتصار . لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحى أسلحة أخيل الذى طلب دولون عدونا الطروادى جياده ثمناً لتجسسه علينا ليلاً<sup>(١١)</sup> ولكن فى هذه الحالة يكون أچاكس أكثر كرمًا معى منكم<sup>(١٢)</sup> . هل أذكركم بمعاركى مع كتائب ساربيدون الليسى وكيف أبدتها بسيفى حين أجريت نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيفيتوس والأسطور وخروميوس وألكندر وهاليوس ونوبومون وپريتانيس ، وحين قضيت على ثوون وخرسيداماس وخارويس وإينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأنًا<sup>(١٣)</sup> . وكم نالنى من جراح لو كشفت لكم عن مواضعها لعرفتم كم تكون هى مصدر زهو وفخارى ، وإن كنتم غير مُصدقين فيما أقول فها هى ذى جراحى فلتنظروا إليها ٢٦٠ [ وعندها أزاح ثوبه بيده وقال ] : هاكم صدرًا لم يتعرض لخطر إلا من أجل قضاياكم ، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه السنين الطوال ويخلو جسده من الندوب ومن آثار الجراح . ومع ذلك لماذا تلقون بالاً لما يقول بأنه حارب الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك عن أوامر جوبيتر ؟ قد أسلم له بما يقول ، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولست ممن يقللون من شأن أحد حقداً عليه ، ولكنى لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره . ألايته يعترف لكم بنصبيكم أنتم فى المجد ، فباتروكلوس هو وحده الذى ردَّ هجوم الطرواديين ولاحق بطلهم حين حاول حرق الأسطول ، وقد فعل ذلك فى عُدّة خلعت عليه مظهر أخيل ، وها هو ذا أچاكس يدعى أنه هو وحده الذى نجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لقيته بعد أن لقيته ملكنا وقادتنا وبعد أن لقيته أنا ، والحق إنه كان تاسع من تصدوا لهذا الواجب المقدس . ثم إن الإقتراع هو الذى هبّا لى هذه المهمة ، ولتخبرنى أيها البطل الشجاع عما انتهت إليه مبارزتكما ، فمبلغ علمى أن هكتور قد خلف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد .

٢٨٠ ألا ما أشقانى وأقسى ما أحسّه من ألم وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذى سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم الذى لم تقعدى المموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدد فوق التراب وحمله إليكم على كتفى هذين بأسلحته وعُدته التى أتطلع اليوم لارتدائها ، وأرجو أن تُعيننى قوّى على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحونى إياه . وهل يُرضى أم أخيل حورية البحر أن تؤول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تمثل عملاً فنياً رائعاً إلى جندى فظ يفتقر إلى الإدراك السليم ؟ إن أچاكس هذا يقصر عن فهم معنى النقوش التى تغطى الترس والتى تصور البحر واليابسة بمدنها العديدة وآفاق السماوات المرصعة بالنجوم وكوكبات الثريا والقلائص والدب الأكبر وسيف الجوزاء المتألق ، إن أچاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التى يطالب بها .

وإنه يتهمنى بالفرار من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى المبارزة ، دون أن يدرك أن فى هذا خطأ من شأن أخيل الكبير القلب . فإذا كنتم تعدّون تظاهر المرء بغير ما يطن جُرمًا أكون أنا وأخيل مُدانين ، وإن كنتم تعدّون التأخر فى المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أنى سبقت أخيل<sup>(١٤)</sup> المعركة ، وما عوّقنى إلا حب زوجة ودود ، وما أخره هو غير عطف أم حانية . لقد أعطيناها الأيام الأولى من الحرب بينما

وقفنا عليكم بقية أيامها ، ولست أخشى تهمة يشاركني فيها بطلٌ عظيم ، ومع ذلك فإن التعرف على أخيل يعود إلى ذكاء أوديسيوس ، بينما لا يعود هذا إلى أچاكس .

لا تدهشوا حين يطفح لسانه الأحق سباً إلى فهو يقول عنكم أنتم أيضاً ما ينبغي له أن ينجل منه ، فإذا كان يشينني أنى وجهت إلى بالاميديس تهمة كاذبة فهل كان بما يشرفكم أنكم أنتم من أدنتموه بهذه التهمة ؟ لا . . لقد عجز ابن ناويليوس عن تبرئه نفسه من جرم بين بشع . ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التى وُجِّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جريمته بأعينكم وهى الرشوة . وليس عدلاً أن أحاكم الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حياً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند فولكانوس ، فإنا لم أنفرد بعمل كنتم معى فى الإجماع عليه ، ولست أنكر أنى نصحته باعتزال الحرب والأسفار رفقا بنفسه التى قَسَتْ عليها الآلام فاستجاب إلى نصحتى ومن ثم بقى حياً حتى الآن ، وهذا ما يؤكد أنى لم أصدر رأى عن نية حسنة فحسب — وقد كان هذا وحده كافياً — بل لقد كان لنصحتى نتيجة طيبة أيضاً . وإذا كان الكهنة يريدون دعوتهم اليوم لئسهم فى إنهاء تدمير پرجامون فإناشدكم أن تعفونى من تبليغه هذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة غضب رجل مريض ناثر ، ولعله يجد حيلة يخرج به من عزلته . ولسوف يجرى نهر سيمويس على الضد من اتجاهه المعتاد ، ولسوف يُعزى جبل إيدا من الشجر ، ولسوف تنقلب الأوضاع بأن تسرع اليونان إلى معونة طروادة قبل أن يستطيع أچاكس الغبى أن يفيد الإغريق بفكره البليد وقبل أن يفتر حماسى لما فيه نفعكم أو قبل أن يفتر إخلاصى لكم . وتستطيع أنت يا فيلوكتيتيس القاسى القلب أن تحقد علينا جميعاً ، على مليكك وعلى حلفائك وعلى ، وتستطيع أن تغمرنى بالسباب وتطالب برأسى قرباناً للآلهة وتود أن لو يلقىنى الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمي وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتى ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أعاننى الحظ فسوف أظفر بسهامك كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدردانى ، وإننى لقادر على ذلك فقد فسرت نبوة الهاتف الإلهى وكشفت مصير طروادة<sup>(١٣)</sup> ، واختلست تمثال منيرفا الطروادية من محرابها متسللاً وسط الأعداء الذين كانوا يجرسونه ولم يكن من الممكن أن تأذن الأقدار بفتح طروادة دون الظفر به ، أو يمكن بعد ذلك مقارنة أچاكس بـ ؟ وأين كان أچاكس بكل ما يفاخر به ؟ لماذا أمسك به الخوف فى ذلك اليوم ، ولماذا كان من حظ أوديسيوس أن يجسر على اختراق خطوط العدو الحصينة والتستّر بالظلام والعبور وسط سيوفه المشهورة ، وتخطى أسوار طروادة والنفاذ حتى قمم قلاعها لسلب تمثال الإلهة من محرابها والعودة به إليكم من بين صفوف العدو ؟ ولو لم أنجح فى ذلك لما كان لجلود الثيران السبعة نفع على ذراع ابن تيلامون الأيسر ! لقد كان الاستيلاء على طروادة ليلتها ثمرة جهدى ، فقد مهّدت الطريق لفتح حصون طروادة ، ولتكف يا صديقى ابن تيديوس عن التمتمة وإرسال النظرات صوب ديوميديس ، فإننى مقرر أن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت نفسك لم تكن وحيداً حين أخذت تدافع عن أسطول الحلفاء بترسك فقد كان وراءك جيش كبير بينما لم يكن معى غير رفيق واحد ، ولو لم يعرف أن الحكمة تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بهذه الأسلحة

٣٢٠

٣٤٠

لطالب بها هو كذلك ، ولطالب بها أچاكس الآخر<sup>(١٤)</sup> الذى يفوقك تواضعاً ، وكذلك يورييلوس الراهب  
ثم ابن أندرايمون الذائع الصيت ، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس ، ومنيلوس أصغر أبناء أترىوس ،  
على أنهم جميعاً رغم قدرتهم البدنية وإقدامهم على الحرب قد سلموا بتفوق حكمتى على حكمتهم . وإذا  
سلمنا بأن يمينك باطشة فى المعارك فما أحوالك إلى تلمس مشورتي حين تحتاج إلى التفكير لحسم أمر من  
الأمور ، فإذا كنت تملك القوة فما أعوزك إلى ذكائى الذى ينفذ إلى المستقبل . حقاً إنك تحسن القتال ، غير  
أن منيلوس بن أترىوس لا يختار لحظة الهجوم إلا عن مشاورتي ، فانت تخدم الإغريق بجسدك بينما  
أخدمهم أنا بعقلى ، وربان السفينة أكثر شأناً من ملاحها الضارب بالمجداف . كما أن القائد أعظم شأناً  
من الجندى ، فانا أفوقك كما يفوق القلب اليد فى جسد الإنسان ، لأن القلب هو مصدر القوة كلها .

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلدوا الأسلحة أقدر جُنْدِكُمْ ، فامنحوني هذه الجائزة لقاء سنوات  
طويلة بذلت فيها الكثير من الجهد وحملت فيها الكثير من القلق ، امنحوني هذا الشرف جائزة لخدماتي .  
لقد قاربت مهمتنا من الانتهاء ، وكم من عراقيل وضعها القدر فى طريقنا وأزحمتها عنكم ، كما نجحت فى  
أن أفتح لكم طريق قلعة پرجامون بل لقد استوليت عليها بنفسى . إننى أناشدكم بالآمال التى نتطلع إليها  
وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط فى أيدينا ، وبالألهة التى انتزعتها من أيدي الأعداء وبكل ما تمليه  
الحكمة وبكل ما تفرضه الشجاعة والإقدام أن تذكرونى إذا ظننتم أن طروادة ما تزال أمامها بقية من حياة .  
أما إذا ما رأيتم ألا تمنحوني هذه الأسلحة فلتعطوها إلى هذه [ وأشار إلى تمثال منيرفا ] التى تصنع المصائر  
والأقدار .

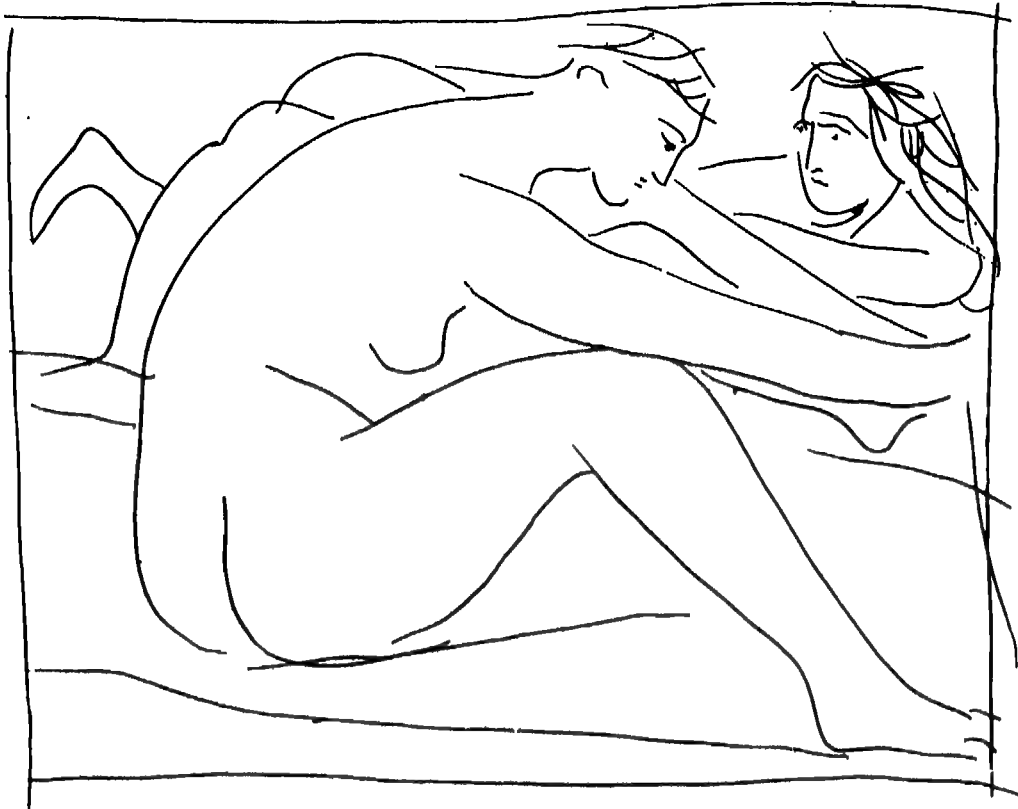
وبهذا نجح أوديسيوس فى استمالة زملائه القادة بكلماته ، وتجلّى سحر البلاغة وسطوتها فى أنه فاز بعد  
خطبته الرصينة بأسلحة البطل أنخيل ، بينما وقف أچاكس الذى كثيراً ما تصدى لهكتور وواجه أخطار النار  
والسيف وصواعق جوبيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المحتدم فى أعماقه . وقهر الأسى والحنق أچاكس  
العصى على القهر ، فلوح بسيفه صائحاً : « وهذا السيف سيفى ، أولاً يريد أوديسيوس أن ينازعنى إياه  
أيضاً ؟ لسوف أحتفظ به حتى أزهرق به روحى ، ولسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذى  
طلما شرب من دماء الفريجين ، وهكذا لا يقهر أچاكس أحد سوى أچاكس نفسه » .

ولم يكذ ينهى أچاكس من كلماته هذه حتى أعمد سيفه المميت فى موضع قاتل من صدره الذى لم  
يمسه جرح من قبل ، ولم تستطيع كفّه أن تقتلع النصل من مكانه فبقى حتى دفعه الدم الجارف المنبثق خارج  
جسده<sup>(١٥)</sup> ، وانتشر الدم وتغلغل على الأرض التى تحول لوناً قرمزيّاً . ولم تلبث أن انبثقت من بين العشب  
الأخضر تلك الزهرة القرمزية التى نبتت يوم جرح الصبى هياكيتشوس بن إيبالوس ، وقد حُطّ على أجواف  
بتلات الزهرة حروف تنطبق على الغلام وعلى البطل ، فهى تسجل اسم البطل وصيحة أسى الصبى فى آن  
واحد<sup>(١٦)</sup>

## هيكوبا

وما كاد أوديسيوس يُظفرُ بالجائزة حتى أبحر صوب وطن هيسبيليه وأبيها الملك ثواس الشهير ،  
وهي البلاد التي تدنسُت بجرمة قتل النساء لأزواجهن<sup>(١٧)</sup> بغية الحصول على سهام هرقل التي كانت في  
ذلك الموطن ، وحين بلغه أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه مليكها أسيراً . وبذلك أنهى  
حرباً طالّت ، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن سقطت وسقط بسقوطها پريام . وبعد أن فقدت زوجة پريام  
التعسة كل ما كانت تملكه في حياتها إذا هي تفقد كذلك هيبتها الإنسية ، وانطلقت تملأ أجواء منفاه على  
شواطئ نهر هيلسپونت المختنق بضفقى المضيق بعوائها .

كانت السنة اللهبُ ثلُهبُ طروادة بناها ، ومحراب چوپیتر يرشف القطرات القليلة المتبقية من دم  
پريام الكهل ، والمنتصرون يشدون كاهنة فريوس من شعرها وهي تستصرخ الآلهة رافعة ذراعيها ضارعة  
دون جدوى ، وأمّهات الأسر الطروادية يحتضنّ تماثيل آلهتهنّ ويقبلنها قبل أن يأتى على معابدها الحريق ،  
والإغريق الطافرون يسوقونهنّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون على الفوز بها ، ويلقون بأستياناكس بن



پيكاسو : هيكوبا

هكتور<sup>(١٨)</sup> من فوق الأبراج التي كانت أمه تدفعه إلى أن يتطلع منها إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم .

وحثّ ربح الشمال الإغريق على الإبحار ، وكانت هباتها المواتية تهزّ الأشعة التي أخذت تخفق ، وأشار الملاحون على الجند بالإسراع للإفادة من هبوب الريح ، وصاحت نساء طروادة الأسيرات بعد أن قبلن ثرى بلادهن وخلفن وراءهن ديارهن التي تنفث دخان الحريق « وداعاً يا طروادة إننا نترك سبيات رغم أنوفنا » . وكانت هيكوبا [ هيكابي باليونانية ] التي يثير منظرها الرثاء آخر من غادر أرض الوطن ، وقد عثر الجنود عليها بمقبرة أبنائها وهي تحاول تقبيل عظامهم ، فجرّها أوديسيوس عنوةً بعد أن أفلحت في أن تقبض بيديها على حفنة من تراب أحد القبور ممتزجاً برمد جثة ابنها هكتور وضمتته إلى صدرها بعد أن تركت على قبر هكتور خصلة من شعرها الأشهب ممتزجاً بدموعها قرباناً لمن فقدتهم .

وكانت طراقيا التي يحكمها پوليمسطور ومن حوله حاشيته المفحشة الثراء تواجه عبر البحر فريجيا التي تلالاً فيها نجوم طروادة ذات يوم ، وكان پريام قد بعث بابنه پوليدوروس خفية إلى الملك الطراقي لينشأ بعيداً عن أخطار الحرب الطروادية ، وكان هذا منه تدبيراً حكيماً لولا أنه زوّد ابنه بثروة ضخمة كانت كفيلة بإثارة الطامعين للظفر بها . فلم تكد الدائرة تدور على أهل طروادة حتى شهر الملك الطراقي الجاحد سيفه وأغمده في حلق الصبي الذي كان عليه وصياً ، ثم ألقي بجثته الهامدة في البحر الصاخب من فوق صخرة عالية وهو يظن أن جريمته ستختفى باختفاء جثة ضحيته<sup>(١٩)</sup> .

وكان أجاممنون بن أتريوس قد أرسى سفينته إلى الشاطئ الطراقي انتظاراً لسكون البحر وهبوب ربح مواتية ، وإذا الأرض تنشق فجأة في ذلك الموقع ويظهر شبح أخيل يهول ويهّدد وكأنما عاد إلى الحياة وقد ارتسمت على وجهه سيما الغضب والوعيد كما حدث يوم أن هاجم أجاممنون بسيفه في غضبة عاتية<sup>(٢٠)</sup> : « أهكذا أيها الإغريق ، تبحرون وتَسُونِي ؟ هل دُفِنَت مع جثتي ذكريات بطولاتي ؟ لن يكون هذا ! إن عليكم أن تقدموا پوليكسينا قرباناً تقتربون به لقبري حتى تهدأ روحي » .

ومع أن پوليكسينا كانت العزاء الباقي لأمها هيكوبا فقد انتزعها رفاق أخيل القدامى من بين ذراعي أمها استجابة لنداء الشبح المهيب ، واقتادوا العذراء التعسة التي أبدلت شجاعة تفوق شجاعة بنات جنسها كي يذبحوها قرباناً على القبر الموحش . ولم تنس پوليكسينا نبل محبتها حين وقفت أمام المذبح الذي لا يرحم وافداً وأدركت أنها لن تلبث أن تغدو ضحية هذه الطقوس الوحشية التي تُعدّ . وما إن رأت نيوبتوليموس أمامها شاهراً سيفه محدّقاً في وجهها حتى قالت : « أسرع بسفك دمي العريق فلن يحول بينك وبين سفكه شيء ، أعيد سيفك في حلقى أوفي صدري » ، وكشفت له مع كلماتها هذه عن صدرها وعنقها معاً ، ثم استطردت قائلة : فلن تقبل پوليكسينا أن تكون أمّة لإنسان ما ، أترك نظن مثل هذه التضحية ستنالون بها رضاء الآلهة عليكم ؟ كل ما أرجوه أن يبقى خبر مقتل خافياً على أمي ، فإن انشغال بالي بها هو الذي يهزّي ويهون من فرحة لقائي للموت ، ولن يكون موت وحده مصدر عذاب لها ، بل أن أحيا وأكون

أمة لأحدكم . ولست أبغى غير أن أهوى إلى ظلال العالم السفلى حرّة طليقة . تنحّوا عني قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبى ، ولا تدعوا يد رجل تمسّ جسدَ عذراء ، وإن من تبغون إرضاءه بذبحى أرضى له دمُ حرّة لا دمُ أمة . ولو كانت كلماتى ستستدرّ عطف أحدكم فليذكر أن من ترجوكم ليست من أرقائكم بل هى ابنة الملك پريام . ولست أرجو غير أن تظفر أمتى بجثتى بعد موتى دون أن تدفع عنها فدية ، فلا تكلفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاء حظّها المنكود فى إقامة قبرى ، وما كان هذا أيسر عليها حين كان ذلك فى مقدورها . ولم تلبث الدموع التى احتبستها فى عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع ، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس الخنجر مُثَقلاً بالندم فى صدرها الناهد . وعلى الرغم من ارتجاف ساقىها وسقوطها على الأرض فقد بقيت قسماً وجهها تنبئ عن شجاعتها ، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين فى خفرٍ وحياء .

٤٨٠

وهرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملنه مَعُولَات مردّدات أسماء أبناء پريام وبناته الذين كم بكت لمساتهم العيون بعد أن سال دمهم واحداً إثر الآخر ، وسرن يندبن مصير الفتاة وما أصبحت عليه أمها التى كانت إلى عهد قريب ملكة وقرينة ملكٍ عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة ، ثم غدت بين الأسيرات أمةً تعسة لأوديسيوس ، وما كان ليأسرها لولا أنها أنجبت هكتور الذى كانت بطولته الخارقة سبباً فى أسر أمّه واسترقاقها .

وضمت هيوكوبا جثّة ابنتها إلى صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فازتها روحها الباسلة وانخرطت فى البكاء من جديد ، وانهمرت دموعها ثانية بعد أن انهمرت مرات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها ، وغطت قبلاتها فمها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرة على موتها السالفين ، ولطّخت شعرها الأشيب بدم ابنتها المتخثر ، وخمشت جسدها بأظافرها وأخذت تصيح : « ابنتاه يا ذروة شقاء أمك ، ماذا بقى لى بعدك يا ابنتى ، ها هو ذا جسدك مُسجى أمامى هامداً . وإنى أتأمل جرحك الذى هو جرحى . يا ويحى هل كان قدراً محتوماً على أن أفقد أعزائى جميعاً قتلى ؟ لقد كنت أحسب أدنى ما أحسب أنك لن تموتى بنصل خنجر إذ كنتِ أنثى ، غير أنك وقعت فريسة له ضحية ذلك الوغد الذى قضى على إخوتك جميعاً : أخيل مدّمر طروادة الذى تركنى ثكلى . لقد ظننت ساعة مزقته سهام باريس وفوبيوس ألاّ خوف منه بعد ، ومع ذلك فقد كان على أن أخشاه ، فرماده — رغم انتشاره فى قبره — يثور فى وجهى ووجه أسرقى ممزوجاً بالعداء لنا . أترأى قد أنجبت أولادى كي أقدمهم فريسة لحفيد إياكوس [ أخيل ] ؟ وها هى ذى طروادة العظيمة قد صارت دِمناً وأطلالاً ، وحلّت بدولتنا كارثة مروعة وانتهدت إلى أبشع نهاية ، ثم إن الكوارث ما لبثت تلاحقنى ، وكأنما يرى فى الأعداء ما تخلف من طروادة ، أنا التى كنت منذ عهد قريب عظمى نساء وطنى بزوجى وأبنائى وبناتى وأزواج بناتى وزوجات أبنائى . ها أنا ذا اليوم أساق إلى المنفى تعسة مُنزعّة من بين قبور أسرقى ، هدية إلى پنيلوى التى ستناولنى الصوف لأغزله وهى تشير إلىّ أمام نساء طروادة قائلة : ها هى ذى أم هكتور الشهيرة زوجة الملك پريام . ابنتاه يا من فقدتها بعد أن فقدت الكثيرين قبلها ، ويا من كنت سلوى أمك الوحيدة ، لقد ذبحوك على قبر

٥٠٠

عدونا . أتراني قد حملت بك كي أقدمك قرباناً لعدونا ؟ ما أتعس قلبي ، كيف أستبيح لنفسى البقاء من بعدك والتواني عن اللحاق بك ، ولم أعيش وقد أثقلتني السنين على امتدادها . أيتها الآلهة القساة القلوب لماذا تبطئون بموت امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدراً لي أن أحيأ لأشهد مزيداً من الموت والشقاء ؟ من كان يظن أن بريام سوف يكون محظوظاً بعد دمار طروادة ؟ إنه لا شك محظوظ لأنه مات ولن يشهدك قتيلة يا ابنتي ، فلقد فارق الملك والحياة معاً ، ألا ليتهم يمنحونك مراسم جنازية تليق بابنة ملك عظيم ! ويا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ ! لا ، لن تسعدى بهذا يا ابنتي فليس لبيتنا أن يظفر بهذا الشرف ، ولن يكون لك قربان سوى دموع أمك وحفنة من ثرى غير ثرى منشك . لقد فقدت كل شيء ، ولم يبق لي ما يجعلني أقبل الحياة أمداً آخر سوى طفل قريب إلى قلبي هو پوليدوروس الذي كان أصغر أبنائي وأصبح الآن وحيدى ، وكنا قد بعثنا به إلى شواطئ بعيدة ليكون في جمى ملك طراقيا<sup>(٢١)</sup> ولكن لم أضيع الوقت سدى ؟ إنه لأجدر بي أن أغسل جرحك الذى فتك بك ووجهك الملطخ بدم أهدرته يد لا تعرف الرحمة .

وقامت المسكينة بعد كلماتها هذه تمشى بخطى أثقلتها الشيخوخة تقصد الشاطئ وهى تشد شعرها الأبيض ، وتردد : « أعطوني إناء يا نساء طروادة » . ومالت لكى تغترف من مياه صافية فإذا هى تبصر جثة پوليدوروس وقد ألقت بها الأمواج على الشاطئ ، وشاهدت جراح جسده بفعل خناجر طراقيا . وبينما انطلقت نساء طروادة فى العويل أصيبت هيكونا بالخرس من فرط كربها ، فقد اختنق صوتها وجفت الدموع فى مآقيها وجمدت فى وقفعتها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصوان ، وثبتت نظراتها وهى تحملق فى الأرض وأخذت تقلب وجهها المتغضن القسما بين السماء تارة وبين وجه ابنها تارة أخرى ، ثم تطلعت إلى جراحه وأخذت رغبة الثار تحتمل فى أعماقها والغضب يغلى فى صدرها حتى إذا بلغ غضبها عنفوانه صممت على الانتقام وكأنها ما تزال ملكة ، وانشغلت بالألوسيلة التى سوف تثار بها ، وبدت كاللبوة التى انتزع منها شبلها الرضيع تهييم على وجهها فى كل مكان تتبع آثار أقدام من انتزعوه وتطاردهم عدوا لا تعرفه . وهكذا كانت هيكونا أسيرة مزيج من الحزن والحنق ، أنسييت شيخوختها ولم تنس شجاعته ، فقصدت پوليمستور الشقي الذى ارتكب تلك الجريمة البشعة ، وطلبت لقاء الملك بدعوى أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أخفى من أجل ابنها فصدفها الملك الطراقى الذى أعماه جشعه الفطرى ، فجاءها وحده وتلطف معها فى الحديث كى يكرها وهو يقول : لا تضيعى الوقت يا هيكونا وأعطى كنز ابنك وأقسم بالآلهة أنى سأحتفظ به له ، إلى كل ما أعطيتنى إياه فى الماضى من أجله .

ومضت تحدجه بنظرة عابسة وهو يتكلم ويقسم حائثاً إلى أن فار غضبها المكبوت ، فاستغاثت بحاشيتها من الأمهات الأسيرات اللاتي أمسكن بالملك فغرست فى أصابعها فى عينيه الغادرتين واقتلعتها من محجريها ، وقد ضاعف حزنها من قوتها فدفست أصابعها الملوثة بدمه الأثم مرة أخرى فى محجرى عينيه اللذين لم يبق منهما شيء وانطلقت تعبت بها .



والتي أطلق عليها اسمه ، إذ سميت بالمنونيديس [ أى آل ممنون ] . وما زالت كلها أكملت الشمس دورة في أبراجها الاثني عشر تنهض فتستأنف قتالها ثم تموت من جديد تكرماً لمنجيتها . وعلى حين كانت مأساة هيوكوبا بنت ديماس التي لها عواء كعواء الكلب تثير شفقة بعض الآلهة ، بقيت مأساة أورورا حبيسة في صدرها . وما تزال أورورا تذرف دموع الأم الآسية فتتناثر على الأرض قطرات ندى .

## أينياس عند أنيوس

لم تنشأ الأقدار أن تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها ، فقد حمل البطل أينياس بن فينوس إلهة كيثيرا تماثيل آلهة المدينة المقدسة ، كما حمل معها أباه الذي يشاركها قدسيّتها ، ولم يحمل أينياس شيئاً آخر مما يملك وسار بجانبه ابنه الحبيب أسكانيوس ، ثم أبحر من ميناء أنتندروس فأرأى بسفنه عبر البحار مخلفاً وراءه ديار طراقيا الأثمة المملوطة بدماء بوليدوروس ، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث ولد أبوللو . وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يخدم شعبه وإلهه أبوللو بهمة وورع ، ففتح داره ومعبداه لأينياس وطاف معه المدينة يدله على معالمها ومعبداه المشهور وجذعى الشجرتين اللتين احتضنتهما لاتوفى وضعها جينيها<sup>(٢٤)</sup> . وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وسكب النبيذ على البخور حسب العرف المتبع وحرقوا أحشاء البقرات الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكي حيث أعدت لهم الفرش الثمينة الطنافس ، فأكلوا من خيرات سيريس وشربوا من نبيذ باكخوس . وعندها أخذ أنخيسيس الورع يقول : « سيدى كاهن فويوس وخليله . أترأى مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرت مدينتك للمرة الأولى ؟ » ، فهز أنيوس رأسه المعصوبة بشريط أبيض يحفّ بصدغيه وأجاب في حزن واكتئاب : « لا لست مخطئاً أيها البطل النبيل ، فقد كنت يوم رأيته أبا لخمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش محروماً منهم ، فهكذا تتلاعب الأقدار بحياة البشر . وما يجديني أن يعيش ابني بعيداً عني في بلاد أندروس التي سُميت باسمه ويحكمها نائباً عني . وإذا كان أبوللو إله ديلوس قد وهب ابني ملكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتى ملكات أعلى شأنًا مما توقّعن ، فما تلمس أيديهن شيئاً إلاّ تحوّل غلالاً أو جداول نبيذ أو زيت زيتون ، فكنّ بذلك مورد رزقى وأى رزق ! غير أن أجائمون الذى نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتى فبادر ينتزعهن من حضنى . وهكذا ترون أن الأعاصير التي أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها . وقد أمر أجائمون بناتى بأن يمددن أسطول الإغريق بالطعام والشراب ، غير أنهن جميعاً آيين في إصرار ولذّن بالفرار ، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا ، ولحقت اثنتان بشقيقتيهما في أندروس فاندفع وراءهما جيش العدو متوعداً بالحرب شقيقتيهما إن لم يُسلمهما إليه . وغلبت رهبة العدو في نفس الملك حبه لشقيقتيه فأسلمهما لمصيريهما . ألا فلتغفر له خوره فلم يكن إلى جانبه هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التي قاومت عشر سنين . وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكي يقيّدوا بها أيدي الأسيرتين فإذا هما ترفعان ذراعيهما صوب السماء صائحتين في ضراعة : « امدد لنا يد العون » يا أبانا باكخوس » .

واستجاب باكخوس الذى منحها موهبتها فأمدّها بعونه ، هذا إذا أسمى التحول من هيئة إلى أخرى عوناً ، وما أدرى كيف فقدتا شكليهما ، ولست إلى اليوم قادراً على أن أصف ما وقع لهما ، وما أعى غير تلك الكارثة التى حلّت بي منذ أن نبتت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيهما يمامتين بيضاوين بياض الثلج ، هذا الطير الأثير لدى زوجتك فينوس» (٢٥) .

وأضى الرفاق الوقت خلال الوليمة يسرون عن أنفسهم بهذه القصة وبقصص أخرى مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأووا إلى النوم ، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عراف فوبيوس الذى أمرهم بالبحث عن أمهم العريقة وعن الشواطىء التى عليها نشأت أسرهم .

وودّعهم الملك مقدّماً لهم ما غلا وعزّ من الهدايا ووهب أنخيسيس صولجاناً ومنح حفيده عباءة وجعبة سهام ، وأسلم أبنياس كأساً ثمينة كانت قد آلت إليه من ضيفه ثريسيس الذى كان يسكن طيبة ، وكان صائغها الكون من هيلاي قد نقش عليها نقوشاً فصل فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة (٢٦) ، وصوّر أمام سور المدينة مشهداً جنازياً بمواكب ومقابر ومحارقه المشتعلة وكذا الأمهات العاريات الصدور والهواء يعبث بشعرهنّ ، وحوريات البرّ والبحر باكيات شاقيات جفاف ينابيعهنّ ، وشجرة جرداء عارية ، ومجموعة من الماعز تتشمّم التربة الصلبة التى جمّدتها حرارة الشمس . وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتى أوريون (٢٧) وقد أمسكت إحداهما بسكين تقطع بها عنقها العارى فى شجاعة ليست للنساء ، بينما أغمدت الثانية طرف مغزها فى قلبها فماتت شهيدة وطنها بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً . ثم صوّر جسديهما محمولين خلال المدينة فى موكب جنازى مهيب يمضى إلى المحرقة التى ستلتهمها نيرانها أمام جماهير المشيعين ، وفجأة ينهض من رماد العذراوين شابان اشتها فيما بعد باسم « التاجين » (٢٨) وتقدّما يقودان الموكب الجنازى لرماد جثتى أمّيهما ، وكان سرّ ميلادهما الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتى أوريون (٢٩) بوفاتهما . وتنتهى نقوش هذه الوجوه البراقة فوق البرونز العتيق لنشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكائنا البارزة المذهبة . وقد تقبل الطرواديون هذه الهدايا وقدموا لقاءها هدايا لا تقل عنها قيمة ، منها صندوق بخور للكاهن ، وصحن للقربان وتاج مرصّع بالذهب والجواهر .

٦٨٠

٧٠٠

وحين ذكر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر لجأوا بسفنهم إلى جزيرة كريت ، إلا أنهم لم يقووا على تحمل قسوة مناخها أمدّاً طويلاً فأبحروا من هذه الجزيرة ذات المدن المائة أملاً فى بلوغ شواطىء أوزونيا (٣٠) [ إيطاليا ] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال فالتجأوا إلى موانئ جزر الستروفاديس (٣١) التى لم يجدوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم ذلك الوحش المجنّح أيلو الذى أفرعهم فولوا يعبرون موانئ دوليخيون وإيثاكا وساميه وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسيوس المخاتل ، وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التى تنازع الآلهة وهرقل السيادة عليها (٣٢) . كما رأوا على شاطئ أكتيوم تلك الصخرة التى مُسّخ إليها من حَكَم لصالح هرقل ، وهذه الصخرة قائمة اليوم بمعبد أبوللو (٣٣) ، كما مرّوا بدودونا

ذات أشجار البلوط الناطقة<sup>(٣٤)</sup> ، وخلجان خاوونيا التي استطاع أن يُقِلّت من حريقها الذي أشعله الأثمون أبناء ملك مولوس بأجنحتهم التي ظلّوا بها محلّقين طويلاً في السماء<sup>(٣٥)</sup> .

- ٧٢٠ ثم أبحروا إلى أرض الفاياكين<sup>(٣٦)</sup> ذات بساتين الفاكة الغنية بالثمار ، وأرسوا بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إبيروس التي بنيت على غرار طروادة ، وكان يحكمها كاهن فريچيا هيلينوس بن پريام الذي كان عرّافاً لا تخيب له نبوءة ، وحين عرفوا منه مصيرهم ومستقبلهم أبحروا إلى صقلية ، وهي جزيرة تمتد منها ثلاثة ألسنة داخل البحر ، أولها يواجه الجنوب الممطر ويسمى پاخينوس ، ويهبّ نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمى ليليايوم<sup>(٣٧)</sup> ، ويتطلع ثالثها وهو پيلوروس إلى الشمال وإلى كوكبتى الدّين الأصغر والأكبر اللتين لن تهبّ أبداً من سبائهما فتطويهما صفحات الماء . واقترّب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بما لمجاديفهم من قوة وبما أمدهم البحر من عون أن يبلغوا عند حلول المساء شاطئاً زانكليه الذي كانت تهدّده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاربيديس النّهمة التي لا تنفك تلتهم السفن ثم تقيّتها . أما سكيللا التي تلتف حول خصرها كلاب مفترسة فلها وجه فتاة ، وكانت قبلُ فتاة حقّاً ، كما تروى قصص الشعراء وما نظنها مخطئة فيما تروى<sup>(٣٨)</sup> ، وكم من خطّاب — كما قيل — طلبوا يدها لكنها رفضتهم جميعاً ، وكم كانت تختلّف إلى حوريات البحر الهائيات بها وتقصّ عليهن عزوفها عن حبّ الفتیان . وفيما كانت يوماً جالسة مع الحورية جالاطيا تمسّط لها شعرها إذ تنهدت جالاطيا قائلة : « حسبك أنك فتاة يتودّد إليك شبان لم تخل قلوبهم من الرحمة وتستطيعين صلّهم دون أن يُنال منك بجزء . أما أنا ابنة نيريوس فعلى الرغم من حماية إخوتي لم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلوبيس إلّا بعد أن دفعت من الألم والحزن ثمناً غالياً » . وخنقت الدموع كلمات جالاطيا ، فأخذت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البرد وتسرى عن الحورية قائلة : « يا أحب الناس إلىّ خفّى عن نفسك وإرولى قصتك ولا تُخفى عني سرّ حزنك فما أولانى بثقتك » ، فبدأت الحورية تقص قصتها على ابنة كراتاييس قائلة :

## أكيس وجالاطيا ويوليفيموس

- « على الرغم من أن أكيس بن فاونوس من حورية البحر سيبايتوس كان محبوباً من أبويه ، فإن حبي له كان يُرَبّى على حبهما له . فلقد كان وحده محطّ عواطفى ، وكان وسيماً بلحيته النابتة التي كانت أشبه بالزغب على وجنتيه ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . وبينما كنت أتلمّسه أنا أرى ذهب كان الكيكلوبيس [ السيكلوبيس ] يوليفيموس يتبعنى أنا ، ولو سألتنى أيهما كان أشدّ ، حبي لأكيس أم كراهيتى لهوليفيموس ما ملكت أن أجيب ، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين حدّة . ما أقوى سلطانك يا فينوس الحانية إذ جعلت من يوليفيموس كائنًا يتدوّق الحب ، وهو ذلك الوحش الذى يثير الرعب حتى فى الغابات الموحشة ، ويودى بحياة أى طائرٍ يقع نظره عليه ، ويزدرى جبل أوليمپوس ومن عليه من الآلهة ، فأصبح أسير شهوة عارمة واشتعل حبه فأنساه قطيعه والكهوف التي يأوى إليها . وكم حاولت

يا پوليفيموس أن تهذب من هيتك لتنال إعجابي ، وكم مشطت شعرك المنفوش بالمذرة وحلقت بالمنجل  
لحيتك غير المشدبة ، وكنت تتخذ من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول تغيير ملامحه ،  
وأنسيت وحشيتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم ، فكنت تترك السفن تروح وتغدو لا تمسها  
بضرر . وكان تيليموس بن يورموس الذي لم تخطيء نذره قط قد بلغ وقتذاك صقلية خلال إحدى جولاته  
وصعد سفح جبل إتنا لزيارة پوليفيموس المروّع ونصحه قائلاً : « كن على حذر فسوف يقتلع أوديسيوس  
عينك الوحيدة وسط جبينك » . وعندها ضحك العملاق وهو يقول : « إنك لمخطيء يا أكثر العرافين  
حقاً ، فثمة فتاة سبقتك إلى استلابها » . وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى ، فلقد امتهنا پوليفيموس  
ولم يلق بالآ إليها ، وانطلق بخطى واسعة فوق كنبان الشاطئ حتى أدركه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه .

وصعد الكيكلوبيس في تلّ يمتد مسافة طويلة على ساحل البحر في شكل لسان ترتطم به الأمواج من  
كل جانب ، وجلس على القمة وبين يديه قطع أغنامه ، ووضع إلى جانبه جذع الصنوبر الطويل طول  
صاري السفينة ، والذي كان له عصا يعتمد عليها ، وأمسك بالمصفار الرعوى المكوّن من مائة قصبه ضمّ  
بعضها إلى بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرعدية فرددت الجبال والبحار صداها . وكنت أنا مسترخية في  
أحضان أكيس وراء صخرة وتسمعت إلى كلمات الكيكلوبيس التي يتغنّى بها فيها ويشبّب بقوله : « لأنت  
يا جالاطيا أنصع بياضاً من الورود البيض ، وأجل من سائر زهور المروج ، وأرق رشاقة من شجر الحور ،  
وأشدّ إشراقاً من البللور ، وأخفّ من الحمل اليافع ، وأنعم ملمساً من الأصداف التي يغسلها البحر  
دوماً . يا من أنت أكثر دفئاً من الشمس في الشتاء وأكثر حناناً من الظلال في الصيف ، وأحلى مذاقاً من  
الفواكه ، وأكثر بهاء من شجر الدلب الشامخ ، وأشدّ تألقاً من الثلج ، وأشهى من الكرّم الناضج ،  
وأملس من زغب البجعة وأطرى من اللبن الخائر . لو لم تهرب مني لكنت أروع جمالاً من الحديقة الغناء  
بجداؤها ، لكنك يا جالاطيا أعصى نفوراً من الثيران الجائعة ، وأشدّ إباءً من البلوط العجوز ، وأكثر  
خداعاً من البحر ، وأشدّ مراوغة لليد من غصينات الصفصاف ومحاليق الكروم البيضاء ، وأشدّ صرامة  
من هذه الصخور ، وأعتى ثورة من ذلك النهر ، وأكثر صلفاً من الطاووس بتيه زهواً ، وأقسى من النار  
وأخشن من نبات الشوك ، وأكثر توخّشاً من أم الدب ، وأصمّ من الخضمّ ، وأخطر من الأفعى حين  
تطوّر قدم عن غير قصد ، وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذي أود أن أبرئك منه هو أنك أسرع في العدو من العمل  
الذي تطارده كلاب الصيد بنباحها ، بل أسرع من الريح العاصف . أه لو كنت تعرفيني حق المعرفة ، إذن  
لأسفت على هربك مني ولندمت على تمنّك عني ، ولحاولت الإستمسك بي ، فأنا أملك في سفح الجبل  
غاراً تتصدّره صخرة نابضة بالحياة على شكل قبولا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء ، وعندى من  
الأشجار ما تميل غصونها من ثقل ثمارها ، ومن الكروم ما يزحف حاملاً عنقيد العنب الشبيه بالذهب  
والأرجوان . لقد أدّخرت ذلك كله لك ، ويديك تستطيعين قطف ثمار الفراولة الطيبة المذاق في ظلال  
الغابات ، وثمار الكرز والبرقوق في الخريف ، ولست أقصد البرقوق الداكن وحده ، فهناك أيضاً نوع  
أخضر ضارب إلى الصفرة يشبه الشمع الغض . ولو اتخذتني زوجاً لدقت الكستناء كما تشاءين ، ولنعمت

٧٨٠

٨٠٠

- بشار البطيخ . وهنا ستصبح كل شجرة لك ، وتحوزين كل هذه الأغنام التي ترين ، ولى كثير غيرها ترعى في الوديان أو تهبم في الغابات أو تُشَدُّ في حظائري . ولو سألتني ما استطعت إحصاء قطعاني ، فالفقير وحده ٨٢٠ هو من يحصى أغنامه ، وإذا شئت معرفة جملها فلا تَرَكْنِي لحديثي عنها بل تعالى هنا لتشهدى بنفسك كيف تعجز قوائمها عن حملها لامتلاء أئدائها . وقد جمعت التناج الحديد في حظائر دافئة ، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة ، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندي ، أحفظ بعضه للشرب وأخر الباقي ليخثر . ولتسأل إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك ، ولن أقدم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعل والأرنب أو الماعز واليهام ، أو صغار الطير فوق غصون الشجر ، بل سأقدم لك توأمين من صغار الدب الوحشي متشابهين يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتهما فوق الجبل وسأقدمهما لك كي تأنسى بهما ، وقد قلت لنفسى حين عثرت عليهما فلا أحفظهما من أجل حبيبتى . ناشدتك يا جالاطيا أن تطلّ بوجهك المشرق فوق البحر الأزرق ، هلمنى ولا تزدري هداياى . وليس يخفى على شكلى ومع هذا فلقد رأيت صورق منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتنى . انظرى إلى طول قامتى ، وما أظن چوپیتر يفوقنى طولاً ، [ هذا الذى لم أسمع إلا منكم أنه حاكم العالم ] ، ٨٤٠ ونخصلات الشعر الغزير تحتضن قسما وجهى الصارمة وتلقى على كتفى ظلالها وكأنها دغل كثيف . ولا تعدّنيني دميماً لغزارة الشعر الخشن الذى يكسو جسدى ، فكم تبدو الشجرة قبيحة حين تكون جرداء ، والحواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يُغشَى عنقه عُرفٌ غزير ، ولا تجعل الطيور إلا بريشها ولا الأغنام إلا بفرائها ، وليس أنسب للرجل من لحية تملأ وجهه وشعر غزير يغشّى جسده . حقاً ليست لى إلا عين واحدة وسط جبينى لكنها عين تشبه درعاً عظيماً ، وماذا فى ذلك ؟ أولاً تعانق الشمس بنظرتها الكون كله من علياء سمائها الفسيحة وما لها غير عين واحدة ، هذا إلى أن أبى هو ملك البحار التى تحيّن فيها (٣٩) ، ولسوف يصبح حملاً لك إذا تزوّجتنى . فليس فى العالم كله من أسجد أمامه سواك ، أنا من ازدرى چوپیتر والسموات والصواعق النافذة ، أخشاك يا أجمل بنات نيربوس ، فغضبك أشد هولاً من البرق . وقد أحتمل ازدرائك لى لو كنت تزدرين الجميع ، ولكن لماذا تصدّين الكيكلوبيس وتمنحين حبك لأكيس ، ٨٦٠ ولماذا تؤثرين عناقه على عناقى ؟ فليزّه أكيس ما شاء له الزهو وما شئت أنت يا جالاطيا . ليكن ، غير أنه لأول وهلة سيعلم أن قوقى كفاء ضخامتى . ولسوف أنتزع أحشائه حياً وأمزقه ثم أنثر أطرافه فى الحقول . تُراه هل يستطيع بعد ذلك أن يقترن بك ، إننى أحترق عشقاً ولهب الهوى يلذعنى ويضحى أشدّ لذعاً حين أكون موضع ازدرائك وكأنى أحمل فى أحشائى بركان إتنا . ومع هذا فانت لا تبالين بى يا جالاطيا .

وبعد أن فرغ پوليفيموس من هذه المناجاة التى ذهبت أدراج الرياح وقف كالشور الذى جُنَّ بفقد بقرته ، وأخذت عينيّ تتبعه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه فى الغابات والمراعى التى يألّفها . وإذا بصراً العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندرى ما سيعرض لنا من خطر ، وإذا هو يصبح فى وحشية : « ها أنذا قد رأيتهما ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما » . وكان صوته راعداً اهتز له بركان إتنا نفسه ، وأسرعت بالغوص فى المياه فزعة بينما استدار أكيس بن سيمائوس هارباً وصاح بى

٨٨٠ مستنجداً : « عونك يا جالاطيا ، عونكما يا والدي ، ائذنا لي في أن أدخل مملكتكما ، فإن لم تفعلنا لحق بي الموت » . وانطلق الكيكلويس يطارد أكيس بعد أن انتزع كتلة ضخمة من سفح جبل وقذفه بها ، ومع أن طرفاً منها هو الذي مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه ، وما نملك غير ما تتيحه الأقدار فلقد منحته الأقدار طبيعة جدّه<sup>(٤٠)</sup> . كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التي سقط تحتها ، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الدم يشحب ، وشيئاً فشيئاً ظهر نبع صافٍ من المياه ، وتفتّت الصخرة وانشقت وانبثقت من شقوقها سيقان غاب طويلة مياسة . وتفجّرت المياه صاخبة من جوف الصخرة . وفجأة ، ويا لها من معجزة ، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفي جبهته تاج من سيقان نبات السُّمار المجدول حول قرنين حديشي النبتة ، ولولم يكن ما بدا من قامته طويلاً ولولم يكن لأزوردي الوجه لكان هو أكيس نفسه ، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقي أكيس هو هو رغم تحوُّله إلى نهر ، وصار هذا النهر يحمل اسم أكيس .

## جالاوكوس

٩٠٠ وفرغت جالاطيا من حديثها وتفرّقت حوريات البحر سابحات في المياه الساكنة إلا سكيللا ، فقد عادت مسرعة إلى الساحل لا تجرؤ على البقاء في غرض مياه البحر ، وكانت تخطر عارية على الشاطئء تارة ، وكلما وجدت ظلمة بمعزل استرخت في ظلها تارة أخرى ، وإذا هي تستمع فجأة إلى صرخة مدوية تنطلق من أعماق البحر ، ثم أبصرت جلاوكوس الذي لم يسكن البحر إلا منذ قليل — لأنه قد مُسخ في أنثيدون القريبة من بحر يوبويا — يشقّ الموج قادماً تجاهها<sup>(٤١)</sup> ، حتى إذا ما رآها جمّد في مكانه وقد اضطربت في نفسه لهفة عارمة وتحرك شبقه ، فناداها بما عنّ له من كلمات ليصدّها عن المضي هاربة منه لكنها أصبّت سمعها ، وكأنما أمّدها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل الشامخ المكدّسة بالغابات بجوار الشاطئء حيث امتدت أمامها رقعة فسيحة من المياه وجدت فيها مأوى آمناً استقرت فيه ، ولم تدر إن كانت ترى أمامها وحشاً أو إلهاً ، وأخذت تتأمل في دهشة لون بشرته وشعره الذي يغطي منكبيه وينسدل على ظهره وذيل السمك الذي يثنيه تحت خصره . ولمحها جلاوكوس متأملة ، فاعتمد على صخرة قريبة وقال لها : « لست غولاً يا صبيّة ولا وحشاً مفترساً ، وإنما أنا أحد آلهة البحر ، وليس سلطان على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو بالايون بن آتاماس ، غير أنني كنت في الماضي إنساناً أعشق البحر عشقاً شديداً وكان عملي موصولاً به ، وكنت أجتذب الشباك مليئة بالأسماك تارة أو أجلس على صخر الشط أتصيد السمك بالشّص . وكان على مقربة من المكان الذي أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر من جانب وتنفسح عند جانبه الآخر مراعي بكر لم تطف بها قطعان الأبقار الطويلة القرون ولا الأغنام المسالمة ولا الماعز الشعثاء الوبر ، ولم يخلق بها نحل يمتص زهورها ليحيلها شهداً ، ولم تُجدل من أغصانها الأكاليل لتُجلل بها هامات الضيوف خلال الولائم ، ولم تتناولها يدٌ بقضبٍ عُشبها بالمنجل الطويل ، وكنت أول من افترش هذا العُشب وقد جلست يوماً أجفّف الشباك المبتلة وأصفّ فوق العُشب السمك الذي جمعته

لأحصى منه ما قذفت به الصدفة في شباكى أو ما أوقعته السداجة في شصى المعقوف . ولك أن تظنى أنى  
أختلق ، ولكن فيم يفيدنى الاختلاق ؟ فما كادت الأسماك تفترش العشب حتى أخذت تتلوى وتضطرب  
وتسبح فوق اليابسة وكأنها وسط البحر ، وبينما كنت ذهلاً وأنا أشهد ما يقع إذا الأسماك تنزلق نحو البحر  
٩٤٠ وتغوص ثانية بين الأمواج التى كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطئ والصائد . وقد جمدت فى مكانى  
مذهولاً ألتمس تفسيراً لما حدث وأتساءل عن سر هذه الظاهرة ، أهى إرادة إله أم فعل عصابة العشب ،  
وقلت لنفسى « ترى أى عشب هذا الذى يملك تلك القدرة ؟ » . واقتلعت بعض أعواده وعضضتها  
بأسنانى ، ولم تكد عصارتها الغريبة تنساب فى حلقي حتى أحسست بقلبي ينتفض داخل صدرى وإذا  
طبيعتى تأخذ فى التغير ، ولم أقاوم طويلاً فصحت قائلاً : « وداعاً أيتها الأرض ، فلن أعود إليك مرة  
أخرى » . واندفعت إلى المياه حيث رحب بى آلهة البحر وتلطفوا بى فأجلسونى بينهم فوق منصة السلطة ،  
ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يزيلا عنى ما بى من عناصر فانية ، فأخذوا يطهرانى مردين مرات تسعاً  
تعويذة مقدسة خلصتني من أدرانى ، وطلبوا إلى أن أغمس جسدى فى ماء نهر ، وسرعان ما أخذت أنهار  
جميع بلاد العالم تنصب مياها نحوى من كل صوب وتصبها فوق رأسى . هذا كل ما أقوى على أن أسرده  
عليك من عجائب مغامرتى ، فقد جمدت عند ذلك ذاكرتى وفقدت القدرة على استخدام حواسى ، وحين  
عدت إلى وعى وجدت جسدى مختلفاً تماماً عما كان قبلاً ، كما أصبح عقلى غير ما كان . ورأيتنى لأول مرة  
٩٦٠ بهذه اللحية التى يذكرنى لونها المخضر بصدأ النحاس ، وبهذا الشعر الذى ينتثر على الموج الفسيح ، وبهذين  
المنكين العريضين ، وبهاتين الذراعين اللازورديتين ، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتو كذيول  
الأسماك ذات الحراشف ، ولكن فيم يفيدنى هذا الشكل الجديد ؟ وفيم تفيدنى تلك المكرومة التى اختصنى  
بها آلهة البحار ؟ بل فيم يفيدنى أن أكون أنا نفسى إلهاً إذا لم تعيرنى أنت انتباهاً ؟

على هذا النحو استرسل الإله فى الحديث ، وكان على وشك مواصلته حين أمعنت سكيللا فى  
هروبها ، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها ، واتجه إلى القصر المسحور الذى تمارس فيه كيركى<sup>(٤٢)</sup>  
ابنة التيتان معجزاتها العديدة .

# التعقيبات

- (١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة .
- (٢) كان أوديسيوس يخشى ما تنبأ به العراف من أنه لو اشترك في حرب طروادة لما عاد إلى داره إلا بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً ، وقد دفعته شدة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يضطر إلى الإبحار للمعركة ، غير أن بالاميديس شك في تظاهره بالجنون فخطف تيلياخوس بن أوديسيوس من مهبه وجعله يسك بمحراث يجره ثور وجواد ، فذعر أبوه ولم يستطع المضى في التظاهر بالجنون واعترف بخدعته ولكنه لم يفتخر له بالاميديس ما صنعه .
- (٣) انظر الكتاب التاسع .
- (٤) هذه إشارة إلى نفى تيلامون والد أجاكس بسبب قتله أخيه غير الشقيق فوكوس [ انظر الكتاب السابع ] .
- (٥) مثلما فعل تيلامون بقتله أخيه .
- (٦) كان تيوكروس بن تيلامون أخاً لأجاكس من والده بينما كانت أم أجاكس هي ابنة لاووميديون وشقيقة بريام [ انظر الكتاب الحادى عشر ] .
- (٧) عرف الإغريق باسم الأخيين كما كانوا ينسبون أحياناً إلى داناووس شقيق أيجهوتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذى أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد .
- (٨) يتبع أوفيد هنا مأساة « إفيجينيا فى أوليس » لأوريبيديس متابعة تكاد تكون حرفية .
- (٩) أثارت وقاحة ثيرسيتيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أقعدته مرتعداً من الخوف والالام . وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس فى الكتاب الثانى من الإلياذة .
- (١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسس على مداولات أجاممنون والقادة الإغريق فى مقابل وعده بأن يهبوه جياد أخيل ومركبته بعد قتله .
- (١١) إشارة إلى ما اقترحه أجاكس سائخراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس مناصفة ، الأمر الذى يعد أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأى شئ على الإطلاق .
- (١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التى ينسج فيها أوفيد على منوال هوميروس سرد أسماء الأعداء القتل .
- (١٣) هو العراف هيلينوس الذى كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسللون إلى طروادة .
- (١٤) المقصود أجاكس بن أويليوس ملك اللوكويين .

(١٥) كان أجاكس يلتف بفراء الأسد الذى أعطاه إياه هرقل ، الأمر الذى جعله منيعاً على ضربات السيوف إلا فى مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده ، ويقول أوفيد أنه الصدر بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب .  
(١٦) أى تمثل بداية اسم أجاكس كما ينطق باللاتينية « أياكس » ، ويذكرنا مقطعه الأول بصرخة الألم والاستنجاذ التى صدرت عن هياكيتوس .

(١٧) تهاونت نساء ليمنوس فى تكريم الإلهة فينوس فترة طويلة ، أى أنهم لم يمارس متع الهوى وزهدن فى مضاجعة أزواجهن مما دفع بالآخرين إلى هجرهن نحو نساء من طراقيا . فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيها عدا هيسبييله بنت الملك ثواس التى هربت أباهما من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها ، وهى التى رجت ببحارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بجاسون فحملت منه بولدين .

(١٨) انتزع الإغريق أستياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسراً وألقوا به من فوق أسوار طروادة . وقد سجل أوريبيديس هذا المشهد الفاجع فى مأساة الطرواديات [ البيت ٧٠٩ وما بعده ] .

(١٩) ذكر هذا الاغتيال فى مقدمة مأساة هيكوبا لأوريبيديس على لسان شيخ پوليدوروس ، ويذكره فرجيل أيضاً فى الكتاب الثالث من الإلياذة [ البيت ١٩ وما بعده ] .

(٢٠) يشير إلى يوم طمع فى الظفر بالأسيرة بريزيس فى مستهل ملحمة الإلياذة .  
(٢١) يعرض الجزء الثانى من مسرحية « هيكوبا » لأوريبيديس قصة عثور هيكوبا على جثة ابنها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليسطور ملك طراقيا ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس فى الإلياذة ( ٢٠ : ٤٠٧ ) من أن پوليدوروس هو ابن بريام من زوجة غير هيكوبا هى لاووثويه وأن أخيل هو الذى قتله أمام هكتور .

(٢٢) توجد « كينوس سيبا » أى مقبرة الكلبة على مقربة من الهيلسبونوت وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافى استرابو .

(٢٣) أورورا [ إيوس اليونانية ] هى أم ممنون من تيثونوس شقيق بريام ، وفى تلك القرابة يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادى .

(٢٤) انظر الكتاب السادس .

(٢٥) كانت فينوس قد وقعت فى غرام أنخيسيس . أما تسميتها بزوجه فهو من قبيل الأدب فى الحديث .

(٢٦) كانت لأسوار طيبة [ بويوتيا ] أبواب سبع .

(٢٧) كوكبة الجوزاء .

(٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوبى والإكليل الشمالى عند الفلكيين العرب .

(٢٩) كان أوريون بن هيريوس من أهل طيبة ، وكانت له ابنتان هما متيوخى ومينيى تقدمتا بمحض إرادتهما قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حل بها الطاعون ، وهو ما كان قد طالب به الهاتف الإلهى فى معبد أبوللو بجورتيانا . وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فنالتا رضاء الألهة التى حولتهما إلى كوكبتين ، فى حين تحول أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء . والملاحظ أن النص هنا يفترق إلى الوضوح ، وأن الإكليلين تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية .

(٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لفرجيل [ الكاتب الثالث - الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١ ] .

(٣١) مجموعة جزر أمام الشاطئ الغربى من المورة .

(٣٢) دوليخيون ونيريتوس اسما جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا . أما ساميه فهى جزيرة صغيرة فى بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينيا . وأمراكيا مدينة فى إيبيروس غير الأمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره فى معركة أكتيوم وسأها نيكوبوليس أى مدينة النصر .

(٣٣) تنازع كل من أبوللو وأرميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوس الذى كان يرعى قطعانه بجوار المدينة ففضى بحكمه لصالح هرقل ، فغضب أبوللو ومسحه صخرة . وكان لأبوللو فى مدينة أكتيوم معبد مشهور ، والملاحظ أن أوكثافيوس قيصر الذى أصبح الأمبراطور أوغسطس فيها بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كيليوباترة فى معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ ق.م . على مرأى من مدينة أكتيوم .

(٣٤) انظر الكتاب السابع .

(٣٥) كان مونيكوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرفاً مشهوراً بحياة الورع بين أسرته . وقد هاجمه بعض اللصوص ذات يوم وأشعلوا النار في دياره فمسخ جويتر أسرته النقية سرياً من الطيور لإنقاذها من الحريق .

(٣٦) فايكيا اسم جزيرة في بحر أيونيا قريبة من شواطئ إيبيروس تغير اسمها إلى كوركيرا [ كورفو الحالية ] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالترف .

(٣٧) نتوه في جنوب صقلية .

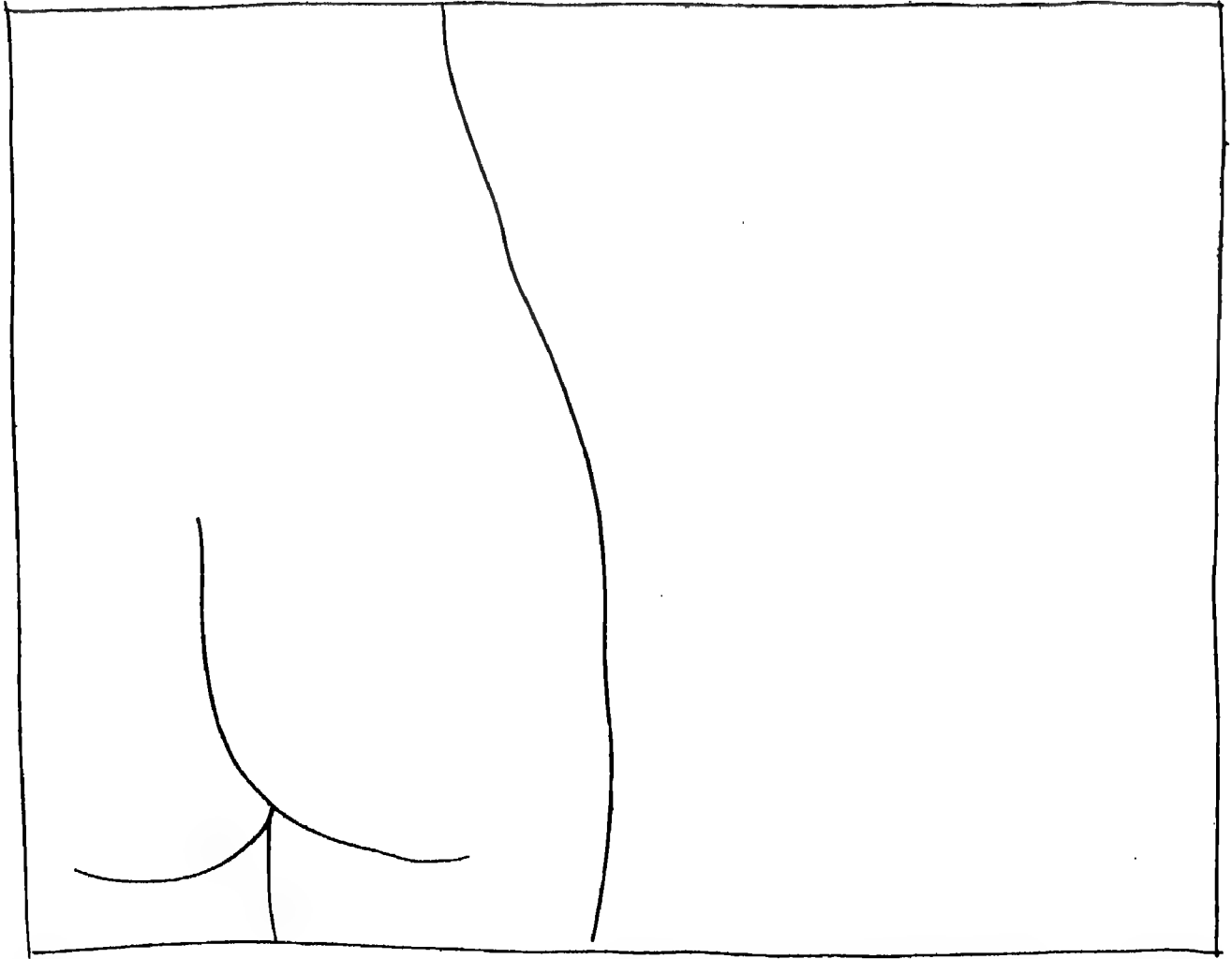
(٣٨) استوحى وصف سيكللا هنا من الأوديسيا لهوميروس [ النشيد الثاني عشر . البيت ٨٥ وما بعده في خطبة كيركي أمام أوديسيوس ] .

(٣٩) كان پوليفيموس إنا لنبتون إله البحار .

(٤٠) تحول أكيس حفيد نهر ثياثوس بدوره إلى نهر ، وهو ذلك الجدول المنحدر من جبل إتنا والذي يحمل اسمه .

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته ، فهو يمثل أحياناً في شكل شاب أمرد ، وأحياناً أخرى في شكل عراف عجوز يخشاه الملاحون ، وكثيراً ما يخلط بينه وبين بروتوس ، ويروي لوفيد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه .

(٤٢) كيركي هي بنت هليوس إله الشمس الذي كان — على ما رواه هزودوس — ابن هيريس وثيا ، ويصفه أوفيد بأنه أحد المردة . وكان هليوس إله الشمس غير أبوللو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً ، وكان أبوه المارد هيريون بدوره بن جيا ربة الأرض وأخا لكرونوس [ ساتورن ] .



بيكاسو

## الكتاب الرابع عشر

### سكيللا وكيركى

خلف الإله الذى اتخذ أمواج بحر يوبويا الصاخبة سكناً له جبل إتنا وراءه ، ذلك الجبل الشامخ الذى قذف به الآلهة فى قديم الزمان ليدقّ عنق أحد العمالقة<sup>(١)</sup> ، كما خلف حقول الكيكلويس الذين كانوا يجهلون استخدام النورج والمحراث ولا يدينون بفضل للثيران المشدودة إلى النير . كذلك خلف وراءه مدينة زانكلييه<sup>(٢)</sup> وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها ، وكذا المضيق الذى أقي على سفن كثيرة بين ساحل أوزونيا [ إيطاليا ] وجزيرة صقلية المتقابلين [ ميسينا ] . وبذراعه المفتولة استطاع عبور البحر الإيتروسكرى [ التيرانى ] حتى أدرك التلال السندسية حيث يشمخ قصر كيركى بنت إله الشمس ، ذلك القصر العامر

بمن مسختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال . وما كاد يلقي كيركى ويبادلها السلام حتى قال لها :  
 ناشدتك أيتها الإلهة أن تترفعى بالإله الذى يمثّل أمامك ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تخففى عني آلام  
 حبي إذا كنت تريّن أنى جدير بهذه المنّة ، فما أعظم قدرة النباتات يا ابنة التيتان ، ولا أحد يعرف هذا  
 معرفتى به بعد أن عانيت المسخ بفعل سحر هذه النباتات . ولكى تعرفى سبب الاضطراب الذى يلمّ بى  
 فأليك ما حدث : لقد وقعت عيني على سكيللا على شاطئ إيطاليا المواجه لأسوار ميسينا ، ويعنى حياتى  
 من أن أقصّ عليك كم من الوعود وعَدْتُ وكم من ضراعات ضرعتُ وكم من عبارات غرام بعثتُ بها إليها  
 فسخرت من هذا كله . وما أطلب إلا أن تنفّج شفتاك المقدّستان عن عُودَة ، ففي عُوداتك تكمن قدرة  
 تعلو كل قدرة . وإذا كان ثمة عُشب فى ملكوتك له ما ليس لعُوداتك من تطويع العصى فلتسعينى به  
 فَلَأَنْتِ به خبيرة . وما أطلب منك ترياقاً ولا بلسماً للجرحى ، فما أنا فى حاجة إلى أن أهرب من الحب بل  
 إلى أن تُكوى سكيللا بنصيبها من النار التى تضطرم فى نفسى .

٢٠

وإذ كانت كيركى أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب ، سواء لما طُبِعَتْ عليه أو لما مُنِحَتْه من الإلهة  
 فينوس الناقمة على إله الشمس<sup>(٣)</sup> [ لوشايتيه بصلتها بالإله مارس ] فقد أجابت جلاوكوس قائلة : « كان  
 أولى بك اختيار حببية تبادل ذلك إرادة بإرادة ورغبة برغبة ونُحْسَ بلوعة الحب كما نُحْسَ ، فما أجدرك بأن تكون  
 النساء هن الساعات إليك ، ولتطمئن بالأل إلى أن سعى النساء إليك حقّ عليهن لوسامتك ، بل صدّقنى  
 أنك لو تذرعت ببعض الأمل لأصبحت أنت من تسعى هى إليك بدلاً من أن تسعى أنت إليها . فلا  
 يخالجنك الشك فى نفسك ولا تفقدن الثقة بوسامتك . انظر إلىّ ، فمع أنى إلهة ومع أنى ابنة إله الشمس  
 المتألق ، ومع أنى أملك العُودات والأعشاب السحرية ذات القدرات الرهيبة ، إلا أننى أتمنّاك وأتوق إلى  
 عشقك . فلتزدر من يزدريك ولتقبل على من تسعى إليك ، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء  
 لأخرى . »

وقال جلاوكوس لكيركى يردّ على محاولتها اغراءه : « ما أنا بمتحوّل عن حبي لسكيللا مادمت حيّاً ،  
 حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب فانشقّت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال  
 بأعشاب البحار . »

وامتلاً صدر الإلهة غضباً ، وإذ كان حبّها لجلاوكوس يحُول بينها وبين التشكيل به فقد صَبَّت نيران  
 حنقها على غريميتها . وهرعت — تلك التى جُرِحَ كبرياؤها ولم تجد صدًى لحنانها — دون أن تضيق وقتها  
 تهرس أعشاباً سامة ذات عصارات فتاكة ، وقرنت المزيج بعُودات لَقَّتْها إياها الربة هيكاتى ، ثم التفت  
 بغلالتها اللازوردية وسارت وسط قطعان الحيوانات المفترسة التى كانت تحتشد حولها مشرّبة الأعناق طلباً  
 للمداغة وخلفت قصرها . ووصلت كيركى إلى مدينة ريبيوم المواجهة لصخور مدينة زانكلييه ، ثم اندفعت  
 فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة ، تدوس بقدميها سطح الماء فلا تبتلّان به .

٤٠

وكان ثمة مغارة صغيرة محذبة القباب متعرّجة المسارب تنسرب مياه البحر إلى جوفها هى الماوى الأثير  
 لسكيللا تختلف إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس المحرقة ساعة تتوسط قبة السماء

فتتكمش ظلال الأشياء . وإذا كيركى تلوث مياه المأوى. وتنتشر سمومها البشعة به ، وتنتثر سائلاً من عصارات جذور سامة ثم تمتصت مرات تسعاً ثلاث مرات بتعاويز سحرية كلها لعنات غامضة وكلمات غريبة ملغزة . ولم تكد سكيلا تغوص في الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً مفترسة تعوى بحيلة بفخذها . ولم يحل بخاطرها في بادئ الأمر أن هذه الوحوش قد باتت جزءاً لا يتجزأ من جسمها فحاولت الفرار وطرد هذه الوحوش وقلبها يمتلىء فرعاً من أنيابها الجارحة ، ولكنها كلما حاولت التخلص من هذه الوحوش شدتها معها ، وكلما تحسست فخذها وساقها وقدميها وجدت مكانها مجموعة من الكلاب الشبيهة بـكلاب كيريروس ذات الرؤوس المتعددة الفاعرة الأفواه ، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها تقوم على هذا الرهط من الكلاب المسعورة ورأت أن نصفها الأسفل ليس إلا كلاباً تلتصق بالجدع الذي يعلوها . أما عاشقها جلاوكوس فولى فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه ، رافضاً أن يتخذ من كيركى زوجة له بعد أن استغلت قدرات أعصابها على هذه الصورة الوحشية . وبقيت سكيلا جامدة في مكانها ، ولم تكد تحين أمامها الفرصة حتى اختطف رفاق أوديسيوس نقمة على كيركى ، وكادت أن تغرق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها مسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج مندرة بخطر يتحاشاه الملاحون .

## الكيركوبيس

ما كادت السفن الطروادية تفلح بقوة مجاذيفها في الإفلات من سكيلا وخاريديس النهمة حتى شارفت سواحل أوزونيا وكادت ترسو بها ، وإذا ريحٌ قوية تدفعها إلى شواطئ ليبيا . وهناك استقبلت أينياس الملكة الفينيقية التي تنتمي إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها معاً . وقضت الأقدار ألا تحتمل ديدو فراق زوجها الفريجي [ بعد أن هجرها بغتة ] فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدتها متظاهرة بأنها لتقديم القرбан . وكما هجرها أينياس على حين غرة هجرت هي الأخرى شعبها وهي تغافله .

وللمرة الثانية<sup>(٤)</sup> لاذ أينياس بأذيال الفرار ، فخلف أسوار المدينة الجديدة المشيدة فوق الساحل الرملي مبتعداً ، وما لبث أن وجد نفسه يعود إلى أرض إريكس<sup>(٥)</sup> وإلى الملك أكستيس<sup>(٦)</sup> الوفي حيث قدم القرابين ونحر الضحايا أمام مدفن أبيه . ثم أبحر من جديد بسفنه التي كادت إيريس مبعوثة جونو أن تشعل فيها النار . وخلف مملكة ابن هيبوتيس<sup>(٧)</sup> ، تلك الأراضي التي تنبت منها أبخرة الكبريت المشتعل . وبعد مروره بصخور « السيرينات » بنات نهر أخيلووس فقد ربانه [ بالينورس ] ، ثم اجتاز شواطئ جزيرة إيناريميه<sup>(٨)</sup> وجزيرة پروخيتيه<sup>(٩)</sup> ومدينة پيشيكوزا<sup>(١٠)</sup> المشيدة فوق تل أجرد والتي اشتق اسمها من اسم سكانها [ پيشيخوى أى القردة ] ، إذ يروى أن كبير الآلهة في قديم الزمان قد ضاق ذرعاً بالسنة الكيركوبيس وبرذائل هذا الجنس المخادع ، وقضى بإزالة العقاب بهم فحوّلهم من أناسٍ إلى حيوانات دميعة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشبه به ، وجعل چوپيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم

فطساء وخدّد أصداغهم بتجاعيد الكهولة ، ثم كسا أجسادهم بشعر داكن وألزمهم هذا المأوى . غير أنه قبل أن يفعل حرمهم القدرة على الكلام وجردهم من ألسنتهم التي تحلف كذباً وتحث باليمين ، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلا بصراخ أجش وبأصوات ناشزة . ١٠٠

## سـيـيـلا

وبعد أن مرّ أينياس بهذه الجزر وخلف عن يمينه أسوار پارثينوى<sup>(١١)</sup> وعن يساره ضريح ميسينوس<sup>(١٢)</sup> نافخ البوق الرنان - الذي كان ابناً لأيلولوس - رسا على شاطئ كوماى بمستنقعات ذات المياه الراكدة . وهناك سعى إلى المغارة التي تأوى إليها سيبىلا المثقلة بالسنين ، وسألها أن تأذن له باختراق مملكة أفيرنوس [ العالم السفلى ] حتى يلقي روح أبيه . فثبّت سيبىلا نظرها في الأرض برهة طويلة ، وبعد أن رفعت رأسها تحدثت بصوت الإله الذي تقمصها قائلة : « إنك لتطلب الكثير أيها البطل الشهير ، يا من كشفت عن بسالتك بضربات سيفك وعن ورعك وبرك بأسلافك بنفاذك وسط ألسنة نيران المدينة المشتعلة . فلتطرح عنك شتى ألوان القلق أيها الطروادى فستحقق أمانيك وسأكون مُرشدتك ، وستعرف عن قريب على ديار إليزيوم [ العالم السفلى ] آخر ممالك الكون ، وستلقى روح أيبك الحبيبة لأنه ليس ثمة طريق تعجز الفضيلة عن سلوكه » .

وأشارت إلى الغصن الذهبى المتألق فى الغابة المخصصة لجوتو الأثينية ربّة العالم السفلى ، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذى يحمله فانصاع لأمرها ، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى التى يحكمها أوركوس ربّ الأهوال حيث شاهد أطياف أجداده وروح والده أنخيسيس الكهل السّمح القلب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان قد ألم بالشرائع التى تسود هذه الديار كما عرف المخاطر التى سيتعرّض لها فى حروبه المقبلة . ثم عاد يسير بخطوات منهكة فى الطريق الصاعد محاولاً أن يتلمّس الراحة من الإرهاق الذى أحسّ به وهو يبادل مرشدته سيبىلا كاهنة كوماى الحديث . حتى إذا خلف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات صاح بها : « يستوى عندي أن تكونى إلهة أو أن ترعاك إلهة فسأظل دوماً معترفاً بفضلِكَ علىّ ، لأنك أنت وجدك من أُنحِتْ لى زيارة مملكة الموت ثم مغادرتها آمناً . واعترافاً بما أسبغت علىّ من مآثر لأشيدنّ لك معبداً عند عودتنا إلى سطح الأرض ولأحرقنّ باسمك البخور » . ١٢٠

فانجهت الكاهنة نحوه وهى ترسل زفرة عميقة وقالت : « لست إلهة يا أينياس ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان . أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئة عن جهل . ولتعرف أنى لو كنت قد ضحيّت بعذريّتى واستسلمت لنزوات الإله فوبيوس الذى كان يعشقنى لحظيت بنور الخلود . وكان فوبيوس يأمل وقتذاك أن ينالنى وما فتىء يغرينى بهداياه ، ويقول لى : « يا عذراء كوماى ما أشدّ حرصى على أن ألبى لك أية رغبة تفصحين عنها » . فالتقطتُ حفنة من الثرى عرضتها عليه وطلبت منه فى حماقة أن يهبني أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتى من ذرات التراب ، ولكنى نسيتُ أن أطلب فى الوقت نفسه أن تكون هذه السنين كلها سبىل شباب إلى نهايتها . ومع ذلك فقد كان من اليسير على فوبيوس أن يهبني أيضاً ١٤٠

الشباب الأبدى لو أننى ارتضيت أن يُشبع وله منى ، لكننى ازدريت ما طلب وبقيت عانساً حتى الآن . أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلت الشيخوخة الحزينة بخطواتها الراجفة ، ومازال على احتماها سنين طويلة أخرى . فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامى أن أشهد ثلاثمائة مرة حصاد الغلال ، وثلاثمائة مرة انسكاب النبيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أكمل عدد ذرات التراب التى تقابل سنى عمرى . وسيأتى وقت أضمر فيه حتى أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضالّة ، وستكشم أعضاءى بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملء قبضة يد فحسب . ولن يصدّق مخلوق يرانى على تلك الحال أنى كنت ذات يوم معشوقة إله . ومن يدرى فقد يعافنى فويوس نفسه ، وقد ينكر أنه مال إلى ذات يوم ؟ وسأبلغ نهاية أيامى على هذه الصورة التى تختلف عما كنت عليه ، وإذا لم يعرفنى أحد لفرط ضالّتى فسيعرفنى الآخرون بصوتى ، وهو كل ما سوف تتركه لى الأقدار .

## أخيمينديس وبوليفيموس

وبينا كانت سيبىلا مسترسلة فى حديثها كان أينياس الطروادى فى سبيله إلى ضوء النهار مخلفاً مملكة ستيكس على مقربة من مدينة « كوماى » اليبوية . وبعد أن قدّم القرايين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطئ الذى لم يكن قد سُمى بعد باسم مُرضعته « كاييتا » . وهنا أيضاً كان مكاريوس بن نيريتوس ١٦٠ اليونانى قد هبط هو الآخر واستقر بعد أن عانى الكثير فى مغامرة بحرية طويلة مرهقة برفقة أوديسيوس المحنك ، فإذا هو يتعرّف على أخيمينديس الذى كان قد ترك مهجوراً منذ أمد بعيد بين صخور جبال إتنا . ودهش مكاريوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قد قضى نحبه وسأله : « أى إله هذا الذى تدّين له بنجاتك يا أخيمينديس ، وأية صدقة تلك التى ترجع لها سلامتك ؟ وأنى ليونانى أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين ؟ وأى ساحل كانت تقصده سفيتك ؟ » .

وأجاب أخيمينديس وكان قد نزع ثيابه المهلهلة التى كانت مخيطة بالأشواك فيما مضى بقوله : إنه لأحبّ إلى أن ألقى بوليفيموس مرة ثانية وأنظر إلى فمه الشرّ الذى تنساب منه قطرات الدم البشرى عن أن يكون وطنى وإيثاكا أعزّ لى من هذه السفينة أو أن يكون تبجيلى لأينياس دون تبجيلى لأى . . . فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيه حقه من العرفان بالجميل . وهل لى أن أنسى أنى بفضلله أتكلّم الآن وأتنفس وأرى الشمس كوكب النهار ؟ إلى مدين له بحياتى فلقد أنقذنى من الموت فى جوف الكيكلوبيس . وها أنذا لومت الآن وفارقت الحياة ما فقدت الأمل فى أن أدفن فى قبر وليس فى أعماق الوحش . أو علمتم بما أحسسته ساعة تركتمونى وأبحرتم نحو البحر الفسيح ؟ [ وإن كان الخوف قد سلبنى كل شعور وإدراك حينذاك ] ، فكم كنت أودّ أن أناديكم ولكنى خشيت أن أكشف بذلك عن مكانى للعدو ، حتى أنتم فى سفيتكم كدتم ١٨٠ أن تحيى بكم كارثة لولا هتاف أوديسيوس . فقد رأيت الكيكلوبيس ينزع كتلة من الجبل ، كما شاهدته يلقى بصخرة ضخمة فى وسط البحر ، ورأيت بعد ذلك يقذف بقوة صخوراً شاهقة بذراعى عملاق وكان

منجنيقاً يطوح بها . وكم كنت أخاف أن تُغرق الرياح والأمواج السفينة وقد غاب عني أنى لم أكن فيها ، وما كاد الفرار ينجيكم من ميته بشعة أكيدة حتى جُنَّ جنون الكيكلوبيس وأنَّ أنات غضب وأخذ يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات التي تعترض طريقه بيده . وقد عوّق به جرمانه من الإبصار فأصبح يتعثّر في الصخور البارزة ، ثم رفع ذراعيه المملطختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الأخيين قائلاً : « لو أن الحظ أعاد إلى أوديسيوس أو أحد رفاقه ، لافترسته غاضباً ولالتهمت لحمه ولمزّقت يدي أطرافه النابضة ، ولرويت حلقى بدمه ولهشمت عظامه بين فكّتي . لو أن هذا وقع لي لهان على فقدان نور عيني الوحيدة » !

وهذه العبارات وغيرها التي أفصح بها عن غضبه امتّقع وجهي من فرط فزعي وأنا أتأمل وجهه الذي أخذ تتساقط منه قطع اللحم ، كما حملت في كفّيه الجافيتين وفي المِخْجَرِ الفارغ الذي أضحى لا يُبصر وفي أعضائه القبيحة وفي لحيته التي تلطّخت شعراتها بدماء البشر . ومثّل الموت أمام عيني ولم يكن الموت إلّا أقل ما أخشاه من شرّ ، إذ كنت على يقين أنه لن يلبث أن يقبض على ويلتهم لحمي فيستقرّ في أحشائه . وتبادرت إلى ذهني صورة تلك الأيام التي رأيت فيها رفاقي يُلقى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعة وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدٌ منفوش اللبدة يلتهم أحشاءهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التي ما تزال تنبض بالحياة . كان جسمي كله يردد ويجمّد في مكان ، كما جمّد الدم في عروقي وتملّكني اليأس وأنا أنطلّع إليه وهو يلوك ضحاياه في فمه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقىء بعضها في سيل تختلط فيه قطع اللحم بالنبيذ . وما كان أشقائي وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيت الأيام الطوال أهيّم على وجهي مختبئاً بين كهف وآخر ، وكلما سمعت صوتاً ارتعدت فرائصي فكنت أخشى الموت وأتوق إليه معاً ، وكنت أسكن جوعى بأكل الأعشاب وثمار البلوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش في وحدة كئيبة وفي عوز ويأس ضحية مُهمّلة معرّضة للهلاك فريسة للكيكلوبيس . وبينما أنا في هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعت ألّوح بيدي مستنجداً وعدّوتُ نحو الشاطئ أنادى ملاحياً ضارعاً . وهكذا قدّر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل رجلاً يونانياً ، فما بالك يا مكاريوس يا أعزّ رفاقي لا تكاشفني بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين في رفقتك وأنتم تحت رحمة الأمواج ؟

## مكاريوس وأوديسيوس

وأخذ مكاريوس يروي كيف كان أبولوس بن هيبوتيس يسود بحار إتروريا<sup>(١٣)</sup> ، وأنه بعد ما حبس الرياح في جلد ثور قدّمه هدية لأوديسيوس ملك دوليكيوم الذي أخذه معه . وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم في البحر ريحٌ رخيّة وقعت أبصارهم على البلاد التي كانوا يقصدونها . وفي فجر اليوم العاشر ملأت الغيرة نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة في تقسيم الغنيمة التي يضمّنها جلد الثور والتي خالوها ذهباً ، فمزّقوا الرِّباط الذي كان يمسك الرياح سجينة في هذا الجلد ، فإذا هي

تنطلق وتدفع السفينة في اتجاه مضاد حتى ألقت بها عند ميناء مملكة أيولوس . واستطرد مكاريوس قائلاً :  
 « ومن هناك أدركنا مدينة لاموس اللستريجونية التي كان يحكمها الملك أنتيفاتس ، وقد ذهبت موفداً إليه في  
 حراسة اثنين من رفاقي ، غير أننا سرعان ما لُذنا بالفرار أنا وأحد رفيقي بعد أن رأينا رفيقنا الثالث قد أكله  
 أهل لستريجون وبدت شفاهم ملطخة بدمائه . ومضينا هارين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس شعبه الذين  
 ٢٤٠ أخذوا جميعهم يلقون كتل الصخور وجذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بما عليها من ملاحين إلا  
 سفينة واحدة نجت هي تلك التي كنت عليها مع أوديسيوس . وبعد أن بكينا من فقداننا من رفاق ،  
 وأمضينا وقتاً طويلاً نرثى لمصيرهم رَسَوْنَا على تلك الشواطئ التي يمكن أن تراها من هنا على بُعد .  
 وصدّقني أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيته . أما أنت يا أشرف  
 الطرواديين يا إبن الإلهة [ إذ يتعذر على يا أيُنَاس أن أدعوك بالعدو بعد أن انتهت الحرب بيننا ] فنصيحتي  
 لك أن تتجنّب شواطئ كيركي . ولما رَسَت سفينتنا بشواطئ كيركي أُبَيْنَا أن نغادر السفينة أو أن نقصد  
 بيتاً لا نعرف أهله ، فقد كنا ما نزال نذكر مغامرتنا مع أنتيفاتس والكيكلوبيس المفترسين . لكن الأقدار  
 اختارتني — حين اقترعنا — أن أذهب ومعى پوليتيس الوفي ويوريلوكوس وإلينيور الشديد الولع باحتساء  
 النبيذ في صحبة ثمانية عشر من رفاقنا لتتعرف على أسوار ديار كيركي<sup>(١٤)</sup> . وما كدنا نصل حتى وقفنا بباب الدار  
 وقد أفرعنا قطيع من ألف ذئب ومعها آلاف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعدُ أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من  
 هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشراً ، بل لقد داعبتنا بذيوها ورافقت خطانا في حنان وأبت مفارقتنا  
 حتى قابلتنا الخادמות اللاتي قُدُنَا إلى ربة البيت عبر أبهاء كبيرة مرصوفة بالرخام ، وكانت تتربّع على عرش  
 ٢٦٠ مهيب في نهاية قاعة شاحخة وترتدى ثوباً يخطف بريقه الأبصار يغشيه معطف مزدان بخيوط القصب ، ومن  
 حولها الحوريات والنيرياويس اللاتي لم يكن مشغولات كالعادة بغزل الصوف وجلد خيوطه الطبعة بأناملهن  
 المدربة<sup>(١٥)</sup> بل كن يُسَقِّن نباتات سيّدتهن ، كما كن يورُعن الزهور والأعشاب المختلفة الألوان بلا نظام في  
 سلال متعددة . وكانت كيركي ترقب أعمالهن باهتمام فلقد كانت وحدها هي التي تعرف نفع كل ورقة كما  
 تعرف أثر امتزاج بعضها ببعض ، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب يميزان دقيق .

وما إن رأتنا حتى بادلتنا التحية وأشرقت طلعتها وهي تعبر لنا عن تمنياتها الطيبة ، وبدا وجهها الباسم  
 وكأنه بشير بنجاح خطتنا . ولم تلبث أن أمرت بأن يُعدّ لنا مزيج من الشعير المحمص والزيت والنبيذ واللبن  
 الخثير ، وأضافت إليه عصارات غلبت حلاوة المزيج على مذاقها ، فتناولنا من يدها الكؤوس التي قدّمتها  
 لنا بيمينها ، ولم تكد أفواهُنا الجافة ظمناً تُسلمها إلى أجوافنا ، ولم تكد الإلهة الرهيبة تلمس أطراف شعورنا  
 ٢٨٠ بعصاها [ وما أستطيع أن اذكر ذلك دون أن أحسّ العار ] حتى أحسستُ بجسدي تنبت فيه شعيرات  
 منتصبة ، وغاب نُطقي وحلّ محلّه خوار أجشّ ، وانكفأت بوجهي على الأرض وإذا فمي يتحوّل إلى خطم  
 متهدّل ، وإذا عنقي ينتفخ بعضلات غليظة ، وإذا يداي اللتان تناولت بهما الكأس تستحيلان قدمين أمشي  
 عليهما ، ودفعوا بنا أنا ورفاقي سجناء في حظيرة بعد أن صرنا جميعاً ضحايا لهذا السحر [ ألا ما أعظم قدرة  
 الشراب السحري ] . وكان أوريلوكوس هو وحده الذي لم يمسخ خنزيراً لأنه رفض الكأس التي قدّمت

إليه ، ولو لم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان إلى الآن خنزيراً بين القطعان الخشنة الشعر ، فكان هو الذى أنهى إلى أوديسيوس الكارثة التى حلت بنا ، فجاء لينقذنا ويثأر لنا من كيركى .

وكان ميركورىوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء بعنق أسود يسميها سكان السموات « مولى »<sup>(١٦)</sup> ، فدخل أوديسيوس دار كيركى وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة وبفضل وعد الإلهة بشدّ أزره . ولما دعتة الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وبثّ الرعب فى الإلهة المذعورة بأن شهر عليها سيفه . وبعدها تصافحا إيداناً بعهد جديد يسوده صفاء النية ورّجت كيركى بأوديسيوس فى فراشها ، وطلب منها جزاء معاشرته إياها أن تردّ له رفاقه على صورتهم الأولى ، فنثرت علينا عصارة عُشب مجهول وضربتنا على رؤوسنا بعصاها معكوسة ونطقت بعوذة تبطل أثر العوذة الأولى . وكانت كلما رثّلت عوذتها أخذ قوامنا يعتدل وتساقط الشعر الذى يكسو جلدنا واختفت شقوق أظلافنا واعتدلت لنا مناكبنا وعادت سواعدنا تظهر من جديد كما كانت . وما كاد أوديسيوس يرى هذا التحول حتى انخرط فى البكاء تأثراً وبكىنا معه نحن أيضاً بينما نحتضنه بأذرعنا ، وكان أول ما نطقنا به هو الاعتراف بالجميل . وقضينا هناك سنة واحدة رأيت خلالها الكثير من الغرائب وسمعت الكثير من العجائب . ومن بين ما سمعت ما روته لى سراً إحدى الوصيف . الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية . فذات يوم بينما كانت كيركى مختلية بقائدى قادتني وصيفتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالجليد وعلى رأسه طائر النّقر . وكان هذا التمثال فى معبد على جوانبه أكاليل زهور كثيرة ، فازددت تشوّفاً لمعرفة من يكون هذا الشاب ، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس ، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذى على التمثال . فقالت لى : أصبح السّمع يا مكارىوس وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّتى ، فامنحنى إذن أذنًا صاغية :

## بيكوس وكاننز

« كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضى الملك بيكوس بن ساتورن الذى كانت جياد الحرب المدربة هى شغله الشاغل . وأمام عينيك صورته تستطيع منها أن تكتشف كم كان وسيماً ، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشف طباعه . وكانت شجاعته تعادل جمال شكله ، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفى لأن يشترك مرات أربع فى مباريات المصارعة التى يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس ، إلّا أن جمال وجهه قد اجتذب إليه أنظار الدرياديس حوريات جبال لاتيوم ، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجارتها فى مسعاها الناياديس بنات مياه نهر ألبولا ونهر نوميكيوس ونهر أنيو ونهر المون التى هى قصيرة مجاريها ونهر النار المتدفق الصاخب ونهر الفارفاروس ذى الأشجار الظليلة ، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التى تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوئية<sup>(١٧)</sup> وحوريات البحيرات المجاورة . غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة أن ثينيليا كانت قد أنجبتها فوق جبل بالاتينوس بعد مضاجعة الإلهة چانوس<sup>(١٨)</sup> الأيونى . وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر

نهداها حتى أثرت بيكوس من أهل لايتيوم على كل من تقدّم لخطبتها فتزوجت منه . كانت فتاة نادرة الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرداً ، ومن هنا سُميت كاننز [ أى مغنية باللاتينية ] . وكان لوقع أنغامها صدى يحرك الصخور والغابات ويروّض الحيوان الكاسر ويوقف جريان الماء في الأنهار الكبرى ، ويجمّد بالطيور عن أن تخفق بأجنحتها . وبينما كانت منهمكة بترديد أغانيها ذات يوم انطلق بيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرية في برارى لايتيوم وقد امتطى جواداً جامحاً وقبض بيده اليسرى على رحمن وارتنى الخلايس<sup>(١٩)</sup> الأرجواني اللون المضموم بمشبك من الذهب الأشقر . وكانت بنت إله الشمس الوافدة من البرارى التى تحمل اسمها . . . برارى كيركى ، قد دلفت إلى الغابة لتقطف من تلالها الخصبية بعض الأعشاب النضرة وما كادت عينها تقعان على الفقى المختبئ وراء إحدى الشجيرات حتى فتنت به وسقطت من بين يديها الأعشاب التى كانت تضمّها ، وخيل إليها أن ناراً ملتهبة تسرى كالبرق في عظامها . وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ لبيكوس بحبّها إلا أن انشغاله ببركض جواده والتفاف تابعيه حواليه حالاً بينها وبين أن تُعرب عن افتتانها به ، وعندئذ قتمت تناجى نفسها : « لن تُفلت منى أيها الفقى ولو حملتك الرياح بعيداً عنى اللهم إلا إذا بطل سحر الأعشاب التى أجمعها وإلا إذا فقدت عوداتى قدراتها » .

وانكفأت على سحرها فإذا شبح خنزير برى أطلقته ليقطع الطريق على الملك ، وإذا الملك يترأى له كأنه يندفع صوب أجمة من الأشجار المتضامة المتشابكة الغصون والأوراق يتعذّر على الجواد اختراقها . فاندفع بيكوس دون روية أو تردّد ودون أن يظن إلى ما دُبر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذى تحبّه ، ونزل عن صهوة جواده الذى رعى خطمه بالزبد من فرط إناهكه ومضى الملك يعدو في الغابة العميقة وراء أمل زائف . عندها بدأت كيركى تتلو صلواتها لأربابها الخفية مردّدة تعاويد سحرية لا تقلّ خفاءً فغطت الغيوم بياض القمر ونسجت فوق وجه أبيها الشمس سحبا ممطرة ، واستطاعت بسحر عوداتها أن تغشى السماء بظلام كثيف وتطلق من الأرض ضباباً معتماً ، فهام رفاق الملك على وجوههم ينيحون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته . وهكذا هيات كيركى لنفسها المكان والزمان المناسبين ، وانطلقت تخاطبه قائلة : « يا أجمل بنى البشر الفانى ، ناشدتك بعينيك اللتين فتنتا عينيّ وبتلك القسمات الجميلة التى جعلتنى أنا الإلهة أقف أمامك ضارعة أن تخفّف من لذع تلك النار التى تلتهمنى ، وأن ترضى بإله الشمس العليم بكل شيء حما لك ، ولا تذهب بك قسوتك إلى ازدراء كيركى ابنة التيتان » .

غير أن بيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً : « لن أكون لك أيّاً كنت ، فثمة امرأة أخرى تأسر قلبي ولا أبغى من الدنيا سوى أن أبقي أسيراً لها على مرّ السنين ، ولا أستطيع في سبيل حب محرم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترعى لى كاننز ابنة چانوس » .

وبعد أن كررت بنت التيتان محاولاتها وضراعاتها سدى حدّرتها قائلة : « لا يبلغن بك الغرور أن تظن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبداً لزوجتك كاننز ، وهاك مثلاً يدلّك على ما تقدر عليه المرأة العاشقة حين تُهان . وإن هذه المرأة التى أحبت ثم أهينت هى أنا . . . كيركى » . وعندها التفتت مرتين نحو

مغرب الشمس ومرتين نحو مشرقها ، ثم مسّت الفتى مرات ثلاث بعصاها السحرية وتمتعت بعوذات ثلاث ، ولكن بيكوس فرّ من أمامها غير أنه ما لبث أن دُهِش حين رأى أن سرعته تفوق قدرته المعهودة وإذا هو يرى أن الريش قد نبت على جانبيه . وإذا أحسّ المهانة لمسحه في غير إبطاء طيراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم غرس منقاره الصّلب في جذع شجرة بلوط برى كما نقر به غصونها الفارعة ، وإذا هو يرى أن ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلاميس الذي كان يرتديه ، وتحوّل مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب ، ولم يبق من الإنسان الذي كان يحمل اسم بيكوس غير اسمه<sup>(٢٠)</sup> [ الطائر النّقار ] .

وبينما بيكوس قد انتهى إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه في الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركى ، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وسمحت للريح والشمس بأن تبدّد السحب ، فانهال رجال بيكوس عليها شاكين مطالبين بمليكمهم ، ثم هدّدوها أن يعنفوا بها وتهيئوا لرشق سهامهم المروعة في جسدها ، ولكنها أسرع فأطلقت عليهم سُمّاً مُبيداً ونثرت حولها عصارات فتاكة ، ونادت على الليل وألهته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء ، ثم أطلقت صرخات طويلة متوسلة بها إلى الإلهة هيكاتى . ألا ما أعجب ما حدث : فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها ، وأرسلت الأرض أنات ملتاعة ، وشجبت الأشجار من حواليمهم ، وابتلت المروج في كل مكان بقطرات الدم ، وسمع الناس الأحجار تتأوه تأوهات صارخة كما سمعوا الكلاب تعوى ، وتغطت الأرض بحشود من الأفاعى الخبيثة ، ومضت أرواح الموق ترفرف في الهواء فذهل القوم مما شاهدوه . ولما رأتهم كيركى على هذا النحو من الهول لمست بعصاها السحرية وجوههم التي علاها الذهول ، فإذا معجزة أخرى تتجلى إذ مُسَخ البشر حيوانات ضارية وتجردوا من هيئاتهم الأولى .

كان فويبوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس<sup>(٢١)</sup> قبل أن يتوارى ، وعبثاً ظلت كاننز ترصد عودة زوجها بعينها وبقلبها ، وكان خدمها قد انتشروا في كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن بيكوس في أعماق الغابات حاملين الشعلات بيددون بها حلقة الليل . ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن ألمها بشتى الوسائل ، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون ، وشهدت أياماً سبعة وليالي سبعة ساعية لا تطعم طعاماً ولا تذوق نوماً تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة ، وكان آخر من رآها هوربّ نهر التير الذي ألقّت بنفسها على ضفّته بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة الحزن . ومع دموعها وبأسها كانت تردّد بصوتها المتهدّج شكاة ما أشبهها في شجنها بأنغام حزينة موقّعة لبجعة قد أشرفت على الموت . وتحلّل جسدها مع الألم حتى ذاب نخاع عظامها ، وتهاوت شيئاً فشيئاً مختلطة بالهواء الذي علقت به . ومع ذلك فإن ذكراها ظلت خالدة حيث هلكت ، وكان هذا المكان هو الذي أطلقت عليه حوريات الماء المسمّيات بالكاميناي<sup>(٢٢)</sup> اسم هذه الحورية كاننز .

تلك عجيبة من عجائب ظللت طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذى أو أشهدا بعيني . وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة في الإبحار حتى أمرنا يوماً بأن نبهر . وقد أندرتنا بنت التيتان أن الملاحه

غير آمنة في هذه المياه وأن الطريق طويل ، وأن هيجان البحر العنيف يندرننا بأخطار شتى فإذا الخوف يملؤني . وإذا كنت قد أدركت هذا الشاطئ قر عزمي على استيطانه .

٤٤٠

## رفاق ديوميديس

ويعد أن فرغ مكاريوس من سرد قصته وضع أينياس رماد جثة مرضعته في إناء رخامي ونقش على قبرها هذه العبارة الموجزة : « ها أنذا كاييتا . هنا أودع البطل الورع الذي أرضعته ثديى بقايا جثمانى في النار المقدسة كما تقضى شرائع الدين بعد أن انتشلنى من نار العدو الإغريقى الحارقة » . وما لبث الطرواديون أن أرخوا حبال سفنهم من المرسى المغطى بالأعشاب وخلفوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة مأوى الإلهة السيئة السيرة ، ثم اتجهت السفن نحو منطقة الغابات حيث يصب نهر التير مياها المختلطة بالغرين الأصفر في البحر تحت ظلال الأشجار . وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره لأينياس قدّم له ابنته بالمثل ، غير أن تلك المشيئة لم يكتب لها أن تتحقق دون قتال ، فشبت حرب مع شعب عنيد شديد المراس . وكان تورنوس قد بذل كل ما يملك من وسائل الترهيب لكي يظفر بابتنة لاتينوس التي كانت خطيئته فيها مضى ، وخاضت مملكة لاتيوم حرباً ضد مملكة تيرينيا ( إتروريا ) بأسرها وبقي جيشاهما يتنازعان طويلاً نصراً عصبياً . وأخذ كل منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية ، وكافحت شعوب شتى متحالفة مع شعب الروتوليين أتباع لاتينوس ، كما كافح آخرون مساندة للمعسكر الطروادى<sup>(٢٣)</sup> . ولم تكن زيارة أينياس لـ « إيفاندر »<sup>(٢٤)</sup> بلا جدوى على حين جاءت فينولوس زيارة فينولوس [ المنتمى إلى الروتوليين ] لمدينة ديوميديس المبعد عن وطنه<sup>(٢٥)</sup> . وكان ديوميديس يحكم البلاد التي كانت مهراً من زوجته ، ولكنه كان يحكمها في ظل حماية داونوس الياپيجى<sup>(٢٦)</sup> واستطاع أن يشيد في هذه الأراضى مدينة ذات أسوار عالية . ولكن ما إن جاءه فينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تخاذل عن مساعدته ٤٦٠ معتذراً بقلّة موارده وضعف جيوشه إذ كان عازفاً عن توريث رعايا حيه . هذا إلى أنه لم يكن بين مواطنيه ما يكفى من المحاربين للاشتراك في القتال فاعتذر يقول : « ما أحب أن تحملوا ردى على أنه ذرائع وتعلّات ، إذ كلما استعدت ذكرياتى أثارّت فيّ ألماً مبرّحاً ، ولكنى مع ذلك سأتحجّل بالشجاعة لأقصّ عليكم قصتى : بعد أن احترقت قلعة اليوم [ طروادة ] وبعد أن التهمت النيران التي أشعلها الإغريق مدينة پرجامون ، لأن بطل ناريكس [ أچاكس ] اختطف عذراء ممن تشملهن إلهة العذارى بالرعاية [ كاساندرا ] ، حُقّ علينا أن نتقاسم العقاب الذي كان يستحقه هو وحده . ودفعت الرياح سفننا في المياه المضطربة الثائرة وجعلتنا نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر ثم نلقى الهول الذي كان خاتمة المطاف في برزخ كافاريوس<sup>(٢٧)</sup> . ولست أبغى الإسهاب في رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة ، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك محنةً كان يسيراً أن تستدر حتى دموع پريام ملك طروادة . أما أنا فقد نجوت لأن رحمة الإلهة منيرفا ذات الدرع والرمح قد أنقذتني من غضبة المياه ، وها أنذا الآن أجدنى مطروداً من حقول أبي ، تعاقبني الإلهة فينوس الطيبة على جرح قديم جرحته إياها عن غير قصد<sup>(٢٨)</sup> .

٤٨٠

وهكذا قُدِّر لي أن أشقى بهذه المحن في رحلاتي بالبحار العميقة كما عانيت محناً أخرى على اليابسة في معارك القتال ، حتى لقد صرت أعدّ أولئك الذين لم يشاركوا في القتال جدّ محظوظين ، وكم أسفت أن العواصف عند برزخ كافاريوس المنيع لم تأت على مثلهم . أما رفاقي الذين ذاقوا متاعب الحرب ومغالبة الأمواج فقد انهارت شجاعتهم وأخذوا يتوسلون إلى أن أضع نهاية لرحلاتهم التي غناء فيها ، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الذي كان ثائراً بطبعه والذي أذكت المحن المتتالية من ثورته قائلاً : « تُرى بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق ما سوف يكون مدى احتمالكم ؟ وهل ثمة عن أخرى تحببها لنا إلهة كيثيرا ؟ فكلما خاف المرء أن يعرض له مزيد من المحن فوجيء بمحن أكثر . وما أقدر الإنسان على أن يغلب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة شقائه فلا يعود قلقه من المستقبل يساوره . ألا فلتسمعني الإلهة ولتلاحقنا بكراهيتها نحن رفاق ديوميديس ، فكلنا نزدري كراهيتها ولا ترهبنا سطوتها الكبرى » . ولقد ضاعفت قولة أكمون المفعمة بالتحدي من ثورة غضب فينوس . وعلى حين هلل بعض رفاق أكمون لقولته لامته الكثرة وكنت أنا من بينهم . وحين حاول الردّ علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا هو يضمّر جسده ويتحوّل شعره ريشاً ، كما كسا الريش عنقه الممسوخ وصدره وظهره ونبت ريش أطول على ذراعيه وتقوّس كوعاه فغدنا جناحين خفيفين ، وامتلاً ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق ، وإذا فمه منقار مدبّب فحملك فيه زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين وإذا هم الآخرون يُسخون على هيئته . وهكذا انطلق أكثر رفاقي سرباً من الطيور يخفق بأجنحته في الهواء ويدور حول المجذّفين بمجاذيفهم . وإذا أردت أن تعرف هيئة هذه الطيور التي وُلدت لتوها فاعرف أنها ليست بجعاً وإن كانت تشبه كثيراً لبياض ريشها<sup>(٢٩)</sup> .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقي فلقد غدونا نضطلع بشئون هذه الديار ونفُلق تلك السهول الجرداء التي انتهت إلى مهراً من داونوس الياپيغي لزواجي من ابنته .

٥٠٠

## شجرة الزيتون البرية

وبعد أن قصّ ديوميديس حفيد أوينيوس قصصه غادر فينولوس مملكة كاليدون عائداً إلى بلاده عبر خليج بيوكيتيا وحقول ميسايا فوق بصره على كهف تُظَلّه أشجار كثيفة وتحجبه عن العيون قصبات من الغاب ، وكان يسكنه بان الإله نصف التيس ، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنته قبل قديماً . ويروى أن راعياً من أهوليا حلّ ذات يوم بهذا الكهف فدُعرت الحوريات من حلوله وهربن فزعات . غير أنهن سرعان ما جمعن شتات رشدهن غير مباليات بمطاردهن وعادن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهن ، فمضى الراعي يسخر منهن ويقلّدهن بوثبات ثقيلة هوجاء ويقذفهن بشتائم بذينة ولم يكفّ إلا بعد أن وقع ساق شجرة على حلقه فإذا هو يمسح شجرة زيتون برّى ، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه ، فمرارتها التي اكتسبتها من خشونة أسلوه تَنِمّ عن بذاءة لسانه .

٥٢٠

## سفن أينياس وقصة أرويا

وحيث عاد الرسل من بعثتهم برفض الإيتوليين تقديم العون لم يقعد الروتوليون عن القتال على الرغم من عدم عون أولئك الحلفاء لهم فتدفقت سيول الدماء من الطرفين . وها هو ذا تورنوس يقذف شعلات النيران النهمة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر فإذا هي تلتهب ، وإذا الرجال الذين نجوا من الموت غرقاً يتهيئون الموت حرقاً ، وكان مولكيسير إله النار قد أخذ يقذف في جوفه بالقطران والشمع وبكل ما يغذى النار وتسلق الصاري الكبير مُصعداً نحو الشراع وسط الدخان المنبعث من العروق التي في مؤخرة السفن . وحيث تذكرت كوييلي أم الآلهة المبهجة أن خشب الصنوبر الذي صُنعت منه هذه السفن قد جاء من أشجار جبل إيدا الذي تباركه ملأت الهواء بصغير المصفار وبقرع الصنوج ، وأقبلت تشقّ الهواء الرقيق على مركبتها التي يجرها زوج من الأسود المروضة وصاحت : « عبثاً تطوّح يداك الجاحدتان بهذه المشاعل المحرقة يا تورنوس فلسوف أنتزعها منك ، ولن آذن لنار أن تحيل جزءاً من غابات رماداً » .

٥٤٠

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أُرعدت السماء ، وهبطت في إثر البرق أمطار غزيرة يتخللها برد متساقط . وأثارت الرياح أبناء أسترايوس<sup>(٣٠)</sup> في الهواء فتنة وفي المياه ثورة في هبوبها ، على حين جعلت أم الآلهة الحنون ريحاً من هذه الرياح تمزق جبال الكتان التي تربط الأسطول الفريجي فدفعت سفنه أمامها حتى غرقت ، غير أن خشب السفن لم يلبث أن تحوّل لحماً واستحالت حيازيمها المقوسة وجوها بشرية ، كما أصبحت المجاذيف أنامل وسيقاننا قادرة على السباحة . وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع . أما الصالب<sup>(٣١)</sup> الذي يتوسط قاع السفينة فقد استحال عموداً فقرياً ، وأصبحت الجبال شعوراً مسترسلة ، وغدت ساريتا السفينة ذراعين غير أن لونهما بقي لازوردياً كما كان من قبل ، وتحوّلت السفن التي كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر يعشن بالمياه . ومن عجب أن أولئك الحوريات اللاتي وُلدن على صخور الجبال بتن لا يفكرن في أصولهن بعد أن ضمتهن المياه ، إلا أنهن لم ينسِينَ مخاطر رحلاتهن في الخضم ، فما أكثر ما كنّ يسندن السفن التي تلطمها العواصف بأيديهن غير سفن الأخيين إذ كنّ مازلن يذكرن مآسى الفريجين التي غدت كراهيتهن لليللازجين [ الإغريق ] ، لذلك فرحن لما رأين حطام سفينة ملك نيريتوس [ أوديسيوس ] ، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها عندما شهدن سفينة ألكينووس تتجمّد ، ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار .

٥٦٠

وحيثما سرت الحياة في هذه السفن — التي تحوّلت إلى حوريات بحار — كان ثمة أمل في أن يفزع الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب ، غير أن الروتوليين لم يعدلوا عن الحرب بل استمروا يواصلونها . وكان لكل فريق آلهته التي ترعاه ، كما كانت لكل منهم شجاعته التي تعدل رعاية الإله . فلم يعد النزاع قائماً حول مملكة أتيفق أن تكون مهراً ، ولا حول صولجان صِهْر ، ولا حولك أنت يا لاثينيا العذراء ، بل أصبح هدف المعركة هو النصر وحده . واستمرت الحرب خشية عار الانسحاب ، إلى أن اطمأنت فينوس في نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس ، وسقطت مدينة أرويا

التي اشتهرت بياسها في حياة تورنوس<sup>(٣٢)</sup> ، حتى إذا تهاوت عترة وسط السنة النيران التي أشعلها الدردانيون وتساقطت بيوتها تحت الجمر المتوهج ، انطلق من بين الخرائب والأطلال طير لم يشهده أحد من قبل أخذ يرفرف فوق المدينة وينفض الرماد من أجنحته الخفاقة ، وأخذت صيحاته وشحوبه ونحوه تذكر كلها بالمدينة الضائعة ، حتى اسم المدينة نفسه قد حمله هذا الطير فسُمي أرديا [ أى مالك الخزين ] ، وهو طير دائم الخفقان بجناحيه والبكاء على مصيره والرناء لمصابه . ٥٨٠

## تأليه أينياس

لقد أنست شجاعة أينياس الآلهة جميعاً ومن بينهم چونو الكراهية التي كانوا يضمرونها له منذ القدم . وكانت سلطة ابنه يولوس التي اكتمل نموها قد رسخت ، وأن لهذا البطل أينياس بن فينوس أن يصعد في السماء ، ومن أجل هذا أخذت فينوس تسعى سعيها لدى الآلهة واحداً بعد الآخر وطوّقت بذراعيها عنق أبيها جوبيتر قائلة : « أبتاه ، أنت لم تقس على يوماً ما ولم ترفض لي رجاء ، لذا فلن أسألك أن تمنحني اليوم أعظم ما أتمناه عليك فتذهب ابني العزيز أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً ، فهو من دم ابنتك ومن ثم فهو حفيدك . فحقق رجائي يا أجل الملوك ، وحسبه أنه ألم بمملكة الظلال يوماً وأنه عبر نهر ستيكس ذات مرة » .

وما إن سمع كبير الآلهة رجاءها حتى أجابها إلى ما طلبت ، وقد قابسته ملكة السموات رضاها فبدت غير متجهمّة يفيض وجهها بالخير . وقال لها كبير الآلهة : إنك وابنتك جديران بهذه الهبة الساوية ، أنت يا من رفعت إلى رجاءك ، وهذا الذي تتوسّلين من أجله ، فإليك يا ابنتي ما تبغين » .

كانت هذه كلمة كبير الآلهة ، وعندها قدّمت فينوس التي عمّها الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التي تجرّها اليامات البيضاء ، وحلّقت في الأثير حتى وصلت شواطئ لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس ليصبّ في البحر المجاور ، هذا النهر الذي تفيض على جانبيه القصبات . وهناك أمرت فينوس ربّ النهر أن يغمس فيه أعضاء أينياس حتى لا يُصيها الموت بالتحلّل ، كما أمرته أن يغوص بها إلى أعماق النهر الهادئة ، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فان إلا ما كان أسمى وأنبل فلا يحتاج إلى أن يمسّه ماء النهر . وعكفت أمه بعد ذلك على دهان جسمه بعطر إلهي ثم مسّت شفتيه بمزيج من شهد الآلهة « الأمبروزيا » ونبذهم العذب « النكتار » ، وهكذا جعلت منه إلهاً ، فرحّب به أهل كويرينوس [ أحد تلال روما ] ودّعوه ربّاً للمكان فشيدوا له معبداً وهيكل . ٦٠٠

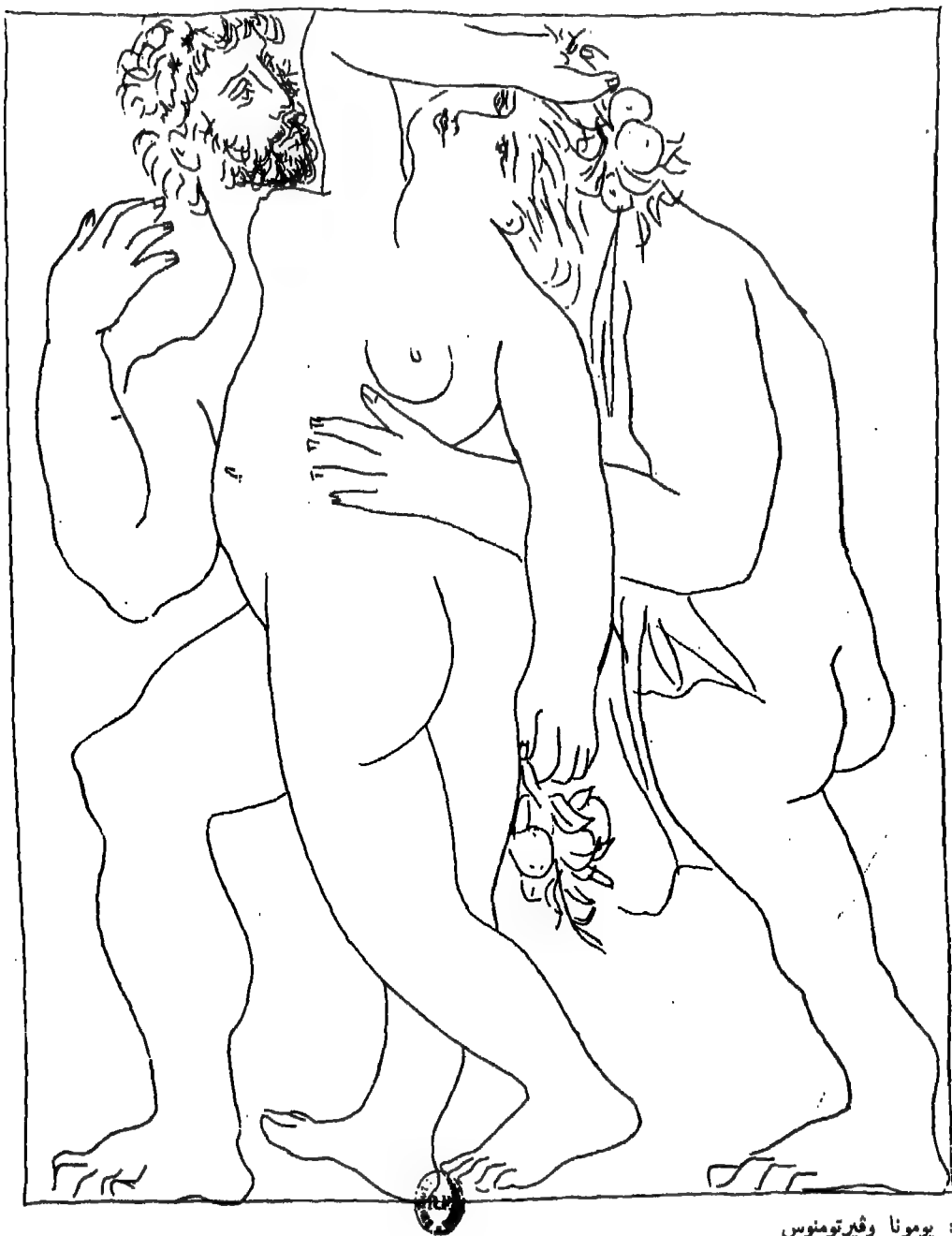
## يومونا وقيرتومنوس : إيفيس وأناكساريتي

وأصبحت مملكة ألبا ومملكة لاتيوم بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس بن أينياس الذي حظى باسمين<sup>(٣٣)</sup> ، إلى أن خلفه سلفيوس . ومن بعده حمل لاتينوس بن سلفيوس اسم سلفه ملك لاتيوم القديم

كما حمل صولجان حكمه . وجاء ألبا الشهير بعد لاتينوس ثم ابنه إبيثوس ثم تولّى كاييس الحكم ومن بعده كاييتوس . ومنها تسلم التاج تييرينوس الذى سُمى النهر الإترورى باسمه بعد أن غرق فيه . وأنجب تييرينوس ريمولوس وأكروتا المقاتل المعتز بنفسه . وقد صعق البرق ريمولوس أكبر الأخوين عندما كان يحاول أن يقلّد البرق فى صعقه . وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلم صولجان الحكم إلى أفثتينوس الباسل الذى دُفن بعد موته فى سفح التل الذى كان قد تقلّد الحكم فوقه ، فأطلق اسمه على هذا التل بعد مماته . ٦٢٠

وأصبح پروكا ملكاً لشعب الپالاتينوس [ أحد تلال روما ] ، وفى عهده عاشت پومونا ، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها فى فلاح البساتين وتنسيق الحدائق ، أو تنافسها فى العناية بشار الأشجار ومن هنا أطلق عليها اسمها پومونا<sup>(٣٤)</sup> ، فلم تكن تعشق الغابات والأنهار فحسب بل تعشق أيضاً الحقول المزروعة وغصون الأشجار المثقلة بالفاكهة الوفيرة ، ولا تحمل يدها حربة تثقل يدها بل تحمل المنجل المقوس تشدّب به أحياناً ذؤابات النبات وتنسّق الغصون المتشعبة أحياناً أخرى . كما تشق أحياناً لحاء جذوع الشجر لتدسّ فيه غصن شجرة يتغذى من عصارة شجرة أخرى ، وكانت دائمة السهر على النباتات لا تدعها تعاني ظمأً بل كانت تروىها من الجداول الجارية حتى تشرب بها أطراف الجذور المتشعبة . كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة فى الحياة ، لا تعاني من لهفة الحب . وكان خوفها من عنف سكان الريف الذين من طبعهم دوماً الشوق إلى المرأة سبب عزلتها فى غوطة الفاكهة التى حرّمت على الرجال دخولها . وكم حاول الساتير أولئك الفتيان المربدون الذين لا يعرفون غير الرقص عملاً ، وكم حاول أتباع بان ذوو القرون المحاطة بأكاليل ورق الصنوبر ، وكم حاول سيلينوس<sup>(٣٥)</sup> الذى يبدو دائماً أصغر سنّاً من حقيقته ، وكم حاول پرياپوس ذلك الإله<sup>(٣٦)</sup> الذى كان يروّع اللصوص بالكشف عن مذاكيره الضخمة الممّعة طولاً والتلوّيح بمنجله الحاد ، كم حاول سدّى أولئك جميعاً الاستمتاع بها . ٦٤٠ كذلك كان فيرتومنوس يكرّ لها حباً أعظم من حب هؤلاء جميعاً ولكنه مثلهم لم يسعد بها . كم مرة ارتدى رداء الفلاح البسيط كى يحمل إليها سنابل القمح فى سلّة فبدا فلاحاً حقاً ! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ المحصود حول رأسه أنه عائد لتوه من حقل الحصاد . وما أكثر ما كان يقبض على السوط بيده القوية مما يجعل الناس توقن أنه منته لتوه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة ، وإذا أمسك بالمنجل ظنّ الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم .

وكان يسير أحياناً والسلم على كتفه فيظنّ الناس أنه ذاهب لقطف الفاكهة ، وإذا أمسك بسيف ظنّوه جندياً محارباً ، وإذا أمسك بقصبة ظنّوه صياد سمك . وأخيراً استطاع بعد هذه الحيل الكثيرة من التكرّر أن يجد الوسيلة التى يقترب بها من پومونا التى كان دائم الشوق إلى إمتاع عينيه بجهاها . وذات يوم أحاط جبينه بشريط مطرّز باللوان مختلفة واتكأ على عصا ، وسوى شعراً أبيض فوق صدغيه ليبدو فى صورة امرأة عجوز ، ودلف إلى حدائقها المنسقة الغرس ، وأبدى إعجابه بالفاكهة التى شهدّها قائلاً : « ما أعظم هذا التاج الغزير الوفير ! » وأغرق فى الشئ على پومونا ، ثم هو بعد هذا الشئ يقبلها قبلات لم يُشهد مثلها من امرأة عجوز ، وافترش الأرض وقد قوس ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدلّية بثقل عطاء الخريف . ٦٦٠



هيكاسو: يومونا وفيرتوموس

وكانت ثمة شجرة دردار شائخة تنتصب أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكأنها قلادة لها مبهرة ، فأطرى تلك الشجرة ورفيقتها الكرمة قائلاً : « لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكرمة التي تكتنفها لما قصدها أحد إلا ليقطف أوراقها ، كذلك هذه الكرمة التي تستند إلى جذع الدردار لو لم تقترن به لمبطت إلى الأرض متخاذلة . أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا المثل الذي تضربه هذه الشجرة ،

فأنت دائمة الهروب من مباحج الحب ولا تحرصين على الاقتران برجل . ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن ترضى يوماً بالزواج . فكم من عشاق قصدوك أكثر من قصدوا هيلينا نفسها ، أو هيوداميا التي كانت سبب المعركة بين اللايث والقنطور ، أو بينيلوي زوجة أوديسيوس الذي كان يبدو شجاعاً حيناً وجباناً حيناً آخر<sup>(٣٧)</sup> . وإلى الآن وأنت تتمنّين على العشاق ، فكم من ألوف من الرجال وقعوا في هواك ، وكم هناك من عشاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومن هم دونهم من الآلهة التي تعيش على جبال ألبا . ولو رُزقت شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك ، ثم لو كانت لك الرغبة في أن تعيش في ظل رجل تسعدان معاً لأنصت إلى تلك المرأة العجوز التي تقف أمامك ، فحبها لك يطفى على حب الرجال لك وفوق هذا الحب . وما أنصح لك به يا ابنتي ألا تهبطي إلى مستوى العامة واجعلي من فيرتوموس رفيقاً لك في مضجعك ، وأنا كفيلة باقناعه فما أدراني به . وهو ليس ممن ييمون على وجوههم في الأرض وراء مغامرات لا طائل تحتها ، بل هو هذا الذي يُفلح تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك . وهو لا يسقط في حب امرأة رآها آخر ما رأى كما هو شأن من يتودّدون إليك كل يوم ، بل ستكونين له أول من أحبّ ولن يحب بعدك لأنه مشوق أن يجعل حياته كلها لك . ولا تنسى أنه مازال شاباً وأن الطبيعة قد أسبغت عليه حظاً كبيراً من الوسامة ، وأنه قادر على أن يتحوّل إلى أية هيئة شاء ، وأنه رهن إشارتك دوماً لأن يتحوّل إلى الهيئة التي تؤثرين . هذا إلى أنكما تتفقان مشارب وأذواقاً . أليس هو أول من يذوق التفاح الذي تزرعين ، ومن يملأ كفيه فرحاً بثمار الأشجار التي رعتيها ؟ ولكني أقول لك إنه ما به من رغبة الآن في ثمار أشجارك ، كما أنه ما به من رغبة في نتاج بستانك ولا في فاكهتك الغضة ، بل هو أشوق ما يكون إلى طلعك أنت . فارحمي عاشقاً يعصف به عاصف الحب ، واستيقني أن كل ما تمنّاه قد عبر عنه على لسانى . واحذرى آلهة الانتقام وإلهة إيدليا [ فينوس ] ، تلك الإلهة التي تبغض القلوب الغليظة المتحجرة ، ولتحذرى غضب نيميسيس المتحفّز إلهة الثأر وراعية رامونتي التي لا تحونها الذاكرة أبداً . ولكي تدركي ما قد تتعرّضين له من سطوة الآلهة إليك قصة ذاعت في قبرص ، فقد جعلتني حياتي الطويلة أقف على الكثير من الخفايا ، ومن يدرى لعل قصتي تلين قلبك وترقق عواطفك .

٧٠٠ « كان ثمة رجل من أسرة متّضعة يدعى إيفيس قد وقع بصره على الأميرة أناكساريّتي حفيدة تيوكير [ ملك فريجيا في قديم الزمان ] ، وسرعان ما أحسّ بنار الهوى تلهب عظامه . وحاول كثيراً أن يكبح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق ، فجاء متوسلاً إلى عتبة بيت معبودته حيث اعترف لمرضعتها بحبه اليائس للأميرة والتمس منها السعى لديها لتبثها ما له عليها من آمال ، كما توسل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المعذب ليمنحنه تأييدهن ومساندتهن . وكثيراً ما أودع في رسائله عواطفه الحانية ، وكثيراً ما كان يعلّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مبتلة بدموعه ، وكثيراً أيضاً ما كان يلقي بنفسه على عتبة الباب مُسلماً جسده لقسوة الحجر الصُّلب وهو يلعن القفل المنيع الذي حال بينه وبين الدخول بصوت حزين . وكانت أناكساريّتي أشد قسوة من البحر نفسه ، ذلك البحر الذي يهيج عندما يأفل نجما الجذيين زيتا وإيتا ، وكان قلبها أعتى من حديد مسابك نوريكوم<sup>(٣٨)</sup> وأصلب من الصخور الراسخة في الأرض . وما

أكثر ما سخرت منه ، وما أكثر ما ردت على تشبيهه بعبارات قاسية ملؤها التعالي والخيلاء حتى سدت في وجه عاشقها طريق الأمل . ولم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرته على المعاناة فانطلق أمام بيت الفتاة يردد كلماته الأخيرة بصوت عال : « لقد كُتِبَ لك الفوز يا أناكساريقي ولن تضيقى بالحاحى بعد اليوم دَرْعاً . فلتفرحى ولتسعدى بنصرك المؤزر ، ولتشدى نشيد النصر ولتعصبى جبينك بأكاليل الغار المتلاثة . فانت من كُتِبَ لك الفوز ، وها أنذا أموت طوع إرادتي . اذهبي راضية يا من قُدَّ قلبك من فولاذ ، ولعل يوماً يُقبل تشهدين فيه أن موقفك منى جعلنى أفعَل ما يحرك إعجابك بى وتقديرينى قدرى . ولكن اذكرى أن حبي لك دائم مادمت حياً إذ أن نور الحياة ونور الحب يخمدان معاً . ولن يحمل لك خبر موتى شائعة من الشائعات المتداولة بل سأمثل أنا نفسى أمام عينيك حتى يكون لك يا أقيسى النساء أن تمتعى نظرك برؤية جسدى الهامد . ناشدتك أيتها الآلهة فى علاكم أن تجعلوا قصتى مروية على ألسنة الناس على مرّ العصور كلما عنّ لكم أن تنظروا فى أعمال البشر [ وما يملك لسان أن يتوسل إليكم بأكثر من هذا ] ، وأن تضموا إلى ذكراى تلك السنين التى اقتطعتموها من عمرى » .

٧٢٠

ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذى كثيراً ما علّق عليه أكاليل الزهور ، وبذراعيه الممدودتين ربط جبلاً بأعلى مصراعى الباب وشدّ به أنشوطه ، وصاح من جديد قائلاً : « انظري . هاك الأكاليل التى ترتضيها يا أناكساريقي القاسية ! » ثم دسّ رأسه فى الأنشوطه وشنق نفسه . وظل حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه معلقاً بالباب فاقد الحياة متجهاً ببصره صوب الأميرة . وأخذت قدماء ترتبطان بمصراعى الباب فإذا لهما نحيبٌ وكأنه يندب ما حدث فى مرارة ، وانفتح الباب قليلاً وإذا أهل البيت تتكشف لهم المأساة وصرخ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس ، ثم حملوا جثته إلى دار أمه الأرملة ، فضمت ابنها بين ذراعيها واحتضنت الجثة الهامدة الباردة وفاهت بعبارات الأسى التى نسمعها للآباء والأمهات فى مثل هذه المواقف ، وأقدمت على ما تقدم عليه الأمهات الشقيّات فانفجرت بكاء وقادت جنازة طويلة اجتازت المدينة حاملة جثمان ابنها على النعش فى طريقه إلى المحرقة . وكان بيت أناكساريقي قريباً من الطريق الذى تمرّ به الجنازة ، وبلغت أصوات النحيب أذن الفتاة المتحجرة القلب ، وشرع إليه الثار فى إثارة ضميرها . وعلى الرغم من طبيعتها التى لا مبالاة فيها بدأت الشفقة تتسلل إلى قلبها وصاحت : « دعونى أشرف على هذه الجنازة الحزينة » . ثم صعدت إلى حجرة مرتفعة فى بيتها لتطلّ على المشهد من نافذتها المفتوحة على مصراعيها ، وما كاد طرفها يقع على إيفيس وهو مُسجى على نعشه حتى جمدت عينها وسرى فى جسدها شحوب الموت وجفّت دماؤها وانطفأت فيها حرارة الحياة وحاولت أن تعود إلى حيث كانت ولكنها ظلت جامدة فى مكانها ، وحاولت سدى أن تتلفّت بوجهها مرة إثر مرة ، وإذا التحجّر الكامن فى قلبها يسرى فى جسدها كله . وحتى لا تظنّ أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمى أن فى سلاميس إلى يومنا هذا تمثالاً لمعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم « فينوس المتغطرة المتوجّسة » .

٧٤٠

٧٦٠

فلتذكرى هذه القصة أيتها الحورية ونحلى عنك هذا الكبرياء الذى يملؤك صداً وتمنّعا ، وهبى نفسك

لعاشقك ، حتى لا يُحمد لفح الصباح البارد في الربيع براعم ثمارك ، ولا تنثر ريحه في هبوبها زهراتك التي هي الأمل في ثمارك .

وهكذا حاول الربّ المتكرر في صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيته على پومونا ، ولكن إذ ذهبت مساعيه هباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الجذابة ، وخلع رداء الشيخوخة وظهر أمام الفتاة في أوج مجده كالشمس حين تظهر من وراء السحب البادية أمام طلعتها ، وتأهب لأن يأخذ أموره بالعنف فيحقق مأربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك ، إذ ما أسرع ما افتتنت الحورية بجمال الربّ وأولعت به كما كان هو بها مولعاً .

## رومولوس وهيرسيليا

وحكم مملكة أوزونيا ذات الثروة الوفيرة بعد بروكا أموليوس الظالم اعتماداً على جيشه الجرار إلى أن استرد نوميتر<sup>(٣٩)</sup> العجوز بعون حفيده مملكته السلية . واكتمل خلال مهرجان الهاليليا<sup>(٤٠)</sup> إرساء أسس أسوار مدينة روما . ثم جاء تاتيوس ورؤساء قبائل السابين فشنوا الحرب على قلاع المدينة ، وكانت الفتاة طارياً قد مهدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هي تلقى جزاءها العادل حين لقيت حتفها بقذائفهم المتتابعة . ثم تسلّل أبناء قبيلة السابين<sup>(٤١)</sup> من مدينة كوريس في خفاء وصمت الذئاب وهاجموا حراس المدينة وهم غارقون في نومهم . وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا باب واحد فتحته چونوبنت ساتورن في حرص حتى لا يكون له صرير . وكانت فينوس هي وحدها التي رأت مزلاج الباب وهو ينزع وكادت تحاول إغلاقه لولا ما جرى عليه عُرف الآلهة بالألّا يُطل إله عمل إله آخر . وإذا كانت حوريات المياه الأوزونيات يعشن قريبات من هذا المكان إلى جوار معبد چانوس في منطقة تتدفق فيها مياه عين نديّة ، لجأت فينوس إليهن فلم يستطعن إلا أن يُعاونها فقد كان مطلبها عادلاً ، ففجّر مياه الأنهار والجداول التي تُمدُّ ينابيعهن [ للحيلولة دون العدو وبين اقتحام أسوار المدينة ] . وبالرغم من ذلك عجزن عن أن يَسُدْنَ الطريق المؤدى إلى باب معبد چانوس ولم يُفلح الماء وحده في صدّ العدو ، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر في أعماق النبع المتدفق وأضرمن النار فيه تحت سطح الأرض بالقار الذي يتصاعد منه الدخان ، فسرّبت الحرارة إلى أعماق الينابيع وغدت المياه التي تحدّت برودتها ذات يوم برودة جبال الألب في حرارة المُهل والنار نفسها . ومن هذا الشواظ الناري الملهب اندلع الدخان في حصن بوابة المدينة التي استعصى على السابين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طمعوا في احتراقها [ وما كان أضعف أملهم ] ، فقد وجد أهل المدينة في هذه المياه المتدفقة عوناً لهم ريثما يجد جنود مارس فسحة من الوقت يتسلّحون فيها ويحملون تروسهم .

وقاد رومولوس جنوده في الهجوم وانتثرت جثث السابين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث المواطنين الرومان ، فامتزج دمُ الصُّهر بدمِ زوج ابنته على نصال السيوف الغادرة يجرى في جداول .

وعندها رأى الجيشان أن يكفّا عن مواصلة القتال ، وأن يُبرّما بينهما صلحاً ينهى الحرب ، وأن يشارك تاتايوس رومولوس عرشه .

ومات تاتايوس وتوّج رومولوس ملكاً على الشعبين فخلع مارس إله الحرب نخوذته وتوجّه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً : « ألا لقد حان الوقت يا مولاي . ها هي ذى روما قد استقرت ولم تعد تركز إلى حماية بطل واحد ، وأطلّ الأوان الذى ستمنحني فيه الجائزة التى وعدتني بها فترقى برومولوس من الأرض إلى السماء . وإنى لأستعيد قولك لى فى مجلس من مجالس الآلهة [ وإنى لأذكر كلماتك الجلييلة التى بقيت مخفورة فى ذاكرى ] : لترفعنّ يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء . ألا فلتكن كلماتك الآن أفعالاً » .

فأولما جويتر الجبار برأسه مستجيباً ، وما لبث أن ملأ الأجواء بسحب داكنة وألقى الفزع والرعب فى قلوب الناس برعده وبرقه ، فأدرك مارس أن هذه بشائر رضاء رب الأرباب على ارتقاء ابنه إلى السماء . واعتاداً على رحمة الطويل اعتلى مركبته التى تجرّها الجياد يشقّ الأنفس وبينها عريش ملطّخ بالدم ، وساطها بسوطه مراراً فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الپالاتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضى بين شعبه بالحكمة والعدالة فانزعزع مارس من بينهم ، وتناثر جسد الملك القانى فى الفضاء كما تتناثر فى السماء قذيفة متفجرة قذف بها المنجنيق وإذا جسده البشرى فى جلال يليق بجلال الآلهة فى علاهم ، وغدا اسمه كويرينوس مُرتدى الترابيا [ ثياب الاحتفالات السهاوية ] . ٨٢٠

وحين انخرطت هيرسيليا زوجة رومولوس باكية عليه متخيلة أنها قد فقدته ، أمرت جونو كبيرة الآلهة وصيفتها ورسولتها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتزفّ للأرملة البائسة بُشراها : « أيتها الملكة ، يا فخر القبائل اللاتينية والسايينية ، ما كان أجدرك فى الماضى أن تكونى زوجة لمثل هذا البطل العظيم ، ثم ما أجدرك الآن أن تصبّحى زوجة لكويرينوس . جفّفى دمعك ، ولو شئت رؤية زوجك فهلّمى معى إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذى تظل أشجاره معبد ملك الرومان » .

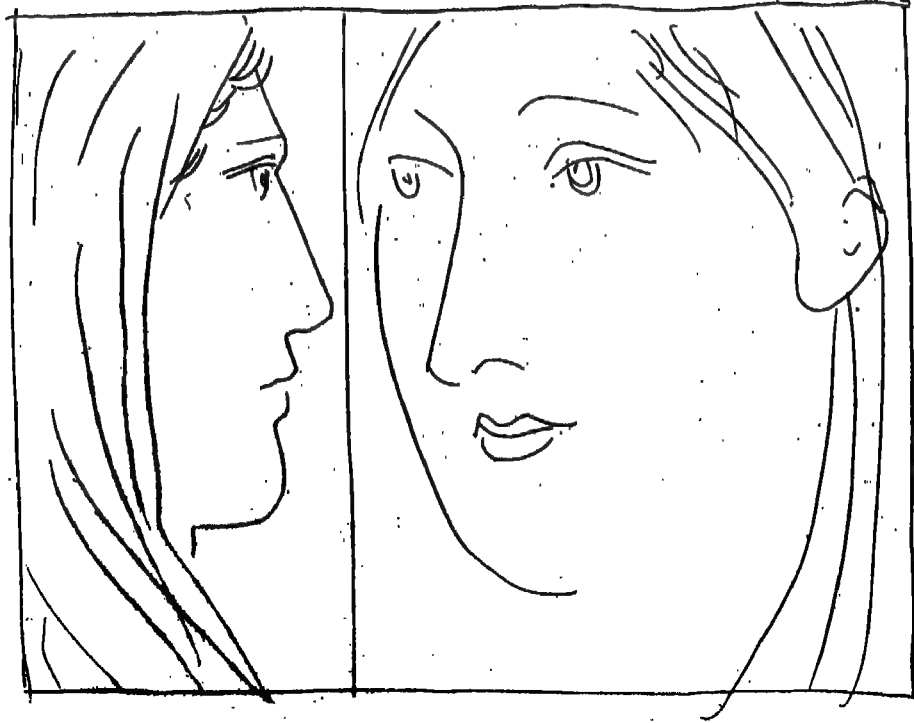
ونفذت إيريس رغبة جونو وانزلت نحو الأرض عبر قوس قزح ذى الألوان البهيجة ، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة جونو ، ولم تجسر الملكة أن ترفع عينيهما فأجابت فى خشوع وتواضع : أنا لا أعرف من تكونين أيتها الإلهة إلا أنه من الجلى أنك تحملين سمات الألوهية . خذيني لأرى وجه زوجى ، فلو أذنت لى الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبت نفسى قد دلفت إلى الجنة » .

وانتهت هيرسيليا إلى تل رومولوس فى رفقة بنت ثاوماس العذراء [ إيريس ] ، وإذا بنجمة من السماء تسقط بغتة إلى الأرض لتشعل النار فى شعر هيرسيليا وتتحد بها ثم تعرج بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضّمّها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين تعرفهما حق المعرفة ، ثم وهبها جسداً واسماً جديدين ، فأصبحت « هورا » (٤٢) الإلهة التى ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس .

# التعقبات

- (١) اسم العملاق المشار إليه إنكيلاديس [ انظر الإلياذة لفرجيل الكتاب الثالث ٥٧٨ ] .
- (٢) مدينة بصقلية .
- (٣) كان إله الشمس قد وثى بحب مارس و فينوس [ انظر الكتاب الرابع ] .
- (٤) كان فراره في المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها .
- (٥) جبل في صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلى جواره .
- (٦) ملك من ملوك صقلية قدم العون إلى بريام في الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته .
- (٧) أمير طروادى تحول إلى نهر وهو والد أيولوس .
- (٨) جزيرة إسكيا اليوم بإيطاليا .
- (٩) جزيرة پروكيدا الآن .
- (١٠) تملو جبلاً بجزيرة بيثيكوزا التي يظن البعض أنها سميت كذلك نسبة إلى أن سكانها قد مسحهم جوبيتر فروداً . ويشيخوى تعنى القرد الصغير باللغة اليونانية .
- (١١) الاسم القديم لتاهل .
- (١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان ناه في البحر عند شواطئ كامبانيا ، وكان ميسينوس قد دفن به بناء على توصية أينياس [ انظر إنياذة فرجيل الكتاب السادس ] .
- (١٣) أقحم أوفيد خطبة مكاربوس كما فعل فرجيل من قبل في قصته عن بوليفيموس لكى يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس .
- (١٤) اقتبس أوفيد هذه الحادثة من الأوديسيا [ الكتاب العاشر البيت : ٨٧ وما بعده ] . أما فرجيل فلا يروى في إنياذته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نبتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [ الإنياذة ٧ ] .
- (١٥) يتبع أوفيد هنا وصف هوميروس بدقة ولكنه ينحرف عن الأصل في وصف غزل الصوف ، فإن النص الهوميروى يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركى وهي تغنى أمام نولها نشيدها الذى دعاه هوميروس « نشيد النسجية » .
- (١٦) يرى بعض العلماء أن المقصود بنبات « المولى » هو « رجلة البحر » غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده .
- (١٧) هي بحيرة نيمى المشهورة بجوار روما ، وسميت أيضاً امرأة ديانا . وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا ربة مدينة أرسيا ، ويلاحظ أن عبادة ديانا في هذا المعبد كانت قريبة جداً في طقوسها من عبادة أرتيمس [ ديانا ] بجبال طوروس ، مما جعل أوفيد يلقبها بديانا السكوئية .
- (١٨) چانوس هو ابن أبوللو وقد أسس قرية بجوار نهر التير سميت چانيكولوم ثم أصبحت فيما بعد جزءاً من روما ، وقد تُوِّج أول ملك لإيطاليا القديمة كما آله بعد موته ، وكان يمثل بوجهين لأنه كان يعرف الماضى والمستقبل .
- (١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشباب .

- (٢٠) تعنى بيكوس باللاتينية الطائر النّار .
- (٢١) منطقة مصب نهر الوادى الكبير بإسبانيا .
- (٢٢) الكاميلى اسم لحوريات المياه وأشهرهن إيجيريا التى كانت ملهمة الفيلسوف نومًا بومبيليوس ، ومن ثم كان اسم إيجيريا يطلق على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين .
- (٢٣) يشير أوفيد إلى الكتاب السابع من الإنيادة الذى تدور كل أحداثه حول ما يومىء إليه أوفيد .
- (٢٤) جاء من أركاديا وأسس مدينة بالتيوم على سفح تلال بالاتيونس ، وقد أصبحت فيما بعد جزءاً من روما .
- (٢٥) تدور هذه الأحداث فى الكتاب الثامن والحادى عشر من إنيادة فرجيل ، ويذكرها هنا أوفيد فى إيجاز مفرط اعتقاداً على أن جمهور القراء وقتئذ كان على بينة كاملة بكل ما ورد فى الإنيادة وبخاصة تلك الأساطير التى تقصّ نشأة روما .
- (٢٦) المقصود زوجته الثانية ، فقد تزوج ديوميديس ابنة أدريستوس ملك أرجوس ، غير أن زوجته خانتة فطلقها وعاد إلى بلاده فى أيتوليا . وخلال عودته إلى دياره انحرقت سفينة نحو شواطئ يايجيا التى يحكمها الملك داونوس . وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يعينه فى حربه ضد الميسايين وهو شعب مجاور لبلاده ، وبعد انتصارهما زوجه الملك ابنته إيفيه .
- (٢٧) فى الطرف الجنوبى الشرقى لمقاطعة يوبويا .
- (٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد فينوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس .
- (٢٩) المقصود طائر النورس .
- (٣٠) استرايوس هو ابن التيتان كريوس ، تزوج من إيوس [ أورورا عند الرومان ] وأنجب رياحاً ثلاثة هى النسيم « زفير » وريح الشمال « بورياس » وريح الجنوب « نوطوس » .
- (٣١) المعارضة الرئيسية التى تمتد على طول قاع المركب .
- (٣٢) كانت لافينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا ، وكانت قد خطبت لقريبها الملك تورنوس ولكن الهاتف الإلهى أمر أباه أن يزوجه من أمير أجنبي ، لذلك قدّمت لأينياس عروساً له .
- (٣٣) أسكانيوس ويولوس .
- (٣٤) نسبه إلى يوموم أى ثمار الفاكهة أو التوت .
- (٣٥) ابن راع وعزّة كان يعيش فى الغابات ، وكثيراً ما يَصوّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لأنه كان قد عشق غلاماً تحول إلى شجرة سرو هروباً من ملاحقته له .
- (٣٦) كان الساتير وأتباع بان وسيلينوس من أرباب الريف . أما هذا الإله فهو الإله اللاتى القديم راعى الحقول . ويصفه أوفيد بأنه بريابوس الذى كانت تُشيد له التماثيل العارية الناعضة العضو التناسل لطرود شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض .
- (٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين ، وهو « الشجاع أمام الجبناء » ، ورأيت الأخذ بالنص القديم .
- (٣٨) منطقة جبلية فى وسط أوروبا على الضفة اليمنى لنهر الدانوب مشهورة بمناجم الحديد .
- (٣٩) الابن الأكبر لهروكا وكان أخوه أمولوس قد خلعه ، ولكن حفيديه رومولوس وريموس ساعده على أن يسترد ملكه المسلوب .
- (٤٠) عيد لتكريم باليس إلهة القطعان والمراعى وهى التى أضفت اسمها على تل البالاتيونس فى روما .
- (٤١) السايين قبيلة مجاورة للآتين الذين احتلوا منبت روما الأصل ، ولم يكن بين الآتين من النساء سوى بعض العاهرات ، وقد شاء رومولوس لرجال الظفر بنساء كريمات حتى يتكاثروا فيخلقوا حضارة جديدة . وكان السايين يأبون الزواج من غير عشيرتهم فدعا رومولوس أشراف السايين إلى حفل كبير فى الهواء الطلق وحمس إلى رفاقه أن يخفوا سيوفهم فى العشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كل بسيفه وقتل أحد رجال السايين ودفع إحدى العذارى السايينات إلى قلعة المدينة الجديدة . [ انظر الكتاب الأول من « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ] .
- (٤٢) كانت هورا كويرينى [ أى التابعة لكويرينوس ] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا السابينية الأصل التى تلعب دوراً كبيراً فى الأساطير الرومانية . وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويرينى وبين الإلهة هورتا التى يبدو أنها من أصل إتروسكى ، والى أقام الرومان لها فيها بعد معبد مفتوح الأبواب . ويقول بعض الشراح أن هورا كويرينى قد تحولت إلى إلهة راعية للشباب فى العقيدة الرومانية .



بيكاسو

## الكتاب الخامس عشر

### نوما . موسكيلوس وكروتون

كان الناس آنذاك يتطلعون إلى رجل له القدرة على حل تلك المسئولية الضخمة على نحو ما كان عليه السلف العظيم . وظهرت المتنبئة وإذا هي تصطفى نوما<sup>(١)</sup> الذائع الصيت ليمسك بزمام السلطة . وكان نوما حكيماً لم يقنع بتعرف طقوس الشعب السابيني بل سعى إلى ما هو أسمى ، وهو اكتشاف أسرار الكون . وأملت عليه حماسه أن يهجر موطنه في مدينة كوريس<sup>(٢)</sup> ويقصد قصد مدينة كروتونا<sup>(٣)</sup> التي التجأ إليها هرقل يوماً . وهناك سأل عن أول من شيد مدينة يونانية على سواحل إيطاليا ، فأجابه شيخ من قاطني البلدة وكان عنده قصص الماضي قائلاً :

يروى الرواة أن هرقل بن جوبيتر عاد من المحيط ومعه قطعان أييرية كان قد اغتتمها ، وبعد رحلة موفقة بلغ شواطئ لاكينوم فترك هذه القطعان ترعى العشب الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفياض الجود حيث وجد منتبهاً يرتاح فيه من عناء الرحلة . وحين عن له أن يغادر المكان قال : « لتقومن في هذا الموقع مدينة على أيدي خليفنا من الأحفاد » وحقت الأيام ما قال . وكان لآليمون الأرجوسي ابن اسمه موسكيلوس كان من أحب الناس إلى الآلهة ، فمال عليه الإله حامل الهراوة وهو مستغرق في نومه وهمس إليه : « هلم معي ، واهجر بيت أليك ولتقصد الجداول المغطى قاعها بالحصى في بلاد آيسار البعيدة » . وخشى الشاب أن يخالف أمره فتتوالى الكوارث الطاحنة ، وحين نهض ابن آليمون من سباته وأخذ يتدبر رؤياه احتدم في نفسه صراع بين الاستجابة لأمر الإله وبين الشرائع التي تحرم الهجرة وتقضى بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر .

٢٠

وحين غاب وجه الشمس المشرق جمالاً في البحر ، ورفع الليل رأسه المرصع بالنجوم خيل للأمير أنه يواجه الإله من جديد ، وأنه يسمعه يكرر تهديده ووعيده ، وأنه سيصيبه بأضرار أشد قسوة إن لم يستجب لندائه . واستحوذ الخوف على موسكيلوس فإذا هو يعد العدة لينقل ما ورثه عن أبيه إلى موطن جديد . وإذا الناس قد بدأوا يتهايمسون بخبره وإذا هو يقدم إلى القضاء متهماً بالخروج على قانون البلاد ، وانتهت المحاكمة بإدائته دون حاجة إلى سماع شهود ، فارتسمت على وجه الفتى المتهم آيات الأسى ورفع بصره إلى السماء باسطاً كفيه وهو يستغيث قائلاً : « يا هرقل يا من صعدت إلى السماء بمأثرك الاثني عشر ، أتوسل إليك أن تمد إلّي يد العونة فأنت من دفعني إلى هذا الموقف » . وجرت العادة أن يستخدم المحلفون الحصى الأسود إذا كان المتهم مديناً والحصى الأبيض إذا كان بريئاً . وإذ حكم المحلفون في هذه القضية بإدانة المتهم وضعوا الحصى الأسود في الوعاء ، غير أنه سرعان ما استحال ما فيه من حصى أسود إلى حصى أبيض بقدرة الآلهة فتغير الحكم وبرئت ساحة موسكيلوس ، فهب يزجي الشكر لربه ابن أمفيريون ، ثم ركب سفينته وأقلع بها في البحر الأيوني تدفعه الرياح المواتية ، فمر بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [ الأسبرطية ] ، ثم مدينة سياريس وفيرنتوم مدينة السالنتينين<sup>(٤)</sup> ثم بخليج الثوريين<sup>(٥)</sup> بتميسا<sup>(٦)</sup> ، ثم بحقول ياكس<sup>(٧)</sup> ومضى بمحاذاة الشاطئ يرقب الأراضي المطلة على البحر حتى بلغ مصب نهر آيسار الذي دفعته الأقدار إليه ، حيث وجد مقبرة يضم تراها المقدس عظام كروتون ، فبدأ يشيد في ذلك الموقع - استجابة لأمر تلقاه - أسوار مدينة تحمل اسم البطل المدفون في تراها . وهذه هي قصة أصل المكان كما رواها الرواة من قديم الزمان ، وتلك كانت أسباب بناء هذه المدينة في أطراف إيطاليا .

٤٠

## پيشاجوراس

وفي جزيرة ساموس<sup>(٨)</sup> ولد پيشاجوراس ، غير أنه تركها لطغيان حكامها واختار عليها أرضاً أخرى هرباً من البطش والاستبداد . وكان پيشاجوراس مشغول الفكر بالآلهة في علياء سائها ، وببصيرته النافذة تعمق أسرار الطبيعة الكامنة التي تخفى عن البشر . وكان له من رجاحة العقل وعمق الدراسة ما نفذ به من

٦٠

- ظلمة الجهل إلى نور العلم الذى بسطه ليدركه العامة فى يسر ، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقنهم أسرار الكون الفسيح معللاً الأسباب ، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنْه الألوهية ، وهل هو جوبيتر الذى يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التى تفرق السحب عن بعضها البعض ، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة ، كما كان أول من أخذ على البشر أكل لحوم الحيوان . وهكذا كان بحق أول من نطق بالحكمة لكن أحداً عندها لم يصدقه حين قال : « أيها البشر الفاني لا تدنسوا أجسادكم بطعام تبغضه الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التى تثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيبات من النباتات تنضجها النار وتحيلها لينة شهية . وما تضمن الطبيعة عليكم باللبن ولا بالشهد الذى يفوح بأريج الزعر ، وحقول الأرض سخية تقدم لكم نتاجها ، وغداؤها الشهي ترحم به موائدكم دون حاجة إلى ذبح أو سفك دماء . فالوحوش هى التى تشبع جوعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها ، فالخيل والأغنام والأبقار لا تفتدى إلا بالأعشاب . أما الحيوان المعروف بالقسوة والمطبوع على الوحشية مثل غور أرمينيا والأسود السريعة الغضب والذئب والذئبة فهى التى تجد متعتها فى لعق الدم . وأسفاه . ما أبشع أن تزدرد الأمعاء أمعاء أخرى ، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر ، وأن يحيا كائن على قتل آخر ! أولاً تقنع بكنوز الأرض الأم وخيراتنا عن أن تمزق بأنيابك أشلاء جسد آخر لتعلا فمك كما يفعل الكيكلوبيس ؟ هل من وسيلة أخرى لتسدّ نهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك ؟ ففى العهد السحيق الذى كنا ندعوه العهد الذهبى كان الناس لا يأكلون إلا من ثمار الأشجار ونباتات الأرض ، ولا يدنس الإنسان فمه بدماء الذبائح . وكانت الطيور أيامها تحلق فى الأجواء دون أن تتهددها أخطار ، وكان الأرنب البرى يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل ، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطعم الملقى إليه فيعلق بالشخص . كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وقتئذ فى كل مكان دون أن يحسب أحد حساباً للمكائد والخداع ، حتى ظهر إنسان شرير واسع الحيلة لا أدرى من هو ، حسد السباع على طعامها ، وقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئاً الطريق إلى الجريمة الآثمة . وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهتد البشر ، وقد كان هذا أمراً ينال الرضا فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا هم له إلا افتراسنا . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه ، فما أبعد عن الحق حين يتخذ من الحيوان غذاءه . ولكن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها ، ويقال إن الخنزير كان أول الضحايا التى استحققت الموت لاقتلعه البذور من التربة بخطمه المدبب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد ، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قرضه الكروم ، فإن كانت هذه هى جريرة تلكها الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خلقت إلا لنفع البشر . فى ضرورك شراب نغتذى به ، وعلى ظهورك أصواف ننسج منها ثياباً حانية ، فنفعك لنا حية أكثر من نفعك لنا ميتة . وما أشقى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أثق الأعباء ! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه شرهه إلى أن يرفع النير عن عنق الثور الذى يحرق له حقله فيذبحه غير راض بما يغل له ، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكدود فى خدمته وفى حراثة الأرض الصلبة لنبات الحصاد بعد الحصاد .

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم بل شاءوا إشراك الآلهة في إثمهم وخالوها تستمتع هي الأخرى  
بذبح الثيران الوديدة ! لقد اتخذوا من فتوة الثور مسوغاً لهلاكه فقادوه إلى المذبح متوجّين بأكاليل الغار  
والذهب ، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها ، ويرى بذور الغلال التي حرثها من قبل تُنثر على جبينه  
وتنسب من بين قرنيه ، ثم يهون عليه بالساطور الذي سرعان ما يتخضب بدمه ، ذلك الساطور الذي  
كان الثور يرى صورته منذ حين وديعاً ساكناً في المياه الطاهرة التي تحتويها أنية المعبد فلا يراه يحمل له شراً .  
ثم يستخرجون أحشائه وهي ما تزال تنبض وترف بالحياة يتفحصونها بحثاً عما تدبره الآلهة للبشر . كيف  
تجسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم ، ألا ما أشدّ نهم الإنسان إلى الغذاء المحرّم . ناشدكم أن  
تقلعوا عن ذلك ولتصفوا إلى نصيحتي ، واعلموا أنكم حينما تمضغون بأسنانكم لحم الثور الذبيح إنما  
تلتهمون حارثكم الوقي .

١٤٠

ومادمت أتحدث عن أمر إله فسأنصاع لأمره كلمة كلمة ، وسأكشف لكم الستار عن أسرار دلفي<sup>(٩)</sup>  
التي أكنّها في صدري ، وسأفتح أمام عيونكم منافذ السموات ، وأكشفكم برسائل الحكمة العليا وأبشركم  
الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغها فظلت خفية عليهم . وكما أود أن أخلق في الأفق بين  
الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التي تُقعد المهمل معتلياً السحاب حتى أهبط على كتفي « أطلس »  
الجبار ، وأطلع ببصري إلى البشر عن بُعد وهم يهيمون على وجوههم على غير هدى فأنشر لهم لفافة القدر  
المطوية وأبشّر في قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت . أيها الجنس البشري المفزع الذي وقف جامداً خوفاً من  
الموت الجاثم ، لماذا تخشى نهر ستيكس والظلمات والكلمات الجوفاء التي ليست غير بضاعة يستخدمها  
الشعراء في قصائدهم ؟ لماذا تخشى أخطار عالم لا وجود له ؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر  
ألماً بعد الموت سواء تحوّلت إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت بطيئاً في الثرى مع مرور الأيام . أما الروح فإن  
الموت لا يدركها ، فهي ما تكاد تخلف ماوى حتى تجد لها ماوى جديداً يفتح أمامها وتعيش فيه  
راضية<sup>(١٠)</sup> . وأذكر واعياً أنني وقت حرب طروادة كنت يوفوربوس بن بانتووس الذي تلقى في صدره طعنة  
قاتلة من رمح مينلاوس ثاني قادة الإغريق . وقد تعرّفت على تلك الترس التي كنت أحمّلها على ذراعي  
اليسرى أيامها حين رأيته منذ قليل بمعبّد جونو في أرجوس مدينة أباس<sup>(١١)</sup> . إن كل شيء يتحوّل ولكنه لا  
يفنى ، وإن نسيات الحياة تمضي في الكون من هنا وهناك تضم من الأطراف ما نشاء ، وتنفض إلى جسد من  
تختار . قد تكمن في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشر . وهذه النسيات التي تبثّ فينا الحياة قد تنتقل منا  
إلى الحيوان دون أن تفقد ذاتيتها ، فهي كالشمع المرن الذي يتشكل صورا جديدة مختلفة ولا يبقى على  
شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد طابعه . أقول لكم إنى أؤمن أن الروح تبقى هي هي دوماً معها حلّت في  
أجساد مختلفة ، فاحذروا - ناشدكم الآلهة - أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بينها وبين أرواحكم  
وشائج قربى فتنتهكوا بذبحها الحرمات ، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرّ بأقربائكم ، ولا تدعوا الدم يعدو  
على الدم .

١٦٠



بيكاسو

ومادمت قد أبحرت كالسفينة في خضمّ أفكارى وجعلتُ الرياح تملأ شراع حديثى فاستطرد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس في الكون كله ثمة شيء ثابت ، فكل شيء في تغير مستمر يسيل كالماء ، وأشكال الكائنات عارضة ، والزمن نفسه يمضي منساباً وكأنه النهر يل أسرع ، لأن ساعة الزمن العجلى لا تستطيع أن تتوقف ولو شاءت . فكما تدفع الموجة الموجة أمامها وتأخذ مكانها فكذلك الساعات تهرب ١٨٠

الواحدة من الأخرى ، وتطارد هذه تلك في تجدد بلا تلبث ، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل . وليست كل برهة من الزمن إلا خلقاً جديداً ، وإنكم لتشهدون الليل ساعة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر ، ويشرق نور النهار ليخلف ظلمات الليل ، وإن لون السماء ليختلف في أوج الليل ساعة يسترخى الناس بعد الكد عنه ساعة يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضمّ ممطياً جواده الأبيض ، كما يختلف قبيل الفجر ساعة ترقش أورورا إبنة باللاس العالم بألوانها قبل أن تسلمه إلى فوبيوس . وإن قرص الإله نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض في الصباح الباكر ، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ في الغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض . وهو يضحى أبيض حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء في الطبقات العليا أكثر نقاء لبعده عن أدراة الأرض . أما كوكب ديانا [ القمر ] الذي يتألق ليلاً فإنه لا يبقى في صورة واحدة بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى ، إذ يكبر كل يوم وهو في طريقه إلى الاكتمال ، ثم يصغر كل يوم وهو في طريقه إلى المحاق .

ثم ماذا ؟ ألا ترون العام يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هي الفصول التي تحاكي مراحل حياتنا . فهي طفل وديع يتغذى بلبن الثدي حين يهمل الربيع ، ويظهر العشب الجديد غضاً رقيقاً لكنه زاهر بالعصارة ، يبعث السعادة في قلوب المزارعين الذين يمثل لهم الأمل ، ثم يزدهر كل شيء وتأخذ الورود المختلفة الألوان في الابتسام للأرض الحانية ، ولكن ما تزال الأوراق غضة يعوزها النماء . وبعد انصرام الربيع يصبح العام أقوى جلدأ مع دخول الصيف مثلما يصبح الطفل شاباً قوياً ، فهي المرحلة الحافلة بالقوة والخصوبة والدفء والحفاصة . وحين تفر حرارة الشباب يهمل الخريف في إثر الصيف ، وهو فصل الامتلاء بالنضج ، يلتقى فيه الشباب بالشيخوخة ، وتظهر بعض الشعرات الشهباء فوق الصدغين . ثم يأتي الشتاء الهرم مرتجفاً متعثر الخطى ناحل الشعر ، وإن بقيت منه بقية كانت ذات لون ناصع البياض .

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها ، ولا تكون في الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هي عليه اليوم . ولقد كنا يوماً في أرحام أمهاتنا - يوم كنا فيها نطفة فحسب - الأمل في إنسان مكتمل ، فتناولتنا يد الطبيعة المخضمة وأمدتنا بالعون ، ولم تشأ أن نبقي سجناء في رحم الأم الضيق لا نستطيع به خراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق . وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له ، ثم يجبوزاحفاً على يديه وقدميه كذوات الأربع . ورويداً ورويداً ينتصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان ، وقد يعتمد على ما يسند ، ثم يصبح قوياً سريع الحركة والعدو ، يمر بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة ، ثم يأخذ في الانزلاج على منحدر الشيخوخة التي توهم عزم السنين الخالية وتزعزع أركانها . ويروى أن ميلون<sup>(١٢)</sup> كان لا يكف عن البكاء في شيخوخته كلما أحس ضعف ذراعيه ونحوها بعد ما كانتا في قوة وصلابة ذراعي

هرقل . كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها في المرآة وقد بدت فيه تجاعيد السنين وتساءلت متعجبة كيف حدث أن اختلطت مرتين متتاليتين<sup>(١٣)</sup> ؟ إيه أيها الزمن ، إنك تلتهم كل شيء ولا تشبع ، وكذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيورة ، تطحنين كل شيء بأنيابك وتنتهين به إلى الموت .

- ٢٤٠ لا ثبات لعناصر الطبيعة ، وإليكم تقلباتها . إن العالم الأبدى يشمل عناصر أربعة هي أصل كل شيء ، اثنان منها ثقلان يغوص بهما ثقلهما إلى أدنى وهما التراب والماء ، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شيء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشد نقاء . وعلى الرغم من أنه ثمة فراغ يفصل بين هذه العناصر فإن كل شيء يبدأ منها وينتهي إليها . فالأرض حين تذوب تستحيل سائلاً ، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء ، والهواء بعد أن يفقد وزنه كله ويرقّ ينطلق نحو الأثير الملهب . ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحولات في اتجاه عكسي ، فتعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلي مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذي ذكرته . فالنار مثلاً تتكاثف فتصبح هواء ، والهواء يصبح ماء ، والماء عند تجمّده يشكّل أرضاً صلبة ، فلا شيء يحتفظ بشكله الأصلي ، فالطبيعة في جدد مستمر ، والمادة دائمة التشكّل في أشكال مختلفة ، إذ لا شيء يفنى ، فالكون فسيح ، وكل شيء فيه يتشكل على صور جديدة متغيرة . والميلاد ليس إلا بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها ، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها ، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره ، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغير ، فليس ثمة شيء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً . وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد ، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم والحضارات . وقد رأيت أنا نفسي تحوّل أرض جامدة إلى بحر متدفق ، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صلبة ، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطاة بالأصداف رغم بُعدها عن البحر ، أو نعثر على مرساة قديمة فوق قمة جبل ، كما حوّل الفيضان سهولاً إلى وديان ، وكم دفعت السيول جبلاً إلى وسط السهول ، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارى جرداء ، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة الماء . وفي ذلك دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء في مكان ما وحجب غيرها في مكان آخر . والزلازل الهادرة في أعماق الأرض تفجّر الأنهار فوقها تارة وتمتصها تارة أخرى تاركة مكانها بواراً . وقد انشقت الأرض تحت نهر الليكوس<sup>(١٤)</sup> وابتلعتته في جوفها ، وإذا هو يتفجّر ثانية في مكان بعيد عبر فجوة خرج منها إلى النور . وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم<sup>(١٥)</sup> ، فبعد أن ابتلعتته الأرض ظل يسرى في أعماقها حتى طلع من جديد في حقول أرجوس ، وكذلك نهر كاياكوس<sup>(١٦)</sup> في ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فتركها إلى ضفاف أخرى . أما نهر أمينانوس<sup>(١٧)</sup> الذي يشقّ مجراه في رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويحفّ حيناً آخر . وقد كان الناس يشربون في سالف الأيام من مياه نهر الأنيجروس<sup>(١٨)</sup> بينما لا نملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التي أحدثتها سهام هرقل حامل الهراوة ، اللهم إلا إذا لم نأخذ بما يزعم الشعراء .
- ٢٨٠

ولنذكر أيضاً نهر الهيبانيس<sup>(١٩)</sup> الذي ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت عذوبة مياهه قديماً بماء البحر الأجاج . وفي قديم الزمان كانت مدن أنيسا<sup>(٢٠)</sup> وفاروس<sup>(٢١)</sup> وصور الفينيقية محاطة بالمياه ، وقد خلصت اليوم ثلاثتها من الماء فلم تعد جزراً . ويذكر شيوخ ليوكاديا<sup>(٢٢)</sup> تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهي اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات ، ويقال كذلك إن زانكلييه<sup>(٢٣)</sup> كانت متصلة بإيطاليا حتى ذهبت الأمواج ببرزخ هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة . وإذا كنت تبحث عن مدينتي هيليكيه<sup>(٢٤)</sup>

وبورا<sup>(٢٥)</sup> في البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليها إلا تحت المياه ، فما يزال الملاحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتداعية الغائرة في الماء . وثمة تل عال أجرد بجوار ترويزن<sup>(٢٦)</sup> مدينة الملك پيشوس كان في الماضي سهلاً مستوياً وأصبح اليوم ركاماً من التراب ، فعندما حُبست الرياح في كهوف مظلمة انطلقت تبحث عن متنفّس فلما لم تجد شقاً ولا منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخذت تنفث في الأرض كما ينفث امرؤ في مثانة حيوان أو قربة من جلد جدى ذى قرنين ، فإذا هذا النفث يخلّف تلاً عالياً محدباً . ٣٠٠

وكم من أمثلة تتتابع على ذهني سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر ، وسوف أسرد لكم طرفاً منها . فالماء مثلاً يتخذ أشكالاً غريبة المظهر ، فنبعك يا آمون إذا القرنين<sup>(٢٧)</sup> مياهه باردة في الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب ، ويقال إن الأثامانيين<sup>(٢٨)</sup> يوقدون مشاعلهم بمسّها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكمش أصغر ما يكون . ولدى شعب السيكونيس نهر تُجمّد مياهه أحشاء من يشرب منه وتحيل إلى رخام كل ما تمسّه من أشياء . وهناك نهر الكرائيس والسيياريس ، وهما يلغان مشارف حقولنا ويحيلان لون الشعر إلى كهرمان وذهب<sup>(٢٩)</sup> ، وأكثر من ذلك غرابة أن هناك مياه ذات قدرة على تغيير النفوس لا الأجساد وحدها . ومن ذا الذي لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية<sup>(٣٠)</sup> التي يُجنّ من يشرب منها جرعة أو يسقط في نوم عميق ، وينبوع كليثور<sup>(٣١)</sup> الذي يُصاب شاربُه بتقرّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ذلك أبداً . ولعل ذلك مرده إلى ما بين مياه ذلك ينبوع وبين النشوة التي يولدها النبيذ ، فيروى أهل البلاد أن ميلامپوس بن أميثاؤون استطاع أن يشفى بسحره وبعقاقيره بنات پرويتوس من هذيانهنّ حين ألقى العقاقير في هذا النبع الذي كنّ يشربن منه ، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الكراهية للنبيذ . أما مياه نهر اللينكستيد<sup>(٣٢)</sup> فإن لها أثراً على النقيض من ذلك فمن شرب قليلاً منها ترنّح سكرًا كمن شرب نبيذاً صيرفاً . وهناك بحيرة في أركاديا سمّاها الأقدمون فينيوس<sup>(٣٣)</sup> تُخشى مياهها لخواصها المتباينة المتغيرة ، فهي ضاربة خلال الليل لا النهار ، وهكذا تختلف خواص كل بحيرة عن الأخرى . وفي قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا<sup>(٣٤)</sup> طافية فوق سطح الماء بينما هي اليوم ثابتة . وكانت سفينة الأرجو تخشى صخور السمبليجاديز<sup>(٣٥)</sup> التي تتمايل في المياه كلما لطمتها الأمواج ، أما الآن فهي ثابتة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها . وحتى بركان إتنا - ذو الحَمَم الكبريتية - لم يعد يقذف بلهيبه دوماً كما كان في الماضي ، لأنه إذا كانت الأرض تتنفس تنفس النفس الكائن الحى في أماكن مختلفة تلفظ منها أنفاسها الملتهبة ، فمن الممكن تغيير تلك المنافذ كلما تحركت فتسدّ بعضها لتفتح البعض الآخر . وإذا كانت هناك رياح سجيئة في كهوف الأرض العميقة هي التي تقذف الأحجار في إثر الأحجار ومعها مواد قابلة للاشتعال تلتهب حين تصطدم بأشياء صلبة ، فإن هذه الكهوف تبقى باردة حين تهدأ الرياح . ٣٤٠

وإذا كان القار هو الذى يشتعل فجأة ، والكبريت هو الذى تلتهب مادته الصفراء هو الآخر فجأة مُطلقة دخاناً خفيفاً ، فإن الأرض ما تكاد تفقد قدرتها مع الزمن على مدّ النار بهذه العناصر القابلة للالتهاب حتى تفقد الطبيعة النّهمة مادة غذائها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب<sup>(٣٦)</sup> . ويروى أن في مناطق

الهيپيربورين<sup>(٣٧)</sup> في پالينى رجلاً يكسو أجسادهم زغب خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات في بحيرة تريتون<sup>(٣٨)</sup> ولست أصدق شيئاً من ذلك ، وإن قيل أيضاً إن نساء سكويا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية .

وإذا كان لنا أن نسلّم بالأشياء التى هناك أدلة قاطعة على صحتها<sup>(٣٩)</sup> ، فأمامكم الأجساد التى تتحلّل بفعل الزمن أو الأشياء التى تتحلّل بفعل الحرارة . ألا تعلمون أنها تتحول بهذا الفعل إلى حيوانات صغيرة ؟ اختاروا بضعة ثيران ممتازة واذبحوها وضعوها في حفرة ثم غطّوها ، ولسوف ينبثق منها نحل يمتص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه ، يشبه في ذلك الحيوانات التى تولّد عنها . وإذا دفنت جواد حرب في التراب فسوف تولّد من بقاياها أسراب من الزناير ، وإذا نزع من سرطان البحر مخالبه المقوسة ودفنت بقاياها في التراب لم يلبث أن يخرج منها عقرب يهدّدك بذيله المعقوف . واليسروع الذى ينتشر في الحقول ويغشى ورق النباتات بخيوط نسيجه يتحول إلى فراش جنائزى كما يشهد بذلك الفلاحون أنفسهم ، ويحتضن الغرين بذوراً تُنبِت الضفادع الخضراء ، ولكنها تُنبِتُها في بادئ الأمر بلا سيقان ثم تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف في النمو رويداً رويداً حتى تنمو بعد ذلك قوائم خلفية تطول عن القوائم الأمامية وتعينها بعد ذلك على الوثب البعيد . وما تضع أنثى الدب دباً صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة ، وتظلّ تلحقها حتى تبرز لها أعضاء وتشكّل كما تشكّلت هي من قبل وتأخذ صورتها . ألا ترون أن يرقات النحل منتجة الشهد التى تعيش في خلايا النحل لا تكون ساعة ولادتها إلا أجساداً بلا أعضاء وتظلّ كذلك طويلاً حتى تنمو لها أجنحة وقوائم ؟ أما طير چونو [ الطاووس ] المرصع الذيل بالنجوم ، وطير چوبيتر [ النسر ] حامل صاعقته ، وبعامات فينوس إلهة كيثيرا ، وجماعات الطير كلها ، فهي تولّد جميعاً في بيضات . ولكن أنى لمصدّق أن يصدّق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هي الحقيقة ؟ وهناك من يعتقد أنه حين يتحلّل الكائن الحى في قبره يتحول نخاعه الشوكى إلى ثعبان .

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى ، وليس هناك غير طائر وحيد هو الذى يتكاثر ذاتياً وهو ما يسمّيه الأشوريون العنقاء ، ولا يتغذى هذا الطائر على الأعشاب أو الحبوب وإنما يمتص عصارة أعواد البخور وعصارة الحبهان ، فإذا قارب عمره الذى يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عُشاً وسط السعف في قمة النخلة المتأرجحة في مهب الريح ، يجمع بمخالبه وبمنقاره النقى من كل دنس أجزاء عُشه من نبات القرفة وعلوج عطر الناردين الطيب الرائحة ، ويسيط فوقها أعواد الكافور المختلط بالمرّ البرى ، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط جو من العطور العبقة . ويقال إن ذكّر عنقاء صغير يتولّد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد إلى عمر أبيه نفسه . ومع تطوّر نموّه تتطوّر قواه على حل الأثقال ، فيتخفّف من أعواد عُشه التى هي من سعفات نخل باسق شيئاً فشيئاً ، ثم يحمل في خشوع ما بقى من مهده الذى كان قبل لحد أبيه ، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة هيپيريون حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبد هيپيريون<sup>(٤٠)</sup> ، وإذا كان في هذا ما يُدهش فلسوف تكون دهشتكم أكبر حين تسمعون عن الضبع الذى يتحوّل من ذكر إلى أنثى ثم من أنثى إلى ذكر<sup>(٤١)</sup> ، كما سندهشون أيضاً من حيوان يتغذى على

الريح والهواء ويتلَوْنَ بلون المكان الذى يحلّ فيه<sup>(٤٢)</sup> . وقد يَمَّا أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق<sup>(٤٣)</sup> إلى باكخوس الإله المتوّج بعناقيد العنب ، ويقال إن كل ما تلفظه مئانة هذا الحيوان يجمد ويتحجّر إذا ما خرج إلى الهواء<sup>(٤٤)</sup> ، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود لين يعيش تحت الماء ويتجمد حين يخرج إلى الهواء .

سينطفئ النهار وسيقود فوبيوس جياده اللاهثة إلى أعماق البحار قبل أن أفرغ من إحصاء كل ما يتحوّل في الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً ، فسنة الحياة أن يتغير كل شيء ، وهكذا تقوى بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتتدهور . وقد كانت طروادة مدينة عظيمة البأس شائعة بأبطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة ، وما هي ذى اليوم كومة من الأطلال الخربة التى لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض ، وقبور شيوخها هي كل ثروتها الباقية . وكانت أسيرطة ذائعة الصيت ، وموكنائى مزدهرة ، ولم تكن تقل عنها مجدداً مدينة كيكروپس [ أثينا ] ولا مدينة أمفيون [ طيبة ] ، ولم تعد أسيرطة اليوم غير أرض جرداء ، كما تقوّضت أسوار موكنائى الشائعة ، وماذا خلّفت طيبة مدينة أوديب غير أسطورتته ؟ وماذا بقى من أثينا مدينة پانديون<sup>(٤٥)</sup> ؟ لم يبق لها إلا اسمها . واليوم يقال إن ثمة مدينة شائعة أسسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التير هي روما تُرسى أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن ، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم ، وستصبح عاصمة للكون الفسيح كما تكهن بذلك الهاتف الإلهي والمنبتون بالمصائر والأقدار . وإذا لم تخنّ ذاكرتي فلإنى أذكر أن أينياس كان ينشج متشككاً في الخلاص ساعة أخذت طروادة تترنح فوق دعائمها ، فجاءه هيلينوس بن پريام قائلاً : « إذا كان لك أن تصدّق ما تنبأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تزول حقاً ، لأنك سوف تحيا ، وسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك پرجامون بعد أن تنتزعها من وسط الكارثة ، وستحملها إلى حيث تجد أرضاً أجنبية ترخّب بكما أكثر مما رحبت بك أرض آبائك . وإننى أتنبأ كذلك بأن أحفاد الفريجيّين سوف يؤسسون مدينة لا مثيل لها ولن يكون لها مثيل كما لم يكن لها مثيل في الماضي . وعلى مدى القرون الممتدة سيهيمى لها قادتها البأس والسلطان ، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيدة العالم ، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً ، تاركاً الأرض إلى أسمى البقاع » .

ذلك ما أذكر أن هيلينوس قد تكهن به حين كان أينياس يمضى حاملاً معه ثمائيل آلهتنا<sup>(٤٦)</sup> ، وما أسعدنى أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القرى بمدينتنا تكبر وتزدهر ، وأن انتصار الپيلازجين [ الإغريق ] قد استفاد منه الفريجيّون [ الطرواديون ] .

ولا ينبغى الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن مقصدنا ولنعد إلى موضوعنا . إن السماء وكل ما تحتها يتغير ، وكذلك الأرض وما تضمّه ، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب ، بل نحن كذلك أرواح مجنّحة تستطيع أن تجد لها مأوى في أجساد الحيوانات المفترسة والأليفة . لذلك علينا ألاّ نَمْسُ هذه الأجساد بأذى ، فقد تضمّ أرواح آبائنا أو إخواننا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين ، فلتترقّع إذن عن تدنيس جنسنا ولنعتف عن حشوبطوننا بلحوم كلحوم المأدبة التى أقامها

أتريوس لأخيه ثايستيس<sup>(٤٧)</sup> . ألا ما أبشع عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم البشرى حين يتقدم ممسكاً سكيناً ويهوى بها على عنق الثور اليافع دون أن يلين قلبه لخوااره . من منكم من يرتاح ضميره إذا ما ذبح حملاً يصرخ صراخ الطفل الوليد ؟ وهل منكم من يستطيع أن يقطع لحم طير غذاه بيده ؟ وهل ثمة فرق بين هذا الفعل وبين الجريمة الحقّة ؟ وإلى أين تنتهى بنا هذه الأفعال ؟ اتركوا الثور يُفلق الأرض لا تقضى عليه غير الشيخوخة . اتركوا الأنعام تزودنا بما يكون لنا فيه دفاء من ريح الشمال الباردة . اتركوا الماعز تملأ بطونها لتدّر علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا . اتركوا الشراك جانباً والكائنات ووسائل الغدر ، ولا تخدعوا الطير بعضاً مكسوة بعصارات النباتات اللزجة فتلتصق بها ، ولا تسخروا من الوعل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذى تضعونه فى طريقه فيتحول عنه إلى شراككم<sup>(٤٨)</sup> . ولا تخفوا الشصّ المعقوف فى الطعم الخادع . لكم أن تقضوا على الحيوانات الضارة ، وحسبكم هذا ، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لأفواهكم . ولتبحثوا عن وجبات لا تحصلوا عليها بأساليب همجية ، ولا تجعلوا شفاهكم تلمس غير غذاء حصلتم عليه دون عنف أو عدوان .

## إيجيريا وهيبوليتوس

كانت هذه - كما قيل - هى الدروس التى انبنى عليها فكر روما حين عاد إلى وطنه واستجاب لنداء شعب لاتيوم [ الشعب اللاتينى ] وأمسك بزمام السلطة . ومن حسن حظّه أن زوجته كانت حورية ، كما كانت الكاميناي حوريات الماء<sup>(٤٩)</sup> ملهاته ، فلحق شعبه الشعائر الدينية ، وحول أمة تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمه تجنح إلى فنون السلام . ولما أدركته الشيخوخة كانت نهاية حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً ، وبكته نساء لاتيوم كما بكاه الشعب ومجلس الشيوخ . وقد هجرت زوجته المدينة وآوت إلى أدغال أريسيا حيث أخذت تبكى وتندب حتى بلبت أناتها شعائر الإلهة ديانا التى كان أوربستيس قد أرسى قواعدها<sup>(٥٠)</sup> . وكمن مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من آلامها ، وكمن مرة قال لها البطل هيبوليتوس وهى غارقة فى دمعها : « هوّن عليك من عذاب نفسك ، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة وكمن من كثرات غيرك عاتين مثلها ، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة ولتخفف من شجنك ، وإليك ما وقع لى أقصه عليك حتى تهون عليك مصيبتك . أو لم يبلغ سمعك نبأ موت هيبوليتوس الذى ذهب ضحية لسذاجة والده وخيانة زوجة أبيه الأثمة ، وستدهشين حين تعلمين ما حدث كله وإن لم أكن أقوى على أن أقدم لك دليلاً على صحة ما أقول من أننى أنا هيبوليتوس ، وعلى الرغم من هذا فهيبوليتوس هذا ليس غريب . وكانت فيدرا بنت پاسيفاي زوجة أبى قد حاولت إغوائى وما نجحت فى حملى على أن أدنس فراش أبى وأحمل وزر جرمها ، فاتهمنى بأننى كنت أبغى منها ما كانت هى تبغىه منى ، ولست أدري حتى اليوم أكان اتهامها لى عن خوف من أن أفصح أمرها أم عن كراهية لى لرفضى الإذعان لرغبتها . ولقد طردنى أبى من المدينة رغم براءتى وشيئنى بلعنات كلها كراهية ، فركبت عربتى وقصدت المنفى فى ترويزن مدينة الملك پيثيوس . وبينما كنت فى طريقى إليها عبر شاطئ كورنثه ، رأيت البحر يثور فجأة وترتفع كتلة من الماء

وكانها جبل لها خوار الثيران ، وإذا هذا الجبل المائي ينشق وينطلق من وسطه ثور ذو قرنين قد برز صدره ، وأخذ يلفظ مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه ، فملاً الفزع قلوب رفاقي ولم يتطرق الفزع إلى قلبي الذي كان مشغولاً بأمر منفاي ، فتحولت جيادى الجائحة عن طريقها واتجهت صوب البحر ، ثم انتصبت آذانها وانتفش شعرها هلعاً من الوحش فجمحت شاردة ملقية بالعربة بين الصخور العالية . وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحس بجذب الشكائم في أفواها المزينة بالرغاء الأبيض ، فملت إلى الوراء أجذب الزمام ، وكنت واثقاً من أن جموح جيادى لن يغلبني على أمرى لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشم العربة وإطارها ، فسقطت أسفل عربتي متعثراً في اللجام ، وكانت أحشائي تُرى على الأرض نابضة متحركة ، ولصقت عضلاق بجذع الشجرة وتناثرت أشلائي إلى الأمام وإلى الوراء ، وتهشمت عظامي وكانت لها قعقة مسموعة ، ولفظت آخر أنفاس حياتي المكدودة . ولم يكن ثمة جزء من جسدى يمكن ضمّه إلى جزء آخر ، فلم يعد جسدى غير أشلاء . فهل تُرَيْنَ أيتها الحورية بعد هذا أن مُصابك يبلغ مصابى ؟ لقد شاهدت أنا الآخر مملكة الظلمات وحاولت أن أغتسل بمياه « فليجيثون »<sup>(٥١)</sup> ملتصقاً الشفاء لأعضائي الممزقة ، ولولا عقاقير إسكليپوس بن أبوللو ما عادت إلى حياتي . وإذا كنت قد عدت للحياة بأعشاب إسكليپوس الشافية وفن بيون [ أبوللو ] طيب الآلهة رغم إعتراض ديس [ بلوتو ] ملك العالم السفلى ، فقد غشتني الإلهة ديانا بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد من يشهد هذا العطاء الذي مُنَحْتُهُ وحتى تحميني من كل الأخطار فأظهر دون أن يُصَيِّنِي أذى ، ثم أضافت بعض السنين إلى عمري وغيّرت من قسماي وجهي حتى لا يعرفني أحد . وقد أنعمت الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت تمنحني جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون وطناً لي إلى أن استقر رأيها على ألا تمنحني واحدة منها فحملتني إلى هنا ، كما طلبت إلى أن أبدل اسمي الذي يوحى بذكرى الجياد قائلة : يا من كنت هيبوليتوس ، لتكن منذ اليوم « فيريبوس »<sup>(٥٢)</sup> . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش في الغابة متخفياً رهن أوامر سيدتي التي أخدمها ، ولست غير واحد من الآلهة الثانويين .

٥٢٠

٥٤٠

## تاجيس وكيبوس

ولم يُخَفِّف ما قصصته من مآسى الآخرين شيئاً من آلام إيجيريا التي بقيت مستلقية عند سفح الجبل تنسكب دموعها منهمرة ، حتى أقبلت عليها ديانا أخت فويوس التي تأثرت بوفاء الحورية التعسة لزوجها فبدلت جسدها نافورة نديّة وجعلت من أطرافها جداول من الماء لا تنضب . وقد ثارت الحوريات دهشات لهذه المعجزة ، كذلك لم تقل دهشة ابن الأمازون [ أبوللو ] عن دهشة الفلاح التيريني<sup>(٥٣)</sup> الذي شاهد وسط حقله كتلة من الأرض تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد إذ كانت في يد القدر يحركها كيف يشاء ، ثم تحولت إلى إنسان وفغرت فماً برز بين قسماي وجهها ، فأخذ يُحدِّثُ بنبوءات المستقبل . وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق ، وكان أول من علّم الأمة الإيتروسكية أسرار التنبؤ بالمستقبل . وكان رومولوس قد أصيب في غابر الزمان بالدهشة نفسها حين رأى حربته مثبتة في سفح تل

٥٦٠ الهالاتينوس وقد اكتست فجأة بأوراق أشجار قد اتخذت لنفسها جذراً جديداً ، فلم تعد النصل الحديدي نفسه الذى غرسه فى الثرى وإنما استحالت شجرة تبسط فروعها اللدنة ظلاً لم يكن يتخيله المشاهدون . وكذلك أصابت الحيرة كيپوس [ قائد جيوش الجمهورية ] حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر ، إذ رأى قرنين خالهما فى بادىء الأمر وهما فرغ يديه إلى جبينه مرةً بعد مرةً ، وما كان أشدَّ عَجَبَه حين لمسهما فلم يكذب بعد ذلك عينيه ، وتلبث فى طريق عودته بعد أن رجع متصراً على عدوه ، ورفع عينيه وذراعيه إلى السماء هاتفاً : « لست أدرى يا آلهة السموات عن أى شىء تنبئ هذه المعجزة ، فإن تكن بشير خير فليكن الخير لوطنى ولشعب كويرينوس ، وإن تكن نذير سوء فليقع على وحدى شرٌ ذلك » . وتناول حزمًا من العشب الأخضر أقام بها مذبحاً أطلق فوقه البخور قرباناً للآلهة ، وأراق أمامه نبيذ القربان من أوانى الأضحية ، ثم نحر أغناماً وبقر بطونها كى يعرف من أحشائها التى ما تزال نابضة بالحياة ما يجنبه له القدر . وما كاد العراف الإيتروسكى يشهد الأمعاء حتى أدرك أن المستقبل يجئ به له أحداثاً كبرى وإن لم يتبين ما هى ، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الأغنام إلى قرنى كيپوس وقال له : « مرحباً بك أيها الملك . لك أنت يا كيپوس ولقرنيك<sup>(٥٤)</sup> ستخضع هذه المنطقة ، بل وقلاع لاتيوم كلها . فلا تضع الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة ترحيباً بك . تلك هى مشيئة الأقدار ، فلن تدخل المدينة حتى تتوج بها مليكاً ، وترتقى عرشاً خالداً » .

ارتد كيپوس إلى الراء وأشاح بوجهه العابس عن أسوار المدينة ، وأجاب الكاهن قائلاً : « فلتحجب الآلهة عنى ما تعد ، وخيرلى أن أقضى حياق فى المنفى عن أن يرانى الكايتولينوس ملكاً » . ولم يكذ يتتهى من قوله هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ الموقر بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار رمز السلام<sup>(٥٥)</sup> ، ثم اعتلى ربوة سواها له جنوده البواسل ، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد حسب العرف المألوف ، ثم خطب فى الحشد محذراً : « إن بينكم رجلاً إن لم تبادروا بطرده بعيداً عن المدينة فسوف يصبح عليكم ملكاً ، فمن تراه يكون ذلك الرجل ؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه ، لا بذكر اسمه بل بذكر العلامة التى تميزه ، فله قرنان يعلوان جبينه ، وقد أعلن العراف أنه إذا دخل روما فسيخضعها لقوانين تستعبدكم ، وقد كان بوسعه أن يدخل أبوابكم المفتوحة ، ولكنى منعت من ذلك على الرغم من أنه أقرب أقاربى ، إن عليكم أن تمنعوا هذا الرجل من دخول مدينتكم ، ولتقيده بالسلاسل الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك ، أو فلتخلصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذى يتهددكم » .

وانتشر الهمس وسرت المهمة بين الناس وكأنها الريح الشرقية العنيفة تصفع غصون أشجار الصنوبر الشاخنة أو هدير أمواج البحر المنحدرة من بعيد ، غير أن صبيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات تقول « من هو ؟ » ، فأخذ الناس يتطلعون إلى رؤوس بعضهم البعض ليتعرفوا لمن تكون له هذه القرون ، فانطلق كيپوس قائلاً : « ها هو ذا من تتطلعون إليه » ، وعندها نزع إكليل الغار الذى يغطى رأسه رغم معارضة الناس ، وكشف عن صدغيه وقرنيه المظللين منها فعرفه الجميع .

وزجرج الشعب وغيض من بصره ، ولم تشرب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلعت إليه القلوب بصيرتها لترى ذلك الرأس المهيب وقد توجته جلائل الأعمال ، ورفض الجميع أن تبقى رأس كيبوس عارية عن رمز مجده وأرغموه على إعادة الإكليل إلى رأسه . ورأى شيوخ المدينة - إذ كان محرماً عليه الدخول إلى قلب المدينة - أن يهبوه نصيباً من الحقول بقدر ما يقوى على حرثه بزوج من الثيران من شروق الشمس حتى غروبها ، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة قرنين يمثلان قرني البطل تخليداً للذكرى هذه المعجزة لسنين مديدة مقبلة .

٦٢٠

## إسكيبوس

حدثني يا ربّات الفنون يا ملهيات الشعراء ، فأنتن أدري بما أسأل عنه ، وما ينفى عنكن شيء من أسرار الماضي البعيد ، فلتكشفن لي كيف استقبلت الجزيرة التي يحتضنها حوض نهر التير العميق ابن كورونيس<sup>(٥٦)</sup> وجعلته واحداً من آلهة مدينة رومولوس ؟

فلقد حدث قديماً أن لوث وباء بشع جوّ لاتيوم ، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً في إثر الآخر بعد أن جُدت أجسادهم الشاحبة وقد غاب عنها الدم ويات مشهدها بشعاً كريهاً . وحين ضاق أهل روما صدرها بكثرة من يشيعون من الموق ورأوا عجز جهود الناس وقصور فن الأطباء عن القضاء على الوباء طلبوا عون السماء ، فقصدوا دلفي « صرة » العالم ليستشيروا عراف فويوس متوسلين للإله أن يدركهم برحمته ويُسعفهم بما يطمئنهم ويضع نهاية لهذه الآلام الفادحة التي طحنت مدينتهم . واهتزت الأرض واهتز معها شجر الغار وارتجت كنانة السهام التي يحملها الإله نفسه ، وإذا كرسي العرافة الثلاثي القوائم يصوت فاهتزت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفزع في نفوس الحاضرين وإذا صوتها يقول :

« كان بوسعك أيها الروماني أن تلمس وأنت قريب من بيتك ما جئت تطلبه هنا ، فعد إلى هناك ولست في حاجة إلى أبوللو ليخفف عنك شقاءك . إن ابنه هو الذي سيجعل عدد موتاكم يتناقص ، فاقصدوه محملين ببركاتي أنا واستضيفوا عندكم ولدي الذي أنجبته » .

٦٤٠

وحين علم حكماء مجلس الشيوخ ما أمر به الإله تساءل أعضاؤه عن المدينة التي يحيا بها ابن فويوس ، واختاروا وفداً حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطئ إبيدوروس ، وما كادوا يبلغونها بسفيتهم المحذبة الجوانب حتى مثلوا أمام مجلس كبار المدينة اليونانية ، ورَجَوْه أن يدهم على الإله الذي سيتحقق خلاص أمة الأوزونيين [ الإيطاليين ] على يديه حسبما صالح به هاتف إلهي موثوق به له شأنه . وتداول المجلس الأمر ، وتفرقت الآراء بين قلة ترى أنه لا يمكن رفض مد يد المساعدة ، وكثرة تشير بالرفض حتى لا يُجرموا رعاية الإله حين يُسلمونه إلى غيرهم . وطال نقاشهم حتى طارد الشفق ضوء النهار ولف الليل وجه الأرض بظلمته ، وإذا أنت تحلم برؤية الإله المغيث منتصباً أمام سريرك أيها الروماني على نفس هيئته وهو في معبده ، تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية ، ويمسح بيمينه لحيته الطويلة ، ويقول في

صوت رفيق : « لا تخشى شيئاً فسوف آتى مخلفاً طيفي ورائي وإن كنت سأبدو في غير صورتي . فأنعم  
٦٦٠ النظر إلى هذا الثعبان الذي يلتف على عصاي ، وتبين أجزاءه لتتعرف عليه حق المعرفة ، فلسوف أبدو في  
هيئته غير أن حجمي سيكبر حجمه ، وسوف ترى لي قامة عالية لا تليق إلا بالآلهة حين تتحول من هيئة إلى  
أخرى » (٥٧) .

ثم اختفى الإله واحتجب صوته وتبدد النوم . ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع الخير  
يوميض ، وأخذ فجر اليوم الجديد يطغى على نور النجوم ، ومضى أعيان المدينة وهم لا يعلمون ما هم  
فاعلون يتوافدون على المعبد الرائع (٥٨) للإله الذي طلب إليهم أن ينزلوا عنه ، والتمسوا من الإله أن يوحى  
إليهم بالمكان الذي يختاره للنزول فيه . ولم يكذب دعاؤهم ينتهي حتى كان الإله قد تحول إلى ثعبان ضخم  
العرف يفصح بفحيحه عن ظهوره بينهم ، وعندها اهتز التمثال (٥٩) والهيكل والباب والأرض المرمية  
والسقف المذهب . ثم شمع الإله برأسه وصدره وتوسط المبنى مجيلاً فيه نظرات لها وميض فأزعج الناس  
هلعاً حين تعرف عليه الكاهن - الذي كان يعقد شعره المقدس بشریط أبيض - وقال : « انظروا ها هو ذا  
الإله ، ها هو ذا الإله . فليصمت الجميع ، ولتطردوا الأفكار المندسة من رؤوسكم ، وليكن ظهورك بيننا  
أيها الإله العظيم بشير خير للشعب الذي يخلص في عبادتك » . وسجد الحاضرون للإله المائل أمامهم  
٦٨٠ مرددين دعاء الكاهن . وضم ممثلو شعب أينياس دعاءهم إلى دعاء الإغريق ، وتقبل الإله طقوس الطاعة  
والولاء وحرك عُرْفه تعبيراً عن رضاه ، واستأنف فحيحه بلسانه المتذبذب ، ثم انزلق على درج السلم  
المصقول ، والتفت إلى الوراء قبل رحيله يلقي نظرة أخيرة على المعبد العتيق . وبعد أن حيا مسكنه الأليف  
والمعبد الذي عاش به زحف بجسده الضخم على الأرض التي غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه .  
واخترق المدينة حتى بلغ المرفأ الذي يكتنفه رصيف صخري دائري ، فتلبث ونظر إلى مودعيه الذين جاءوا  
في إثره تكريماً له نظرة مفعمة بالسكينة تحمل الشكر وتأذن لهم بالانصراف ، ثم أخذ مكانه في السفينة  
الأوزونية التي أحسّت هي الأخرى أنها تحمل في جوفها إلهاً إذ بدأت تميل تحت ثقله وغاصت قليلاً في  
الماء .

وامتلأت قلوب وفد مدينة أينياس بالفرحة ، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطئ ، وفكّوا حبال  
السفينة المزدانة بالزهور فدفعتها الرياح الرقيقة في طريقها إلى بلادهم ، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً  
عنقه على مؤخرها المقوس يتأمل الأمواج اللازوردية . وعندما أشرقت أورورا ابنة باللاس للمرة السادسة  
٧٠٠ أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطئ لاكنيوم الشهيرة بمعبد جونو ، وبشواطئ سكولاكيوم مخلفة وراءها  
يا بييجيا (٦٠) ، وتحاشى الملاحون بمجاذيفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكثوس عن يمينهم ، ثم  
مضوا بمحاذاة روميثيوس وكولون وناريسيا لا تعوقهم أخطار البحر ، واخترقوا مضيق بيلوورس الصقلي  
حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيبوتيس ، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا وساتين الورد في پايستوم المشمسة . ثم  
لزمّت السفينة الشاطئ بجوار كابيرى وبرزخ منيرفا (٦١) وتلال سورنتوم ذات الكروم الشهيرة ، ثم مدينة  
هرقل (٦٢) وستاباي وبارثينوي (٦٣) التي يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ ، حتى أدركت كوماي

حيث تقيم الكاهنة سيبيلا في معبدها . وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة بايى الدافئة المياه ، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المصطكا ، وتجاوزتها إلى مصب نهر الفولتورنوس الذى تحمل مياهه المدومة قدراً ضخماً من الرمال . ثم أدركت سينويسا التى يحن إليها اليام الأبيض ، ثم مستنقعات ميتورناى الموبوءة ، وكايتا التى دفن فيها البطل أينياس مرضعته ، إلى أن اجتازت ديار أنتفاس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركى ، وأخيراً بلغت شاطئ أنثيوم برماله الراسخة ، وكان البحر عاصفاً فقام الملاحون بربط سفينتهم وأشرعتها مبسوطة .

٧٢

ومدّ الإله جسده وزحف حتى بلغ المعبد المكرس لأبيه بجوار الشاطئ الذهبى . ولما هدأت الأمواج ترك حامى إبيداوروس هيكلى أبيه الذى لقي فيه أجلاً ترحيباً ، وعاد زاحفاً إلى السفينة مخلفاً أخدوداً فى الرمال شقّه جسده بحراشفه الحادة ، وتسلى مؤخرة السفينة واستقر فوقها معتمداً برأسه على حافتها ، وظل كذلك حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لافينيوم العريقة ثم مصب نهر التير . فلما بلغ ذلك الموقع توافد الناس للترحيب به ، وأقبل الرجال والنساء وكاهنات فستا العذارى الطرواديات الساهرات على نيران الهياكل ، وكان الجميع يتصايحون فرحاً تحية للإله . وعلى امتداد الطريق الذى تشقّه السفينة كانت المذابح والهياكل المشيدة على الضفتين تتصاعد منها سحب الدخان المنطلق من البخور يشيع عطره فى الأجواء ، وكانت دماء القرايين تسيل فوق نصال المدى المستخدمة فى نحرها ، ثم ها هى ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة العالم فيتنصب الثعبان مستنداً إلى قمة الصارى يتأمل ما حوله باحثاً عن مقام يليق به .

وفى الموضع الذى يتفرّع عنده نهر التير إلى فرعين يضمن ما يسمى الجزيرة ، وكأنما يمد النهر ذراعيه ليضم الأرض بينهما ، اتجه الثعبان ابن فويوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة حيث ارتدت إليه هيئته الإلهية فإذا هو يقضى على الرءاء ويخلص المدينة منه .

٧٤٠

## تأليه يوليوس قيصر

على أن هذا الإله لم يكن غير غريب نزع إلى بلادنا ، على حين أن قيصر إله مدينة هو منها . ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً ، ولكن لا الحروب التى خاضها وانتهى فيها إلى النصر ، ولا أعماله الضخمة فى روما ، ولا الهيبة التى رزقها فى لمح البصر ، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضىء على صورة كوكب جديد مذنب فى السماء ، بل مردّ هذا كله إلى أرومته التى ينتمى إليها فهى وحدها التى بلغت به هذه المرتبة . فلم يكن من بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الإله (٦٤) . وما فعله قيصر من قهر للبريطانيين فرسان البحر ، وما فعله من بعثه بسفنه الظافرة فى النيل ذى الروافد السبعة والذى تغشى مياهه أوراق البردى ، وما كان من إخضاعه الثوار النوميديين [ الليبيين ] لشعب كويرينوس ، وما كان من انتصاره على الملك « جوبا » سيد الكينييس وبونتوس المزهوة بملوكها المثيريدائيس (٦٥) . ثم ما كان من

٣٣٠

انتصارات لا عدّها وخروج شعبه في مواكب نصر عديدة شارك قيصر في أكثرها<sup>(٦٦)</sup> ، كل هذا لا يبلغ في جلاله أنه كان أباً لهذا الابن العظيم . وحين غدا ابن قيصر وصياً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمته العميمة ، وحتى لا يكون ابنه من بذرة فانية ارتقى هو إلى مصاف الآلهة .

٧٦٠

وإذا فينوس أم أينيّاس الإلهة المزدانة بالذهب تشهد مراسم تأليهه ، غير أنها شهدت قبل تلك المؤامرة التي حيكت ضده ، كما رأت تلك الميتة البشعة التي كانت تترصد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها ، فانتابها فزع شحب له وجهها ، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة : أترون تلك المؤامرات التي تحاك لي ، ثم هذه المؤامرة التي تهدد حياة من بقى لي من أسرة يوليوس سليل داردانوس ؟ ترى هل سألني وحدي تنازعني الهموم ويساورني القلق ؟ أصبح يوماً جريحة برمح ديوميديس بن تايدايوس الكاليدوني ، وإذا أنا يوم آخر أحمل عار سقوط طروادة التي أخفقت في الدفاع عنها ، ثم أرى ابني يميم السنين الطوال على وجهه تتقاده البحار ، وأشهده ينفذ إلى عالم الموت الهامد ثم وهو يصارع تورنوس ، وإذا شئت الحق نقول إنه كان يصارع جونو نفسها ، ولكن لماذا أستهيد اليوم ذكرى المصائب التي نزلت بأسرقى في الماضي ؟ إن الخوف الذي أستشعره اليوم يفوق كل ذكريات الماضي ، ها هي ذى السيوف الغادرة تُشحذ من أجلي ، هلاً رددتموها عني وحلّتم دون وقوع هذا العدوان حتى لا تدعوا نيران معبد قستا تخمد غريقة في دماء الكاهن الأعظم .

٧٨٠ وعبثاً حاولت فينوس أن تشيع شكواها في أرجاء السماء لتستثير شفقة الآلهة ، فقد كانت الآلهة عاجزة عن أن تحول دون نفاذ الإرادة الصلدة للأخوات العنيدات [ربات القدر الثلاثة] ، لكن الآلهة لم تفعل غير أن أرسلت بعض النذر التي تنذر باقتراب الكارثة ، فإذا السحب الداكنة تسمع خلالها قعقة السيوف ، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل السماء بعنف مندرأ بالأساة ، ولم يعد للشمس المكتسبة غير أشعة باهتة ترسلها على الكون القلبي ، وخفقت أذنان المذنبات بين نجوم السماء ، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء ، وخُصِف وجه كوكب النهار وغشّت وجهه صُفرة قائمة ، وتلطّخت مركبة القمر بالدماء ، وتردّد نعيق البومة طير نهر ستيكس المشثوم في أكثر من ألف مكان . وفي أكثر من ألف مكان بكت تمثيل الآلهة العاجية بدموع حقّة<sup>(٦٧)</sup> ، وتردّدت الصرخات وأصوات الوعيد في أرجاء الغابات المقدسة ، ولم تدلّ القرابين المذبوحة على دلائل طيبة بل كانت أحشاؤها تحمل نُذراً باقتراب الكارثة ، فقد بدا رأس الكبد مبتوراً<sup>(٦٨)</sup> ، ودلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية أصبحت وشيكة ، وإذا الروايات أيضاً تنقل أنه قد سُمع عواء كلاب ، كما شوهدت أشباح موت صامنة تجبوس في السوق وبين الدور والمعابد خلال الليل ، وإذا زلزال يهزّ أرض روما . وعلى الرغم من تحذيرات الآلهة فلم تُفلح في القضاء على الخيانة والغدر . وشهّرت السيوف المسلولة من أغمارها داخل المبنى المقدس ، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان يُختار لارتكاب جريمة الاغتيال البشع إلا قاعة مجلس الشيوخ . عندها ضربت فينوس على صدرها بيدها وحاولت إخفاء أينيّاس العظيم في السحابة التي أنفلتت باريس من غضب ابن أترئوس كما حمت أينيّاس من سيف ديوميديس ، غير أن أباه ناداه قائلاً : أو تخالين يا ابنتي أنك في قدرتك وحدك تغيير القدر

٨٠٠

المقدور . توجَّه إلى مقرِّ ربّات القدر الثلاث حيث ترين سجلّات الكون . ستجدين اللوح المصنوع من البرونز والحديد ، ذلك اللوح الخالد الذي لا يتحطم ولا ينحشى رعد السماء ولا غضب البرق ولا أى زلزال عاصف ، وسترين ما قدَّر على ذراريك محفوراً على الصّلب الذي لا يبلى . ولقد طالعت بنفسى ما هو مكتوب ووعته ذاكرت ، وسأعيد على سمعك ما قرأتُ يا فينوس إلهة كثيراً حتى لا تظلين يا ابنتى جاهلة بالمستقبل . لقد انتهى عمر هذا الإنسان الذي تبكين من أجله وأكمل سنيه التى كُتبت له فى لوح القدر أن يحياها ، غير أنه سيصبح بعدُ إلهاً يصعد إلى السماء ، وسوف تُقام طقوس عبادته فى معابد الأرض جمعا . وسيكون هذا على يدك أنت وعلى يدى ابنه الذى سيرث اسمه ويحمل وحده عبء الحكم الذى سيُلقي على عاتقه ، وسيثار فى جرأة لأبيه الذى اغتيل ، وسيجدنا إلى جانبه نشدً أزره فى معارك القتال ، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها طالبة السلام<sup>(٦٩)</sup> ، وستشعر حقول فارساليا بقوة بأسه ، وسيسيل الدم ثانية فى فيليبى ، وسيلقى اسم يومى العظيم الهزيمة فى مياه صقلية ، وستسقط الزوجة المصرية لقائد رومانى مخدوعة فى أملها بالزواج منه ، ويصبح هباء تهديدها بأن تُخضع الكايتولينيوس المقدس لمدينتها كانوبى<sup>(٧٠)</sup> . وما لى أقصّ عليك قصص بلاد البرابرة والأمم التى تعيش على شواطئ المحيطين ، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما تحمل الأرض المعمورة ، ولسوف يذلّ له البحر نفسه . وحينها ينشر السلام على العالم سوف يرعى حقوق المواطنين ويشرّع القوانين التى تكفل العدالة بينهم ويطبّقها بنفسه ، وسيصبح مسلكه مثلاً يحتذى من رفيع الأخلاق ، وسيتمجده بفكره وينفذ بصيرته إلى المستقبل وذرائع شعبه ، فيأمر أن يحمل ابن قريته المَبجَّل اسمَه وأثقال الحكم معاً . ثم إنه فى النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نسطور حاكم بيلوس الكهل سيرقى إلى السماء حيث سيتخذ مكانه بين كواكب أسرته . أما الآن ، فخذى معك هذه الروح التى فاضت عن جسد قيصر الذبيح وأحليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤلّه إلى الأبد من علياء سمائه على الكايتولينيوس المقدس والقورم .

٨٢٠

٨٤٠

وما إن فرغ جوبيتر من حديثه حتى وقفت فينوس الحانية وسط قصر مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر ، ورفعت روح قيصرها الغالى من جسده بعد ما فارقت وقبل أن تتبدّد فى الهواء وحملت وسط نجوم السماء ، فإذا هى تحسّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهمت حقاً ، وإذا هى تنفلت من صدر فينوس محلقة عالياً حتى جاوزت القمر وهى تجرّ وراءها جدائل من أشعة لها شكل كوكب متألّق<sup>(٧١)</sup> .

وحين رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه أذعن إلى أنها تفوق مآثره وسعد بأن يتفوّق ابنه عليه ، وإن كان الابن قد حرّم على الناس أن يُقدّروا أعماله فوق تقديرهم لأعمال أبيه ، غير أن شهرة الإنسان تجرى على السنة الناس طليقة لا تخضع للقيود . ولقد رفعت الشهرة عالياً على الرغم منه ولم تخضع لغير إرادة القدر وحده ، كما تراجع مجد أثريوس أمام مجد أجائمنون العظيم ، وكما برزت شهرة ثيسوس شهرة أبيه إيجيوس ، وكما فاق أخيل أباه بيليوس . ثم يأتى فى ختام الأمثلة الجديدة ببطلينا<sup>(٧٢)</sup> ذكّر ساتورن الذى

تراجع أمام ذكر ابنه جوبيتر حاكم السماوات العلّى وبمالك الكون الثلاث . كذلك خضعت الأرض لسلطان أوغسطس ، وكان كلٌّ من جوبيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيّداً عليها .

٨٦٠

## ابتهال

أيتها الآلهة المقدسة ، يارفاق أينياس ، أنتم يا من تفتح أمامكم السنة اللّهب وصليل السيوف الطريق رحباً لا نهاية له ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [ رومولوس ] ، يا أبّ المدينة الحاني عليها وصاحب الطّول فيها ، وأنت يا جراديفوس [ مارس ] والد كويرينوس الذي لم يُقهر قط ، وأنت يا فُستا يا من تُقام لك الصلوات تسييحاً باسمك الكريم وسط آلهة أسرة قبصر . وأنت يا فوييوس يا من تسكن مع فُستا قصور القياصرة ، وأنت يا جوبيتر يا ساكن قمة تل تارپيوس<sup>(٧٣)</sup> . أيتها الآلهة جميعاً ، يا من يحقّ للشاعر بل يلزمه أن يسبّح بأسمائكم القدسيّة ، ناشدتكُم جميعاً أن ترجئوا إلى ما بعد هذا الجليل ذلك اليوم الذي يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التي تدين لحكمه أنصاع ، يوم يصعد إلى السماء نجماً مضيئاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر إلهاً ، ولو أنهم سيُحرّمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

## خاتم

٨٨٠

ها أنذا قد فرغت من كتابي ، هذا الكتاب الذي تعجز غضبة جوبيتر الجبّار عن أن تمحو أثره ، وتعجز النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تطمس كلماته . ولتضع الأقدار — ما شاءت — خاتمة لحياي ، فهي لا تملك إلّا جسدي ، أما أنبل ما في ذاتي فسينطلق خالداً فوق مسرى النجوم والأفلاك ، وسيبقى اسمي مشرقاً ما بقي الدهر . وأنى ينبسط سلطان الدولة الرومانية ، فلسوف تردّد ألسنة الناس شعري ، وإن صدق حدس الشعراء فلسوف أخلد باقياً على مرّ العصور علماً خفّافاً شهيراً .

# التعقيبات

- (١) اشتهر نوما بومبيليوس من السابينيين بالحكمة والمعرفة ، وقيل إنه تتلمذ على پيثاجوراس وتولى العرش في أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح .
- (٢) مدينة قديمة كان السابينيون قد اختاروها عاصمة لهم .
- (٣) مدينة عند بداية خليج تورنتو وكانت جزءاً من « اليونان الكبرى » افتتح فيها پيثاجوراس مدرسته الشهيرة .
- (٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايطاليا .
- (٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه ، وحلت محل سياريس بعد تدميرها ، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو في جنوب إيطاليا .
- (٦) مدينة قديمة في مقاطعة پروتيوم ، وهو اسم الإقليم الذي يشغل كل جنوب شبه جزيرة ايطاليا ، وقد اشتهرت بمناجم النحاس .
- (٧) هم البابيجيون [ انظر الكتاب الرابع عشر ] .
- (٨) الاسم القديم لجزيرة كيفالونيا ، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة بها .
- (٩) يدعى پيثاجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحى إلهي ، مثله في ذلك مثل الهاتف الإلهي في دلفي الذي يصوتُ بصوت أبولو .
- (١٠) يبدأ پيثاجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأرواح التي اقترنت باسمه عبر التاريخ .
- (١١) كان أباس الملك الثاني عشر لدولة أرجوس . وروى أن معبد جونو [ هيرا ] في أرجوس الذي كان يحوى تمثالاً للإلهة من صنع بوليكليتوس كان يضم ترس البطل الطروادي يوفوربوس الذي قتله نيلولوس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الماملة .
- (١٢) كان ميلون بطلاً شهيراً في حلبة ألعاب القوى بمدينة كروتونا عاش في أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفي الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية ، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيثاجوراس الذي يتحدث بنفسه في هذا النص .
- (١٣) اختطف نيسيوس هيلينا وهي بعد فتاة بينما كانت تقدم القرابين لأرغميس وذهب بها إلى أثينا ، ثم اختطفها باريس بعد زواجها من نيلولوس وهرب بها إلى طروادة .
- (١٤) نهر في فريجيا يمتد في غار ثم يظهر من جديد ليرغمي في نهر مياندر .
- (١٥) نهر في أركاديا يصب في خليج كورنث .
- (١٦) نهر في آسيا الصغرى .

- (١٧) نهر في صقلية بجوار مدينة قطانيا .
- (١٨) نهر في اليونان .
- (١٩) نهر في صارماتيا جنوب روسيا يصب في البحر الأسود واسمه الآن نهر البوج .
- (٢٠) مدينة صغيرة على الشاطئ الغربي لجزيرة ليزيوس .
- (٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينها لسان ضيق من اليابسة ، اشتهرت بمنارتها (رأس الثين حالياً) .
- (٢٢) إحدى الجزر الأيونية .
- (٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية .
- (٢٤) دُمرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م .
- (٢٥) كانت توأم هيليكيه ودمّرت معها .
- (٢٦) لعل أوفيد كان يقصد برزخ ميثوني أو ميثانا ، ويقع إلى الشمال من المنطقة التي يشير إليها .
- (٢٧) ذكرى هيرودوتوس ينبوع آمون في «تاريخه» وما يزال معروفاً في الصحراء السودانية ، ويبدو أن حرارته قد تصل أحياناً إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحياناً أخرى إلى درجة الصفر .
- (٢٨) شعب كان يقطن إبيروس على الحدود الألبانية .
- (٢٩) اشتهر هذان النهران بغزارة طميهما فكان من يستحم فيهما من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُغشًى بالطين البني .
- (٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تجري أحداث قصة هيرومافروديتوس وسالماكيس . أما البحيرات الأثيونية فلا نعرف ما يقصده أوفيد منها .
- (٣١) مدينة أركاديا .
- (٣٢) منطقة جبلية في مقدونيا .
- (٣٣) اسم للمدينة في شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها .
- (٣٤) هي جزيرة ديلوس الآن ، وكانت في الماضي تتأرجح فوق المياه ، اختارتها ليتروماوى تلد فيه بعد أن طاردها جونو في جميع أنحاء الأرض ، ولم تثبت الجزيرة إلا بعد وضعها لأبوللو وأرتميس .
- (٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود .
- (٣٦) يعالج سنিকা في كتابه السادس «عن أمور الطبيعة» سر الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا .
- (٣٧) شعب خرافي كان يسكن منطقة في أقصى شمال العالم المعروف .
- (٣٨) خلط أوفيد هنا بين تريتون الموجودة في طراقيا وباليق الموجودة في خالكيديكس .
- (٣٩) يبدأ پيثاجوراس في سرد بعض الحرافات الشعبية السائدة .
- (٤٠) ذهب هيرودوتوس إلى أن معبد هيريون هو معبد الشمس في هليوبوليس بمصر ، بينما ذهب بلينيوس إلى أنه موجود في جزيرة خرافية اسمها پانشايا في بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وبويوتيا .
- (٤١) كان ثمة اعتقاد شعبي بأن الضبع يبذل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطئ .
- (٤٢) هو الحرياء التي قال عنها «بلينيوس» إنها تتلون بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض .
- (٤٣) من فصيلة السنائير وهو أصغر حجماً من النمر .
- (٤٤) ثمة حجر كريم يسمى «بول الوشق» يقابل حجر التورمالين لدينا .
- (٤٥) أحد ملوك أثينا في قديم الزمان .
- (٤٦) سبق أن ذكر پيثاجوراس أنه عاش حياة سالقة في طروادة ، إذ كانت روحه تنقمص جسد البطل الطروادى يوفوريوس المعاصر لأينياس .
- (٤٧) كان أترپوس بن پيلوبس عدواً لأخيه ثايستيس ، وقد تظاهر بالصلح معه ودعاه إلى وليمة يح فيها أبناء أخيه وقدم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدري .

- (٤٨) إحدى طرق صيد الوعول ، وتقوم على وضع حبل في طريقها مزدان بالأهر الذي يصيها بالفزع فتتحرف نحو الشراك التي تنتظرها .
- (٤٩) الكامينات كن حوريات ماء ، أشهرهن إيجيريا التي كانت مُلهمة نوما كما أسلفنا ثم تزوجها حسبما يقرر أوفيد في هذا النص . وكن يتكهن بالمستقبل كربات الفن « الموساي » ، وكان هن معبد عند أحد أبواب روما ، هو الباب الكاميني في طريق آيبا جنوبي المدينة .
- (٥٠) كان وادي أريسيا عند سفح جبال ألبانوس بإيطاليا غير بعيد من بحيرة نيمي وعلى مقربة من معبد ديانا الأريسينية الذي كان يتولى كاهنه منصبه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذي كان أوريستيس قد اختطف منه صنم « الإكسوانون » بصحبة إيفيجينيا كاهنة المعبد . وكان سكان أريسيا يدعون حيوة هذا الصنم الذي حمله إليهم أوريستيس ، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعبد أرميس في هالاي باتيكا [ وذلك بالنسبة لأهل أثينا ] بينما يدهى أهل أسبرطة أنه في معبد أرميس أورثيا في أسبرطة نفسها .
- (٥١) نهر من اللهب في الجحيم .
- (٥٢) اسم جنى غابة قرب بحيرة نيمي ، وكانت هذه الغابة محرمة على الجياد ، وقد أصبحت عبادة فيريوس مقترنة بعبادة ديانا الأريسينية ، وكان فيريوس أول كاهن لها في معبدها .
- (٥٣) أي فلاح إتروريا .
- (٥٤) كانت القرون في الماضي رمزا للقوة .
- (٥٥) هي رمز الانتصار وبالتالي السلام الذي يجيء في إثر الانتصار .
- (٥٦) إسكليبيوس بن أبوللو من الحورية كورنيس ، وقد بدأت الطقوس تقام له في ثيساليا ، ثم أخذت تنتشر حتى عمت أنحاء اليونان ، وتمركزت في إبيداوروس ، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق.م. بعد الطاعون الذي اجتاحتها عام ٢٩٣ ق.م.
- (٥٧) كانت الآلهة تبدو في التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .
- (٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ — ٣٧٥ ق.م. وكان على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، وقد اكتشفت في أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .
- (٥٩) قام بنحته المثال تراسيميلس الفاروسي .
- (٦٠) اسم قديم للوكانيا .
- (٦١) يرزخ كامبانللا حالياً .
- (٦٢) هرقولانيوم .
- (٦٣) الاسم القديم لنابل .
- (٦٤) يضع أوفيد أوكتافيوس وهو ابن قيصر بالتبني في مصاف أبنائه الحقيقيين ، ويتحدث عنه بهذه الصفة .
- (٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة في آسيا الصغرى والمطلية على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .
- (٦٦) يشير أوفيد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق.م. وحرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م. وهزيمة جوبا ملك نيميدا ، وإلى انتصاره على فارناكيوس بن مثريدات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق.م. ويلاحظ أن قيصر لم يشارك في غير موكبين من مواكب نصره ، أولهما عام ٤٦ ق.م. بعد انتصاره في بلاد الغال ومصر وپونتوس وثانيهما عام ٤٥ ق.م. بعد انتصاره في أيبيريا .
- (٦٧) كان العلاج يستخدم في صنع تماثيل الآلهة أو بعض أجزائها ، وكانت التماثيل العاجية تدهن بالزيت فترسل بريقاً يوحى أنها تلمع .
- (٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء اللبائح ويهتمون بالقلب والرئتين والمعدة والطحال والكليتين ، وكانوا يسمون أعلى الكبد رأسه ويعلمون فصله عن بقية الكبد نذير سوء .
- (٦٩) انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس في مودينا عام ٤٣ ق.م. ، وكان أنطونيوس هو الذي حاصر المدينة التي كان على رأسها ديكيموس بروتوس محافظ المقاطعات الرومانية جنوبي الألب ، ويبدو أن أوفيد قد خلط هنا بين المحاصر والمحاصر .

(٧٠) كانت كليوباترة هي ملكة مصر التي تزوجت أنطونيوس ، وتقع كانوبى شرقى الإسكندرية ، وكانت مركزاً دينياً بينا كان معبد الكايتولينيوس أقدس معابد روما ، وبهذا يريد أوفيد اتهام كليوباترة بمحاولة إحلال آلهة المصريين محل آلهة الرومان .

(٧١) يروى سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التي أقامها أوكتافيوس تكريماً لقبصر المؤله ، كان الكوكب المذنب يتألق في السماء طوال ليالٍ سبع ، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر قد تحول إلى كوكب هو المعروف باسم فينوس .

(٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس .

(٧٣) الجزء الشرقى من تل الكايتولينيوس وكان يضم القلعة التي سميت باسمه ، بينما يضم الجزء الغربى معبد جوبيتر ، وكان يسمى قبلاً بجبل تاريوس ، وقد انحصر اسم تاريوس بعد ذلك في صخرة بالطرف الجنوبي الغربى من التل كانت تستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام بقذف المحكوم عليهم من فوقها .



## ثبت التراجم

**THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES. PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.**

**OVID: THE METAMORPHOSES. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND)**

**OVIDE: LES METAMORPHOSES. TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.**

**OVIDE: LES METAMORPHOSES. TEXTE ETABLI ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.**

## ثبت المعاجم

**CARY, M., DENNISTON, J.D., WIGHT DUFF, J, NOCK, A. D, ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J, HARVEY, H. P. AND SOUTER, A, THE OXFORD CLASSICAL DICTIONARY. OXFORD, 1949**

**ERNOUT, A. ET MEILLET, A. DICTIONNAIRE ETYMOLOGIQUE DE LA LANGUE LATINE. 3 EME EDITION. PARIS, 1951.**

- HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.: *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY*. F.S. CROTS. NEW YORK 1987.
- LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS*. ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963
- LEWIS, CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY*. LONDON 1879.
- STIMPSON, D.P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* 2nd EDITION. LONDON 1962.

## ثبت المراجع

- BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS*. (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936)
- BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE*. 1933.
- CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART*. LONDON 1949.
- FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS*. BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.
- HAGSTRUM, JANH.: *THE SISTER ARTS*. CHICAGO 1958.
- LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS*. (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEQUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.
- LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.
- MORNAND, PIERRE & THOME, J.R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE*. LE COURRIER GRAPHIQUE, ALBERT CYMBOLISTE, EDETEUR, PARIS.
- MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES*. LONDON, 1291.
- PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN MAINLY ICONOGRAPHIC*. PHAIDON, OXFORD, 1970.
- RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE*. BOSTON 1925.
- RIPERT. EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL*. PARIS 1921.
- WILKINSON, L.P.: *OVID RECALLED*. CAMBRIDGE, 1955.

# الملحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية  
المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد(\*)

## التصوير

- آدم إلزهايمر : « الطوفان » . متحف ستيدل بفرانكفورت .  
 آنجر : « تأليه هوميروس » . متحف اللوفر .  
 أحد أتباع بيزيلينو : « صيد الخنزير البري في كاليدونيا » . متحف متروبوليتان بنيويورك .  
 أحد أتباع فرا أنجيليكو : « باريس يحتطف هيلينا » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 إدوارد بيرن جونز : « بجاليون » . متحف برمنجهام .  
 إجرتشينو : « أبولو يسلخ مارسيا » . جاليري بيتي بفلورنسا .  
 إجرتشينو : « أورورا » . قصر لودوفيزي روما .  
 إجرتشينو : « كيركي » . متحف اللوفر بباريس .  
 أنطون فان دايك : « جوبيتر وأنتيبي » . متحف ميونخ .  
 أنطون فان دايك : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تورنتو بكندا .  
 أنطون فان دايك : « سيلينوس ثملا » . متحف درسدن .  
 أنطون فان دايك : « كيبيد وپسيخه » . هامبتون كورت بانجلترا .  
 أنطون فان دايك : « فينوس إلى جوار كور فولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 أنطون فان دايك : « فينوس وفولكانوس » . متحف اللوفر .  
 أنطونيو بولايولو : « أبولو ودافني » . الناشونال جاليري بلندن .  
 أنطونيو بولايولو : « خطف ديانرا » . متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهافن .  
 أنطونيو بولايولو : « هرقل والهيدرا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .  
 أنطونيو فانتوزي : « كيركي وملاحو أوديسيوس » . مدرسة فونتنبلو .  
 أوجين ديلاكروا : « ميديا وأطفالها » . متحف اللوفر بباريس .  
 بارثولوميو سهرانجر : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .

(\*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الإغريق بين الأسطورة والإبداع » لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية ١٩٩١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- بارثولومئوس سهرانجر : « منيرفا » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 بارثولومئوس سهرانجر : « هيرما فروديتوس وسالما كيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 بارثولومئوس سهرانجر : « أوديسيوس وكيركي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 باروتشي : « اينياس يفر من طرواده مع زوجته وابنه حاملاً أباه » . متحف فيلا بورجيزي بروما .  
 باسانو : « هرقل وأومفالوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 پرودون : « اختطاف پسيخيه » . متحف اللوفر .  
 برويكل : « اينياس في العالم السفلي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 برويكل : « سقوط إيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 برويكل : « سيريس توزع الخيرات » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 بلانشار : « حفل باكخومي » . متحف نانسي .  
 بنفوتو تشليلي : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف البارجلو بفلورنسا .  
 بوتيتشيلي : « أثينا [ منيرفا ] والقنطور » . متحف أوفتزي بفلورنسا .  
 بوتيتشيلي : « مولد فينوس » . متحف أوفتزي بفلورنسا .  
 بوشيه : « حوريتان وجان الغاب [ الساتير ] » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 بوشيه : « داناي » . متحف كونياك .  
 بوشيه : « ديانا تأخذ زينتها » .  
 بوشيه : « زيوس وأنتيوي » . متحف پوشكين بموسكو .  
 بوشيه : « ليدا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .  
 بيرو دي كوزيمو : « إنقاذ أندروميذا » . متحف الأوفتزي بفلورنسا .  
 بيرو دي كوزيمو : « مصرع پروكريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 بيرو ده كوزيمو : « المعركة بين اللايث والقنطوري » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 پير نارسيس جيزان : « تقديم القربان لإسكليبيوس » . متحف اللوفر بباريس .  
 تسيانو : « اختطاف أوروبا » . متحف جاردنر بيوسطن .  
 تسيانو : « باكخوس وأريادني » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 تسيانو : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 تسيانو : « تانتالوس » . المتحف البريطاني .  
 تسيانو : « چوبيتر وأنتيوي » . متحف اللوفر .  
 تسيانو : « داناي » . متحف الهراو بمدريد .  
 تسيانو : « ديانا وأكتايون » . متحف برنچوتر هاوس بلندن .  
 تسيانو : « ديانا وكالستو » . متحف برنچوتر هاوس بلندن .  
 تسيانو : « سيزيفوس يحمل الحجر » . متحف الهراو بمدريد .  
 تسيانو : « فينوس وأدونيس » . المتحف القومي للفنون بواشنطن .  
 تسيانو : « فينوس تتوسل إلى أدونيس كي لا يخرج إلى الصيد » . متحف الهراو بمدريد .  
 تسيانو : « فينوس على أجنحة النغم » . متحف الهراو بمدريد .  
 تسيانو : « فينوس في استرخاء حالم » . متحف أوفتزي بفلورنسا .  
 تسيانو : « فينوس وكيوبيد » . متحف فيلا بورجيزي بروما .  
 تسيانو : « كالستو » . متحف جلاسجو .  
 تسيانو : « مصرع أكتايون » . متحف جلاسجو .

تسيانو: «النسر ينهش كبد تيتوس». متحف اليرادو بمدريد.  
تتوريو: «أريادن وياكخوس». قصر الدوج بالبندقية.  
تتوريو: «باكخوس وأريادن». قصر الدوج بالبندقية.  
تتوريو: «پيرسيوس وأندروميديا». متحف الإرميتاج بـلنجراد.  
تتوريو: «چونو وهرقل». كويام هول بانجلترا.  
تتوريو: «ربات الفنون في الأوليمپ». هامپتون كورت بانجلترا.  
تتوريو: «كور فولكانوس». قصر الدوج بالبندقية.  
تتوريو: «كيويد وفينوس وفولكانوس». متحف بيتي بفلورنسا.  
تيرنر: «پوليفيموس يهزأ بسفينة أوديسيوس». متحف الناشونال جاليري بلندن.  
تيرنر: «ديدو تشيد قرطاج». الناشونال جاليري بلندن.  
تيرنر: «ديدو وأينياس». الناشونال جاليري بلندن.  
تسپولو: «أبوللو ودافني». متحف اللوفر بپاريس.  
تسپولو: «تشيد حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن.  
تسپولو: «داناي». متحف ستوكهولم.  
تسپولو: «سحب حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن.  
تسپولو: «فينوس والزمن». متحف الناشونال جاليري بلندن.  
چان راو: «پيجماليون وجالاطيا وفينوس». متحف اللوفر بپاريس.  
چان ريسو: «هيرا [چونو] تزور أوقيانوس وثيتيس». متحف پوشكين بموسكو.  
جانستر: «فينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بفيينا.  
جوتزولي: «اختطاف هيلينا». الناشونال جاليري بلندن.  
چورچ فردريك واطسن: «أورفيوس ويورديكي». متحف تيت جاليري بلندن.  
چوردانو: «أريادن». متحف درسدن.  
جوستاف مورو: «پاسيفاي والثور». متحف مانوا.  
چوليو رومانو: «پوليفيموس». متحف مانوا.  
چوليو رومانو: «چونو وهرقل». بريدج ووتر هاوس بلندن.  
چوليو رومانو: «رقصة أبوللو مع ربات الفن». متحف بيتي بفلورنسا.  
چوليو رومانو: «طفولة چويتر». الناشونال جاليري بلندن.  
چوليو رومانو: «فينوس وفولكانوس». متحف اللوفر.  
جيدوريني: «أبوللو يسلخ جلد مارسيا». متحف ميونخ.  
جيدوريني: «اختطاف هيلينا». متحف اللوفر.  
جيدوريني: «أورورا». قصر روسبيليوزي بروما.  
جيدوريني: «باكخوس معتلا». متحف فيلا بورجيزي بروما.  
جيدوريني: «هرقل وأخيلوس». متحف اللوفر بپاريس.  
جيدوريني: «هرقل والهيدرا». متحف اللوفر بپاريس.  
جيران: «أورورا وكيفالوس». متحف اللوفر.  
جيران: «تقديم القران لاسكليپوس». متحف اللوفر.  
دافيد: «پاريس وهيلينا». متحف اللوفر.  
داني جابرييل روسي: «پروسپرينا». متحف ليڤربول.

- دريور : « الحوريات ينعين إيكاروس » . تيت جاليري بلندن .  
 دورر : « هرقل والطير السيمفالية » . متحف تاريخ الفنون بقيينا .  
 دومينيكيتو : « ديانا وأكتايون » . قصر بيتي بفلورنسا .  
 ديلاكروا : « القنطور خيرون يعلم أخيل تصويب السهام » . مجموعة خاصة .  
 ديلاكروا : « هرقل يحمل الخنزير البري » . متحف كارنافاليه .  
 دوستو دوسى : « كيركى وعشاقها » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .  
 ديبه : « بيجاليون وجالاطيا » . متحف تور بفرنسا .  
 رافائيل : « أبوللو ومارسياس » . متحف اللوفر باريس .  
 رافائيل : « جالاطيا » . قصر فارنيزينا بروما .  
 رافائيل : « حفل الألهة فى الهارناسوس » . متحف الفاتيكان .  
 رافائيل : « كيبيد وپسيخيه » . قصر فارنيزينا بروما .  
 رمبرانت : « اختطاف پروسيريينا » . متحف برلين .  
 روبنز : « آچاكس وكاساندر » . متحف ليختنشتاين بقيينا .  
 روبنز : « اختطاف پروسيريينا » . قصر بلنهم وودستك بانجلترا .  
 روبنز : « أتالانتا وملياجر » . متحف اليرادو بمدريد .  
 روبنز : « أورفيوس ويورديكى » . متحف اليرادو بمدريد .  
 روبنز : « أينياس وديدو » . متحف ستيدل بفرانكفورت .  
 روبنز : « پيرسيوس وأندروميديدا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .  
 روبنز : « پيرسيوس وأندروميديدا » . قصر بلنهم .  
 روبنز : « تحكيم باريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 روبنز : « جونو وهرقل » . متحف اليرادو بمدريد .  
 روبنز : « ديانا » . متحف درسدن .  
 روبنز : « زيوس يختطف جانيميديس » . متحف تاريخ الفنون بقيينا .  
 روبنز : « سيلينوس فى حفل باكخوسى » . متحف أوفيتري بفلورنسا .  
 روبنز : « عيد فينوس » . متحف تاريخ الفنون بقيينا .  
 روبنز : « فايثون وأمفيتري » . متحف برلين .  
 روبنز : « فينوس وأدونيس » . متحف الإرميتاج .  
 روبنز : « منيرفا تحمى السلام من مارس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 روبنز : « مولد فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 روبنز : « هاديس [ پلوتو ] يختطف پروسيريينا [ پيرسيغوني ] » . متحف لويى پاليه بباريس .  
 روبنز : « هزيمة المردة » . متحف بروكسل .  
 رينيو : « تحكيم باريس » .  
 ريتولنز : « موت ديدو » . قصر باكنجهام بلندن .  
 سباستيان بوردون : « انتحار ديدو » . متحف بيزيه .  
 سيزان : « ليدا وطائر البجع » . مجموعة بيليران بباريس .  
 سكيافوني : « أسطورة ميداس » . أكاديمية الفنون الجميلة بالبندقية .  
 شارل ده لافوس : « باكخوس وأرديان » . متحف ديچون .  
 شازيران : « پوزيدون [ نپتون ] » . متحف بيزانسون .  
 فالتو : « زيوس وأنتيپوى » . متحف اللوفر .

- فان هيمز كرك : « فينوس ومارس وفولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 فرانسوا لوموان : « نارسيسوس » . متحف هامبورج .  
 فركبوز : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 فرنشسكو ألباني : « أبولو ودافني » . متحف اللوفر بباريس .  
 فرنشسكو ألباني : « أوروبا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .  
 فرنشسكو ألباني : « فوز جالاتيا » . متحف درسدن .  
 فرنشسكو جويبا : « كرونوس يلتهم أبنائه » . متحف الهراو بمدريد .  
 فرانكسكو : « كيبيد يعد قوسه ويشحد سهمه » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 فرنشسكو ميلزي : « فيرتونوس ويومونا » . متحف برلين .  
 فلاكسان : « أوديسوس يفتأ عين بوليفيموس » .  
 فنان مجهول : « رأس ميدوسا بعد جزّ عنقها » . فيلا لودوفيزي بروما .  
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . قصر الدوج بالبندقية .  
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . متحف الكابيتولينوس .  
 فيرونيزي : « بيرسيوس وأندروميديا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .  
 فيرونيزي : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 فيرونيزي : « فينوس وفولكانوس » . متحف فيلا بورجيزي .  
 فيرونيزي : « فينوس ومارس » . متحف المتروبوليتان بنيويورك .  
 فيرونيزي : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 فيلاسكيز : « باكخوس » . متحف الهراو بمدريد .  
 فيلاسكيز : « فينوس في المرأة » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 فيلاسكيز : « كور فولكانوس » . متحف الهراو بمدريد .  
 فيلاسكيز : « ميركوريوس وأرجوس » . متحف الهراو بمدريد .  
 فيورنتينو روسو : « ربات الفنون أو الپيريديس » . متحف اللوفر بباريس .  
 كاراتشي : « بوليفيموس وأكيس وجالاتيا » . قصر فارنيزي بروما .  
 كاراتشي : « بيرسيوس وأندروميديا » . قصر فارنيزي بروما .  
 كاراتشي : « چويتير وچونو » . قصر فارنيزي بروما .  
 كارافاجيو : « پسيخيه في الأوليمپ » . متحف اللوفر .  
 كارافاجيو : « رأس ميدوسا » . متحف أوفيتزي بفلورنسا .  
 كراناخ : « فينوس » . متحف فيلا بورجيزي بروما .  
 كراناخ : « فينوس وكيبيد » . متحف ستيدل بفرانكفورت .  
 كراناخ : « فينوس وكيبيد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 كراناخ : « نهاية العصر الفضي وبداية العصر البرونزي » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
 كرسبي : « القنطور خيرون يعلم البطل أخيل الصيد » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 كوريچيو : « جانيميديس والنسر » . متحف درسدن .  
 كوريچيو : « چويتير وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 كوريچيو : « داناي » . متحف فيلا بورجيزي بروما .  
 كوريچيو : « زيوس وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 كوريچيو : « ميركوريوس يملى تعليقاته على كيبيد بحضور فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .

كلودلوران : « أبوللو ومارسياس » . متحف الارميتاج بلينتجراد .  
كلودلوران : « أوروبا » . متحف قصر باكنجهام بلندن .  
كلودلوران : « نارسيسوس وإكو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
كلويه : « ديانا الصيابة » . متحف روان .  
كياري : « أبوللو ودافني » . جاليريا سيادا بروما .  
لاستان : « هيرا تكتشف علاقة زيوس بإيو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
لوقا چوردانو : « أريادني » . متحف درسدن .  
لوقا چوردانو : « پيرسيوس وفينوس » . متحف درسدن .  
لوكاس : « أكيس وجالاطيا وپوليفيموس » . قصر تريانون بفرساي .  
لوكليرك ده جوبلان : « اختطاف أوروبا » . متحف دنكرک .  
لوموان : « اختطاف أوروبا » . متحف پوشكين بموسكو .  
لوموان : « هرقل وأومفالوس » . متحف اللوفر .  
لوي ده بولوني : « چوپتر وسيميليه » . متحف لومان .  
ليوناردو دافنشي : « ليذا وطائر البجع » . متحف فيلا بورجيزي بروما .  
ماتوار : « زيوس وإيو » .  
ماتوار : « هيبى تصبب الخمر في كأس أبيها چوپتر » . متحف تروا .  
مدرسة پيزيلينو : « چاسون وملاحو الأرجو » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .  
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يضع النير على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلحين » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .  
مدرسة پيزيلينو : « چاسون يغادر الملك أيبتييس لتنفيذ ما كلفه به » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .  
مدرسة پيزيلينو : « عصر الحديد » . مكتبة پيرپونت مورجان .  
المدرسة الفرنسية : « مصرع أدونيس » . متحف بلوا .  
مدرسة فونتنبلو : « هام ديانا » . متحف اللوفر .  
مصانع بروكسل للنسجيات المرسمة : « فيرتوموس وهومونا » . متحف بروكسل .  
نيكولا پوسان : « أبوللو ودافني » . متحف ميونخ .  
نيكولا پوسان : « إكو ونارسيسوس » . متحف اللوفر بپاریس .  
نيكولا پوسان : « أورفيوس ويوريديكى » . متحف اللوفر بپاریس .  
نيكولا پوسان : « حفل باكخوسى أمام تمثال لپان » : متحف الناشونال جاليري بلندن .  
نيكولا پوسان : « سيريس إلهة الحصاد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .  
نيكولا پوسان : « أينياس عند ديدو » . متحف بيزانسون .

## النت

أندريا پيزانو : « دايدالوس » . متحف الكامپانيل [ برج الأجراس ] بفلورنسا .  
أنطوان لوى بارى : « القنطور واللايٹ » . متحف اللوفر بپاریس .  
أنطونيو كانوفا : « آچاكس » . متحف الفاتيكان بروما .  
أنطونيو كانوفا : « پسيخيه تسترد الحياة إثر قبلة كيوييد » . متحف اللوفر .  
أنطونيو كانوفا : « ثيسوس » . حدائق الفولكسجارتن بفيينا .  
أنطونيو كانوفا : « ثيسوس يصرع القنطور » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .

أنطونيو كانوفا : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .  
 أنطونيو كانوفا : « هرقل وليتشاس » . المتحف القومى بروما .  
 أوترىكولى : « جويتر » . متحف الفاتيكان .  
 برتل ثورفالدين : « أدونيس » . متحف ميونخ .  
 برتل ثورفالدين : « باكخوس وأريادن » . متحف كوينهاجن .  
 برتل ثورفالدين : « جانيميدس » . متحف ثورفالدين بكوينهاجن .  
 برتل ثورفالدين : « فولكانوس يعدّ سهام كيبيد » متحف ثورفالدين بكوينهاجن .  
 برتل ثورفالدين : « مارس وكيبيد » . متحف ثورفالدين بكوينهاجن .  
 برتل ثورفالدين : « منيرفا وپروميثيوس » . نقش بارز .  
 پوجيه : « هرقل يصرع الهيدرا » . متحف روان .  
 چان ده بولونى : « هرقل يحمل الكون » .  
 چان ده بولونى : « هرقل يقتل القنطور نيسوس » . متحف چاكمار أندريه پباريس .  
 چيمس پراديه : « ربات الحسن الثلاث » . متحف اللوفر .  
 چيمس پراديه : « مصرع أولاد نيوى » . متحف اللوفر .  
 جيوم كوستون : « بان يعلم أبوللو العزف على المزمار » .  
 ديويو : « ليدا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .  
 رود : « الإله ميركوريوس [ هرمس ] » . متحف اللوفر .  
 رينزو برنىنى : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .  
 رينزو برنىنى : « پلوتو وپروسيپينا » . فيلا بورجيزى بروما .  
 رينزو برنىنى : « نافورة تريتون » بروما .  
 سانسوفينو : « باكخوس » . متحف بارچيللو بفلورنسا .  
 سلوطز : « سقوط إيكاروس » . متحف اللوفر .  
 فرانش فيل : « أورفيوس » . متحف اللوفر .  
 فنان مجهول : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .  
 فنان مجهول : « أولاد نيوى » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .  
 فنان مجهول : « نيوى وطفلها » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .  
 كلوديون : « موكب عابدات باكخوس » . متحف اللوفر .  
 ميكلائنجلو : « أدونيس يحتضر » . متحف بارچيللو بفلورنسا .  
 ميكلائنجلو : « باكخوس ثملا » . متحف بارچيللو بفلورنسا .  
 نيقولا سباستيان آدم : « پروميثيوس مغلولاً والنسر ينهش كبده » . متحف اللوفر .

## هذا الكتاب

أحد الشوامخ القليلة .. ولسوف يبقى في ذاكرة الأجيال القادمة ولأمد طويل ، فترجمة الميتمور فوز لأوفيد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاماً خطيراً في لغة سائغة دفاقة الحيوية .. هي بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع ونافع معا ، وهو من أجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض (الأهرام ١١/٢٤/١٩٧٢)

لأبد لكل قارئ مثقف أن يمر بعينيه أياماً على واحد من هذه الأعمال الكبرى لأنه سوف يجد صداها في كل الآداب العالمية القديمة والحديثة . ولابد أن د . ثروت عكاشة يجد لذته في أن يتحدث الأعمال الأدبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون إقباله على الأعمال الأدبية البعيدة عن تناول المثقفين . هذه موسوعة العذاب الإغريقي أحكمت ترجمتها وصياغتها وقدمت بكل إخلاص إلى المكتبة العربية

أنيس منصور (الأخبار ١٠/٧/١٩٧٢)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذي يعتبر من شوامخ الأدب القديم الفين من الأعوام دون أن تقدم الأقلام العربية على ترجمته إلى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الأنيق نيملاً هذا الفراغ . لقد أقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حباً وعشقاً لمادته وإيماناً بأهميته للاكتمال والوضوح الثقافي ، مضيفاً إلى معطاته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد

حسين بيكار (أخبار اليوم ١٦/١٢/١٩٧٢)

إن بلادنا بحاجة إلى مزيد من الأصول الكبرى للذكر والفن ، وهي بحاجة إلى المؤسسات الثقافية الكبرى ، وينبغي أن نستقبل الأعمال الكبيرة مثل «مسح الكائنات» بالحب والتقدير . ومرحباً بأوفيد إمام العاشقين في المكتبة العربية مترجماً مثل هذه الترجمة الأمينة الجميلة . إن مثل هذا العمل الكبير الذي يقدمه إلينا الدكتور ثروت عكاشة يحمي معه دليلاً جديداً على ما يملكه من طموح ثقافي بالغ السمو في محاولة خلق اتصال كهربائي بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تتوهج ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار انتخاف الفكر . هو أحد الكتب الأساسية في الأدب العالمي ، ومن الخطأ والتقصير أن تخلو المكتبة العربية من هذا الأثر الفني والفكري الهام

رجاء النقاش (المصور ١/٢٦/١٩٧٣)

لأبد أن يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده أيضاً على هذا الإنتاج المتلاحق الفياض . وترجمة أوفيد بهذه الأمانة والعناية والعذوبة نموذج للترجمة التي ليست ثقلاً ولكن خلقاً

محمد عوده (الجمهورية ٩/١٢/١٩٧٢)